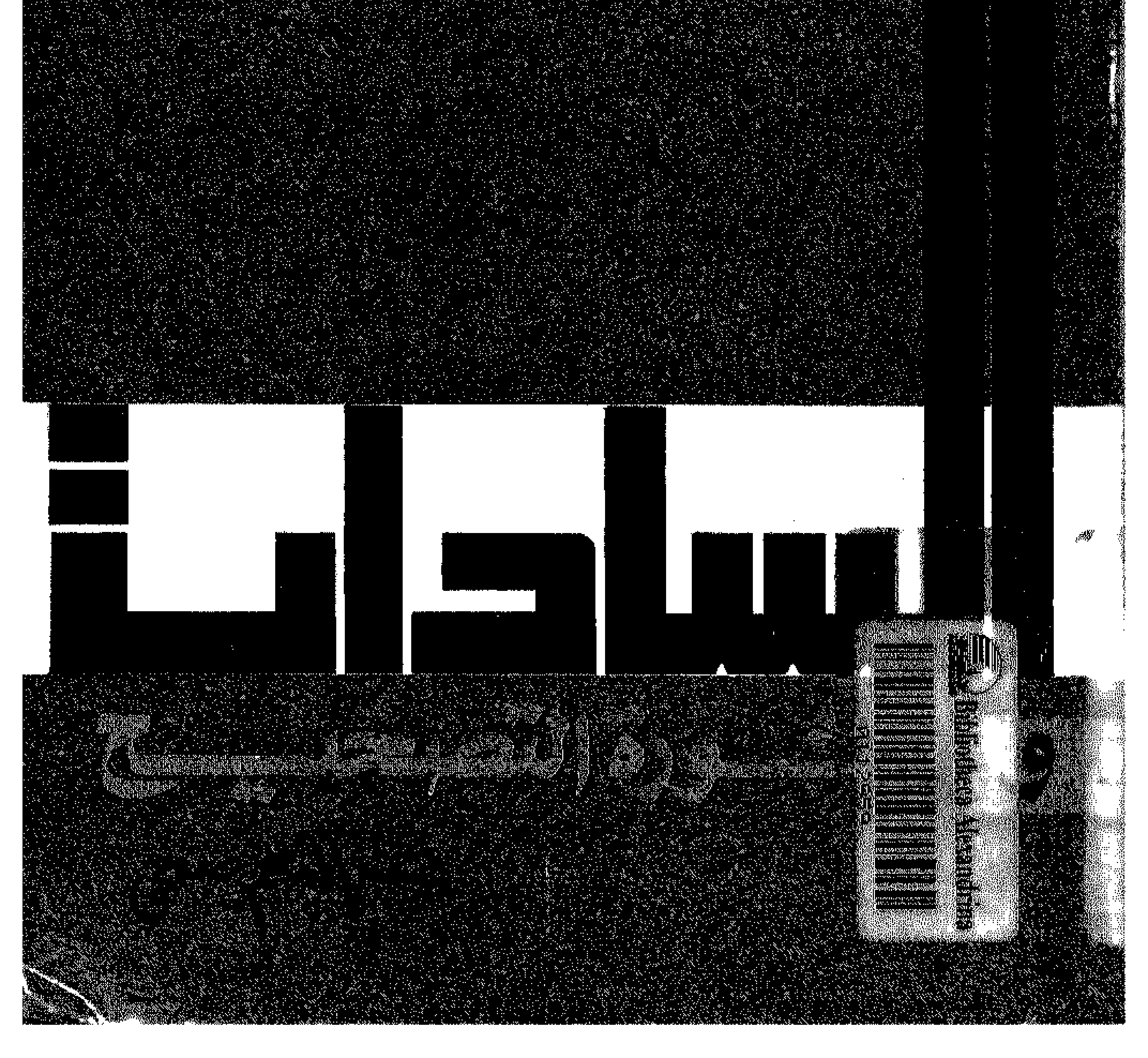

السادات
وثورة التصحيح

السَّادات

وثـورة التصحيـح

عبد المنعم صبحي

● تصميم الغلاف : الفنان مكرم شحاتة

● الاعداد الفنى : امـــين بشـــير
محمد ناجح صديق
عبد السلام أبو العلا

الاهـــــداء

الى الذين ناضلوا من اجل مصر ...

الى الذين دفعوا دماءهم ثمنا لهذه الأرض ...

الى الشباب الدائم ...

الى الأجيال القادمة ...

الى صناع المسيرة التى اعادت الى مصر روحها العظيمة ...

الى صناع ١٥ مايو ٧١ ، وصناع ملحمة اكتوبر ١٩٧٣ ...

الى الأبطال الذين يحملون اقدارهم ومصائرهم على أكفهم من أجل مصر ..

الى الذين أعادو البسمة رائقة على شفتى مصر ...

والى الذين اعادوا الأمل الى قلب هذا الوطن ...

الى مصر أكتوبر : الى مصر الغد ..

الى مصر ، بلا احقاد ، وزجاج ازرق ، ونفوس مريضة ...

الى كل الشرفاء على ارض بلادنا ...

الى كل الذين حولوا حنظل ومرارة الهزيمة الى انتصار وأمل وتقدم ...

الى روح مصر العظيمة ، التى قاست ، وعانت ، وتألمت ، وبكت الجرح والدم ، لكنها ، أبدا لم تستسلم .. بل عادت من جديد ، بانفاسها المطارة ، بقلبها العظيم ، لتلهم ابناءها اجمل اللحظات والأيام التى لم نعشها بعد ...

الى فارس الأمل ، الذى أنجبته مصر المعطاءة السخية ، وافرزته هذه البلاد العظيمة : الى محمد أنور الســادات ، البطل ، المناضــل ، المعلم ، الانسان ...

الى مصر .. كل مصر : الأم ، الأمل ، الحلم ، الحب ...

عبد المنعم صبحي

مقدمة

السادات .. فارس الأمل

« اذا خيمت العتمات ، واستشرى الظلم ، وأصبح القهر والالم معيارا وقانونا ،وضاعت معالم الطريق من أعين البشر فى متاهة الزمن ، فلا بد من مخلص للعذاب ، لينفخ بأنفاسه الملتهبة فى خيمة الظلام ، ويبدد العتمات ، فيبدو الطريق مشمسا ، واضحا ، تشرق على أعتابه آمال الجماهير ، وحلم الناس ... فارس الأمل »

الكاتب البرازيلى : جورج أمادو



يدهش القارىء ، الذى لم يتعـود أن يقرأ لى الا القصص والمقالات والدراسات والكتب الأدبية والنقدية ، أن يقرأ لى كتـابا فى السياسة ، بل قد يتساءل وعلى وجهـه امارات الدهشة : لمـاذا يقحم أديب وناقد نفسه فى مجال الفـكر السياسى ؟ أليس هذا المجال مقصورا على المنظرين والمفكرين والسياسين والأيديولوجيين ؟ !

وأنا أغفر ، لهذا القارىء هذا السؤال، بل وهذه الدهشة ،فهو لم يتعود أن يرى كتابا لنجيب محفوظ عن قائد أو مفكر سياسى ، لأنه عوده على قصصه ورواياته من « زقاق المدق » الى « الكرنك » ، وكذلك لم ير توفيق الحكيم أو يوسف السـباعى أو يحيى حقى أو يوسف ادريس ، يكتبون مؤلفا عن نهرو أو تيتو أو عبد الناصر أو ماوتسى تونج .. بل ، وحتى هذا القارىء ، أيضا ، لم ير كاتبـا روائيا أو قصيصا أو ناقدا ينبرى فى الكتابة عن قائد أو زعيم سياسى ، فلم ير ، مثلا ، جون شتنابيك ، الروائى الأمريكى الذى كتب : « فى معركة غامضة » ، و « الى اله مجهول » ، و « عناقيد الغضب » ، و « فـيران ورجال » ، و « اللؤلؤة » ، و « تورتيلا فلات » و « شرق عدن » ، لم ير كاتبا مثل هذا يؤلف كتابا عن ابرا هام لنكولن أو تاليران أو بونابرت أو هتلر ..

وكذلك لم ير كاتبا تشغله السياسة مثل الروائى ارنست همنجواى ، يتجه الى كتابة مؤلف عن تشرشل أو روزفلت أو لنكولن .. وحتى الكتاب السوفيت ، وعلى رأسهم روائى مثل ميخائيل شولوخوف ، الذى كتب : « نهر الدون الهادىء » ، و « الأرض العذراء » ، و « مصير انسان » ، لم

ير القارىء مثل هـذا الكاتب القصصي ــ وهو عضـو الحزب الشيوعي السوفيتي ــ يؤلف كتابا عن لينين أو الماركسية ــ اللينينية !

لكن هذا لا يلغي أن الكثيرين من الأدباء والفنـانين كتبوا عشرات المؤلفات عن الساسة والزعماء ، بل قد جاءت مؤلفات هؤلاء الأدباء عمن كتبوا عنهم من ساسة ، أكثر صدقا من الكتاب السياسيين ، عتـاة التنظير السياسي أنفسهم ، ولاقت رواجا ونجاحا بصدقها الى غير حدود ، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر : كتاب اميل لودفيج عن «نابليون بونابرت» ، وكتاب ستيفان زفايج عن « بونابرت » ، وكتاب جان بول سارتر عن فيديل كاسترو « عاصفة على السكر » ، وكتاب سيمون دى بوفوار عن الأوضاع فى الصين « الزحف المقدس » ، وكتاب البير كامى عن الحركة الثورية فى أمريكا اللاتينية « حالة حصار » .

هذه مجرد أمثلة ، فقط ، أذكرها ..

أذكرها ، لا لأؤكد حتميـة الأديب فى أن يكتب فى السياسة أو عن السياسة . بل أذكرها ، لأؤكد أن الفن عموما لا ينفصـل عن السياسة ، وكذلك السياسة لا تنفصل عن الفن ، وكل منهما مكمل للآخر ، ويبدوان معا كالجسد والروح فى الوجود ، الذى يعطى الدفعة والحركة والحياة .. وحتى لو لم تكن الروايات والقصص تحمل داخلها وبشكل مباشر موضوعا سياسيا فهى فى المدى القريب أو البعيد تعطى مضمونا فـكريا وسياسيا ، وتحدد موقف الأديب من الجماهير .. وحتى لو كان الأديب ، ينكر صلته بالسياسة ، ويعلن بصوت عال وبكل ما ملك من عقيرته : « بأنه لا يهتم بالسياسة ، وأنه يكتب فنا فحسب » ، فهذا فى حد ذاته يعلن عن موقف سياسى بالنسبة له ..

وفى الحقيقة ، أننى لم أقدم على كتابة هـذا المؤلف ، حبا فى الكتابة السياسية ، بالقدر الذى دفعنى الى كتابة هذا الكتاب حرصى على أن أسجل انطباعاتى وأفكارى ورؤياى لمصر فى فترة من أعظم فترات حياتها ، ومن خلال

القائد والمعلم والبطل والانسان : محمـــد أنور السادات ، الذى لم يعبر بمصر ، فقط ، من سنوات هزيمتها ومرارتها الى الانتصار والأمل ، بل عبر بمصر الى روحها التى كانت تهيم وتتيه فى ظلالات رمادية ، أسيانة واحزان زرقاء من آثار جرح يونيو ١٩٦٧ ، وما تراكم عليه وحوله من آلام وصديد وبلاء .. عاد بمصر الى روحها ، لتتنفس ، وتتحرك ، وتنهض ، وتعلو هامتها فى طريق الشمس ، فكان فارس الأمل المرتقب ، بعـــد سنوات من الضبابية وعدم وضوح الرؤية والعتمات . انه على حد تعبير الكاتب الروائى البرازيلى « جورج آمادو » وهو يتحدث عن « فارس أمله » فى روايته الشهيرة :
« المخلص من الأحزان لوطنى المحزون ، المكلوم ، أرضى التى طالما قاست القهر والآلام .. البرازيل ، التى داسها المستعمر ، والمتسلق ، والانتهازى ، والمتآمر .. هذا البلد العزيز فى حاجة الى فارس أمل ، ليخلص الحبيبة من سجنها .. فاذا خيمت العتمات ، واستشرى الظـــلم ، وأصبح القهر والألم معيارا وقانونا ، وضاعت معالم الطريق من أعين البشر فى متاهة الزمن ، فلابد من مخلص للعذاب ، لينفخ بأنفاسه الملتهبة فى خيمة الظلام ، ويبدد العتمات ، فيبدو الطريق مشمسا ، واضحا ، تقف على أعتابه آمال الجماهير ، وحـــلم الناس .. فارس الأمل » .

احساسى بمصر ، وهى تنفض عن كاهلها ركام الماضى الحزين ، ومرارة الهزيمة ، وتسقط عن صدرها جدار الخوف والرعب والفزع ، الذى ساد وجثم على القلوب والأفئدة والوجدان طوال الفترة الماكارثية التى ميزت مناخ ما قبل مايو ١٩٧١ ، وتفجر ثورة التصحيح بمبادئها وقيمها وأفكارها العظيمة فى ١٥ مايو ٧١ ، وما أعقب هذا التفجر العظيم والتجـديد لثورة يوليو ١٩٥٢ ـ بعد أن كانت قد مزقت أوصالها واهترأت مبادؤها وتعاليمها وتمرغت فى الوحل الى الدرجة التى أوصلتها الى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ثم ما حـــدث كنتيجة طبيعية للتصحيح من انتصارات فى أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣ ، وما أعقب هذه الانتصارات الملحمية من مكاسب ومنجزات ثورية

على المستوى الداخلى (فى الجبهة الداخلية ، وبين صفوف الجماهير) ، وعلى المستوى القـومى (فى الجبهة العربية ، وتلاحم ووحـدة صفوفها وتماسكها) ، وعلى المسـتوى العالمى (فى مجالات التحرك الخارجى فى كل مـكان من العالم بين الشرق والغرب والدول الصـديقة ، واكتساب أرضيات عظيمة من الأصدقاء ، داخليا ، وعربيا ، وعالميا) كل ذلك دفعنى الى كتابة هذا المؤلف ، فلم أقو على الاحتفاظ بهـذه الخواطر والانطباعات والرؤى داخلى ، دون أن أسجلها للقارىء ، وأنا مثله قد عانيت ، الأمرين ، فى ظروف الهزيمة ، بل وما قبل الهزيمة ، من قهر ومعاناة وعذاب وجراح ...

ومنهجى الذى حاولت اتباعه فى هـذا الكتاب ، ينطلق من أرضيتين أساسيتين : أولا .. أن مصر منذ ١٩٧١ حتى الآن ، عاشت وتعيش أعظم اللحظات فى تاريخها المعاصر ، وان الوجه المشرق لهذه العظمة هو وجـه فارس الأمل : أنور السـادات ، الذى يعتبر ، بحق ، افراز طبيعى لأخلص وأعظم وأنقى وأنبل ما فى الشعب المصرى من ثورية ونضال وأصالة، وبساطة وعمق ، ورغبة فى الخير من أجل السير بالبلاد الى آفاق رحبة تعطى الأمان والحياة لكل الناس .. فالسادات امتداد حى لنضال الشعب المصرى فى تحركه الثورى ، لا منذ ظروف الحرب العالمية الثانية ، عندما كان يناضل ضد قوى الاحتلال والرجعية فحسب ، بل هو امتداد لثورات وانتفاضـات وافكار ثورية تحركت على أرض مصر منذ تفتح الوعى القومى ، منـذ ثورة عمر مكرم وتحركات جماهير مصر ضد الحملة الفرنسية على مصر بين عامى ١٧٩٨ و ١٧٩٩ ، ومنذ تحركات مصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد فريد، ومنذ ثورات وتحركات ١٩١٩ و ١٩٣٥ و ١٩٤٦ و ١٩٥١ ..

ولا أبالغ اذا قلت ، وفى ثقة ، أنه افراز ونتاج حضارى وفكرى عمره سبعة آلاف سنة ، يمثل خير القيم ونبل الانسان ، الذى يبغى الخير لمواطنيه ولأهل مصر ، محاولا تخليصهم من ظروف القهر والضغوط ، الى ظروف يتاح فيها للمواطن أن يعمل فى أمان ، وبلا خوف ، فى مناخ تسود فيـه

الحريات والديمقراطية ، من أجل أن يتيسر لهذا المواطن فرصة التحرك للبناء والتقدم ، وحتى يشارك فى تغيير واقعه الى الأكمل والأسمى والأفضل وبما يتمشى مع منطق متغيرات العصر .

وقد يعتقد القارىء ، لأول وهلة ، ومن مجرد قراءة عنوان الكتاب : « السادات .. وثورة التصحيح » ، أننى أؤرخ أو أتحدث أو أكتب ، فقط ، عن الفترة التى مرت بمصر منذ ١٩٧١ حتى الآن ، أى منذ قيام ثورة التصحيح الى عبور أكتوبر العظيم ، الى ما حدث من تغيرات فى واقع مصر خلال هذه السنوات ، لكن هذا لا يبدو منطقيا ، فالكتابة عن هذه السنوات الأربع تستلزم بالضرورة أن يعود الانسان بمصر الى الوراء سنوات وسنوات ــ لأن هذه السنوات ، هى التى كونت السادات كمفكر ، ومنظر ، وثورى ، وقائد ، وزعيم ، على المستويات الفكرية والاجتماعية والمادية والبيئية ، بل والى سنوات مصر المختلفة التى كانت هذه الأعوام الأربعة العظيمة من عمر مصر (مايو ١٩٧١ الى الآن) استمرارا عظيما لها ، وتفتحا كبيرا لكل ما فى مصر من حب وأمل ورغبة فى التقدم .

والسادات .. ليس مفكرا سياسيا فحسب ..

وليس ، أيضا ، مناضلا ، ومعلما ، من الطراز الأول فحسب ..

وليس افرازا لخير ما فى المرحلة من ثورية وعطاء فكرى ونضالى وسياسى فحسب ..

بل انه المعبر عن أحلام « الانسان العادى » ، المصرى ، الذى يبغى التخلص من عتمات الحياة اليومية ، ليتاح له أن يعمل فى حرية وديمقراطية تكفل له المشاركة فى البناء والتقدم بمصر كأحدث المجتمعات المعاصرة ..

انه المعبر عن روح مصر العصرية ، التى تريد اللحاق بمستحدثات العصر والتى تخلفت عنه نتيجة للمناخ الضبابى الذى مرت به ، لكنها بعد أن استعادت روحها ، وعبرت الى نفسها ، وتجاوزت « الكبوة » التى عطلتها

عن السير ، قررت أن تلحق بالركب العصرى فى عالم اليوم .. لتحل مشاكلها اليومية والخارجية ، من منطلق متغيرات العصر .. تحل مشاكلها مع القوى الخارجية لتتخلص من تهديدات الحرب ، حتى يتاح لها المزيد من البناء والتقدم لتحقيق دولة العلم والايمان المنشودة .

انه فارس الأمل : المخلص من قوى القهر والضغوط ..

انه فارس الأمل : المحرر مصر من الخوف والعذاب ..

انه فارس الأمل : الساعى الى العدالة من خلال مزيد من سيادة القانون وتوسيع رقعة الديمقراطية والحريات لكل الناس ..

انه فارس الأمل : الساعى الى بناء مصر العصرية ، بلا خوف ، بلاعراقيل بلا قيود ..

مصر المتفتحة نحو العصر ، فكريا ، وديمقراطيا ، وحضاريا .. لتشارك كقوة فعالة فى المجتمع الدولى ، فى الانتصارات العلمية والفكرية والحضارية ..

●

فى جريدة « العروة الوثقى » .. يحكى جمال الدين الأفغانى ، أسطورة صغيرة ، لكنها ذات مغزى عميق . حكى جمال الدين ، انه كان هناك هيكل عظيم فى طريق المدينة ، عندما يقبل الليل على السائرين فى الطريق ، كانوا يأوون اليه . وفى الصباح كانوا يعثرون على هؤلاء المتتجين ، قتلى بلاجراح ولا أثر لاصابة .. وأصبح الهيكل مركزا مرعبا للمدينة والذاهبين اليها ! وكان لابد من وجود (أوديب) ، يتحدى (أبا الهول) ، هذا ، كما يحكى سوفوكليس فى مسرحيته الشهيرة . وذهب (أوديب) الآخر الى الهيكل ، وبات ليلة فيه .. سمع صوتا هائلا ، فلم يكترث ! ما فائدة الحياة اذا كنا نخاف ما فيها ؟ وما جدوى الحياة اذا كنا نعيشها فى رعب ؟ وما قيمة الوجود ان كان يهددك الخطر والقهر فى كل لحظة ؟ وانكشفت طلاسم السر الكبير

أمام الارادة القوية ... ولم يمت (أوديب) الآخر ، بل حصل على الخير الكثير .. وظل جمال الدين عشرات الأعوام ، يحاول أن يخلق فى الشرق (أوديبا جديدا) ، يحطم (أبا الهول) .. كذلك فعل السادات ، عندما قام بحركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ ، حاول أن يخلق فى مصر (أوديبا جديدا) ، يحطم (أبا الهول) ، يحطم مراكز القوى ، الخوف ، الرعب ، التلاعب بأقوات وحريات البشر .. انهاء ظروف الهزيمة التى كانت نتاجا طبيعيا لما كانت تحياه مصر من فكر غير علمى ، وانهاء لكل الظروف الاستثنائية التى كانت تحياها مصر قبل التصحيح ، والتى أوصلتها الى حالة من اليأس والخنوع ، بلغ بها مرحلة التمزق والسقوط (داخليا ، وخارجيا) .. ومن ميت أبو الكوم ، الى الجمالية ، الى الأزهر ، الى منقباد ... ثم الى الرئاسة ثم الى « التصحيح » .. ثم الى « العبور » .. ثم الى كل التحركات الصغيرة والكبيرة .. طوف المناضل والثائر والمعلم والزعيم الملهم : محمد أنور السادات ، يبحث عن مصر ، يبحث عن قلبها العظيم الذى أصابه المرض فترة ليست بالقصيرة ، حاول أن « يدلكه » أن يشفيه ، أن يخلصه من كل الأمراض .. ولا يكتفى بهذا البحث فقط ، ولا بهذه المحاولات لاعادة القلب الى الخفقان من جديد فحسب .. بل ويحاول ، أيضا ، أن يخلق كافة الظروف ، ليكبر هذا القلب ، ويعلو خفقاته ، ليعطى مزيدا من الحب ، مزيدا من البناء ، مزيدا من الأمل ، مزيدا من السير الى آفاق رحبة عظيمة تعوض مصر عما فاتها من مستحدثات العصر الكبرى .

●

شاب أسمر اللون ، قمحى الملامح ، كقمح مايو فى غيطان دنشواى وميت أبو الكوم وطوخ دلكه ، يبدو لون ملامحه .. واسع العينين .. فارعا ، سامقا ، فرعونى العود .. تستطيع من النظرة الأولى أن تدرك الى أى حد هو مهموم بقضايا بلاده ، تلمح عليه كل المشاكل اليومية وغير اليومية ، التى تدور وتجرى فى مصر . فعندما دخل المدرسة الحربية فى ٦ أكتوبر عام ١٩٣٦

(وقد عبر بمصر الى روحها فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣) ، تساءل :

ـ الى أين يا أنور ؟

وصمت ، قليلا ، ثم عاد بعد فترة ، يهمس الى نفسه :

ـ وماذا بعد أن أتخرج ؟ هل الوظيفة وسيلة أم غاية ؟

وأجاب :

ـ مجرد وسيلة لأن الهدف ، أن يكون للانسان قيمة ما ترتبط برسالة عظيمة ..

وضغط الشاب الأسمر ، الهادىء ، الرزين ، المتزن ، منذ شبابه ، ضغط على شفتيه ، وقال :

ـ انه مأرب .. أن أكون شيئا ما ، على هذه الأرض العظيمة : مصر ..

●

كان الشاب الأسمر : أنور السادات ، فى العشرين من عمره فى عام ١٩٣٨ (فقد ولد فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨) ، عندما سأل نفسه :

ـ اذا ما خيرت أن أحيا .. أن أبقى فى القاهرة أم أعود للقرية ، لفضلت القرية ، فهى مثال للعطاء والنقاء ، بينما المدينة واسعة ، تغلى بالانتهازية والتأفق .. لو عادت مصر الى نفسها ، الى القرية البسيطة ، لتخلصت من كثير من الشرور ، ولسادت أواصر الحب والأمان والصدق أكثر ..

وفى المدرسة الحربية ، كان الطالب محمد أنور السادات ، يناقش ويحاور أصدقائه فى كل الأمور التى تمر بها مصر ، وبالذات الأحداث السياسية ، فقد كانت الثلاثينات من السنوات العصبية التى مرت بمصر .. وكان السادات الطالب ، يتطلع الى يوم تتخلص فيه مصر من هذه المذلة .. كان يحيا الثلاثينات فى مرارة ، عاصر الأحزاب الرجعية الممالئة للسراى والرجعية المحلية والاستعمار ، وعلى رأسها حزب اسماعيل صدقى الذى

حكم مصر بالحديد والنار ، وكان سببا فى انحسار الحركة الثورية وخراب مصر الى أسفل درك !

فى هذه الفترة كان أنور السادات ، يخرج الى الشوارع والطرقات ، يشترك فى المظاهرات ، ويردد الشعارات التى تنادى بالاستقلال وتدين الرجعية والاستعمار ، وتطالب بالحريات والاستقلال .. يركب الترام ضمن المتظاهرين ، ويسير فى مظاهرات عابدين والقصر العينى وقصر النيل ، ويردد الشعارات التى تنشد الخلاص بمصر .. لكنه وهو فى القاهرة ، لم ينس ، أنه ابن القرية .. ابن قرية «أبو الكوم» الصغيرة ، وكان يحن بين كل فترة وأخرى ليحيا لحظات من الحب والمودة والأسرية والنقاء والعطاء فى قريته الصغيرة وهو يقول فى هذا : « ان السنين التى عشتها فى القرية قبل أن انتقل الى المدينة ، ستظل بخواطرها وذكرياتها ، زادا يملأ نفسى ووجدانى بالصفاء والايمان ، فهناك ، تلقيت أول دروسى فى هذه الحياة ، تعلمتها على يد الأرض الطيبة السمحة ، التى لا تبخل على الناس بالزرع والثمر ، وتعلمتها من سماء قريتنا الصافية المشرقة ، تعلمتها فى ظل الجميزة الخضراء الصامدة ، وعلى أغصان الصفصافة الخجول الوديعة ، تعلمتها على الجدول الصغير ، الذى ينقل الى الحقول ترياق الحياة فى رضا وقناعة ، تعلمتها فى ظلال الأمسيات البريئة مع زملائى من شباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر فى شوارع القرية الساكنة الهاجعة » .

وربما هذا ما جعله يتساءل فى المدينة :

— الى أين ياسادات ؟ أخلاق المدينة تختلف عن القرية تماما . هناك قمة العذرية فى القرية ، وهنا قمة الضياع والخروج عن الخلق الطيبة التى تعودنا عليها . لكن علينا أن نحتفظ بهذه القيم البسيطة حتى لا تفقدنا معالم الطريق وما نريد أن نحققه فى حياتنا من أهداف وآمال وأحلام ومطامح ..

وبعد تخرجه من المدرسة الحربية .. ذهب الى (منقباد) ، ضمن مجموعة من زملائه ليعمل هناك ، وكان ذلك فى عام ١٩٣٨ ، أى قبل قيام

الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، قال : « ١٩٣٨ . فى منقباد .. فى هذه البيئة المصرية الخالصة ، حيث يشعر المصرى ، بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه .. وفى الشتاء حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف ، فتزداد الروابط بين الاصدقاء يقاومون بها قسوة الطبيعة ، وينتصرون بها على عواء الريح . هناك حول نار فى معسكر المناورات بتباب الشريف ، كنا نقضى طرفا من كل ليلة .. أصدقاء كلهم ، صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال والحروا الشباب ! ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثان ، نحترق طوال النهار فى مناورات طويلة ، ونعود الى الخيام آخر اليوم .. نضىء الليل فى الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب ! وكانت فى القلوب نار ... نار لا تنطفىء ، وقودها يتجدد فى كل لحظة من احساستنا الشابة المرهفة . ومما يقع أمام أعيننا كل يوم من الصباح الى المساء . كانت آمالنا كبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث . فقد كنا ضباطا صغارا ، وكان لنا قواد ، وكان هناك ، أيضا ، انجليز ! وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم الا اذلالنا ، والا الانحناء أمام الانجليز ! وكنا نرى هذا الوضع الكريه فنحترق ، ونسخط ، ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم ، وماذا يستطيع ملازم ثان ، مثلى ، أن يفعل فى داخل النظام العسكرى ، وفى تلك الأوضاع الرهيبة الا أن يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدخن النار فى حشاه ! هكذا كانت أيامنا . ولكن ليالينا ، كانت تختلف اختلافا كبيرا ، ففى جو من الصداقة والألفة ، كنا نجلس ، نمرح ، ويذهب هذا المرح ، شقاء اليوم الطويل ، شقاء الجسد وشقاء النفس ، وشقاء الغربة فى جبل بعيد .. » .

❁

الى نفس الأرض التى كتب عنها برناردشو « المنوفية » وأشاد ببطولة احدى القرى الصغيرة فيها — هى دنشواى — ينتسب محمد أنور السادات... ينتمى الى قرية صغيرة مثل دنشواى ، هى قرية « ميت أبو الكوم » ، تتبع مركز تلا ، ولا تبعد كثيرا عن عاصمة المنوفية : شبين الكوم .. لقد كتب

برناردشو عن قرية دنشواى ، وما حدث فيها من مأساة عام ١٩٠٦ ، يقول :
« ان بطــولة أهل هذه القرية الصغيرة ، تفــوق بكثير مفاخر ومساخر الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ! فكيف يتأتى لامرؤ ما أن يطلق النار على أناس عزل بسطاء ، هذا ما حدث فى هذه القرية الآمنة التى لا يملك أهلها الا الطيبة وأبراج الحمام ، بينما الغزاة من جنود الامبراطورية يملكون البارود والعدوان » .

وحول بطولات قرية دنشواى ، وغيرها من قرى المنوفية المجاورة ، سمع السادات فى طفولته وصباه العديد من البطولات ــ هذه البطولات والقصص الوطنيــة التى أثرت فيه ، وشــاركت فى نسج فكره وبلورت شخصــيته تماما كهؤلاء المفكرين والساسة والأدباء الذين أثرت « حكايات القرية » فى بلورة شخصياتهم وأفكارهم ، وبينهم : ليوتولستوى ، الذى أثرت فى أفكاره وفلسفته وأعماله ذكريات قريته «ياسنايا بوليانا» فى مقاطعة أكتير ــ انسلافا فى ريف روســيا . . ومحرر العبيــد ابراهام لنكولن الذى نصب رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٦١ ، ولم تفارق مخيلته ، أبدا ذكريات قريته الصغيرة فى « كنتكى » ــ والتى تعرف الآن باسم « بلارو كاونتى » .. ومكسيم جوركى ــ كاتب وأديب الثورة الروسية ، الذى لعب دورا هاما فى الحركة الثورية الروسية بين عامى ١٨٨١ و ١٩١٧ ، وكتب أعمالا هامة مثل : « الأم » ، « الأعماق» ، « العاصفة » ، «أسرة أرتامنوف» « الحضيض » ، « جامعاتى » ، « ماكارتشودرا » ــ أبدا ، لم ينس قريته الصغيرة نجينى نوفجورد » (والتى تعرف اليوم باسم قرية جوركى) ، وقال، أن قريته الصغيرة كانت داخله تنمو وتتحرك أينما حل وذهب ، فهى دائما وراء أعماله الروائية والأدبية والفكرية .. وكذلك جيفارا ــ بطل الثورة العظيمة فى كوبا وأمريكا اللاتينية ، اعترف بأن قريته الصغيرة فى جبــال « سييرا مايسترا » ، كانت دائما هى صورة العالم المصغرة ، والتى مثلت فى ذهنه صورة البؤس والعذاب ، والتى أصر ان يخلص العالم من شرورها

حتى انه قال : ان قريتى الصغيرة ، دفعت فى نفسى الشعور بالثورة منـذ الصغر .. وكذلك مفكر وأديب مثل ميخائيل شولوخوف ، الكاتب السوفيتى الذى كتب (النهر الهادىء) ، و (مصير انسان) ، و (الأرض العذراء) ، وساهم بدور بارز فى الحركة الثورية السوفيتية أثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها ، كان لقرية هذا الكاتب « فيسنسشكايا » القوقازية ، أثرها فى كل أعماله وأفكاره ، ومن فرط حبه للقرية ، أنه رفض الحياة فى موسكو ، وفضل أن يحيا فى قريته الصغيرة التى تطل على (نهر الدون) الذى يمتد فى كل أعماله وأفكاره .. كذلك أنور السادات ، أثرت فيه قريته الصغيرة « ميت أبو الكوم » الى أبعد الحدود ، وشاركت فى نموه وبلورة شخصيته وقد تحدث كثيرا فى أحاديثه وفى خطبه عن آثار هذه القرية فى حياته ، وهو لا يستطيع أن يغيب عنها طويلا ، بل انه لا يقوى على مفارقتها كثيرا ، حتى انه كتب يقول : « ان أول كتاب زرع الثورة فى نفسى ، لم يكن كتابا بالمعنى المفهوم الذى نعرفه عن الكتاب ، وانما كانت أحاديث تلقيها جدتى فى أذنى ونحن نستلقى فى ليل الشتاء الطويل على الفرن فى قاعة دارنا بالريف . كنت يومها طفلا ، لا أنام قبل أن أسمع حكاية أو حكايتين عن الشـاطر حسن وست الحسن والجمال .. الا أن جدتى شاءت أن تمزج هـذه الحكايات بحكاية خالدة عن قرية لا تبعد الا قليلا عن قريتنا ، هى دنشواى ، وكانت رواية جدتى رحمها الله عن قصة دنشواى ، عبارة عن زجل جميل يناجون فيه (زهران) ـــ ذلك البطل الذى ضربوه بالسياط ، ثم شنقوه أمام القرية بأكملها .. ولا بد أن جدتى قد حضرت هذا الذى جرى ، فقد كانت فى حديثها تنفعل أشد الانفعال ، وتحكى عن بطولات (زهران) ، وكأنما هو الفارس الأول ورمز كل شجاعة وكل اقدام ، ثم تنتهى القصة بذلك الغدر اللئيم الذى ارتكبته بريطانيا أمام أعين أهل القرية الوادعين »

وقد تحدث السادات ، طويلا ، عن قريته : « ميت أبو الكوم » ، فى مقالاته ، وفى حواراته ، واعتبرها الصورة المصغرة لمصر ، فى نقائهـا فى

عذريتها ، فى بكارتها ، فى حياتها البسيطة ، واعتبر مشاكلها وتناقضاتها هى الصورة المصغرة لمصر ككل ، وهو يعتز كل الاعتزاز (بالقرية) ، حتى أنه يقول :

« اننى أعتقد أننى لو تخليت عن الروح الريفيــة التى تسرى فى دمى ، سوف أفشل تماما فى حياتى »

●

عندما تخرج من المدرسة الحربية عام ١٩٣٨ ، سأل نفسه ، وهو يسير فى شوارع القاهرة :

ـــ ما بال مصر ، حالها يزداد سوء على سوء . ان ما يحدث فى القرية صورة مصغرة مما يجرى هنا فى المدينة . البؤس هناك صغير ، لكنه هنـا عظيم وكبير ، ويزداد بشكل واضح .. !

ثم تساءل :

ـــ ما الحل ؟

ونظر الى وجوه الناس ، وهمس الى نفسه :

ـــ نفس الوجـــوه الطيبة ، التى فى قريتى . الـــكل يتطلع الى مصر بلا قيود ..

وكان القهر فى ذلك الوقت ، يجثم على كل الصدور ، والغلاء يتفشى فى كل مكان ، والفئات الشعبية على اختلاف أنواعها مطحـــونة الى أقسى الدرجات .. وكانت الأحزاب السياسية ألعوبة فى أيدى السراى والاحتلال . وكان الشعب يقاوم معاهدة ١٩٣٦ ، وكان الحكم فى أيدى كبـــار ملاك الأرض وكبار رجال المال تحت اشراف وتوجيه الحكم الملكى ، واستمر التنكر للحياة البرلمانية ، واستمرت الحرب على الديمقراطيـــة وحريات الشعب . فى هذه الفترة تخرج أنور السادات من مدرسة الحربية ، وكان ساخطا على كل ما يجرى فى الجيش منذ لحظات انتظامه الأولى :

« انتظمت فى الجيش على يد البعثة البريطانية ، تلك البعثة التى أرسلوها ، لا لكى تعلمنا ، او تدربنا ، وانما لكى تخضعنا ولكى تذلنا ، ونحمد الله ، ان هـذه المعركة انتهت بتشكيل تنظيم الضباط الأحرار ، الذى كان كتاب البعثة البريطانية ، من أول ما دعا اليه »

●

طائر بلا عش ..

لا يخشى على نفسه من الجوع ..

لا يخشى على نفسه من القتل أو العذاب ..

شىء واحد يخافه هو القيد .. أن يرى مصر فى السلاسل ولا يفعل من أجلها شيئا :

أنور السادات ...

ابن القرية ، الذى جاء الى المدينة ، حاملا داخله أنبل ما فى القرية من قيم وأخلاقيات .. والتحق بالجيش ، ورأى بعينه ما يدور داخل الجيش ، وداخل كل مصر .. فى دروبها ، وحاراتها ، وشوارعها الطويلة والقصيرة ..

انه يحس بدوار الآن ، لا من أثر الجوع أو العطش ، بل من فرط أحزانه.. انه فى القيد ، مسجونا فى سجن الأجانب ، مبعدا عن القاهرة ، متهما فى قضية مقتل « أمين عثمان » ..

القاهرة : ١٩٤٦ . الشوارع تغلى وتفور بالثورة والبركان ..

الطلبة والعمال يهتفون فى الشوارع والطرقات .. فى كل مكان ..

الطلبة يتحدون مع العمال ، ويقومون بأكبر مظاهرة وطنية فى ٢١ فبراير ١٩٤٦ ، مظاهرة تضم أكثر من أربعين ألفا ، تهتف بالاستقلال والحرية ، وتطالب بالغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وتطالب بالحريات العامة وبتشكيل وفد فورى للمفاوضة بوضوح على الجلاء التام عن مصر .. وسقط من الشهداء فى هذه المظاهرة الكثير .. من الطلبة والعمال ..

وكانت أول مرة يتم فيها تشكيل لجنة وطنية تضم الطلبة والعمال ...

طائر بلا عش ..

آنور السادات ..

تمنى لو كان خارج سجنه ، ليشارك فى كل هذه الأحداث ، لكنه فى الحبس يعانى مرارة البعد عن الأحداث الوطنية ، فقد تعود أن يقوم بعمل وطنى دائم ، حتى غدت الثورية حرفته وقدره .. فقد اشتغل فى الأربعينات كمحترف ثورى من الطراز الأول ، وقام بالعديد من الأعمال الوطنية ضد الانجليز وضد الرجعية التى كانت تتحالف مع بريطانيا والسراى .. فلم يكن (وفد) سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٦ هو وفد سنة ١٩١٩ ، فقد تهادن مع الاستعمار بعقده معاهدة ١٩٣٦ ، كما تسربت الى قيادته بعض العناصر الاقطاعية وخضع لنفوذ كبار رجال المال .. وكان (حزب السعديين) ، ممن سموا أنفسهم بالمستقلين ، ألعوبة كبيرة فى يد كبار المال المصريين المتصلين بشركات الأجانب الاحتكارية ، وقد كان هذا الحزب برئاسة أحمد ماهر والنقراشى ، وكان حزب (الدستوريين) نفس الاتجاه ، ألعوبة فى يد السراى .. وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية ، كانت الحكومة القابضة على زمام الأمور هى حكومة السعديين والدستوريين : حكومة الاحتكار والاقطاع ، وعلى رأسها السراى ، وقد زادت هذه الوزارة سخط الشعب عندما تولت الحكم بشكل بالغ ، فقد كانت رجعيتها وممالئتها لبريطانيا واضحة كل الوضوح ، لدرجة أن « د. محمد حسين هيكل » رئيس الأحرار الدستوريين نشر فى تصريح له بالاهرام ، يقول : « ان النقراشى باشا ، رأى أن يسلك فى سبيل تحقيق هذه السياسة ، خطة من المجاملة لوزارة الخارجية البريطانية ، تقديرا لموقف انجلترا الدقيق الحاضر ، حتى لقد آخذه بعض ما يرون فى المجاملة السياسية ضررا ، ولم تغير هذه المؤاخذة

خطة رئيس الوزراء فى سياسة الأخذ والرد وحسن المجاملة » (١) .

أحس السادات ، وقتها بسجنه مرتين : فهو سجين بأيدى السلطة الرجعية فى وطن سجين وراء قضبان الاحتلال والسراى ، وسجين ايضا لأنه لم يتح له فرصة الاشتراك فى هذه المسيرات الوطنية التى تجرى وتدور فى شوارع مصر ، معلنة سخطها على القهر والظلم والرجعية والاستعمار .. !

أخذ نفسا عميقا من سيجارته ، ونظر من شباك سجنه ، وكاد يبكى :

ـــ مصر .. !

وتذكر مع أخبار شهداء مذبحة كوبرى عباس فى ٢١ فبراير ٤٦ ، شهداء حركة سنة ١٩٣٥ ، المظاهرات والانتفاضات الكبرى التى كانت تطالب بالدستور ، دستور ١٩٢٣ ، فقد فرضت الرجعية على البلاد دستورا مزيفا هو دستور « اسماعيل صدقى » ، الذى باركته بريطانيا ، بقولها : « عندما استشيرت الحكومة البريطانية فى شأن الدستور المصرى ، نصحت بألا يعاد دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور سنة ١٩٣١ ، اذ أن الأول غير صالح للعمل ، والثانى لا ينطبق على رغبات الأمة ، بينما الدستور الجارى العمل به مفيد ومقنع» (٢) ! وقد أثار هذا التصريح ثائرة الشعب الذى أعلن سخطه ، فقامت المظاهرات فى المدن والقرى ، احتجاجا على السراى ، وعلى تصريح هور ، وكان أنور السادات واحدا ممن اشتركوا فى هذه المظاهرات وكان وقتها لا يزيد عمره على أربعة عشر عاما ، وكان من اصدقائه ، فى هذه الفترة ، بل من أعز أصدقائه « محمد عبد الحكيم الجراحى » ، وهو طالب ثورى فى الجامعة ، كان السادات معجبا به وبثوريته وبأفكاره ، وقد نشأ معا ، كصبيين فى كوبرى القبة ، وكانا لا يفترقان ، وعندما استشهد الجراحى فى

---

(١) وقد نشر هذا التصريح فى جريدة (الأهرام) فى يناير ١٩٤٦ ، وكان وقتها أنور السادات سجينا على ذمة التحقيق فى قضية « أمين عثمان » وزير المالية .

(٢) وقد جاء هذا التصريح على لسان « صمويل هور » وزير خارجية بريطانيا ، بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٣٥ .

هذه المظاهرات مع زملائه « محمد عبد المجيد مرسى » ، و « على طه عفيفى » و « عبد الحليم عبد المقصود » ، و « اسماعيل الخالع » .. بكى السادات طويلا .. فقد كان « عبد الحكيم الجراحى » أكثر من صديق وثائر :

« كنا كذلك أنا وعبد الحكيم الجراحى ، حتى سافر هو الى الخارج ، والتحق بكلية الآداب ، ثم فى احدى المظاهرات صرعته رصاصة كونستابل انجليزى ... »

طائر بلا عش . .

لا يخشى على نفسه من الجوع والعطش ، ولا القتل ، ولا التعذيب ... تؤرقه قضية مصر ، دائما ، تشغله ، ولا يملأ على وجدانه أى فكر آخر عليها : مصر وقضيتها فوق أى شىء ..

●

كان نابليون بونابرت، ينظر الى خريطة العالم ، ويشير الى الصين، ويقول. « هنا عملاق .. الويل لنا اذا استيقظ » ، وبعد ما يزيد عن قرن ونصف ، استيقظت مجموعة من العمالقة .. وأحست القوى الاستعمارية فى أوربا وأمريكا بأن « الويل لها بالفعل » ، وكان أن تحققت نبوءة بونابرت ، لكن ليس فى الصين فقط ، بل فى أكثر من منطقة ، حتى ان جيفارا عندما سأله صحفى فرنسى عن تلك « النبوءة » التى قال بها بونابرت ، ضحك جيفارا فى سخرية وقال : « انهم ليسوا عملاقا واحدا .. انهم عشرات العمالقة .. فى الهند ، وفى الصين ، وفى مصر ، وهنا فى أمريكا اللاتينية نفسها أكثر من عملاق يطل اليوم .. » . ونفس « النبوءة » ، أو نفس الكلمات ، مرت على ذهن بطلنا : السادات ، فى بداية الخمسينات ، مع انتصار ثورة يوليو ١٩٥٢ ومع الانتصارات المختلفة التى مرت بمصر .. وعادت الكلمات قوية فى ذهنه تردد : « ليست نبوءة بونابرته » ، وقال ، أيضا : « بل ليست معجزة ، كذلك » ، وأضاف لرؤيته : « لسنا فى عصر المعجزات التى تهبط من السماء فذلك العصر قد انقضى . ولكننا يبدو ، أننا فى عصر معجزات .. معجزات

تنبع من الأرض ، وتقوم بها الشعوب . الشعوب اذا قررت شيئا فلا بد أن تحققه ، لأن مشيئتها من مشيئة الله ، واذا قررت أن تحققه حققته ، ولو اقتضاها الأمر القيام بمعجزة .. وشعبنا ، أيضا ، كانت مشيئته من مشيئة الله . فقد حقق المعجزة ، والثورة التى كانت مستحيلة الوقوع حدثت ، والشعب تحرر » . وهكذا تحققت « نبوءة » بونابرت ، لا بظهور عملاق واحد ، بل بميلاد أكثر من عملاق ، يهدد الاستعمار بالسقوط ، ويقوى من طاقة وقدرات الشعوب المتحررة على القيام بأكثر من معجزة ، وهذا ما جعل السادات يردد : نحن فى عصر معجزات الشعوب .. لا معجزات زمان .

وقد انعكست هذه « المعجزات » لا على الخرائط المحلية والقومية ، بل فرضت نفسها على خريطة العالم البوليجرافية والاقتصادية والحضارية . ففى المؤتمرات القديمة ، وحتى عصبة الأمم ، كان يعتبر نصرا للدول الواقعة تحت النطاق الاستعمارى لو أرسلت مندوبا عنها يراقب الأحداث من بعيد . ولكن الأمر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبالذات فى الخمسينات والستينات والسبعينات ، اختلف تماما .. فلقد أصبح المجتمعون هم أبناء الشعوب الحرة ، وأصبح المراقبون — من بعيد — هم الاستعماريون ! وهذه الكلمات رددها السادات ، فى رحلاته الى أفريقيا وآسيا ودول الشعوب الحرة التى خرجت عن نطاق الدول الامبريالية وأخذت تسعى لتثبت دعائم الاستقلال القومى فى مجتمعاتها المتنوعة ..

ان الأسطورة القديمة تتحقق من جديد :

أسطورة الرجل الذى كان له أولاد عديدون ، وعندما أراد أن يوصيهم استدعاهم ، وأعطى أحدهم عودا من الخيزران ، فكسره بسهولة ، ثم أعطاه مجموعة منها فلم يستطع أن يكسرها .. وهذا ما جعل السادات يتحدث كثيرا عن قوة الشعوب الحرة واهمية تلاحمها فى المنطقة العربية وفى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية : « لقد أحست الشعوب ، ان الطريق الوحيد لانهيار الاستعمار وبناء عالم جديد هو وحدتها فى الصراع والعمل البناء .. »

●

فى عام ١٩٥٦ ، نظر بطلنا : السادات ، الى شوارع القاهرة وطرقاتها ، واخذ يتأمل وجوه الناس ،طويلا ،ثم عاد الى داره يقرأ ويتابع كل ما يحدث فى نهم ، خاصة بعد العدوان الثلاثى على مصر ، وهمس الى نفسه : هـــذا الشعب نادر .. حقا ! فكم تحمل الشعب المصرى من ويلات ومآسى ، ولكنه أبدا لم يستسلم ، انه يقاوم ، ويقاوم ، من أجل أن يستعيد نفسه .. ومقاومة بور سعيد الباسلة فى نوفمبر ١٩٥٦ نموذج واضح على هذه البسالة النادرة فقد سجلت هذه المدينة بطولات نادرة فى مواجهة الاستعمار ، لقد شهدت بور سعيد بداية دخول الاستعمار فى بلادنا عام ١٨٥٨ ممثلا فى شركة قناة السويس ، وشاهدت نهايته عام ١٩٥٦ ، من بور سعيد دخل الاستعمار ومنها يخرج مرة أخرى .. وقد كانت نية الاستعمار مبيتة للعدوان على مصر فى ١٩٥٦ ، فقد بدأت الاستعدادات العسكرية فور تأميم القناة (فى يوليـــو ١٩٥٦) ، من جانب بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، وقــد أشارت الصحف الأوربية الى ذلك بوضوح ، فقد كتبت صحيفة « الديلى ميل » (١) ، تقول: « ان الخطط العسكرية لمواجهة الموقف الذى حدث فى السويس تجرى الآن فما حدث ، يهدد مصالح الغرب ولا يضمن سير الأمور بالشكل الطيب » .

بل وبدا منذ ذلك التاريخ ، ومبكرا ، فى استخدام اسرائيل ، واكدت التقارير فى صحف أغسطس ، ان الدول الغربية كانت تبعث بأسلحة جديدة لاسرائيل ، وقد كتبت صحيفة (الديلى سكتش) ، فى عددها الصادر بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٥٦ ، تقول . « لو ضمنا سلامة اسرائيل ، ووفرنا لها وسائل الدفاع عن نفسها ، فان هذه الخطوة كافية لوضع (ناصر) ومن يتبعونه فى مكانهم ولفترة طويلة جدا » . بل حددت هــذه الصحيفة ، وكذلك نشرة وزارة الخارجية البريطانية فى ١٣ سبتمبر عام ١٩٥٦ نقطة بدء العدوان فى شبه جزيرة سيناء ، أى نفس النقطة التى بدأ فيها الهجوم الاسرائيلى بالفعل فى ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ ..

---

(١) صحيفة الديلى ميل ... عدد ٣٠ يوليـــو عـام ١٩٥٦ ، أى بعـد تأميم القنـاة السويس بأربعة ايام .

لقد تابع السادات معارك ١٩٥٦ ، بنهم ، لا من أجل المتابعة والاستمراء فحسب ، بل لتحليل ما جرى ويجرى علميا ، والخروج منه بدروس ناجعة تنير الطريق فى المسيرة الوطنية . وقد علق على سلسله ما جرى فى عام ١٩٥٦ فى اكثر من مقال ، وكتب على صفحات جريدة الجمهوريه بتاريخ ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٦ ، يقول : « ان اخطر ما يفتك بالدول الصغيرة ويوقعها فريسه للدول الاستعمارية ، هو ذلك الشعور بالنقص الذى تغرسه تلك الدول الاستعمارية فى نفوس الشعوب الصغيرة . ان هذه العقدة هى افتك اسلحه الاستعمار اليوم ، والانسان يتلفت حواليه الان ويأسف لان دولة عديدة من الدول الصغيرة تترك شعوبها فريسة لهذه العقدة . واخطر من كل هذا ان تكون هذه العقدة لدى حكام هذه الشعوب . وسبيل الاستعمار ، دائما هو غرس هذه العقدة فى نفوس الحكام أولا ، ثم توصيلها للشعوب عن طريق هؤلاء وعن طريق العملاء الآخرين الذين يبيعون أنفسهم للاستعمار .. »

وانه ليسرح الطرف ، فيتذكر معارك القناة عام ١٩٥١ ، وكيف شارك فيها بنصيب وافر . كمحترف ثورى ، وكسياسى ، وكمناضل .. وقد بدأت معارك القناة هذه فى وقت مبكر ، أثر الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وبدأت بشكل يكاد يكون عفويا ، لكن سرعان ما قامت معسكرات عديدة للفدائيين وتبلور لها خطة واضحة ، وقد كانت خطة الفدائيين ، فى جوهرها ، موجهة الى ضرب قوات الاحتلال فى أربع نواحى أساسية : تدمير ونسف ما يمكن أن يصل اليه الفدائيون من مخازن ومستودعات وعتاد للعدو فى معسكراته ، ثم تمزيق خطوط المواصلات التى يفيد منها العدو ، ثم الحيلولة دون وصول التموين ، ثم جعل الحياة اليومية مستحيلة على جنود الاحتلال فى المنطقة ووضعهم باستمرار فى حالة فزع وخوف .. وكانت خطة الفدائيين هذه تقوم على الضربات السريعة المفاجئة فى الظلام ثم الانسحاب فى سرعة قبل أن يتنبه العدو بما حل به من خسائر ودمار ، وقد اشترك السادات فى هذه المعارك ، كمناضل ثورى ، وأبلى بلاء عظيما ضد جنود الاحتلال ، وكاد أن يفقد حياته أكثر من مرة .. وكانت هذه المعارك تشتد عنفا ، يوما بعد يوم ،

الأمر الذى وصل الى حد أن دخلت مجاميع كاملة من هؤلاء الفدائيين فى مصادمات مسلحه مع قوات الاحتلال مباشرة ، وكانت أبرز هذه المعارك ، تلك المعارك التى استشهد فيها مجموعة من العمال والطلبة ، وبينهم « مصطفى أحمد محمود » ــ الشهير بالمردنلى [1] ؛ والذى كان عاملا فى معسكرات العدو وخبيرا فى بث الألغام . وقد علق العدو البريطانى على هذه المعارك وعنفها بقوله : « ان خطر هذه الأحداث ، ليس فى أنها تلحق بنا الخسائر فى المعدات والعتاد ، بل ان وراء هذه التحركات مجموعة من الضباط والمثقفين والعمال ، يديرونها من خلال تنظيمات دقيقة ، وقد وصلت هذه المعارك الى درجة الصدام المسلح المكشوف » .. وقد كان انسحاب ثمانين ألف من العمال المصريين فى القناة ، لم يترددوا فى التضحية بأجورهم ، ضربة كبرى للعدو لم يكن يتوقعها ، وقد جعل هذا الانسحاب المعسكرات البريطانية فى حالة سيئة ، وقد لعب الكونستبلات الوطنيون ، وضباط سلاح الاشارة ، وجنود البلوكات ــ ومعظمهم من أبناء الريف ، دورا بارزا فى هذه المعارك ، وكان دور الضباط الأحرار ، وعلى رأسهم السادات ، واضحا فى سلسلة هذه المعارك الوطنية . وقد تضامنت الكثير من القوى الديمقراطية فى العالم مع هذه الأحداث ، حتى ان صحيفة « الديلى ووركر » الانجليزية كتبت فى تلك الفترة ، تطالب بريطانيا بالجلاء عن القناة . وأحس الانجليز بالخطر الذى يهدد ، بضياع لا المنطقة من أيديهم فحسب ، بل يهدد بضياع مصر كلها ، اذا ما قامت ثورة فى البلاد .

وقد عبرت وزارة الخارجية البريطانية عن مخاوفها هذه فى نشرتها الرسمية بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٥١ ، عندما كتبت تقول : « لقد كان من

---

(1) الشهيد مصطفى احمد محمود ــ الشهير بالمردنلى ، شهيد معركة القرين ، وهو من اهالى الشرقية . وقد استشهد فى سلسلة هذه المعارك المئات من الوطنيين من طلبة وعمال وجنود ، وبينهم : محمد رشاد جريش ، سلامة ابراهيم ، سعيد ابو شعيشع ، محمد عبد العال هدهد ، عباس الأعسر ، أحمد المنيسى ، والطيار احمد عصمت ، والطفل الشهيد نبيل منصور ، الذى اشترك فى هذه المعارك ..

انو اجب ان نهــوى بقبضة من حديد على رؤوس متزعمى هــذه الحركة الاجراميــة » ، وكانت بالطبع الصحيفة البريطانيــة ، أو نشرة الخارجية الانجليزية ، تقصد حركة الكتائب والكفاح المسلح والضباط الأحرار الذين كانوا وراء حركة الكفاح المسلح فى القناة . وقد تحدى ضباط الجيش الأحرار قرار السراى ورجال السراى بالغاء اجتماع الجمعية العمومية لنادى الضباط فى ١٨ ديسمبر ١٩٥١ ، واجتمعوا ، ليقرروا عقد انتخاب فى ٣ يناير ١٩٥٢ ، وعقد الضباط جمعيتهم العمومية ، فتحدوا السراى مرة أخرى برفضهم تشكيل سلاح الحدود المسيطر عليه رجال السراى ، واعتباره سلاحا منفصلا ثم انتخاب مجلس ادارة النادى من أعضاء ليس فيهم العناصر التى ترشيها السراى وكبار رجال المال .

●

٢٦ يناير ١٩٥٢ ..

القاهرة تحترق ..

تبدو كروما ــ نيرون قبل الميلاد ..

القاهرة تحترق ، وعشرات ، بل المئات ، يعتقلهم البوليس السياسى ..

انه لا زال يذكر هذا اليوم ، تماما ، وكأنه حدث بالأمس .. والذى جعله يعود الى تذكره ، بعض من فقد من أصــدقاء ومعارف فى تلك الفترة .. بعضهم سقط كشهداء فى معارك القناة ، والبعض سقط فى قبضة البوليس السياسى والسراى ..

كانت القاهرة ، تبدو ككتلة ملتهبة من نار .. ولم ينم ليلتها أهل مصر من الخوف والرعب والفزع ، فمدينتهم تحترق ، والرعب يسيطر على النفوس ، والشهداء كثيرون .. وقد بدا ذلك اليوم : ٢٦ يناير ٥٢ ، بعصيان خطير ، اذ تجمع كافة عمال المطار وجنوده وموظفوه فى القاهرة حول أربع طائرات بريطانية ، وحالوا دون نزول الركاب ، كما منعوا تموين الطائرات بالوقود. ومع هذا العصيان ، تمرد جنود البلوكات فى الاقاليم ، وخرجوا يحملون

أسلحتهم فى مظاهرة عامة ، معبرين عن سخطهم على ما أصاب زملائهم فى معارك القناة ، والكثيرون منهم ، خرجوا فى القــاهرة فى مسيرة كبرى ، ينادون بطلب السلاح ، وساروا مخترقين الأزهر وميدان الاسماعيلية ، حتى وصلوا الى جامعة القاهرة ، وخرجت مظاهرة ضخمة من الجامعة فى الساعة الحادية عشر صباحا ، قاصدة مجلس الوزراء ، والتحمت بهذه المظاهرة الضخمة مظاهرات عمال العنابر والسكك الحديدية وطلبة الأزهر والمدارس الثانوية ، وأمام ذلك لم تملك حكومة الوفد التى كانت فى الوزارة فى ذلك الوقت الا أن تعلن عن قطع علاقاتها نهائيا مع بريطانيا وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي ، وفى نفس الوقت الذى كان يحدث فيه ذلك فى مجلس الوزراء ، بدأت تشتعل الحرائق فى القاهرة ، وكانت بداياتها فى كازينو الأوبرا وسينما ريفولى ، ثم لم يأت الليل الا وكانت القاهرة ، مبانى وسط العاصمة وفنادقها ومحلاتها العامة ودور السينما تحترق .. وكان واضحا من وراء حريق القاهرة ، فقد ارادت السراى أن تقول ان المظاهرات كانت وراء ذلك ، لتلعب لعبتها ، وتفرض الأحكام العرفية وحظر التجول فى البلاد ولكن هذا القهر لم يزد مصر الا التهابا ، ولم يزد حركة الضباط الأحرار الا تماسكا . وفى الحقيقة ، أنه لو كان هناك تنظيم سياسى قوى فى ذلك الوقت ، لقامت ثورة فى تلك الليلة ، لأن الظروف كانت مواتية ، وكانت القاهرة فى حالة فوضى كاملــة ، وقد كتبت صــحيفة « الديلى ووركر » الانجليزية تعلق على أحداث حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، بقولها : « كانت القاهرة فى حالة فوضى كاملة ، حتى أن ابراهيم امــام رئيس البوليس السرى ، والحكمدار ، وغيرهما من المسئولين عن الأمن كانوا يقفون يتفرجون ، دون أن يتدخلوا ، لأنه كان من المفروض الا يتدخلوا ، وكانت البلاد فى حالة فوضى كاملة .. فلو كانت هناك قوة منظمة ، لاستولت على السلطة بسهولة بدبابتين أو ثلاثة ومنشور يذاع فى اذاعة القاهرة واغلاق للمطارت والموانىء حتى تسيطر تماما على الأمور » .

●

كان يقرأ فى كتاب لفولتير (١) ، وهو يسحب نفسا عميقا من غليونه : « اذا رأيت ظلما ، وسكت عنه ، فأنت تشارك فى هذا الظلم ، أى انك اذا رأيت رجلا أو امرأة تجلد بالسياط ويسيل الدم من جسدها دون أن تحرك ساكنا ، فأنت يد الجلاد ما لم تعترض أو توقف المأساة كذلك اذا شاهدت أهل الدين فى الكنيسة يسرقون أو يدجلون ، فانت ضد الدين ، اذا لم تفعل شيئا . ان الحرية ، ليست فى انك تتنفس فى الهواء الطلق ، بقدر ما هى كمية الهواء الذى يسمح بالحركة لكل الناس فى أن يتحركوا معا من أجل عمل عظيم . أناشدكم يا من تنادون بالحرية أن تسحقوا أهل الخزى والعار ، بمختلف ألوانهم ان أردتم أن تكونوا أحرارا » . أعجبته الكلمات ، وأخذ يرددها ، مرة ، ثم مرة ، وأحس بمعنى الكلمة ، عندما ترتبط بعمل أو قيمة عظيمة ، وهو كاتب وفنان وأديب ، الى جانب كونه مناضل وثورى وزعيم : أنور السادات ..

طائر بلا عش ..

لا يخشى على نفسه من الجوع والعطش ..

لا يخشى الا القيود ، لأنه الى الحرية يسعى . .

كان احساسه وهو يقرأ كلمات فولتير ، مثل احساس الفيلسوف جون لوك ، عندما قرأ كتاب هوبز عن (الملوك) ، ورأى كيف أن الطهريين (٢) قد قتلوا الملك شارل الأول عام ١٦٩٤ ، فتساءل هو : اذا كان للناس الحق فى أن يخلعوا ملوكهم المستبدين ويقتلونهم ، ويمحوا استبدادهم ، فلم

---

(١) فولتير الكاتب والفيلسوف الفرنسى (ولد سنة ١٦٩٤ وتوفى سنة ١٧٧٨) بشر بالثورة فى مقالاته ، وارهص لاول ثورة بورجوازية فى العالم ، ومات قبل ان تقوم بعام واحد . فقد قامت الثورة فى عام ١٧٨٩ ، وقد كتب فولتير سبعين كتابا ، كلها فى الدفاع عن الشعب ، وكلها تحث الناس على الثورة ضد الظلم والطغيان بمختلف اشكاله ..

(٢) « الطهريون » ، هم ما عرفوا فى تاريخ الاصلاح الدينى بالبيروتانز ــ وكانوايسعون لتطهير الكنيسة والمجتمع من الأدران التى أصابتها ..

يرضون باستبداد الكهنة ولم لا يختار الناس الأديان التى تقرهم ضمائرهم عليها ؟

وعند كلمات وعبارات أخرى لفولتير ، وقف السادات يتأمل معانيها أو مغزاها .

●

وبين هذه الكلمات نذكر :

« الثورة ، أن تغير ، حالة الناس من قهر الى حرية ، حتى يستقيم حال البشر »

وأيضا :

« ما قيمة الحياة دون هدف نبيل ؟ ما قيمة الانسان اذا لم يكن مفيدا للوجود ؟ بمعنى ان يتحرك فى اطار ما يعطى للحياة كما لها ان امكن .. ولكن ، ابدا ، لا يصمت . فالصمت جمود . والجمود موت . والموت سجن ما بعده سجن ! »

وأيضا :

« الطغيان لا يقاوم الا بطغيان مثله . والظلم لا يحارب الا بظلم مثله . وبكلمات اخرى اقول ، ان الظلم الواقع على الناس ، لا يمكن رفعه بالكلمات الطيبة او بالتبرك أو باللجوء الى الكنيسة ، وانما بمقاومة هذا الظلم ، وبعنف »

ومثلما وقف عند كلمات فولتير ، وقف كثيرا عند رؤى وفلسفات وقراءات وأفكار العديد من المفكرين والفلاسفة . وقد قرأ السادات مختلف ألوان الفكر والثقافة ، فهو قد آمن منذ البداية ، أنه لا يمكن صياغة ثورة بدون نظرية علمية ، وكذلك لا يمكن خلق ثورى أو مناضل بدون فكرعلمى ثورى .. وهو لم يلجأ الى فكر بذاته ، فضل أن يقرأ كل ما يصل الى يديه ليعرف كل الأفكار والنظريات والآراء ، قرأ الفلسفة المثالية والمادية ، قرأ الفكر التجريبى والفكر الجدلى ، اضطلع على انظمة الشرق والغرب والدول

التى تتخذ من الاقتصاد الموجه نظاما لها ، لكنه أبدا لم ينحاز الى فكر بذاته بل اتخذ من كل ما قرأ زادا فكريا وثقافيا يعينه على استشراف فكر مصرى نابع من الأرض المصرية ، فكر لا يتحيز ولا ينقاد الى عقائد ونظريات متفرنجة أو متغربة عن الواقع المصرى . لقد أحس السادات ، من خلال تجاربه العديدة ، كمناضل ثورى ، وكمثقف متقدم ، أن « الانحياز » لنظرية ما أو عقيدة ما (مستوردة) ، هو ضرب من « الدوجماتية » وان مصر التى ترعرعت على أرضها حضارة عمرها سبعة آلاف سنة ، قادرة على أن تجد فكرها المتميز الواضح ، من خلال التفتيش عن كنوزها الكامنة فى أرضها وداخل الانسان المصرى نفسه . . وما الثقافة العالمية ، أو الفكر الانسانى ، الا معبر وقنطرة للاحتكاك بمتغيرات العصر ، للافادة منها ، بما يخدم أفكار مصر الأصيلة نفسها . . لقد قرأ مختلف الأفكار والمناهج ، ابتداء من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، ابتداء من رديارد كبلنج وتشرشل وكليمنصو الى ماركس ولينين وجيفارا ، ابتداء من عتاة الفكر التجريبى والفلسفة العملية والنفعية الى الماركسيين والجدليين والماديين ، كما قرأ تاريخ حضارات الشعوب من مصرية قديمة الى هندية وصينية الى اغريقية ولاتينية ، وقرأ الفكر الاسلامى والتراث العربى على اختلاف عصوره وعهوده من الجاهلية الى صدر الاسلام الى الأمويين الى العباسيين وما أعقبهم من تطورات فى مدارس وتيارات الفكر العربى ، ومن خلال ذلك كله أحس ان الفكر المصرى المعاصر ، لا بد أن يتمثل كل متغيرات العصر ، لكنه لابد أن ينبع من الأرض المصرية نفسها : « حضارة اليوم ، وحضارة الغد ، امتداد أصيل للحضارة المصرية ، وتمثلها لكل متغيرات العصر » .

●

كان نابليون بونابرت معجبا بالشاعر الألمانى جوته ، وقال لأصحابه ذات مرة : « هل تريدون أن تروا رجلا ؟ هذا هو » ، وكان ابراهام لنكولن معجبا

بالسيدة الصغيرة التى أثارت الحرب الكبيرة ولعبت دورا كبيرا من أجل القضاء على الرق والدفاع عن الديمقراطية ، وهى الكاتبة هاريت ستاو ، مؤلفة (كوخ العم توم) ، وكان أرنستو جيفارا ، معجبا أشد الاعجاب بالكاتب الأمريكى أرنست همنجواى ، وقال عنه « انه مخلص فى الكتابة الى حد الموت ! » ، وأيضا ، الشاعر الشيلى الذى قتلته الفاشية منذ فترة ليست بالقصيرة ، بابلو نيرودا ، كان شديد الاعجاب بالكاتب التشيكى جوليوس فوتشيك ، وقال عنه : « اننا نعيش فى عصر سوف يطلق عليه يوما ما فى الأدب والسياسة عصر فوتشيك » .. وأيضا ، أنور السادات ، القائد ، والمعلم ، والبطل ، والزعيم ، الانسان والفنان ، له كتابه الذين يعجب بهم وقرأ ويقرأ لهم ، فهو شديد الاهتمام بالأدب والفن ، واشتغل فترة ليست بالقصيرة كصحفى وأديب ، ومارس فنون الكتابة على اختلاف ألوانها ، من مقال سياسى الى قصة الى كتابة الشعر ، لذلك تراه قد انغمس فى قراءة أعمال الكثيرين من الأدباء والفنانين ، بين من أحب الكاتب الانجليزى تشارلز ديكنز ، الذى كتب (قصة مدينتين) ، و (والآمال الكبار) ، و (مستر بيكويك) ، و (الصغيرة دوريت) ، و (أوليفر تويست)

وقد أحبه ، لبساطته وعمقه واصالته فى التعبير وارتباط كتاباته بالاصلاح الاجتماعى فى المجتمع الانجليزى ، فهو الكاتب الذى تنبه الى حقيقة هامة عندما تحدث عن لندن الارستقراطية ولندن الفقيرة ــ قاع المدينة ، فقال : « يبدوان ، كأمتين ، داخل مدينة واحدة ». ونفس التعبير استخدمته من بعده الماركسية ، وحاول أن يحلله ماركس ثم لينين فى كتابيهما : « الثورة والماركسية » ، و « الدولة والثورة » .. وأعجب ، أيضا بكتابات : برناردشو ، و هـ.ج . ويلز ، وسومرست موم ، وبيرل باك ، وليو تولستوى ، ولويد دوجلاس ، ومارك توين ، وبرتراند رسل ، وغيرهم .. كما أحب كتابات طه حسين ، ومحمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، ويوسف السباعى ،

ونجيب محفوظ ، ومصطفى محمود ، واحسان عبد القدوس ... والفن ، فى نظر السادات ، ليس وسيلة لتزجية وقت الفراغ ، فهـو لا يؤمن بنظرية (الفن للفن) ، وانما الفن وسيلة لتطوير المجتمعات والسـير بالواقع الى الأ فضل ، والأفضل حضاريا وفكريا وماديا .. ومن الكتب الأثيرة الى قلب السـادات : الارض الطيبـة (تأليف بيرل باك) ، الرداء (تأليف : لويد دوجلاس) : كوخ العم توم (تأليف : هاتربيت ستاد) ، البعث (تأليف : ليو تولستوى) ، على هامش السيرة ــ الأيام (للدكتور طه حسين) ..

والسياسى فى نظر السادات فنان بطبعه ، والعكس صحيح ، والسياسة والفن ، لا يمكن أن ينفصلا عن بعضهما ، فكلاهما يشارك فى بناء الانسان، ويعملان على تقدمه فكريا واجتماعيا الى الأمام ..

●

فى كتاب جان بول سارتر عن فيديل كاسترو (عاصفة على السكر) ، يقول سارتر : « ان السياسة المعاصرة ، لا تعنى نصائح ميكيافيللى لأميره لورنزو دى مديسبس ، وأن تحاول أن تقتل خصمك قبل أن يقتلك ، وان تضع السم الزعاف فى كأس صديقك ان اختلف معك على السلطة ، وليست أيضا السياسة : الغاية تبرر الوسيلة .. انما السياسى لا بد ان يكون بسيطا قويا ، متزنا ، حكيما ، مدركا لكل متطلبات الجماهير من ناحية وللمرحلة ، ومدركا أيضا لمعطيات الظروف الخارجية » . ومن نفس المنطلق ، نجـد السادات يتحرك ، فى بساطة ، وفى وعى ، وفى ذكاء ، وفى حكمة ، معبرا عن متطلبات المرحلة فى اصالة ، متفهما لكل متغيرات العصر ، محاولا كسب أكبر عدد من الأصدقاء وربطهم بالقضية المصرية والعربية على حد سواء ، فهـو يرى ان كلمة الصدق والحكمة ، أقوى ألف مرة من الفانتوم والميراج ، بل والقنبلة الهيدروجينية .

وهو لا يؤمن بسياسة العنف ، ولا القهر ، بل يدمغ كل ما من شأنه أن يعوق حريات وديمقراطية الجماهير ، وطوال فترة الخمسينات والستينات ،

وقبل أن يشغل منصبه كرئيس جمهورية فى أكتوبر ١٩٧٠ ، كان هو الوجه المشرق للحريات والديمقراطية ، وكان هذا يتضح من خلال مقالاته التى كان ينشرها على صفحات مجلة (التحرير) وعلى صفحات جريدة (الجمهورية) فلطالما تكلم عن الحريات والديمقراطية ، وأثرهما فى خلق المواطن الحر الصالح ، الذى يمكنه أن يشارك فى المد الثورى ويدفع بالثورة الى الامام فـ « ثورة بلا حريات ولا ديمقراطية ، لا يمكن ان نسميها ثورة ، وثورة تحمل هذه الشعارات كمجرد لافتات ، فى النهاية حركة جوفاء سرعان ما تنهار ، وطالما أن الثورة لم تصل الى قلب الجماهير وتحرك نبضها للعمل ، فهى قاصرة ومبتورة » .

وكان السادات ، يتحدث فى قضايا الحريات والديمقراطية ، بشكل دائم لا داخل مصر وفى المنطقة العربية فحسب ، بل ومع الزعماء الذين التقى بهم ، ففى الخمسينات التقى بنهرو وتيتو ، ودار الحوار بينه وبينهما حول «مفهوم الديمقراطية » وأهميته فى الدفع الثورى ، وفى نجاح الحركة الثورية ... ومن خلال لقائه « بنهرو » عرف ان « المعارضة » ، داخل صفوف الشعب هى نوع من الظروف الصحية التى تضمن الحريات للمواطن ، وتجعله يتبين الخطأ من الصواب ، ومن « تيتو » ، عرف كيف ساهمت الديمقراطية فى انجاح نظامه ، رغم ما تعرضت له يوغوسلافيا من هجمات داخلية وخارجية ، ففى الداخل كان أعداء ليسوا بالهينين ، وفى الخارج وصفت يوغوسلافيا بأنها تنسلخ عن الأممية وتخلق نظاما لعبادة الفرد ، وهو « التيتويه » ، لكن حريات الشعب والديمقراطية ، أكدت نجاح التجربة اليوغوسلافية وسلامتها ، وأصالتها ..

وبنفس روح البانديت نهرو ، ومن نفس منطلق حرية الفكر والاتزان حتى مع « الخصوم » ، قال السادات عندما قدم بيانه الى مجلس الأمة فى ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ عقب الاستفتاء الشعبى على رئاسة الجمهورية .. قال انه سعيد بأن جزءا قال : (نعم) ، وآخر قال : (لا) ، فهذا يمثل ظاهرة صحية لها

احترامها . وكان وهو يؤكد ذلك ، يذكر تلك المقابلة التى تمت بينه وبين نهرو منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، عندما رآه يصافح خصومه بمودة وحب معلنا عن روح المفكر الموضوعى الحقيقى ، الذى يستمع الى كل الآراء ، ويبلور الموقف تجاه الشعب فى صدق أصيل .

قال السادات تعليقا على ذلك الاستفتاء :

« لا بد أن أصارحكم أننى اعتز بالنتيجة التى اسفر عنها الاستفتاء الشعبى . ان أكثر من ستة ملايين قالوا : (نعم) وأكثر من سبعمائة الف قالوا : (لا) . وأعتبر بأمانة ، أن هذه ظاهرة صحية ، وان كنت أود ان أضيف اعتقادى الشخصى ، بأن الذين قالوا : (لا) ، لم يقولوها اعتراضا على الثورة . وانما كان قولهم لها تحفظا على المرشح لرئاسة الجمهورية نفسه . ان ذلك ــ وأصارحكم القول ــ لم يسبب لى أى ضيق ولا اعتبره مدعاة للاسف . انما أعتبرته ظاهرة صحية ، فان هذا الشعب لا يجب أن يمنح ثقته المطلقة لفرد بعد جمال عبد الناصر ، بل لقد كان جمال عبد الناصر نفسه أعلى الأصوات تحذيرا من اعتماد الأمة على الفرد . وانني أعدكم أننى ساكون للجميع للذين قالوا : (نعم) ، وللذين قالوا : (لا) . ان الوطن للجميع ، والمسئول فيه مؤتمن على الكل بغير استثناء . لقد شرفنى ان يقول أكثر من ستة ملايين رأيهم بنعم ، واعتبرت ذلك حسن ظن مسبق اعتز به ، وأرجو الله أن يمنحنى القدرة على أن أكون أهلا له ، وجديرا به .. ولقد شرفنى ، فى الوقت نفسه ، أن يقول أكثر من سبعمائة الف رأيهم بلا ، ولم أعتبر ذلك رفضا ، وانما اعتبره حكما مؤجلا ، وأرجو الله ان يمنحنى القدرة على ان اصل بالأمانة الى حيث يجب أن تصل الأمانة ، وان يجىء الحكم المؤجل قبولا حسنا ، ورضا من الناس والله فى نهاية المطاف » .

أحس السادات بالرضا الكامل ، لدى ما حدث فى ذلك اليوم ، لأنه أحس بأن (المصرى) يقول : (لا) ، ويقول ، أيضا : (نعم) .. وهذه أوليات المناخ الصحى الذى ينبغى ان يوسع رقعته ، كهدف ديمقراطى يرمى اليه .

●

كانت ليلة عاصفة ، حقا ، تلك الليلة :

ليلة ١٥ مايو ١٩٧١ ..

فقد أعلنت ميلاد مصر من جديد ..

مصر التى تألمت كثيرا ، ونكست ، وهـزمت ، وسجنت ، لا لشيء ، الا لعدم وجود ظروف صحية تحمى (المواطن) ، ولتفشى مراكز القوى ، ولتسبب وتسلط القيادات الانتهازية والتسلقية ..

وكان السادات ، يحس ، فى أعماقه ، ومنذ وقت طويل ، أن كل هذه المفاسد والمباءات والأمراض ، هى الأسباب الأساسية التى أوصلت مصر الى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وكان يعلم عـلم اليقين ، بأن مصر لن تنهض ، ولن تتخلص من (كبوتها) هذه ، وتستعيد روحها من تحت ركام العتمـات واليأس والظلام ، الا اذا ضربت هذه المفاسد وقضى عليها ..

وكانت حركة التصحيح بين يومى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، والتى تحولت فيما بعد بما يمكن أن نسميه « ثورة » ، لأنها غيرت من العلاقات الاجتماعية والقيم والأفكار والأهداف ، الى كل ما من شأنه أن يعيد للثورة شبابها ، حتى تستعيد مصر روحها من جديد ــ هذه الروح التى افتقدتها تحت رماد اليأس والجراح لاكثر من خمس سنوات .. وكان ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣ نتيجة طبيعية لتصحيح مصر ، فقد انقشع الضباب ، وبانت الرؤية واتضحت ، وعبر (الانسان المصرى) لا الى الشاطىء الآخر من القناة ، واستعاد (أرضه) ، بل وأيضا ، وهو الأهم ، استعاد روحه ونفسه التى افتقـدها سنوات وسنوات ..

●

لقد سحر السادات العالم ، بأفكاره وأعماله ، فى فترة وجيزة ؛ فخلال سنوات أربع منذ « ثورة التصحيح » حتى الآن ، استطاع أن يسـتعيد مصر ، من خلال (العبور العظيم) ، وسيادة القانون ، واطلاق الحريات

الوطنية والديمقراطية ، وتحركه العظيم الذى اكتسب على المستوى العربى قوة عظيمة من العرب جمعتهم وأعادت لهم من خلال الارتباط النفسى والمعنوى والمادى والحضارى ووحدة الصف العربى ، وعلى المستوى العالمى جعل كل العالم يرتبط بمصر ويؤمن بفكرها وعدالة قضيتها ، حتى ان الكاتب الأمريكى نيقولاس بروفيه قال عن السادات :

« وفق السادات ، توفيقا يكاد يكون معجزا وخارقا ، فالى جانب الاستحواذ على انتباه العالم ، ثبت للعالم كله ، ان ما حدث فى عام ٦٧ كان ظرفا طارئا ، زيفا مضللا ، وهكذا أعاد الشرف والكرامة الى المنطقة بعد أن افتقدتهما لفترة .. »

بينما قال الكاتب الفرنسى جاك كوبار :

« ان حرب اكتوبر ، جسدت شخصية أنور السادات ، رمز مصر نحو التقدم والتطور ، وغيرت من خريطة الوطن العربى فكريا ونفسيا ، الى جانب التغير العسكرى الذى حدث وهذا غير من عواطف العالم تجاه مصر ، فمنطق السادات ليس منطق حرب بالقدر الذى يبدو كمنطق سلام يستهدف حل القضية فى جوهرها لانهاء حالة الالتهاب والتوتر فى المنطقة»

وكتبت مجلة « التايم » الأمريكية ، تعلق على رحلته الى سالزبورج ولقائه بالرئيس الأمريكى جيرالد فورد فى الفترة الأخيرة ، تقول :

« ان شخصية السادات ، هى لسان حال العرب ، انه يمثل مائة مليون عربى ، ينزعون الى حل قضيتهم وانهاء حالة التوتر فى المنطقة ، ومنذ عام ١٩٤٨ ، منذ الصدام والحرب بين العرب واسرائيل ، لم تأت الى المنطقة شخصية جادة ، وحكيمة تنزع الى حل القضية وتقنع الرأى العام العالمى كشخصية السادات ، وهذه المحادثات واللقاءات التى تمت فى سالزبورج من الممكن ان تكون صفحة هامة فى تاريخ انهاء الحرب التى استمرت فى المنطقة والهبتها طوال ٢٧ عاما »

بينما قال مراسل صحيفة « الاكسبريس » :

« ان شخصية السادات ، تؤكد فى كل يوم ، انه شخصية غير عادية ، فهو ليس بطلا قوميا للعرب ، وليس سياسيا بارعا وحكيما ومتزنا فحسب ، بل هو اكثر من ذلك .. انه يؤثر فى مسار دفة السياسة الدولية وفقا لمتطلبات المنطقة واهدافها التى يسير بها فى اخلاص نحو انهاء حالات التوتر والحرب التى ارهقتها طويلا » .

●

أن أنور السادات ليس بطلا قوميا فحسب ..

بل ولا شخصية سياسية عالمية محنكة فحسب ..

بل ولا لسان العرب المتحدث باسم متطلباتهم السياسية والحضارية والفكرية الملحة فحسب ..

انه قائد ، ومعلم ، وافراز للمرحلة الحضارية الانسانية ككل — تلك المرحلة التى يحياها عصرنا ، ولا تعيشها المنطقة فحسب ، فهو لم يعد يؤثر فى المنطقة فكريا وحضاريا وسياسيا فقط ، بل انه أصبح يؤثر فى العالم ككل ، بفكره ، بفلسفته ، بحكمته ، بشخصيته الفريدة الفذة ..

انه فارس الأمل .. لكل الظامئين للحريات ..

انه فارس الأمل .. لكل المتعطشين للديمقراطية ..

انه فارس الأمل .. لكل الأحداث التى ستشهدها المنطقة العربية ، لتواصل ركبها الحضارى ، وفقا لمتغيرات العصر ، لتعوض ما فاتها من تقدم علمى وحضارى ، قائم على الثورة الثالثة فى العلم والصناعة : ثورة التكنولوجيا ، القائمة على الالكترونيات والكومبيوتر ..

وان ما يحدث ، اليوم ، على الأرض العربية ، ستفخر به الاجيال القادمة فهو يمهد ويرهص لكل ما من شأنه أن يكون مجدا ومفخرة للقادمين فى

الغد .. سيقولون ذات يوم : ان السادات مر من هنا ، وفارس الأمل صنع كذا ، وفعل هذا ، وحول المنطقة من مجتمعات قبلية ومن حالة يأس قاتلة الى دولة عصرية تقوم علاقاتها على التقدم الحضارى والتطور العلمى والروح العربية الأصيلة ..

وبما كل هذا ، ما جعلنى ، أقدم على هذه المحاولة ، فى أن أكتب مؤلفا كهذا « السادات .. وثورة التصحيح » ، فكيف أحيا أياما عظيمة كهذه ، أشبه بالمعجزات ، ولا أكتب عنها ، وكيف أرى روح مصر يتفجر دفئها من جديد لتصنع المعجزات ، ولا أسجل عنها خواطرى ورؤياى .. وكيف أرى أمة بأسرها : مائة مليون عربى يتطلعون الى مزيد من الأعمـــال التى تنقل المنطقة الى ركب العصر الحـــديث ، ولا أعبر عن خلجاتى وانطباعاتى عن « فارس الأمل » ـــ المخلص الذى جاء كافراز للمرحلة ، ولأنبل ما فى أرضنا وأرواحنا وتاريخنا وحضارتنا من قيم وفكر ونبل ؟

ان كل هذه الأحاسيس ، كانت وراء هذه المحاولة ، التى أتمنى أن أكون قد وفقت فيها ، ومهما كتبت ، ومهما قلت ، ومهما حاولت أن أحلل وأفسر وأحقق وأقرأ هذه الأيام ، فلا أخالنى أصل الى كبد الحقيقة ، فما يمر بمصر أشبه بالحلم .. الحلم العظيم الذى يصل الى حد المعجزات ..

القاهرة : أكتوبر ١٩٧٥ .

عبد المنعم صبحى

الفصل الأول

من القرية .. إلى الرئاسة

((ان السنين التى عشتها فى القرية قبل ان انتقل الى المدينة ، ستظل بخواطرها وذكرياتها زادا يملأ نفسى ووجدانى بالصفاء والايمان .. فهناك ، تلقيت أول دروسى فى هذه الحياة ... تعلمتها على يد الارض الطيبة السمحة ، التى لا تبخل على الناس بالزرع والثمر ، وتعلمتها من سماء قريتنا الصافية المشرقة ... تعلمتها فى ظل الجميزة الخضراء ، الصامدة ، وعلى لسان الصفصافة الخجول الوديعة .. تعلمتها على حافة الجدول الصغيرة ، الذى ينقل الى الحقول ترياق الحياة فى رضا وقناعة ... تعلمتها فى ظلال الأمسيات البريئة مع زملائى من شباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر فى شوارع القرية الساكنة الهاجعة ...))

انور السادات

قرية

صغيرة وادعة آمنة ، لا تختلف ملامحها عن أية قرية مصرية ، لا فى نبتها ولا فى بيوتها ولا فى طرقاتها المتعرجة . رائحة الارض الطيبة تمتزج بعطر النبت والأزهار أينما سرت وأينما وقعت قدميك . لا تبعد عن القاهرة بأكثر من ساعة ، تقطعها فى المواصلات العادية .. القطار أو الأوتوبيس .

قرية « ميت أبو الكوم » ، التى شهدت ميلاد القائد والمناضل والمعلم : محمد أنور السادات .. هذه القرية الصغيرة ـ الكبيرة ، التى لا يسكنها أكثر من ٢٥٠٠ نسمة ، ولا تزيد مساحتها عن ألف فدان ، تحتل مكانة عالية فى حياة السادات ، وتمتد داخله مورقة زاهية ، تلقى الكثير من الظلال والأبعاد على فلسفته ومعتقداته وأفكاره ، فهى القرية التى نما بين دروبها ، وتنفس عطرها ، وشهدت صباه وشبابه ، وتلقى فيها أول تعليمه ، وطبعت على وجدانه الصور الأولى التى شكلت علاقته بالوجود . والانسان ـ عموما ـ ابن البيئة ، نبت لها ، افراز لها ، ازدهار لها . وخير الرجال من قادة الى ساسة ومفكرين ، كانوا انعكاسا للبيئة ، وما نسج على وجدانهم منذ أيام الطفولة والصبا ، أثر فى تكوينهم الى حد كبير ..

غاندى .. الزعيم الهندى الكبير ، حمل فى أعماقه طوال رحلة العمر صورة القرية الصغيرة البائسة التى ولد على أرضها ، صورة الهند المصغرة ، حتى أنه قال : « دائما ، كنت أحمل داخلى صورة العذاب والبؤس والشقاء التى رأيتها منذ كنت صغيرا فى قريتى . ان صورة الشقاء هذه ، نموذج مصغر لصورة الشقاء الكبرى التى تحياها الهند ، والتى لا بد أن تسقط عن قلوب أبنائها حتى يتمكنوا من العيش بلا مرارة أو تعاسة أو مهانة » ..

ابراهام لنكولن .. محرر العبيد ، وحامل لواء الديمقراطية الأمريكية فى منتصف القرن الماضى ، كان لطفولته وللظروف الصعبة التى نشأ فيها فى

الغابات والأنهار مع الفلاحين والصيادين ، أثرها فى جعله واحدا من أبطال التاريخ . فقد ولد ابراهام لنكولن فى كوخ خشبى صغير داخل مزرعةصغيرة فى غابات كنتكى المعروفة الآن بلارو كاوتتى ، وقد كانت أيام طفولته وصباه معذبة شقية ، أتاحت له أن يرى بلاده عن قرب ، حتى انه قال عنـدما نصب رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فى مارس عام ١٨٦١ : « لن أنسى طول ما حييت ، تلك الأيام العصيبة التى عشتها فى صباى ، هائما شريدا ، فقـيرا تعسا ، انتقل من فقر الى فقر ومن عذاب الى عذاب ، هذه الأيام العصيبة هى التى صاغت ابراهام لنكولن ، فالأفراد كالأمم ، حالات الشقاء والأزمة تشارك فى صنعها وصياغتها .. لو لم أكن تعسا لما أحسست بتعاسة وطنى ، ولو لم أكن شقيا لما أحسست بعبودية وطنى » ..

جيفارا .. كذلك ، كان للظـروف الصعبة التى نشأ فيها فى الغـابات والأنهار ، مع الفلاحين والصيادين ، أثرها فى جعله واحدا من أبطال عصرنا ..

نهرو .. كذلك ، كان للظروف القاسية التى عاشها فى قرى الهند ، أثرها فى صياغة شخصيته وفى اقترابه من قلب بلاده ، حتى انه قال : « القـائد لا يصنع من هباء . كل خلجة من خلجاته ، كل تصرف من تصرفاته ، انعكاس لتربيته الأولى ، ولا أنكر أن نشأتى الأولى قـد أثرت فى حيـاتى عميق الأثر » ..

كذلك قرية « ميت أبو الكوم » ، كان لها تأثيرها العميق والمتعاظم ، فى تكوين الملامح الأولى لبطلنا . فقد كانت هذه القرية الصغيرة ــ الكبيرة ، بمثابة الجامعة الأولى فى حياة السادات ..

أكثر من يوم عشته داخل قرية « ميت ابو الكوم » ــ قرية السادات ، وأنا أتنفس عطر البيئة الأولى لقائدنا الكبير . هذه القرية التى لا يزيد عدد سكانها عن ٢٥٠٠ نسمة ، ولا تزيد مساحة أرضها عن ألف فدان ، تتبع مركز تلا ــ أحد مراكز المنوفية الثمانية ، وتبعد عن شبين الكوم عاصمة محافظة المنوفية بـ ٢٤ كيلو مترا ، بينما تبعد عن تلا بـ ١٥ كيلو مترا ، وتحوطها قرى

زرقان وطوخ دلكة ــ والأخيرة تتبعها من ميت أبو الكوم من الناحيــة الاداربة والمدنية ، ففيها نقطة الشرطة ومجلس القرية ..

وقرية ميت أبو الكوم ، التى لم تدخلها الكهرباء الا منذ خمس سنوات من الناحية المادية والاقتصادية ، قرية بسيطة ، فقيرة ، الملكيات فيها لا تزيد فى المتوسط عن عشرة فدادين ، وابرز الأسر فى القرية : السادات ، الصباغ ، بدر ، ماضى ــ والأسرة الأخيرة منها عمدة القرية « محمد محمد ماضى » ، الذى التقيت به ، وتحدث معى فى فخــر واعتزاز .. كيف أن هذه القرية الوادعــة الآمنة قــد شهدت ميلاد الســادات ، فقد ولد على أرضها ، فى بيت ريفى صغير ، تحوطه أشــجار الجازورينا والسيسبان والتمر حنه ..

ولد ابن القرية العظيم منــذ ٥٧ عاما ، فى بيت قريب من مسجد سيدى أبو الكوم « ســيدى أبو القــوم » ، الذى يتوسط القــرية ، والذى ينســج الفلاحون حول بركاته وكراماته الكثير من الحكايات . فهم يقولون ، أن « أبو القوم » كان واحدا من رجال « سيدى شبل » ، الذى يعرف بأمير الجيوش ، جاء الى القرية منذ ١٤ قرنا ، واستقر به المقام ، ولما مات أقام أهل أهل القرية له مقاما اعترافا منهم بأفضاله ومآثره على القرية فى البر والجهاد والتقوى ، وسميت القرية التى كانت بمثابة ربوة ، والتى كانت تعرف باسم « عزبة الربوة » ، سميت باسم « أبو القوم » ، وتحورت مــع الزمن الى ميت أبو الكوم ومقــام سيدى أبو القوم ــ أو سيدى حسن الكومى ، يلتف حوله أهل القرية والقرى المجاورة للاحتفال بمولده فى ١٥ أكتوبر من كل عام .. وكثيرا ما كان يذهب بطلنا ، وهو صغير لم يتجاوز سن العاشرة بعد الى المولد مع رفاقه وأصدقائه ، يستمع الى القرآن والابتهالات . فقد كان فى طفولته وصباه محبا للقرآن ، حتى انه حفظ القرآن كله وسنه لم تصل بعد الى الثانية عشر ويؤكد شيخ الكتاب ذلك بنفسه ، وهو الشيخ « عبد الحميد عيسى » شيخ طاعن فى السن ، جاوز الثمانين من عمره . يقول الشيخ عبد الحميد عيسى : « أذكر أن السادات ، عندما جاء الى الكتاب ،

وكان ذلك فى حوالى عام ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ، كان تلميذا جادا ، محبا للقرآن ، واذكر ان أباه قد أوصانى بأن أحفظه القرآن بأسرع وقت ممكن ، ولم يكن الأب يعتقد أن ابنه سيحفظ القرآن كله فى فترة وجيزة كالتى حدثت » .

كان السادات ، الصبى الصغير ، فى ذلك الوقت ، لا يتجاوز من العمر العاشرة ، عندما كان يتردد على مقام سيدى أبوالكوم ، فى الظهيرةوالعصارى يخلع حذاءه ، ويستلقى طلبا للراحة على الحصير — أو « القياس » يردد القرآن ويحفظه .. وفى الأمسيات كان يخرج مع رفاقه وأصدقائه الى الزراعية أو ترعة الباجورية ، يتمشون ، ويتنفسون هواء القرية ، وكانوا يعودون قبل غروب الشمس الى بيوتهم ، لأن قرى مصر كانت تحيا فى العتمات والظلمات من آثار الحرب التى جثمت على صدر مصر طويلا ..

قريبا من مسجد « أبو الكوم » ، يقع كتاب القرية ، أو بعض أطلاله ، التى أعيد ترميمها ، لكن « الشيخ عيسى » ، الذى علم السادات فى طفولته لا زال يذكر ، رغم أن الأحداث مر عليها أكثر من نصف قرن . والشيخ عيسى ، يقابلك بابتسامته الودودة ، وقامته النحيلة ، وجسده المعروق ، يبسمل ويحوقل ، ومن خلال ثمانين عاما ينظر فى وجهك مليا بعينيه الضيقتين الشبيهتين بحبات الخرز ، ويردد : « زارنى هنا . وجلس معى . ولا يمر عام الا ويزورنى ، ويزور أهل القرية . رأيته منذ مدة ليست بالبعيدة . دعا لى بطول العمر ، ودعيت له أنا بالبقاء واخضرار أيامه . ربنا يحفظه لمصر وللدنيا كلها ، ويخلى أيامه كلها نور زى ما خلى أيامنا كلها نور فى نور » .

والشيخ عيسى — أو سيدنا ، كما يناديه السادات ، يذكرك بـ « سيدنا» فى كتاب قرية طه حسين بعزبة الكيلو فى الصعيد ، والذى تحدث عنه فى روايته (الأيام) طويلا .

وبيت السادات ، فى القرية ، بيت صغير ، متواضع ، من دور واحد ، ليس له أسوار . فى الخارج المصطبة والمضيفة التى يجلس فيها مع أهله

وأقرباته اذا ما زار القرية ، وحول البيت ، تنتشر بعض أشجار الجميز والسيسبان والتمر حنة ، وتمتد الدروب لتتشابك بدروب وحوارى اخرى تشكل القرية الصغيرة ــ الكبيرة ..

فى هده الدروب ، نبتت الايام الاولى للسادات . كان طفلا فقيرا ، انشا فى اسرة متوسطه الحال ، جاهدت وبدلت الكثير حتى تلحقه بالمدرسة الحربية ... ان انطباعات الطفولة الفوارة القوية ، التى ظل السادات زمنا طويلا يحسب أنه قد نسيها تماما ، والتى عادت بعد ان مر عهد الأحلام فى حياته ــ هــذه الانطباعات ، هى التى تحدث عنها فى أكثر من مناسبة ، وهى التى شاركت فى صياغته الأولى . فمن خلال علاقته بفلاحى القرية ، تعرف على حيــاة الفلاحين التعساء ، وبالتالى ، تعرف على بؤس مصر ، فالفلاحون يمثلون السواد الأعظم من شعبنا ، وهم يمثلون ٢٠ مليونا من الأنفس ..

نظر السادات حوله بعينيه .. الى القرية الصغيرة .. الى البيوت المصنوعة معظمها من اللبن والآجر ، والى الأشجار ، وعيدان القمح اللينة ، ولم يكن بعد صبيا ثم نظر الى الفلاحين ، الذين يفترشون الأرض تحت شجرة الجميز أو الى جوار الساقيــة أو على الأرض المجاورة للمصرف ، يأكلون الجبن والبصل أو السريس والجعضيض ، ثم تنهد طويلا فى ألم ! كيف يعطى هؤلاء هــذه الخضرة العظيمة ، نبت الأرض ، كل نبت الأرض ، ولا يأخــذون الا الشحيح والشحيح جدا من الطعام .. !

ونظر الى بيوت الفلاحين . معتمــة معظمها . بائسة معظمها .. ليست الا حجرة فى الغالب الأعم ، تعلوها كوة صغيرة ، يتسلل منها الضوء الكابى للشمس فى النهار ، ولا يزورها ضوء القمر فى الليالى الطويلة .. وأحس بالحزن ! كيف يحيا هؤلاء داخل هذه البيوت الوضيعة ، وهم الذين يمنحون الحياة لكل الناس بقوة كدحهم اليومى وبصبرهم الذى لا يفل .. ؟ !

أن السادات الصبى يحلم ..

عيناه تتفتحان عن أمل عظيم .

أمل أن يرى بلاده حرة تبتسم . أمل أن يرى الضحكة فى عينى أهـل قريته الصغيرة . هؤلاء الذين يمنحون النبت والطحين والثمار والبسمات ، لا يملكون القدرة على الابتسام من فرط شقائهم .. !

فى أجازات المدرسة الصيفية ، لم يكن يذهب الى القاهرة أو الاسكندرية كأبناء البورجوازية الموسرين ، بل كان يذهب الى قريته « ميت أبو الكوم » يتنفس مع أبناء الفلاحين الصنيف والعذاب والقلق والشقاء . لقـد كانت طفولته قلقة ، شريدة يملؤها الحلم بأمل عظيم ، أن يرى عيون بلاده بلادموع وبلا تعاسة !

●

علاقة القائد أو المفكر أو السياسى بقريته التى ولد ونشأ وتربى فيها ، لا تنفصل أبدا عنه .. ودائما ، تظل سنوات الطفولة والصبا والشباب حية ملتسعة فى وجدانه ،وبوعى أو بغير وعى ، تتسلل الى أفكاره ومواقفه هذه الثقافات والأفـكار الأولى التى انطبعت فى مخيلته فى القرية . فقـرية «اكترابنسلافا» التى شـهدت طفولة وصـبا الكاتب والمفكـر الروسى ليو تولسـتوى ، الذى كتب « آنا كارنينا » و « البعث » و « الحـرب والسلام » و « الأب سرجيوس » ، لم تنفصل ، أبدا ، عن حياته ولا أفكاره، ولم يكن ليطيق البعد عنها كثيرا ، حتى انه تحدث عن ذلك فى كتابه (عهد الطفولة) ، فقال : « ما أمتع هذه الأيام ، أيام الطفولة التى لا تنمحى ذكراها، وكيف ينسى المرء اللمسات الأولى فى حياته ، فهذه الذكريات عن قريتى ، وعن مزرعة ياسنايا بوليانا الريفية ، لتنعش روحى وتسمو بها ، فهى النبع العظيم لأعظم فيض من السرور يغمـرنى ، وأى وقت هو خير من ذلك الذى لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما فى الفضـائل أجمل فضيلتين : اللهو البرىء ، ورغبة النفس فى الحب رغبة لا تحد .. فى اطار هذه البراءة ، وفى ظلال ذلك الحب الطفولى تفتحت عيناى على الروسيا ، من القرية ، من المزرعة الصغيرة صور الفلاحين المتنوعة فى بحثهم عن الحياة بقدر الامكان وبشق الأنفس ،صور بلادنا التعيسة التى تتمزق فى عيون

وصدور هؤلاء البؤساء ، ألف وألف مرة في اللحظة .. الفلاحون في بلادي ، كانوا الوجه الجريح في طفولتي الذي حرك مشـــاعري وأحاسيسي نحو الحياة .. فكيف أنسى صور الطفولة ، هذه الصـــور العظيمة التي كانت ميلادي الأول ؟ ! » .

كذلك الشاعر الأمريكي « روبرت فروست » ، لم ينفصل ، أبدا عن قريته التي تلفها التلال وتغمرها المسيلات المائية ، ودائما كانت أشـــجارها وأطفالها ورجالها ونساؤها تطل عبر القصائد والأشعار التي يكتبها . . . وفروست ، واحد من ثلاثة مفكرين ، انعزلوا في قراهم ، وعاشوا حيـــاة الفلاحين وأثرت في تكوينهم الى أبعد الحدود ، وهؤلاء الثلاثة هم: روبرت فروست ، ووليم فوكنر ، وميخائيل شولوخوف . واذا كان شولوخوف قد بدا من قريته القوقازية التي تطل على نهر الدون ، محاولا الوصول الى قلب العالم فكرا وفلسفة ورؤية ، فان فروست قد اهتم بالطبيعة ، وأثرت فيه قريته في تعميق هذا الاحساس الحي بالطبيعة ، وانعكس ذلك في شـــعره بوضوح ، أما وليم فوكنر ، فكان لجوءه الى قريته ، محاولا الاقتراب من داخل الانسان .. ويحضرنا في هذا المجال الدكتور طه حسين ، الذي كان لقريته « عزبة الكيلو » أثرها الواضح في كتاباته ، فهي دائما تحسها وراء أعماله : « الأيام » ، و « المعذبون في الأرض » ، و « دعاء الكروان » ، وغير ذلك من أعماله ..

وكذلك كاتب ومفكر مثل عبد الرحمن الشرقاوي ، الذي تحس بقريته « الدالتون » تتسلل وراء أعماله المتنوعة « الأرض » و « الفلاح » و «قلوب خالية » .. وربما هذا ما جعل مناضل ومفكر وقائد مثل أرنستو جيفارا الى أن يقول : « تعلمت كثيرا من الكتب والنظريات السياسية والايديولوجية ، تعلمت كثيرا من كتابات ماركس وانجلز ولينين وماو وغـــيرهم من مفكرين ومنظرين فرنسيين وايطاليين والمان وانجليز ، لكنني تعلمت أكثر من فلاحي وصيادي بلادي في قرى ومرتفعات سييرا مايسترا . تعلمت البساطة منهم

مثلما تعلمت الشجاعة والأقدام والجرأة ، مثلما تعلمت الا أفكر فى تهور أو مغامرة خارقة ، كذلك فتحوا عينى على حقيقة شعبنا وأصالته . فكيف أنسى هذه الدروس الأصيلة ، التى ولدت ونمت داخلى فى الصبا والشباب من قرى بلادى التى ترتقب نتيجة هذا التعلم وهذه الدروس » ..

وربما هذا أيضا ، ما جعل السادات يقول :

« زرت بلادا كثيرة . لكن اجمل منظر ترتاح له نفسى بيوت اهلى فى هذه القرية : ميت أبو الكوم »

قال السادات هذه الكلمات ، بعد أن غاب عدة أسابيع فى عام ١٩٦٦ بين اوربا وأمريكا . لقد أحس بالغربة فى الخارج . لقد أحس بالوحشة وهو بعيد عن أرض بلاده . فمهما طليت مدن العالم وزخرفت بمسح الحضارة والتقدم والتمدين ، فلا شيء يفوق روعة الاحساس بالارض الأولى ، بالوطن ، بالقرية الصغيرة ، التى تحمل البراءة والبساطة والحب فى قلوب أهليها ..

لقد قال لى واحد من أهل قرية ميت أبو الكوم .. ان أجمل لحظات حياة السادات ، هى تلك التى يقضيها وسط الفلاحين ، بين أهله وعشيرته ، فى بساطة وعفوية وتلقائية ، يجلس على الحصير ـــ أو « القياس » ، ويستمع الى مشاكلهم فى حب ، وينصت الى كل الشكاوى ، وينادى بين الفينة والأخرى على أحد الصبية ليناوله القلة ، ليرتوى وينصت الى بقية حوار الأهل والأقارب والأصدقاء وأبناء القرية ..

فالقرية .. فى نظر السادات ، هى الصورة المصغرة ، والأولى للمجتمع ، ولا يمكن فهم مشاكل المجتمع ، ككل ، فى تنوعها ، دون فهم هذه «الصورة المصغرة » : القرية .. وعن طريق قرية « ميت أبو الكوم » ، وملاصقة مشاكلها ، والاقتراب من قلوب أبنائها ، كانت « الانفتاحة » الاولى للسادات ، نحو محاولة فهم مشاكل المجتمع المصرى العريضة . لقد أثارت القرية ، فى نفسه ، سؤالا ملحا ، منذ أن كان طالبا بالمدرسة الحربية ، فى

بداية الثلاثينات : « لماذا يحيا الناس هنا فى آلم وتعاسة ، بينما يمرح غيرهم فى المدينة ويطربون ، رغم أن هؤلاء يزرعون كل شىء للمدينة ؟ » . فالبسمه التى تتألق على شفاة أهل المرح والسعادة والانطلاق فى المدينة ، أساسها ونبعها من القرية ، بينما صناع البسمة أنفسهم لا يملكون القدرة على الابتسام ، فحياتهم تمتلىء تعاسة وعذابا وشقاء ! وعلى حد تعبير القائد والمفكر الكوبى « فيديل كاسترو » : « ان القرية تضع البذرة الاولى لميلاد الأطفال ، بينما تختطفهم المدينة ، تتوهم ، وتستولى عليهم ، باسم شرعية السلطة ، ويبكى صناع الميلاد الأول آرحامهم ، ويمضغون آلامهم فى حزن بينما أهل المدينة يبتسمون ويضحكون ويرقصون لآن الهدايا قد جاءت اليهم من القرية ، بل يصرون على احتقار جهد هؤلاء الكرماء ، ويصرون على استغلالهم ، فهم يؤمنون ان الاعتراف بالجميل أو بالجهد الانسانى قد يجعل هؤلاء الفلاحين يحسون بآلامهم الحقيقية .. وفى الحقيقة لن يصلح هذا التصدع ، الا اذا امتلك أصحاب البذرة الحقيقية مستقبل أبنائهم . فى ذلك الوقت تتحطم شوكة المتعجرفين المستغلين ، ويعود الحق الى نصابه ، الى الفلاحين .. » .

لقد أحس السادات ، منذ البداية ، بذلك القهر الواقع على كاهل الفلاحين فهم يعطون ولا يأخذون ، يمنحون الثمار بينما تداس أعناقهم ومصائرهم بالأحذية ، يحيون فى الظلام وفى ظلال النسيان ، لا طمأنينة فى غدهم ، ولا مستقبل لهم ، ولا يملكون الا الحسرة والأحزان .. !

وتعمق هذا الاحساس لدى السادات ، عندما بدأ يقرأ كتب التاريخ والثورات .. قرأ عن مصر ، وعن فرنسا ، وعن بريطانيا ، وتابع بنهم تطور المجتمع فى مصر .. وقد أحس ، منذ البداية ، أنه لا يمكن التحرك ، أو فهم الأسباب التى تجسد المأساة دون دراسة تاريخ هذا الشعب ، ومنذ بداية الحياة على ضفتى النهر ، منذ بداية الحضارات الأولى ..

ومن دراساته لحضارة وتاريخ مصر ، خرج بنتيجتين جوهريتين : أولا .. آن مأساة الشعب فى مصر تكمن طوال سبعة آلاف سنة فى ذلك التناقض الواقع بين السواد الأعظم المستغل المقهور والأقليـة المستغلة والقاهرة ، ثانيا .. انه لا يمكن حل هذا التناقض ، الا باعادة الحق الى نصابه ، واقرار العـدل وضمان مستقبل الشعب مصيريا وديمقراطيا ، وهـذا لا يتأتى الا بدراسة مشاكل الشعب عن قرب وبالاقتراب من الناس ..

●

ذات يوم زار السادات قرية « ميت أبو الكوم » ، وجلس بين أهـله وأقاربه وأصدقائه ومعارفه فى القرية .. جلسوا فى الغيط ، يحتسون الشاى الأسود ، ويتحدثون فى مختلف الأمور ، وكان السادات ، لم يزر القرية منذ سنوات لانشغاله بالثورة مع زملائه . وكان ذلك بعد أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بسنوات . كان الوقت يقارب الرابعة أو الخامسة بعد الظهر وكان ذلك الوقت يعنى للسادات شيئا ما ، وفى هذا المكان بالذات . ولما مر الوقت ، واقتربت الشمس من المغيب ، تلفت السادات حوله يمنة ويسرة وكأنه يترقب زائر ما ، ثم لما أعياه الأمر ، سأل فى دهشة :

ــ أين عم شحاتة بائع العرقسوس ؟

فقال أحد الجالسين :

ــ لم يعد يمر !

فسأل السادات ، فى دهشة :

ــ ولم ؟

فقالوا له أنه أصبح لا يبيع العرقسوس . فطلب منهم ان يأتوا به ، وكان المساء قد تسلل الى المكان ، لكن السادات أصر أن يرى عم شـحاته بائع العرقسوس .

ولما جاء عم شحاته ، سأله السادات :

ـ يا عم شحاته .. لم تعد تبيع العرقسوس ؟!

فقال فى خجل .. ان القدرة قد تحطمت ، ولم يعد يملك المال ليشترى قدرة جديدة . فحزن السادات ، وقال له فى ألم :

ـ أنت أحد معالم قرية أبو الكوم .. كام سنة وأنت تبيع العرقسوس.

عشرات السنين . لا . لا . لا يمكن ان تتوقف . ستشترى قدرة جديدة ..

ولم يمر يوما واحدا ، حتى عاد « عم شحاتة » الى تجارته الصغيرة ، وفى عصر اليوم التالى ، عاد الأطفال يتجمعون حوله ويجرون وينادون عليه ، وهو يصيح فى دروب القرية مرددا : « الخمير المتلج » !

وبين أهله وعشيرته .. ظل السادات يتحدث ، طويلا .. انه لا يريد للقرية أن تتغير ، ولا يحب ان يتوقف فيها أى شيء ، فهذه القرية جزء منه ، من دمه من فكره ، من تكوينه ، وهو يحس بالغربة كثيرا اذا ما غاب عنها ، فكل شيء فيها يذكره بأشياء عزيزة على القلب والوجدان ...

ويحكى الناس فى القرية ، وبالذات ، المعمرون منهم .. كيف كانت القرية تحيا منذ نصف قرن ، وبالذات عام ١٩١٨ ، وهو العام الذى ولد فيه السادات .. كانت قرية ميت أبو الكوم ، تحيا فى فاقة شديدة ، مثلها مثل أية قرية مصرية تعانى من آلام الاحتلال والقهر الذى تفرضه السلطة الرجعية كان الناس فى ذلك الوقت لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، فقد حطم الاستعمار الاكتفاء الذاتى فى الريف ، مثلما حطم الحرف الصغيرة ومعظم الصناعات القائمة ، وتحولت القرى المصرية الى مزرعة قطنية كبيرة تمد انجلترا بالقطن المصرى وبأرخص الأسعار ، لذلك ليس غريبا أن تشهد سنة ميلاد السادات (عام ١٩١٨) توسعا مثيرا فى المساحة المنزرعة قطنا ، فقد زادت المساحة المنزرعة قطنا فى الريف من نصف مليون فدان عام ١٨٧١ الى مليون و٧٩٠ الف فدان فى عام ١٩١٨ ، وارتفعت نسبة صادرات القطن من ٧٥ فى

المائة من جملة الصادرات عام ١٨٧١ ايام اسماعيل الى ٩٥ فى المائة عام ١٩١٨ وبينما كانت مصر تصدر الى الخارج من المواد الغذائية بما يقدر بمليونين من الجنيهات عام ١٨٧١ ، أصبحت تستورد من المواد الغذائية بما قيمته سبعة مليون من الجنيهات عام ١٩١٨ .

وقد أراد الاستعمار أن تكون مصر مصدر ربح لرؤوس أمواله ، وأعلى ربح ممكن ، فقد بلغ ما وظفه من أموال أجنبية فى بلادنا ٢٥٥ مليون جنيه وفق تقرير صادر عام ١٩١٨ ، وكان أكثر من مائة مليون من هذه الأموال موظفة أساسا فى شركات الرهن العقارى وما شابهها ، ومهمتها أساسا منصبة على سرقة الفلاح الصغير ، فى قرية « ميت أبو الكوم » أو « دنشواى » أو « بهوت » أو « بسينتماى » ، أو غيرها من قرانا التى تمثل الريف المصرى بأكمله . وكان سند الاستعمار الأساسى هم فئة كبار الملاك ، طبقة الاقطاعيين الذين يستغلون الفلاحين عن طريق ايجار الأرض ، وقد ارتفع عدد الملاك الذين يملكون أكثر من ٥٠ فدانا من ١١٫٢٢٠ مالكا سنة ١٨٩٤ الى ١٣٫٤٨٠ عام ١٩١٨ ، وزادت أملاكهم من ١٫٩٩٧٫٠٠٠ فدانا فى سنة ١٨٩٤ الى ٢٫٥٩٧٫٠٠٠ فدانا عام ١٩١٨ ، وهؤلاء هم الذين وصفهم الزعيم محمد فريد بقوله : « لو كان ذواتنا وكبراؤنا من ذوى الشرف وأصحاب النخوة ، لامتنعوا عن قبول الوظائف العالية بهذه الحالة ، ولكن الكل يغار على ماهيته أكثر مما يغار على اسمه واستقلال وطنه ، وكيف يكونون غير ذلك وهم الذين ساعدوا الانجليز على احتلال بلادهم ، ويساعدونهم الآن على اكمال ضمها لأملاكهم » .

وكما شهدت سنة ١٩١٨ تحطيما لاقتصاد مصر وحريتها ، فى الذروة ، شهد نفس العام ، أيضا ، تحطيم لثقافتها وفكرها ، فى الذروة . فقد تحول التعليم الى كتاتيب ، وأصبح التدريس حتى فى المدارس الابتدائية فى بعض المواد الانجليزية فحسب ، وكان هناك نوع من الاهمال الشديد لتاريخ مصر وحضارتها . فقد أغلقت الجرائد الوطنية ، وصودرت صحف مثل « مرآة

الشرق » و « جريدة الزمان » و « السفير » ، وحرم على مجلة مثل «العروة الوثقى » أن تدخل مصر ، ولم يبق الا الصحف التى تمجد الاحتلال وتمتدح السلطة . كان عام ١٩١٨ ، يمثل تجسيدا للازمة التى أعقبت سنوات الحرب العالمية الأولى ، وهو نفس العام الذى شهد ميلاد بطلنا : أنور السادات ..

●

كتب جواهر لال نهرو ، يقول :

« ان اى قائد ، او اى زعيم ، أو اى مفكر أو اى منظر ، لا تصيغه فحسب ، الثقافات والافكار والنظريات التي يتعلمها فى الكتب والابحاث ، ايضا ، تعركه التجارب والحياة ، وربما تبدو البيئة الأولى ذات أهمية خاصة داخل الرجل ، ملامح الشخصية الاولى ، وكل ما يجىء بعد ذلك يعمق هذه الشخصية » .

وهذا يؤكد أثر البيئة على بطلنا « محمد أنور السادات » . فقد ولد فى بيئة اتسمت بملامح خاصة ، كانت هى الصورة المصغرة لمصر الأم ، فى تعاستها ، فى عذابها ، فى آلامها ، وهذه الأشياء حركت فى داخل السادات شتى النوازع والدوافع . فابن القرية ، الذى تعلم فى كتاب « الشيخ عيسى » وأحس بالكلمة وقوتها ، كسلاح منذ الصغر ، وأحس بما فى القرآن من تنوير للاوضاع والواقع ، تشكلت فلسفته للواقع من خلال هذه الرحلة الطويلة ، التى بدأت مسيرتها من على شط ترعة الباجورية ، فى قرية ميت أبو الكوم ، يوم ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨ ، عندما ولد السادات فى بيت صغير لا يختلف عن أى بيت من بيوت الفلاحين الذين كانوا يجاهدون من أجل الحياة والحفاظ على الكرامة ويحاولون بشق الأنفس التنفس فى ظلال مناخ معتم يخنقه القهر وشتى ألوان الضغوط والتعاسة ..

ومنذ أن رأى السادات الفلاحين سمر الوجوه ، واختلط بهم وهو فى رحلة ذهابه وعودته من كتاب « الشيخ عيسى » ، وهو يحس بالمأساة ، صور

متنوعة من العذاب والقهر ، عشرات بل مئات من الفلاحين بأقدامهم المشققة، يسقون الأرض العطشى ، ولا يأكلون الا الفتات ، ويمرضون ، ويتساقطون فى ألم مرضا أو جوعا أو حزنا أو بؤسا . منذ أن رأى السادات البؤس ، فى العيون والشفاة ، منذ أن رأى الفلاحين سمر الوجوه ، يعودون مع الشمس فى الغروب ، يهدهم التعب بعد عذاب وكد النهار ، أحس بمدى الحياة الشقية التى تحياها مصر .. فكم من الفلاحين ، يتنفسون التراب والحنظل والجرح فى بلادنا .. وكم من أناس يموتون ، لأنهم لا يجدون الخبز أو الدواء .. وكم من أناس يساقون الى السجن والحبس ظلما ، لأنهم يحيون القهر والمعاناة ؟ !

عندما كان السادات فى السادسة من عمره ، يذكر أهل القرية من المعمرين ، وبالذات ، الأقارب والأهل ، كيف كان الصبى أنور السادات يذهب الى « مدرسة الاقباط » فى (طوخ دلكة) ، مشيا على الأقدام ، وأحيانا على حمار اذا ما كانت الشمس ملتهبة ، وكيف كان الصبى الصغير يلعب ويجرى مع الأطفال حول مقام سيدى حسن الكومى فى العصارى والأمسيات . كما يذكرون ، أن الصبى الصغير ، كان عندما ذهب الى المدينة والتحق بالمدرسة الابتدائية ثم بالثانوية ثم بالمدرسة الحربية ، كيف كان لا ينقطع فى الاجازات عن القرية ؟ كان يأتى فى أجازات نصف السنة ، كما كان يقضى أشهر الصيف كلها فى القرية ..

وعندما زار السادات قريته عام ١٩٥٣ ، بعد عام واحد من قيام ثورة يوليو ، رفض أن يدخل القرية فى موكب رسمى . فضل أن يزور القرية ، بشكل عادى ، ومثلما كان يزورها فى شبابه حتى لا يحس بأى تغيير .. وفى هذا العام ، زار كل الأماكن التى يحبها ، والتى تعود أن يزورها .. زار « الدير » الذى كان يزوره فى صغره ، وزار مقام « سيدى الكومى » وقرأ الفاتحة وصلى داخله . . كما زار « كنيسة العذراء » ، والمدرسة التى تعلم بها ، ودخل نفس الفصل الذى كان يتعلم به ، الى جوار المصلية . وفى

« مدرسة الأقباط » ، التقى السادات ، بمدرسه « مينا ميخائيل » ، الذى كان

هذه النظرية الى سلسلة مواقف تتسم بالابداع والخلق ، من هنا يبرز دور الزعامة بالنسبة للقائد . فما فائدة النظريات والجدليات والأفكار ، فليست هناك ثورة أو تغيير بدون نظرية ثورية ، بمعنى أن تترجم الأفكار والايديولوجيات الى مواقف واضحة تتسم بالاقدام والخلق والجرأة ، وكاسترو ، استطاع أن يفضح خطط الامبريالية فى خنق الاقتصاد الوطنى ويضع النقط على الحروف بالنسبة لتحركات الثورة سياسيا واجتماعيا .. فالبطل موقف ، وترجمة لنظرية وفكر ، فى محك الخلق والابداع والتجدد ، وليست هناك بطولة أو قيادة أو زعامة جوفاء » . وهذا التفسير عن الزعامة أوالقيادة ، يقول عنه سارتر ، أنه لايمكن ان يولد بين يوم أو ليلة ، ولا يمكن ان يكون هناك معاهد عليا لتخريج زعماء أو أبطال ، « اذ ينبغى ، أن تكون هناك الاستعدادات الأولى ، والمكونات الأساسية لشخصية الزعيم أو القائد أو البطل ، وهذا البطل أو القائد تفرضه متطلبات مرحلة مجتمع بذاته ، كذلك يكون افرازا لبيئة بذاتها وجماعا لتجارب وثقافات معينة » . لذلك ليس غريبا أن يقول الكاتب الفرنسى (جاك كوبار) عن السادات : « أنور السادات ، افراز حقيقى لمصر ، فى كل خصالها ، فقد جاء من القرية ، يحمل الصفات والمطامح الطيبة ، وقد ترجمت هذه الخصال الطيبة نفسها ، وعكست نفسها ، على مبادئه وأخلاقياته وأفكاره الثورية . انه نموذج للانسان المصرى المجاهد ، الطيب ، الكريم ، الذى يسعى الى كل الآمال الطيبة التى تتيح لشعبه الخير والرخاء والأمن والحرية . انه ابن القرية البكر الذى انتقل الى المدينة ، وحمل معه كل ما فى القرية البسيطة من حب وأمل وعطاء » .

وفى أكثر من حديث وحوار له ، أعلن السادات ، انه لا يمكن خلق ثورة ناجحة فى مصر دون الاعتماد على الجماهير الفلاحية ــ العماد الأساسى للمجتمع المصرى وركيزته الأساسية . ومن قبل ، قال جواهر لال نهرو : « ان المجتمعات الجديدة التى تعلن ثوراتها التحررية فى الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبالذات ، تلك التى تعتمد فى تركيب بنيانها

هذه النظرية الى سلسلة مواقف تتسم بالابداع والخلق ، من هنا يبرز دور الزعامة بالنسبة للقائد . فما فائدة النظريات والجدليات والأفكار ، فليست هنـاك ثورة أو تغيـير بدون نظرية ثورية ، بمعنى أن تترجـم الأفكار والايديولوجيات الى مواقف واضحة تتسم بالاقـدام والخلق والجرأة ، وكاسترو ، استطاع أن يفضح خطط الامبريالية فى خنق الاقتصاد الوطنى ويضع النقط على الحروف بالنسبة لتحركات الثورة سياسيا واجتماعيا .. فالبطل موقف ، وترجمة لنظرية وفكر ، فى محك الخلق والابداع والتجدد، وليست هناك بطولة أو قيادة أو زعامة جوفاء » . وهذا التفسير عن الزعامة أوالقيادة ، يقول عنه سارتر ،أنه لايمكن ان يولد بين يوم أو ليلة ، ولا يمكن ان يكون هناك معاهد عليا لتخريج زعماء أو أبطال ، « اذ ينبغى ، أن تكون هناك الاستعدادات الأولى ، والمكونات الأساسية لشخصية الزعيم أو القائد أو البطل ، وهـذا البطل أو القائد تفرضه متطلبات مرحلة مجتمع بذاته ، كذلك يكون افرازا لبيئة بذاتها وجماعا لتجارب وثقافات معينة » . لذلك ليس غريبا أن يقول الكاتب الفرنسى (جاك كوبار) عن السادات : « أنور السادات ، افراز حقيقى لمصر ، فى كل خصالها ، فقد جاء من القرية ، يحمل الصفات والمطامح الطيبة ، وقد ترجمت هذه الخصال الطيبة نفسها ، وعكست نفسها ، على مبادئه وأخلاقياته وأفكاره الثورية . انه نموذج للانسان المصرى المجاهد ، الطيب ، الكريم ، الذى يسعى الى كل الآمال الطيبة التى تتيح لشعبه الخير والرخاء والأمن والحرية . انه ابن القرية البكر الذى انتقل الى المدينة ، وحمل معه كل ما فى القرية البسيطة من حب وأمل وعطاء » .

وفى أكثر من حديث وحوار له ، أعلن السادات ، انه لا يمكن خلق ثورة ناجحة فى مصر دون الاعتماد على الجماهير الفلاحية ـــ العمـاد الأساسى للمجتمع المصرى وركيزته الأساسية . ومن قبل ، قال جواهر لال نهرو : « ان المجتمعات الحديثة التى تعلن ثوراتها التحررية فى الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبالذات ، تلك التى تعتمد فى تركيب بنيانها

المادى على الزراعة ، لا بد وأن تعتمد على الفلاحين كقوى أساسية لهـا فعاليتها فى الثورة القومية ، فالفلاحون على اختلاف أبعادهم الطبقية من معدمين الى عمال زراعيين الى بورجوازية ريفية لهم دورهم الطليعى والفعال والمؤثر فى انجاح هذه الثورات واستمرارها ، ويوم أن تصل فعالية هـذه الثورة الى هؤلاء ، فانه لا يمكن اخمادها أو اضعافها ، لأن هؤلاء يمثلون السياج الأساسية التى تحمى مكاسب الثورة الوطنية فى مواجهة الثورات المضادة وفى مواجهة أية محاولات رجعيـة أو استعمارية » . لذلك ، نرى السادات ، دائما ، يركز على قوى الفلاحين وأهميتهم فى الثورة الاجتماعية والديمقراطية والسياسية ، كما ينادى المثقفين ويحفزهم على الاهتمام بالريف وينادى ، دائما ، بالعمل على التئام أية فجوة أو ثغرة بين (القرية) و(المدينة) بل ويعلن فى قوة .. ان القرية الصغيرة ، هى مصر ، فى صورتها المصغرة ، والاهتمام بها وبمشاكلها ، هو اهتمام بمصر أساسا ، فبمدى الاخلاص لهذه الصورة الأولى ، يكون الاخلاص والنجاح بالنسبة للصورة الكبرى .

●

السنوات الأولى من حياة السادات ، الصبى ، كانت تجللها العتمات والشقاء . فقد كانت سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى ، مليئة بالتعاسة.. رماد الحرب حول كل آمال الناس الوردية الى أوراق يابسة جافة . انتهى تقسيم العالم كله بين حفنة من الدول الاستعمارية : أمريكا ، فرنسا ، بريطانيا هولندا ، بلجيكا ، ألمانيا ، ايطاليا ! وكانت تركيا فى ذلك الوقت حليفـة لألمانيا ، فراحت الصحف المصرية تنشر بعناوين ضخمة أنباء عن رغبة تركيا فى صلح منفرد . وكان المجتمع المصرى فى ظل هذه الأوضاع ، يزداد تمزقا : ازداد الأثرياء ثراء ، وازداد الفقراء فقرا . وكانت القرية المصرية ، صـورة واضحة لهذا الخراب والدمار والشقاء . احتكرت الحكومـة البريطانية محصول القطن كله ، وبلغت خسارة مصر من جـراء ذلك ٣٢ مليونا من الجنيهات ، وارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعا مطردا ، لا سيما أسـعار

الحبوب والاقمشة والوقود . وما أن جاء يوم ١٣ نوفمبر ، حتى أعلنت الهدنة.
وذهب ثلاث من أبناء مصر هم : سعد زغلول ، على شعراوى ، عبد العزيز
فهمى ، الى دار الحماية ، وطلبوا من عميدها الاذن بالسفر الى مؤتمر الصلح
ليدافعوا أمامه عن القضية المصرية ، حتى بدأت القرى والمدن فى مصر تشمل
الأضواء ، بعد فترة من العتمة خلال غارات الحرب ، ولكن بدأت هـذه
القرى وهذه المدن تمضغ آثار الحرب ورمادها فى ألم وتعاسة !

فى هذه السنوات ، كانت طفولة السادات تنبت ، بين دروب ومروج
وأزقة وحوارى ميت أبو الكوم وطوخ دلكة .. يتنقل بين كتاب القرية ،
ويتلقى تعليمه الأول على يد سيدنا « الشيخ عيسى » ، ثم « عريف القرية » ،
ثم « مدرسة الأقباط » ، حتى نما عوده ، وأرسله أهله الى القاهرة ليكمل
تعليمه ...

يقول واحد من أهل قرية « ميت أبو الكوم » ، من المعمرين الذين جاوز
عمرهم الثمانين ، وهـو شيخ ضرير ، متحدثا عن القرية فى هـذه الفترة :
« كانت البلد وقتها عتمة ، كانت أيام الحرب ، والناس ماكانوش بيلاقوا
اللضة . كان الانجليز بيلموا الفلاحين من الغيطان واجران القمح علشان
الجهادية ، وكانوا بيبعتوهم الحرب ، ياولداه ، من غير سبب .. كانت
البلد صغيرة عن كده ، وكانت أسرة السادات من الأسر المعروف عنها الكرم
والنخوة حتى فى ظروف عتمة مصر ، وكنت أنا وقتها باشتغل فى الارض ،
فلاح فقير .. كان يادوب عمرى خمسة وعشرين سنة ، وماخدونيش الجهادية
لان كان نظرى على قدى ، كنت لسه باشوف لكن فى صعوبة ، وفقدت
نظرى وأنا فى سن الخمسين عندما فقدت ابنى فى مظاهرات سنة ٤٦ فى قصر
النيل . كانت أسرة السادات أسرة جود ونخوة ، ومعروف عنهم فى البلد
وفى كل الكفور اللى حوالينا انهم بيطعموا الغريب ويكرموا أهل السبيل
رغم أنهم لم يكونوا من أهل الغنى والمال ، والجود دايما مابيديش الا الجود
والكرم دايما مابيديش الا الكرم .. والبلد هنا فقدت كثير من أولادها

وأبنائها ، لكن أنور السادات عوض كل ده ، لما أعاد للبـلد ولكل مصر كرامتها ... »

امرأة فى الخامسة والثمانين من عمـرها ، اسمها « عطيات » ، قالت لى فى شبه الحزن : « كانت أختى اللى أصغر منى بتشتغل وبتخدم فى بيت السادات ، وماتت بس من خمس سنين . كانت متهنية وكانت دايما بتقولى: أنا مش باخدم ، دانا بنت البيت ، بياخدونى على كفوف الراحة .. أختى الصغيرة دية ، شافت السادات وهو صبى صغير ، فى الكتاب ، وفى مدرسة الأقباط اللى فى طوخ دلكة ، وكانت ساعات بتوصله للكتاب هى أو عم غريب اللى مات من كام سنة » .

سنوات الطفولة والصبا ، أجمل سنوات العمر ، لوحة البراءة التى تمتص كل صور الواقع فى خصوبة غريبة ــ هذه السنوات التى قال عنها مناضل ومفكر وشاعر مثل فيدريكو جارسيا لوركا : « انها بمثابة العطر الأول فى فجر الصـباح ، لها ملمس الندى ، وسـحر الزمن ، وبنفسجية اللحظة ، ولا يمكن أبدا أن تفارق العمر مهما امتد ، لان لمساتها خصبة قوية، وما يحسه المرء فى طفولته ويراه يتأثر به الى أبعد الحدود ، بل ويشارك فى تكوين رجولته وتصرفاته وسلوكه فى المستقبل » .

وكان للسادات ، الصبى ، فى هذه السنوات الصغيرة انشغاله بالدين ، فقد كان يفكر كثيرا فيما يقرأه فى الكتاب والمدرسة ، فقد حفظ القرآن ثم قرأ العهدين القديم والجديد بحكم دراسته بمدرسة الاقباط فى طوخ دلكة .. وكثيرا ما فكر فيما قرأ وما حفظ عن ظهر قلب ، واتصلت أيام الصبى السادات بين البيت والكتاب ومسجد سيدى حسن الكومى وبيت الأعمام والأهل وحلقات الذكر التى كانت تقام فى القرية بين وقت وآخر ، وفى العصارى والأمسيات وقبل صلاة العشاء كان يمرح ويلعب مع رفاقه وأصـدقائه بالقرب من الترعة أو حول مسجد سـيدى حسن الكومى ، وكانت من أحب الألعاب الى قلبه « السيجة » ، لكنه شغف الى حد كبير

بتلك اللعبة التى ابتكرها صديق له كان يلازمه فى الكتاب ، ثم فى المدرسة الابتدائية ، فقد همس اليه ذلك الصديق أنه اهتدى الى نوع من السحر ، يستطيع به أن يجعل الناس جميعا على ظهر الأرض احبابا بعضهم الى بعض ، وأن سحره هذا منقوش على غصن أخضر دفنه فى مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم ، ثم دعا الصبى السادات وبقية أصدقائه الى الجلوس معا جنبا الى جنب فى بقعة صغيرة ، يظللهم سقف واحد ، كما يفعل النمل لتكون لهم مثل «اخوة النمل» ومحبة جماعاته ، فأقبلوا حيث تلاصقوا تحت غطاء من القماش وضعوه على بعض الكراسى وتضاحكوا فى عطف ومودة ، وأخذ يحدثهم السادات الصبى ، عنـدما رأى ذلك ، أنه الحب المشترك المتبادل ، يستطيع الناس أن يكونوا أخوة ، وهكذا صارت هذه « اللعبة » من أحب الألعاب الى الأخوة ، وبالذات بالنسبة للصبى الصغير السادات ، فلكم تجمع الصبية الصغار ، وبينهم السادات ، تحت شجرة جميز أو فى ركن من الأركان ومثلوا « أخوة النمل » ، وأحدثت « اللعبة » أثرها العميق فى خيال الصبي الصغير ووجدانه ، فقبل أن يبلغ التاسعة من عمره ، استقر فى نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك أخوانا بلا عداء ، وبعد سنوات من تركه القرية ، تذكر السادات الفتى الحادث ـــ أو « اللعبة » ، عنـدما شاهد شجارا عنيفا فى حى تحت الربع فى عصر يوم من أيام رمضان ، رددت نفسه كلمات الحلم اللذيذ : « متى يهجر الناس الحقد والشجار ، ويصبحوا أحباء ، يتعاونون فى بناء حياتهم ، ويصبحوا أخوة النمل » . ونفس الحلم اللذيذ كان يتردد صداه وهو يعيد على نفسه كلمات « سورة النمل » ، التى حفظها عن ظهر قلب : « ... وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنـــوده من الجن والأنس والطـــير فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة ياأيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر

نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ... » .

وهذا (المثال) ـــ الا وهو « أخوة النمل » ، تعلق الصبى به ، وظل لا يفارق مخيلته ، ونما معه وداخله ، وبقى قائما فى نفسه لا يتغير ، وتلمسه واضحا حتى فى مقالاته وكتاباته التى كتبها بعد ذلك . ففى كل مقالة ، وفى كل موضوع كان السادات يعلن عن الحب الأخوى والانسانى ، ويدمغ بقوة كل كراهية وكل بغضاء من شأنها أن تعوق تقدم البشر ومسيرتهم من أجل الخير والأمل ، لذلك ، نجده ، دائما ، يعلن عن العودة الى مبادىء الحب الانسانى النابع من القرية ، ويقول .. ان مصر الكبيرة ، لابد أن تعود الى القرية ، الى صورة الأسرة البسيطة حتى تقضى على متناقضاتها ، فلا يمكن أن يكون هناك تقدم وتحضر ، دون أخلاقيات طيبة ، ودون ايمان عميق نابع من داخل الانسان ..

●

عندما ترك السادات الصبى القرية ، وذهب الى المدينة ، ليكمل تعليمه ، كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت حقيقـــة ، لكن ظروف مصر المـــادية والاجتماعية كانت فى منتهى السوء . وكانت ثورة ١٩١٩ ، قد أحبطت ، واعتقل سعد زغلول ، وكانت حرب الشوارع ، و « ثورة الأفنـــدية » ، واضرابات الموظفين والعمال .. وكانت قواد الانجليز وعيونهم فى كل مكان ، تفتش عن الأفندية والثوار ، وكان يحسهم « الصبى » الصغير ، الذى جاء حديثا من القرية ، ليتلقى تعليمه فى مدرسة النحاسين الابتدائية ... ورغم صغر سنه ، كان يحس ، ويحس ، فقد كان بؤس القرية ، والمناخ الذى عاشه فى « ميت أبو الكوم » و « طوخ دلكة » ، حافزا أساسيا من حوافز نضـج تفكيره ووعيه واحساسه المرهف بالأشياء . كان فى رحلة ذهابه وعودته من المدرسة الابتدائية فى حى النحاسين ، يرقب القاهرة المعزية بحواريها وأزقتها ومنعطفاتها ، من مرجوش الى الداودية ، ومن الداودية الى الخيامية

والسكرية ، ومن تحت الربع الى باب القاضى ، القباب السامقة والمآذن العالية والمشربيات العتيقة والبوابات الضخمة ، ورجال وصناع وحرفيون ينتشرون هنا وهناك بين خان الخليلى والأزهر والصنادقية والصاغة والنحاسين ...

ونظر ، السادات ، الغلام ، الى الرجال ، سمر الوجوه ، يتحركون وراء البيوت المملوكية والفاطميه ، وأحس بالحزن فى عيونهم انهم لا يختلفون عن رجال قريته بالمنوفية ، عيونهم حبلى بالحزن والدموع ، وقلوبهم تمتلىء أسى وتعاسة ... انهم يبحثون عن الخبز ، فى رحلة كفاحهم وكدحهم اليومى المضنية ... !

وتنفس فى حزن ، وهو يتحسس كتبه تحت ابطه ، وبينها القرآن الذى حفظه عن ظهر قلب ، ونظر الى المآذن السامقة والجدران العتيقة والأسطح العالية والواطئة التى تجعل الشمس تتسلل الى الدروب والحوارى والأزقه كالظلال ، فتبدو المنطقة كلون من السحر يتحرك على أرضها البشر فى جو غامض يعبق برائحة التاريخ والحضارات المتنوعة التى تعاقبت على المدينة العتيدة ..

وبين هذا الجو الغامض المثير ، نما عود الغلام والفتى : أنور السادات ، بعدما خرج من قريته صغيرا ، قاصدا القاهرة ليتلقى تعليمه . لكنه ، رغم انتقاله للمدينة ، كمعظم أهالى الفلاحين لم ينقطع عنها . كان يذهب الى « ميت أبو الكوم » ، فى كل الأجازات ، ويتحين أية فرصة ليحج الى مسقط رأسه ، يقضى أياما من المتعة والمرح ، بين أهله وعشيرته وأصدقاء طفولته ، وليزور الأرض التى أنجبته ومنحته للوجود ، وأعطته كل الدفقة والحياة ...

●

فى عام ١٩٤١ ، كتب الأديب والمفكر السوفيتى آلكسى تولستوى ، يقول : « بلادى الأرض الطيبة التى ولدت فيها ، والوطن الأول لى . الحياة كلها لا تضطرب بعاطفة أزكى ولا أعمق غورا ، ولا أكثر قدسية من عاطفة الحب لهذه الأرض . اننى أتحين كل فرصة لأعود لهذه الأرض وأركع

على قدمى حتى أشم عطرها ، فهى التى منحتنى النظرة الأولى للوجود ، وأعطتنى التصور الأول للحياة » ...

ونفس الكلام ، أو قريبا منـــه ، كان يردده الفتى محمد أنور السادات ، فى العشرينات ، عنـــدما كان يعــود من دراساته الى قريته ، مشـــتاقا ، روحـــه تهفو الى كل شـــبر فيها . . . كان فى حـــوالى السادسة عشر أو السابعة عشر ، عندما زار قريته فى صيف احـــدى السنوات من نهـــاية العشرينات ... لم يجد قريته قد تغيرت ، نفس الأشياء ، نفس التعاسة ، نفس البؤس ، اللهم الا بعض الجـــراح أضيفت الى القـــرية من جـــراء انعكاسات قوى القهر الواقعة على المجتمع المصرى ، نتيجة للاحتلال وظروف انحسار الحركة الوطنية وصراعها مع القوى الرجعية فى البلاد . واحس بذلك البؤس ، وبهـــذه التعاسة ، من واقع أفراد أسرته ، التى كانت تشقى من أجل أن يكمل الفتى تعليمه ، ولا تجعله يحس بمدى ما تتكبده من أجل ذلك . فقد وقعت الأزمة الاقتصادية على عبء كاهل الفلاحين من أبنـــاء المزارعين والبورجوازية الفلاحية ، مثلما وقعت على عبء الجماهير الشعبية من كادحين وبورجوازيين صغار فى المدينة . وقد كانت الجماهير تمضغ هزيمة الثورة ومرارتها ، مع نكوص المد الثورى ، وأزمة الغلاء فى المعيشة ومات سعد زغلول ، وعقب موته فى نهاية العشرينات بدأت الخلافات بين الأحزاب ، كل حـــزب يريد الفوز ، والانجليز ينتهزون هـــذا الانشقاق والتصدع فى صفوف الشعب ، ويشجعونه تحت شعار (فرق تسد) !

وفى عام ١٩٣٠ ، كان أول احتكاك للسادات بالسياسة . خرج فى احدى المظاهرات من المدرسة ، وتلقى عـــدة هراوات ، وكلفـــه ذلك الحرمان من الامتحانات النهائية ، فعاد الى قريته حزينا كاسف البال ، يفكر فى وطنـــه وماذا حل به ، وبشكل ضارى لأول مرة .. فقد شهدت بداية الثلاثينات العديد من الانفجارات الشعبية والصدمات بين الشعب والحكومة ... الشعب ينتصر على الملك ، وتعود الحياة النيابية ، ثم تبدأ المفاوضـــات ، والملك يقبل الوزارة الجديدة ، ثم سرعان ما يحل البرلمان .. ومئات الجرحى

والقتلى على الطريق ، وعشرات السياسيين فى السجون .. والأزمة المالية فى تفاقم مستمر ... والشعب المقهور يقاوم وزارة « اسماعيل صدقى » ، يقاوم حكم الحديد والنار .. وفى القرى تلتمع مظاهرات واحتجاجات الفلاحين ، ويصل عدد القتلى من الفلاحين أثناء الانتخابات المزيفة فى عام ١٩٣١ وحده الى ١٥٠ قتيلا .. ومثلما حدث فى قرية عبد الرحمن الشرقاوى (الدلاتون) التابعة للمنوفية ، والتى عكس مأساة صراعها مـع السلطة والاستعمار فى روايته : (الأرض) ، حدث مثله فى عشرات القرى ، وبينها كانت قرية ميت أبو الكوم ... الانتخابات تزيف ، الفلاحون يساقون الى « كراكون » القرية ويحبسون ثم يغيبون عن القرية فى البندر أو المدينة ، بينما يشرد أهليهم وذويهم . وكان السادات ، الشاب ، يرقب بأم عينـه ما يدور من أحداث وقهر ، سواء فى قريته أو فى المدينة ، كان يرى الفلاحين يساقون الى (الكراكون) أو سجن المركز دون جريمة اقترفوها ، ولا سبب الا لوطنيتهم ، وكذلك كان يرى الطلبة من زملائه يساقون الى الأقسام والسـجون ، ويحرمون من دخول المدارس ، وعانى هو نفسه مرارة هذا الحرمان ، لأنه اشترك فى المظاهرات ، وخرج بين جموع الطلبة يهتف : تحيا مصر مستقلة ، ويسقط الاستعمار ، وتسقط الحزبية .. الجلاء الجلاء ، الجلاء بالدماء ..

كانت تلك الأحداث شغل السادات الشاغل . لذلك لم يحضر من أيام دراسته عام ١٩٣٥ ، الا ٤٥ يوما فقط .. كما بدأت قراءاته تتسع فى مختلف صنوف الفكر والمعرفة ... وفى هـذه الفترة قرأ (طبـائع الاسـتبداد) لعبد الرحمن الكواكبى ، كما قرأ مؤلفات اميل لودفيج ، ورسائل الحرية لفولتير ، وكتابات جان جاك روسو ومونتسيكو ورولان ، وأشعار وكتابات فيكتور هيجو ، وليوتولستوى ، وبرتراند رسل ...

●

خلال سنوات دراساته بالمدرسة الحربية ، كان محمد أنور السادات طالبا متفوقا ، محبوبا من أصدقائه ، مجدا فى تدريباته ، ولم يكن يعيبه فى تلك

الفترة سوى وطنيته الشديدة وتحمسه الواضح للحركة الوطنية ، وكثيرا ما أحس المسئولون فى المدرسة الحربية ذلك ولفتوا نظره ، ان هذا يمثــل خطورة على مستقبله ويهدد بفصله من المدرسة الحربية . الا أن السادات، الشاب ، لم يخف ، ولم ينصاع الى أى تهديد ، ظل وفيا لتيــار الحركة الوطنية ، وكان يخرج فى المظاهرات يشارك فيها ويعبر عن مشاعره الوطنية كأى شاب متحمس يريد لبلاده التحرر من ربقة الاستعمار والرجعية ...

* فى عام ١٩٣٦ ، مات الملك فؤاد . لم ينتهز الزعماء الفرصة لتحديد سلطة الملك الجديد . اتفقوا ، فقط ، على توقيع معاهدة ١٩٣٦ . الشبان الوطنيون ، وبينهم محمد أنور السادات ، عارضوا المعاهدة .. والحكومة أعلنت ، فى قسوة ، أن كل من يعارض ، خائن !

* فى عام ١٩٣٧ ، صراع كبير بين الملك ورئيس الوزراء على السلطة . السفير البريطانى أصبح الحاكم الحقيقى لمصر . محمد أنور السادات يوقع على بيان مع الطلبة الشرفاء ، يدمغ سياسة الاستعمار والمعتمد البريطانى فى مصر !

* فى عام ١٩٣٨ .. أخذت الأزمة الاقتصادية تجتاح العالم ، وتنعكس أضرارها بشكل واضح على المجتمع المصرى ، فازدادت مصر تمزقا ، وأخذ الناس يأكلون الخبزالأسود ، ويمضغون الآم الحسرة على الأيام التى كانوا يأكلون فيها الخبز المصنوع من القمح . ولم يمض عام واحد على ذلك ، حتى أعلنت الحرب ، وانعكس ذلك على الدول الساعية لنيل استقلالها (شعوب المستعمرات) بشكل حاد ، وانهارت الأحلام الصغيرة أمام شبح الحرب الأسود . وكان السادات فى العشرينات من عمره ، قد تخرج من المدرسة الحربية ، واشتغل فى « سلاح الاشارة » وفى اجازته القصيرة ، كان يذهب الى بلدته الصغيرة ، ويحتضن الحزن والحسرة فى عيون أهل قريته ، ويستمع الى آخر أخبارهم وهو كاسف البال ، محزونا ، تعيسا ، شقيا . وفى ذلك الوقت ، كان يتابع الصحف بنهم ، ويقرأ أخبار بلاده فى قلق ..

✽ وحملت الأربعينات الى مصر ، مزيدا من الشقاء والتعاسة ...
الحرب في كل مكان ، والأحداث تجرى بسرعة ، ومصر في قمة البارود.. الناس تهاجر من الشمال الى الجنوب ، كالطيور ، خوفا من البارود ، هربا من الغارات التى لا ترحم .. والسادات يرقب سير الأحداث في حزن قاتل ، وقد أحس أنه لابد من عمل ايجابي للخلاص ، فالسكوت مشاركة في الجريمة وخطيئة الفعل خير من اللافعل ألف مرة ، والصمت عذاب كالسجن نفسه ، وماذا يخشى ؟ السجن ... ان مصر كلها تحيا داخل القيود ، وتدمع عيناها وراء القضبان القاسية ، التى فرضها الاستعمار وتحالف الرجعية ، وزاده وبالا الحرب التى تأكل كل شيء ...

●

في كتاب فولتير « رسائل الحرية » ، قرأ السادات الشاب هذه الكلمات ، وهو لم يصل بعد الى سن الثلاثين :

« ليس هناك قيمة للحياة بدون حرية ، فالاغلال نفسها هى الموت بذاته . ما معنى ان يتنفس انسان ما وجوده والاغلال تربط لسانه ، وتعقل قلبه ، وتشل كل أعضائه ؟ ان الشمعة ، لا يمكن ان تشتعل الا اذا حصلت على حرية كافية في الاتقاد . ان النبات نفسه يسقط اذا ما اعترضه نوع من الخنق . فما بالك بالانسان . ان حياة بلا حرية ، الموت افضل منها الف مرة » .

شدته هـذه الكلمات ، وأخذ يقرأ كثيرا عن فولتـير ـ ذلك المفكر والفيلسوف الفرنسى الذى أرهص للثورة الفرنسية مع جان جاك روسو ومونتسيكو وجورناى وكسناى ـ الذى عاش في الفترة من ١٦٩٤ حتى ١٧٧٨ ، ومات قبل قيام الثورة الفرنسية بعام واحد ، وكانت رسائله الفلسفية عن الحرية والحياة والمجتمع « ارهاصة » عظيمة للثورة ، وقد سجن مرتان في سجن « الباستيل » بسبب طعنه في حكومة الوصاية على لويس الرابع عشر ، ولعراك نشب بينه وبين أحد الأشراف الأرستقراطيين ، وكتاباته كانت

بمثابة انجيل الثورة على الظلم والطغيان ، ومما جاء فى كتاباته ، واستوقف بطلنا هذه العبارات :

((كلما زادت قوى الطغيان ، كلما تجمع الشعب اكثر . فالظلم يولد الانفجار ، ومزيد من الضغوط يجعل الثورة على اهبة الانفجار)) .

وأيضـــا :

((ان الطغاة يحسبون أنهم بقتلهم للثوار ، أو بابعادهم فى غياهب السجون ، يحســبون بذلك أنهم أطفأوا الثورة ، أو الشغب كما يسمونه ، لكنهم لا يعلمون أن هذه الأفعال بمثابة وقود جديد لالتهاب الثورة ؟))

وأيضـــا :

((ان مواطنـــا حرا ، يرى الظلم ، ويسكت عليه ، فهو ينضوى فى صفوف الجلادين ، لأنه رأى مواطنيه يقاســون العذاب ، يقتلون ، ولم يدافع عنهم . انه يصبح واحدا منهم ، اذا لم يقل شيئا ، وحتى لو كان فى هذا القول ثمن حياته ، فيكفيه أنه قال شيئا عظيما من أجل وطنه)) .

وقرأ جان جاك روسو ، الذى اشتهر بكتابه (العقد الاجتماعى) ، والذى قال فيه .. ان الناس ، ولدوا ، جميعا أحرارا متساويين فى الحقوق والواجبات وضمان لهذه الحرية والمساواة ، انضم الأفراد بعضهم الى بعض وأقاموا الحكومات لتعمل بارادتهم مستمدة السلطة منهم ، فان أحسنت بقيت وان ساءت عزلت .. وتأثر السادات ، كثيرا ، بكتابات روسو عن « العودة الى الطبيعة » ، والعودة الى اخلاقيات القرية فى بساطتها وتقائها ، فلا ضمان للحريات والمساواة والعدالة والديمقراطية ، دون سيادة الاخلاقيات الطبيعية القائمة على العدالة والتى يحركها الضمير الذاتى للانسان ... ومثلما قرأ فولتير ، وروسو ، ومونتسيكيو ، وغيرهم من المفكرين الثوريين ، قرأ أفكار ونظريات غـيرهم من الكتـاب والمفكرين الانجليـز والأمريكيين والروس والألمان . وكان فى كل قراءاته ، يربط بين ما يقرأ وما يجرى على

أرض وطنــه ، وكانت ، دائما ، تعوده صورة القرية الصــغيرة : « ميت أبو الكوم » ، صـــورة الأم ـــ الوطن المصغرة ، فى عــذابها ، فى جرحها ، فى تعاســتها ، فى حسرتها ، فى معاناتها لقــوى القهــر الجاثمة على البلاد ان هذه القرية الصغيرة ، لا يمكن أن تشعر بالحب والوئام والأمان ، ما دام الوطن الأم محتلا ، وعلى أرضه يسعى جنود الاحتلال والرجعيون ممن يتحالفون مع الاستعمار ضد مصلحة الوطن . ان البسمة لن تعــود الى الصغار والكبار فى قريته ، مادامت هناك مأساة كبرى يعانى منها الوطن الكبير . ان هذه القرية الصغيرة ، التى منحتنا لبن الحرية والوجود الأول لابد أن نعطيها حريتها المفتقدة ، وهذه الحرية لن تعود اليها الا بالثورة على الأوضاع ، ورفض كل ما من شأنه يمرغ كرامتها أو كرامة أبنائها فى التراب ... لابد من ايقاظ الوطن كله ، حتى يعود الأمان الى كل شبر فى مصر ، وحتى يضمن أبناء القرية الصغيرة غدهم ومستقبلهم ، وحتى يعود الحب الى كل مكان فى أرض الوطن ...

مثلما كانت « القرية » ، طريقا للحرية والثورة فى حياة ابرهام لنكولن ، وغاندى ، ونهرو ، وجيفارا ، وغيرهم من قادة ومفكرى هذا العصر .. كانت « ميت أبو الكوم » بداية على طريق الثورة فى حياة البطل والقائد والمعلم : محمد أنور السادات . كانت الشــمعة الأولى فى حياته ، كانت النافذة الأولى التى اطل منها على شمس الحرية ، ومنها خرج الى الطريق الطويل ، الصعب ، الذى أوصله للرئاسة فى عام ١٩٧٠ ...

الفصل الثاني

محاكمة السادات .. ومصر على الصليب

« تعودت ، دائما ، ان اختزن الالم فى نفسى حين أعانيه ..
ولقد مرت بى صنوف كثيرة من الالم .. تالمت فى السجن ،
لأن من حبسونى ، اتهمونى باننى اتآمر على عميل من عملاء
بريطانيا ، عدو بلادى اللدود ، فعانيت ، وتحملت .. واتهمتنى
رئاسة الجيش أيام فاروق ، اننى خنت عهد ملك بريطانيا ـ
حليف فاروق ، وقتذاك ، فطردت من الجيش ، واعتقلت ،
ومرة اخرى ، عانيت ، واحتملت .. »

انور السادات



حكم اسماعيل صدقى ، اثناء الأزمة الاقتصادية الطاحنة (١٩٢٩ ــ ١٩٣٠) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) عاشت مصر أسوأ فترات تاريخها الحديث ، وتعرضت لشتى ألوان القهر والمعاناة . فلقد كانت الصورة مظلمة تماما ، ليس فقط بسبب النظام الرجعى الذى كان يسود مصر ، ولكن لان الحركه الوطنية لم تجد لها طريقا الا فى انتفاضة خانقة فى عام ١٩٣٥ . والبورجوازية المصريه التى قادت ثورة ١٩١٩ ، وتحطمت آمالها مع تصفية الثورة ، بدات تواجه مرحلة الانحدار فى الأربعينات بخطط جديدة ، وكان من بين هذه الخطط اشكال المقاومه والاضطرابات ومتنفسات الاحزاب والحلقات السرية ، وكان الكثير من هذه التنظيمات ينزع الى مقاومة الاحتلال والرجعية بالعنف والاغتيال كجزء من سياسة « المقاومة من الداخل » ، ومجابهة القهر بالعنف ، وكانت سلسلة الاغتيالات وأعمال العنف والمقاومة التى شهدتها الأربعينات نتاج واضح لذلك ، وقد قدم السادات للمحاكمة ، وسجن فى احدى هذه القضايا البارزة ، وكان على راس قائمة المتهمين فى قضية « الاعتداءات السياسية » الشهيرة .. فلم يعد الاستعمار البريطانى يحكم مصر حكما مباشرا كما كان الحال قبل عام ١٩١٤ ، لقد أصبح يحكم البلاد من خلال الملك والأحزاب ، ولهذا لم يكن غريبا ، أن يتحول مركز الثقل فى الحركة الوطنية الى الكفاح الديمقراطى الموجه ضد السراى والإقطاع والاحتكار ...

ولم يكن الاستعمار يكتفى بمجرد اللعب من وراء الستار ، وانما كثيرا ما كان يتدخل تدخلا سافرا فى شئون الحياة النيابية . واحتج الشعب ، وازداد سخطه على وزارات السراى ، وقامت المظاهرات فى المدن والقرى ، وكان ضحية هذه المظاهرات العديد من الشهداء من صفوف العمال والطلبة

والفلاحين ، وكان من بين هؤلاء : العامل « اسماعيل الخالع » ، وطلبة الجامعة : « محمد عبد الحكم الجراحي » ، « على طه » ، « محمد عبد المجيد مرسى » ، ثم « عبد الحليم عبد المقصود » من المعهد الدينى بطنطا ... وقد أعلن الطلبة والعمال الحداد نتيجة لذلك فى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ ، وأقاموا نصبا تذكاريا فى ديسمبر من نفس العام ، واستمروا يقودون المظاهرات التى ترفع شعارات الاستقلال والحرية وعودة الدستور، وتدمغ مؤامرات الاستعمار والسراى والأحزاب الرجعية .. وتوحدت جبهة الطلبة والعمال ، لا تطالب بالحريات والاستقلال فحسب ، بل ومن ثمة تطالب بالديمقراطية ، وتعرى كل مؤامرات الرجعية فى ذلك الوقت ..

وخلال الفترة من ١٩٢٥ حتى بداية الأربعينات ، تعاقبت على مصر العديد من الوزارات ، التى شاركت فى تحطيم الحياة النيابية فى مصر وفى تعطيل حرية البلاد ، وفى تكبيل مصر بمزيد من السلاسل والقيود . وكان فى مقدمة هذه الوزارات : « اسماعيل صدقى » ـ جلاد الشعب ، الذى اشترك فى معظم وزارات الانقلاب ، والغريب أنه كان عضوا فى مجلس ادارة الشركة الانجليزية البلجيكية ، وشركة الغزل الأهلية التى كان يرأسها سلفاجو ـ وهى شركة انجليزية أساسا ، وعضوا فى أكثر من ست شركات اخرى تدين بالولاء لبريطانيا ... « أحمد زيور » أول رئيس وزارة قامت بتحطيم دستور سنة ١٩٢٣ ، وكان عضوا لمجلس ادارة فى أكثر من شركة انجليزية هو الاخر ... « حسين سرى » ، عضو مجلس ادارة البنك الاهلى ، وعضو شركة القناة ... « حافظ عفيفى » عضو مجلس ادارة البنك العقارى وشركة المكابس ... « على ماهر » عضو البنك الأهلى منذ سنة ١٩٢٩ .. « محمد حافظ رمضان » رئيس الحزب الوطنى ، والذى تخلى عن مبادىء الاشتراكية واشترك فى وزارات الانقلاب ... « عبد الحميد بدوى » عضو مجلس ادارة شركة سكك حديد مصر الكهربائية التى كان البارون امبان الذى أنشأ ضاحية مصر الجديدة (هليوبوليس) نائب

رئيسها ... « سابا حبشى » الوزير السعدى ، ورئيس البنك الايطالى .. « حلمى عيسى » عضو شركة الطحن التى كان يرأسها موريس كوهين ... والى جانب هذه الأسماء تجد أسماء اخرى مثل : محمد توفيق رفعت ، راغب حنا ، عطا عفيفى ، أحمد مدحت يكن ، حسن مظلوم ، صادق وهبه ، وغيرهم من الباشوات ، وكانت تسيطر عليهم النزعات البريطانية ، ويرتبطون بشكل أو باخر بالتحالف بين الملكية والاستعمار ، ومعظمهم من كبار الملاك ... !!

وكان لهذه السيطرة ، آثرها ، فى انحسار المد الثورى ، وخنق البلاد ، على مختلف الأبعاد ، مما أدى الى ضعف الصناعة المصرية ، وتكدس المخزون من صناعة البلاد وتجارتها ، وكانت معاهدة ١٩٣٦ ، التى أعطت الاحتلال الصبغة الشرعية التى كان يرجوها منذ زمن بعيد ، والتى ربطت مصر فى تحالف رسمى مع انجلترا ، تتويجا ، لسلسلة هذه المؤامرات . وكان نتيجة لذلك ، أن قامت سلسلة من الانتفاضات والهبات الثورية للشباب من الطلبة والعمال والمثقفين ، فنشأت سلسلة من التنظيمات والحلقات والتجمعات ، كانت لهم صفة الشعبية ، واجتذبت لها العديد من الشباب من مثقفين وعمال وطلبة ، وقد ساعد على نمو وتطور هذه الحركات ظروف القهر التى عاشتها البلاد فى ظروف الحرب . ففى عام ١٩٤٢ ، تجسدت أزمة مصر بشكل ضارى ، حتى أن الارقام نفسها لا تكفى للدلالة على مقدار البؤس الذى كانت تحياه البلاد ، فقد قدرت مصلحة الاحصاء فى عام ١٩٤٢ ، أن ما يلزم العامل وزوجته وأربعة أولاد لا يقل عن ٤٣٩ قرشا فى الشهر طعاما وكساءا ، وذلك وفق الأسعار الرسمية ، لا أسعار السوق السوداء التى كانت هى قانون المعاملات فى ذلك الوقت ، ومع هـذا فقد كان متوسط الأجر الشهرى للعامل لا يزيد فى ذلك الوقت عن ٢٩٠ قرشا فى الشهر ، وفى عام ١٩٤٢ ، أيضا ، ارتفعت الأرباح الموزعة فى الشركات المساهمة فى مصر من سبعة ملايين ونصف مليون جنيه الى قرابة عشرين

مليون جنيه ، ذهب اغلبيتها الى جيوب الاحتكاريين من اجانب ومصريين ، ممن ينتمون الى دائرة كبار الملاك ، كما ارتفعت ايجارات الاراضى الزراعيه من ٣٥ مليون جنيــه عام ١٩٣٨ الى ٨٠ مليون جنيــه عام ١٩٤٢ ، ذهب معظمها الى جيوب الاقطاعيين ..

وامام هذه الارقام ، التى تمثل بؤس مصر ، وقف السادات طــويلا ، محزونا ، شقيا ، لما آل اليه امر بلاده ، وكان لابد من عمل ايجابى ، أى عمل يبدد العتمات فى خيمة الظلام الهائلة التى كانت تجثم على صدر مصر . لذلك انتمى السادات الى التنظيمات السياسية ، التى كانت تندد بالاستعمار وتدمغ سياسة كبار ملاك الأرض والاقطاعيين ، وتدين الأحزاب الرجعية ، واشتغل كمحترف سياسى سنوات ليست بالقليلة خلال الاربعينات ، وكله ايمان وقوه ، فى أن يبزغ فجر يوم جديد يخلص مصر من عذاباتها الشقية ..

وقد شارك السادات فى كل الهبات والفورات الثورية فى الأربعينات ، وهتف ضد الاستعمار ، وخاض المعارك الضارية ضــد الرجعية ، فكرا وممارسة فى التطبيق ، وقرر ألا يتراجع عن طريقه الثورى ، فالسكوت عن الجريمة جريمة كبرى ، والصمت هو الموت نفسه ..

وقد قال صديق ، لاصق السادات فى كفاحه خلال الأربعينات ، وشاهد تضحياته عن قرب فى ذلك الوقت : « كان عملاقا ، لا يخشى شيئا ، لا يهاب الموت ، ولا يفزعه أى شيء ، فقد وهب حياته لمصر ، لأنه آمن أن الصمت خيانة ، والسلبية مشاركة فى الجريمة ، لذلك لم يتوقف لحظة واحدة عن الكفاح ، وكان سلوكه ، وتحركه ، فى ذلك الوقت ، يســيران نحو غاية واحدة ، البذل والتضحية من أجل مصر ، فكل حركة وطنية تشارك فى وضع طوبة فى صرح الخلاص الأكبر ، وأن يموت الانسان أو يفقد روحه فى غمار هذا التحرك لا يمثل أهمية ، ما دام يأتى بثمار طيبة لمصر ، وكان مخلصا فى قضــــيته ، معطاء فى بذله ، قــويا فى تحركه وفى تفكيره وفى نضــاله العظيم » .

●

فى مساء يوم من أيام الشتاء الباردة فى منتصف الأربعينات ... وعلى وجه التحديد فى مساء ٥ يناير عام ١٩٤٦ ، وفى تمام الساعة السادسة مساء ، توقفت سيارة داكنة أمام المنزل رقم « ١٤ » بشارع عدلى ، وسط البلد ، وهبط منها وزير المالية « أمين عثمان باشا » ، وكان فى طريقه الى نادى رابطة النهضة التى كان يرأسها . وما كاد يصعد الدرج ، حتى أطلق الرصاص عليه ، فسقط على وجهه على درجات السلم وهو يصرخ صرخات مكتومة ، مما لفت الانظار ، فتجمع الناس ، ونقل أمين عثمان الى مستشفى الدكتور مورو ، وبهذه القضية التى أثارت ثائرة المجتمع ، بدأ التحقيق فى قضية « الاعتداءات السياسية » التى اتهم فيها ستة وعشرون شابا من خيرة شباب مصر ، وكان على رأس هذه القائمة محمد أنور السادات ، الذى تلقى قرار اتهامه ، وكان المتهم السابع فى القضية . وقد وجهت النيابة له الاشتراك فى مقتل أمين عثمان ، وقد قرأ « أنور حبيب » وكيل النائب العام فى ذلك الوقت قرار اتهام محمد أنور السادات ، الذى يقضى بالتحفظ عليه ومحاكمته . وقد جاء فى هذا القرار :

« محمد أنور السادات .. تخرج من المدرسة الحربية ، والتحق ضابطا بالجيش المصرى فى سلاح الاشارة ، واخذ يترقى ، حتى بلغ رتبة اليوزباشى . وقد حقق معه فى عهد وزارة النحاس باشا فى عام ١٩٤٢ ، وانتهى التحقيق بفصله هو وزميله الطيار حسن عزت من الجيش .. وفى نفس اليوم ، اعتقلا بامر الحاكم العسكرى ، وتمكن محمد أنور السادات وزميله حسن عزت ، من الهرب واطلق محمد أنور السادات لحيته ، واطلق على نفسه لقب (الحاج) ، وكون مع حسن عزت ، شركة للنقل ، وضما اليهما عبد الفتاح عنايت ، وهو احد المحكوم عليهم فى قضية مقتل السردار . ولكن الشركة ، كانت مجرد ستار لعديد من الاعتداءات السياسية ، ولم تكن شركة بالمعنى المفهوم تنقل البضائع او السلع ، كانت لها مهام سياسية واضحة كالاغتيال والخطف والقتل ، والاشتراك فى العديد من الاعتداءات السياسية » .

وقال وكيل النائب العام « أنور حبيب » .. أن محمد أنور السادات ، شارك فى العديد من التهم ، كان آخرها الاشتراك فى مقتل أمين عثمان وزير المالية ، وأن له سجل يمتلىء بالاتهامات منذ عام ١٩٣٨ حتى ١٩٤٦ ، يؤكد احترافه السياسى ، وانتمائه الى سلسلة من التنظيمات السياسية التى شاركت فى قضية الاعتداءات السياسية وفى كثير من المؤامرات التى ترمى الى قلب نظام الحكم . واشار وكيل النائب العام ، أيضا ، الى ورقة هامة ، ضبطت فى جيب بيجامة السادات أثناء القبض عليه ، وقد كتبت فيها عبارات مختلفة باللغة الانجليزية ترجمتها على النحو التالى : « التقرير رقم ١ فى ٢/١٣ لتشكيل رقم ٢ بلا عمل . التشكيل رقم ٢ ينتظر الأوامر . أتعشم أن أصل الى الضربة الكبرى قريبا . يعتبروننى خطيرا . ولكن الدليل ضعيف وواهى . فى انتظار الأوامر . الحمد لله ، وليحمى رجلنا » ...

وقد قبض على الفريق عزيز على المصرى ، فى تلك القضية ، وحقق معه ، وجاء فى محضر التحقيق الخاص به والذى تم فى ٢١ يناير عام ١٩٤٦ أمام المحامى العمومى « يحيى مسعود » ، اشتراكه فى سلسلة من الاعتداءات السياسية ، كما أثير فى هـــذه القضية حادث ٤ فبـــراير ١٩٤٢ ، ودعى للشهادة فى القضية عدد كبير من السياسيين ، كان بينهم : مصطفى النحاس ، وزكى على ، وعلى ماهر ، وحافظ رمضان ، وبهى الدين بركات ، وحسين سرى ، ومحمد حسين هيكل ، وتحولت القضية الى الجنايات العليا . وكان الدكتور « محمد زهير جرانة » ، هو محامى السادات فى هذه القضية ، التى كانت مثار حديث الصحافة فى ذلك الوقت ...

وفى ٢٤ يوليو ١٩٤٨ ، صدر الحكم فى القضية ، وكانت البراءة من نصيب السادات ، بعد أن قضى فى السجن ٣٠ شهرا ، وقد بلغ عدد الجلسات فى هذه القضية ٨٤ جلسة ، كما بلغ عدد صفحات التحقيق فيها ١٥٨٠ صفحة وبلغ عدد المحامين الذين ترافعوا فيها ٣٥ من مختلف الأحزاب السياسية . وقد كان موقف السادات فى هذه القضية ، وخلال الجلسات المختلفة ،

يتسم بالشجاعة المثيرة ، حتى أن محاميه (محمد زهير جرانة) قال عنه : « فى الحقيقة أننى لم أشهد شجاعة أو بسالة كتلك التى اتصف بها محمد أنور السادات ، فقد كان ثابتا شجاعا جريئا فى مواقفه وفى دفاعه وفى كل تصريحاته ، ولم يضعف لحظة واحدة ، لأن رسالة عظيمة كانت وراء كل تصرفاته وسلوكه ، وأذكر أنه قال : وماذا يهم . اننا ننتظر المحاكمة وبصدور رحبة ، فنحن لا نخاف السجن ، ولا نهاب الاغلال ، فمصر كلها سجينة ، وسيأتى يوم تسقط عنها الاغلال .. وأذكر ، أيضا ، أنه قال : من الذى يتهم من ، ومن الذى يحاكم من ؟! لقد انقلبت الآية ، وعاد المتهم هو الذى يحاكم البرىء ، وعاد السفاح ليحاكم المعتدى عليه ؟ ! كان محمد أنور السادات ، رمزا لكفاح الشباب واستبساله وجهاده من أجل الحرية والديمقراطية فى سلسلة جلسات هذه المحاكمة الشهيرة » .

وقد ظل السادات ، مطاردا ، يتنقل من حى الى حى ، طوال فترة هربه من الحكم الذى صدر عليه فى عام ١٩٤٢ فى قضية الاعتداءات السياسية ، فاشتغل كسائق نقل ، وتنقل فى عدة اشغال أخرى ، كستار لاخفاء العمل الأساسى الذى يقوم به ، الا وهو « الاحتراف السياسى » ، فسكن حى « السيدة زينب » ، فى شارع « السد البرانى » ، كما سكن « حى الازهر » وتنقل فى عدة أحياء ، هربا من عيون البوليس السياسى ! وخلال تلك السنوات ، كان يعانى مرارة العيش ، وضراوة الحياة ، وقسوة الأيام ، يعيش ليومه السياسى ، ولا يضمن غده ، لأنه يحمل قدره على كفه من أجل مصر ، ومن أجل حرية أبنائها ..

وعندما نطق النائب العام بالحكم عليه فى عام ١٩٤٢ ، بعد أن قدم مذكرة طويلة عن اتهامات السادات والظروف التى تحياها مصر ، ابتسم السادات فى سخرية ، وقال : « من الذى يتهم من ؟ » .. ثم عاد وقال : « أفضل أن أشنق على أن يسحب النائب العام كلامه الخاص بالانجليز ، فهو يدافع عنهم وعن كرامتهم أكثر من محامى انجليزى قح .! » .

وقد كتب السادات مذكراته عن فترة سجنه ، وما جاء فى سلسلة هذه الجلسات المثيرة ، ومما ننقله هنا على لسانه بالحرف الواحد هذه العبارات :

((.. واخيرا ، وبعد أن انقضى عامان وستة اشهر وتسعة عشر يوما على حادث اغتيال امين عثمان باشا ، صدر الحكم بادانة ١٤ متهما من الستة والعشرين الذين قدموا من أجله الى القضاء ، وتبرئة احد عشر ، ووقف الاجراءات بالنسبة للمتهم الثامن والثلاثين !

وكانت جلسة الحكم احفل الجلسات بالنظارة ، ومعظمهم من اقارب المتهمين واصدقائهم الذين استقبلوهم عند مقدمهم من السجن استقبالا مؤثرا ، ولعله كان يدور فى خلدهم أن هذا اللقاء ربما كان اللقاء الأخير ، الى حين ! وكانت الهدايا التى اعتادوا حملها معهم فى كل جلسة ممتازة ومضاعفة لهذا السبب أيضا . وكان يخيم على قاعة الجلســة ، جو رهيب مقبض .وكنت تلمح القلق فى العيون ، عيون المتهمين واقارب واصحاب المتهمين على حد سواء ... وضاعف من توتر اعصابهم أن الجلسة تاخر عقدها حتى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر . وما أن بدأ رئيس المحكمة عبد اللطيف محمد بك ينطق بالحكم ، حتى انطلق المتهمون مع الحاضرين فى الهتاف بالعدالة التى انتظروها عامين ونصف عام . وتدرجت الاحكام من عشر سنوات سجن للمتهم الاول حسين توفيق ، الى خمس سنوات لأربعة من المتهمين ، الى ثلاث سنوات لثلاثة آخرين ، الى سنتين لواحد ، وسنة واحدة لاثنين ، وشهر واحد لمتهم واحد)) .

ويقول السادات ، أيضا ، فى مذكراته ، عن فترة سجنه :

((لقد وقع حادث اغتيال امين عثمان فى مساء ٥ يناير ١٩٤٦ ، وانتهى تحقيق النيابة فى نوفمبر من نفس العام . وبدأ تحقيق النائب العمومى وقتئذ عبد الرحمن الطوير باشا ، ثم خلفه فيه اربعة من وكلاء نيابة مصر هم : كامل القاويش ، ومحمد عبد الله ، وعبد الرحمن يوسف ، وأنور حبيب ، وهو الذى ترافع فى جلسات المحاكمة .. وقد بلغ شهود الاثبات فى القضية ١٢ شاهدا ، بينهم مصطفى النحاس باشا ، والنائب

النائب عبد الرحمن الطوير باشا ، واربعة من ضباط البوليس ، ووكيل للنيابة ، وسيدتان ... اما شهود النفى ، فبلغ عددهم عشرة من بينهم رئيسان سابقان من رؤساء الوزارات هما دولة علي ماهر باشا ودولة حسين سري باشا ورئيس مجلس الشيوخ محمد حسين هيكل باشا ، ووزيران سابقان ، ووكيل وزارة ، ومستشار سابق محكمة النقض والابرام ، وصحفي وضابط بوليس ... وقد استغرقت المحكمة في نظر القضية سنة وسبعة اشهر وخمسة ايام ، وعقدت ٨٤ جلسة ، وبلغت صفحات التحقيق في القضية ١٥٨٠ صحيفة من مقاس الفولسكاب ... وكان يتناول الكتابة في القضية أربعة من كتاب المحكمة في كل جلسة ، وترافع عن المتهمين ٢٥ محاميا من مختلف الاحزاب السياسية ، بينهم ٥٥ ضابطا من ضباط البوليس ومائتا جندي بين عسكريين وملكيين))

ويستمر السادات في روى مذكراته عن هذه القضية ، فيقول :

((كان بين الاحد عشر متهما الذين برأتهم محكمة الجنايات في قضية الاغتيالات السياسية : نجيب حسين فخرى ، ولم تنس السيدة والدته بقية زملائه ، فاتجهت اليهم تهنىء من حكم ببراءته منهم ، وتواسى من قدر له البقاء في السجن))

وفي حديثه عن الثلاثين شهرا التي قضاها في السجن ، قال السادات في مذكراته :

((يوم الجمعة ١٨ يناير ١٩٤٦ ...

دخلت ، امس ، سجن الاجانب بعد منتصف الليل بعد ان عدت من سراى النيابة . ها هو سجن الأجانب يضمني ثانية ، بعد ان كنت قد نسيته تماما ، اذ ان آخر ذكريات لى فيه انتقلت الى ركن بعيد من ذاكرتي ، ولكنني اراني ، الآن استعيدها ، كما لو كانت بالامس ، فها هى ذى الغرفة رقم ٢٨ التي كان يسكنها اربعتنا : محسن فاضل ، الدمرداش الشندى ، حسن جعفر ، وانا . وقد نقلنا الى السجن في شهر سبتمبر ١٩٤٢ ، في اواخر عهد الحكومة الوفدية ، على اثر مشادة بيننا وبين ادارة المعتقل بالزيتون ، تمهيدا لترحيلنا الى الطور كما ارتأى الحاكم العسكرى وقتذاك ... انني اذكر

جيدا ، الآن ، كيف جاهدنا لنجعل اقامتنا هنا محتملة ، بل وشيقة ، فقد راينا من المستر هكمان مامور السجن فى ذلك الوقت استعدادا طيبا ، لذلك ، وكنا نمضى اليوم فى لعب الطاولة والدمينو أو القراءة على كراسى البحر التى استحضرناها ، واذكر ، أيضا ، ذلك اليوم الذى املنا فيه بالسفر الى الطور ، وكيف نقل الشندى الى سجن التخشيبة وبقينا نحن الثلاثة هنا انتظارا لميعاد قدوم الطوافة التى ستقلنا الى الطور ، اذ ان رحلتها كانت شهرية ، واحضروا لنا طعام الرحلة من المتعهد لكى نحمله فى سفرنا ، وهو عبارة عن بقسماط ناشف ، وجبن ، وحلاوة . كما انى مازال اذكر انه قدر لهذه الرحلة أن لا تتم ، فقد تدخل الانجليز فى عدم اتمامها ولهذا التدخل قصة طريفة ، فقد كان رجال المخابرات البريطانية دائمى التردد على سجن الاجانب بشان قضاياهم ، وذات يوم حضر الى السجن المدعو الميجور سمسون من قلم الجاسوسية البريطانية فى الشرق الأوسط ، فقابل مصادفة محسن فاضل وهو فى الزيارة فى غرفة المامور ، وساله عن سبب وجوده فى السجن ، فاخبره محسن بوجودنا جميعا ، تمهيدا لترحيلنا الى الطور ، فثار سمسون ثورة هائلة ، لان ثلاثتنا كنا معتقلين على ذمة السلطة البريطانية ، فكيف لم نستشر تلك السلطة فى أمرنا ؟ ثم اعطى محسن وعدا قاطعا بالغاء هذا الترحيل وعودتنا للمعتقل ، ويظهر ان السفارة البريطانية كانت مصدر السلطات حقيقة وقتذاك ، فانه لم يمض يوم واحد على زيارة سمسون المذكور حتى الغى الحاكم العسكرى امره بترحيلنا للطور ، وعدنا الى المعتقل فى عهد خلفه المرحوم ماهر باشا . ومازلت أذكر كيف دفعنى الفضول لاستقصى سر « سمسون » هذا ، فعلمت أنه كان موظفا فى شركة تامين انجليزية كبرى فى القاهرة قبل قيام الحرب بزمن طويل ، وكان يعمل فى قلم المخابرات البريطانية فى نفس الوقت فلما اعلنت الحرب جند رئيسا لقلم الجاسوسية فى القاهرة برتبة كابتن ، وكانت مدة خدمته السابقة كفيلة بان تجعله يجيد العربية بجميع لهجاتها (بحكم الصنعة) ، ويتغلغل فى جميع الأوساط ، ويقف على جميع الاتجاهات ، ولم تستطع

الامبراطورية العجوز ان تستغنى عن خدماته بعد الحرب ، فهو يشغل الآن وظيفة دبلوماسية فى السفارة البريطانية ..! »

ويكمل السادات مذكراته عن هذه الفترة ، فيقول :

« ان الذكريات تتـدافع الى راسى ، فى كل اتجاه وكأنها فيلم تتوالى حوادثه فى تشويش واضطراب ! لقد نسيت أننى الآن متهم فى قضية مقتل امين عثمان — اننى أرى جو السجن رهيبا ، بخلاف ما عهدته ، الا أننى اعتقد ان الوضع سيكون على اى حال أحسن . فلست ، الان ، تحت الاحكام العرفية كما كان الحال فى المرة السابقة ، ولعل وجودى على ذمه النيابة يكون خيرا من وجودى على ذمة الحاكم العسكرى المفضال »

ويوم الاحد ٢٠ يناير عام ١٩٤٦ ، يكتب السادات فى مذكراته عن هذه القضية ، فيقول :

« مضى على ، الآن ، ثلاثة أيام ، وانا انام ببدلتى ، فقـد نقلونى الى هنا مســاء الخميس السابق بدون ان يحضروا ملابسى وحاجاتى من سجن مصر حيث كنت . هذا ، برغم اننىشكوت شفويا ثلاث مرات فىالايام السابقة لمامور السجن . اننى الاحظ تغييرا شديدا فى معاملة المامور لى بالنسبة لمعاملته التى لقيتها منه فى المرة الســابقة ، وهو يحيلنى دائما على البكباشى (امام) الذى أخفقت فى محاولة الاتصال به . لذلك كتبت خطابا شديداللهجة إلى النائب العام فىشان هذا الاهمال وتركى بدون ملابسى او حتى صابونة لأغتسل ، وقد سبب لى النوم بالبدلة التهابا شديدا فى فخذى جعلنى اهرش ، كما لو كنت أجرب ! »

وفى يوم الاثنين ٢١ يناير ١٩٤٦ ، كتب الســادات ، فصــلا آخر فى مذكرات سجنه ، قال فيه :

« يظهر ان خطابى للنائب العام احدث أثرا ، فقد احضر لى مامور السجن ملابسى ، وكذا احضر الصسابون . وقد طلبت حماما ســاخنا فاذن لى المـامور بذلك ، واستمتعت باستلقاءة بديعة داخلالبيجامة والبطاطين .. لا أريد ان افكر فاننى اشعر باسئلة عديدة تؤرقنى ، ولا اجد لها جوابا . فان

«هيكمان يتغير في كل لحظة كما يبدو لي ، بشكل جاف لا ادرى له تعليلا ! الفسحة معدومة ، واكاد اقضى الأربع والعشرين ساعة في الغرفة ، وهي مظلمة وشديدة الرطوبة ، لانها في الدور الأول على سطح الأرض ، ولما طلبت تفسير ذلك من هيكمان هز رأسه ، ولم يجب !..» .

وفي يوم ٢٢ يناير ١٩٤٦ ، كتب السادات عن سجنه ، يقول :

((اصبحت الحالة لا تطاق ، فلم يسمح لي الضابط النوبتجي ، اليوم بالتوجه لدورة المياه في الصباح كالمعتاد ، وعبثا ، حاولت التفاهم معه ، ولم ينفذ الامر الا نزول هيكمان من منزله فسمح لي بأن اقضي حاجتي واتوضا .. وقد كتبت للنائب العام ، مرة ثانية ، أعلمه ، بهذه المعاملة الشاذة فطلبني وكيل النيابة عند الظهر ، واثبت شكواي ، وخاصة فيما يختص بالسماح لي بالقراءة ، ولكنه سامحه الله ، لم يسمح لي بشيء حتى ولا بالمصحف الشريف)) .

●

في رواية الكاتب الفرنسي ستندال (ديربارم) ، يعرض لنا الكاتب رؤية واضحة ، وعميقة لبطله الثوري ، الذي سجن نتيجة لتحمسه وثورته . هذه الرواية ، في الحقيقة عندما قرأتها اخيرا ، وكنت قد قرأتها من قبل منذ اكثر من عشر سنوات ، ذكرتني بالسادات — هذا البطل الذي عاني ، وشقي ، وتعذب من أجل مصر ، في وقت كان فيه العديد من الشباب يعطون جل لياليهم على موائد الروليت والقمار والنساء ، وفي وقت كان المجون والصخب يجتذب ويمتص الكثيرين . انني لازلت أذكر كلمة (ستندال) ، التي يقول فيها على لسان بطله « جوليان سوريل » : « ان الحرية حقيقة ، بينما السجن ظلال . اننا لا يجب أن نخاف السجن كثيرا ، لأنه يسقط في لحظة ما ، نحن سنسقطه بحرارة مواقفنا » . هكذا كان يفكر بطلنا : السادات ، عندما كان في سجنه ، وقريبا من هذه العبارات قال نهرو في حواره مع ابنته في كتاب « لمحات من تاريخ العالم » ، وفي حواريات أخرى تكشف عن المعاناة التي قاما ببذلها من أجل الوطن : « الوطن ، يستحق

كثيرا من البذل . اننى عندما كنت فى القيد ، لم أحس بالحزن بقدر ما أحسست بالرغبة فى العطاء أكثر . صدقينى يا ابنتى ، ليس هناك أروع من البذل والعطاء للارض ، فهى اعطتنا وتعطينا ، بسخاء ، وحتى نحتفظ بها ، علينا أن نعطيها من ماء أنفسنا ، بمعنى أن نعطى ثمنا لحرية وديمقراطية المستقبل ، علينا أن نفتدى ، ونبذل ، ونعطى ، حتى تسير الأرض ملكا حقيقيا لنا ، ولكن الأبناء ، فى هذه اللحظات يا ابنتى العزيزة ، تسقط كل الشرور ، والاغلال ، عن كاهلنا ، وعن كاهل كل الأبناء ، وعن كاهل أمة باكملها » ، نفس الأحاسيس كان يشعر بها السادات ، فى سجنه ، فى منتصف الأربعينات ، وهو يعانى عذابات الالم اليومى ، والغربة القاتمة . انه يكتب فى مذكراته عن سجنه ، فيقول فى يوم ١٧ فبراير عام ١٩٤٦ :

« طلعت علينا جريدة (المقطم) وفيها خبر نقل كيلرن من مصر ، ولما كانت ابغض هذا المخلوق الذى ادمى كرامة مصر كلها ، فقد صممت على ان احتفل بهذه المناسبة بقدر ما اتمكن فارسلت فى شراء دستة جاتوه باسم المسجونة ليلى الهندية ووزعتها على ليلى والسجانات والسجان والفراشة واستبقيت لنفسى ثلاث قطع احتفل باكلها على فنجان شاى المساء ـ وقد استمتعت باكلها ايما استمتاع ، خاصة وان المعازيم تركوها لى من النوع الدسم المحشو بالكريمة ! وفى نحو الثانية صباحا ، استيقظت على مغص واسهال ، واتضح لى ان الجاتوه كان تالفا ، وقد جىء به من دكان فى شارع محمد على ، اننى اكاد اوجه الحقيقة ، ان يغطى الكيلرن قد تحول الى حقد دفين منذ هذه الليلة !! » .

وفى موضع آخر من مذكراته ، يقول السادات :

« استدعانى وكيل النيابة ، وكان بيده التلغراف وحقق معى بشأنه ، فرفضت الادلاء بسبب ارساله الى المتولى امام المحقق ، ولما اعلمنى باهمية ذلك ، لم ادل باى شىء ... فى يوم آخر شاع فى السجن كله ، ان (ليلى الهندية) تحب السجين رقم (٢٩) ... هذه العبارة طيرها السجن كله ، وقالتها ستية الفراشة والعسكرى ، بل اكثر من هذا . تقدمت ليلى

للمامور بطلب اعطاء المسجون رقم (١٩) فسحة أطول لكى تنمتع بالتحدث اليه ومناجاته . وقد دفعنى الفضول الى رؤية هذا ، وبكل عناء تمكنت من ذلك ، ولمدة نصف دقيقة على الاكثر ، فوجدته يستحق اعجاب (ليلى) فعلا ، فهو ذا أنف رومانى ، وشعر أصفر ، وتقاطيع متناسقة فى رجولة واضحة ، وقد علمت فيما بعد أنه يدعى محمد ابراهيم كامل .

آه ... ليس فى الامكان أبدع مما كان فقد استيقظت ذات يوم على صوت حنون ، يغنى كليوباترة وآهاتها ، انها (ليلى) فى الغرفة المجاورة . لقد امتزجت البراءة مع رقة الانوثة فى اخراج هذا النغم الساحر ، حتى خيل الى ، انه ليس صوت بشر . اننى اعشق الموسيقى بكل جوارحى ، واكثر من ذلك فهى تضفى على هذا الجو الرهيب اونا خفيفا طليا من الجمال الذى يرتفع بالنفس الانسانية الى آفاق الروح ، فينسى الانسان الزمان والمكان والأشياء . استغفرك اللهم واحمدك حتى ترضى .. » .

واستمر السادات فى رواية مذكراته ، ويومياته ، عن الثلاثين شهرا التى سجن فيهـا ، والتى قاسى فيها ويلات الحبس والشقاء من أجل وطنيتـه العظيمة ...

وقد علق واحد من المحامين الأفذاذ الذين عاصروا هـذه المحاكمات وشهدوها عن كثب بقوله : « ان هذه المحاكمات ، ان اسفرت فهى تسفر عن روح وطنية مخلصة لهؤلاء الشباب الذين كانوا يتمتعون بروح وثابة وجرأة نادرة لا تبارى ، فقد كانوا يعرفون أن السجن أو الاعتقال نهايتهم ، ورغم ذلك لم يتوانوا لحظة واحدة عن الدفاع عن الوطن فى قوة خارقة ، وكان محمد أنور السادات ، أحـد هؤلاء المحترفين السياسيين ، الذين قدر لهم أن يشاركوا فى العطاء الثورى » . حقيقة أن العمل الثورى فى ذلك الوقت كان يتسم بالعنف والبطش ، وكان يسـير كيفما اتفق ، لكن على أية حال ، كان صورة واضحة للبذل والوطنيـة والثورية . وكان السادات ، فى مواقفه ، وفى سلوكه ، يمثل نوعا من القوة التى يحتذى بها الشباب

الثورى فى ذلك الوقت ، كان يعمل ليل نهار .. يبذل من أجل مصر كل عمره ، ولا ينتظر ثوابا ، وكان يعلم أنه يخاطر بحياته ، لكن كأى مواطن شريف حر ، كان يعطى ويعطى ، وعندما قبض عليه ، ذاق العذاب والتشريد والحبس ، لكنه لم ييأس ولم تفل عزيمته ، وكان العذاب يزيده تماسكا وقوة ، وكان ، دائما وراء القضبان يترنم فى سخرية ويردد الغد لمصر الحرة ، الغد لنا .. وكان يردد ذلك فى السجن ، ويردده ، أيضا ، فى جلسات المحاكمة الطويلة ، التى استغرقت الأسابيع والأسابيع من عمر مصر ، ومن عمر خيرة الشباب المناضل .. ويعلق السادات ، بنفسه على هذه الفترة القاسية من عمره ، فيقول : « تعودت ، دائما ، أن اختزن الألم فى نفسى حين أعانيه ، ولقد مرت بى صنوف كثيرة من هـذا الألم .. تألمت فى السجن لأن من حبسوني ، اتهموني بأنني أتآمر على عميل من عملاء بريطانيا ، عدو بلادى اللدود ، فعانيت ، وتحملت واتهمتنى رئاسة الجيش أيام فاروق أنني خنت عهد ملك بريطانيا ــ حليف فاروق ، وقتــذاك ، فطردت من الجيش ، واعتقلت ، ومرة أخرى ، عانيت ، واحتملت ... » .

●

كانت فترة السجن بالنسبة للسادات ، فترة صعبة ، خاصة فى ظروف ، كهذه التى تحياها مصر : منتصف الاربعينات ، وتيار الحركة الثورية فى حالة مد والتهاب وفوران ، ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، بدأ النظام الامبريالى يتقوض ، وبدأ العـديد من الدول يطالب بالاستقلال والخروج عن اطار الاحتلال والحماية . وكانت مصر فى مقدمة هذه الدول ، التى بدأ داخلها ، ولأول مرة ينتظم تيار الحركة الوطنية بعد فترات من القهر والمعاناة والبطش خلال الثلاثينـات وخلال سنوات الحرب القاسـية . ولم يحل السجن ، دون متابعة السادات لكل ما يدور فى مصر من أحداث كبرى ، كان يقرأ الكتب ، فى السياسة والاقتصاد ، والأدب ، وكان يحس أن هذه القراءات والثقافات هى زاده وسلاحـه الذى يجعله يتقدم أكثر وأكثر ، فبالمعرفة يزيد الانسان خطوات ، وبالمعرفة يتقدم الثورى خطوات وخطوات

فى طريق النضال . انه يقول عن قراءاته فى تلك الفترة : « تذكرت حكمة قرأتها وأنا فى السجن ، فحفظتها عن ظهر قلب ، ثم دونتها فى كراسة لا زلت أحتفظ بها حتى اليوم ، والحكمة تقول : خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق الشياطين شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما .. فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من الشياطين » . وقرأ ، أيضا ، هذه الحكمة التى قالها « كونفشيوس » ، حكيم الصين : « اذا أنت وقعت فى الشرك ، فلا تبتئس ، بل ولا تنفعل بأحزانك ، لأن طاقـة أحزانك وانفعالاتك ستعوقك عن الحركة ... فكر ، وتأمل ، كيف تتسلل من هذا الشرك ، وبلا انفعال » . وكان السادات ، طوال فترة سجنه ، ثابت الجأش ، لم يهتز ، ولم يدركه اليأس ، فقد كان (السجن) احدى الاحتمالات القريبة التى وضعها فى اعتبـاره ، وهو يعمل كمناضل ثورى فى الأربعينات ، وقد قال فى شجاعة عن أيام سجنه : « لم يداخلنى أى احساس من اليأس فى هذه المحاكمة . انها أمانة حملتها ، ويعلم ربى وحده ، أننى ما فرطت فيها ، بل أديتها بكل ذمة واخلاص » .

●

مثلما تقلب السادات فى المحاكمات وأحداث مصر الثورية ، واختلط بالعديد من المثقفين والسياسيين فى الأربعينات ، تقلب على مختلف صنوف البشر ، وتعرف على أكبر قدر من الناس ، من مختلف النوعيات ، كان يستمع اليهم ، ويحاول أن يدرك أفكارهم مهما كان مستوى هذا الفكر ، وتعرف أيضا على كثير من الأنماط والشخصيات وهو فى « سوق » الحياة وهذا جعله ، يقترب من الواقع أكثر .. انه فى هذه الفترة من الأربعينات ، خاصة عندما كان مطاردا من البوليس السياسى ، اشتغل فى العديد من الأعمال فكان أشبه بجوركى الذى اشتغل فى العديد من الحرف ، فزادته اقترابا من النفوس البشرية ، الجيد والرخيص ، الطيب والشرير ، وعرفته أنه ليس هناك شىء طيب تماما وليس هناك شر تماما ، وانما الطيبة تنمو وتمتد الى جوار الشر ، تماما كالأرض التى تنبت الأزهار الطيبة ، والى جوارها تمتد

الأعشاب السامة وتسرح الهوام والحيات ! وقال السادات عن تلك الفترة التي زادته قربا من الناس ، وبالتالى ، من مفهـوم السياسة : « كان من سوء طالعى ، أننى اشتغلت فى فترة من فترات حياتى فى (السوق) ، وكنت وقتذاك أجرى وراء لقمة العيش لى وللعيال .. وحين أعود بذاكرتى ، اليوم ، الى تلك الأيام ، والى من تعاملت معهم ، أذهل ، وأعجب بهذا الموكب العظيم الذى عشت فيه سنوات ، تعلمت فيها أن اكره (السوق) ومعاملات السوق ، وتقاليد هـذا السوق ! اننى لا أنكر أننى صادفت أناسا أطهارا وشرفاء ، لا زلت تربطنى بهم صداقات ومودات ، ولكننى الى جانب هؤلاء بلوت كثيرا من ذلك الطراز الذى لا يعرف فى معاملاته الا المساومة والا اللف والدوران .. يكون حقك مثبوتا وظاهرا ، ومكتوبا ، ولكنك تصدم حين يجابهك ذلك الطراز الممقوت من رجال السوق بالتجاهل والانكار ، ولا عجب من ذلك ، ان هذا الطراز يؤمن فى قرارة نفسه بحقك ، ويعلم تماما ما يجب أن يؤديه . ولكن عوامل الشر والأنانية ، تصور له ، أنه يستطيع أن يكسب منك بطول المحاورة وبكثرة المداورة ما يرضى جشعه ويروى أنانيته ! وكنت أفكر وأنا أتعامل مع هذا الطراز ، لا لأقنعه بوجاهة حقى وسلامة موقفى وشرف مقصدى ، وانما كنت أفكر كيف أستطيع أن أنبه مثل هذا المخلوق الى أن مسلكه فى الحياة يجرده من الانسـانية ، ويجرده من الشرف ، فقد يستطيع أن يكسب بالمحاورة والمداورة دريهمات ، ولكنه سيخسر فى النهاية شرفه وضميره ، وستكون أنانيته وجشعه خير دليل لكى ينبذه الناس ، فلن يقبل أحد أن يتعامل معه ، ولن يقبل أحد أن يصادقه لأنه انحط بغرائزه الى أسفل سافلين .. ولم أجد الا حلا واحدا للتعامل مع مثل هؤلاء المخادعين ، هـو الصمود والصمود ، فى قـوة وراء الحق مهما كان الثمن ... وتركت (السوق) الى (السياسـة) .. وفى السياسة ، صادفت هذين النوعين ، لا فى الأشخاص ، ولكن فى الدول . . الا قاتل الله أنانية السوق وأنانية الدول التى لا تعرف من الشرف الا مناورات السوق ! » . . . . .

الأربعينات ...

سنوات الحرب ، والمرارة ، والجراح ...

الأربعينات ...

سنوات الألم ، والصديد ، والدموع ..

الأربعينات ...

مصر تنام وتستيقظ على صوت صفارات الانذار والقنابل والمدافع ، وتمضغ الخبز الأسود ..

الأربعينات ...

وأبناء مصر وزهرة الشباب الوطنى فى الحرب ، أو فى السجون ، أو فى المعتقلات .. والسادات واحد من هؤلاء ، من زهرة شـباب الحركة الوطنية ، الذى دفع جزءا عظيما من عمره وحياته وراء القضبان ، ثمنا لنضاله وثوريته وبطولته ..

من وراء القضبان يتأمل مصر ، وطنه الحبيب : مصر على الصليب .. تحيا الأحزان ، وتتنفس الآلام والجراح ، والمئات من أبنائها يداسون تحت عجلات (النظام) الذى يمثل تحالف السراى مع الاحتلال البريطانى وكبار ملاك الأرض ورجال المال ممثلين فى الأحزاب الرجعية المتآمرة ..

وحتى عندما خرج من السجن ، لم يحس بطعم الحرية كثيرا ، فما الفرق بين أن يسجن المرء داخل زنزانة أو وراء شباك ضيق وبين أن يحيا فى وطن على الصـليب ، القيود تكبله ، والسجن يؤرقه ويمنعـه عن أن يحيا حرياته ... !

* ١٩٤٤ ... الانجليز يطلبون تأليف الجامعة العربية ، من أجل أن تكون خاضعة لنفوذهم وسيطرتهم . والحركات الوطنية ، والانتفاضات مستمرة فى الوطن العربى ضد قوى الاحتلال على اختلاف ألوانها ...

* ١٩٤٥ ... الانجليز يرفضون تعديل معاهدة ١٩٣٦ ، ويرفضون الجلاء ، ويرفضون حتى مناقشة هـذا الموضوع ، فهم يعتبرون أن مصر مزرعتهم في وقت الحرب والسلم ، فقد أعانتهم وقت الحرب كقاعدة هامة ، وهي ، في نفس الوقت مزرعة هامة في وقت السـلم تؤمن اقتصـادياتهم وموارده‍م . محاولات متنوعة لتأليف الجماعات والتنظيمات والحلقات الوطنية ، وذلك للضغط على قوى الاحتلال والرجعية في البلاد ، وكانت احدى هذه التنظيمات انتماء للسادات ، اذ رأى فيها منطلقا نحو العمـل الثورى ضد قوى القمع والقهر والعدوان على العدوان ..

* ١٩٤٦ .. مصر على الصليب . مصر تجمعت كلها عن بكرة أبيها في مظاهرات حامية ضد الاستعمار والرجعية . ففي نفس الوقت الذي نزلت فيه الى شوارع بمباى في الهند مظاهرات ضخمة يقودها الطلبة والمثقفون والعمال ، اشعلت النيران في عربات ومصفحات الانجليز .. في نفس الوقت أيضا ، كان السودان يخوض معركة مشابهة في معالمها أشد التشابه لمعركة الهنـد .. في نفس الوقت ، أيضا ، نزلت مظاهرات الطلبة والعمـال الى شوارع مصر ..

في ٢١ فبراير ١٩٤٦ ، كانت مصر كلها على الصليب ، تقود المظاهرات في الشوارع ، وكان السادات من وراء القضبان يرقب كل ما يحدث ، وهو يردد : الشعب في الخارج . انه قوى قوى ، تماما كالعاصفة ، كالاعصار ، قد يسجن منه عشرات وعشرات ، لكنه أبدا لا يستكين ، ان العـذاب والشقاء ، دائما يزيده ثورية ومقاومة ونضالا ..

وكان أكثر الذين يحسون ما تعانيه مصر من شقاء ، هم الطليعة المثقفة من أبناء الجامعات والمدارس ، كما أنهم كانوا أكثر الفئات الشعبية قدرة على الحركة وجمع الصفوف . اجتمعوا ، في سرعة ، ورسموا خطة الكفاح من أجل الاستقلال ، وكان موعدا للقاء التاريخي الأول في « استاد كليـة الطب » ، وتقابلت الأيدى الشريفة لطلبة الجامعات والأزهر والمعاهد العليا

والمعاهد الفنية والمتوسطة ، واتفق المجتمعون على ضرورة تكتيل الجماهير في تنظيم واحد يقودها خلال مرحلة الكفاح ضد الاستعمار . وقد استلهم المجتمعون شكل التنظيم الجديد من الأشكال التي ظهرت عام ١٩١٩، ١٩٢٠، وسميت في ذلك الوقت بلجان الثورة . واتفق الحاضرون على شعارات وأهداف الانتفاضة الجديدة ، وكانت كل كلمة تم الاتفاق عليها تنبض بحرارة الثورية . وفي وعي كبير ، قرروا أن الكفاح الوطني ليس موجها ضد الاستعمار العسكري فحسب ، بل وأيضا ، ضد الاستعمار الاقتصادي والسياسي والفكري . وفي وعي كبير ، قالوا ، أيضا ان القضاء على الاستعمار وحده مستحيل ، وان الواجب هو القضاء ، أيضا ، على عملائه ، وهم : الاقطاعيون الذين كانوا يتحكمون في مصائر الملايين . وفي تفاؤل كبير ، وضعوا الطريق السليم لمقاومة الاستعمار ، بأن كتلوا كافة القوى الوطنية ضد كل الرجعيات المحلية والخارجية ..

وكان السادات ، يتابع الأحداث في سجنه ، في قلق ، وانتصار ، لأن هذه التحركات كانت تسقط القضبان عنه : في ٩ فبراير ١٩٤٦ ، دعت اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة الى مؤتمر عام ، يعقد بحرم الجامعة وذلك للنظر في موقف الحكومة بعد المفاوضات التي كانت تجري في ذلك الوقت بشأن معاهدة ١٩٣٦ ، وعقد المؤتمر ، وتوافدت جموع الطلبة من الجامعات والمدارس من كل حي ، واجتمعوا صفا واحدا تحت قبة الجامعة ، واتفقوا على المطالبة بالغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ الخاصة بالسودان ، والمطالبة بالجلاء فورا ، ثم خرجوا في مظاهرة سلمية الى شوارع القاهرة ، ليقدموا مطالبهم .. وظلت المظاهرة سائرة في شارع الجامعة ، حتى وصلت الى كوبرى عباس ، لكن ما أن توسطت المظاهرة الكوبرى ، حتى فوجئت بالكوبرى وقد فتح وبقوات البوليس وقد حاصرتها تعتدي عليها بقسوة وعنف شديدين وتساقطت أجساد الشباب ، وابتلعتها المياه . في ذلك الوقت ، سقط من الشباب الكثير ، وكان بين من سقطوا شاب سوداني يدعى «محمد

على محمد » ، كما سقط آخرون وآخرون ، وبينهم : محمد أبو النصر ، محمد فهمى ، محسن حامد حسن ، وآخرون .. « ١٢١ » ضحية بين شهيد وجريح أسفرت عنها مذابح ٢١ فبراير ١٩٤٦ .

ومن سجنه ، ومن وراء القضبان ، أرسل المناضل محمد أنور السادات كلماته ، يؤيد هذا النضال من أجل مصر وهذه المسيرة الكبرى التى اعتبرها احدى الحلقات الثورية الهامة فى تاريخ مصر الوطنى فى أعقاب الحرب . وفى سجنه ، أيضا ، قرأ المناضل أنور السادات ميثاق اللجنة الوطنية الذى أصدرته لجنة الطلبة والعمال (١) .

وقد تأمل ، طويلا ، السادات ، ما حدث فى مصر فى فبراير ١٩٤٦ ، واعتبره نقطة هامة فى عمر مصر الحديث : لقد كان ٢١ فبراير بداية مرحلة جديدة فى الكفاح الوطنى ، وميزت هذه المرحلة الجديدة من مراحل الحركة الوطنية والتى تحققت أهدافها بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالمميزات الواضحة ، وبينها ..

ان العمال أصبحوا قوة أساسية فى قوى الثورة الوطنية المصرية .. كما أدين نهائيا أسلوب مساومة المستعمرين والذى كانت تنتهجه الحكومات الرجعية المحلية تحت شعارات تحقيق الاستقلال وأصبح واضحا أن التخلص من الاستعمار يعنى الاطاحة بسيطرته العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية .. هذا الى جانب أن الكفاح الوطنى ضد الاحتلال البريطانى قد ارتبط بالكفاح ضد الحرب التى أخذ يحضر لها الاستعماريون بعد الحرب العالمية الثانية .. كما أصبح الكفاح ضد السراى والاقطاع مرتبط أوثق الارتباط بالكفاح ضد المستعمر .. كذلك اتجهت الحركة الوطنية الى الجيش

---

(١) وقد جاء فى هذا الميثاق الوطنى : « لما كان الجلاء مطلبا اساسيا ، اذ بدونه لا تتحقق سيادة الامم ، ولا نتصور ان توجد امة حرة ، وهى ترزح باحتلال الجنود الاجانب ، ولما كان الجلاء مطلبا لا يحتمل المساومة ولا التجزئة ، بل لابد ان يكون جلاء تاما ، لذا فاللجنة الوطنية تطلب من المسئولين ان يعلنوا انهم لن يقبلوا الحكم او المفاوضة ، الا على اساس تصريح من بريطانيا بالموافقة على الجلاء من وادى النيل ، فاذا رفضت هذا المطلب العادل ، فيجب عرض القضية المصرية على مجلس الامن الدولى فورا ، كما نطلب من الحكومة اعلان هذا المطلب رسميا لدى الانجليز من الآن .. » .

لأول مرة منذ ثورة أحمد عرابى ، وأصبح شعار وحدة الشعب والجيش شعارا أساسيا من أجل بناء جبهة وطنية قوية قادرة على استمرار النضال ..

والى جانب ذلك ، أيضا ، لم تعد الحركة الوطنية فى معزل عن كفاح الشعوب الأخرى المناضلة ضد الاستعمار ، وارتبط نضالها وكفاحها بالقوة الديمقراطية على الصعيد العالمى .. كما كشفت القيادات التقليدية القديمة للحركة الوطنية، كقيادات متهادنة ومرتمية فى أحضان الاستعمار ، وأصبحت مسألة خلق جبهة وطنية عريضة بين فئـات الشعب ، هى المسألة العاجلة لتحقيق الاستقلال الوطنى ، وأدين الأسلوب الكلاسيكى الذى كان يقضى بتشكيل الجبهة من كافة الأحزاب التى كانت تنتهى بالتآمر على الحركة الوطنية وعلى الشعب ..

●

جلس فى سجنه ، يتأمل القضبان ، طويلا ، ثم نظر من خلال الفتحات الضيقة التى تتسلل من خلالها الشمس ، وافتر ثغره عن ابتسامة ساخرة : مهما ضاقت الفتحات ، فان الشمس لابد أن تنفذ ! وتذكر قول فولتير :

« ان شمعة واحدة لا تضىء الميدان ، لكن ثلاث شمعات ثم خمس ، ثم تسع ، تجعل الرؤية أكثر وضوحا حتى تتبدد الظلمة . كذلك الحال ، فصوت واحد لا يملأ الميدان ، وقبضة واحدة لا تحطم سجن الباستيل . وقد تبدو الأشياء فى ميلادها الأول عادية ، لكنها تقوى اذا ما تجمعت ، حتى تتحول الى صوت العاصفة الهادر ، الا يشبه هذا الصوت صوت الشعب اذا ما غضب ، ورفض ، وثار ؟ »

وكانت الأربعينات ، بما فيها فترة السجن ، فترة قراءات وثقافات طويلة للسادات ، قرأ فيها كثيرا ، فى السياسة ، فى الاقتصـاد ، فى الفلسفة ، فى الفكر ، كما قرأ فى فنون الحرب . لقد أحس بوعيه الخلاق .. انه ليس هناك ثورة بدون نظرية ثورية ، ولا يمكن الوصول الى فلسفة عامـة أو نظرية

ثورية دون قراءة واستيعاب لكل أفكار المحدثين والقدامى . فاخذ يقرأ للمفكرين الانجليز والفرنسيين والألمان ، كما قرأ للمفكرين الأمريكيين والروس .. وأحس بأهمية اللغات ، فدرس الانجليزية دراسة مستفيضة ، كما تعلم اللغة الألمانية ، واهتم باللغات أشد الاهتمام . ولم يكن ليقرأ الا ليمتص ، وما يمتصه يتأمله طويلا .. وكانت أيام السجن ، لحظات تأمل وفلسفة لوجهات النظر ، مثلما كانت فترة هامة للتثقيف والرؤية ..

ولقد تأثر السادات بالفكر الانجليزى الى حد كبير . فقد قرا فيه كثيرا ، قرأ فى الاقتصاد الانجليزى مثلما قرأ فى الفكر والأدب ، وقد اجتذبه تشارلز ديكنز الى حد كبير ، وكان هو الباب الذى دخل منه الى الفكر الانجليزى ، ومن خلاله عرف كتابات وأفكار غيره من المفكرين والكتاب والفلاسفة الانجليز : شيلى ، وتوماس مور ، وسيدنى ويب وبياتريس ويب ، و هـ.ج. ويلز ، وبرنارد شو ، وماكدونالد ، والدوس هكسلى ، ورديارد كبلنج ، وبالم دات ، وغيرهم . وقد اجتذبه فى ديكنز بساطته وعفويته وصدقه وكتاباته الاصلاحية ، مثلما أعجب بكتابات الفابيين الاصلاحية (١) .

ومما يذكره ، أيضا ، واستوقفه كثيرا ، من كتابات المفكرين الانجليز كلمات شيلى التى يقول فيها :

« البذرة التى تبذرونها ، يحصدها آخرون .. والثروة التى تجمعونها ، يخزنها آخرون .. والثياب التى تنسجونها ، يلبسها آخرون .. والسلاح الذى تصنعونه ، يحمله آخرون (٢) » .

---

(١) وممن قرأ لهم من الفابيين (الاشتراكيين الاصلاحيين) بياتريس ويب ، صاحب نظرية الاصلاح الاجتماعى ، والتى صاغها على غرار ستيوارت ميل فى الاصلاح الزراعى . ويقول ويب فى نظريته هذه : ان التاريخ فى اشكال المجتمع المختلفة يثبت انه عندما يفيض الانتاج عن حاجة العيش، ينشا النضال حول هذا الفائض ، فنجد الطبقات او الافراد التى تسيطر على القوة الاجتماعية تستغل هذه القوة لتستحوذ على الفائض ، ولا تترك للاغلبية سوى الكفاف : والفائض هو ما يسميه ويب بـ (الريع) ، وهو فى حالة الزراعة عبارة عن الخصوبة والعناصر المعدنية وموقع الارض والمميزات البشرية .

(٢) وقد جاءت كلمات شيلى هذه فى كتابه (بروميثيوس طليقا) ، الذى اصدره عام ١٨٢٠ .

وقد أعجبه في ديكنز انسانيته المفرطة ، حتى أنه قرأ جل أعماله ، وكتاباته الاصلاحية عن المجتمع الانجليزي ، ومما قرأ واستوقفه كثيرا : حياة أوليفر تويست ، ومستر بيكوينك ، وقصة مدينتين ، والآمال الكبار ، والصغيرة دوريت ..

كما قرأ شو ، وأعجب بسخريته اللاذعة ، وتوقف كثيرا عند عباراته التي لا تنسى :

((ان الفقر لا يقتل الحب ، فقط ، انه يقتل الانسان))

وأيضا :

((ان القراءة عن الثورة لا تصنع الثورة ، انها فقط تجعلك تحيا صورة الماضي ، لكن الذي يصنع الثورة هو الاحساس بالظلم)) .

وأيضا :

((ان أعداء الانسانية ، حقيقة ، ثلاثة رجال : رجل يصر على الخطأ ، ورجل يصر على الجهل ، ورجل لا يحس بحرارة الحب)) .

وأيضا :

((ان المجتمع يحيا في حالة مقلوبة . تماما كالمثلث ، علينا ان نقلبه ، حتى يصبح في حالة اعتدال . وهذا ينطبق على كافة ابعاده ، لكن المشكلة تكمن ، اساسا ، في طريقة قلبه ، فربما كانت طريقة قلبه تجعله لا يعتدل أبدا .. !)) .

وقد اهتم السادات اهتماما بالغا باللغات الأجنبية ، لأنه أحس بضرورة النفاذ الى فكر وثقافة العالم ، حتى يتعرف على تجارب الشعوب في كفاحها من أجل اقامة مجتمعات جديدة ، وفي نضالها من أجل اقامة حياة متكاملة لمواطنيها . وكان أول كتاب اشتراه في حياته من مصروفه الخاص ، هو قاموس انجليزي عربي ، اشتراه من احدى مكتبات الفجالة ، عندما أحس

بضرورته وهو يقرأ الكتب المختلفة لينمى ثقافته ، ثم اهتم باللغة الألمانية بعد اجادته للانجليزية ، واخذ يقرأ القصص والروايات الألمانية فى البداية حتى اقترب من اجادتها . وتعلم بعد ذلك اللغة الفارسية . وأحس ان دراسته آداب اللغات من المهم بمكان للتعرف على تجارب الشعوب وحياتها المختفة .

●

بعد أن خرج السادات من السجن ، لم ينصرف عن السياسة ، بل اتصل بمجموعة الضباط الأحرار ، وعاش سنوات مصر القاسية ابتداء من ١٩٤٨ حتى ١٩٥١ فى قلق مرير ، كان يشتغل فى هذه الفترة محترفا سياسيا ، ثم انتمى الى تنظيم « الضباط الأحرار » وأصبح ركيزة أساسية من هذا التنظيم الثورى الذى قام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وخلال هذه السنوات قرأ السادات كثيرا ، فى السياسة والفلسفة والاقتصاد والتاريخ ، وأخذ يسلح نفسه فكريا ونظريا ، بعدما تمرس طويلا فى العمل الميدانى السياسى ، كمحترف من الطراز الأول ..

قرأ فى الاقتصاد الحر ، وقرأ فى الاشتراكية الخيالية والعلمية ، كما قرأ فى التاريخ ودرس ثورات الشعوب دراسة مستفيضة .. وكان دائما يدرس ما يقرأ ، لا يقرأ على سبيل المتعة أو الثقافة فحسب . كان يحس أن الثقافة سلاح أساسى له كثورى ، ودرع هام له كمفكر سياسى .. وكثيرا ما توقف عند قراءاته ..

* توقف عند تقسيم فورييه (١) للتاريخ الاجتماعى وتقسيمه اياه الى أربع مراحل : التوحش ، الهمجية ، القبلية ، المدنية ، وبها يصل الى المجتمع البورجوازى ويبين كيف أن السيئات البربرية الساذجة فى الهمجية قد أصبحت بشكل راقى فى البورجوازية وهى ذات قناعين اما التباس أو خداع .

---

(١) شارل فورييه ، واحد من الاشتراكيين الطوباويين ـ الخياليين ، عاش فى فرنسا فى مطلع القرن التاسع عشر .. وعظمة فورييه انه قسم التاريخ الى اربع مراحل : التوحشية ، الهمجية ، القبلية ، المدنية .

* وتوقف ، أيضا ، عند رسائل جنيف التى نشرها فورييه عام ١٨٠٨ وضمنها أفكاره السياسية ، وبين فيها ملاحظاته عن الثورة الفرنسية ، وكيف كان الصراع بين النبلاء والبورجوازية والطبقات المحرومة .

* وتوقف ، أيضا ، عند كتاب اميل لودفيج عن نابليون بونابرت ، وتحليله لنمو وتطور الفكر البونابرتى .

* كما توقف من قبل عند اشتراكية كامبانيلا (١) ، التى روى فيهـا أحلامه من خلال زيارة قام بها الى جزيرة « تابرو بانو » فى المحيط الهندى .

* كما توقف عند مراحل تطور ثورة كرمويل ضد أسرة ستيوارت الاقطاعية فى بريطانيا ، وكيف قامت هذه الثورة وأهدافها .

* وتوقف ، أيضا ، عند تجربة «أوين» (٢) الشهيرة ، وهى من التجارب التعاونية الرائدة فى الأشتراكية ، ونادى بها عام ١٨٢٤ .

* وتوقف عند أفكار تورجو وكوندورسيه ، عن التقدم والاصــلاح الاجتماعى فى فرنسا ، كما درس انجلز وهيجل وماركس .. وانتقل بعد ذلك الى دراسة ثورات الشعوب ، ابتـــداء من الثورة الفرنسية الى الايطالية والألمانية الى ثورات الهند والروسيا والصين .

●

---

(١) توماس كامبانيلا ، هو الفيلسوف والمفكر الايطالى ، الذى كتب يوتوبيته الشهيرة : سيفتياس سوليس ـ او مدينة الشمس ، وهى أشــبه بجمهورية افلاطون او مدينة الفارابى الفاضلة ونشرها عام ١٦٢٣ ، وخلالها صور أحلامه عن المدينة الاشتراكية الخالية المرتقبة ..

(٢) روبرت اوين ، هو المفكر والفيلسوف الذى تبنى نظريات القرن الثامن عشر المادية ، وقال بأن قوام اخلاق الناس هو نتاج تركيبهم الطبيعى من جهة والظروف التى تحيط بحياتهم من ناحية اخرى . وقد قام بتجربة شهيرة فى مجال الصناعة ، فى مصنع يضم خمسمائة عامل فى مانشستر فى بريطانيا ، حيث كان هو مديرا للعمل ، وقد سار على هذا النظام مصنع الغزل فى نيولانارك فى سنة ١٨٠٠ حتى سنة ١٨٢٩ ، وذلك فى ايقوســيا ، وصنع بعد ذلك قرى عمالية تضم كل قرية ٢٥٠٠ عامل ، بينهم عدد من منحلى الأخلاق ، لكنه عندما وفر لهم المناخ الملائم ماديا واجتماعيا ، لم يخطئوا بل زادوا من انتاجهم ..

فى نهاية الأربعينات ، كان عائدا الى قريته فى اجازة قصيرة . كان سارحا فى عشرات الأفكار ، وهو يطل من نافذة القطار ، حزينا كاسف البال . ينظر الى الغيطان والمزارع ، وتمر على مخيلته عشرات الأحداث والأحداث ...

منذ أكثر من عام لم يأت الى قريته ولم ير النساس والدروب والأزقة ، ولم ير قريته الصغيرة التى تحمل عشرات الصور من طفولته وصباه وشبابه ..

ربما كان ذلك أول صيف يزور فيه قريته بعد خروجه من السجن ..

ربما كان ذلك أول صيف يعود فيه الى الأهل والأقارب والأصحاب ..

واختلطت فى مخيلته الصور ، وامتزج فى داخله شعور بالحزن والقلق واللوعة : ما أمر أن يبعد المرء كثيرا عن أرضه ؟ !

واعتصرته الأحزان ، وتاهت نظراته بين عيدان القمح الخضراء ، ثم عادت لترقب طائر يحلق فى الفضاء وحيدا ، سرعان ما التقى بمجموعة أخرى من الطيور : الحرية .. ما أروع الاحساس بالحرية والانطلاق !

وعادت الى مخيلتــه صورة السجن ، والقضبان ، ودهاليز المحــاكم والمرافعات والجلسات المختلفة ، وعشرات الوجوه فى الأقسام والداخليــة وقاعات المحاكم : المحاكمة .. شىء غامض مثير ! لكن المثير أكثر ، أن مصر كلها تحيا داخل القضبان ، فى سجن كبير ، لن تتحرر منه الا بسقوط من يحملون الأغلال والسلاسل .. الاستعمار ، الاقطاع ، الرجعية . .

انه يتذكر العديد من المحاكمات والمظالم ، وهو يفكر ويتأمل هــكذا الأشياء ، فى طريق عودته الى « ميت أبو الكوم » .. المحاكمات التى ضحى فيها المصريون بأنبل ما يملكون ، بعمرهم ، بحياتهم .. من أجل مصر .. من أجل هذه الأرض المعطاءة . انه لا يزال يتذكر تلك الكلمات التى كتبهــا برنارد شو عن محاكمات قرية دنشواى عام ١٩٠٦ .

لقد كتب شو يقول :

« ان الرصاصة الطائشة التى استقرت فى صدر زوجة حسن محفوظ [1] ستظل الى سنوات طويلة يتردد صداها لا فى قلب القرية الامنة الوديعة : دنشواى ، فحسب ، بل سيظل يتردد صوتها فى كل الآذان والقلوب الشريفة، والتى تدمغ الأفعال الشنيعة والتى لا تتمشى مع منطق التحضر والانسانية والتى ارتكبت ضد الفلاحين الطيبين فى قرية المنوفية . ان هذه الأشياء لا تدمغ بريطانيا فحسب ، بل تدمغ أية قوة قاهرة ضد الآمنين العزل والذين لا يملكون غير وجيف قلوبهم وآمالهم الصغيرة ! » ..

وانه ليتذكر ، أيضا ، ما قرأه من مرافعات فى هذه المحاكمات ، وكيف علقت المشانق فى القرية ، وكيف أعدم ابناء القرية البؤساء على أيدى كرومر، ولا جريمة اقترفوها غير الدفاع عن أهليهم وذويهم فى القرية التى داس كرامتها الانجليز . .

نفس الشىء حاول أن يفعله هو ، فكان جزاؤه السجن والتنكيل ! لكن ترى ، كل عذاب يهون ، كل الآلام تسقط ، طالما طريق الحرية مفتوحا لبذل النفس والروح ، وأن كل عمل شريف لمصر يهون أمامه كل شىء ، العمر ، الحياة ، كل غال وعظيم .. وماذا تجدى حياة الانسان اذا لم ترتبط بالأرض بالوطن ، بالوجود الذى أعطى هذه الحياة وكان سببا فى نموها وترعرعها ؟

وانه ليذكر الجموع يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ — هؤلاء الذين قرأ عنهم الكثير من البطولات والتضحيات .. هؤلاء الذين سقطوا فى النيل وفتح عليهم كوبرى عباس ، وأطلق الرصاص عليهم فى الشوارع ، لأنهم يرددون : تحيا مصر .. الجلاء بالدماء . . عاشت مصر مستقلة .. تسقط المعاهدة .. بين هؤلاء ربما شحاته أو سيد أو جمال أو محمد .. أي واحد من قريته ، من

---

(1) زوجة حسن محفوظ ، هى احدى النساء اللائى استشهدهن فى حادث دنشواى ، الذى أطلق فيه الجنود الانجليز الرصاص على الفلاحين العزل وهم يصطادون الحمام فى صيف ١٩٠٦ ، وقد ادان الكاتب الانجليزى الساخر برنارد شو سياسة بريطانيا وادمغ عدوانها على القرية الامنة .

أبناء الفلاحين البسطاء .. ومصر ليست الا قرية كبيرة تدافع عن أرضها من الدخلاء والظالمين والذين جاءوا فى محاولة لقهر هذا الشعب ، لكن هيهات أن يقهر هذا الشعب . انه يحمل على ظهره عذاب وقهر سبعة آلاف سـنة تنضح بالجراح والدموع والآلام ، ويوم يثور هذا الشعب فالويل للطغاة !

●

لم يدر أن القطار قد توقف ، من فرط فكره وأحزانه ، وشوقه للأهـل والأحباب .

لم يحس الا بدفء العناق وحرارة الاحضان .. لقد أصبح واحدا بين صدورهم وأذرعتهم ودموع شوقهم اليه ، وفرحتهم بلقائه . أحس انه قطرة من هذا البحر الخضم . بكى ، ودمعت عيناه ، ولم يحس هل هذه دموعه أم دموع أهل القرية .. وكيف يحس النهر الواحد بقطراته العديدة ، وكيف تفرق قطرة أختها فى النهر العظيم .. لقد تلاحم الدمع بالدمع ، مثلما التحم القلب بالقلب ..

ان الجزء لا يمكن أن ينفصل عن الكل ، والقطرة الى جوار القطرة ، تكون عدة قطرات ، ومنها يمتد النهر العظيم المعطاء .. وهذه القرية ، ليست الا صورة « مصر المصغرة » التى تحمل فى داخلها الرغبة فى الخلاص ، وسعى أهلها ليكونوا نهرا واحدا عظيما ، لديه كل القدرة على العطاء ، والنماء ، والانتشار .. وحتى يتم ذلك ، لا بد أن تسقط القيود ، لا بد أن تقع عن كاهل مصر الاغلال : « فالتحرك لا يتم والقيد يغل الأقدام ، والثورة لا تتم الا بالرفض والشجاعة والتجمع » .

الفصل الثالث

الفكر الذى قاد إلى الهزيمة..
والفكر الذى انتصر

« كل مجتمع ينشد الثورة ، لابد له من نظرية ثورية ، تحدد استراتيجياته المرحلية ، وهـذه النظرية لابد ان تقوم على أساس علمى ، والا تعرضت للهزات . فالفكر المثالى ، لا يقود الى ثورة منتصرة ، وكذلك الفكر التجريبى لا يقـود الجماهير الا الى منزلق ضيق منحدر ... وبمعنى تقدم الفكر وانحساره وبمعنى صعود الثورة او تراجعها ، نقول ، أن هذا الفكر قاد الى ثورة ناضجة ، وآخر قد قاد الى هزيمة نكراء .. وثورات الشعوب اليوم ، لابد ، ان تتمثل منهجية علمية أصيلة ، والا تعرضت الى (هزات) تودى بها ، وبالذات ، هذه الثورات فى الدول النامية وفى الدول المستقلة حديثا .. »

الكاتب الانجليزى : موريس كورنفورث



أى مجتمع ..

له شكلان ، يتكون منهما : الأول هو البناء التحتى . . والآخر البنـاء الفوقى . البنـاء التحتى يحوى كل ما يمـكن ان نسميه بالمـاديات أو المحسوسات ..

الشكل الاقتصادى ، طبيعة العلاقات ، التركيبات الطبقية ، نوعيـة الانتاج اما البناء الفوقى ، فهو يشمل كل التكوينات الفكرية ..

الاخلاق ، القيم ، الفلسفة ، الأدب ، الابداع ، الفن ..

وكل مجتمع يتميز بهذين الشكلين ، ويتناسق كل منهما مع الآخر . من طبيعة البناء التحتى ، نستطيع أن نفهم البناء الفوقى ، وبالعكس ..

وفى نص شهير ، سابق على كتاب « رأس المال » لكارل ماركس ، يقدم ماركس بعض التوضيحات حول « القاعدة والبنيان » ، فيقول : « يدخل البشر ، أثناء الانتاج الاجتماعى ، وفقا لشروط معيشتهم فى علاقات محددة وحتمية ، مستقلة عن ارادتهم . وعلاقات الانتاج هذه ، تتطابق مع درجـة النمو التطورى الذى يحدث فى القوى المادية المنتجة .. ومجموع علاقات الانتاج، هذه تكون البناء الاقتصادى للمجتمع، أى القاعدة الحقيقية العينية التى يشاد عليها بناء المجتمع الفوقى ، حقوقى ، وسياسى ، وابداعى ، والتى تطابقها أشكال متنوعة من الوعى الاجتماعى بذاتها » [1] . ونحن لو قارنا

---

(1) كتب ماركس هـذا التفيير ، قبـل ان يكتب كتابه الشـهير (راس المال) ، وكانت بسلسلة هذه الأفكار الفلسفية والاقتصادية التمهيد لما فى راس المال من افكار متنوعة .

هـذه السطور بالنصوص التي وردت ، والتي قرأناها في كتاب ماركس : (رأس المال) ، بعد كتاباته لهذه السطور ، بسنوات قلائل ، لخرجنا مقتنعين بأن مفهوم التكوين الاقتصادي الاجتماعي ، يشمل مفهومي القاعدة والبنيان الفوقي ، وهو يغنيهما ، وهنا تثار مسألة صعبة ، فالماركسيون قد بدأوا يتساءلون ، انطلاقا من صيغتي القاعدة (البنيان التحتي) والبنيان العلوي أو الفوقي ، عن الروابط بينهما والعلاقات .. فاعتبروا (البناء الفوقي) ، أحيانا كوهم وتصور نظري ، بالنسبة للقاعدة الاقتصادية (١) .

وهنا يثير « هنري لوفافر » ، الفيلسوف والمنظر الفرنسي ، سؤالا له أهميته : « هل البنى الفوقية أشكالا من الأيديولوجية ، أو أنماطا من الوعي الاجتماعي ؟ وما هي طبيعة العلاقات والتطابق بينهما » (٢) .

مثلا ...

المجتمع العثماني أو المملوكي في مصر ، كان له تكوين تحتي خاص ، سمته الأساسية « الاقطاعية » ، ذات الطابع الخاص ، بعض أشكال العبودية التبعية للخلافة الاسلامية ، والبناء الفوقي كان فكرا متخلفا ، معاديا للعلم ، والأدب ، والفن ، مهتما بالمحسنات ، لا يحاول الدخول الى جوهر الانسان ، ولا يهتم بالتالي ، بأي شكل فني راق ، وغير قادر على الوصول الى هـذا الشكل .. هذا ، بالاضافة ، الى المعاداة التقليدية لكل ما هو تقدمي ..

مثلا ..

المجتمع المصري قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت تحكمـه علاقات اقطاعية وشبه اقطاعية ، وكان واقعا تحت ظـل ووطأة نظام استعماري ،

---

(١) وقد اهتدى فردريك انجلز ، في حياته الى هذا الخطأ الواضح ، ودلل عليه اقتصاديا وفلسفيا ..

(٢) وقد كتب كارل ماركس ، يقول ، انـه ينبغي التمييز بين الانقـلاب المادي لظروف الانتاج الاقتصادية والأشكال الحقوقية التشريعية والسياسـية ، والفنية والفلسفية . فهـل يضع ماركس الحقوق والفن والفلسفة ، في صعيد واحد مع العمل السياسي والفروق البالغة الى حد الجهل والوهم ؟ !

وبناؤه الفوقى ، كان يحوى أفكارا رجعية بالية متمسكة بكل ما هو قديم ، ومحاربة لكل ما هو جديد وتقدمى ..

ولكن ، هل يمكن أن يكون هذا اطارا أبديا ؟

لا . طبعا . لأن طبيعة الأشياء ، أن الانسان يتطور الى ما يخدم مصالحه محطما فى الطريق كل الأنظمة المعوقة والمعرقلة ..

البناء التحتى ، يشكل الفكر الذى يعبر عنه ، ولكن الفكر الجديد ، أحيانا ، يشكل خطرا على البناء القديم .

مثلا ..

فى فرنسا ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، كان شكل المجتمع اقطاعيا قاسيا : الملك لويس الرابع عشر يقول « أنا الدولة » ، والنبلاء يملكون كل شىء ، من الأرض الى حرية من يعيشون عليها ! وجماهير الشعب من الفلاحين والعمال الى أبناء البورجوازية ، يعيشون فى أقصى ظروف من الممكن أن يعيش فيها شعب واقع تحت تأثير نظام اقطاعى ..

الفكر الموجود طبعا ، فكر اقطاعى . الأدب للترفيه عن الارستقراطية ، الموسيقى والتصوير لازجاء وقت فراغ الصفوة وتسليتهم ، الفلسفة تدافع فى جوهرها عن النظام القائم . ولكن البورجوازية ، بدأت تتغلغل داخل هذا المجتمع ، كما يصنع « الكتكوت » داخل البيضة قرب أوان خروجه الى النور . وتبدأ بذور الفكر البورجوازى تغزو هذا المجتمع ، وتتألف كتابات جان جاك روسو ، وفولتير ، وديدرو ، ورولان ، ومونتسكيو — هذه الكتابات التى مهدت لمجتمع جديد ، هو مجتمع الثورة الفرنسية .

مثلا ..

فى مصر ، كان النظام الموجود قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، نظاما رجعيا لكن كانت داخله طلائع الثورة فى كتابات : أحمد لطفى السيد ، وطه حسين

وسلامة موسى ، وغيرهم من الرواد . وكانت فى الفكر السياسى الذى اعتنقه مجموعة من الشبان ــ بالذات ــ آمنوا بالثورة المقبلة ، والتقت مشاعرهم بالحركات التلقائية للفلاحين والعمال . وبثورة ١٩٥٢ ، تغير المجتمع تغيرا كيفيا تم القضاء على (النظام الاقطاعى والشبه اقطاعى) ووضعت المبادىء الستة التى ارتبطت بقيام ثورة ٢٣ يوليو ، وتم القضاء على الملكية الزراعية القائمة على العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، وبدا مشروع الاصلاح الزراعى ، وبدأت حركة التصنيع ، وروعيت حقوق العمال والفلاحين قبل أصحاب المصانع وأصحاب الأرض ، وبدأ سلوك وتحرك استقلالى حيال السياسة الخارجية . .

حقيقة ، تم القضاء على (النظام الرجعى) ، لكن هل تم ــ فى نفس الدرجة ــ القضاء على (الفكر الرجعى) ؟

ان (النظام) مؤسسات موجودة فى الواقع وملموسة . أما (الفكر) ، فهو شيء لا يمكن لمسه ، ولا يمكن وضع اليد عليه ، ولا يمكن انتزاعه . صاحب الفكر المرتبط ، سياسيا واقتصاديا بالحزب الرجعى أو بمجموعة التيارات الرجعية ، من الممكن كشفه . ان أمره سهل ، وهو نفسه قد يحاول التحرك ، فكريا وسياسيا ، فى اتجاه معاكس ومفضوح . لكن ألا يمكن أن يوجد صاحب فكر مرتبط بالتيار الرجعى ، فكريا ، دون أن يبدو الارتباط السياسى أو الاقتصادى واضحا ، لأسباب قد تكون فردية تماما ؟ ألا يمكن أن يوجد اثنان ، يحملان نفس الفكر ونفس الروح الرجعية ، ونفس الحماس للدفاع عن المجتمع القويم ، ويكون أحدهما عضوا فى تنظيم أو جماعة سياسية ، يتقاضى منها أجرا أو يكتسب منها مميزات اقتصادية ، ويكون الآخر على عداء شخصى ــ نتيجة دوافع الكرامة الشخصية واستقلال الفكر ــ بالتنظيمات الرجعية ، أو على أحسن الفروض ، تكون العلاقة التنظيمية غير موجودة ؟

سؤال آخر : ألا يمكن أن يتسرب « شيء » ما من الأفكار الرجعية الى كاتب ممن نسميهم بالكتاب « المعتدلين » ؟ بل هناك سؤال أكثر خطورة : ألا يمكن أن تسيطر « بعض » الأفكار الرجعية على كاتب تقدمي لأسباب تربوية أو شخصية ؟

اننا اذا استعرضنا أكثر الكتاب تقدمية ، لوجدنا اعتراضات تقدمية عليهم : برنارد شو ، كاتب اشتراكي من « جماعة الفابيين » ، ومع ذلك كانت له مواقف ضد العلم فى كثير من القضايا .. هنريك ابسن ، الكاتب الذى حرر المرأة على المسرح ، كان يخشى الجماهير وتحركاتها !

ان الفكر عملية معقدة أكثر عشرات المرات من البناء التحتى ، الذى ترتكز عليه ، وبالتالى ، من الصعب ، تحديد كيفية القضاء على هذا الفكر ، وهذا القضاء لا يتم الا من خلال الوقت الطويل ، وفيه توعى الجماهير توعية كاملة بالأفكار الجديدة ، وتدحر على المستوى النظرى والعملى ، الأفكار الرجعية دحرا جذريا ، ومن خلال تربية كادر سياسى أصيل قادر على المبادرة والحركة والدعاية الذكية وقيادة الجماهير ..

لقد ألح السؤال عن كيفية القضاء على (النظام) الرجعى الحاحا شديدا لسنوات طويلة . ولكن ، تقريبا ، أهمل السؤال عن كيفية القضاء على الفكر الرجعى . ولا بد أن يثور هذا السؤال ، الآن ، وبعد مرور أربع سنوات على « ثورة التصحيح » ، التى قادها البطل والقائد والمعلم : أنور السادات ، وكذلك بعد مرور قرابة ربع قرن على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . يجب أن نفكر بعمق ، فى كيفية الاجابة على هذا السؤال ونحن نسير فى طريق بناء دولة العلم والايمان المنشودة ..

ان الفكر الرجعى ، لن يستطيع ، أبدا ، ان يوقف « ثورة التصحيح » ، ولكنه ربما استطاع أن يميع بعض المواقف ، ويحدث نوعا من « الخلخلة » والبلبلة والتشويش فى صفوف الجماهير . لكن الوعى الذى تتسلح به

« ثورة ١٥ مايو ١٩٧١ » ، يحميها من خطر التيار الرجعى . ولكن ، يجب ألا نقلل من خطره ، بل يجب أن نستفيد من تأمل خطر هذا التيار على كثير من الثورات ، بل وكيف استطاع هذا التيار ان يحبط أو يجهض الكثير من الانتفاضات والفورات الوطنية التى كانت تقوم فى مصر كجزء من المـد الثورى لتيار الحركة القومية . فهذا التيار الرجعى — أو الحزب الرجعى ، هو الذى استطاع أن يصفى ثورة ١٩١٩ ، نتيجة لسيطرة بعض أبناء الاقطاع على القيادة ، ونتيجة لسيادة الفكر الرجعى على البناء الفوقى للمجتمع (١) وهو الذى استطاع تصفية الثورة الفرنسية ، وايقـاف كل ما تستطيع ان تعطى من خير ، وفرض نابليون بونابرت على رأس هذه الدولة ، امبراطورا كلاسيكيا ، وليس قائدا ثوريا ..

وهذا الحزب الرجعى ، أيضا ، هو الذى استطاع أن يقود مصطفى كامل بواسطة الخديو ، متصنع الثورة ، الى الطريق الخطأ ، ولم يستطع محمـد

---

(١) لم تنجح ثورة ١٩١٩ فى القضاء على اعدائها الثلاثة : الاستعمار ، والاقطاع ، وكبار رجال المـال المتعلقين بالسـلطة والاحتكار الاجنبى ، ولم تنجح فى تحقيق اهدافهـا بسـبب (الحزب الرجعى) ، فقد كان هناك كبار رجال المال وكبار المـلاك ، ولهم حزبهم المنظم ، وهـذا الحزب هو الذى طعن الثورة من الخلف ، ومن هذا الحـزب الرجعى جند الاستعمار والملك وزارات الانقلاب المعادية للحركة الوطنية . وقـد كان من الصعب على بعض افراد قيادات حزب الوفد ، وهم من اصحاب العزب والأطيان ، ان ينزلوا ببرنامج ثورى للفلاحين ، والثورة اساسا ثورة فلاحية ، وكان يعبر عنها الافذية من البورجوازية الوطنية والكادحين فى المدينة .. ولهذا ، وجدنا ان الوفد يركل من الحكم المرة تلو المرة ، فلا يتحرك الشعب لنجدته . ولهذا لم يكن غريبا ان تشارك قيادات هذا الحزب متحالفة مع كبار الملاك فى تصـفية ثورة ١٩١٩ ، بل يصل بهم الأمر فى عام ١٩٢٥ الى تكوين جبهة من اجل اعادة الحياة النيابية . ويؤكد على ذلك ، ويدلله الكاتب الراحل شهدى عطية الشافعى فى كتابه (تطور الحركة الوطنية) : « ان تردد قيادات الثورة ، الوفد ، لم يتح للثورة أن تنتصر ، فلم تكن هذه القيادات تملك النضج الكافى ولم تكن تمتلك الوعى كما لم تكن ثورية بالمعنى الثورى الى النهاية ، لهذا لم تكتشف فى اشكال وتحركات الجماهير الشعبية اشكالا ثورية حقا للتنظيم والا لشجعتها ، ودفعت بها الى الامام ، فاذا فعلت ذلك أو اتيح لها ذلك ، لاستطاعت أن تمضى الثورة خطوات اكبر الى الأمام . والانقسام داخل حزب الوفد ، فى ذلك الوقت كان واضـحا او جناح كبار الملاك الذين يرضـون بتنظيم الحماية ، وبين ممثلى الرأسمالية الوطنية الذين ينادون بالاستقلال التام » ، والذى حدث ان تحالف الجناح اليمينى لحزب الوفد مع كبار الملاك فى تصفية الثورة واجهاضها !

فريد (١) ، أن يتحرر منه الا بعد أن عاش فى الخارج بعيــدا عن الأفكار المحيطة به .

وحتى نفهم ملامح وأفكار هذا الحزب الرجعى ــ أو التيار الرجعى ، وتطوره ، وخطره على المرحلة الراهنة ، لا بد أن نعود الى جذوره ، وهــذا يجعلنا نبدأ من أول الطريق مع نمو الحركة القومية فى بلادنا. فحقيقة ، وكما قلت وأؤكد ، ان « ثورة التصحيح » التى قام بها الزعيم السادات ، تتسلح بوعى متطور ، هذا الى جانب ما حققته وتحققه فى كل يوم على المستوى المحلى والعربى والعالمى من انتصارات ومكاسب عظيمة ، لكن هذا لا يجعلنا نقلل من خطر العدو ، فمثلما لا نقلل من خطر عدونا الخارجى الذى يتمثل فى الامبريالية والصهيونية ، لا بد والا نقلل من خطر التيار الرجعى فى بلادنا داخليا ..

●

تقسيم التكوين الاجتماعى الى مستويين : أحــدهما البناء الفوقى ، والآخر البناء التحتى ، تقسيم تقليدى ، يؤكد العلاقة المتبادلة بين البنائين .. البناء السياسى والاقتصادى والاجتماعى من ناحية ، والبناء الفــكرى من ناحية أخرى . فمجتمع خاص لا بد أن تكون له قيم خاصة ، والفكر المتقدم يغير من المجتمــع القديم . ولكن التغير الفــكرى ليس فى سهولة التغير الاجتماعى . فمن البديهى ، ان التغير المادى ، من الممكن أن يحــدث مرة واحدة أو على مراحل متقاربة ، ولكن التطور الفــكرى يحتاج الى وقت طويل ، وجهد عميق .

---

(١) كان من رواد الحركة الوطنية القلائل ، الذين لم يقعوا فى احضان الرجعية . وقد ادرك منذ البداية ان الاقطاعيين وكبار ملاك الارض ، وعلى راســهم الخديو ، يمثلون ركيزة اساسية فى تحالف الرجعية : الذى يفترض تقــدم الجماهير فى مصر ، واهتم بالنقابات ، كما حقق نوعا من الانتصار فى كشف محاولة الاستعمار فى مد امتياز قناة السويس ، وفى محاولة بريطانيا التفرقة بين عنصرى الامة ، وقــد عاش مطاردا ، ومات بعيدا عن وطنــه فى اوربا ، وشعاره الذى حرص ، دائما ، على الدفاع عنه هو : « مصر للمصريين » وقد عاش فى الفترة من ١٨٦٨ حتى ١٩١٩ .

وبذلك ، وكما نؤكد ، أن أمامنا الكثير من الجهد والبذل والنضال لكى نتخلص من كل ما من شأنه أن يعوق تطور مبادىء وأفكار وقيم « ثورة التصحيح » على أرض بلادنا ، وهى مشكلة ليست خاصة ببلادنا فحسب ، بل هى ظاهرة عامة تواجه كل البلدان المستقلة حديثا ، والتى تريد أن تعمق ثورتها داخل مجتمعاتها الجديدة . وهذه الظاهرة ، تمثل أهميتها الكبرى ، فعلى أساس اندحار الفكر الرجعى ، تمتد « الثـورة » وتحقق مكاسبها ومخططها المادى والفكرى . ومن يتأمل تاريخنا حتى الآن ، يحس أن هذا التاريخ كان سلسلة من الصراعات بين فكر ثورى يريد أن يحقق مطامح الشعب ، وفكر رجعى كان دائما يتسلط على أى فكر متقدم ليعرقل مساره.

ففى بدايات القرن الماضى ، وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، اشتعلت الشرارة التى بذرها فى أرض ملتهبة جيش الثورة الفرنسية وعلماء الثورة وعلى رأسهم مفكر الحملة (منج) ، وفى عام ١٨٠٥ ، كان الحماس الذى يسود فى كل مكان فى مصر يشبه تماما ما كانت عليه فرنسا خلال الثورة فى سنوات ١٧٨٩ و١٧٩٠ و١٧٩٢ ، وكانت القاهرة تشبه باريس فى ذلك الوقت وقد التقى « محمد على» ، بنفسه ، مع الشعب الذى كان مصدر قوته ــ على حد تعبير القنصل الفرنسى (دروفتى) فى رسالته الى حكومته فى ذلك الوقت . . وفى الواقع انه لو كان « عمر مكرم » قد سار فى ذلك الوقت بالثورة الى نهايتها ، ولو كان المصريون قد وضعوا « فلاحا » مكان محمد على ، كما قال أحد الفرنسيين فى ذلك الوقت « لأخذ تاريخ مصر ، مسارا آخر ، ولانطلقت فى وضع اقتصادى وفكرى مغاير » .

ولكن المشكلة الحقيقية فى هذه « الانتفاضات » ، وفى « الفورات » التى أعقبتها ، أن الوعى الثورى ، لم يكن موجودا ، بالشكل الذى يحمى هذه الانتفاضات ، مما جعل التيار المماليء للسلطة يعمل على احتواء مايحدث أو يضرب بشدة على أيدى الثوار بالحديد والنار ــ وهذا التيار طبعا ، واضح انه بمثابة الحزب الرجعى فى بدايته ــ والتيار الرجعى الذى كان

يتحرك فى اتجاه ضرب أية حـركة ثورية . وكان الوعى الثورى فى ذلك الوقت ، لا زال فى طور الميلاد والنمو ، ولم يكتمل بعد ، ولا شك أن عدم الوعى الكافى هذا كان أحد الأسباب الرئيسية فى فشـل الثورة العرابية نفسها ـ تلك الثورة التى عرفت بـ « هوجة عرابى » ، نظرا لأنه لم يكن هناك نضـج أو تكامل ثورى بالمعنى المفهوم . لكن لا يفهم من موقف محمد فى بدايات القرن الماضى ، انه كان ضد (الثورة) ، الا بالمعنى الذى يمكن أن يفهم منه ان نابليون بونابرت كان ضد الثورة الفرنسية . لقد أخذ كلاهما وجه الثورة ، ووظفها فى مصالحه الشخصية ، وأفقدها شعبيتها وحمـاية الجماهير لها ، ولكن جوهر التغير ظل مستمرا . وقد كانت الدولة فى عصر محمد على مزدوجة الطابع ، كان محمد على يريد اقامة امبراطورية علوية من القاهرة الى اسطانبول ، بينما كان ابنـه ابراهيم يريد اقامة دولة عصرية (بورجوازية) يملى شروطها على القسطنطينية . وقد اعتمد الاثنان ، كل من وجهة نظر على (المثقفين) ـ وهم فى ذلك الوقت من رجال الأزهـر وغيرهم ممن ذهبوا الى أوربا وتعلموا . وخلال الانتفاضات الوطنية ، كان الفكر الثورى يعتمد على جذرين رئيسيين : الأول هو الثقافة الكلاسيكية ـ وهى مجموع ما ورثناه من ثقافات عربية واسلامية .. والثانى هو يقظة هذه الثقافة والفكر فى حالة الصدام مع الفكر الغربى ومحاولة الاستنارة من هذا الفكر . وقد حدثت هذه (اليقظة) منذ سنوات عـديدة ، لا يمكن تحديدها بالضبط ، فانه من أصعب الأشياء أن تبحث للفكر وللثقافات عن بدايات أو نهايات . ولكن ربما كان قريبا من الصحة أن نفترض ان هـذه (اليقظة) قد حـدثت فى مصر عند اصطدام الواقع الموجود مـع الفكر الفرنسى .

لقد كان للعنصر العسكرى ـ فى بداية الأمر أثره على العقل المصرى كله ، عندما أحس بضعف الدولة العثمانية ـ مهما التمس لها المعاذير ـ وضعف المماليك . وكان التأثير الفكرى لذلك عليه ، عودة المصريين الى

ذاتهم من ناحية ، ومحاولة اكتشاف امكانياتهم كقوة كانت ضائعة ، ومن ناحية أخرى ، التطلع ــ أو ربما كان من الأصح أن نستعمل كلمة أكثر دقة من كلمة « التطلع » هى « الفضول » ــ ناحية الفكر الغربى . فاذا ما عرفنا ان الحملة الفرنسية (١٧٩٨) كانت حملة فكرية الى جانب انها كانت حركة استعمارية ، أدركنا الى أى حد من الممكن أن يكون ذلك عاملا هاما فى خلق الحس الوطنى ..

واذا كنا قد قلنا عن (ثورة القاهرة) ، بقيادة عمر مكرم ، وما تلاها ، كانت ثورات تلقائية ليست لها استراتيجية محددة ، فهذا ينطبق ، أيضا ، على الثورة العرابية ، ولكن بدرجة أقل من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كان الوعى السياسى ضعيفا جدا ، فى حين أن الفكر القومى كان فى مرحلة من أشد مراحله نموا . ولم يكن هناك التناسب بين الوعى السياسى والوعى الفكرى بشكل عام . وربما كان هذا سببا فى الاحساس الشديد بالمرارة الذى تخلف عن هزيمة الثورة . وحينما فشلت الثورة العرابية ، وانتهت بالاحتـــلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، كان هم الاستعمار الأول هو تصفية وابادة المثقفين الثوريين أو « تدجينهم » ، بمعنى تحويلهم الى عناصر غـــير ثورية ، لأن القوى الاستعمارية كانت تخشى من الفكر القومى ، وتحس بالقلق ازاء ان يلعب دوره فى دفع البلاد الى حركة تحررية . وقد اعتمد مصطفى كامل فى محو صدمة الهزيمة ، وفى محاولة بعث روح الأمة ، على المثقفين بشكل رئيسى . وقد ألقى الاستعمار على المثقفين تبعات ثقيلة ، فقد عزل الجيش عن السياسة والحركة الاجتماعية ، ونشأت طبقة من مثقفى الفئات الكبيرة والمتعاونة مع الاستعمار ضمهم « حزب الأمة » . وكان على المثقفين الشعبيين والثوريين ، فى تلك المرحلة من مراحل الفكر القومى ، أن يحملوا التبعة وحدهم ، بدون الجيش ، وضد مثقفى الرجعية الجديدة والذين ساروا فى ركاب كرومر ودنلوب . وتاريخ ثورة ١٩١٩ ، قريبا ، بحيث يذكر الناس بدور المثقفين فيها ، من طلبة وأزهريين وأفندية . كانوا ، جميعا ، روح مصر ، وطليعتها .

كان المثقفون ، هم المحركون الأساسيون للثورة ، وقـد انعكس ذلك فى النتاج الفكرى لهذه المرحلة ..

وقد كانت معركة غـير متكافئة من ١٩١٩ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ ، بالنسبة للمثقفين ، فهم الذين حملوا السلاح وخرجوا فى المظاهرات ولاقوا حتفهم فى مذابح كوبرى عباس ومظاهرات ٢١ فبراير ١٩٤٦ وذاقوا مرارة السجون والتشريد ، وكان السادات واحد من هؤلاء ، أفرزته الحركةالوطنية فى عنفوانها ، كانسان عادى جاء من الريف وتعلم كأى طالب فى مـدارس الأحيـاء الشعبية ، ثم دخل المدرسة الحربية ، وتشرب مبـادىء الثورة واحتضن الفكر التقدمى ، وذاق مرارة القهر والضغوط فى الأربعينات ــ تلك التى بلورت فكره ، وجعلته يتسم بالثورية التى لا تنضب ..

كان هناك جيل من المفكرين البورجوازيين ، يمكن أن نعتبره ــ بغض النظر عن علاقة المعاصرة ــ النتاج الطبيعى لثورة ١٩١٩ ، ولا يمكن أن نفهم ، على غـير سوى هذا الفرض ، حركة الفكر التقدمية التى قام بها مفكرون من أمثال : أحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وعباس محمـود العقاد ، فى السنوات الأولى من هذا القرن .. لقد كانوا ، جميعا ، وغيرهم طليعة المثقفين البورجوازيين ، الذين قادوا الثورة حتى بعد انتهاء الثورة السياسية . ولكن هبط على مصر ، بعد ذلك ، ظل الطغيـان الاستعمارى والملكى .. وأحس المفكرون بخيبة أمل ، ورأوا الطريق أمامهم مسدودا . فكانت المرحلة التالية مرحلة النكسة فى الفكر ، ليس من حيث مسـتواه فحسب ، بل من حيث مضمونه أيضا ، وانسحب هذا الموقف على البعض من الطليعة البورجوازية التى غرقت فى تهاويهم الفكر الرومانسى والمثالى وبعدت عن مشاكل الجماهير الملحة . ورغم أن هذه الفترة تعتبر من الفترات المظلمة فى تاريخ مصر ، الا أننا يمكن أن نرجع اليها البدايات الأولى للوعى السياسى ، الذى وازن الوعى الفكرى فى الثلاثينات واتضحت نقطة التوازن هذه فى هبة عام ١٩٣٥ ، ثم تطورت الأمور بعد ذلك الى أن تعمق الوعى

الفكرى بشكل فائق ، فى انتفاضة ١٩٤٦ ، وما بعدها ... ولا شـك أن الحرب العالمية الثانية كان لها أثرها فى ذلك ، مثلما كانت معـارك الكفاح المسلح فى القناة ومعارك فلسطين ، من العوامل التى ساعدت على باورة الفكر الثورى ، الذى أدى الى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .

●

رغم كل ما فى السياسة من مناورات ، ومن عمق ، ومن حركة ، الا أننا نستطيع أن تتلمس قاعـدة أساسية قد تكون خافيـة ، أحيانا ، ولكنها كثيرا ما تبدو واضحة . هذه القاعدة ، نستطيع أن نسـتعيرها من العـلم الطبيعى ، الا وهى « قاعدة الفعل ورد الفعل » . فعندما تشك فردا يدبوس فانه يتصرف ، بسرعة ، ودون تفكير ، بعدوانية ضد من شكه بهذا الدبوس وتقريبا هذا ما حدث . ففى عام ١٩٥٢ ، اصطدمت الرجعية بمجموعة من « الأفعال » ، وكانت لها مجموعة من ردود الفعل ، ولكن هذه الردود كانت ضعيفة ، وواهنة ، الى حد غير متوقع . لماذا ؟

* أولا : لأن النظام الرجعى ، كان قد استنفذ أغراضه تماما ، ولم يعد قادرا لا على الدفاع عن نفسه ، ولا عن تقديم شىء جديد ..

* ثانيا : لأن الاستجابة الشعبية للثورة ، كانت الى حد ما كبيرة ، المسألة التى شلت الرجعية عن الحركة .

* ثالثا : لأن الرجعية ، كانت ، بنفوذها الفكرى الكبير ، تحس بالأمل فى التسرب أو التغيير أو الاستمرار .

ولكن حركة يوليو ١٩٥٢ ، لم تكن « حركة اصلاح » فتستطيع أن تبتلعها الرجعية ، رغم أن الحركة عندما قامت تمت بشكل عشوائى ودون ترتيب يتفق مع طبيعة المرحلة الثورية والفكرية ، ورغم أن عناصر الذين قاموا بها ــ ولهم عذرهم ، ربما ، فى هذا ــ لم يكن يبدون أى نوع من التعاون أو الترحيب بالمثقفين الثوريين . بل مضوا فى طريقهم ، منفذين كل

شيء ، من خلال الاعتماد على العناصر العسكرية . لكن رغم ذلك كله ، قد استمرت ، ونجحت فى العديد من الخطوات ، لأنها خرجت بمصر من مرحلة الاقطاعية والشبه اقطاعية الى مرحلة المجتمع البورجوازى ، فأعادت توزيع الملكية ، وضربت الرجعية ، مثلما قضت على الاستعمار ، وأعادت لمصر كيانها الطبيعى . وكان من المفروض ، أن تستعين « الثورة » ، أو تلجأ الى « توظيف » و « استخدام » العناصر المثقفة من مفكرين وثوريين ، لكنها لفظتهم ، وحتى لم تحاول احتوائهم ، بقدر ما سعت الى تفتيتهم وتصفيتهم ، ولم تكن تدرى « الثورة » وهى تفعل ذلك ، انها تلغى ديمقراطية الثورة أو الحريات فحسب ، بقدر ما كانت تستبيح لنفسها « اخصاء » و «تدجين» الحركة الثورية التى هى امتداد طبيعى لتطور الحركة الوطنية فى بلادنا ، ولا نقصد بتيار الحركة الوطنية ، كما قد ربما يخطىء البعض تغيير تحليلى ولا نقصد بتيار الحركة الوطنية ، كما قد ربما يخطىء البعض ، بأننى أقصد الأحزاب أو بعض التنظيمات ؛ بقدر ما أقصد تلك العناصر المصرية الأصيلة الشريفة التى بذلت وأعطت الكثير لمصر من أجل تقدمها وتطورها .

ولقد مر على ثورة يوليو ١٩٥٢ ، الآن ، ٢٣ عاما ، واستطاعت فى تلك الفترة أن تحقق بعض المكاسب ، ولكن هذه المكاسب التى تحققت على أكثر من صعيد ، ضاعت ، أو تاهت ، فى ضبابية الرؤية التى خلفتها هزيمة ١٩٦٧، والتى كانت نتيجة متوقعة لأزمة الحريات فى مصر ولأزمة الديمقراطية مثلما كانت نتاجا طبيعيا ، لأن « الثورة » لم تصل الى قلب مصر كلها ، بل كان العسكريون وحدهم ، يتحركون ، دون اعطاء الثقة للعناصر الأخرى من فئات الشعب من مثقفين وكادحين ، ليشاركوا ، لا فى بناء ما يحدث فحسب ، بل ، وأيضا ، فى حماية ما يتحقق من منجزات فكرية ومادية . وقد نبتت العديد من المشاكل فى أعقاب ثورة يوليو ٥٢ ، وكانت تبدو فى غالب الأحيان مشاكل بلا حل ، رغم أن « التبريريين » كانوا يحللونها ، ويبحثون لها عن حلول وهمية ، لم تكن تزيد الأزمة الا أزمة أدت الى الانفجار ! وقد

كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ مفاجأة بالنسبة للمثقفين المصريين ، وأيضا ، كانت منطلقا لا متصاص واستقطاب ثوريتهم لا من أجل « تشغيلها » والاستفادة منها ، بقدر ما كان الهدف يسير الى تصفيتها و « تدجينها » !

وقد عانى الفكر القومى فى أعقاب ثورة ١٩٥٢ ، من أزمتين مختلفتين . فقبل الثورة ، كان الفكر الثورى يختنق فى المجالات الضيقة ، والى حد ما فى عدم فهم طبيعة المجتمع المصرى وطريقة تحويله . وبعد الثورة ، كان الفكر الثورى يتخبط فى المجال الواسع الذى فوجىء به ، والى حد كبير فى عدم فهم طبيعة المجتمع المصرى وتحوله ، وفى اختلاط القيم بين عناصر اشتراكية وعناصر تلتف بعباءة « الاشتراكية » وعناصر تحولت الى الاشتراكية نتيجة لمحاولتها « السباحة » مع تيار النهر !

والحقيقية التى لا يمكن انكارها ، أن المثقفين فى ذلك الوقت ، وأقصد فى الخمسينات ، ومع قيام الثورة ، لم يكن لهم دورهم الطليعى . وباستثناء ظواهر فردية ، كانوا ، بعيدين ، تماما ، عما يحدث ويجرى على أرض المجتمع المصرى ! البعض كان يحكم بوازع « العافية » ، وكان يقنع نفسه بالانزواء والتقوقع ، ويباشر رعاية مصالحه الذاتية ، والبعض بحكم ارتباطاته الطبقية ومصالحه الفئوية كان يقف فى الصف المعادى لحركة الجماهير . ورغم أن ما حدث ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، لم يكن انقلابا عسكريا ، أو « ثورة ميلشيا » ، وانما كان استجابة طبيعية لمتطلبات المرحلة التى كانت تبحث عن مخرج للازمة المادية والفكرية التى أوصلها الاستعمار والرجعية للمجتمع المصرى ، وقد قام بهذه الحركة مجموعة من الشباب من الضباط الأحرار ، وهم من أبناء هذا الشعب وينتمون بشكل أو بآخر الى الفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى ، وقد قاموا ليخلصوا مصر من أزمتها التى وصلت الى قمة التفاقم .. وقد نجحوا فى هذا ، فى كل الخطوات الأولى ، لكن نحن نعلم « أن رحلة الألف ميل » ، تبدأ بخطوة واحدة ، واذا تعثرت الخطوات فى الطريق ، أو اذا لم تجد المكان ، تاهت الخطوات

فى صحراء من الوهم ! وهذا ما حدث تقريبا ، فالثورة التى قامت على مبادىء وقيم عظيمة ، لم تجد « الظروف » الشعبية والديمقراطية الحقة والحريات الحقيقية ، التى تضمن لها الانطلاق والاستمرار ، بل أدت أزمة الحريات والديمقراطية الى خنق الفكر ، والسير فى متاهات أدت بمصر الى الانغلاق والوهم ، وبعد ١٥ عاما من الثورة ، التى كان من الممكن أن تنقل مصر الى مرحلة المجتمع الصناعى المتطور الذى يساير اوربا والغرب ، حدثت هزيمة ١٩٦٧ ، وليس هذا افتراء أو هجوم ، فالصين مثلا ، وأنا لا أؤمن بنموذجها الشيوعى ، قد استطاعت فى فترة وجيزة أن تحل مشاكلها المادية والاجتماعية والعسكرية والعلمية ، ويكفى أن تعرف أنها من أكبر القوى الضاربة فى عالم اليوم ، حتى أن امريكا والاتحاد السوفيتى ، يحسان بالكثير من الريبة والتوجس والخوف تجاه كل حركة تحدث فى « بحر الصين » ، فهى تمتلك القنبلة الذرية ، وتحضر للصعود للقمر بقوى أثقل من الكتلتين المتصارعتين ، ورغم تعدادها الذى يزيد عن ٨٠٠ مليونا نسمة ، لا تعانى مجاعات أو أزمات ، ولا يحدث فيها ما يحدث فى مصر من طوابير الجمعيات الاستهلاكية وأزمات المواصلات ونقص الموارد التموينية ، ما الفارق ؟ ! لقد قامت ثورة الصين قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، بثلاثة أعوام فقط ، وكانت عند قيامها تعانى ظروفا أصعب داخليا وخارجيا من مصر ، بل كان جزء من شمالها يحتله اليابانيون ! لكنها قامت على أساس استراتيجى علمى ، وعرفت كيف تسير بوضوح ، لتحقق كل منجزات الثورة الصناعية الثالثة القائمة على « الكمبيوترز » و « والالكترونات » و « التكنولوجيا » بينما كان فكرنا منذ ١٩٥٢ يقوم على قدريات وأوهام ، ونوع من الفلسفة التجريبية ومواقف فردية ومراكز قوى متنافسة ، تتصارع على « الكراسى » والنفوذ !

●

فى عام ١٩٥٤ ، وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، حاول المثقفون التحرك ، وطالبوا بعودة الحياة النيابية ، وطالب البعض بعودة الأحزاب ، والمشاركة

فى كل ما يدور فى مصر من أجل حماية الثورة وتوسيع قاعدتها وبنيانها .
لكن ماذا حدث ؟ حدثت الأزمة الكبرى بين قوى الدفع الثورى وبين المثقفين ، ووصل التناقض الى حد المحاكمات ، التى أوصلت عددا كبيرا من المثقفين ورجال الأحزاب الى السجون والمعتقلات !

وقد كان من الممكن فى ذلك الوقت أن يحدث نوع من التلاقى ، والامتزاج ، بين (قوى الدفع الثورى) ، وبين (طلائع المثقفين) ، ويتم الانصهار فى بوتقة ثورية ، تسير الى حركة واسعة من النضال الشعبى ، فى ظل مزيد من الحريات والديمقراطية ...

وكانت المطالبة بالعودة للحياة النيابية ، تعنى على وجه التحديد ، السماح بالأحزاب ، ورفع الأحكام العرفية والعسكرية ، ورفع القيود عن الصحافة واتاحة الحريات والديمقراطية للمواطن . وكانت الأحزاب تتمثل فى :

* أولا : الوفد .. وهو أقرب الأحزاب وقتها للجماهير ، بحكم قيادته لثورة ١٩١٩ ، وبحكم بقائه مع قوة الدفع الذاتى لها والتى استمرت سنوات ليست بالقليلة . حقيقة ان هذا الحزب قد تعرض لحملات متنوعة من التشهير بين عامى ١٩٤٢ و ١٩٥٢ ، لكن ليس معنى هذا رفضه تماما .

* ثانيا : حزب الأحرار الدستوريين .

* ثالثا : السعديون ..

* رابعا : الاخوان المسلمون ـ وكان من أكبر التنظيمات السياسية حتى عام ١٩٥٤ .

* خامسا : التنظيمات الشيوعية ، وكانت تلى من حيث القوة والعدد تنظيم الاخوان ، وكان هؤلاء يمثلون اتجاهات مختلفة رغم انتمائهم جميعا للماركسية ـ اللينينية ، وانضوائهم فى ظل الأممية الشيوعية ، وكان من

أبرز التنظيمات واكثرها حركة فى ذلك الوقت (الحزب الشيوعى المصرى) ــ وما عرف باسم تنظيم « الراية » .

* سادسا : الحزب الوطنى .. وكان أصغر هذه التنظيمات .. الى جانب هذه التنظيمات ، كانت هناك حلقات المثقفين التى تمثل اتجاهات متنوعة ، بعضها اسلامى النزعة والآخر ليبرالى النزعة ، وآخر ماركسى النزعة لكنه يرفض فكرة التنظيم السياسى ...

وكانت وجهة نظر المطالبين بعودة الحياة النيابية والحريات والديمقراطية فى ذلك الوقت ، تتمثل فى « أنه ما تم الآن عظيم ، ورائع ، وما دامت الثورة قد تمت ،فيجب أن تنتهى مهمة الجيش ، ولابد أن يعود الحكم النيابى الى أربابه ، واذن ، ينبغى أن تعود الأحزاب السياسية ، وينبغى أن تعود الحياة النيابية لكى تستأنف الأمور سيرتها الأولى » . وفى الحقيقة أن هذه المطالب ، كانت تعبيرا طبيعيا عن النضال الشعبى فى مصر ، لكن (الثورة) لم تكن قد بدأت بعد ، وكانت ترى فى الأحزاب القديمة ، وفى كل التنظيمات ، بل وفى المثقفين عموما ، خطرا يهددها ، لذلك حاولت تصفية كل هذه التيارات ، ايمانا منها ، بأنه لا سبيل الى استمرار « الثورة » غير ذلك ، و فى الحقيقة ، كانت وهى تفعل ذلك ، تمارس ، « قتل » الفكر الذى نما وتطور فى أكثر من قرن ونصف من الزمان ، منذ ثورة عمر مكرم حتى طلائع مثقفى ومناضلى بدايات الخمسينات ! وقد تمت تصفية المثقفين على أكثر من مرحلة (مرحلة ١٩٥٢) ، ومرحلة أخرى (خلال عام ١٩٥٤) ، وكانت المرحلة القاصمة (فى عام ١٩٥٨) ــ حيث تم تصــفية كل عناصر التنظيمات والحلقات المتنوعة للمثقفين ..

●

فى دراسة مطولة للاقتصادى والمفكر الكبير فايتكيوتنيس عن ثورات الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبالذات : مصر ،

والهند ، والجزائر ، والتى كتبها فى الستينات ، ونشرت فى فرنسا (1) .. قال :

((ان مشكلة هذه البلدان، انها كانت تبغى التخلص من قيودها واغلالها ، المتمثلة فى الاستعمار وفى الرجعيات والأنظمة المحلية والداخليــة التى ارتبطت بالامبريالية وما حدث ، كنموذج واضح فى مصر ، وفى اعقاب ثورة ١٩٥٢ ، يعطى نموذجا واضحا ،فقد قام بالحركة الثورية مجموعة من الشباب تمثل طلائع الجيش ، لكن هذه العناصر لم تحاول الاستفادة من القوى الثورية داخل البلد ، وبلد كمصر يمتلىء بالمفكرين والمثقفين ، الذين يمثلون طليعة الفكر فى منطقة الشرق الاوسط لذلك بدا التيار الثورى الذى صاحب الثورة ينسلخ عنهــا شيئا فشيئا ، حتى باتت الثورة لونا من (الميرى) أو (التكليف الرسمى) ، وهذا ما أفقدها أهدافهــا وثوريتها ، وجعل الجماهير لا تحس تجاهها بالتفاعل)) .

ويضيف « فايتكيوتنيس » ، فى دراسته المطولة هذه رؤيته عن مصر ، فيقول :

((ان مصر التى استمرت حوالى قرن ونصف من الزمان ، فى تطور مطرد للحاق بقافلة العصر الحديث ، كانت تطمح الى ان تقود العالم العربى فى دخوله هذا العصر ، وطموحها هذا يعترف بضعف واضمحلال قيم ونزعات الافكار (المستوردة) ونعتقد أن نوع هذا التطور الاجتمـاعى والفكرى ثورى لا تدريجى ، وأن عدو المصريين والقومية العربية كان يتمثل أساسا فى الرجعية ، وأن أهم اطار كان من الممكن ان يحمى اهداف هذه الثورة مزيدا من الحريات والديمقراطية)) .

وقد عبر السادات عن هذه المبادىء التى كان فى رأيه أنها من المبادىء والقيم العامة التى تحمى الثورة بسياج متينة فقال فى مقال له كتبه فى

---

(1) نشرت هذه الدراسة تحت عنوان « الدول المستقلة حديثا .. والثورة الاجتماعية والفكرية » ، وقد تعرضت لمصر ، والهند ، والجزائر ، كاشكال للثورات البورجوازية فى الخمسينات ، وقد نشر جزء من هذه الدراسة فى مجلة (حوار) الفرنسية ...

مارس ١٩٥٤ ، أى أبان أزمة المثقفين وقوى الدفع الثورى ، وأبان المطالبة بعودة الحياة النيابية .. كتب السادات ، يقول فى جرأة نادرة معبرا عن ابسط قيم الحريات والديمقراطية :

((من حق كل مواطن أن يقول كل ما يشاء . أن يقوله فى خطبه ، أو مقالاته ، أو فى رسالة ، أو فى كتاب ، فليقله بالطريقة التى يختارها بحق ارادته)) .

وقد عبر ، أيضا ، السادات ، عن فهمه الموضوعى الواضح للديمقراطية، فى كتابه (القاعدة الشعبية) فى ذلك الوقت ، فقال :

((الديمقراطية الحقيقية ، أن يكون لكل فرد رأيه فى هذا الوطن . الفلاح ، والعامل ، والموظف ، والطالب ، وكل انسان متعلم أو غير متعلم ، الحق الكامل ، فى أن يبدى رأيه فى حرية وصراحة ، ولا يخشى من ابداء رأيه فى أية سلطة فى هذا البلد)) .

●

فى ديسمبر عام ١٩٥٥ ، كتب أنور السادات فى أعقاب زيارة طويلة قام بها فى الهند ، التقى فيها بالزعيم الهندى جواهر لال نهرو ، كتب وكله رغبة فى أن يعبر عما شاهده وأحس به فى صدق فى الهند ، فقال :

((قمت بزيارة للهند ، والتقيت بالبانديت نهرو ، وكان لهذه الزيارة اثرها المثير على . فقد جمعت تناقضات ومفارقات غريبة ، أن كانت تكشف عن شىء ، فتكشف عن تجسربة رائدة))

ثم راح يتحدث عن كيف التقى مع نهرو فى حفل عام ، وقدم له واحدا من أشد معارضيه . ولفت نظر السادات وجود هذا النائب الهندى (المعارض) لسياسة نهرو وترافقه زوجته ، وكان السادات قد التقى بهما فى القاهرة من قبل ، وفوجىء السادات بأنهما يتقدمان من نهرو بمنتهى المودة والاحترام ، ويقبلانه فى حب ووفاء ، كما يقبل الابن أباه ، وأحس نهرو بدهشة مضيفه ، فما كان منه الا أن بدد تلك الدهشة بقوله :

ــ ولم الدهشة . هل التقيتما من قبل ؟

ــ حدث !

ــ وهل تعرف أنهما من أشد المعارضين لى

ــ أعرف ذلك ، أيضا !

ــ اذن . لم الدهشة ؟

وضحكوا جميعا : نهرو ، والسادات ، والنائب المعارض وزوجته .. وظلوا طويلا يتحدثون عن مفهوم « الديمقراطية الحقيقى » .. « فليس معنى أنك خصمى سياسيا أنك عدوى . لا . انك تحمل رأيا ما ، وأنا أخالفه، لكننا نلتقى فى أننا نبنى لصالح الوطن .. وطالما لسنا عملاء ، أو نتعاون مع أية قوة أجنبية ، فنحن مواطنون شرفاء ، نمارس حقنا الطبيعى والعادى فى الديمقراطية » .

وقد ظل السادات ، متأثرا ، الى حد كبير بهذا اللقاء الذى تم فى الهند وذكر هذه القصة :

« الطريقة التى سلموا بها على نهرو . كنت اراهم كاسرة واحدة . كالابن او البنت عندما تسلم على ابيها .. وكان نهرو يبدو كالأب الذى يحنو على كل الأبناء . عظيما ، قويا ، شامخا والهند فيها اكثر من ١٠٠ لغة وربما ما يقترب من ذلك من القوميات ، لكنهم استطاعوا ان يحسموا كل هذه الخلافات وتحولوا الى ابناء بررة ، واستطاع نهرو أن يكون ابا عظيما لكل الأبناء » .

وبين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، حاول السادات أن يعبر عن رأيه فى العديد من القضايا التى تواجه المواطن المصرى ، والتى تلح على وجدانه ، وكان فى مقدمتها : قضايا الحريات ، والديمقراطية ، وأزمة المثقفين ..

وفى ٤ أكتوبر ١٩٥٤ قرأت على صفحات « الجمهورية » هذه الكلمات التى تعبر عن ايمانه بالشباب وقوله فى المد الثورى :

« منذ وقت طويل ، وانا اريد أن اتوجه الى اخوتى وأبنائى من الطلبة بالحديث فاريد أن أحدثهم اننا اليوم غير الأمس ، فان الثورة قد غيرت ضمن ما غيرت واجب كل واحد منكم نحو بلاده . كنا فيما مضى ونحن طلبة نستقبل العام الدراسى ، وكلنا أمل اننا بتجمعنا فى المدرسة ، نستطيع ان نعلن سخطنا بالاحزاب على الأوضاع القائمة ، وكان يلذ لنا أن نخرب فى هذه المظاهرات كل ما يقع على أيدينا . وأذكر ذلك اليوم من سنة ١٩٣١ ، حينما خرجنا فى مظاهرة ضد صدقى ، وأخذنا نحطم الفوانيس وعربات الترام لا لشىء الا لأن حكم صدقى كان ضد ارادة الشعب . ولقد كان الهدف صحيحا ، ولكننى اعترف ، اليوم ، اننا كنا نخطىء فى تطبيق الوسيلة للتخريب . اما اليوم وقد أصبح حكم مصر فى يد أبناء من صعيد مصر وريفها ، وقضى الى الأبد على أولئك الذين احترفوا السياسة قرابة نصف قرن فاثروا وأثرت محاسيبهم والاصهار ! قضى على كل هذا الى الأبد . واكثر من ذلك فان العقدة الكبرى فى حياتنا ، قد حلت بحمد الله وتوفيقه باتفاق الجلاء . فما هو واجبكم اليوم ؟ ان كفاحكم يجب ان يستمر ، ولكن على صورة أخرى ، يجب ان يكون كفاح عقول ، وكفاح نبوغ ، وتحصيل .. وأنتم تقرءون كل يوم عما يحدث فى البلاد الأجنبيـة من كشف واختراع وابتكار اساسه كل المجهود الشخصى ، ولا اظنكم تجهلون أن مصر فى هذه الحقبة من تاريخها فى حاجة قصوى الى عقولكم ومبتكراتها والى جهودكم ومخترعاتها . لقـد تخلفنا طويلا عن ركب الحضارة . لا لعيب فى تكويننا ، أو لنقص فى عقولنا ، وانما لأننا انصرفنا بمشاكلنا الخاصة عما يجب أن نؤديه نحو وطننا .. ان معركة الحرية التى بدأت منذ قيام هذه الثورة لن تثمر ، ولن تصل بهذا الشعب الى مكانه اللائق الا بالجهود المتضافرة من كل فرد يعيش على ارض هذا الوطن . وان مسئوليتكم فى اتقان الدرس والتحصيل تساوى تماما مسئولية الحاكم فى رعاية العدل والمساواة » .

وهكذا نرى ، أن السادات ، الذى كان أول صوت يواجه الوجدان المصرى عند قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ، عندما اذاع بيان الثورة فى صبيحة الأربعاء ٢٣ يوليو ، فى السابعة والنصف صباحا ، كان من الأصوات التى

طالبت فى ضراوة والحاح بالحريات والديمقراطية وعودة الحياة النيابية ، واباحة الجدل من أجل الوصول بالثورة الوطنية الى آفاق أرحب . وكان ذلك فى سلسلة مقالاته الفريدة المتنــوعة التى نشرت فى « الجمهورية » ومجلة « التحرير » ، والتى أتيح لى أن أسـتعيد قراءتها مرة ومرتين أو ثلاث ، لا لأكشف فقط عن صــدق الســادات الثورى والفكرى ، بل لأحس بما فى داخله من قوى متفجرة تريد أن تنطلق وتنفجر لتعبر عن آمال المرحلة ومتطلباتها الفكرية ، والسياسية ، حتى أن سياسيا من كتاب مجلة (النيوزويك) الأمريكية قد قال بين آرائه وأفكاره وتعليقاته عنــدما آلت الســلطة الى السادات ، وبدأت استراتيجيته تتضح وتعطى انعكاساتها ، فكريا وعمليا ، قال هذا الكاتب السياسى :

« لو كان هذا الفكر قد ظهر من قبل ذلك بسنوات ، لما خسرت مصر الكثير ، ولما منيت مصر بالمرارة والمهالك . وليس هذا الرأى ضد أحد ولا محاباة للسادات ، بقدر ما هو تقدير وحفاظ على مصر التى قاست وعانت وذاقت الويلات ! »

وفى الخمسينات .. تلقى السادات ، وكان فى مكتبه بجريدة الجمهورية خطابا غريبا ، يقول كيف تجمع بين وظيفتين : كضابط ، وصحفى فى نفس الوقت ؟ ...

لكن السادات لم يفاجأ ، أراد أن يفسر حقيقة الوضع ، وأذكر أننى قرأت مقاله ، بل أعدت قراءتها مرة أخرى وأنا أعد هذا الكتاب . قال السادات وقتها ردا على هذا الخطاب :

« انا أباشر الصحافة كجزء من رسالة الثورة . وبحكم **الوضــع ، الآن ، فانا اؤدى ما يطلب منى من خدمة ولكننى اطمئنك يا صديقى ، اننى لا اتناول الا مرتب البكباشى فقط ، ولا احصل على مرتب من دار التحرير ، وتستطيع ان تطلع على حسابات دار التحرير لدى المراجعين القانونيين ، نور وراغب الجميل وشركائهم ، لتتأكد بنفسك ، ولتطمئن على الكسب غير المشروع »**

وكان السادات ، لا يحب أن يوضع فى موقع الشبهات . فهو لم يكن يكتب فى الصحافة من أجل النقود . كان يرى فى الصحافة منبـرا فكريا ينقل رأيه الى الجماهير ، وهو له فكره المتميز ، وأسلوبه الموضـوعى الواضح ، وأيديولوجيته المتميزة التى كانت تعكس نفسها فى الكثير من المقالات والتصاريح والحواريات والمواقف .. فقد كان السادات « أملا » ، و « رمزا » للديمقراطية والحريات فى الخمسينات ، حتى أننى أذكر ، رغم مرور أكثر من خمسة عشر عاما على هـذه الحادثة كلماته الجريئة ، العظيمة ، وكان فى حفـل « كوكتيل » فى الزمالك ، وفى شارع المعهـد السويسرى ، وفى سفارة الاتحاد السوفيتى ، عندما بدأ السادات ، وأخذ يتحدث فى رزانة وثقب نظر عن الفكر الحر والديمقراطية والحـريات وموقف الامبريالية العالمية وسياسة مصر الحيادية التى ترمى الى بناء مصر الحرة ، مصر المناضلة ، التى تعبر فى وضوح عن الشخصية المصرية . كانت أول مرة أرى فيها أنور السادات عن قرب ، كمواطن ، وكصحفى فى بدء حياتى الفكرية فى مجلة « روزاليوسف » .. أخـذت أتأمله ، وأستمع الى حواره فى شوق عارم وهو يتحدث الى عدد من الدبلوماسيين من رجالات السوفيت والهند ويوغسلافيا ... وكان هو نجم الحفل ، وعليه تتركز الانظار ، فهو يتحدث فى تؤدة ، وحكمة ، ورزانة ، وحيدية كاملة ، حتى أن سفير الاتحاد السوفيتى « ديمترى كسيليف » وصفه لاحد محررى صحيفة « الازفستيا » بقوله ، عندما كان يتحدث عن مسارات الثورة المصرية ، بقوله :

« ان أنور السادات ، يبدو شخصية غريبة ، مخالفة ، لمعظم الشخصيات التى قامت بحركة يوليو ١٩٥٢ ، وقد بدات آراؤه تتضح فى الكثير من حوارياته ومقالاته ، فهو شاب متحمس ، لكن فى حكمة ورزانة ، يستلهم افكاره من مصر اساسا ، دون الارتكاز على افكار ما ، وما اعجبنى فيه اتزانه وهدوءه ، وقدرته على توصيل فكره الى محدثه ببساطة ، ناهيك عن خفة دمه وسخريته ، التى دائما يغلف بها حواره ،

وهو قراء عظيم ، ومثقف متميز ، ومتابع واضح لكل ماجريات الأمور فى عالمنا الحديث ، ولا ياخذ موقفا متزمتا ، ولا يتسم تفكيره بالجمود والعقائدية كما تحس تجاه الكثيرين » .

وقد أتيح لى أن استمع الى حديث كسيليف هذا دون أن يعلم أننى صحفى أو كاتب ، وكان ذلك بحضرة المستشار الصحفى فى ذلك الوقت المستر (الكسندروف) وكان محرر صحيفة « الازيفيستيا » ، يكتب بنهم كل ما يملى عليه وفى نفس الوقت يسجله على شريط كامل لاذاعة موسكو بالانجليزية ، وقد تظاهرت بأننى لا أجيد الانجليزية ، بل حتى لا أعرف الا القليل منها .

وكنت فى ذلك الوقت على موعد مع « الكسندروف » أنا والمرحوم الأديب الكبير « سلامه موسى » ، حيث كنت أعد أول كتاب مصرى عن الأدب الروسى والسوفيتى الحديث ، تحت عنوان « قصص روسية .. من أجل السلام » ، الذى تفضل سلامة موسى ، بكتابة مقدمته لى بحكم احتضانه لى فكريا وروحيا وكنت فى حاجة الى بعض الكتب الأدبية الأمينة التى تتحدث عن الأدب الروسى والسوفيتى ، وتعرض للقصص الكلاسيكى والحديث ، شريطة أن تكون طبعتها داخل موسكو ، وبالفعل أعطانى الكسندروف ، كما أعطى لسلامة موسى ، مجموعة كبيرة من الكتب تبين تطور الأدب الروسى والسوفيتى قبل ثورة ١٩١٧ الاشتراكية وما بعدها لليوتولستوى ، وانطون تشيكوف ، وفسيفولد جارشين ، وايفان تورجنيف ، والكسى تولستوى ، ومكسيم جوركى ، وكازاكافيتش ، وأوليس جونشار ، وايليا أهرنبورج ، وسيمونوف ، وميخائيل شولوخوف وبوريس بوليفوى ، وفيرابانوفا ، وباستوفيسكى ، وأركادى جايدار ، وايليا أيلف ، والكسندر تشايكوفسكى ... وأذكر أننا عندما خرجنا أنا وسلامة موسى الى الطريق ، وتأبطت ذراعه ، وسرنا على كوبرى أبو العلا ، كان الوقت يقارب الظهيرة ، والشتاء لا يجعل الشمس لا تبدو على سجيتها ، همس سلامة موسى فى أذنى :

« تعرف ، أنا سعيد بالثورة ، لكنني أكون سعيد أكثر لو توفرت المزيد من الحريات . الكلام الذى دار حول هذا الشاب صحيح .. الأمل » ..

وأذكر أنه أضاف الى كلماته هذه .. هذه العبارات ، أيضا :

« رأيته أكثر من مرة . لكننى لم أكن أعلم انه بهذه القدرة من الذكاء والثورية .. لم لا يجد مكانه الطبيعى . ان الثورة فى حاجة الى مهندسين فكريين أكثر عمقا ، ليحددوا خريطة مصر فى المستقبل . لكن للاسف . الضباب يسود . ولا تعطى الفرصة لكل الراغبين ، وغيره كثيرون .. أنا فرح حقيقة لما يحدث وحدث بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، لكننى اخشى عليها ، تماما ، يا صديقى كالذى رزق طفلة ويخشى عليها من عوادى الزمن والظروف والأمراض ... ! »

و « سلامة موسى » ، الذى أحب أنور السادات ، دون أن يقترب منه كصديق ، كان يمثل التيار التحتى فى ثقافتنا . ربما كان للبعض موقفا ضده فى الخمسينات ، كما كان الحال بالنسبة للسادات . لكنه على أى حال استطاع أن ينبه مصر الى الحقيقة . وأذكر أننى ، عندما كنت أختلى بسلامة موسى فى بيته فى الفجالة ، المواجه لمدرسة الفنون الطرزية بالقرب من « شرم الفجالة » ، كان يأخذنى الى حجرة مكتبه ، وهو يرتدى جلبابه الأبيض ، بينما أصابع ابنته فى الخارج تعزف على البيانو لحنا لباخ أو موتسارت أو شوبان أو رخمانينوف ، ويقول لى : « هل قرأت آخر مقال للسادات ؟ » أقول له : « طبعا ! » . ومرة أخرى ، يقول لى : « هل قرأت ماذا كتب عن الديمقراطية ؟ » ، فأقول له : « لم أقرأ بعد ! » ، فيهم من فوره ، ليقرأ لى ، وهو يؤلبنى : « معظم ما أقرأه يا صديقى ترهات ، أحس فى هـذا الرجل ، صدقنى ، بنوع من الاستنارة . صدقنى ان هذا الرجل سيلعب دورا خطيرا فى حياة مصر ، وستقول .. أن سلامة قالها فى أواخر أيامه ! » .

ومرت الأيام ، والشهور ، والسنوات .....

وبالفعل ، صدقت « نبوءة » المعلم الثورى : « سلامة موسى » ، الذى كتب ، ذات يوم ، يقول : « ان أفكارنا كلمات ، والكاتب أو المفكر العظيم هو الذى يعطينا الكلمات التى ترسـخ فى أذهاننا وتتوالد ، وتبعث على الأعمال العظيمة » وسلامه موسى ، هو « كاتب الثورة » ، بكل ما تعنى هذه الكلمة من معانى . لم يكن كاتب (الثورة) ، بمعنى أنه أخذ بعض المواقف الوطنية أو خرج فى مظاهرة . ولكنه كان يكتب للثورة المصرية ، لأنه منذ أن ارتبط فكريا بمصطفى كامل ومحمد فريد ، ظل يترجم عن أحاسيسه الثورية .

اتخذ الثورة ، ليس غاية فحسب ، ولكنه كان يتخذ منها منهجا .. ولم تهدأ كتاباته ، الا عندما تحقق « الحلم » ، الذى طمح اليه . بل انه رنا الى حلم أعظم ، قبل أن يموت بأيام ، وكنت الى جواره ، أعوده فى مرضه الذى أقعده لأيام الفراش ، بعد اجراء عملية « البروستاتا » .. قال لى سلامه موسى ، بالحرف الواحد ، فى صوت واهن من جراء مرضه : « أتذكر ما قلته لك ، ونحن نعد كتاب الأدب الروسى ؟ ان مصر ، يا صديقى ، تبنى ، اليوم وتشارك فى الثورة ، لكن ما ينقصها الشباب ، الطاقات الثورية ، وهناك الكثير من الطلائع التى لابد أن تأخذ مكانها فى هذا المجال ، فبدون الشباب والمثقفين الثوريين ، لايمكن حماية الثورة » . واليوم ، وبعد مرور السنوات الطوال على وفاة (سلامة موسى) ، أعود بالذاكرة الى تلك الطلائع التى كانت تتصل بسلامة موسى وبهؤلاء الشباب الذين كانوا يترددون على بيته فى الفجالة ، وأعود ، كذلك ، الى بعض المقالات الهامة التى كتبها السادات عن الحريات والديمقراطية ، فى تلك الفترة ـ تلك المقالات الهامة ، التى كانت تعبر عن وجه مضىء للثورة ، وقد كانت هناك اختلافات داخل قيادات « مجلس الثورة » حول قضايا الحرية والديمقراطية ، وحول العمل الوطنى ، اضطرت السادات الى أن يبدى اعتراضاته ويطالب بمزيد من الحرية ، وقد كان يمثل الوجه المضىء للديمقراطية والحريات . . وقـد ذكر

السادات كيف نبتت « فكرة الثورة » فى كتابه (صفحات مجهولة من كتاب الثورة) .. حيث قال :

« ١٩٣٨ ...

فى منقباد ...

فى هذه البيئة المصرية ، حيث يشعر المصرى بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه .. وفى الشتاء ، حين يقسو الجو وتتمرد العواصف ، فتزداد الروابط بين الاصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة وينتصرون بها على عواء الرياح . هناك حول نار فى معسكر المناورات بشباب الريف ، كنا نقضى طرفا من كل ليلة .. أصدقاء ، كلهم ، صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال ، وافرو الشباب .. ضباط لم تزد رتبة احدنا عن الملازم ثان .. نحترق طول النهار فى مناورات طويلة ، ونعود الى الخيام آخر اليوم ، نضىء النار فى الجبل فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب ! وكانت احساساتنا الشابة المرهفة ، ومما يقع أمام أعيننا كل يوم من الصباح الى المساء . كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث . فقد كنا ضباطا صغارا . وكان هناك ، أيضا ، انجليز ! وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم الا اذلالنا ، والا الانحناء أمام الانجليز .. وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق ، ونسخط ، ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم ... وماذا يستطيع ملازم ثان ان يفعل فى داخل النظام العسكرى ، وفى تلك الأوضاع الرهيبة ، الا أن يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدفن النار فى حشاه . هكذا ، كانت أيامنا .. ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافا كبيرا ، فى جو من الصداقة والألفة .. كنا نجلس ، فنمرح ، ونذيب فى هذا المرح ، شقاء اليوم الطويل .. شقاء الجسد ، وشقاء النفس ، وشقاء الغربة فى جبل بعيد » .

وعن الحريات السياسية والديمقراطية ، تحدث السادات طويلا فى تلك المرحلة ــ الخمسينات ، وفى كتابه (القاعدة الشعبية) ، يربط بين مفهوم الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، فيقول : « العدالة الاجتماعية ، تعنى أن

يأخذ كل مواطن فرصة متكافئة مع أخيه ، بصرف النظر عن الغنى أو الفقر وبصرف النظر عن أى اعتبارات .. ونحن نعلم أنه كان لا يمكن ، أبدا ، أن تكون فى بلدنا حرية ، وبعضنا أسياد والبعض الآخر عبيد . فقد كان الملك تركى الأصل ، وكنا ، نحن ، جميعا نشكل طبقة الفلاحين — أى العبيد ! كان لا يمكن ، أبدا ، أن تقـوم ديمقراطية أو حرية حقيقية ، الا بالقضاء على هذه الفوارق المصطنعة ، وقد كان أن طرد الملك ، وبطرده عادت الأرض الى الفلاحين ، وعادت السيادة الى أصحابها الفلاحين . من أجل ذلك ، لابد من تطبيق العدالة الاجتماعية ، لكى يستطيع كل فرد أن يحس بالحرية المطلقة ، وأن يحس بأنه فى هذا الوطن له من الحقوق ما لكل مواطن يعيش على هذه الأرض .. لا فوارق ، ولا سادة ، ولا عبيد .. وانما نحن ، جميعا ، مواطنون شرفاء ، نعمل من أجل بلادنا ، وندافع عنها ضد العدوان وضد المؤامرات .. » . فقد رأى السادات ببعد نظره ، ورجاحة فكره ، أنه لا يمكن تحقيق العـدالة الاجتماعية فى غيبـة عن الحريات أو الديمقراطية ، فلا ضمان لمصير الفرد اجتماعيا أو ماديا ، الا فى ظل توافر حقه فى الحرية والديمقراطية ..

●

فى صبيحة الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت ثورة مصر .. وكان صوت السادات ، أول صوت وصل الى آذن مصر والعالم ، معبرا عن « الثورة » ، وعن قيامها ، وعن اضطلاع مجموعة من الشبان الأحرار بها ، فهو الذى قرأ بيان الثورة ، ونقلت الاذاعات الصورة الصوتية ، الكلمات الثورية ، التى قرأها السادات فى بيان الثورة ، ومن بين ما جاء فى كلمات السادات عن قيام الثورة :

« .. اضطلع بقيادة هذه الثورة ، لفيف من أبناء مصر ، عاشوا سنوات عديدة قبل الثورة وبعدها ، مجتمعين تحت راية المبادىء السامية التى اعلنوها منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. وقد يحدث ، بل لابد أن يحدث ، بين افراد اية جماعة من الناس ، تباين فى زوايا النظر الى مسالة معينة او اكثر »

.. وهذا الخلاف ، لم يجعل السادات يأخذ موقفا معارضا أو يخرج عن فكر الثورة ، كما صادفنا الكثير من القيادات والمنظرين والمفكرين الثوريين فى بلدان أخرى فى مسارات الشعوب ، ولكنه آثر أن يعبر عن وجهات نظره ، وفلسفته ، وفكره ، من خلال « الجماعة » التى انتمى اليها قلبا وقالبا من أجل أهداف عظيمة ، وكان خلال سنوات الثورة فى الخمسينات والستينات يعبر عن فكره الحر فى الحريات والديمقراطية ، وكل ما من شأنه ينشد الخروج بالانسان المصرى والعربى الى آفاق رحبة تضمن له الأمان فى حياته اليومية ومصيره العام . . وكان السادات أبرز الوجوه ، فالكل كان يستمع اليه فى ود وتشوق ، لأن حديثه كان يتسم بالموضوعية والأصالة . كان الوجه المشرق للحريات والديمقراطية ، ووسط ذلك الجو فى الخمسينات الذى كان يتسم بالمناخ الذى لم يستقر بعد وبالجو العام الذى لا يجعل الأمور تطمئن « المواطن العادى » على غده .. كان السادات ، تجسيدا حيا ، وتعبيرا واضحا ، فى ذلك الوقت ، عن متطلبات « الانسان المصرى العادى » ، الذى كان يتطلع لمزيد من الحريات ومزيد من الديمقراطية والطمأنينة ، فى ظل الثورة الجديدة التى قضت على الملكية واطاحت بالاقطاع ، وبدأت تنجز العديد من المشروعات الهامة التى غيرت من طبيعة العلاقات المادية والاجتماعية والفكرية فى مصر ، ولكن هذه التغييرات كان ما ينقصها سياج الحماية الشعبية ـ وهذه السياج لم تكن لتتوفر الا فى ظل مزيد من الحريات والديمقراطية ..

•

فى حديث هام ، أجراه خالد محى الدين مع الكاتب الانجليزى برتراندرسل ، قال المفكر الانجليزى الكبير : « ان ما يحدث فى مصر يشدنى

حقا فالثورة بمفهومها الحديث فى الدول النامية ، ليست هى قلب نظام الحكم أو تغيير موازين الأمور ، على طريقة الكراسى الكلاسيكية ، بقدر ما تعنى ، قبل كل شيء محاولة نقل الناس من حالة الى حالة ، من حياة الى حياة ، من تخلف الى تقدم ، من موت الى حركة هادرة ، من ظروف قهر الى ظروف متحررة ، من فقر واستغلال الى رخاء ورفاهية .. وفى مصر ، وفى كوبا ، وفى الهند ، وفى الجزائر ، وفى أندونيسيا ، تمتد خطوات جريئة للسير بمنجزات الثورة لنقل الانسان الذى طالما عانى ليمسك عصا المستقبل وأنا ، لا أخفى ، بل أقولها صراحة ، أن الثورة التى قامت فى مصر نذير خير ، ليكن هذا النذير ، بادرة نحو تقدم أعمق بالثورة ، والثورة فى تقديرى لا تتعمق ولا تتطور الا من خلال عنصرين هامين : أولا .. الاعتماد على العلم الحديث ، بمعنى استلهام خط استراتيجى علمى يكون بمثابة النظرية الثورية للحركة الاجتماعية والمادية خلال التغيرات التى تتم وتنجز . ثانيا .. لابد من ربط ما يحدث بالجماهير ، والا بدا كل ما يحدث هراء ، وماالاحظه على الثورات فى هذه البلدان النامية ، انها لم تستطع الفكاك من التخلف والافتقار الى النظرة العلمية الخلاقة ، هذا الى جانب الخوف الواضح من حركة الجماهير » . وهذه العناصر التى عرضها المفكر والفيلسوف الانجليزى برتراندرسل ، ان عبرت فهى لا تعبر عن الثورة المصرية فحسب ، بل تعبر بشكل عام عن ثورات الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبينها الثورة المصرية . ومن يتعمق هذه العناصر ، يحس لماذا وصلت الثورة المصرية ، رغم نجاحها العظيم فى تحقيق عشرات المنجزات (فكريا ، واجتماعيا، وماديا) ، الى المنغلق الذى وصلت اليه فى يونيو عام ١٩٦٧ ..

●

كان أهل الغرب ، يفخرون ، دائما ، أنهم يعرفون الشرق أكثر من أهله .. وكان لورنس ، وفيلبى ، وغيرهما من رجال الامبراطورية البريطانية هم أنبياء جهاد يعلمون عن العرب أكثر مما يعلمه العرب أنفسهم . ولكن مع ذلك ، عندما نقلت وكالات الأنباء خبر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، أصابت الدهشة أهل الغرب ، وبعضهم بدأ يدرك أنه لا يعرف عن العرب أكثر مما يعرف عن أنفسهم . وعندما أصابت مصر هزيمة ١٩٦٧ ، قالوا « ان كل شىء قد انتهى . ولن يصحو الشرق الا بعد فترة طويلة » ، بل وبعض صحفهم قالت « اذا كانت معارك ١٩٥٦ ، قد أصابت الكلى والمفاصل فى الأمة العربية ، فان هزيمة ١٩٦٧ قد أصابت القلب فى الصميم ، ولن يقوم الانسان العربى من جديد الا بعد ما يعاد الى قلبه الحياة وهذا يحتاج الى وقت طويل ، بل وميثوس فيه ، أيضا . » . حقا ، كانوا يعتقدون أن كل شىء قد انتهى ، وأن الانسان المصرى قد خرب من الداخل ، ولم تعد لديه القدرة على القيام من جديد ، لكن ما حدث فى ١٥ مايو ١٩٧١ وما أنضجه من انتصارات ومكاسب عسكرية « مايو » ، كان على رأسها انتصار اكتوبر ١٩٧٣ العظيم ، وما أعقبه من تحركات أكدت وحدة الصف العربى وقوته ، وعودة الروح من جديد بشكل أكثر قوة وخطورة من الماضى ، جعل الغرب يهتز ويذهل حقا !

حقا ، ان مبررات « الثورة » و « التغيير » ، كانت موجودة ، لكنهم لم يكونوا يعتقدون ، أن القوى الوطنية قد استطاعت أن تنظم نفسها ، وبسرعة مذهلة ، حتى عادت واكتسبت «الأرض» من جديد ، على المستوى العسكرى والسياسى والفكرى والنفسى ..

●

فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قامت الثورة . ولأول مرة فى تاريخ مصر التف حول الجيش وحركة الضباط الأحرار قوى شعبية كبيرة ، من خلالها ، تحققت العديد من المنجزات الاقتصادية والمادية والاجتماعية والفكرية .. وقد ساعدت أحداث ١٩٤٦ ، التى كان السادات واحدا من رجالها يناضل

من وراء السجن والقضبان ، كمحترف سياسي شارك في الانتفاضات والفورات الوطنية ، كما ساعدت معارك فلسطين أيضا ، على تفاقم تناقضات المجتمع المصرى وزيادة قوى الدفع الثورى ، وأيضا ، معارك قناة السويس والكفاح المسلح التى خاضها السادات كبطل وفدائى من الطراز الأول ، كل هذا ساعد على تحقيق الالتقاء بين حركة الضباط الأحرار والآمال الشعبية ، التى كانت تتطلع الى مخلص من عتمات القهر والضغوط التى كانت تحياها الجماهير الشعبية ، هذا طبعا ، الى جانب التفاقم وحدة العلاقات المادية والاقتصادية فى المجتمع المصرى ..

يقول « عبد الرحمن الرافعى » مؤرخ الحركة الوطنية :

((لقد قامت الثورة ، وفوجىء بها الشعب ، لكن سرعان ما تحقق الالتقاء بين من قاموا بها من ضباط احرار وبين مختلف الفئات الشعبية ، وكان أهم نتائج ثورة ٥٢ السريعة انضمام الشعب فى معركة الجلاء والتحرير عام ١٩٥٤ ، فاشتد ساعد مصر بانضمام قواتها المسلحة الى قوى الشعب المكافحة بعد ان فرقت بينها الاوضاع الاستعمارية والأهواء السياسية فى العهود الماضية ، راى الانجليز ، ان انضمام هاتين القوتين العظيمتين ، واتحادهما ، يجعل بقاء الاحتلال فى أية بقعة من الوطن امرا مستحيلا ، عندئذ ادركوا الا مناص لهم من الجلاء عن منطقة القناة ، فوقعوا فى ١٩ اكتوبر ١٩٥٤ اتفاقية الجلاء ، وكان لايمان الثورة بالجلاء وتمسكهم به واستعدادهم للبذل والتضحية فى سبيله ، الفضل فى هذه النتيجة الحاسمة)) .

وهكذا ، حدث ، ما لم يكن فى حسبان الغرب . استطاعت القوى الوطنية أن تنظم أنفسها وتلتقى مع حركة الضباط الأحرار ، حتى صارت أقوى من الملك ، وأقوى من السفير البريطانى والاستعمار ، وحققت الجلاء ، بعد مرور عامين فقط من قيامها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

لم يكن يثير الغرب فى ذلك الوقت ، وأقصد فى البدايات الأولى

للثورة ... لم يكن اهتمامهم : (لماذا ؟) ، فهم يعرون المبررات جيداً .. ولكنهم ، تساءلوا : (كيف ؟) ، ومعلومات المخابرات ومراسلى الصحف ، فى ذلك الوقت ، تقول .. «أن الاوضاع فى مصر آسنة تدور حول فلك النظام الكلاسيكى القديم» .

وظل أهل الغرب ، يعتقدون أن ما حدث لم يكن الا مجرد تغيير (للواجهة) ، حتى عام ١٩٥٤ كان سفير أمريكا فى مصر يرسل تقاريره الى واشنطن على أساس أن ما حدث فى مصر لا تغيير فيه « .. وحتى ، الآن لا زال الأمر بيد أمريكا ، ولم يفلت منا ، فالقوى الموجودة فى القاهرة ، لا تتعارض مصالحها مع مصالحنا ، بل لكى نضمن استمرارها كسلطة جديدة فى منطقة صعبة عليها أن تلجأ الينا دائما (١) » .. لكن سرعان ما اكتشف الغرب بعد فترة ، أن ما حدث فى مصر ليس فى صالحه ، أو على الأقل لا يسير وفقا لما يريد ، وبالذات ، بعد الجلاء ، وبعد تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ . وعندما أحس الغرب ، أن ما حدث فى مصر ليس فى صالحه تماما ، قام بحملته الضارية التى وصلت الى العدوان المسلح فى أكتوبر ١٩٥٦ . لكن قوى الارادة العربية ، وتجمع القوى الوطنية فى مصر فى صف واحد ، ونضال القوى الشريفة فى العالم ، دحر قوى العدوان وأوقفها عند حدها فى ١٩٥٦ ..

وقد هز السادات ما حدث فى مصر فى عام ١٩٥٦ ، وكان يتوقعه ، بل وكان يحذر منه ، وكان يعلنها بكل صراحة مدوية .. أنه لابد من حماية المكاسب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تنجزها « الثورة » فى مصر بسياج شعبية ، حتى لا تتعرض للخطر ، وحتى اذا ما تعرضت ، بالفعل للخطر ، وهى معرضة له بالفعل ، تكون القوى الوطنية فى حالة تأهب واستعداد لدرء أى خطر ، لأن التفكك أو عدم وحدة الصف من شأنه

(١) وقد نشر هذا التقرير فى مجلة « التايم » الأمريكية فى يونيو عام ١٩٥٤ ، اى بعد قيام ثورة يوليو بعامين فقط ، ومما جاء ، ايضا ، من تعليقات صحف الغرب عن هذه الفترة ما كتبته صحيفة الايكونوميست البريطانية فقالت : « ان الامر ، لم يفلت بعد من يدنا ، فالاقتصاد المصرى لازال يرتبط ببريطانيا ، بشكل او باخر » ...

أن يجعل للاستعمار أو للقوى الرجعية « فسحة » سانحة للتحرك ...
ويعلق السادات على أحداث ١٩٥٦ ، بقوله في مقال نشره على صحيفة الجمهورية في (١) : « ان أخطر ما يفتك بالدول الصغيرة ويوقعها فريسة للدول الاستعمارية ، هو ذلك الشعور بالنقص الذى تغرسه تلك الدول الاستعمارية في نفوس الشعوب الصغيرة . ان هذه العقدة . هي أفتك أسلحة للاستعمار اليوم ، والانسان يتلفت حواليه الآن ويأسف لأن دولا صديقة من الدول الصغيرة تترك شعوبها فريسة لهذه العقدة . وأخطر من كل هذا أن تكون هذه العقدة لدى حكام هذه الشعوب . وسبيل الاستعمار ، دائما هو غرس هذه العقدة في نفوس الحكام أولا ، ثم توصيلها للشعوب عن طريق هؤلاء الحكام . وعن طريق العملاء الاخرين الذين يبيعون أنفسهم للاستعمار » .

ويقول ، أيضا ، في نفس المقال : « يجب أن تتحرر الشعوب الصغيرة من خرافات الاستعمار وأساطيره ، كأنها السوس تنخر في مقاومة هذه الشعوب بالنقص ... فالى متى ، سيظل بعض الحكام يحطمون مقاومة شعوبهم ، لأنهم مرضى بهذه العقد ؟! » . والى جوار ، هذه السلسلة الهامة عن معارك ١٩٥٦ ومواجهة مصر لها ، وتحليله للعداون الثلاثى على مصر ، كانت دراسة هامة أخرى عن القناة (٢) ، دعمها بالأرقام وبالأبعاد الاقتصادية التى كمنت وراء ذلك الحدث الذى كان يبغى هزيمة مصر ودحرها وربطها بربقة الامبرياليين . قال السادات في مقاله هذا : « ان جميع الاتفاقات والمعاهدات منذ انشاء القناة الى يومنا هذا تنص بما فيها معاهدة لوزان ومعاهدة ١٩٣٦ واتفاق ١٩٥٤ ، هذه الاتفاقات والمعاهدات جميعا تنص

---

(١) المقال نشر بتاريخ ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٦ .

(٢) هذا المقال نشر بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٥٦ ، تحت عنوان (أرقام) ، بجريدة الجمهورية ، وقد وثقه ودعمه بمراجع اقتصادية وسياسية هامة ، من خلالها يصل بلغة الارقام الى نتائج هامة في مبحثه الاقتصادى والسياسى عن العدوان وقناة السويس ... وكان هذا المقال الهام بمثابة رد مفحم على المستر انطونى ايدن رئيس الوزراء البريطانى في ذلك الوقت الذى حاول اللعب بلغة الأرقام لصالح الاستعمار !

صراحة على أن القناة جزء لا يتجزأ من مصر ، والأرقام توضح ذلك ، وهاهى تفاصيل التكاليف التى تكبدتها مصر ، ان كل رقم من هذه الارقام يحكى مأساة وتاريخا : ٣٫٤٢٦٫٠٠٠ جنيه (قيمة اسهم مصر فى القناة ، ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة ، ٠٫٤٠٠٫٠٠٠ ثمن أراضى تفتيش الوادى ، ١٫٢٠٠٫٠٠٠ تعويض للشركة طبقا لاتفاق ٢٣ ابريل ١٨٦٩ ، ١٫٢٠٠٫٠٠٠ نفقات انشاء الترعة الحلوة ، ١٫٤٠٠٫٠٠٠ لنفقات حفلات افتتاح القناة ، ٥٫٨١٤٫٠٠٠ فوائد وسمسرة وتحكيم . فيكون المجموع هو : ١٦٫٨٠٠٫٠٠٠ ستة عشر مليونا وثمانمائة جنيه . وتكلفت القناة كلها ثمانية عشر مليونا من الجنيهات ، ثم توالت بعد ذلك الكوارث» وهكذا يبين السادات فداحة ما تحملته مصر ، ومن خلال الأرقام يدلل على ما تم من مأساة تحملتها مصر بالعرق والدم ..

●

ان المسيرة التى بدأت مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والتى عبرت عن تطلعات الشعب المصرى فى تحقيق حياة حرة كريمة بعيدة عن شتى ألوان القهر والضغوط ، كان من الممكن أن تكون أكثر فعالية ، وأكثر ارتباطا بالقوى الشعبية لو توافرت ظروف حريات الفرد والديمقراطية التى تعطى الجماهير فرص المشاركة فى اقامة هذه الحياة الحرة ، وكيفية المحافظة عليها أمام أية قوى معادية وفى مواجهة أى عدوان داخلى أو خارجى ..

لقد قال أرنولد توينبى (١) :

« أن المسيرة التى بداها الشعب المصرى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، سارت الى آفاق طيبة فى اكثر من مجال من اجل اصلاح الحياة للمواطن المصرى . وهذه الانتصارات التى تحققت وتتحقق كان من الممكن ان تكون اكثر واكثر ، وهذه

---

(١) وتوينبى ، من المفكرين الذين اهتموا بالحضارات الشرقية ، وتعاطف مع حركات الدول المستقلة حديثا ، وفى طليعتها مصر ، وقد قال رايه فى الثورة المصرية وتطوراتها فى اكثر من مناسبة ، وقد جاء مصر وحاضر عن مصر والثورة ، اكثر من مرة ...

الانتصارات لا يفسرها ، فقط ، البعد السياسي والمادى ، بل ، وايضا ، نضج الحركة الوطنية فى مصر ، وهذه القوى الوطنية ، فى الحقيقة لو اتيح لها مجال اوسع لكانت اكثر تفجرا ، واكثر فعالية فى تطور مصر حضاريا وفكريا » .

وقد أكد أكثر من مفكر ومنظر وكاتب ، على الجوانب الايجابية فى ثورة ١٩٥٢ ،وفى نفس الوقت ، أشار الكثيرون الى سلبيات تلك المرحلة ، أيضا ، لكننا كنا ــ وهذا عيب فينا ــ نتباهى بالايجابيات ، ونخشى أو نهاب السلبيات ، وهذا ما سلمنا من وهم الى وهم ، وجعلنا لا نرى الأشياء على حقيقتها ، بل وقادنا الى مرحلة ضبابية وصلت الى حد انعدام الرؤية بعد هزيمة ١٩٦٧ .

قال المفكر الهندى « جوش » :

« ان ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، لم تكن حركة اصلاحية أو انقلاب عسكرى ، بقدر ما كانت تريد تغيير العلاقات المادية والاجتماعية والفكرية للمجتمع ، وقد نجحت فى الكثير من الاعمال كتحويل مصر الى نظام جمهورى ، واعادة توزيع الاراضى ، وتغيير حياة العمال ، ورفع مستوى الفئات الشعبية ، وتحقيق الجلاء ، وتدعيم خط الحياد وارتباط ثورتها بالعالم الثالث وحركاتها التحررية واضح كل الوضوح لكن رفضها للحياة النيابية والدستورية ، واصرارها على لفظ مفهوم الديمقراطية واشراك المدنيين ــ من مستنيرين ومثقفين ــ فى أعمالها ، جعل الهوة تتسع بين منجزات الثورة والشعب ، فلم يشعر الشعب ــ أبدا ــ أن ما يحدث على أرضه جزء منه ، بقدر ما احس انه غريب عما يجرى ويدور ــ الأمر الذى عرض هذه الثورة للعديد من (الهزات) داخليا وخارجيا ، على المستوى الشعبى وعلى المستوى العالمى ، ففى الداخل قامت العديد من الحركات المعارضة ، بل ومحاولات للانقلاب وثورات مضادة متعددة ، لكن كان يكبح جماح اى حركة أو ثورة من هذه الفورات بالاعتقالات الواسعة والتنكيل بلا حدود خلال السنوات الاولى للثورة حتى بدايات الستينات الأمر الذى جعل كل شىء يحدث ويجرى فى غيبة عن (طليعة) الجماهير وخيرة رجالها ، وعلى اختلاف تياراتهم واتجاهاتهم ،

كانوا من الممكن ان يمثلوا جبهة ويشاركوا لا في حماية مكاسب الثورة ، بل وايضا في المشاركة في البناء . لكن حركة الضباط الاحرار لم تعط اية فرصـــة لحرية المواطن أو ديمقراطيـــة الحركة ، الامر الذى أدى الى انهيار المواطن تمـــاما ، وجعله يخشى ويهاب كل شيء ، وبالنسبة للموقف العالمى والقومى عندما تعرضت البلاد للحرب ، لم يحس الشعب بانه طرف فى هـــذه الحرب ، وحرب ١٩٥٦ فضحها ، اســـاسا ، انذار سوفيتى ، وحرب ١٩٦٧ التى اجهزت على كل شيء داخليا وخارجيا ، تمثل قمة البركان ، فقـــد كان الشعب يعانى الأمرين ، ولم يكن يشارك المشاركة الفعالة فى قيادة أموره ، هذا الى جانب أن المواقف الانتهازية والتسلقية كانت تسيطر على كثير من القيادات)) .

لقد كان من الممكن أن تسير حركة الضباط الاحرار ، فى اتجاه دستورى ديمقراطى منذ البداية . فقد كانت التشكيلات السرية بين ضباط الجيش ، ترمى فى بداية الامر الى هذا ، بل والى اعادة الحياة النيابية .. وقد علق انور السادات ، على ذلك بقوله : « اتصلنا ، فعلا ، بفؤاد سراج الدين ، وأوفدنا اليه البكباشى أحمد أنور ، أحد الضباط الأحرار ، وذهب يسأل سراج الدين عن موقف حزب الوفد فى حالة ما اذا فرضه الجيش على الملك ، وبعد شهر جاءنا الرد .. وهو الرفض » . وبعد انتصار حركة ٢٣ يوليو ٥٢ ونجاحها فى التخلص من الملك ، وبدأت تحقق مساراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، قام داخل قيـــادات الثورة رأيان مختلفان . ويقول أنور السادات فى ذلك : « الرأى الأول يقول ماذا يمنع لو استدعينا برلمان الوفد لتسيير الأمـــور ، ونجلس نحن نراقب الأحـــوال والخطوات وتنفيذ أهداف الثورة . والرأى الثانى يقول : لا يصح هذا ، فالوفد وكل الأحزاب والهيئات بما فيهم الاخوان قد تخلفوا عن التعاون معنا قبل الثورة وان الثورة تحتم الغاء كل تلك الأحزاب والهيئات .. واستمرت هـــذه المناقشة واحتدت تلك الاجتماعات للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار ، وكان الرأيان المتصارعان هما محور كل المناقشات » . وأخطر من هذا ،

أيضا ، نجد أنور السادات ،يسجل فى صراحة .. أن الهيئــة التأسيسية للضباط الأحرار أعدت قرارا يقضى بحل الأحزاب كلها ، وابعــاد كل السياسيين القدامى الذين تعاونوا مع القصر والمستعمر ، فاعترض الكثيرون على هذا القرار ، وقالوا أن هذا يعنى « نوعا من الديكتاتورية » . وبالفعل بعد أن تم الغاء الأحزاب ، وضربت معظم التيارات الثورية فى أعقاب ١٩٥٤ ثار الكثيرون ، ووصفوا الثورة بالديكتاتورية .. بل وفى مقال نشره أحد أساتذة الاقتصاد فى ذلك الوقت ، قال : « ان الغاء الأحزاب ، والضرب بقوة على التنظيمات والتيارات السياسية فى مصر ، يعنى الحجر على فكر مصر ، ولا يمكن أن نسمى ذلك الا نوع ضارى من الديكتاتورية — أو « السماشية » — نسبة الى الضباط الأحرار ، أو الى الاتجاه الذى يميل الى الغاء الحريات والديمقراطية .. وكيف يتم اللقاء بالثورة دون حماية الجماهير لها ، ودون أن تمتزج عناصر حركة الضــباط الأحرار بالتيارات السياسية ، ويتم تكوين جبهة وطنيه متحدة تمثل مطالب الثورة ومتطلبات المرحلة ؟ دون ذلك ، لن يتم الا القهر والضغوط والمظالم ، وهذا يعطى الفرصة سانحة للرجعية أن تظل داخليا وخارجيا » .

وأكثر من كتاب صــدر عن مصر فى الخمسينات والستينات ، عشرات الكتب ، بل مئــات ، لكن الذى كان يحدث لم يكن يدخــل الى مصر الا الكتب المتعاطفة أو التى تمتدح (النظام) ، ودون ذلك يعدم ، وعلى ذلك لم نر غير كتب جان وســيمون لا كو تير ، وديزموند ســتيوارت وتوم لتيل ، وكرانجيا ، وجون جنتر ، وبيليايف ، وغيرهم . . لكننا لم نر الكتب التى كانت تبرز سلبيات المرحلة ، والكثير منها كان يتحدث عن العيوب ، ولا نقصد بالعيوب الاساءة الى جوهر الثورة ومكاسبها فهذه الكتب مضللة ، وانما نقصد الكتب التى كانت تنزع الى الحيــاد وتبرز الايجابيات والسلبيات على حد سواء — هذا اللون من الكتب كان يقال عنه « أنه يثير ثائرة النــاس .. وأنه يطنطن بالحياة النيــابية ، ويطالب

بالافراج عن المعتقلين السياسيين ، واباحة الأحزاب السياسية » ! وقد حاولت أن أقرأ بعض هذه الكتب ، بشكل او بآخر ، بل وقد اتيح لي أن اقرأ بعض الصحف التي تبرز ايجابيات وسلبيات المرحلة التي ادت الي هزيمة ١٩٦٧ . ان أعداء جمال عبد الناصر ومنافسيه السياسيين ، اطلقوا عليه اسم « الديكتاتور » أو « القومي الأعمي » ، واعتبره الكثيرون من زعماء البلدان العربية والافريقية من أكثر الموالين لموسكو ، وفي نفس الوقت مدحه آخرون وتحمسوا له ووصل حماسهم الى درجة العبادة والتأليه . وكل من النظرتين ، فى تقديرى خاطىء .. فجمال عبد الناصر ، قد أثارت العديد من أعماله كثيرا من الجدل ، لكنه كان أول مصرى فى العصر الحديث أعطى لمصر مكانتها ، وحررها من الاستعمار ، وأعطاها الفرصة لتسير الي الأمام . ولا أحد منا يستطيع أن ينكر مساهمة جمال عبد الناصر فى تطور مصر الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ، فقد حقق مع مجموعة بارزة من رجاله « السيادة الوطنية » ، والاستقلال القومى ، وأعاد خريطة مصر الاقتصادية لتكون فى خدمة الفئات والطبقات الشعبية ، بعد أن كانت ملكا للملكية والاقطاع والاستعمار . لكن كل هذه السلسلة من المكاسب والانجازات ، كانت تتم بمعزل عن الجماهير ، ورغم الصفات والاسماء التى خلعت على الكثير من فترات الخمسينات والستينات فى مصر « كالمرحلة الاشتراكية » ، و « التغيير الاشتراكى » ، و «البناء الاشتراكى» الا أننى أقول أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ما هى الا ثورة بورجوازية ، قد قامت للقضاء على الاقطاع ، وإعادة توزيع الأراضى ، وتحقيق الاستقلال القومى للبلاد ، ومحاولة بناء مجتمع صناعى جديد يحقق الرفاهية لأكبر قدر من الشعب .. لكن الذى حدث ، أن عبد الناصر ، كان يفضل أن يعمل بمعزل عن الجماهير ، بمعنى أنه كان لا يثق كثيرا فى التنظيمات السياسية ولا فى المثقفين الثوريين ، وكان يرى أن « شرعية » الأشياء لا بد أن تتم من خلاله هو ، حتى لو كانت بمعزل عن الناس ، وكان فى نفس الوقت ، يخشى من نظرية الصراع الطبقى ومن قوى المثقفين والعمال . لم تكن المشكلة

أمام عبد الناصر : من الذى يملك وسائل الإنتاج ، بقدر ما كا
بعدالة التوزيع .. وكان يرفض قيام أى تيـــار معارض ، ويرفض
الأحزاب ، ولا يجد فى الحرية أو الديمقراطية الا ما هو نابع عن
ومحقق لمصالحها فحسب ، ودون ذلك تخريب ، لذلك ، عمل ، ومنذ
على تصفية كل الاتجاهات والتيارات المختلفة للمثقفين والسياسيين
مراحل مختلفة فيما بين عامى ١٩٥٤ ، وضربة ١٩٥٨ ، وضربات أخرى
فى بداية الستينات حتى تم له الكثير مما اراد : « تدجين القوى الثو
وتصفية « المثقفين الثوريين » . كان عبد الناصر ــ على حد تعبير ا
السوفيتيين : بيليا يفيد ، ويفجينى بريماكوف : « كان عبد الناصر
الى تعزيز وضعه كزعيم سياسى للبلاد أولا ، ثم بعد ذلك ، كان
يفكر للمستقبل ، لمصر » . وعلى هذا ، وكما قلت ، كان عليه أن
من كل الخصوم ومن كل المناوئين ، تماما ، كما فعل نابليون بو
عندما عاد الى فرنسا ، ووجد القيادات تتصارع على السلطة ، و
أهم خصوم عليه أن يتخلص منهم هم : ديكو ، وسييس ، وكامباس
وهم يمثلون القوة الأساسية فى الصراع (١) ، وعندما تخلص منه
يفكر كيف يصنع من نفسه زعيما سياسيا ، ثم يفكر بعد ذلك فى
وعلى هذا ضرب عبد الناصر كل القوى خلال عهده الذى امتد قرا
عشر عاما : ضرب جماعة الاخوان المسلمين ، التى تمثل اليمين الم
قوة ، كما ضرب الشيوعيين ، وكان يرى ان تقدهم للثورة ومسارا
من المطالبة بقيادتها أو احتوائها أو قيادتها الى تناقض الصراع ال
حدة .. ولأنه ، عمل ، وتحرك ، بمعزل عن الجماهير ، ولم يهتم اهتم
بانشاء قاعدة شعبية لحماية التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى

---

(١) فعندما عاد نابليون من مصر ، فى اكتوبر ١٧٩٩ ، اختير وفقا لدستور ١٧٩٩
القناصـــلة التى كانت تضم ثلاثة من القناصل هم : كامباسريس ، وديكو ، وسييس
منصب القنصل العام نابليون بونابرت ، ويســـاعده كامباسريس من اليعاقبـــة ،
الملكيين ، ومثلما تخلص من سييس وديكو ، تخلص من كامباسريس ولبران ، ومن خلال
تخلص من كل مناوئيه ، وانفرد بالسلطة تماما ، وخلاله الجو تماما ...

على أرض البلاد . كما أنه لم يكن يسير وفقا لمنهج علمى أو نظرية كاملة ، كان يتحرك من منطلق تجريبى بحت ، وهذه « التجريبية » لا توصل الى نتائج واضحة ، لأن المذهب التجريبى فى السياسة معروف أنه لا يقود الا الى طريق مغلق وغير واضح ، لأنه يخضع للواقع اليومى ولظروف المتغيرات يوما بيوم ، ولا يرتب للاشياء قبل وقوعها ، بقدر ما يتصرف وفقا للموقف الذى فرض ، وأحيانا ، يكون هذا (الموقف) دون الحسبان ، وقس على هذا ابتداء من أزمة المساكن فى مصر الى مشكلة الانارة الى مشكلة الحرب مع اسرائيل ! كان عبد الناصر ، يفتقر الى الاستراتيجية العلمية ، التى تجعله يتحرك و « يتكتك » وفقا لنظرية علمية ثورية ، ونحن نعلم علم اليقين من تاريخ ثورات الشعوب ، أنه ليس هناك ثورة تتقدم بدون نظرية ثورية تحدد الاستراتيجية والتكتيك ، وعلى هذا كانت تنقصه النظرة العلمية التى تجعله يدرك قيمة الربط بين الظواهر ، فكريا وجدليا ، ماديا وتاريخيا ... ورغم أنه كان ينادى بالعلم ، وبالاشتراكية ، الا أنه كان يتحرك على أرض تجريبية بحتة ، وما كان يسميه بالاشتراكية كانت تحكمه علاقات الانتاج القائمة على الرأسمالية الوطنية . وكانت مشكلته منذ البداية ، أو هدفه ، انشاء جيش قوى للدفاع عن سيادة البلاد ، وأظهرت الأحداث أنه لا سبيل للحصول على المساعدة فى هذا الشأن من بريطانيا أو فرنسا ، ولذلك لجأ الى « واشنطن » ، لكنه بعد فبراير ١٩٥٥ أحس بخيبة الأمل فى أمريكا ، خاصة بعد إنشاء « حلف بغداد » المعادى لمصر ، ولم يكن من بد الا الاتجاه الى موسكو والدول الاشتراكية ، لشراء السلاح ، وعلى هذا تمت العلاقات بين مصر والسوفيت ، بل والمعسكر الاشتراكى منذ ذلك التاريخ . وهذا جعل مصر تقع فى منطقة الصدام بين الدولتين العظميين . فقد أحس الغرب ، أن هذا سيساعد على تغلغل النفوذ الشيوعى الى المنطقة ، بينما أحس الاتحاد السوفيتى أن هذا يقربه من مصالحه فى الشرق الأوسط وافريقيا . وخلال العديد من المعارك الوطنية ، والاقتصادية ، والفكرية ، مرت مصر بالعديد من المواقف فى عهد عبد الناصر

حصلت خلالها على العديد من المكاسب والتغيرات فى كافة المجالات والتى لا يستطيع أن ينكرها أحد : فى مجال التصنيع ، فى مجال الفكر ، فى مجال الزراعة ، فى مجال العلم والاعلام ، وفى المجال القومى والخارجى .. لكنها خسرت ، أيضا ، أشياء عظيمة كان من الممكن أن تساعدها فى التقدم اكثر ، خسرت الديمقراطية والحريات فى تلك الفترة ــ التى أودت بالكثير من أعز أبنائها ، مثلما صفت ثورية رجال كان من الممكن أن يكون لهم دورهم الطليعى فى تطور الحركة الثورية على أرض مصر وفى المنطقة على مختلف المستويات (فى السياسة ، فى العلم ، فى الفكر) . كان عبد الناصر يرى أن « القيادة » ، قادرة على استلهام آمال الجماهير وأحلامهم ورغباتهم ، ومطامحهم ، وتعبر عنهم ، لكن هذا يلغى منطق التطور ، ويلغى مفهوم (الثورة) وارتباطها البيولوجى والفكرى بحركة الجمـاهير . كانت أيديولوجية عبد الناصر ، ومن واقع فلسـفته التجريبية ، ومن منطلق تفكيره ومواجهته للواقع ، تمثل الفئات الاجتماعية المتوسطة ، التى تبدأ من « الوطنيـة » ، وتتقارب بصـورة تدريجية من مجتمعـات مثل : « يوغوسلافيا » ، و « الهند » .. وكان يسمى هذا الفكر وانتقـالاته بـ « الاشتراكية » ، والعلم لم يعرف الا نوع واحد من الاشتراكية هى « الاشتراكية الماركسية ــ اللينينية » القائمة على المادية الجدلية والمادية التاريخية ، حتى « اشتراكية يوغسلافية » ، يختلفون عليها فى ذلك ويسمونها بـ « التيتوية » ، لأنها تختلف مع المفهوم الأممى للاشتراكية . وقد تطور عبد الناصر فى أعقاب ١٩٦١ تطورا واضحا ، واتجه الى كل المجتمعات الحديثة ، وحاول أن يغير من مصر الى الافضل ، بل ويغير من فكره هو ، أيضا ، لكن كان الوقت قد مضى ، فقد استقطبت معظم العناصر الثورية للمثقفين والمفكرين ، وكانت تناقضات الواقع قد وصلت الى مرحلة بالغة الخطورة ، أدت بها الى ما حدث فى عام ١٩٦٧ . فقد كانت الهزيمة ، نتاج طبيعى لفلسفة الفكر التجريبى ، ولانعزال القيادات عن الجماهير ، ولنمو فئات عليا جديدة ابتدأت تستفيد ، أساسا ، من الثورة وتخنق الفئات

الشعبية والكادحة ، هذا الى جانب غياب الديمقراطية الحقيقية عن الواقع المصرى .. كل هـذا الفكر أدى الى هزيمة ١٩٦٧ ، والى ما حدث من حرب الأيام الستة ، وما أعقبها من سنوات المرارة والأحزان والخراب ، والتى ظلت تتوه مصر فى ضبابياتها حتى حركة التصحيح التى تمت بين يومى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، والتى كان (أكتوبر العظيم) نتاجا طبيعيا لها ..

وكل الدراسات والكتب التى نشرت عن حرب ١٩٦٧ وما أعقبها من سنوات المرارة والهزيمة ، تؤكد .. أن مصر لم تكن مستعدة للحرب . فقبل قيام الحرب ببضعة أسابيع خفضت ميزانية الحرب ، وتوقف العمل فى المنشآت العسكرية (سـواء منها ما هو متعلق بالمطارات ، أو بالخطوط الدفاعية فى سيناء) . هذا الى جانب أن القيـادة العسكرية ، لم تكن مؤهلة التأهيل الكافى (علميا ، وتكنيكيا) لمواجهة حرب شاملة ، لأن الفريق محمد فوزى ، نفسه ، لم يكن قد مارس فى حياته عملا عسكريا واحدا ، اللهم عمله فى رئاسة الكلية الحربية ، وهو عمل ادارى أكثر منه عسكريا ! ولم يكن هناك من كان يتوقع نشوب الحرب (خاصة فى صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧) ، لأن غرفة العمليات فى القيادة العامة أغلقت قبل ذلك بيوم واحد (فى ٤ يونيو) ، ولأن قيادات الجيش ، كانت كلها فى الطائرة صباح الاثنين ٥ يونيو متجهة مع المشير « عبد الحكيم عامر » الى سيناء لتفقد حالة القوات المرابطة هناك ، هذا الى جانب أن عددا لا بأس به من الضباط والمقاتلين ، كانوا يسهرون فى حفلة ترفيهية عامة ليلة الخامس من يونيو فى قاعدة من قواعد الدلتا .. وحتى جمال عبد الناصر كان يهدد وينذر بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ويسخر تارة من المستر ايدن أو من موشى ديان ، ويلقى بتهديداته المختلفة ، وهو مصمم على أن تتلافى مصر الضربة الاسرائيلية اذا ما حدثت الحرب ، وهذا أمر مستبعد ، لأن روسيا كانت تؤكد ذلك وتعطى الضمانات لذلك ! وتبعـا لذلك ، كانت القوات المسلحة المصرية فى حالة اطمئنان ، ولا تتوقع أى هجوم ،

وحتى وهى تقف على أهبة الأستعداد ، كان يدور الحوار الداخلى بين صفوف الجيش ، أن أمر الهجوم من جانب اسرائيل أمر غير متوقع وبعيد عن الأحداث ، وأن المسألة لا تخرج عن كونهـا مناورات وتهديدات فحسب !

وعندما عقد جمال عبد الناصر مؤتمر القـادة فى الثانى من يونيو ، وحضرته كل القيادات العسكرية وعلى رأسها المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، والفريق محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة ، والفريق محمد صدقى محمود قائد السلاح الجوى ، والفريق أنور القاضى رئيس هيئة القوات المسلحة ، واللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية ، والعميد محمود فهمى مدير مكتب المشير للشئون البحرية ، واللواء على عبد الخبير ، والعقيـد محمود طنطاوى . . كان تقييم الموقف يتأرجح بين اتجاهين : اتجاه يرى هل تبدأ اسرائيل أم لا ؟ واذا كانت تنوى بالفعل ، فما هى التدابير التى يجب اتخاذها لتلافى الضربة؟ والاتجاه الثانى ، كان يرى أنه اذا هاجمت اسرائيل ، هل تكون وحدها ، أم أن أمريكا ستكون الى جوارها مثلما حدث فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ؟ ورد جمال عبد الناصر على كافة الاحتمالات ، وقال ، أن لديه من التأكيد العظيم ، ما يعطى الثقة فى استحالة هجوم اسرائيل ، وأن التحرك العسكرى المصرى قد حقق أهدافه المرجوة ، وحتى ، وعلى فرض ، أن هاجمت اسرائيل ، فان ردود الفعل السوفيتية ستكون رادعـة وعنيفة ، فموسكو لن تقف مكتوفة الأيدى أمام أية ضربة على مصر بأى حال من الأحوال . وعلى ضـوء هذا ، واسـتنادا الى التأكيدات التى أعطاها عبد الناصر للقيادات، حدث « الاطمئنان العظيم » داخل صفوف العسكريين بل أن عبد الناصر قد أعلن ، أيضا ، فى مؤتمر آخر ، عقده فى أواخر مايو ١٩٦٧ فى « أبو صير » ، أن اسرائيل تثرثر كثيرا ، وتهدد كثيرا ، لكنها لا تجرؤ على اعلان حرب شاملة ، لأنها تعرف أن ذلك سيؤدى الى مضاعفات

لا قبل لها على مواجهتها ، وقال ، أيضا ، بالحرف الواحد : « تلاحظون دون ريب أننا حشدنا قواتنا فى سيناء ، ولم تجرؤ اسرائيل على أن تحارب وكنا قد صعدنا نشاط الفدائيين ولم تحارب كذلك . وهناك قوات عراقية بدأت تتجه الى سوريا والأردن ، ومع ذلك لم تحارب اسرائيل .. وفى اعتقادى ان اغلاق خليج العقبة لن يكون سببا كافيا لكى تحارب » .

ولما حدثت الحرب ، فوجىء بها عبد الناصر .. مثلما فوجئت بها القوات المسلحة ، ولم يتحرك الاتحاد السوفيتى لا فى اليوم الاول ، ولا الثانى ، ولا الثالث ، ولم يقف اطلاق النار على الجبهتين المصرية أو السورية أو على جبهة الأردن ، الا بعد أن حققت اسرائيل كل ما تريد ، وبعدما حدث أو قارب أن يحدث ذلك ، تحركت الدولتان الكبريان : الاتحاد السوفيتى ، وأمريكا ، وعندما توقف اطلاق النار ، كانت الهزيمة قـد تمت تماما لمصر . وخلال تلك الأيام ، كان الشعب المصرى ، والشعوب العربية عامة ، تحيا اقسى اللحظات وضراوتها ، فرغم أن الهزيمة كانت واضحة ، فان « الاعلام » كان يكذب ، وكانت « الصحف » تكذب ، و « الاذاعات » تكذب ، و « التليفزيون » يكذب ، ويجعل الجماهير تحيا فى شـبه « متاهة » ، حتى لما حدثت الهزيمة وأحس الناس بها تماما ، أطلق عليها « نكسة » !!

●

كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، نتاجا طبيعيا لفكر ما قبل حرب ٦٧ ، فعلى المستوى المادى والاجتماعى والفكرى ، هو الذى أدى الى هذه الهزيمة . عدم وضوح منهج علمى ، عدم وجود استراتيجية جادة ، الخضوع للمنهج التجريبى ، تزييف الاعلام والفكر والثقافة ، الخضوع لقدريات وعنتريات الماضى ، كل هذا عزل مصر عن منطق متغيرات العصر ومستحدثاته ، وكل هـذا أيضا ، جعلنا نستخف باسرائيل ، ولحسب أنها ضعيفة ، وأنها هى نفس العدو الذى واجهناه فى حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ ، لكننا فوجئنـا بالصدمة الكبرى : اننا نواجه بعدو متقدم ، له استراتيجيته العلميـة ،

ومنطقه العسكرى والسياسى العصرى ... وبالتالى ، فوجئنا ، نحن ، أننا خدعنا ، خدعنا بالفكر التجريبى وقدريات الماضى ، وبتأكيدات واهيـة نابعة من مصالح الدول الكبرى ، ووجها لوجه وجدنا انفسنا فى اسـار الهزيمة .. !

●

كتبت صحيفة الـ « ديلى ووركر » فى يونيو ١٩٦٧ ، وبعد هزيمة حرب الأيام الستة ، تقول :

« لا أحد ينكر ، لا فى مصر ، ولا فى الشرق الأوسط ، ولا فى العـالم كله ، أن هزيمـة مصر فى أقل من اسـبوع على المستويين السياسى والعسكرى ، كانت لها أسباب جوهرية ونحن عندما ننشر هذه الاسباب لا نمالىء اسرائيل او نختلف مع مصر ، فنحن نتحرى الحياد الكامل والموضوعية الشديدة فى عرض معلوماتنا ، لان هذه المعلومات سيعترف بها التاريخ ، وسيعرفها المصريون أنفسهم ، ربما بعد اشهر ، ربما بعـد سنوات ، وفى تقديرنا ، أن هذه الأسباب تكمن فى خمسـة عناصر أساسية ، ووفقا للدراسة التى قام بتحقيقها قسم دراسات الشرق الاوسط فى صحيفتنا ، وهى كالتالى :

✻ أولا : الاصرار على الاحتفاظ بوجهة نظر واحدة ، وجمود الفكرة الثابتة ..

بمعنى أن القيادة المصرية ، وعلى رأسها جمال عبد الناصر ، قد اعتمدت على معلومات ووثائق ثابتة عن العدو وعن الوضع بشكل عام ، مما كان له انعكاسه على تحركاتها العسـكرية والسياسية . فقد اعتمـدت على معلومات مخابراتها العسكرية الناقصة ، والتى كانت تستقيها من مصـادر عفوية ، ووفقا للمنهج الكلاسـيكى فى المخابرات .. وكان جماع هـذه المعلومات مصدرها السفارات المصرية فى اوربا ، وبعض المعلومات الواردة من بيروت وعمان وقبرص .. ولم يكن هناك معلومات مستحدثة عن اسرائيل

التى لم تتطور فقط عسكريا منذ ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠ ، بل تطورت أيضا من ١٩٦١ حتى ١٩٦٣ ، ولنفس عام ١٩٦٧ كانت اسرائيل ، قد وصلت الى مرحلة عالية من التسليح الحديث الذى يعتمد على اسلحة وآليات متقدمة ـ هى أحدث نتاج وافراز الثورة التكنولوجية المعاصرة . على حين كانت مصر ، تعتمد على السلاح الشرقى ، وفى معظمه سلاح دفاعى ، وحتى هذا السلاح لم تكن مصر قد تدربت عليه تماما ، لأن السوفيت لم يكونوا يسمحون بالاستقلالية للقيادات العسكرية فى العمل ، حتى لا يجىء يوم ويستغنون عن خدماتهم (فالسوفيت ، من صالحهم أن تطول الحرب ، ومن صالحهم أيضا ، أن يبقوا فى مصر ، قريبا من مصالحهم العسكرية وقريبا من أسواقهم الاقتصادية والفكرية فى شمال افريقيا وافريقيا والشرق الأوسط) . وقد بلغ من جمود الفكرة الثابتة فى مصر ، ان عبد الناصر ، نفسه ، كان يرفض أى معلومات جديدة ، فهو لديه أفكارا مسبقة ، ولديه تأكيدات من جانب السوفيت : انهم الى جواره يقفون فى أى أزمة ، وان قطع الاسطول السوفيتى تتحرك فى البحر المتوسط لتعضيد مصر وحماية شواطئها اذا ما أقدمت اسرائيل على أية ضربة ، بل وبارك بريجينيف جمال فى تصرفاته حيال اغلاق خليج العقبة ، وقال له بالحرف الواحد « هذا يكفى ، الآن ، تكتيكيا ، فاسرائيل من المستبعد أن تتهور ، خاصة وأنها تعلم بموقفنا حيالكم » . وعندما سأل عبد الناصر قواته العسكرية عن الوضع ، قالوا له : « كل شىء تمام » .

فقال لهم : « مجرد اطمئنان .. فانا أستبعد أن تقوم اسرائيل بأى عمل »

وفى حديث دار بين عبد الناصر والسفير السوفيتى فى القاهرة ، قبل قيام الحرب بأربعة وعشرين ساعة ، سجله « سامى شرف » ، جاء الحوار التالى :

« عبد الناصر : أخشى ان تتهور اسرائيل !

السفير السوفيتى : لا .. اطمئن تماما . معلوماتنا . تقول أن هـذه مجرد مناورات . مناورات فحسب ...

عبد الناصر : نحن غير قادرين على مواجهة أمريكا فى الوقت الحالى ، وأنت تدرك ماذا أعنى ؟

السفير السوفيتى : بالطبع .. وموسكو على علم واضح بذلك

عبد الناصر : يعنى . الوضع مؤمن ؟

السفير السوفيتى : تماما والا لما قلت لك هذا . ان مصالحكم مصالحنا يا سيادة الرئيس . أتذكر مقابلتنا صباح السابع والعشرين من مايو ، فى الأسبوع الماضى ، عندما كنتم على أهبة قصف القواعد الجوية الاسرائيلية فى ايلات والنقب لجس نبض اسرائيل ومعرفة ما ترمى اليه ... ؟

عبد الناصر : أذكر هذا طبعا !

السفير السوفيتى : ماذا قالت موسكو ؟

عبد الناصر : طلبت الغاء هذا الهجوم ، وألغيته على الفور ، وأنت تعلم هذا ...

السفير السوفيتى : لان هذا يعطى مبررا لاسرائيل للاعتداء ، ويحرجنا فنحن لا نريد أن نتدخل بهذه الكيفية ، ولا نريد أن تفرض علينا حرب كونية شاملة . ان رأى موسكو واضح ..

عبد الناصر : أعرفه .. يكفى اغلاق خليج العقبة ، ولا داعى للذهاب الى أبعد من هذا ، ومن المستبعد أن تهاجم اسرائيل ، وحتى اذا حدث وجنت فموقف موسكو معروف ... »

ووفقا لهذا ، وكما نرى ، يتضح جمود الفكرة الثابتة ، التى تعتمد على « أرضيات ستاتيكية » ، لا تقبل متغيرات الظروف ، ولا تضع

الاحتمالات وفقا لمنهجيات علمية .. وهذا ــ كما يبدو ــ احدى قسمات الفكر المصرى فى هذه المرحلة التى أدت به الى مأساة يونيو ٦٧ .

* ثانيا : تعدد القيادات واختلاف وجهات النظر داخل القيــادة المصرية ... ولا أحد ينكر أن الحرب أو خطورة المرحلة التى مرت بها ، كانت تستوجب مزيدا من الانضباط والتجميع ، وهذا الشىء لم يكن متوافرا لا فى القيادات السياسية ، ولا حتى فى الجيش ، الذى تنازعته عدة أجنحة ، وهذا بدا واضحا أثناء حرب الأيام الستة ، فلم يكن هناك قائد واحد ، هذا الى جانب تعدد الآراء واختلاف الاتجاهات ، مما تسبب فى ضياع الالاف المؤلفة من أبناء مصر ، وكان يمكن حقن دماءهم ، لو كانت هناك حكمة ، أو اتجاه واضح ..

* ثالثا : الحرب عمل ســياسى فى الدرجة الأولى . فعنــدما وقف عبد الناصر فى الأسبوع السابق عن حرب الخامس من يونيو ، كان عليه أن يتريث ، وألا يتمادى فى منبرياته وخطبه ونذيره ووعيده ، فمن الحكمة السياسية ألا تكشف أوراقك ، وحتى اذا كان وراء ظهرك أحدث الاسلحة وأشدها فتكا ! هل تظاهرت اسرائيل ، وهددت ، مثلما هدد عبد الناصر ؟ أبدا ، تظاهرت بالضعف ، وبدت (كالحمل) الوديع ، وهذا ما أكسبها التعاطف الدولى وهى تحارب وتحقق مكاسبها العسكرية ، وبهذا نرى أن الحرب سياسة فى الدرجة الأولى ــ المسألة التى تستوعبها القيادة المصرية أبان حرب الأيام الستة وما سبقها من أحداث ..

* رابعا : الحرب فن وعلم ، تخضع لمنطق تطورات العصر ، فحرب ١٩٦٧ غير حرب ١٩٤٨ أو ١٩٥٦ ، من حيث فنيات الحرب ، ومستحدثاتها الآلية .. والحرب كما نعلم ليست عددا وكما ، بقــدر ما هى استيعابا لمستحدثات آليات الحرب وفن الحرب الحديثة .. ففى زمن تغيرت فيه المدرعات والطائرات والصواريخ ، لم تعد الحرب «حرب مائة مليون عربى» فى مواجهة ٣ مليون اسرائيلى ! لا .. هذا فهم خاطىء ! كان على القيــادة

المصرية أن تدرك تطور المدرعات التى لديها القدرة على الاختراق الخاطف ، والطائرات المتطورة التى تصل الى سرعة الصوت أو أكثر من سرعة الصوت، والصواريخ التى ألغت المسافات الغــاء كاملا . وكان لابد من الاعتراف ، وليس هذا استسلاما ، بل منطق السياسى الحكيم ، بقوة اسرائيل وحجم موقفها العســكرى . كانت اسرائيل متفوقة على مصر فى كافــة الأسلحة تكنولوجيا وفنيا . وكان ذلك التفوق العسكرى أو درجة التكافؤ بين مصر واسرائيل كانت كالتــالى : ١ الى ٩ ، بمعنى اذا كانت مصر تمتلك طائرة واحــدة ، فاسرائيل لديها تسعة ، وقس على هــذا ، مع اضافة التطور التكنولوجى الذى كان فى صالح اسرائيل ، لأنها أدركت أن الحرب علم وفن ، بينما فى مصر كانوا يقولون : « اننا مائة مليون عربى ، واسرائيل قطعة أو شوكة صغيرة داخل هذا الجسد الكبير ، سنبتلعها ، سنغرقها » ، ونسوا أن شوكة حادة اذا ابتلعها الجسد ، لقضت عليه ، وأماتته ! ليس من المهم أن تبتلع « الشوكة » بقدر ما هو مهم كيف تتخلص منها ، أو تقضى عليها ، أو تتلافها اذا لم نكن على استعداد ...!

* خامسا : الخطأ فى الحساب ، والتسليم بمنطق القوة والتهديد ، فى عالم حضارى تحكمه العديد من القيم والأخلاقيات فى الحرب والسلم .. فمن غير المعقول أن تقف دول أوربا المتحضرة ، أو حتى آسيا ، أو أفريقيا ، الى جوار دولة تهدد بالحرب ، وتنذر بالدمار دولة من الأقليات ـــ حتى لو كانت هذه الأقليات مرفوضة ـــ فماذا يحدث عندما تشاهد عشرة من الرجال الاقوياء يواجهون شابا أو امرأة ، أو طفلا ؟ ستنجمع أى عدد من الرجال الأشداء ، لتقف الى جوار (الضعيف) ، وهذا ما حدث فى حرب الخامس من يونيو . وقفت الشعوب المتحضرة الى جانب (الأقلية) التى تواجه رعبا عظيما يتمثل فى مائة مليون عربى ، وحتى برغم ما أصاب مصر من خراب وخسائر فى الأرواح ، فان الرأى العام العالمى انحاز الى (الأقلية) لأن نفس منهج الاعلام المصرى ، كان بأكاذيبه وافتراءاته ، يروج لأسطورة

وهمية ، « ان مصر تضرب اسرائيل ، وتحاربها بكل ما تملك ، حتى تقضى عليها ، أو تلقى بها فى البحر » .

من خلال التحليل والعرض الذى قدمته صحيفة الـ « ديلى ووركر » نصل الى نوع من الرؤية ، لما كان يدور ، ولما كان يحيط بمنـاخ حرب الأيام الستة من ملابسات وظروف فكرية وسياسية وعسكرية .. والذى كان يتابع المعركة عن قرب ، يحس بمرارة ما كان يدور حقا على أرض بلادنا فالمأساة الكبرى التى أحسها « المواطن المصرى » ، وبالذات « الرجل العسكرى » ، انه لم يحارب ، ولم يعط حتى الفرصة ليطلق الرصاص أو يشارك فى « حلبة البارود » ، وحكم عليه بالفشل ، تماما كالذى لم يقتل ولم يسفك دما ، وحكم عليه بالاعدام لأنه قتل ! وهذا (المواطن) ـ أو هذا (المقاتل) ، يذكرنى ، حقا ، ببطل كافكا [1] : (جوزيف ك) ، أو بكافكا نفسه ، فهو يشبه بطله الى حد كبير الذى سيق الى المحاكمة ، دون جريمة اقترفها ، أو دون دم لوث به يديه ، وعليه أن يثبت براءته ، فهو مدان سواء أراد أو لم يرد ! كذلك كان « المواطن » ـ أو « المقاتل » المصرى فى أعقاب حرب الأيام الستة من يونيو ١٩٦٧ ، ممزقا من الداخل ، مهترئا حتى الأعماق ، لأنه لم يمسك بندقية ، وحكم عليه بالهزيمة ، هذا المواطن ، أنا وأنت ، وكل مصر ، بكوا داخلهم ألف مرة وهم يتنفسون أحزان الهزيمة فى صمت ، فمن كان يرفع عقيرته ، كان مصيره كمصير بطل كافكا نفسه : الاعتقال ، أو السجن بلا حدود !

وفى تقديرى ، وليس هذا مبالغ فيه ، ان مصر عاشت سجينة منـذ حرب يونيو ١٩٦٧ حتى سقط جدار الخوف عن كاهلها ، عاشت سجنها

---

(١) فرانزكافكا ، هو الكاتب التشيكوسلوفاكى ، الذى ولد فى أواخر القرن الماضى وعاش بدايات هذا القرن ، وعاش مأساة وطنه ، وهو يرزح تحت عبء سيطرة الامبراطورية النمساوية ـ المجرية . وهو من مواليد براغ فى عام ١٨٨٤ ، وقد عاصر أحداث الحرب العالمية الاولى وقيام ثورة أكتوبر الاشتراكية فى روسيا عام ١٩١٧ ، وكتب العديد من الأعمال الادبية العظيمة ، وكان فى مقدمتها (المحاكمة) وكتبها بين عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ ...

مرتين : مرة لأنها هزمت ، ومرة أخرى لأنها لم تكن تملك القدرة على مقاومة هذه الهزيمة أو تشارك في اسقاط أغلالها ... !

●

سبتمبر ١٩٧٠

الأيام الأخيرة من سبتمبر ....

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ :

الشمس شعاعاتها البنفسجية تتكسر على طرقات ودروب وحوائط البيوت في شوارع القاهرة الواسعة والضيقة ... أوراق الاشجار الصفراء بعد صيف ملتهب تتساقط في كل مكان ... على أرض الطرق ، وفوق السيارات والمركبات ، وعلى رؤوس العشاق الذين ما عادوا يبتسمون .. فالكل يسيرون مطرقي الرؤوس ، حزانى ، حيارى ، مهترئى النفوس ، مزقهم أكثر من صيف ملتهب . ولكن في هذا اليوم ، كانت المدينة صامتة على غير العادة ، وكأنه الصمت الذى يسبق العاصفة ، أو كأنه اللاكلام الذى يسبق النشيج والبكاء والعويل ...

وقبل أن تأفل الشمس ، وتختفى في ذلك اليوم الريب ، سقطت ورقة ومعها سقط رجل عن الوجود ، علت أنفاسه فجأة ، ثم خبا عن الحياة ، بعد أن عاش بيننا أو من عمر الثورة المصرية ثمانية عشر عاما .. وقالت بعض الصحف اللندنية والأمريكية « ان جمال عبد الناصر قد تسلل الى منطقة الظل ، وانه بعد ١٨ عاما من حكم مصر ، اختفى نجمه ، لكنه سيظل في قلوب العرب بحيا طويلا » ، بينما كتبت مجلة « الصنداى تايمز » : « ان مصر ، والعرب بفقدهم لعبد الناصر فقدوا رمزا عظيما ، فقدوا الثورة ، والأمل ، ولا بد أنهم سيحسون بالحزن طويلا على هذه المأساة » ...

وانطلقت في شوارع القاهرة الصرخات لتعانق البكاء ولتصنع بحرا عظيما من الأحزان الغريبة الغامضة ، وكأن الشعب كله ، أو الأمة بأسرها

كانت تترقب لحظة البكاء فبكت كما لم تبك فى حياتها . ما كاد خبر وفاة جمال عبد الناصر يطير الى الشوارع والبيوت ، ويعلنه الراديو والتليفزيون ووكالات الانباء ، حتى خرج الناس فى الشوارع والطرقات ، ولم تأت الساعة الحادية عشر مساء الا وكانت القاهرة كلها دمعة كبيرة ، تبكى المأساة وتنتحب ، ألما وجرحا ... وكانت الجماهير ، رجالا ، ونساء ، شيوخا وشبابا ، أطفالا وعجائز ، يولولون ، ويصرخون فى الطرقات :

مات عبد الناصر !

والكثيرون ، أذهلهم الخبر . بل أصابهم بالصدمة . فلم يصدقوا فى البداية ، أن عبد الناصر من الممكن أن يموت كأى انسان . كانوا يعتقدون ، أنه من الممكن أن يسقط نجم من السماء ، ان تختفى الشمس لعام أو اكثر أن يأفل القمر لشهر أو شهرين أو أكثر ، ان يجف نهر النيل .. لكن ، أن يموت جمال عبد الناصر ، فهذا ما لم يخطر ببال أحد أو حسبانه ، فقد كان عبد الناصر كأله ، أو هكذا استطاع أن ينصب نفسه الها فى النفوس ، وخلال فترة هيمنته على الحكم ، ومن الطبيعي أن تأتي للبشر وتقول لهم : الهكم مات ! فيشدهون ، بل يصل بهم الأمر الى أن يعتقدوا أن مسا من الجنون قد أصابك !

كان وقع الخبر على الجميع أليما .. حقا

كان موت عبد الناصر فجيعة كبرى .. حقا

الكل بكوه : الكبار والصغار ، الرجال والنساء

الكل بكوه : اليمين ، واليسار ، والوسط .

أشد الناس التصاقا به بكوه ، وألد أعداءه بكوه ، أيضا .

بكى عبد الناصر ، مصر ، والعرب ، وكل الذين تعاطفوا معه فى كل مكان من العالم ..

ولم تنم القاهرة ليلة مماته . كانت قطعة كبيرة من الحزن الملتهب ...

لقد شاهدت القاهرة ، وهى تحترق ، ليلة ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، لكننى أبدا ، لم أحس بفزع الناس ومخاوفهم وهلعهم مثلما أحسست ليلة ٢٨ من سبتمبر الحزين ..

وفى يوم تشييع الجنازة ، تحولت مصر عن بكرة أبيها ، الى دمعة كبيرة مرة ، وبحر أحزان هادر بلا حدود ... كل مصر بكته ، وبحرقة ، وكنت واحدا منهم ، بين كل الذين ساروا فى موكب الحزن الغريب ...
لماذا .. ؟

سألت نفسى ، كثيرا :

ــ لماذا ؟ لماذا بكت مصر عبد الناصر بهذه الحرقة ، ولم تبك هزيمتها الأليمة فى حرب الأيام الستة من يونيو ١٩٦٧ ؟!

سألت نفسى هذا السؤال ألف مرة ، وظل السؤال يلح على طويلا ، ولسنوات ، حتى وأنا أعد هذا الكتاب ، وربما وجدت الفرصة سانحة ، الآن ، لأصل الى بعض الاجابة على هذا « السؤال » الكبير . فهذا السؤال ليس من اليسير الاجابة عليه ، وانت مثلى تدرك معنى هذا .. فالاجابة على هذا السؤال تعنى الاجابة على كثير من الموضوعات التى ترتبط بنفسية وتكوين هذا الشعب العظيم ، الذى عانى الكثير من الويلات والفواجع والضغوط بمختلف صنوفها ... فهذا الشعب العظيم ، عاش المرارة والجرح لأكثر من ستة الآف سنة ، انه كالسقاء الذى يحمل قربة الماء وينوء بها ظهره المجروح من كثرة الضرب بالسياط وعليه أن يحث الخطى ويمشى حتى لا يضيع « الماء » ، ولا ينسكب .. كان الشعب المصرى المقهور ، المغلوب على أمره ، يحمل هذه (القربة) ويمشى على أرض من الأشواك ، وكان من المفروض ألا يصرخ ، ولا يبكى ، ولا يعترض ، ولا يقول (لا) بل عليه أن يبتسم ويقول دائما (نعم) ... وفى تقديرى ان جمال عبد الناصر قد مات فى يونيو ١٩٦٧ ، رغم أنه دفن عام ١٩٧٠ .. وفى تقديرى ، أيضا ، ان البكاء الذى كان من المفروض أن يصير انهارا فى ١٩٦٧ ، تأجل الى

موكب جنازة عبد الناصر ... فقد كانت « الجنازة » فرصة عظيمة للانسان المصرى ، والعربى ، فى أن يبكى ، وبمرارة ، وفى حرقة ... ربما لم تبك مصر هزيمة يونيو ٦٧ ، لانها لم تملك الفرصة للبكاء ، وفوجئت بالأكذوبة الكبيرة ، أكذوبة « الوهم العظيم » و « الفكر الهائل » ، الذى أوصلنا الى ما حدث من مأساة حرب الأيام الستة من يونيو ٦٧ .. ومن فرط المأساة ، ومن قسوة الصدمة ، لم يبك الناس ، فقد كانوا يحتاجون الى الوقت الكافى ليبكوا ، وتسقط دموعهم ... وكانت جنازة عبد الناصر ، فرصة سانحة لهذا البكاء العظيم .. وعبد الناصر ، أول مصرى حكم مصر ، فكل من سبقه من الحكام فى مصر الحديثة ، لم يكونوا من المصريين الخلص ، كانوا من الأرناؤوط أو الجراكسة أو الأتراك ، وكل العائلة الملكية تنحدر من الأتراك ، ومن قبل العائلة الملكية ، توافد على مصر الكثير من الغزاة الذين كانوا يحاولون طمس الشخصية المصرية ، وعزل الشعب عن الحكم، لكن عبد الناصر مع زملائه من الضباط الأحرار عندما قاموا بثورة يوليو ٥٢ ، وقضى على الملكية والاقطاع والاحتلال ، وحاول أن يغير من خارطة مصر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، عندما فعل ذلك ، ونجح فيه الى شوط بعيد ، فعله أولا من منطلقه هو كفرد ، كـ (بطل) ، ثم ثانيا لـ (مصر) . فقد كان ينطلق من الفكر البونابرتى ، كسلوك ، وأخلاق، وتفكير ، وتكتيك .. فنابليون بونابرت ، عندما عاد من مصر الى فرنسا فى أكتوبر ١٧٩٩ ، أخذ يرقب الأمور عن كثب ، وقال لنفسه « ان الكمثرى أصبحت على وشك النضوج » . فقد أختير فى حكومة القناصلة التى كانت تضم سييس عضـو حكومة الادارة فى باريس ، مثلما كانت تضم : كامبا سيريس ، وسييس ، وديكو ، وكان لكل من هؤلاء القناصلة اختصاصاته ، وكان على نابليون أن يتخلص منهم فى خبث وذكاء حتى ينفرد بالسلطة ،

ويحقق أطماعه ومطامحه (١) .

وهى نفس « اللعبة » ، التى حذا حذوها عبد الناصر ، عندما قام مع زملائه من الضباط الاحرار بالثورة ، تخلص من محمد نجيب ، ثم من كل مناوئيه فى مجلس الثورة ، سواء بالابعاد أو الاقصاء أو بـ (التخلص النهائى) ... وعندما تخلص عبد الناصر من مناوئيه فى السلطة ، ابتدأ يتخلص من مناوئيه داخل البلاد ، أى من المثقفين الثوريين والشعبيين ، على اختلاف مذاهبهم ! ومثلما أعلن بونابرت : « انا أولا ، ثم فرنسا ثانية » ، ونصب امبراطورا فى عام ١٨٠٤ ، وتحـرك من منطلق تحقيق حلمــه فى تكوين امبراطورية واسعة النطاق على غرار الأسكندر واباطرة الرومان القدماء ، كان عبد الناصر ، يتحرك ، أيضا ، ومن نفس المنطلق ايكون امبراطوريته من المحيط الى الخليج ، بل كان يطمح الى أن تحتوى هذه الامبراطورية بعد ذلك اجزاء كبيرة من دول العالم الثالث ، وبينها قارة افريقيا واجزاء كبيرة من آسيا ! ومثلما قال بونابرت عندما هزم ، فى معارك الروســيا الضارية ، وبالذات معركة بورديتو عام ١٨١٢ على يد الجنرال الروسى كوتوزوف ، مسح الدموع من عينيه وهو يجرجر أذيال الخيبة عائدا الى

---

(١) بعد فرار نابليون بونابرت من مصر فى اكتوبر ١٧٩٩ ، ووصوله الى باريس ، اخـذ يرقب الامور من قرب ، وفكر فى احداث انقلاب بالاشتراك مع سييس ــ عضو حكومة الادارة او حكومة القناصل ، وقررا فيما بينهما ان يستغلا مجلس الشيوخ ، وكانت الاغلبية منحــازة لحزب سييس ، الذى حاول أن يقنع الجميع بنقل السلطة من باريس الى ضاحية سان كلود ، بحجة وجود مؤامرة لقلب نظــام الحــكم ، واتخــذ مجلس الشيوخ قراره هذا فى صبيحة (١٨ برومير) ــ لذلك سمى ذلك الحدث بانقلاب برومير (٩ نوفمبر ١٧٩٩) ، وبه ، أو من خلاله ، تكونت حكومة مؤقتة من نابليون وسييس وديكو ، ومن خلالهم وضع دستور القنصلية ، ووضعت السلطة فى يد ثلاثة قناصل تساعد القنصل العـام ، وهؤلاء الثلاثة هم : كامباسيريس (من اليعاقبة) ، ولبران (من الملكيين) ، وسييس وكان نابليون يخشــاه كل الخشية ، ولم يمض وقت طـويل حتى عرف بونابرت كيف يتخلص منهم واحــدا تلو الآخر ، حتى ينفـرد بالسلطة ، ومن خلال خططه وتكتيكاته تمكن من تغيير الدستور ، باصــدار دستور جديد هو دستور ١٨٠٢ الذى يكفل له الحكم مدى الحياة ويجعل كل الســلطات فى قبضته . وفى عام ١٨٠٤ ، توج نفسه امبراطورا على طريقة الرومان ، بحضور البابا ، وبدا توسـعاته كامبراطور يحلم باتساع امبراطوريته !

فرنسا ، قال بونابرت أثناء ذلك : « لقد هزم بونابرت ! » ، ولم يقل : « هزمت فرنسا » ! تماما كان عبد الناصر ، عندما هزمت مصر فى يونيو ١٩٦٧ ، لم يقل « هزمت مصر » ، بل قال : « هزم عبد الناصر » ، وتحول الى كتلة من الاعصاب المتوترة ، ولم يستطع أن يكظم غيظه أو يسكت أحزانه ، ووصل به الامر الى أن يعلن تنحيته عن السلطة ، هذا فى الوقت الذى يعلم فيه علم اليقين أن مصر مهـددة بالغزو والاحتـلال ، وأنه بين القاهرة واليهود فى مواقعهم بالسويس والاسماعيلية ليس أكثر من ساعة ونصف يقطعونها بالسيارات ! لكن حركة ٩ و ١٠ يونيو ٦٧ ، أجبرته على الرضوخ ، وأجبرته على الاستمرار ، على الرغم من أنه كان محزونا على أحلامه ومطامحه التى بدأت تذرها الرياح .. وأمام اصرار الجماهير على « تكملة المشوار » ، لم يستطع عبد الناصر الا أن يستسلم للرغبة الملحة ، فلم يكن أمامه حل آخر ...

حقيقة ، لا أحد يستطيع أن ينكر أن عبد الناصر ، قد استطاع ، أن يتقدم بمصر على كافة المستويات ، وغير من بنيان مصر الفوقى والتحتى ، وغير من الخريطة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية لمصر ، ونقلها من مجتمع قبلى يعتمد فى علاقاته الانتاجية على الاقطاعية وشبه الاقطاع وقوى الاحتلال والاسـتعمار الاجنبى الى مجتمـع قائم على العلاقات البورجوازية والممثلة للرأسمالية الوطنية وقوى تحالف الشعب التى تعتبر ممثلة بحق لثورة البورجوازية الوطنية ، بل وحقق العديد من المنجزات الوطنية والقومية (داخليا وخارجيا) ، وربما هذا ما جعل الناس ، يبكونه أيضا ، فقد كان مخلصا فى تنفيذ مهامه ... وان كنا نختلف مـع منطقه التجزيبى ، واغفاله لأهمية الحريات والديمقراطية وفعاليتها فى حماية الثورة الوطنية ، فاننا ، لا يمكن أن نغفل دوره الوطنى المتعاظم ، فقد استطاع السير بالثورة البورجوازية ، خطوات وخطوات ، وتحقيـق العديد من منجزاتها الثورية ، لكنه لم يستطع تأكيد الاستقلال القومى وتثبيت دعائم

المكاسب والانجازات التى قام بها، لانعزالها عن حركة المد الثورى للجماهير التى كانت تعانى من القهر فى الحريات ولا تمارس شرعيات الديمقراطية الحقيقية ..

بكى الناس عبد الناصر ، كبطل وطنى ، ورمز ثورى ، صنع الكثير من المنجزات القومية والوطنية ، وكمصرى وكعربى حكم مصر بعد سلسلة متوالية من غياب (حكم المصرى) عن السلطة .. وأيضا ، بكى الناس عبد الناصر ، لتلك (العشرة) الطويلة ، التى قضاها معنا أو التى قضيناها نحن معه ، ونحن شعب تتميز بالوفاء والعشرة ، وليس من السهل أن نودع حتى (غريبا) قد فعل لنا خيرا . فما بالك بعبد الناصر ، الذى فعل الكثير ، وارتبط بالعديد من الذكريات بالنسبة لمصر منذ طلائع الخمسينات الى مشارف السبعينات .. وشعبنا ينظر الى الفراق ، أو الوداع ، على أساس انه موات . فما بالك بالموت نفسه ؟! ان الفلاح المصرى فى قرانا ، لا يطيق فراق ابنه ، عندما يذهب ليتلقى تعليمه فى المدينة أو البندر ، أو ليذهب ليعمل فى بلد غريب ، وتبكى الأم فراقه وكأنه لن يعود أبدا ، وحتى عندما يقبل الابن على الزواج ، تبكيه الأم وكأنه سينزل عتبات القبر ، تبكيه فى حرقة بينما الزغاريد تختلط بطلقات الرصاص ، وتهمس الى نفسها محزونة : (يا حبيبى يا ابنى .. دية أخر العشرة) ! .. وقد أحس الشعب المصرى ، بفراق رجل مصرى ، صنع له الكثير ، بل الكثير جدا ، وعاش فى ضميره وداخله ثمانية عشر عاما ، بخطبه ، بكلماته ، بصوته ، بأفعاله ، بمنجزاته ، بملامحه كلها ، حتى خطواته ، حتى طريقة ابتسامته ، حتى سخريته فى بعض الأحيان ، ومن الصعب على الشعب أن يحس انه فقد كل هذا فى لحظة .. فالأباء والأمهات ، بكوا فيه ابنا لهم عمره ثمانية عشر عاما .. والأبناء ، أحسوا ، بفقده ، أنهم فقدوا أباهم الذى عاشوا فى كنفه قرابة العشرين عاما ! .. ثم أن القدماء المصريين ، لهم فلسفتهم وعقيدتهم فى الموت والفراق والاغتراب ـــ وهذه الفلسفة ، تمثل مزاجا خاصا داخلنا ،

حتى أن العلامة الألمانى (استندروف) قد قال عنا فى ذلك « ان المصريين القدماء ، يحتفلون بالموت ، اكثر من احتفالهم بالدنيا نفسها ، فهم يتزوجون الأرض من خلال المقابر ، بينما لا تمثل الحياة نفسها بالنسبة لهم نصف هذه البهجة التى تجرى فى العالم الاسفل ـ والذى جاءت تعاليمه فى كتاب الموتى القديم » .

فنحن نهتم بـ (الموت) ، أكثر من اهتمامنا بـ (الفرح) ، وقديما ، كانوا يبكون (الفرعون) بدمـــوع غزار ، ولست أدرى ، لمـــاذا ذكرتنى جنازة عبد الناصر ومصر تشيعه بما قرأته عن مواكب دفن وجنازات الفراعنة الاقدمين ، وبينهم : خوفو ، ومينا ، ورمسييس الثانى ؟! بكى المصريون القدماء هؤلاء (الملوك) ، لا لجلالهم أو عظمتهم أو ألهيتهم أو جبروتهم ، بقدر ما كانوا يعبرون فى بكائياتهم هذه عن لواعج أحزانهم ومتـــاعبهم وآلامهم وضغوطهم ... رغم (السخرة) العظيمة ، التى كانت تثقل كاهلهم ، كانوا يبكون (الفرعون) وينتحبون ويدمعون ، ويولولون عليه كثيرا فى جنازاته ... كانوا يبكون (الفرعون) والكثير من أجسادهم لا زالت تحمل رائحة السوط أو بعض ادماء المقرعـــة ، كانوا يبكونهم بحرقـــة ، تماما كما (السيد) عندما يموت فى القرية ، يبكيه الخدم والحشم والجوارى فى حرقة ، رغم أن أجسادهم ، بل ونفوسهم ، لم ولن يفارقها ابدا ضرب عصيه أو مقارعه أو سياطه ، بل ولم ولن تفارق خدودهم لطمات قبضته ، ولا ضمائرهم ستنسى أفظع الشتائم والسباب التى نالونها منه ! ان الخدم والحشم والجوارى ، يبكون (السيد) فى حرقة ، أكثر من أهله وذويه ، بل حتى أكثر من زوجته وعياله ، عندما يموت ! ! وفى قرى مصر ، على اختلاف ألوانها وطبائعها ، كان العمال وزراع الارض ، يبكون (السيد) ، الاقطاعى ، اذا ما مات ، فى حرقة وألم ، أكثر من أهـــله وعشيرته ، يولولون ويصرخون ، ويضربون الصدور بالاكف بفراقه ، وبذهابه عنهم ، رغم انهم كانوا اكثر من اكتوا بناره وجبروته ! كذلك ، كان احســـاس الكثير من

شعبنا ، وهو يسير فى حزن فى جنـــازة عبد الناصر : البعض يولول ، واخرون يلطمون الخدود ويصرخون ، والبعض اكتفى بالسـير مطرقى الرؤوس فى ألم وكدر وحزن عظيم ، وآخرون انتحروا وتمرغوا فى التراب والوحل ! لكنهم ، لم يبكوا الهزيمة : هزيمـة يونيو ٦٧ ، مثلما بكوا (السيد) !

لكنهم ، لم يولوا السقطة : سقطة يونيو ٦٧ ، مثلما ولولوا وصرخوا بفقدان عبد الناصر !.

ربما لانهم فوجئوا بالهزيمة ....

ربما لانهم لم يملكوا نفوسهم بعدما كانوا لا يتوقعون حدوثه .....

ربما لانهم خدعوا بمـا حدث ، فاصابتهم نوبة من الهسـتريا أو « العبثية » ..

وربما لأن لحظة « الهزيمة » نفسها ، كانت اكبر من البكاء ....

وربما لأنهم لم يجدوا (الجنازة) ، الموكب ، ليسكبوا فيه الدموع ، ويولون فيه جماعة ، جماعة ...

بل ، الغريب ، أن الاحساس بالهزيمة قـد تحول الى نوع من العبثية والسلبية ، التى اختلطت بردود فعل غريبة ، تبعث على التساؤل والغموض مما جعل الكثيرون ، يتخذون مواقفه سلبية ، مما حـدث ويحدث ، لأنهم أحسوا أنهم لم يشاركوا المشاركة الكاملة فيمـا حدث ، أو لم يتح لهم (اللعب) ، فلم يحزنون على (الخسارة) ؟ وعلى حد تعبير الكثيرين من المثقفين أو حتى عامة الناس « احنا ماكناش فى اللعبة . هم حاربوا . وهم انهزموا . احنا ما حملناش السلاح . ولا حتى أخدوا رأينا ! » ! تماما ، كما حدث فى بداية ثورة ١٩٥٢ ، عندما تحرك الضباط الأحرار ، لم تحس الجماهير ، بأنها جزء من هذا التحرك ، وانتظرت كثيرا ، بل وكثيرا جدا ،

حتى تحس بانها (داخل اللعبة) لكنها ، دائما ، كانت تفاجىء بـ (نهاية اللعبة) ! ! بل بلغت المهزلة أقصاها . والسلبية والعبثية ، ذروتها ، عندما كان الكثيرون ينفسون عن أنفسهم بالذهاب الى (ماتشات الكورة) ، أو بالنزعات الهروبية والاغراق فى متاهات العاطفة باللجوء الى اغنيات وحفلات أم كلثوم ... والغريب ، ان الاعلام نفسه كان يشجع هذا ، بل ويدفع الجماهير الى اتون هذه السلبيات ، والمهاترات ، بشكل مثير ، واشترك فى هذا : التليفزيون والاذاعة والصحافة ودور النشر ، على حد سواء ... الكل ، كانوا يروجون للاكذوبة ، وللزيف ، حتى اقتنعوا ، ذات يوم ، انه حقيقة ! ! فكما يقول الكاتب الفرنسى « اندريه جيد » :

« ان ترديد الأكذوبة ، أكثر من مرة ، يقنع مرددها نفسه ، بأنها حقيقة ، ويصفق الناس للاكذوبة والوهم ، ويخدعون بها ، لكن ، للاسف ، تظل الاكذوبة أكذوبة ، فالسخافة التى يرددها ثلاثون مليونا من الأنفس ، تظل رغم ذلك سخافة ، ولا شيء يغير من أمرها .. ! » كانت القيادات ، تشجع كل هذا ، وتبرره ، فكريا وسياسيا واعلاميا ، بل ويقولون « ان لندن كانت ترقص ، ولم تهجر المجون ، وكان الناس يستمعون الى الاغنيات الخفيفة وهم فى الخنادق ، بل كانوا يرقصون ، ويمرحون ، فالحياة لا يمكن ان تتوقف فى ظل الحرب أو فى ظلال نكسة استثنائية » . ونسوا ، أن باريس ، عندما احتلها النازيون ، ماذا فعلت أجهزة الاعلام والمثقفون داخلها ، وماذا كتب اراجوان وايلوار وسارتر عنها فى ذلك الوقت : « نسوا ان باريس لم تكن تأكل القسطل فى الشوارع .. ولم تعد تقوى على الضحك أو الابتسام » ... نسوا كل هذا ، واخذوا يروجون لنوع من « الدعارة الاعلامية » : « مزيد من الكورة ، مزيد من الحفلات ، مزيد من الغناء ، مزيد من الرقص ، ينسى الناس المأساة » ثم ان القيادة ، نفسها ، كانت تحاول أن تضلل الجماهير ، بمحاولة اقناعها ، بأنها لم تهزم ، بل « نكست » .. أى أن ما حدث لم يكن « دما » ، بل « ماء » ، مجرد ان

مصر قد أصيبت بنكسة برد خفيفة ... ! لكن ، بالله ، عليكم ماذا تسمون أمة قد فقدت خلال ستة ايام من الحرب آكثر من عشرين الف شهيد من الجنود والضباط ؟ نكسة ! اذن ، ماذا تكون الهزيمة فى قاموس الحروب ؟! وعلى هذا ، لم تبك ، مصر ، وأيضا ، لم تبك أبناءها الذين ماتوا بالالاف فى سيناء والسويس والاسماعيلية وبور سعيد ، لأن أجهزة الاعلام فى الأيام الأولى كانت مستمرة فى بياناتها الكاذبة الرخيصة « وقعنا ٢٠ طائرة » « وصلوا ٤٥ » ، « اصبحوا ٦٥ » ، « وصلوا الى ٨٥ » ، « أصبح الرقم ١١٢ » ، وهكذا ... كان الكذب ، على مختلف مستوياته ، فى السلاح ، فى القتال ، فى المواقف ، فى كل شىء ... ! وبرغم أن الجماهير لم تبك أبناءها فى الأيام الأولى من حرب يونيو بسبب تضليلات القيادات ، الا أنها عندما تعرفت على الحقيقة ، كل الحقيقة ، بذكائها ، بكتهم فى الداخل ، وكان هذا آكثر مرارة ، وآكثر تمزقا ، واكثر احتراقا ، فما أعظم واكبر ان يبكى الناس فى داخلهم ، وما أمر أن تتسلل الدموع الى مكان قريب من القلب وتتكوم فى أسى ، وتصيب المرء بنوع من المزق والاهتراء والجرح العظيم ، الذى يصل أحيانا الى حد الصمت ...

لكن هذه الدموع ، ربما وجدت الفرصة ، مواتية ، لتتفجر فى (جنازة) عبد الناصر ، فهى (الفرصة السانحة) للبكاء ، وهو (السيد) ، وهو (السبب والعلة) ، ثم ان الناس اصبح فى مقدورهم ان يبكوا بلا خوف ، فمن كان يدرى ، ربما كان البكاء فى ١٩٦٧ ، وخلال يونيو ، نتـائجه عظيمة وكبيرة ، ربما قادك البكاء الى السجن أو الاعتقال ، من كان يدرى ؟! هل تذكر هتلر ، هل تذكر هيمنتــه على الامور ، وديكتاتوريته الفردية القاتلة ، ان أول شىء فعله الناس عندما عرفوا أنه مات ، اشعلوا سجائرهم واخذا يدخونها فى بحبوحة ، الا يعنى هذا نوعا من الحرية ..

نفس الشىء مارسه شعبنا ، بكى ، بحرية ، أيضا ، دخن أحزانه كما ينبغى وبلا مخاوف فقد مات (السيد) ... !

بكت مصر عبد الناصر فى جنازته ، أو بكت مصر فى خريف ١٩٧٠ ، وكان من المفروض أن تبكى عبد الناصر فى يونيو ٦٧ .. فكما قلت ، أن بكاء مصر على أبنائها قد تأخر ثلاث سنوات ، مثلما تأخر دفن عبد الناصر ، أيضا ثلاث سنوات ، فقد مات فى أعقاب الهزيمة ولم يدفن ، مثلما مات الأبناء وتأخر البكاء والحداد على أرواحهم الطاهرة .. ! ثلاث سنوات من الجرح العظيم ، عاشتها مصر ، فى ضراوة ، بلغ خلالها الحزن قمته ، والهزيمة ذروتها ، وأحس المصريون أنهم يتساقطون من الداخل مع تساقط أوراق مصر فى الخريف بعد صيف قاسى وكان البكاء والعويل والحزن والدمع ، تجسيدا وتعبيرا عن مأساة شعب بأكمله عاش القهر ، عاش المعاناة ، عاش الضغوط ، عاش السـجون والمعتقلات والارهاب والتنكيـل ، وحرم من حـرياته وديمقراطيته ، ولم يجد حتى الحرية ليبكى مأساته من كثرة التخمة بالعذاب والألم والجراح ، ولأنه لم يجد الفرصة ليتنفس الصعداء من عناء الضرب والتنكيل ، كالسقاء الذى يحمـل القربة ولا يملك أن يريح نفسـه من (السيد) ، أو من ضياع الماء ...

فى القرية ، يقولون .. لقد سقطت جاموسـة أبو سويلم فى البئر ، فى الدالتون ، ومات طفل أبو سيد فى طوخ دلكه ، ومرضت فتحية فى مزغونة بالحمى ، وغرقت ست أبوها فى ترعة الباجورية أو القاصد .. بل وحرقت أجران القمح فى دنشواى .. بل وفقدت شون القمح بكاملهـا فى صندفا الفار ببنى مزار ، لكن الناس ، أبدا ، لم يبكوا ، فقط ، أصابتهم الصدمة والدهشة والصمت .. فقط ، بكوا ، عندما لفظ (السيد) أنفاسه ، وغاب عنهم .. والسيد ، فارس من بنى مر ، من أقاصى الصعيد ، خيال يجيد اللعب ويحاول أن يكون عادلا ، لكنه ابدا ، لا يريد أحد أن ينازله أو ينافسه ، واذا أحس بذلك ، (اصطاده) فى عتمات عيدان القصب أو الذرة فى عتمـات أغسطس ، وغيبة عن الوجود ، وحتى لو أدى الأمر الى أن يحرق شونه وأجرانه ، فهو لا يريد أن يناوئه أحد ولا يعنى هذا انه ليس فارسا ، انه

فارس بونابرتى أصيل ، يجيد ركوب الجياد ، لكنه لا يريد منافسا ، ولذلك لا يتردد أن يفعل أى شيء من أجل أن يقضى على مناوئيه .. حتى لو احترقت الأجران الكبيرة والشون الكبيرة فى مصر .. لا يهتم ! فقط يصاب بالحزن والخـزى ويردد : لقد ولى عهد الفروسية ، وهزم الفـارس ، ما بال الزمان .. ؟ ! واحترقت مصر فى صيف ملتهب من عام ٦٧ ، وهزمت هزيمة نكراء .. كل شيء هزم ، الفكر ، الثقافة ، الثورية .. المثقفون تم تدجينهم ، الثوريون تم خصيهم ، الأزمات والندامات والولولات باتت من قسمات مصر فى منتصف الستينات وما أعقبها من سنوات المرارة .. لكن المصريين ، لم يبكوا ، فقط ، بكوا ، عندما مات عبد الناصر فى خريف ٧٠ ، وساعتها ولولوا ، ومزقوا الثياب ، ولطموا الخدود . .

بكت مصر ، كل شيء فى جنازة عبد الناصر : الأمل ، والحلم ، والوهم ، والأكذوبة .. الثورة ، والطموح ، والخديعة ، والجراح .. بكت نجاحاتها التى تحققت ولم تكتمل ، وشتات ومزق هزيمتها التى أوصلتها اليه الأكذوبة والوهم والخديعة ..

بكت الأحلام الوردية والازهار السامة . بكت الازهار المتفتحة والحيات التى سعت لتذبل هذه الازهار بهزيمة ١٩٦٧ .. وبكت مع كل هذا أسرارها الغامضة الحزينة التى لم تكشف عنها .. كانت مصر كايزيس التى بكت فقدها أوزريس وتمزق أشلاءه ، فكانت من دموعها نهر النيل ـ ذلك الحزن ، أو الفرح الغامض ، الممتد ، على ضفتيها منذ آلاف السنين .. قال هيرودت ، ان مصر هبة النيل ، وقال آخرون أن الثورة ، هبة عبد الناصر .. وأنا أقول أن مصر دمعة ايزيس الكبرى ، وان الثورة أوصلها عبد الناصر الى دمعـة كبرى فى يونيو ٦٧ بانعزاله عن الجماهير وبضربه للحريات والديمقراطيات الشعبية .. !

ألم تقـل الأسطورة الفرعونية القديمـة . ان ماء النيل ، ومصر ، وخصوبتها ، وعطائها ، كان من دموع ايزيس ؟ كذلك ، كانت مصر وهى

تبكى ، وتولول فى الشوارع باحثة عن شتاتها ومزقها وجراحها ، تستنجد تبحث ، تبكى خريف ثورتها ، تنوح أوراق سبتمبر الصفراء ، وقد كان هذا البكاء ، بمثابة نذير ، واستشراف وبحث عن خلاص من الجرح الذى منيت به مصر ، وظل ينزف سنوات وسنوات بالمرارة والحنظل والصديد .. وتردد الحزن ، واكتمل فى جملة ، ثم فى شعار ، ثم فى مسيرة ، ثم فى تجمع للصفوف : « حانكمل المشوار » .. أى أن المسيرة لن تتوقف ، بفقد (فارس) ، أو بسقوطه عن الجواد ، بل ان فارسا جديدا ، سيبدو فى الأفق تفرزه طبيعة المرحلة ، لأن قيما عظيمة ونبيلة لا زالت تدب وتتردد ، وتنمو ، وتمتد داخل هذا الشعب ، الذى يقف على أرض حضارية يزيد عمرها عن ستة آلاف سنة ــ وهذه « الأرض » ، قادرة ، دائما ، أن تعطى أخلص وأخصب وأنبل ما فيها من قيم وأفكار ومعتقدات .. وهكذا ، بدت الدموع وليست نهاية ، بقدر ما هى بداية .. بداية للاغتسال والتطهر من جراح الماضى ، واستشراف لغد مشرق ، يفتح الطريق امام مصر لتتجاوز هزيمتها ولتمضى الى ما يعوضها عما حدث ، بل يقفز قفزات كبرى الى الأمام ، وعندئذ تعود الروح لتحرك الجسد الهائل ، ليعطى ويعطى قدراته ومكنوناته التى لا تقف عند حد .

كانت الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ ، مفاجأة ، وصدمة ، لكن موت عبد الناصر وتشييع جنازته بعد هذا بثلاث سنوات ، كان قمة الأزمة وذروة الجرح . اهتزت مصر كلها ، فى دمعة عظيمة ، امتدت عبر قرانا وكفورنا ومدننا ، مثلما امتدت الى كل أرض عربية ..

●

الخوف ... !

كان الخوف .. هو كل شيء !

النظر الى الكتب ... خوف ! أن تمتد يدك لتقرأ ماركس ، أو هيجل أو ماوتسي تونج ، أو لينين ، أو جاكســون ، أو ليو شاوشي .. أو حتى جوركي ، أو شولوخوف ، أو جاك لندن ، أو فوتشيك ..

خوف !

النظر الى الأصدقاء .. خوف !

النظر الى ما يقال حولك والاستماع اليه .. خوف !

النظر الى رئيسك في العمل ... خوف !

النظر الى القمر .. خوف !

النظر الى الشمس .. خوف !

لا تنظر وراءك ، حتى ولا أمامك ، حتى لا تغضب (النظام) ! العيون تلاحقك ، أينما حللت واينما ذهبت .. التليفونات تراقب وتسجل المكالمات على أشرطة .. وسواء كنت طالبا في الجامعة ، أو موظفا في مؤسسة ، أو عاملا في مصنع أو شركة ، أو حتى وأنت عضوا في مجلس الأمة أو داخل التنظيم السياسي ، كانت التقارير تترى وتكتب عنك .. ويكفى أن ترفض (سلوكا ما) ، أو تقول كلمة (حريات) ، أو تقول كلمة (ديمقراطية) ، أو تطالب بحرية الصحافة ، أو تطالب برفع الأحكام العرفية أو الظروف الاستثنائية ، فترتفع كمية التقارير عنك ، ويقال عنك : (يسارى) ، أو (شيوعى) ، أو .. وهذا الخوف ، قد يصل بك الى أن يطرق بابك (زائر الفجر) ، ويقول لك: « أنت مطلوب .. يا دوب كلمتين ، وترجع » ، وتفتش شقتك ، بدون اذن ، أو بدون حرمة لأى شيء ، ثم يصطحبونك الى « شارع خيرت » ومن هناك « ترحل » ، الى احدى السجون والمعتقلات ... ربما معتقل أبو زعبل ، أو القلعة ، أو ليمان طرة أو سجن مصر أو القناطر ، وربما الى معتقل المحاريق

بالواحات الخارجة فى الصحراء الغربية ... ومن يدرى ، هل تعود بعد عام أو ثلاثة أو خمسة أو أكثر ؟ من يدرى ؟ ! . .

فالكثيرون ، لم يعودوا .. وتوهتهم ماكارثية الخمسينات والستينات فى عتمات النسيان أو فى قبر من القبور .. وبينهم « شهدى عطية الشافعى » الكاتب والصحفى ومفتش اللغة الانجليزية الذى ناضل وكتب العديد من الدراسات والكتابات الوطنية البارزة ، وبينها كتابه « تطور الحركة الوطنية المصرية : ١٨٨٢ ــ ١٩٥٦ » ، والذى يعرض لتطور الفكر القومى والحركة الوطنية فى فهم واع .. أو « محمد عثمان » ، الذى لقى حتفه من جـراء التعذيب .. و .. و .. و . ! ! ! وعشرات ، بل ومئات ، كانوا يضربون على أدمغتهم وظهورهم وبطونهم بالعصى والهراوات ، أو يعلقون فى «العروسة» ليجلدوا بالسياط حتى تتفصد ظهورهم دما !

وقد أخذ هذا « الخوف » ، الكثير ، بل والكثير جدا من أبناء مصر ، ومن عمرها الوطنى .. وذلك ابان « المرحلة الماكارثية » ، التى سادت مصر فى الخمسينات والستينات ، الى أن سقط جدار الخوف بحركة التصحيح فى ١٤ و ١٥ مايو من عام ١٩٧١ .

●

كانت تجربة « الناصرية » ــ أو المرحلة السياسية والفكرية والاجتماعية التى سادت مصر فى الخمسينات والستينات ، على المستوى الايديولوجى وفى الممارسة العملية ، تجربة متميزة ، تفردت بخصائص وقسمات واضحة ، حتى أنه يبدو من الصعب مقارنتها بتجارب البورجوازيات الوطنية التى عاصرتها .. مثلا ، لا يمكن مقارنتها بتجربة اندونيسيا وحكم سوكارنو ، ففى أندونيسيا كان الاتجاه « متفاهما » مع الغرب الى حد ما ، وكان رأس المال الأجنبى ، يجد مكانا عاليا له فى أرجاء البلاد ، كذلك ، لم يضرب الاقطاع بشكل نهائى فى الريف . . بينما تميزت البورجـوازية الوطنيـة بالاستقلال وعدم الانحياز ، والوضوح فى السياسة الخارجية « لاغربية ..

ولا شرقية » ، هذا الى جانب قيامها بتحقيق منجزات الثورة الوطنية ، التى استطاعت ان تسير بمصر خطوات متقدمة على كل المستويات ، ولولا غيبة الحريات والديمقراطية ، لكانت هناك امكانيات أوسع لمزيد من التفجرات الثورية ولما عانت الثورة ما أوقعها فى تيار الانحسار الذى أوصلها لظروف ١٩٦٧ (من هزيمة فى الداخل ، وفى الخارج ، أيضا) ، ولما افتقدت السياج الشعبية التى كان من الممكن ، لو أفسح لها المجال لشاركت بوعيها الناضج فى حماية المكاسب والمنجزات الوطنية الى أبعد شأو . وعندما تعرضت التجربتان : التجربة الأندونيسية ، والتجربة المصرية ، للامتحان القاسى ، أثبتت المواقف قدرة التجربة المصرية على الاستمرار ، رغم ما منيت به من ظروف ضارية أوصلتها الى حرب الأيام الستة وظروف هـزيمة ١٩٦٧ وما أعقبها من سنوات مريرة ، بينما التجربة الأندونيسية انحسرت وتقوضت تماما . . .

والناصرية ، كفكر وعمل ، كعقيدة وممارسة ، كانت تنطلق من الفكر التجريبى ، الذى لا يعتمد على منهجيات واستقراءات علميـة ، رغم ان شعارات الناصرية كانت دائما تنادى بالعلم ! وهذا ليس بغريب ، فكل الفكر المثالى كان فى شعاراته ينادى بالعلمانية ، رغم أن منهجه وفكره يعتمدان أساسا على المنطق الشكلى والاغراق فى متاهات تبعد عن النظرة العلمية فى تفسير معطيات الوجود وفى علاقة الانسان بالأشياء من حوله . وهذا الفكر التجريبى ، الى جانب الخط الماكارثى الذى أبعـد تطبيقات ومنجزات الثورة عن حركة الجماهير والمثقفين الثوريين ، الى جانب سيطرة العديد من العنـاصر والقيادات الانتهازية على مواقع الفكر والاجهـزة الاقتصادية والسياسية والعسكرية .. كل هذا قاد البلاد الى الحالة التى أوصلتها الى يونيو ١٩٦٧ .. الى الفكر الانهزامى والظروف الانهزامية التى عاشتها مصر بعد حرب الأيام الستة من يونيو ، وعاشتها كذلك الأمة العربية ، الى أن قامت حركة التصحيح وقادت البلاد الى الفكر الذى انتصر ، وكانت لنتائجه حرب أكتوبر التى غيرت لا مصر أو العرب سياسيا وعسكريا وفكريا ، بل

غيرت الخريطة العربية حضاريا فى الداخل والخارج ، وكان هذا التغيير منطلقا للتصحيح على كافة المستويات : عسكريا ، وسياسيا ، واجتماعيا ، وفكريا واعلاميا ، وفى اطار الانطلاق والتغير الذى تم فى ميزان علاقة مصر بالعالم الخارجى . .

انالفكر التجريبى والمثالى ، المبنى على القدريات ، والروح الفردية والنظرة الماكارثية ، هو الذى قاد مصر والمنطقة العربية الى ظروف الانحدار والهزيمة ، بينما الفكر العلمى الذى تمثل معطيات العصر وأنطلق من أرض منهجية موضوعية واستوعب كل متغيرات عصرنا هو الذى قاد الى انتصار أكتوبر وما أعقبه من انتصارات ومنجزات وطنية وديمقراطية وثورية — هذا الفكر الذى انطلق مع ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، والذى قاده أنور السادات، والذى سمى فى البداية « بحركة تصحيح » ، لكنه فى الحقيقة « ثورة » على كل الأوضاع ، فكرا ، وعملا ، يستهدف السير بمصر الى دولة العلم والايمان ، من أجل مسايرة متغيرات العصر حضاريا وفكريا وسياسيا ، لتحقيق الرخاء والرفاهية والعدالة للانسان المصرى ، لذلك نسميه بـ « ثورة التصحيح » ، ومن منطلق هذه الثورة قامت مصر من « كبوتها » ، وغيرت واقعها على كافة المستويات ، ودخلت معارك أكتوبر الضارية فى ١٩٧٣ ، وحققت المهام العسكرية الكبرى والتى من خلالها استعادت مصر روحها ، وعبرت الى نفسها من جديد ، وقامت لتبنى ، وتشيد ، وتعوض ما فات على كافة المستويات (فى الداخل ، وعلى المستوى القومى ، وفى اطار العلاقات الخارجية) .. وتشارك فى كل منجزات العصر كدولة متحضرة ، تنجز مهام ثورتها ، لتحقق مهام ومنجزات الثورة الوطنية الديمقراطية فى الداخل ، ولتحل تناقضات القضية العربية والتى كانت سببا فى التهاب الشرق الأوسط منذ حرب ١٩٤٨ حتى ١٩٧٣ ، ولتوسع من رقعة وحجم علاقاتها مع العالم على أساس من التعاون السليم ، ولتشارك فى حضارة عصرنا فكريا وعلميا وسياسيا وتعوض ما فاتها نتيجة الظروف غير الطبيعية التى عاشتها مصر قبل مايو ١٩٧١ ..

الفصل الرابع

التصحيح: حركة اجتماعية وسياسية.. أم ثورة شاملة؟

((هناك فرق بين حركة اجتماعية ، أو حركة فكرية .. وبين كلمة : (ثورة) .. والفرق كبير ، فالحركة الاجتماعية او الراديكالية تتسم بالاصلاح العادى ، أو التغيرات الطفيفة على حين أن الثورة تغيير كامل فى البنيان العلوى والتحتى للدولة ، تغيير فى علاقات الانتاج المادية والاقتصادية ، وتغيير ، أيضا فى البناء الفوقى ، فى مجال الفكر والثقافة والعلم ، وهذا التغيير ، من شأنه أن ينقل الناس من مرحلة متخلفة ، الى مرحلة متطورة اقتصاديا وفكريا وحضاريا .. من خلال هذا نسمى ما يحدث : ثورة ..))

الكاتب والمفكر الفرنسى : هنرى لوفافر

خلال أربع أو خمس سنوات بعد هزيمة حرب الأيام الستة من يونيو ١٩٦٧ ، عاشت مصر فترة من أكثر فترات عمرها ظلاما ، على كافة المستويات .. فقد كانت « الهزيمة » تسرى وتسلل الى كل نفس . فقد فجعت مصر فى كل آمالها ، وما كان يتردد من أحلام تبخر وانحسر ، وسادت فترة من الضبابية وعدم وضوح الرؤية جعلت الناس يتساءلون : الى أين ؟ وجعلت الكثيرمن المثقفين، يتساءلون : أين الطريق .. من جديد ؟ وانقسم المثقفون على أنفسهم الى عدة تيارات ، تنوعت واختلفت على حسب جذورها الفكرية والاجتماعية . وكانت التيارات التى تمثـــل مرحلة ما بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، على النحو التالى :

* أولا : تيار رافض ، لكل ما حدث ، لأنه على أساس غير علمى ، فقد كان كل شيء يتحرك وفقا لتجريبية بحتة ، وكان هذا التيار تمثله الاذهان الشريفة ، التى كانت تنادى قبل عام ١٩٧١ ، بأهميـــة الاستفادة بالمتغيرات وبالعصر ، لاقامة مصر من جديد ، والتخلص من سنوات الهزيمة ، وكان لا بد لهذا التيار من القيام بعملية تطهير واسعة للتخلص من كل العقليات التى قادت مصر لهزيمة ١٩٦٧ ، حتى يمكن استعادة مصر من خلال الفكر الصحيح ، وقد أفرز هذا الفكر ما حدث فى ١٥ مايو ١٩٧١ .

* ثانيا : تيار يشكك فى كل شيء ، ويحاول أن يبرر ما حـــدث فى ١٩٦٧ ، على أساس أنه خطأ ما ، وكان هذا الخطأ يلقى أحيانا على كاهل السوفيت ، وتارة على العصر نفسه ، وكان هذا التيار يحاول أن يروج لأفكار تنطلق من ان مصر بلد متخلف وبينها وبين العالم المتحضر مئات السنين ، فافاق السبعينات يحياها العالم ، بينما مصر متخلفة فى كل شيء ، وأن ما حدث من هزيمة علينا أن ندركه ، وتتجاوزه . وكان هـــذا التيار

يصعب المسائل ، ودائما ، يضع مصر فى طرف استحالة القيام قبل سنوات عديدة ، ودائما ، يروج لأفكار الغرب فى عالم التكنولوجيا وثورة الصناعة المتقدمة ، وكانت شعاراته أو كلماته تنحصر فى .. « أننا شعب يحسن بناء الحضارة ، وهذا تكوينه وملكاته .. ولست أعرف لماذا يكون هناك تعارض بين شعب يتقن بناء الحضارة ويحسن الدفاع عنها فى نفس الوقت ! » ...

« وبيننا الكثير لكى نلحق بفلسفة الصراع بالقوة ، لكى نظل دائما ضعاف .. ودائما ، كانت هناك عراقيل لكى نلحق بالعصر » .. « نحن مائة مليون عربى ، وهم ثلاثة ملايين اسرائيلى ، ولكى يكون الحساب دقيقا ، فان المائة مليون عربى ليسوا كلهم فى الميدان أو وراءه ، كما أن الثلاثة ملايين اسرائيلى ليسوا وحدهم فى الميدان أو وراءه .. جزء كبير من حشدنا بعيد عن المعركة ، ووراءهم حشد هائل من حركة الصهيونية العالمية ، كما أن وراءهم تأييد من قوة الاستعمار العالمى » .. « ان التفوق التكنولوجى الاسرائيلى أمر لا ينكره أحد ويجب أن نسلم به ، ولا يجدى انكاره ... وامام هذا يجب أن نتغير .. اما أن نجارى تفوقه ، وأما أن نتلاشى أثر هذا التفوق » . وكان يمثل هذا التيار بوضوح مجموعة محمد حسنين هيكل ..

ثالثا : الناصريون .. أو ما يطلق عليهم باتباع الفكر التجريبى ، وهؤلاء فى تقديرى يسيرون وفقا لمرحلة انتهت واستنفذت متطلباتها ويحاولون بشكل أو بآخر ارتداء «قميص عبدالناصر» ، وفكر عبدالناصر وانتصاراته لا ينكرها أحد ، لأنها تمثل جانبا هاما فى حركة التحرر الوطنى من جهة ، وفى دلالات دعائم تثبيت الاستقلال القومى وتأكيده على المستويات الاقتصادية والسياسية والفكرية . ومن ينكر عبد الناصر ومرحلته ، انما ينكر المكاسب التى حققتها الثورة منذ ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ .. وهناك فرق بين التمسك بمرحلة معينة والوقوف عندها وتجميد حركة التاريخ ، وفرق بين رؤية ايجابيات وسلبيات المرحلة التى انتهت لتجاوزها ، بتعميق الايجابيات ، والاستفادة من السلبيات ، للعبور الى مرحلة أكثر نضجا وأكثر تطورا .

* رابعا : اليسار التقليدى . . وهم فلول التنظيمات القديمة ، التى لا زالت ترى فى النظرية الماركسية ــ اللينينية طريقا للانتقال الى الاشتراكية، وتتخذ من المادية الجدلية والمادية التاريخية جسرا أساسيا لتفسير كل شيء وتحديد استراتيجية عامة للمستقبل .

خامسا : بقايا الاخوان المسلمين ، وهؤلاء يرون أن الطريق الوحيد للخلاص هو الثورة الاسلامية ، ولا يمكن استعادة مصر الا بالعودة الى قيم ومعتقدات الفكر الاسلامى منهجا وفكرا وواقعا ، وكل ما عدا ذلك انما يعتبر خروجا ومروقا وانصياعا الى كل ما من شأنه أن يهدم الشرق الاسلامى ..

سادسا : اليمين المصرى .. وهؤلاء عدة أجنحة ، منهم الذين ينتمون الى فلول الأحزاب القديمة ، ومنهم من ينتمى الى أفكار ليبرالية ونظريات ترمى الى الاقتصاد الحر وأفكار اطلاق رأس المال وتوسيع قاعدة الرأسمالية الوطنية « دعه يعمل .. دعه يمر » ...

ويضم هذا اليمين ــ أيضــا ــ مجموعات من الانتلجنسيا المستنيرة ، التى تتميز بسعة العقــل والأفق الكبير ، وما يمكن تسميتهم بـ « فئــة المثقفين المستنيرين » .

* سابعا : اليسار الجــديد .. وهم من الشــباب ، الذين تأثروا بمظاهــرات وموجات الشباب وفوراته ، التى قامت فى أوربا فى أعقــاب ١٩٦٨ ، نتيجة لأفكار هربرت ماركوزا ودوتشيكا فى ألمانيا الديمقراطية . ويطلقون فى أوربا على هــذا اليسار : « اليسار العلمى » أو اليســار الجديد ، وهو يختلف ، تماما عن « اليسار التقليدى » ..

وأى مجتمع بحكم الطبيعة البشرية ، يحتاج الى معيار ثابت ، يشكل ويشارك فى تكوين السلوك اليومى فى الممارسة: أى قالب ، أو شكل، يتلاءم مع متطلبات العصر والواقع الذى يحياه الانسان فى مجتمع ما . والبشر، عموما يحاكون ، فى سلوكهم اليومى هذا « النموذج » ، ويصبح من الصعب ، بل ومن المحال أن يخرجوا عنه ، فهو يرتب لهم سلوكهم ، ويكون لهم

عادات وتقاليد تريحهم نفسيا ، فماذا لو استمروا فى وضعهم العادى ، دون أى تغيير ؟ انهم يسـيرون الى مجتمع نمطى بحت ، لكن طبيعـة البشر أن يتغيروا الى الأكمل ، ومن خلال تمثل قيم جديدة وأفكار جديدة من خلاصة أفكار العصر ، دون العقائدية أو التزمت أو عبادة عقائدية ، ويتحول الواقع الى شباب دائم ، وهكذا تقول شعارات ماركوزا ، وهكذا تنادى شعارات شباب العالم اليوم ..

هذه هى الأفكار ، أو التيارات العامة ، التى ميزت الفكر المصرى فى أعقاب ١٩٦٧ ، وكانت كلها تحس بنوع من الضبابية والشتات والتمزق ، نتيجة الحدث الكبير الذى جعل الناس يحسون بالوهم الكبير الذى عاشوه طويلا ، فكل شىء حولهم وهم وزيف .. مجرد شعارات .. مجرد كلمـات جوفاء .. والحقيقة أنهم هزموا ، وعليهم أن يقاوموا الخـوف والتسلط والقهر ، ليتجاوزا اللحظات المريرة ، ليسيروا من جديد ..

لكن السير يحتاج الى ملامح الطريق ، حتى يبدأ الانسان أولى خطواته والسير فى طريق الألف ميل ، يبدأ بخطوة ..

لكن هذا يحتاج الى تبديد العتمات ، وانقشاع الضباب ، ووضـوح الرؤية .. وهذا ما كانت تبحث عنه مصر وسط سنوات المرارة والضياع : سنوات الهزيمة القاسية ..

●

بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ مباشرة ، بدأت طلائع « التنظيم السرى » ، تتضح داخل المجتمع المصرى . ورغم سـريتها الكامـلة ، الا أن تحركاتها كانت واضحة . وكان يشرف على هذا التنظيم : على صبرى ، وشعراوى جمعة ، وسامى شرف ، وعناصر أخرى من مراكز القوى التى أنهى الرئيس أنور السادات وجودها تماما بثورة التصحيح ..

وقبل أن يمر عام على هزيمة ١٩٦٧ ، عقـدت المحاكمات الأولى فى القاهرة ، لتحاكم « بعض الرؤوس » الذين كانوا فى نظر القيادة هم الأسباب

الرئيسية في الهزيمة ـ أو النكسة كما كانت تسمى في ذلك الوقت .. ! وكان ذلك الوقت ، هو فبراير ١٩٦٨ ، وعلى أثر هذه « المحاكمات » مباشرة ، قامت مظاهرات الطلاب في مصر ، وكانت شعارات المظاهرات تردد بطلب الرؤوس الأساسية في هزيمة مصر ، كانت تطالب بالرؤوس الأولى التي كانت سببا في ضياع مصر ، وكانت هذه المظاهرات التي بدأتها كلية الهندسة بجامعة القاهرة تنفي التهم الأساسية عن « محمد صدقي محمود » وعن الغول ـ أو « عوض الغول » .. ثم تطورت هذه المظاهرات الى ما عرف بمظاهرات مارس ـ أو « مظاهرات الربيع » ، هذه المظاهرات التي طالبت باعدام الجناة الحقيقيين ، وقيل يومها ، أو تردد بين صفوف الشعب ، أن الذين أعدوا هذه المظاهرات من التنظيم السرى ، وكان عبد الناصر في ذلك الوقت خائفا ، لدرجة أن السفير السوفيتي في القاهرة عرض عليه أن يضع تحت تصرفه طائرة خاصة تقله الى خارج مصر ، لكن عبد الناصر رفض واستنكر العرض ، رغم مخاوفه من المظاهرات !

ترى ، لماذا قدم السفير السوفيتي هذا العرض لعبد الناصر ؟ هل كان عرضا شخصيا وتصرفا فرديا ؟ لا أعتقد ، فالسفير السوفيتي يتلقى أوامره من موسكو ، ولا يستطيع التصرف بمحض ارادته لأنه عضو في الحزب الشيوعي ، فهو ينفذ تعليمات اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي بالحرف الواحد ! ألا يدعنا هذا نتساءل ونستفسر عن السبب .. وهل يمكن أن يمر هذا « المطلب » بسرعة على المرء ، وفي ظروف كالتي كانت تمر بها مصر؟ في فبراير ومارس ١٩٦٨ ، وبعد أقل من عام على هزيمة حرب الأيام الستة من يونيو ١٩٦٧ ؟ هل كانت موسكو تريد التخلص من عبد الناصر ، لأنه أصبح على حد تعبير « الناشونال جارديان » (١) : « ورقة محروقة ، لأنه استنفذ تماما ! » ، ولأنها كانت تمهد طريق الحكم أمام مراكز القوى التي تحركت في تلك الأيام وعلى نطاق واسع مكشوف من خلال التنظيم السرى .. ؟

●

(١) صحيفة الناشيونال جارديان : احدى الصحف الامريكية التي تمثل اليسار الامريكي ، أو ما يطلق عليه بـ : الجناح اليساري .

الرجعية .. بلا حدود .

الرجعيـــة .. لا يمكن فهمها الا من خلال تصور ديناميكى لطبيعـــة المعوقات التى مرت على المجتمع المصرى ..

قبل ١٩٥٢ .. كانت هناك تنظيمات سياسية عديدة ، لا تعبر عن آمال الشعب ، بقدر ما تعبر عن مصالح وفئات وطبقات ضيقة ، وكل تنظيم من هذه التنظيمات ، له شكله الخاص، وتاريخه الخاص . ولعل تنظيم «الاخوان المسلمين » مثلا ، من أغرب هذه التنظيمات ، وفى واقع أمره كان أكثرها رجعية ، لأنه كان أكثرها عداء لكل تطور حقيقى ، أو أى تقـــدم يحرزه الشعب . ومن الملاحظ ، أنه بدأ من الأزمات التى مرت بها الأمة كحـــل ديماجوجى . فقد بدأت الفكرة مع أزمة العشرينات ، وبدأ التنفيذ الفعلى مع أزمة الثلاثينات، وتوسع مع أزمة الأربعينات . .

طبيعة ارتباط التنظيمات بالأزمات ، تذكرنا بالتنظيمات الفاشية فى أوربا فقد بدأت هذه التنظيمات ، خلال الفترات التى عجزت فيها « الأحزاب التقليدية » عن الاستمرار ، وكمحاولة ل (سرقة) المبادرة من الأحزاب الاشتراكية وبتأمل الفاشية ــ فى ألمانيا ، وايطاليا ــ أكثر ، يتأكد لنـــا فاشية تنظيم كا (الاخوان) ، فهم يعتمدون على الزعيم الملهم ، الذى لا يخطىء بل اننا اذا تأملنا الصفات التى كانت تغدق على قادة (الجماعة) ، لوجدناها تصل الى مستوى صفات النبوة ! ثم كان التنظيم ، يفترض فى القاعدة ، ايمانا غيبيا ، لا مناقشة فيه للقيادة تحت ستار الدين ! وكالفاشية ، لم يكن للاخوان المسلمين ، معيارا أخلاقيا ، فهم فى سبيل تحقيق أغراضهم ، على استعداد للنسف والقتل والتدمير والارهاب ! ولكن مـــع من كان يقف (الاخوان) ؟ هل كانوا ظاهرة شاذة بين الرجعيين ؟ أبدا .. لقد وقفوا الى جانب الاستعمار طوال تاريخ طويل ، انتهى بهم الى أنهم أصبحوا العملاء الأول للحلف المركزى ! ووقفوا ، أيضا ، مع (النظام) الرجعى ، ابان عهد الملكية .. ومن أجرأ ما قاموا به فى تاريخهم الطويل، عريضة تقدموا بها الى

الملك السابق « فاروق » عام ١٩٤١ ، طلبوا فيها اجبار رجال الدولة على الصلاة ! من هذا تتبين الطابع (الديماجوجى) فى الدعوة ، طغيان الملك لا يهم ، موت الناس نتيجة الاهمال لا يهم ، التآمر مع قوات الاحتلال لا يهم الحياة فى أسوأ مستوى للمعيشة لا تهم .. انما المهم ، هو اجبار رجال الدولة على الصلاة !! وهو أسلوب موضوع ، خصيصا للجماهير ، التى لم تكن تدرك ، نتيجة لغيبة القوى الاشتراكية ، آنئذ ـ حقيقة الأزمة ، وتتلهف الى حل قريب من مشاعرها ..

ولكن ، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، انكشف الاخوان ، كتنظيم ، وكأصحاب دعوة ، فقد كان جل همهم ، هو السيطرة على الحكم ، حتى دون صورة واضحة ، ولا غير واضحة لهذا النظام ، فكل ما كانوا يقولونه فى هذا الموضوع ، كلام عن قطع يد السارق ، ومصادرة الفنون ، واجبار الدين على الناس !

ان (الاخوان) جزء من الرجعية ، التى كانت موجودة قبل الثورة ، والتى حاولت الاستمرار .. ولكنها كانت الجزء الأكثر ضراوة ، والأكثر تنظيما ، والأكثر ديماجوجية . ولذلك ، لم يكن غريبا ، ان يتعاون «الاخوان» ـ عن طريق « سعيد رمضان » وغيره ـ مع الحلف المركزى عن طريق مباشر أو غير مباشر . ولذلك لم يكن غريبا ، أو يحدث التآلف بينهم ، وبين أى رجعيين آخرين ، مثل : « حسين توفيق » وعصابته ، أو قوى الحلف القديم المتساقط ، التى كانت تتمثل فى قوى الاقطاع والرأسمالية : (الأجزاء اليمينية من البورجوازية القومية ، هذا ما أقصده هنا) ، بغض النظر عما اذا كانوا يصومون أو يصلون !! ولذلك ، أيضا ، واتباعا لسياستهم الميكيافيللية (١) ، لم يكن غريبا ، أن « يستعملوا » النساء ، وهم الذين

---

(١) فميكيافيللى ، ينصح « السياسى » : فى كتابه (الامير) ، وهو يوجه كلماته الى كل سياسى من خلاله الى الامير لورنزو دى مدسيس : بأن يتبع كل السبل من أجل الوصول الى هدفه ، ان يضع السم فى كاس خصمه أو الخنجر فى العباءة ، حتى يصل الى ما يريد : فالغاية تبرر الوسيلة ...

يهدفون الى تعطيل طاقات النســاء ! ولم يكن غريبا ، أيضا أن يستعملوا الارهاب ، باسم الدين ! ولم يكن غريبا ، أيضا ، أن يمزقوا القرآن لكى يضعوا فى جوفه مسدساتهم وطبنجاتهم ومدياتهم ! !

ولقد كان الارهاب ، دائما ، وسيلة أكثر الفئات رجعية ، لتطويق الحركات الوطنية والديمقراطية . فالشاب المتعصب ، دينيا ، الذى قتل المهاتما غاندى ينتمى الى نفس المعسكر الذى ينتمى اليه من اغتال الزعيم الأمريكى ابراهام لنكولن محرر العبيد ، والى نفس المعسكر ، أيضا ، ينتمى من اغتال كنيدى خوفا من « أفكاره المقلقة » على الرجعية الأمريكية والصهيونية فى الولايات المتحدة . والى نفس معسكر قاتل جون كنيدى ، وقاتل المهاتما غاندى ، وقاتل ابراهام ، ينتمى حسين توفيق ، وسعيد رمضان .. بل ، وأيضا ، صناع الدم والارهاب والقتل ممن سولت لهم أنفسهم اعادة الاقطاع أو الرجعية كما كانت من قبل ، كما ينتمى ، أيضا ، الى نفس المعسكر كل الرجعيين الذين يحاولون أن يقفوا حجر عثرة فى وجه متغيرات الواقع ومتغيرات العصر : الذين حاولوا ان يتحدوا قوانين ثورة يوليو بالنسبة للمشــكلة الزراعية ، والذين حاولوا التعامل مع فئات أجنبية ، والذين حاولوا الاعتماد على قوى دولية لاشاعة أفكار دخيلة على واقع مصر ، والذين حاولوا ان ينالوا من ثورة التصحيح وما أعقبها من انتصارات أعادت للانسان المصرى كرامته وقدرته على أن يستكمل الطريق ، بلا ضبابية ، وبلا يأس ، وبلاخوف وبلا قهر .. فى قوة ، وفى انطلاق ، وفى استراتيجية ناجحة ، وفى حكمة غير عادية ، والى نفس المعسكر ، أيضا ، تنتمى جبهة الرفض — أو الحقد ، وكل الذين يحاولون أن يقللوا من مسارات ثورة التصحيح ، ومن انتصارات أكتوبر ٧٣ ، ومن التحركات التى أعقبت أكتوبر من أجل حل القضية العربية فى تناقضاتها .. !

●

تصور أن الفكر الرجعى من الممكن أن ينتهى ، تماما ، وبشكل حاسم وسريع ، تصور شديد التفاؤل ، ولا يتفق مع النظرة العلمية للامور . انها

معركة طويلة ، أصعب من المعارك العسكرية والسياسية والاقتصادية ، لأنها معارك داخل العقول والوجدان ، ومحاولة لهز القيم الموروثة . وصعوبة المعركة ، أن الفكر الرجعي (يلبس) أشكالا مختلفة . انه قادر على التخفى والامتزاج ، حتى أنه ليختلط بأكثر الأفكار تقدمية .. وصعوبة المعركة ، أيضا ، تحديد المكان الذى يتم فيه (تفريخ) هذا الفكر ..

ان اليمين ، يحتضن اتجاهين : الفكر الرجعى ، والفكر اليمينى المتنور (أو ما يمكن تسميته بالانتلجنسيا اليمينية المستنيرة) . انه يحتضن الفكر المعادى للمجتمع الجديد ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر دور الفكر اليمينى ، الذى يساهم بقاعدته ـ الرأسمالية الوطنية ـ فى بناء النظام الجديد الذى يسعى الى التقدم والتطور ..

اننا لسنا ضد (اليمين) ، الا عندما يتحجر ، أو يتجمد ، أو يتآمر ، أو يدمر ، أو يفتك ... لكننا ، نفسح المجال أمام (اليمين) ، مادام مخلصا للارض والشعب ، معبرا عن ضرورة ما فى المرحلة التاريخية . اننا لا يمكننا أن نتصور خطا واحدا ، واضحا ، متناسقا . ان هذا ضد الطبيعة ، وضد منطق الأشياء . اننا لا نتصور ـ لاختلاف المصالح والجذور الطبقية ـ تناقضات داخل صفوف الشعب ، ولكنها التناقضات الطيبة التى تختلف ولا تتقاتل ، وفى النهاية تدفع بالمجتمع الى الأفضل .. و «اليمين» وقد يكون يمينا ذكيا ، يفهم طبيعة علاقة المرحلة التى يعيشها ، يرى أنه بوقوفه ضد النماء انما يقف ضد مصالح التاريخ ، وان التاريخ يستطيع أن يقضى عليه ، ولذلك فهو يتحرك فى اتجاه التيار ، ويتجاوب مع مطالب الشعب تجاوبا حيا وأصيلا . ولكن « اليمين » ـ أيضا ـ قد يكون ، يمينا غبيا ، يتصور أنه من الممكن أن يدير عجلة التاريخ ، وفى محاولة لادارة عجلة التاريخ الى الوراء ، يستعمل كل الأساليب ، حتى أسلوب التآمر ، حتى أسلوب الارهاب ، حتى أسلوب الدم !

* ولكن كيف نستطيع أن ندحر الفكر الرجعى ؟ كيف نستطيع ان نحبط كل الأفكار المعادية لحركة المد الثورى فى تقدمها ، وفى استمرارها ،

لبناء المجتمع العصرى الذى ننشده ؟ وبمعنى آخر . كيف نستطيع أن نجهز على كل الافكار المعوقة للايديولوجية الثورية التى تحضن كل جـديد وكل ما هو انسانى وكل ما هو يسعى بمصر الى الامام نحو الأكمل والأفضـل والأسمى ؟

هناك اجابة على هذا السؤال ، قبل أية محاولة للاجابة .. هى القاعدة الرئيسية لانهاء هذا الخطر ، هى انتصار مجتمعنا .. ان هذا هو الوسيلة الفعالة للقضاء على الرجعية ، ويساعد فى هذا الضمانات التى أحاطت بها كل منجزات ثورة التصحيح الرشيدة .. والدور الرئيسى فى بنـاء تنظيم سياسى قوى يواجه كل ما من شأنه أن يعوق التطور ، وفى توعية الجماهير وقيادتها ، يقع على « الكادر السياسى » الناضج ، والثورى ، ومشـكلة « الكادر السياسى » وتربيته وانضاجه مشكلة تبدو ليست بالأمر الهين ، فهى مشكلة مصر ، أو تكاد أن تكون منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فالمشكلة هى أن « نختار » ، و « نربى » عناصر لديها « الثورية » ، و « غير ملوثة » ، وليست لديها أطماع ومآرب تسلقية وانتهازية ، بمعنى أن نختار عنـاصر ثورية خلص ليست لديها الرغبة فى « ركوب » الفرصة لتحقيق أغراضها ، حتى لو كان فى تحقيق هذه الأغراض ما يتعارض مع ثورية المرحلة ومع طبيعة التصحيح الى الانضج والأكمل . .

والكادر السياسى يخلق من خلال جانبين : الأول .. التجربة نفسها . والثانى .. الاعداد والتجهيز والتربية الثورية .. والتجربة تكون بالالتصاق بالجماهير من خلال العمل فى المعارك اليومية ، بالاختلاط بالجماهير ومعرفة مشاكلهم ومتطلباتهم الملحة ، وتفهم مشاكلهم ، ووضـع الحلول معهم ، وتقييم كل عمل ناجح ، وكشف كل زيف من شأنه أن يعوق من متطلبات المرحلة الثورية ..

●

يقول المفكر الانجليزى « بالم دات » ، فى دراسة له عن الرجعيـة المعاصرة ومنطق ثورات العصر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية : « علينا أن

تكشف كل الأفكار المعادية لمنطق التطور والتقدم .. فهناك سلسلة لا تعرف النهاية من الأفكار والسلوك والتصرفات تقفز ، وتخبو ، خلال لحظات الانتصار الثورى لقوى التقدم وهى تصنع مجد الشعوب . وليس هناك سلام دون كشف السلسلة بأكملها ، حتى آخر حلقة فيها ، وخلال ثورات الشعوب التقدمية ، قد يعترض طريقها بعض المعوقات غير الثورية من العناصر التى تستهدف خدمة مآربها الذاتية ، أو ممن يمكن أن نطلق عليهم عناصر الثورة المضادة ، وهؤلاء لا ينتمون الى معسكر الرجعية ، وينبغى التنبه اليهم وعدم التساهل معهم ، لأن أى تساهل معهم ، تسليم بمقدرات الثورة الى الحضيض » . هذا ما كان فى ذهن السادات ، وهو يتلقى مهام منصبه كرئيس جمهورية ، فقد كان يحس أنه قد تسلم قيادة السفينة فى ظروف صعبة ، وسط العاصفة والأنواء وركابها فى حالة اعياء شديد ، وعليه ان يمر بالسفينة سالمة ، ويوقظ النفوس ، من حالات صعبة الى ظروف تسمح لها بمعاودة السير على الطريق الثورى ، من أجل تعويض ما فات ..

وفى الحقيقة أن ما حدث فى ١٤ و ١٥ مايو من تصحيح للأوضاع ، وميلاد للمرحلة الجديدة ، كان له العديد من الارهاصات من قبل ، وكانت له ملابساته وظروفه السابقة . .

حقيقة أن الموقف اتخذ ، وتجسد ، فى (مايو) ، وتغيرت كل الأوضاع من خلاله ..

لكن حضر له من قبل ، وأشار الرئيس أنور السادات ، الى الظروف التى تحكم مصر قبل ذلك ، كثيرا ، وكثيرا ، بل وأعلنها صريحة مدوية ، أن المناخ العفن من شأنه أن يعوق التقدم والثورية ، وأن أى تحرك مضاد من شأنه أن يعرقل مسار الجماهير لاستعادة روحها ، هو نكوص بالثورة ، ولا يستهدف بمصر الا اضافة خراب على خرابها ، ومرارة على مرارتها .. وخلال أكثر من مناسبة ، كان يناقش ما فى داخل مصر من ضمير مستيقظ لتصحو ، وتنهض من كبوتها ، وتستعيد نفسها :

« الآن ، فلنمسح دموعنا ولنتطلع الى المستقبل ، ولنسرع خطانا على الطريق ، ولتكن آلامنا طاقــة ابداع واندفاع ، ولتتحول احزاننا الى قوة ايجابية ، تعوض ، بل تضيف الى تصميمنا وعزمنا على ان نؤكد من جديد مسئولياتنا الجسام والتزاماتنا المقدسة وطنيا وقوميا ودوليا وانسانيا . ان العالم باسره انتظر علينا ، والآن ، انتهت ساعة الانتظار ، وامتنا العربية وقفت بجوارنا ، حتى نتم عبور جسر الانتقال ، والآن جاءت ساعة مواصلة السير ، وشعبنا ظل رابط الجأش ثابتا في انتظار ان نتاهب ، والآن ، ازفت ساعة البدء في الزحف » (١)

وقال ، أيضا ، فى نفس المعنى ، وفى نفس الظروف :

« ان الأيام الماضية في حياتنا ، كانت أيام حزن عظيم ، ولكن هذه الأمة الخالدة ، استطاعت بصمودها الفذ ، أن تحول مشاعر حزنها العظيم الى طاقة قوية عظيمة ، فخرجت من كل ما عانت باسرع مما قدر احد ، وقدرت ، وصممت ، وحسمت .. » (٢)

وفى ذكرى الأربعين لوفاة الزعيم الراحل جمــال عبد الناصر ، قال السادات (فى ٦ نوفمبر ١٩٧٠) : « بدأت الحركة الايجابية ، بما فيها من من امكانيات الصواب والخطأ ، وما تحمله من قدرة العقل أو حدة العاطفة بما يدفعها من رؤى المستقبل أو بما يشدها من رواسب الماضى . ذلك هو صراع الحياة الذى لا نستطيع ــ مهما تمنينا ــ أن ننسى اعتباراته وأحكامه وضروراته ، مهما كان بعضها ثقيلا علينا ونحن نعيش فيه ونعانى تفاصيله

---

(١) قال انور السادات هذه الكلمات فى بيانه العام فى الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب ، بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٧٠ : وبعد وفاة جمال عبد الناصر بـ ٤٢ يوما .. وهو هنــا ، نراه يشير ويركز بشكل واضح على عملية العبور ، للانتقال باحلام مصر الى ما تصبو اليــه ، عن طريق (الجسر) الذى سيتجاوز به هزيمتها وكبوتها ، خلال ايام الهزيمة .

(٢) جاءت هذه الكلمات فى خطاب الرئيس امام مجلس الامة ، بتاريخ ٧ اكتوبر ١٩٧٠ : بعد وفاة جمال عبد الناصر بايام قلائل ...

بينما هى تجرى أمامنا » . وفى تلك الفترة كان السادات يناشد الجماهير بالتجمع والوحدة من أجل تجميعها حول هدف واحد :

« ان علينا وراء جبهة القتال عملا اقتصاديا واجتماعيا لا يجب ان يتوقف لحظة . ذلك انه فضلا عن المعركة ، فانه يجب الا يغيب عنا ان هدف ثورتنا الاصيل هو بناء حياة حرة لشعبنا . ونحن على سبيل المثال لم نبن السد العالى لكى نحارب ، وانما حاربنا لكى نبنى السد العالى . ان معركة البناء الاقتصادى والاجتماعى تتصل من هنا اتصالا وثيقا بمعركة ميدان القتال ، معركة القتال شرف الوطن . ومعركة البناء الاقتصادى والاجتماعى فى وطننا معركة واحدة (١) .. »

وفى كتاب سعيد عثمان « الفكر الذى انتصر » ، يرى الكاتب .. أن السادات من موقع قيادته فى هذه المرحلة الصعبة ، وبكل ما له من ماض وطنى وثورى ، قد وصل الى الأسباب الحقيقية فى كبوة مصر ، وكيف يمكن استعادة مصر من جديد لتتخلص من هزيمتها : « وجد أنور السادات ان شر ما يهدد مصير الأمة هو غياب الشرعية وافتقار الجدية فى العمل وضياع الحقيقة الديمقراطية بفعل عناصر فى موقع السلطة لم يكن يعنيها من الأمن كله سوى تثبيت نفوذها وتحقيق مكاسبها الشخصية ، دون أية مراعاة لحق الشعب فى حياة آمنة كريمة ، وفى تجاهل تام لحقيقة بسيطة ، وهى ان تحرير الوطن لا يستطيع أن ينهض به الا مواطنون أحرار ، وأن روح الأمة شرط أساسى لقدرتها على مواجهة معاركها ، وأن الجبهة الداخلية هى العامل الحاسم فى النصر .. وبهذا المنطق التاريخى ، وبهذا الوعى السليم ، بمعنى الثورة ، بدأ أنور السادات يبشر بسيادة القانون ، ويعلن تصميمه على الشرعية منذ أوائل عام ١٩٧١ ، وفى عديد من لقاءاته مع الشعب وفى الجامعات وفى ساحات العدل ، أوضح بكل جلاء اصراره على ازالة كل

---

(١) قال أنور السادات هذه الكلمات فى خطابه فى الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب ، وذلك فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ ...

تناقض افتعلته هذه العناصر بين الشرعية وأهداف الشعب » (١) . وقد عبر السادات عن هذه الحقيقة فى برنامجه للعمل الوطنى الذى تقدم به للاتحاد الاشتراكى بقوله : « كان من أخطر ما واجهنا فكريا خلال السنوات الماضية ذلك التناقض المصطنع بين الاشتراكية والحرية ، والذى افتعله أعداء الحرية والاشتراكية على حد سواء . ان مراكز القوى التى لايمكن أن تظهر أو تعيش ــ بل لا بد وأن تختنق ــ فى جو الحرية والديمقراطية وجماعية القيادة ، اتخذت من الاشتراكية ودعوى حمايتها حجة لتكميم الأفواه ولتسكت كل صاحب فكر ، ولتفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الثورى لكى تشق طريقها الى الانفراد بالسلطة والتحكم فى مصير البلاد بما يحقق أطماعها ونزواتها » .

وكانت الجماهير ، فى تلك الفترة ، تستقبل الرئيس بحماس شديد ، وسط الضبابية التى سادت مصر ، لفترة ليست بالقليلة ، وكان الشعب يحس بحكم وعيه ونضوجه بما يدور ، ويرقب ما يحدث عن كثب قبل اعلان حركة التصحيح فى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ . ففى ٢ مايو ١٩٧١ ، أقال السادات « على صبرى » من منصبه ، ونشرت الصحف ووكالات الأنباء الخبر ، وتساءل الكثير عن الأسباب ، وحاول (التنظيم السرى) أن يشكك فى كل ما يحدث ، لكن الفرصة لم تعط لمزيد من التساؤلات ، فقد كان الحسم يدور بسرعة لا تترك المجال لفرصة التساؤل . وفى يوم ٩ مايو من نفس العام ، أشارت احدى الصحف اللندنية ، الى « ان أنور السادات رئيس جمهورية مصر بدأ يتصدى لكل الأوضاع الكلاسيكية فى مصر ، وأن هذا يمثل خطورة مثيرة على المنطقة ، والغريب أن احدى المآتم فى صعيد مصر قد تحول الى مظاهرة أو مؤتمر سياسى ظل يتحدث عن مراكز القوى لفترة تزيد عن الثلاث ساعات ، وكان هذا المأتم لواحد من أعضاء مجلس

(١) جاءت هذه الكلمات فى كتاب « الفكر الذى انتصر » لسعيد عثمان ، وانا اعتبر ، ان هذا الكتاب من انضج الكتب واسبقها ريادة فى تحليل مرحلة التصحيح التى كانت الطريق الى كل انتصاراتنا فى اعقاب ثورة مايو ١٩٧١ ، وما يميز هذه الدراسة الحياد والموضوعية الشديدة فى عرض القضايا والواقع المصرى فى سنوات خطرة من عمر مصر الثورى ...

الأمة المصرى قد توفيت والدته .. وقد قيل فى هذا العزاء ، ان السادات يتصدى لكل مراكز القوى وعناصر الثورة المضادة على مختلف القيادات فى الجيش والبوليس وأجهزة الاعلام والفكر ــ وقد جاء هذا بعد اقصاء على صبرى عن السلطة » وفى ١٢ مايو ١٩٧١ ، التقى السادات بالضباط والمقاتلين على خط النار ــ وفى جبهة القتال ، وعقد لقاء طــويلا معهم ، وتحدث معهم بصراحة عما يجرى فى الجبهة الداخلية ، وعما يدور ، وما من شأنه أن يعوق استبسالهم ومواقفهم الشريفة فى مواجهة العدو ، وقال : ان مصر قادرة على التصدى لأى موقف من أجل استعادة روحها ، وأخذ يفسر ما يدور ومايحدث ، وسأله الضباط ، فجأة : «لقد أقلت علىصبرى .. الرأس .. متى تقضى على الجسد والذيول ؟» ، فذهل السادات من النضج والوعى الذى بدا عليه مقاتلونا ، وابتسم فى سخرية ، لأنهم وفروا عليه مهمة الشرح والتحليل ، وقد كان يعلم أنهم على هذا المستوى من النضج والتفكير ، فهو واحد منهم ، وانطلق منهم ، وهو افراز لهم ، وهم يفكرون فى مصر ولاشىء غير مصر ، لانهم يضعون أرواحهم على أكفهم ، ويعطون بسخاء لمصر وهم يقفون فى ثبات على خطوط النار فى ارتقاب لحظة القرار الحاسم للتحرك ..

وفى ١٣ مايو ١٩٧١ ، أصدر السادات قــرارا تاريخيا هاما ، يقول : «لا رقابة على الحريات » ، وأمر الرئيس بوقف جميــع عمليات الرقابة البوليسية والارهابية على حريات المواطنين ، وأمر بتشكيل لجنة خاصــة للتحقيق فى المسائل الماسة بالحريات العامة ــ وكان هذا القرار ، بصدوره يضــع حدا للمكارثية التى سيطرت على مصر طويلا ، وكانت تجثم على صدرها وتعرقل من حريات المواطن على كافة المستويات ..

وفى مساء ذلك اليوم ، أحست « مراكز القوى » بالخطورة ، فأرادت ان تتحــرك ، وكان هو يحس بحكم خبرته ، أن هــــذا سيحدث ، فهــو مناضــل ثورى ، ويعرف أن اقصاء الرأس من شأنه أن يحرك الجســد

والأذيال ، وكان يرتقب هـذا « التحرك » ، ليضرب ضربته ، وفى ذكاء .. وتحركت مراكز القـوى فى محاولة للاسـتيلاء على السلطة ، بأن قدمت استقالات جماعية ، وبدأت تتصل من أجل احداث انقلاب لتغيير الوضع بل وتحرك الاعلام فى ذلك الوقت ـ وكان يرأسه « محمد فائق » وزير الاعلام ـ بأن أصدر أوامره الى « الأجهزة العامة للاعلام» باذاعة مارشات عسكرية ، ارتقابا لاذاعة بيان عسكرى هام ، وفى محاولة لاعداد الشعب لما يمكن أن يحدث ..

وفى ١٤ مايو ، كان السادات ، قد حصل على كل المعلومات التى تكفل له الضربة لمراكز القوى ، قبل أن يحدث ما يخشى عقباه . وكان من الممكن أن يحدث يوم ١٣ مايو ، لولا البلبلة التى حدثت لمراكز القوى ، ولولا فطنة القيادة الحكيمة ويقظتها الواعية . وقال السادات كلمته ، وأعلن ماكان يدبر من مراكز القوى فى الخفاء لاحداث ثورة مضادة ، وقال : « أبدا . ولن يذل هذا الشعب . الجماهير يجب أن تحس بالأمن والطمأنينة دائما . ولن يكـون مصير أحد معلقا بتقارير أو كلمـات » ، وكشفت « فضيحة ووترجيت» ـ مراكزالقوى المصرية ، وأسدل الستارعلى ثورتها المضادةالتى كانوا يزعمون القيام بها فى مايو ١٩٧١ لتئول السلطة الى أيديهم . واعلن السادات عن التنظيم السرى الكامل ، والذى كان يستهدف النيل من مصر. وأعلن ان مصر مستيقظة ، لا تنام ، ولا تستسلم ، وانها ابدا لن تذل ، واعلن أن جدران الخوف لا بد أن تسقط ، وأن المعتقلات السياسية لا بد أن تغلق ولا بد أن تسود الحرية والديمقراطية ، حتى يتوفر الأمان للمواطن ليمارس حريته ، ولا بد أن يسود القانون لتتحقق العدالة الاجتماعية والوطنية .. وألقى القبض على كل الرءوس المدبرة لمراكز القوى ، والتى كانت تعـد لاحداث الـ « ثورة المضادة » ، وصفيت المعتقلات من الشباب الذى كان يلقى القبض عليه جزافا . وصـدر القرار بالغاء كافة الظروف الاستثنائية التى كانت تحرم المواطن من حرياته الاجتماعية والسياسية ، وتقف كحجر عثرة ضد المواطن من أجل ان يمارس ديمقراطيته الاجتماعية والسياسية..

وفى نفس السنة ، صدرت الأحكام ضـد « ٦١ » متهما ، أدانتهم المحاكمات ، و « ١٤ » قضت المحاكمات ضدهم بالحبس .. وبرىء « ١٤ متهما » .. وصفيت المعتقلات والسجون تماما من المعتقلين السياسيين أو من الذين صدرت لهم أو ضدهم أحكام فى ظروف غير استثنائية .

وبدأ عصر جديد فى مصر .. نستطيع أن نطلق عليه : « عصر مايو » .. وبدأت أيام جديدة من عمر مصر .. عرفت بأيام التصحيح ..

وهذه الأيام كانت منطلقا الى كل المتغيرات التى حدثت فى مصر على المستوى الاجتماعى والفكرى والسياسى والعسكرى ، وهى التى قادت الى عبور أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى التى قادت الى التحركات العربية على المستوى القومى فى أعقاب حرب اكتوبر والى التحركات العالمية التى جذبت الى مصر مزيدا من التعاطف والى القضية العربية ، وغيرت تماما موازين القوى ، حضاريا وفكريا وسياسيا فى النظر الى مصر والعرب . فبعد ان كانت مصر والعرب فى نظر العالم قوما معتدين ، يهزمون ، يخضعون لمنطق القدريات والعنتريات والفكر التجريبى ، نقلتهم ثورة مايو ١٩٧١ ، الى نوع من الانفتاح على العالم ، أيديولوجيا ، وسياسيا ، وعسكريا واقتصاديا .. واكتسبت مصر والأمة العربية ، مزيدا من الأصدقاء ، ومزيدا من « الأرض » فى اتجاه حل المسألة العربية — التى كانت سببا فى التهاب المنطقة منذ حرب ١٩٤٨ حتى حـرب اكتوبر ١٩٧٣ ، هذا الاتجـاه الذى وصفته صحيفة (الايكونوميست) البريطانية بقولها :

« ان ما يحدث فى مصر ، امر نادر ، فبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ — التى كانت نتيجة لتغير الأوضاع الداخلية فى مايو ١٩٧١ ، بدا ميزان القوى يتغير فى صـالح مصر وفى صالح العرب ، وبدأ ، أنه من الممكن أن تحل القضية فى جوهرها فى نطاق يبعد عن البارود ، فالدرس الذى يخرج به دارس سياسى لاوضاع المنطقة فى السنوات الأخيرة ، انه لا يمكن حل القضية عن طريق الحرب ، وانما عن طريق انهاء النزاع بشكل نهائى ،

حتى يتوافر نوع من الأمان فى المنطقـــة من خلاله يستطيع الغرب ، ومصر ، أن يستعيدوا مكانتهم التى افتقدوها طويلا من جراء هذه الحروب التى استنفذت منهم الكثير اقتصاديا وماديا وعسكريا » .

وقد أعلن السادات ، أن يوم ١٥ مايو ١٩٧١ ، كان بمثابة مفترق الطرق بالنسبة للشعب المصرى ، وفى رسالة بعث بها الى مجلس الشعب وهـــو يتحدث عن « ثورة التصحيح » قال : « ان هذا اليوم كان مدخلا طبيعيا للبناء الوطنى الجديد ، وانطلاق طاقات الشعب الخلاقة .. لقد أطلقنا حرية الصحافة ، ضمانا لحرية الشعب ، وأغلقنا المعتقلات ، تأكيدا لحرية الفرد وألغينا الى الأبد الاجراءات الاستثنائية ، تجسيدا لسيادة القانون وأخذنا مبادأة اتخاذ القرار فى أيدينا ، فاستطعنا ان نعبر هزيمة ١٩٦٧ .. » .

ان ثورة ١٥ مايو — أو حركة تصحيح ١٥ مايو ١٩٧١ ، لم تلغ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كما أعتقد البعض ، بل هى تصحيح للاوضاع التى كانت تريد أن تودى بالمكاسب الشعبية والقومية التى حققتها ثورة ١٩٥٢ ، والغاء لمراكز القوى التى كانت تريد النكوص بهذا الشعب ، والعودة به الى عتمات وضبابيات لا حدود لها ، وخروجا بمصر الى آفاق جديدة عبرت بها الى نفسها ، والى آفاق جديدة أكثر تفتحا وأكثر انطلاقا ، من أجـــل تحقيق الرفاهية لجماهيرنا ، وتحقيق « دولة العلم والايمان » ، على أساس استيعاب كل ما فى عصرنا من طاقات علمية وتكنولوجية ، من أجل المشاركة فى صياغة الحضارة الحديثة ، ومن أجل القضاء على كافة المعوقات التى تقف وتحول دون مشاركة الانسان المصرى ، والعربى ، فى المشاركة ، فى البناء العالمى لهذا الصرح الانسانى العظيم ، فى سعيه الى مزيد من التقدم الحضارى .

وثورة ١٥ مايو ١٩٧١ ، ليست ، فقط ، زوالا لمراكز القوى ، وسقوطا للخوف وجدرانه الثقيلة عن كاهل الأمة ، انها ، أيضا ، العودة بالانسان الى انسانيته ، ليمارس حقوقه الشرعية فى أن يكون انسانا ، يمارس حريته يمارس مدنيته ، يمارس ديمقراطيته .....

انها عودة بالحريات السياسية والديمقراطية ، بعد غيابها عن مصر لسنوات طويلة سادتها ظروف الماكارثية الرهيبة ، وحكم الفرد ، ومراكز القوى الضارية ، التى بذرت الخوف والفزع فى كل مكان !

●

حركة التصحيح .... هل كانت ثورة ، أم كانت مسارة لتصحيح الأوضاع فحسب ؟ هذا السؤال طرحته ظروف السنوات الأربع الماضية التى أعقبت ما تم فى مصر من متغيرات ، منذ مايو ١٩٧١ حتى الآن ..

تقول صحيفة « التايم » الامريكية : « ان التصحيح — أو ما تم فى مايو ١٩٧١ ، كان مبادرة عظيمة من جانب الرئيس المصرى محمد أنور السادات ، لا نحو تعليم الجماهير كيفية ممارسة الحريات والديمقراطية ، بقدر ما كان اعادة الروح الى الثورة التى كانت قد افتقدت نضارتها ، بما حدث من زعزعات ونكوص وتراجعات خلال منتصف الستينات — نتيجة لظروف الهزيمة ، ونتيجة لما حدث من هزات فى الجبهة الداخلية ، و فى داخل الانسان المصرى من تمزقات .. لقد كانت حركة مايو ١٩٧١ ، عودة الى مصر ، الى ما يكفل لها السير ، والتقدم ، من أجل أن تستعيد نفسها ، ولتعوض ما فاتها من نضال وتقدم » . ويوضح (سعيد عثمان) ، هذا التصحيح ، فى كلمات واضحة فى كتابه : « الفكر الذى انتصر » ، فيقول : « اننا باعادة ترتيب الدولة على أساس علمى ديمقراطى ، نكتسب حصانة ضد الارتجال أو المزايدة غير المسئولة فى مثل هذا القرار الخطير . ولقد ثبت من التحقيقات أن بعض المتهمين فى قضية المؤامرة والانحراف السياسى كانوا يزجون بالمعركة فى مهاتراتهم الرخيصة وكانوا فى بعض الأحيان على استعداد للمقامرة بها من أجل أغراض لا تمت بصلة الى هدفها الوطنى النبيل ... من أجل هذه المعركة — بشرف ومسئولية — كل مسعانا وعملنا الوطنى فى هذه المرحلة الحاسمة ، وكل ما نأخذ به أنفسنا من جدية وما نوجهه لها من نقد .. ولقد كان من الواجب أن نقنعه بشجاعة

وقفة محاسب للنفس . فمن هنا ننطلق فى عملية التصحيح . حتى نصل بها الى مداها ، ومن هذا المنطلق يجب أن تأتى المشاركة الشعبية الحقيقية فى العمل الكبير الذى بدأه القائد .. فالقضية ، قضية الشعب كله ، والمصير مصـــيره ، الطريق الى الأمل والمستقبل ، مفتوح أمامنا ، وفرصة المشاركة فى البناء كاملة ، واذا لم نقدم على أداء واجبنا الذى هو فى الوقت نفسه ممارسة لحقنا ، فلن نعرف ماذا سنقول عن أنفسنا لأجيالنا القادمة ، أو ماذا سنقوله عنا تلك الأجيال !! » . وكانت هذه (الكبوة) ــ أو تلك الهزيمة حديث السادات فى كل مناسبة ، وكان لا يفتأ يتحدث عنها فى كل وقت :

« علينا لمواجهة هذه الغزوة الشرسة ، ان نتسلح بسلاح العصر الذى نعيش فيـــه ، لا يمكن ان نتخلف ونحن نواجه صهيونية دنيئة غادرة ، واستعمارا شرسا لئيما . من اجل ذلك ناديت بدولة العلم والايمـــان ، فالعلم وحده ، من غير الايمان ، قد يقينا شر هذه الغزوة ماديا ، ولكنه لن يستطيع على المدى الطويل ان يبنى النفوس التى يجب أن يبنيهـــا مجتمعنا كما نشانا وكما تنص عليه رسالتنا ، وما اختمر فى هذه الأرض من مبادىء وتقاليد وقيم . والايمان وحده ، فى مواجهة الغزوة لا يكفى لأن لدى عدونا من مســـتحدثات العصر ما يستطيع به أن يكسب جولة وجولة ، اذا لم نتسلح بالســـلاح الذى يتسلحون به ... من اجل ذلك ، فان العلم والايمان شرطان اساسيان لنجتاز هذه المحنة التى نعيشها اليوم ... والامة الاسلامية لم تفرق العلم عن الايمان . كان العالم عالم فلك ورياضة ، الى جانب تفهمه فى علوم اخرى . هذا ما نقله الغرب عنا منذ البدء، والعلم والايمان متلازمان فى رسالتنا وعقيدتنا ، وما احرانا اليـــوم ان نعود الى ما كنا عليه » .

كان السادات ، يعلم علم اليقين ، أنه لا استعادة لمصر الا باستيعاب لكل مستحدثات العصر ، فكريا وعسكريا وماديا .. وكان ، دائماً ، يردد أنه لا ينبغى ، النظر الى المـــاضى بقدر أهمية النظر الى اللحظـــة أو الى

المستقبل ، من أجل استعادة مصر ... فمن ينظر الى الأحزان ، ويطيل فى أبعادها ، فلا يمكنه الا أن يجنى الدموع .. علينا أن تتخطى اللحظة .. علينا أن نتجاوز الاحزان .. علينا أن تتخطى الماضى ، ولا ننظر اليه طويلا :

« علينا الا ننظر الى الماضى ، بقدر ما نفيد من تجربته . لقد أراد البعض أن يستغلوا مراكزهم ، وأن يفرضوا سلطة لايملكونها على هذا الشعب ، وعلينا أن نضع الضوابط والحدود التى تضع لكل سلطة حدودها وتنظم التعاون بينها ، وان أبعاد الاحداث التى مرت بنا يجب الا تصرفنا عن المعركة ، ولكن يجب الا تنسينا واجبنا فى تطهير كامل يصحح أوضاعنا تصحيحا كاملا ، لكى تستمر مسيرتنا أقوى وأقدر دائما وباستمرار . ومن ذلك كانت مطالبتى أن يتضمن دستور جمهورية مصر العربية بابا يطلق عليه باب الأخلاق . ان القرية المصرية التى تعتبر النواة لشعبنا زاخرة بالقيم العظيمة التى يمكن ان تكون هادية لنا » ...

●

ونعود للسؤال الذى طرحناه : التصحيح .. حركة اجتماعية وسياسية أم ثورة شاملة ؟ .. يقول منظرو الفكر الثورى .. أن هناك خلافا واضحا بين « حركة » و « ثورة » ، تماما ، كذلك الخلاف الذى نجده بين كلمة « انقلاب » وكلمة « ثورة » ... فالثورة تعنى كل تغير يطرأ على النظم القائمة والعقائد السائدة ، ماديا وفكريا واجتماعيا ، ولا يهم ما يصاحبها من الحروب وسفك الدماء ، فمن الممكن أن تكون (الثورة حمراء) أو (بيضاء) .. المهم التغيير الذى يطرأ على العلاقات ، وفى اطار الظروف ، والمناخ المادى والاجتماعى والفكرى ... وما حدث فى مصر فى ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ ، بدا فى البداية ، وكأنه حركة اجتماعية أو سياسية تستهدف الاصلاح ، وانما هو فى الحقيقة ثورة على الأوضاع ... فقد كانت « مناطق النفوذ » ، ومراكز القوى ، أشبه بالنظم الانكشارية ... التى قادت مصر الى الخراب والدمار ، فقد كان كل مركز من المراكز يسعى الى أهدافه

ومطامحه ومآربه الانتهازية والتسلقية .. وكانت هذه المراكز من شأنها أنها لا تقضى على (الثورة) فحسب ، بقدر ما كانت تقود مصر الى نوع من الولايات أو المراكز المستقلة ، التى كان من الممكن أن تقود البلاد فى يوم من الأيام الى حرب أهلية ضارية تودى بمصر الى خراب كامل ، ودمار شامل !

وحركة التصحيح ـ أو ثورة التصحيح ، التى تمت فى مايو ١٩٧١ ، تقابل حركات التصحيح المعروفة فى الثورات الكبرى ، كحركة الاصلاح والتصحيح فى الثورة الفرنسية ، عندما كانت الثورة قد تنكبت الطريق وخرجت عن مسارها الثورى الأصيل .. وفى نفس الوقت ، تقابل حركات الاصلاح والتصحيح للفكر المسيحى الذى قام به « مارتن لوثر » عندما قضى على تفتيت السلطة الدينية فى الاقطاعيات الدينية التى قامت كمراكز فى ذلك الوقت ، فقد كان رجال الدين فى ذلك الوقت ، ينزعون الى خلق مناطق نفوذ كاملة ، يعطون لأنفسهم من خلالها كل السلطات غير العادية ، وكأنهم مفوضون من قبل السماء ، لدرجة أنهم كانوا يعطون ، أو يبيعون ، مناطق للبشر فى الجنة ، بأوراق وصكوك رسمية ، يطلقون عليها : « صكوك الغفران » ، من خلالها يمنحون أراضى من الجنة للبشر ...!

وما تم فى مايو ١٩٧١ ، فى مصر ، أيضا ، يقابل ، ما تم من تصحيح فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨ ، ضد الجمود العقائدى ، والتزمت ، والرجعية ، التى كادت تودى بالحركة الثورية الى التهلكة والدمار ، وذلك خلال حكم (نوفوتنى) الذى اتسم بالنزعة الستالينية وعبادة الفرد .. وثورة مايو ١٩٧١ ، أيضا ، تقابل تلك الانتفاضات الثورية المتوالية ، والتى قامت ضد الفكر الستالينى فى المجتمعات الاشتراكية ، أو داخل الاحزاب الشيوعية نفسها (كما حدث ، مثلا ، فى الحزب الشيوعى الفرنسى ، عندما نادى المفكر والمنظر الاشتراكى روجيه جارودى بتصحيح مسار الحركة الاشتراكية ، وعندما نادى زميله المفكر والفيلسوف هنرى لوفافر بالحريات

والديمقراطية التى تتعارض لا مع الفكر الاشتراكى ولا مع الثورة الشاملة ضد الرأسمالية أو الامبريالية" (١) !.

ان ما تم فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، هو فى الحقيقة « ثورة » ، وليس «حركة» لانه ثورة على مراكز القوى ، وعلى العلاقات الاجتماعية ، والمناخ الذى كان يحكم ويخنق الجماهير .. ثورة فى البنيان التحتى (فى العلاقات الانتاجية والاقتصادية والمادية) ، وثورة فى البنيان الفوقى أو العلوى (فى الفكر والثقافة والعلاقات التى تحكم وجدان مصر) . ثورة أعادت لمصر كل الحريات المفتقدة ، وأكدت للمصريين حقوقهم فى ممارسة حرياتهم المدنية والديمقراطية ، وساد القانون وأصبح من خلاله يعرف المواطن حقوقه وواجباته ، ورفعت كافة الظروف الاستثنائية التى كانت تشل الحركة والفكر والواقع .

وثورة ١٥ مايو ١٩٧١ ، كانت تعبيرا عن متطلبات المرحلة فكريا وماديا ، وكانت افرازا حقيقيا لمتطلبات الانسان المصرى الذى كان يصبو ويطمح اليه حتى يتيسر له أن يعمل ، وينبنى ، بعد « كبوة » طويلة ، أقعدته ، من أجل أن يستعيد نفسه ، وروحه ، ليكمل الطريق ، فى وضوح .. فالحركة ، تتطلب أساسا وضوح الرؤيا ، والضبابية قد تقود الى هزائم وهزائم أخرى .. « وتصحيح مايو » كان النور الذى أشاع الاطمئنان فى النفوس ، وأعطى الجماهير الأمان ، لتعمل وتتحرك ، بعد أن كانت العتمات والضبابية هى المناخ الذى ساد ولسنوات طويلة ..

وثورة ١٥ مايو ١٩٧١ ، كانت تصحيحا للاوضاع التى كادت تطمس معالم الثورة التى قامت فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فقد كانت مراكز القوى

---

(١) وهناك فرق كبير بين حركة اصلاحيـــة ترمى الى تغيير ظاهرى ، وبين ثورة شاملة ، كما انه هناك فرق بين حركة تصحيح واعادة الاوضـــاع الى واقع سليم يتسم بالثورية ، وقد عرف تاريخ الثورات الكثير من الاصطلاحات فى هذا الصدد ... مثـلا عرف معنى : الاحياء ، والاصلاح ، واعادة البناء ، والتجديد ، او البعث او الاحياء ، او اعادة البناء والاصلاح ، او التصحيح

و « الطبقة الجديدة » ، التى أبرزتها ظروف الانحسار الثورى ، قد استولت على المراكز الأساسية ، واشاعت جوا من القهر والتسيب والانحراف ، بمعنى آخر أن الثورة التى صنعها الشجعان ــ على حد تعبير فولتير ــ بدا يجنى ثمارها الجبناء ! وكان لابد من الضرب على أيدى هؤلاء « الجبناء » ، وتصحيح الأوضاع بقرارات ثورية ، وبأعمال حاسمة تعيد لمصر طريقها الثورى ، حتى تستطيع أن تقوم من جديد ، وتتجاوز ظروفها الصعبة ، وتعبر الهزيمة ...

وكان منطلق « ثورة التصحيح » يسير فى خطين واضحين ، منذ البداية : خط يهدم كل سلبيات المرحلة التى قادت بمصر الى ظروف ١٩٦٧ وما أعقبها من مرارة ، وخط بناء يستهدف تعميق الايجابيات والسير بها الى آفاق رحبة ...

كانت ثورة التصحيح ، متطلبا حتميا ، فكريا وماديا ، لاعادة الطريق الثورى ، الذى كادت القوى المعرقلة أن تطمس معالمه ، نتيجة ظروف القهر والضغوط التى مرت بمصر فى منتصف الستينات وما أوصلها الى هزيمة ١٩٦٧ وما أعقبها من مرارة وتسيب وخراب .. ويوضح السادات أبعاد ثورة التصحيح التى قامت فى مايو ١٩٧١ ، فيقول : « ان حركة التصحيح التى بدأت فى مايو ١٩٧١ ، وان كانت قد عجلت بها مؤامرات مراكز القوى فانها كانت فى جوهرها أمرا ضروريا ، حتى نضع شعبنا فى الوضع الأكثر ملاءمة لتحمل أعباء المعركة والمساهمة فى احراز النصر . فقــد كشفت هزيمة يونيو ١٩٦٧ عن سلبيات كثيرة فى حياتنا ، كانت تشوه وجه تجربتنا الناجح . ومنــذ أفاق الشعب من صــدمة النكسة ، بدأ يطالب بالتغيير والتصحيح فى الكثير من مجالات حياته ، وكانت الرغبة الشعبية العارمة من أجل التصحيح تقاوم من بعض مراكز القوى ، التى كان من الصعب عليها أن تتخلى عن سلطاتها ، أو تغير أساليبها فى العمل ، أو أن تقبــل العلاقات الجديدة التى يطالب بها الشعب بين الحاكم والمحكوم » .

لقد كانت القيادة العسكرية في الجيش ضد التغيير ، وكان الفريق «محمد فوزي » قائد الجيش و « أحمد كامل » رئيس المخابرات العامة يمثلان احد مراكز القــوى ، وكذلك كان « شعراوى جمعــة » وزير الداخليــة واللواء « حسن طلعت » رئيس المباحث العامة ، وكذلك كان «على صبرى» نائب رئيس الجمهورية ، وكذلك « سامى شرف » وزير الدولة في رئاسة الجمهورية ، كل هؤلاء كانوا من أقطاب (التنظيم السرى) ، ومعهم كان الاعلام برئاسة « محمد فائق » وزير الاعلام ... كل هــؤلاء كانوا ضد التغيير ، لأنهم كانوا مراكز القوى الأساسية التى كانت تفرض القهــر والضغوط ، وتتحــرك من خلال « ولايات » أو « إقطاعيات » كنظــام الانكشارية ! لكن السادات ، برؤيته السياسية الخلاقة ، وحكمته العظيمة وذكائه الحاد ، تبين أنه لا انتصار ولا تجاوز للهزيمة ، الا بالتخلص من مراكز القوى ، ومن المناخ الفاسد الذى لا يكفل « الحركة » للجماهير لتسير فى اطمئنان ، من أجل أن تتجاوز ظروفها الصعبة ، وأكد على هذه المعانى بقوله :

« برغم أننا كنــا نعيش فى ظــل ظروف النكسة ، بما تمليــه علينا من اعتبــارات وما تضعه على حركتنــا من قيود ، وبرغم أن شــاغلنا الأول كان الاســتعداد لمواجهة عسكرية جديدة مع عدو يحتل أرضــنا ويتربص بنا ولا يكف عن تهديدنا فى قلب بلادنا ، فإننى وجدت أنه لا بد من اتخاذ الموقف الحاسم الذى يلبى هذه الرغبة العميقة لدى الشعب ، واثقا من فطرة جماهيرنا السليمة ، ومن التفاف الشعب حول قيادته خلال معركة المصير .. كان لابد أن يشعر كل مواطن أنه مسئول عن أقدار بلاده ، بقدر مسئولية سواه ... وأن قضاياه الأساسية تناقش أمامه علانية ، وأنه لا توجد وصاية تمارس عليه فى الخفاء . كان لابد أن يزول الخوف ، وأن تختفى بذور الشك ، وان تتراجع الحزازات والأحقاد ، وأن يحس كل فرد أنه آمن على يومه وغده ، وعلى نفســه وأهله ورأيه وماله .. كان لابد أن

يعرف كل مواطن أن الحرب المقدم عليها ، لن تحرر له أرضه فقط ، ولكنها سوف تحمل له حياة أكرم وأرحب ، وقيما أعلى وأرفع ، كما سوف تحمل له أملا فى أن يتطلع بحق الى مزيد من الديمقراطية ، لن تتحقق له كاملة الا فى وطن قوى عزيز متحرر .. لهذا لم تقف حركة التصحيح عند حد تنحية مراكز القوى عن الطريق ، ولكنها انطلقت الى تحقيق جوهرها الأهم بالعمل على ارساء سيادة القانون ، واعزاز كلمة القضاء ، واقامة دولة المؤسسات ، ووضع الضوابط التى يعرف المواطن من خلالها حقوقه وواجباته بوضوح ، ويمارسها فى طمأنينة .. » .

ويضيف السادات ، مؤكدا على جوانب وأبعاد ثورة التصحيح ، فيقول :

« كان جهدى أن نقيم دولة المؤسسات ، وأن يمارس المواطنون نشاطهم فى سياج من سيادة القانون .. ولم أتردد فى أن يتم التخلص من كافة الاجراءات الاستثنائية بالتدريج ، وأن تغلق كل المعتقلات أبوابها بعد ما يقرب من أربعين سنة من وجودها فى ظل مختلف الظروف ، وأننى لواثق من أن الشعب لن يسمح بفتحها من جديد فى يوم من الأيام .. وما زال هدفى ألا تكتفى الدولة بتحرير طاقة أبنائها عن طريق ازالة السدود والقيود ، بل أن تتقدم ، أيضا ، الى رعايتهم وحمايتهم بتوفير مظلة من الضمانات الاجتماعية الشاملة ، وتوسيع قاعدتها باستمرار ، حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستظل فيه بظلها كل فرد ... ... وقد كنت أعرف ، أن كل هذه الاجراءات لابد أن تحمل معها حركة أكبر للآراء والأفكار والاجتهادات ... ولكننى ، كنت أؤمن ، أيضا أن هذا أمر مطلوب وصحى ، وأنه الطريق الوحيد لتربية جماهيرنا على الفكر والحوار والمشاركة من خلال ما ارتضيناه من مؤسسات .. كما أننى كنت واثقا ، أن فطرة شعبنا السليمة ، التى هى مصدر وعيه السياسى الحساس سوف تكفل لنا أن نمارس هذه التجربة من النضج الديمقراطى فى سلام ..

نحن نعلم أن الديمقراطية ، ليست مجرد نصوص ، ولكنها ممارسة عملية ويومية » .

وكان السادات ، يعلم أن المهمة ليست باليسيرة ، فما مر بمصر ، وبالانسان المصرى ترك داخله وخارجه تراكمات هائلة ، وتجاوز هذه « التراكمات » مسألة لا تتم بقرار ، أو بقانون ، فهى مسألة تتعلق بوجدان ونفسية هذا الشعب الذى تحمل الكثير من الويلات والضغوط ، ولكن من خلال « التصحيح » يفتح الباب على مصراعيه ، لتمضى الخطوات فى الطريق السليم للخلاص من كل ما من شأنه أن يعوق حركة الجماهير الثورية نحو تحقيق منجزات ثورتها الديمقراطية . والمهم ، أن نبدأ فى الطريق الصحيح ، فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة سليمة فى الطريق الصحيح ، وعلى حد تعبير « سعيد عثمان » فى كتابه (الفكر الذى انتصر) :

« ان المهمة ليست يسيرة ، والطريق بطبيعته طويل وشاق وحافل بالتحديات . ان الذى نتصدى له ليس مجرد تغيير فى شكل مؤسسات الحكم أو الادارة أو الانتاج . انه فى المقام الأول تغيير فى مفهوم العمل وفى الأسلوب الذى نواجه به كل جزئية من جزئيات حياتنا ، فضلا عن قضايانا الكبرى ، التى لا تحتمل أى عبث أو عدم تقدير للمسئولية ، كالذى كانت تمثله تصرفات مراكز القوى التى حررنا حياتنا منها .. كيان الانسان المصرى وقدره ، واطلاق طاقاته للمشاركة فى بناء بلده وفى صنع القرارات المتعلقة بمصيره .. هى محور عملية التصحيح .. أسلوب العمل فى الأجهزة المختلفة من أكبر المستويات الى أصغرها هو هدف هذه العملية . دولتنا الجديدة ، لا يستطيع أن ينفرد بالقرار فيها رأى مراكز القوى أو أية جماعة أو فرد ، لن تستطيع أية جهة من هذه الجهات بعد الآن أن تأخذ سلطة الدولة فى يدها .. كما أعلن أنور السادات .. لن يستطيع انسان بعد اليوم أن يقول (أنا الدولة) كما كان يقول لويس الرابع عشر فى فرنسا ، فالدولة دولة مؤسسات دستورية ومجالس متخصصة ، والقرار ، أى قرار على أى مستوى هو نتاج دراسات هذه الأجهزة وتفاعل الرأى فيها بأسلوب ديمقراطى .. ولكن

هل يمكن أن تشغلنا عملية التصحيح واعادة البناء هذه عن المعركة أو تصرفنا عن الاستعداد لها ؟ الحقيقة أن العكس هو الصحيح .. فالمعركة ذاتها هى أول ما يفرض علينا عملية ترتيب أوضاعنا وتنقية حياتنا من كل ماشابها من عيوب وأخطاء .. بل لعل الجولة الأولى التى هزمنا فيها من المعركة ، هى التى أيقظت فينا الوعى بهذه الأخطاء والتصميم على ازالتها .. وبغير عملية التصحيح لن نستطيع مواجهة الجولات القادمة من المعركة بل ولن نقدر على اتخاذ القرار السليم بشأن المعركة نفسها .. اننا باعادة ترتيب الدولة على أساس علمى وديمقراطى نكتسب حصانة ضـــد الارتجال أو المزايدة غير المسئولة فى مثل هذا القرار الخطير ... » ...

وثورة التصحيح التى قامت فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، كانت منطلقا الى كل النجاحات والانتصارات ، التى حققناها ، وسنحققها ، فى المستقبل . فقد أدت الى اعلان الدستور الدائم لمصر ، وعودة القضاء الى نصابه بعودة القضاة الى مقاعدهم محصنين مكرمين ، وعودة كل من فصل أو أبعد أو أقصى عن غير الطريق التأديبى ليمارس حقوقه كمواطن صالح ، والغاء الرقابة على الصحف والمطبوعات وانشاء المجلس الأعلى للصحافة ، ثم كان (العبور) الذى من خلاله استعادت مصر ، والعرب ، المكانة التى كانوا قد افتقدوها بين أمم العالم ، ثم التحرك العظيم والانفتاح الخارجى على الدول الصديقة وكسب أكبر حجم من العلاقات الدولية لصالحنا ولصالح القضية العربية ... ولا يزال أمام ثورة التصحيح الكثير من المهام والمنجزات الوطنية والديمقراطية ، سواء فى الداخل ، أو على المستوى القومى ، أو بالنسبة للعالم الخارجى .. فمن خلال التصحيح ، ستتغير مصر ، ويتغير الانسان المصرى ، فكرا ووجدانا وقيما ، من خلال الدولة العصرية التى تقوم على العلم العصرى والايمان الروحى ، والتى ستلعب دورها على مستوى العصر ومتغيراته ، وتساهم بشكل خلاق ومبدع فى كل انتصارات ومنجزات عالمنا الذى يســير بسرعة ليحقق الكثير فى عالم الفكر والعلم والابداع ...

عندما قامت ثورة لتصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، استقبلها الشعب بحماس هائل ، لأن الجماهير فى مختلف مواقعها ، احست أنها تعبر عن متطلبات المرحلة ، وتعبر عن آمالهـا وأحلامها ، فلقـد كان الكيل قد طفح وبلغ السيل الزبى ، ووصل الوضع الى حالة من اليأس والتفكك بسبب سياسة مراكز القوى التى كانت قد استبدت وتجبرت وأطاحت بكل شيء من أجل مصالحها ومآربها الشخصية . لكن رغم الحماس الهائل الذى قوبلت به ثورة التصحيح ، الا أن بعض القوى الرجعية حاولت التشكيك فيها ، سواء فى الداخل (الرجعية الداخلية) أو فى بعض العواصم العربية (الرجعية العربية) ، وحاولت أن تفسر أن التصحيح ثورة ضد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأن حركة ١٥ مايو ٧١ ما هى الا لضرب الناصرية ... وهذا خطأ فاضح ، بل وزاعق ، لأن السادات نفسه ، كان دائما يردد ، وينطلق من محور ، أن هذه الثورة ، قد قامت من أجل المحافظة على مبادىء ثورة يوليو ٥٢ ، والتى تسببت مراكز القوى والتنظيم السرى فى محاولة طمس ملامحها والبعد بها عن مجـراها الطبيعى ، بتحقيق مآربهم الشخصـية ، وبالقهر الذى ساد ، ويضربهم لمكاسب الجماهـير وابعادهم عن ممارسة حقوقهم فى حرية وديمقراطية ...

وقد أحس السادات ، بذكائه الفذ ، وبفطنته اليقظة ... متى وكيف تطل الأفاعى الرجعية ، لذلك كان يتحرك علي كافة المستويات ، ويلتقى بالجماهير ، هو ورجاله الذين كانوا نواة حركة التصحيح العظيمة ...

التقى السادات بالمقاتلين على خط النار ، ليلة ثورة التصحيح وقال لهم : « كونوا مطمئنين يا أولادى . بصوا قدامكم : اليهود .. ماتبصوش وراكم أبدا للجبهة الداخلية ، لأنه اذا اقتضى الأمر علشان أحفظ سلامتها ، والله سأكون فى منتهى القسوة للى يحاول أن يشق جبهتكم الداخلية من وراكم . فمتفكروش فيها . سيبوا جبهتكم الداخلية وكونوا واثقين ان الـ ٣٤ مليون بقلبهم واحساسهم ، وكل ما يملكوا وراءكم ، علشان دى معركتكم ، علشان تكسبوها ، وشرفهم حطينوا فى ايديكم » .

وفى خطابه الذى ألقاه أمام علماء الأزهر الشريف ، فى ١٦ مايو ١٩٧١ ، أى فى صبيحة اليوم التالى لحركة التصحيح ، أعلن تمسكه بضراوة لرسالة الثورة .. وقال أنه على استعداد لدخول أى معـارك ، ومن أى نوع ، وبشراسة ، ومهما كلفه الأمر ، من أجل الحفاظ على أمانة الثورة واعلاء الحقيقة . قال السادات :

« نريد أن ننفى عن طريق الايمان ، الخوف فى كل طبقات شعبنا الطيب الأصيل ، ولا نخاف أحدا الا سبحانه وتعالى ... اننى لن أفرط فى الأمانة ولو اقتضى أن أدخل فى أشرس المعارك سأدخلها ، ولن أفرط فى الأمانة أبدا لابد أن تتطهر أرضنا من الاحتلال ، ولا بد أن نبنى الدولة القائمة على العلم والايمان » ...

وكان السـادات ، فى تحركاته ، فى هـذه الفترة ، يحاول أن يجمع كل القـوى الوطنية ، ليقضى على أى وجـوه رجعية ، تحـاول أن تطل لتحـدث نوعا من « الشرخ » فى الجبهـة الداخلية ، وكان يؤكد فى كل لقاءاته بالقوى الوطنية ، أهمية تماسك وحدة الجبهة ، وأهمية تدعيم صفوف الشعب من أجل مواجهة الظروف الصعبة التى تواجهها مصر :

« ان نقطة الانطلاق ، هى القضية الوطنية ، ويجب أن يتجمع حـولها ، وبالتالى ، كل من يحاول من اليمين أو اليسار الذى ينفصل عن واقع وطنه ومعركته ، فانه يكون قد ساعد فى حملة التشكيك هذه . ان خط مصر واضح : اننا حريصون على نظامنا وتراثنا وقيمنا الروحية ، وان ارادتنا الوطنية قد تحررت نهائيا ، وقد تجاوزنا مرحلة الخوف والحساسية من التعامل مع الدول الكبرى ، ومن ناحية أخرى ، فاننا اتخذنا قرار المعركة ، وهـو قرار نهائى ، وهى آتية ، ونحن داخلوها ، ولكننا لن نسمح لأى انفعال أو مزايدة مهما كان مصدرها أن تؤثر فى صميمنا وتحركنا لتحرير بلادنا » [1] .

---

(١) جاء هذا فى خطاب الرئيس انور السادات امام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ، بتاريخ ١٧ ابريل عام ١٩٧٢ ، اى بعد مرور قرابة عام على ثورة التصحيح .

الكثيرون ، حاولوا التشكيك فى « ثورة التصحيح »

الكثيرون ، حاولوا أن يعرضوا بكل انتصاراتنا ، خلال السنوات الأربع الأخيرة : الرجعية الداخلية المتعاونة مع « الجيوب العربيـة » أو « الجيوب الخارجيـة » ، حاولت أن تشكك فى كل شىء ، بل وحاولت أن تفسر ، أن السادات قد خرج على مبادىء ثورة يوليو ١٩٥٢ ، والمثير ، أن « بعض السفسطائيين » ، حاولوا أن يبرزوا الأمر على أساس ، أن ثمة تناقض بين فكر التصحيح ومواقف السادات وبين الناصريين ، وارتدوا (قميص عبد الناصر) ، محاولين أن يزجوا بالسذج الى أتون تناقض وهمى ، لينعطفوا بالتيار الأساسى الى « أزقة مظلمة » ، لتحقيق مآربهم وأغراضهم ، وشتان بين أفكارهم وبين ما تحققــه ثورة التصحيح ومواقف وتحركات السادات ، داخليا ، وخارجيا على المستوى المحلى والقومى والعالمى ، كبطل وقائد ومعلم ومنظر وثورى من الطراز الأول ، فهذه السفسطائية تثرثر بأوهام سرعان ما تذوب ولا تصدقها الجماهير — التى هى جزء أساسى فى كل الانتصارات الوطنية والديمقراطية والثورية التى تتحقق بين كل يوم وآخر على الأرض العربية ...

والكثيرون ، أستمع الى كلماتهم ، وأقوالهم ، بل وآتابع كتاباتهم فى صحف بيروت ، وغيرها من « الصحف المأجورة » والتى تمـول من جيوب الرجعية العربية أو الامبريالية أو الصهيونية العالمية ، أراهم يبالغون فى بكائياتهم على « الناصرية » ، ويصورون الأمر وكأن السادات ضـد الناصرية ، بل انهم يتخـذون من جمال عبد الناصر منطلقـا لتحركاتهم وخطواتهم — على أساس أن « الناصرية » ، كعقيدة وممارسـة ، هى الأسلوب الذى لابد من اتباعه والسير به لانجاز مهام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وهم يرددون فى مقالاتهم : « ان الناصرية (فكرا وعملا) ، قد أكدت على المستوى المصرى والعربى والعالمى نجاحها ، كعقيدة ثورية ، وأن أى خروج عنهـا يعتبر مروقا عن مبادىء الثورة الأساسية التى قامت فى ٢٣

يوليو ١٩٥٢ والتى إرتبطت بها الشعوب العربية والتى هى قوتها الأساسية نحو تحقيق القومية العربية من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي » ، وفى كلام آخر جاء ما يلي : « أن ما يحدث فى مصر ، يمثل خطرا لا على الإنسان المصرى وحده ، بل على وحدة الصف العربى ، فالتنكر للناصرية تنكر للقومية العربية وخروجا عن جوهر الثورة العربية التى تستهدف الحرية والاشتراكية والوحدة ، والتى تسعى لاستكمال منجزات ثورتها بعد وفاة الملهم الأساسى لها جمال عبد الناصر » ! وهذا يذكرنى بحواريي ستالين فى الاتحاد السوفيتى بعد وفاته ، فقد ظلوا يرددون شعاراته وأفكاره معلنين ، أن أى خروج عن « الستالينية » هو خروج عن الشيوعية والثورة الأممية ، مغرقين فى مسالك عبادة الفرد ، ثم سرعان ما تكشف للعالم أجمع فى أعقاب ١٩٥٦ ، وبعد قرارات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ، أن هؤلاء « الحواريين الستالينيين » ، كانوا سابحين فى غيهم مغرقين فى أخطائهم حتى آذانهم ، وأنهم أساءوا حتى الى الشيوعية نفسها بتصرفاتهم التى خرجت عن نطاق الماركسية ـ اللينينية ومبادىء الدياليكتيكية والمادية التاريخية .. ! وليس معنى هذا ، أن « جوزيف ستالين » ، لم يكن بطلا وطنيا للروسيا ، لا ، يكفيه أنه سار بالروسيا فوق « قنطرة اللهب » ، وعبر بها فى أحلك الظروف ، وحقق العديد من المنجزات الثورية فى المجالات الداخلية والخارجية ، وعلى المستوى الأممى ، ويكفيه فخرا ، أنه كان قائد « معركة ستالينجراد » التى أعادت للاتحاد السوفيتى مكانته وهيبته وحفظته بين الأمم العظمى ، ويكفيه فخرا أنه استطاع أن يدحر الفكر النازى والحرب الفاشية ، لكن هذا لا يغفر له ذلك « الستار الحديدى » الذى وضع الروسيا فى اساره ، بل ، ولا يغفر له مواقفه المعادية للديمقراطية والحريات ، فكم أعدم وذبح وسجن واعتقل الآلاف باسم (الحزب) ، وباسم (الشيوعية) ، وباسم (الروح الأممية) ـ أو على الأصح باسم (الستالينية) ! وقد « سجن » الكثير من الثوريين ، داخل الروسيا ، كما فعل عبد الناصر ابان الخمسينات والستينات ، وباسم (الثورة) ، سجن ،

واعتقل ، وذبح ، وأمات المئات ، بل الآلاف ، الذين كانوا يعبرون عن آرائهم ، ويعلنون عن رغباتهم ومطالبهم العادية فى الحريات السياسية والديمقراطية ! ونفس ما فعله « حواريو ستالين » ، يفعله ، اليوم ، « حواريو عبد الناصر » ، أو الذين يرتدون قميصه ، سواء فى مصر ، أو فى بعض العواصم العربية ، وطوال فترة ليست بالقصيرة ، ولا زالت أصداؤها ، حاول الكثيرون النيل من « ثورة التصحيح » ، ومن حرب السادس من أكتوبر ، ومن مواقف السادات الثورية ، باسم الحفاظ والدفاع عن الناصرية ، وهؤلاء ، الذين أفضل أن أطلق عليهم : « صغار الناصريين » ، فى تحفظ شديد ، لأنهم أكثر من يسيئون الى فكر جمال عبد الناصر وأعماله التاريخية بسلوكهم ورعونتهم وتحركاتهم المثيرة الغامضة ، يطنطنون بشعارات جوفاء ، وبعبارات خرقاء ، ويرفعون شعارات الرفض ، وأنا واثق كل الثقة أنهم لم يقرءوا فكر عبد الناصر كما يجب ، بل وحتى لم يحاولوا أن يصلوا الى منهجه الفلسفى ومنطلقه الأيديولوجى ، وحتى لم يحاولوا رصد وتحقيق وتحليل المرحلة الفكرية التى عاشها عبد الناصر فكريا وعمليا .. وأذكر حوارا هاما ، ومثيرا ، دار بينى وبين بعض أقطاب هؤلاء « الناصريين الصغار » — أو صغار الناصرية ، وكان ذلك الحوار منذ عامين فى بيروت وهذا «الناصرى» صاحب أو مسئول عن احدى الصحف البيروتية التى تعرف بتشبعها للفكر « الناصرى » وتتقاضى أكياس النقود مقابل ذلك من احدى العواصم العربية ، التى يهمها استمرار مثل هذه « المهاترات » . قلت لهذا (الناصرى) : .

* هل قرأت كتب عبد الناصر ؟

قال لى .. بحماس شديد :

— وهل مواقف عبد الناصر وثوريته وبطولته فى حاجة الى أن تقرأ كتبه ... ؟!

وقلت له فى دهشة :

* وكيف تفهم ستالين ، أو ماركس ، أو فردريك انجلز ، أو لينين ، أو ماركوزا ، دون قراءة أفكارهم وتعاليمهم ونظرياتهم ؟

قال لي « الناصري الصغير » :

ــ انك تتشدق بالألفاظ . انك بهذا تؤكد خيانتك للناصرية ... !

قلت له :

* لن أتوقف ، بل ولن أغضب ، فالجدل أبدا لا يغضب ، لكن ردودك تدهشني . أفهم أن ناصريا عظيما ، لابد أن يكون قد درس فكر جمال عبد الناصر وتعاليمه والمرحلة التي عاشها نظريا وعمليا .. فكيف أحدثك عن اللينينية وانا لم أقرأ كتب لينين عن (الدولة والثورة) أو (ما العمل ؟) أو (الاستراتيجية والتكتيك) أو (خطوات في العمل الثورى) ، أو (تعاليم لرجال الحزب) ؟

هل تعرف ماذا كانت الاجابة ؟

قال لي الصحفي اللبناني (المعروف) ، والمتشيع للناصرية ، وعبد الناصر برىء منه كل البراءة :

ــ أنا أحب عبد الناصر لله في لله . كما يحب المصريون السيدة زينب والحسين والسيد البدوى ، بهذه الطريقة نحن نحب عبد الناصر ، ونداقع عنه ، ونعتبر الخروج عن مبادئه خروجا عن الثورة الأساسية التي هي ملك لكل عربي أصيل من المحيط الى الخليج .

اضطررت ، أن أتوقف عن المناقشة ، فكما ترى ، أن هذا ليس بجدل ولا حوار سياسي ، بالدرجة التي يصل بها الكلام الى لون من السفسطائية الجاهلة ! وقد أردت أن أعرض لهـذا « الحوار » بدقة ، ودون زخرف للكلام ، حتى يتبين للقارىء مدى ما يحمله هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم بـ « الناصريين » ، من حقد وجهل وضغينة ، المسألة التي تسيء

الى فكر ومرحلة عبد الناصر التاريخية نفسها ! فقط ، هؤلاء ، يتخذون من « الناصرية » ، سلما ، للتسلق الى مآربهم وأغراضهم الدنيئـة ، و « قنطرة » للعبور الى أهدافهم التى لا تريد الا الحاق الشرخ بوحـدة الصف العربى فى ظروف غاية فى الصعوبة ، تحتاج فيها الى كل تجمع لمواجهة عدو شرس ، ومواجهة الصهيونية العالمية والامبريالية ..

اذا كان جمال عبد الناصر ، كبطل قومى ، قد استنفدت المرحلة مهامه التاريخية ، وأصبح من المفروض ومن متطلبات المرحلة الثورية الجديدة ، فكر يتلاءم ويتواكب مع متغيرات العصر ، فهل هذا يلغى المنجزات التى حققها عبد الناصر ؟ بل ، هل من الصواب ، « الطنطنة » ، بأفكار وتعاليم مرحلة الخمسينات والستينات ، فى مرحلة من المفروض أنها تختلف نوعا وكما ومحتوى وشكلا عن ظروف مصر المعاصرة ؟ تصوروا ، أن مجموعة من البشر ، تقوم اليوم فى فرنسا ، لتروج للفكر البونابرتى ، وتزعم أن أى خروج عنه خروج عن فرنسا وخيانة لها ؟! أو تصـوروا ، حتى فى الروسيا ، أن يقوم جماعة من البشر ، ليروجوا للستالينية ومبادئها وينعتون كل خارج عنها بالخيانة للروسيا ؟! أو تصوروا حتى فى ألمانيا الغربية ، أن تقوم جماعة لتعتنق « الهتلرية » ، وتروج لها ، وتعتبر أن أى خروج عنها خيانة لألمانيا وقضيتها الأساسية ؟!!

لا أحد ، لا أنا ، ولا أنت ، ولا السادات ، ولا التاريخ نفسه ، يستطيع انكار كل الأعمال القيمة والمنجزات الوطنية التى حققها عبد الناصر ، كبطل قومى ، لكن فى اطار المرحلة التاريخية التى امتدت منذ ثورة يوليو حتى نهاية الستينات .. والغاء ايجابيات هذه المرحلة ، الغاء لمنطق التطور والعلم . لقد حاول ، هؤلاء « الحواريون الصغار » ــ وهم داخل ثيابهم ومسوحهم أن يمثلوا (يهوذا) المنطقة العربية ــ حاولوا أن يصوروا ، أن أنور السادات ضد فكر عبد الناصر .. وهذا خطأ فظيع ، بل وفظيع للغاية ، لأنه افتراء على التاريخ ، والساداتية ، ومنطق التطور والعلم ، وهذا مالا يقبله فكر

متحرر ، أو سياسى ، منفتح لمتغيرات العصر وتطوراته المرحلية . فالسادات، امتداد لمرحلة عبد الناصر ، واستمرار لثورة يوليو ١٩٥٢ ، لكن مرحلة اليوم غير مرحلة الخمسينات والستينات ، انها مرحلة تستلزم فكرا وعملا أكثر فهما لمتغيرات وأفكار العصر ، مرحلة تحتم مزيدا من الاستيعاب لكل مقدرات وأفكار وقيم العصر الذى نحياه ، ومن يقول غير هذا يضرب بالعلم والمعرفة الانسانية عرض الحائط .. والسادات نفسه ، يؤكد على هذا فى خطبه وحوارياته وكلماته .

انه يقول :

« لقد كانت ثورة ٥٢ منسجمة مع منطلق التاريخ . كانت ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ منسجمة مع موقف التاريخ حينما استقر قرارها على أن تحالف قوى الشعب العامل ، هو وحده ، السلطة القادرة على بناء المستقبل الحقيقى ، لأنه القوة التى صنعت التاريخ الحقيقى .. والتاريخ دائما ، من صنع اولئك الذين يفكرون ويعملون ، ويعملون بالايمان الراسخ واليقين الأصيل ، هؤلاء هم صناع التاريخ ، فالفكر تقدم بالطبيعة ، والعلم بالضرورة ، والعمل لا يمكن ان يكون مستغلا وانما العمل عطاء واضافة وبناء خلاق ومتواصل ... ان ثورة ٢٣ يوليو ، ازاحت الاستغلال وحرمته ، ثم فتحت المجال فسيحا لقوى الشعب العامل مصدر الأصالة ومنبعها ، والمالكين لزمام الفكر والعلم والعمل .. وكان ذلك انسجاما مع منطق التاريخ ، وكان ذلك ، ايضا ، انسجاما مع منطق المستقبل .. ولقد اخترنا المستقبل ، حينما اخترنا الحرية والاشتراكية والوحدة ، اهدافا عظمى لنضالنا . ليس هناك من يستطيع ان يحمل امانة هذه الأهداف العظمى ، غير تحالف قوى الشعب العامل ، لأنها قوى الأصالة ، ولأنها قوى الفكر والعلم والعمل .. »

وهكذا يؤكد السادات على أهمية مرحلة عبد الناصر ، وما حققته من انسجام ومنجزات ، فى اطار المرحلة التاريخية ومتطلباتها الداخلية

والخارجية . وأبدا ، لم يحاول السادات أن يلغى فكر عبد الناصر ، أو مرحلته التاريخية ، كما حاول بعض المغرضين ، أن يصوروا هذا ، وبوقاحة .... بل ان السادات ، من منطلق ثوريته ، واصـالته الفكرية ، وحكمته الثورية ، كان دائما يشيد بايجابيات الخمسينات والستينات ، فهو امتداد لهذه المرحلة ، لكنه استطاع أن يستوعب ما فيها وما فى العصر من متغيرات مادية وفكرية وحسية ، واستطاع أن يوظفها من أجل خدمة الثورة المصرية ، ومن أجل تكريسـها فى اطار التصحيح الذى حمل لواءه منـذ ١٥ مايو ١٩٧١ .

●

كل ما تحدثنا عنه فى هذا الفصل ، مبرر ومعقول .. معقول ان ينطلق فكر ثورى ، يبغى السير بالبلاد الى مزيد من التقدم والتطور ، ويواجهه فكر انهزامى ورجعى يحاول أن « يشوش » عليه ! بمعنى أن تظهر مجموعة من المتسلقين والانتهازيين ، ليطنطنوا ويشوشوا على أفكار ثورة التصحيح وما حققته من منجزات فكرية وعسكرية وديمقراطية ووطنية ، ومدعين انهم حملة (راية الناصرية) ..! أو (راية الرفض .!!

كل هذا معقول ، ومبرر ، بل ومشفوع له على أساس أن أية شجرة محملة بالثمار لا بد أن تقذف بالحجارة ، فليست هناك شجرة غير مثمرة ينتبه لها أحد ، وليست هناك أوراق جافة تسترعى الانتباه ، دائما للشجرة التى تحمل ثمارا ، تصبح مطمعا للغير ، على عكس أن الشجرة التى لا تحمل ثمارا ولا أوراقا لا تعطى ظلا ، ويهرب الناس منها ولا يولونها انتباههم ، وهذا المعنى يؤكد عليه كاتب مثل برتراند رسل ، عندما يقول : « صدقونى أما ما من مفكر ثورى معطاء ، الا وتعرض لهجوم شديد من الرجعيين . . والمفكر العادى ، تمر أفكاره ، بلا مبالاة ، بل ، ولا تستلفت أمرأ ما ! » كل هذا معقول ، ووارد ، وعادى ، على أساس ، أن أى فكر يسير به قائد ما أو زعيم ما ، أومنظر ما ، فى مرحلة بذاتها ، معرضا لنوعية من البشريحاولون النيل منه ، وهذه سنة تناقضات الواقع .. حتى فكر هتلر ، نفسه ، مـع

اختـــلاف وجه المقارنة ، قد خلق حواريين له ، ظلوا يلهجـون بتعاليمه ، ويطنطنون بأفكاره وآرائه لسنوات ليست بالقليلة ، بل وصل بهم هـــذا الفكر ، أو هذا « التأليه » الى حد الجنون ، حتى أنهم قالوا : « ان هتلر لم يمت ! » ، وقالوا : « أنه لا زال يحيا ، فى نفق تحت الأرض ، وأنه فى يوم من الأيام ، سيظهر ليخلص ألمانيا من العذاب ، فهو مسيحها الذى لايقهر ..»

ونفس الأسطورة ، أو الوهم ، أو الخرافة ، تتكرر ، مع اختـــلاف (المشهد) ... عاد (يهوذا العربى) ــ أو (الحواريون الصغار) ، يرددون فى أوراقهم الصفراء ، وفى مقالاتهم ، التى تمتلىء بها صحف بيروت وغير بيروت بل وفى بعض مجلاتنا المصرية وفى بعض التقارير والمنشورات التى تظهر خلسة بين أروقة الجامعات والمصانع والمؤسسات العامة .. فيقولون بالحرف الواحد : « كذبوا ، فقالوا ، أن جمال عبد الناصر ، قد مات فى ليلة ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . لا . هذا لم يحدث . لم يمت ناصر . سيبعث يوما ما ، بل نحن قادرون على بعثه واحيائه ، واستعادته بالتمسك بأفكاره وتعاليمه .

ففكره لا زال حيا ، وشخصيته وروحه لا زالت تحيا داخلنا ، ومن يقول غير هذا فهو رعديد ، جبان ، ولا يحترم التاريخ ، ومن يقول بغير هذا ، ينكر ما حدث فى الوطن العربى ولطوال عشرين عاما ، فعبد الناصر لم يكن بطلا ثوريا ، بل ولا مناضلا عظيما ، فقط ، كان الرمز ، كان الأمل كان كل شىء ، بل استطاع ان يصل بفكره الى درجات الفلاسفة والأنبياء »!!
بل اننى ، استمعت فى اذاعاتهم المغرضة ، ومن خلال أقاويلهم السافرة التى تهبط بالفكر وبالانسان الى احط درجات التفكير ، بل اننى حرصت ، ولا اخفى عنكم ، اننى سجلت على أشرطة بعض هذه الأكاذيب على « كاسيتات » لاستعين بها ، وأنا أكتب هذه الدراسة ، سجلت من بين ترهاتهم وأكاذيبهم ما يزيد عن العشرين شريطا ، أى ما يقرب من عشر ساعات من (الأكاذيب) ، لاستعيدها وانا أكتب هذا النقد وهذا الرصد لأقوالهم ، حتى لا أكون

مبالغا ، وحتى أكون ملتزما بالموضوعية الشديدة : ومعظم هذه « الأشرطة » أو هذه « المهاترات » ، تسيء الى جمال عبد الناصر ، كبطل وطنى ، أكثر مما تدافع عنه ، فهى تتاجر بأفكاره وتدلل به فى مراخصات ومزايدات أشبه بسوق الدلالين ..! وعبد الناصر ، كما قلت ، وكما أؤكد دائما ، ليس فى حاجة الى دفاع ، فايجابيات مرحلته تؤكد أنه كان يسعى سعيا واضحا الى النهوض بمصر وبالمنطقة العربية ، لكن ظروف المرحلة كانت تتسم بالضبابية والمناخ الصعب ، وكثورى ، وكبطل قومى ، فى الخمسينات والستينات ، استطاع أن ينجز الكثير من المهام لثورة يوليو ١٩٥٢ ، ابتداء من القضاء على النظام الملكى ، الى جلاء القوات البريطانية عام ١٩٥٤ ، الى ضرب الاقطاع ، الى تغيير علاقات الانتاج والواقع لصالح الثورة ولصالح التقدم ، بل واستطاع على المستوى القومى والعالمى أن يؤكد الشخصية المصرية والعربية من خلال العديد من الأعمال الايجابية ، لكن المرحلة ــ بقدوم السبعينات ، كانت قد استنفذت أغراضها ومهامها ، وكانت فى حاجة الى متطلبات ثورية جديدة ، تساير متغيرات العصر وتلائم ظروف مصر وفقا لما حدث ..

كان لابد من استيعاب الواقع المصرى ، فى حكمة ، واستيعاب كل امكانيات وقدرات العصر فى سرعة لتوظيفها من أجل حل تناقضات « المسألة المصرية » و « القضية العربية » والعبور بمصر والعرب الى آفاق صحية تكفل لها السير الى منجزات وانتصارات ثورية تخرج بها عن اطار (الكبوة) التى لحقت بها بهزيمة ١٩٦٧ .. وهذا كان يتطلب نوعا من (التطهير) ، أو (الاغتسال) ، أو (التصحيح) لكل الأوضاع ، للخلاص من كل الأدران والأمراض التى لحقت بمصر وبالانسان المصرى نفسه واصابته فى الصميم من الداخل حتى بدا كالمزق والاهتراء ! !

والغريب ، والذى يدهشنى ، حقا أن مجموعة من « اليساريين » ، تدافع عن بعض هذه الأفكار التى تروج فى بعض العواصم العربية ممن يحاولون ارتداء « قميص عبد الناصر » .. وقد قرأت بعض مقالات لهؤلاء ،

تقول « ان عبدالناصر كان يمثل اليسار بالنسبة للثورة المصرية» ! وهذا قول غريب ، ومثير ! أحقا ، هذا ؟! بل وقد قيل « ان عبدالناصر ، كان سببا فى تطور اليسار المصرى » وهذا لا يمكن قبوله ، منطقيا . ومشكلة « يسار اليوم » ، وبالذات اليسار التقليدى ، ان أفكاره قد تخطتها المرحلة الثورية وشعاراته التى كان يرددها فى الخمسينات والستينات ، أصبحت تقليدية ، وعفا عليها الزمن ، وأصبحت فى خبر كان .. كذلك الحال ، بالنسبة لليمين الرجعى ، تكمن مشكلته فى أنه سار وراء عمليات النضال اليومى منذ عام ١٩٤٦ ، ومن خلالها كان يستقى فكره ، بمنهجية مثالية ، وشكلية بحتة ، تبعد عن المنطق العلمى ، وتخضع للمنطق الصورى (الفورماليزم) — أو ما يمكن أن نسميه بالمنطق المعاكس لتطور العلم ومدلولاته الجدليةومعطياته المتطورة ..

والمشكلة التى قد تصادفك ، فى مجتمعنا ، اليوم ، وانت تتحرك من منطلق الدافع الوطنى الصرف لخدمة كل ما يدور على أرض بلادنا من منجزات ثورية ، أنك ان لم تكن مع الشيوعيين ، واليسار التقليدى ، فأنت خائن ، ويمينى ، ورجعى ، وربما عميل للنظام وللسلطة .. وانك ان لم تكن مع اليمين ، فأنت أحمر ، وقرمزى ، وشيوعى ، منحاز لدولة أجنبية .. واذا خرجت عن تيار واحد منهما ، لانك نضجت فكريا ، واصبحت غير متجمد أو غير عقائدى ، لا تهمونك بالعمالة ، ولقالوا عنك « انك بعت نفسك للسلطة بأبخث ثمن » !

واذا كنت فى فترة من الفتراتمنقادا لليسار التقليدى ، لانك رأيت فى أفكاره اعظم ما يخدم المرحلة الثورية ، ثم تغيرت فكريا نتيجة قراءاتك وأفكارك ونتيجة لمتغيرات الواقع والعصر ، وبدأت تؤمن بأفكار مثل كولن ولسن أو هربرت ماركوزا ودوتشيكا ، وغيرهم ، أو بدأت ترتبط بفكر وطنى أصيل نابع من أرض مصر نفسها .. لقالوا عنك « انك مراجع » و « خائن » و « غير مؤتمن » و « مرتد » . . ونفس الكلام قاله الشيوعيون التقليديون فى فرنسا ، عندما نادى هنرى لوفافر بالديمقراطية

وبالخروج عن العقـائدية الجامدة ، قالوا « ان لوفافر مرتد ، وخائن ، وعميل » .. وهـذه التحليلات الساذجة ، أو « العبيطة » من قبـل الذين لا يؤمنون بمنطق التطور ، ويرتبطون بالعقـائدية الجامدة ، ولا يقبلون منطق متغيرات العصر ايديولوجيا وحضاريا وثوريا ، لا تصـل فى النهاية بأصحابها الا الى طريق مغلق مسدود بل ربما أكثر من هذا ، لأنها قد تعمق (مفهوم التناقض) بينها وبين دولة وطنية وديمقراطية ، الى حد قد يصل الى اتهامها بالعمالة والالتقاء بالامبريالية .. ألم يحدث من قبل أن (البعض) فى بلادنا ، انهم كتبوا ، علانية ، وعلى صفحات مجلة (الكاتب) منذ عام تقريبا ، أن مصر باعت القضية العربية ، وأنها ألغت التناقض الأساسى بينهما وبين الامبريالية من أجل (الاتفاق) ، وبهذا وصلوا فى تحليلاتهم الى أن حكومة مصر الوطنية عميلة ، بل وتلتقى مصالحها مع الامبريالية ؟!!

●

مثلما حاولت العديد من الاتجاهات والتيارات ركوب موجة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وما حدث من سلسلة قرارات اشتراكية عام ١٩٦٢ ، وما حدث من تغييرات فى مجتمعنا تجسدت فى صورة الميثاق أو بيان ٣٠ مارس .. حاول الكثيرون ركوب موجة ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ . ان المشكلة تبدو ، دائما ، ليس فى اعلان المبادىء أو القيم أو الشعارات ، بل المشكلة كيف يتم مسار هذا التصحيح ، ومن يقوم بتنفيذه ، والسهر على انجازاته ان القضية الأساسية ، تعود بنا من حيث نبدأ ، وعندما نقف لنبدأ ، تتذكر بمرارة كلمات فولتير عن الثورة وتطبيقاتها وثمارها : « ان الشـجعان يصنعون الثورة ، بينما الجبناء يجنون ثمارها » ! وأى محاولات للثورة أو التصحيح ، دائما معرضة للتيارات الانتهازية والتسلقية التى تحاول ركوب الموجة ، حتى الخصوم أنفسهم قد يحاولون ذلك من أجل احباط كل شىء . وقد كانت الهزيمة التى منيت بها مصر عام ١٩٦٧ ، وما أعقبها من ظروف مريرة ، كانت هذه السنوات منطقة تجميع لكل شىء ، لكى نرى

الواقع بوضوح ، وقد فجرت هذه الظروف الصعبة أوضاعا كان من الصعب تفجيرها لأنها لم تكن من السهل أن تطفو على السطح الا فى ظروف عصيبة كالتى عاشتها مصر قبل ثورة التصحيح . وكان لا بد من اعادة النظر فى كل شىء ، لاعادة الحياة الطبيعية لمصر ، واعادة الروح الأصيلة التى افتقدتها الأرض لسنوات ليست بالقليلة . لذلك كانت ثورة التصحيح ضرورة حتمية ، ومطلبا ملحا تمليه طبيعة المرحلة . ومنذ أن تولى أنور السادات رئاسة البلاد فى أكتوبر ١٩٧٠ ، أخذ يرقب كل شىء ويرصد كل ما مر بمصر من ظروف وملابسات حتى يعود بمصر الى روحها التى افتقدتها لأسباب استثنائية وغير طبيعية .

وبدأ يضع استراتيجيته وبرنامجه وتكتيكاته السياسية والمرحلية وفقا لذلك . كشف عن الانحرافات الكبرى فى مصر التى تمثلت فى مراكز القوى ، والتى كانت سببا فى اهدار شرعية كل شىء وضياع سيادة وهيبة القانون ، وكشف عن التسيب والعبث والسلبيات التى كانت تقود مصر من خراب الى خراب ومن دمار الى دمار .. وقد اختلطت الأمور .. اختلط الحابل بالنابل .. حتى أنه أصبح من الصعب التعرف على (الثورى) حقيقة ! فالكل يرفع شعار الثورة ، اليسارى واليمينى ، والثورى والرافض بل وخصوم الثورة أنفسهم ، وأكثر الاتجاهات رجعية ، أيضا أصبحت تتشدق بشعارات الثورة !

الثورى لم يعد سهلا ، التعرف عليه !

والانتهازى والتسلقى ، أصبح يقول : أنا ثورى !

وبرزت العديد من الاتجاهات والتيارات ، مع تعاظم حركة التصحيح ، وتقدم مسارها الثورى : اليسار التقليدى ، اليسار الجديد ، اليمين الرجعى اليمين المستنير ، دعاة الناصرية ، حملة أفكار التصحيح الخلص الذين لا ينقادون الى أى اتجاه ولا ينتمون الا الى مصر وأرض مصر ويتخذون من ثورة التصحيح منارة لهم ، بقايا فلول الرجعيات ومراكز القوى أو المتعاطفين مع أفكارهم وشللهم ..

وقــد تعرض أكثر من مفــكر ومنظر وكاتب لأوضــاع مصر فى أعقاب ثورة التصحيح وفى أعقــاب ما تم من نجاحات لمســاراتها المختلفة ، محليا وقوميا وعالميا ، وقد تعرضت صفحات جرائدنا ومجلاتنا لجدل وحوار ساخن ، وصل الى حد التراشق والقــاء التهم والخيانات بين « اليمين » و « اليسار » ، ورغم ايمانى العميق بتقسيم الصراع فى أى مجتمع الى اتجاهات يمينية ويسارية ، الا أننى أؤمن فى هذه المرحلة الهامة التى تمر بها مصر ان أقول .. أن هناك ثورى ، يؤمن بمصر ، وبضرورة تطــورها وانتصارها ، وبان مبادءها وأفكارها لابد أن تكون من أرض مصر نفسها.. وهنــاك غير ثورى ، لا يؤمن بمصر ، ولا بضرورة تطورها ، ويميــل الى الاتجاهات « المستوردة » .. و « الثورية » هنا ليست قاصرة على اليسار أو اليمين ، انما ينضوى تحتها اليسارى أو اليمينى ، أو الوسط ، حسب ما يحمله من ولاء واخلاص وتفان وقدرة على المبادرة والعمل من أجل مزيد من العطاء لمصر فى اطار التصحيح ، وفى اطار ما يدفع بمصر الى الامام نحو عالم أكثر تقدما وكمالا وتطورا ..

وأذكر أن الكثيرين ، ممن تعرضوا للحوار والجدل فى صحفنا ، كان يجرفهم تيار « العصبية » ، أو « الذاتية » ، فكانوا يميلون فى طرحهم للامور الى التجريح أو الهجوم ، دونما الالتزام بمنطق الموضوعية التى هى أساس النقاش والجدل من أجل الوصول الى وضوح فى الرؤيا .. وهنا اذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ان بعض اليمينيين ، عندما عرضوا وجهات نظرهم تصــدى لهم اليسار بالهراوات الفكرية ، وكذلك حــدث الأمر بالنسبة لليساريين أنفسهم ، لاقوا نفس العنت من بعض غــلاة الفكر اليمينى ..

ويحضرنى هنا ، بعض المقالات التى كتبها الدكتور « فؤاد زكريا » عن « تجربة اليسار المصرى .. والناصرية » ، فعندما نشر دراسته فى هذا الصدد انبرى « اليسار التقليدى » بـ (العصى) الفكرية ، على رأسه ، وبضراوة ، وكأن الرجل قد ارتكب جرما فادحا لا يغتفر ، وهو ، فى تقديرى ، قد انطلق

من محور الجدل الصحى المفتوح ، والذى هو أساس المناقشة الموضوعية الأصيلة لمختلف قضايا واقعنا ، بل ووصف الرجل بالعمالة وقصر النظر وعدم القدرة على الرؤية فى وضوح ! كذلك ، كان الأمر ، عندما وقف الأديب والمفكر « يوسف السباعى » ، وهو فى نفس الوقت مسـئول عن وزارة الثقافة كوزير ، عند ما وقف يدافع عن خط الدولة فى مجال الثقافة ويعلن أن هناك الكثير من المقالات والأبحاث تنشر فى مجالات وزارة الثقافة وتسىء الى موقف مصر وفكرها ، مثل ما نشر من العديد من المقالات فى مجـلة (الكاتب) خلال عام ١٩٧٤ ، أتهم باليمينية والرجعية ، بل وهاجموه بشدة سواء فى بعض الصحف والمجلات المصرية أو فى بعض الصحف والمجـلات العربية الأخرى التى تصدر فى عواصم الوطن العربى وتمول برؤوس أموال خاصة لها فكرها ومغزاها فى التشويش على فكر التصحيح وثورة مصر وما يحدث على أرضنا من انتصارات فكرية ومادية منذ ١٥ مايو ١٩٧١ ..! والمشكلة التى تواجهك ، حقا ، وأنت تحلل وترصد قضايا الواقع المصرى من خلال المتغيرات والمعطيات المتنوعة ، أنك لست امام تيار فكرى واحد أو فكر متسق بذاته ، فاليسار نفسه متعدد الاتجاهات والروافد والمنابر ويضم اليسار التقليدى ، واليسار الماووى ، واليسار الليبى ، واليسار العراقى ، واليسار السورى ، واليسار الجديد . وكذلك اليمين .

وكقاعدة ، عامة ، صحية ، أن « الحوار » ، أو الجدل ، لا بد ان ينطلق من أرض موضوعية فى المناقشة ، ولا يتخذ من فرص المناقشة تكئة ذاتية أوشخصية أو شـللية ، انما لا بد ، أساسا ، من اتخاذ الحياد الكامـل والموضوعية الشديدة التى لا تستهدف المآرب الشخصية ولا تحاول ان تكرر مأساة « الانكشارية » القديمة ، فتعود بمصر الى سياسة مراكز قوى يسارية أو يمينية ، وانما يجب أن يكون « الحوار » منطلقا من أرض مصر وغايته التطور بمصر نفسها ، دون استيراد الأفكار أو تسويق « سـلع ايديولوجية » ، فالفكر الأصيل لا يعرف « المعلبات المستوردة » بل ينبغى ، أساسا ، أن ينبعث من الأرض ومن فكر مصر الأصيل ، وحضارتنا قادرة

ومعطاءة لأنها الهمت وأبدعت وأعطت وافرزت فكرا وعلما لكل العالم لطوال ما يزيد عن ستة آلاف سنة ..

ويعود السادات ، ليؤكد على مغزى وأهداف ثورة التصحيح الكبرى ليبين جوهرها الأصيل ، فيقول :

« ثورة التصحيح فى ١٥ مايو لم تكن مجرد تنحية لمراكز القوى . لا . كان جوهر ثورة التصحيح فى ١٥ مايو الى جانب ازاحة مراكز القوى جوهر آخر ، هو سيادة القانون .. اعلاء كلمة قضاء .. اقامة دولة المؤسسات .. ووضع الضوابط التى يعرف المواطن من خلالها حقوقه وواجباته بوضوح » .

وهو يؤكد ، انه ما لم تكن هناك اصالة لمصر وولاء لارضها ، فكل التحركات والمسارات الى هباء ، فالأصل مصر، والغاية مصر ولا بد أن يكون كل فكر تابع من ارضها وتراثها وحضارتها ، حتى يكون مسار التصحيح على أكمل الوجوه، سواء فى التحرك الداخلى او على المستوى القومى أو على مستوى العالم :

« الأصل عندنا هى الوطنية . لقد كافحنا منذ مئات السنين فى سبيل استقلالنا وحريتنا . فاذا كان هناك — فى هذا الوطن — من يريد أن يجعل من نفسه عميلا لدولة أجنبية ، فليعلم ان وطننا هذا وطن الاشراف الاطهار ، ولا مكان له بيننا .. اننا نمد يد الصداقة الى كل من يريد صداقتنا . اننا نريد الصداقة الشريفة . صداقة الند للند . نحن لسنا دولة كبرى ، ولا نهدد بالقنابل الصاروخية ، وانما نحن نقف هذا الموقف لاننا نملك ما نؤمن بانه اقوى من هذا . نحن نملك الايمان بالله سبحانه وتعالى . . ونملك القلوب المؤمنة بهذا الشعب .. وهذه القوة لا يمكن أن تقهر ، لأن قوتها من قوة الله » ..

الفصل الخامس

أكتوبر .. والخلاص بالعبور

« لقد قاتلنا .. وأمامنا قتال شديد . ولكن سلاحنا وقتالنا ، ليس سلاح وقتال العدوان ، وانما هو سلاح الحق والحرية »

أنور السادات

الحق لا يسقط أبدا . الذين يقاتلون دفاعا عن الحرية ؛ لا يفقدون ايمانهم أبدا . معركة العدالة تبدأ ولا تنتهي الا بالعدل الشامل . الصعاب ، الشقاء ، المرارة ، عقبات في الطريق . لكنها ليست سدا أبديا . العدوان ليس سوى مجرد ستار أسود . لكنه ليس ليلا دائما ..

راية

الفارس العربي ، سيظل حاملا سلاحه أبدا ، لن يستسلم ، لن تعوقه (كبوة) عن القيام ، والنهوض ، والمضي قدما ، لاستعادة نفسه ، ليحارب من جديد .

فهذا (الفارس) يقف على أرض حضارية وعلمية وفكرية عمرها سبعة آلاف سنة . قد يدمع الفارس ، قد يصاب بجرح في كتفه ، لكنه ، أبدا لا يلقي السلاح على الأرض ، انه جزء من تطور هذا العصر ، في تقدمه الى الأمام .

الفارس العربي ، لن يغمض له جفن حتى ينال حقوقه كلها ، ويثأر للغدر والهزيمة التي لحقت به ، لظروف غير عادية ، ليست هي سماته أو خصاله ..

الجيش في معركته ، يناضل ، أبدا ..

الجماهير في معركتها . لا تهدأ لحظة ..

لم تكن هزيمة ١٩٦٧ ، الا كبوة ، ولم تكن جنازة الاحزان وموكب الدموع في ١٩٧٠ ، الا يقظة شدت ظهور الركع والمقهورين ليهبوا من جراحهم ، ليحملوا السلاح ، ويتطهروا ..

فلا تطهر الا بالحرب ..

ولا اغتسال الا بالبارود ..

لأن ما لحق شعبنا وأرضنا بالعنف لا يسترد الا بالعنف ..

والحرب معارك ، وليست معركة واحدة ..

والشعوب العربية ككل الشعوب المناضلة . يجب أن نرفع شعار : قم وأمضى ، وقاتل ، حتى تستعيد أرضك ..

الفشل ليس معناه الهزيمة والموت انه مجرد جولة .. قاتل ، مرة أخرى ، حتى تنتصر ، وتستعيد نفسك وأرضك .

لقــد فشل الصينيون في حربهم ضد أمريكا في البداية ، في أواخــر الأربعينات ، ولكنهم نجحوا ، عندما استعادوا أنفسهم وقاتلوا ، وحققوا النصر ..

ولم يكن فشلنا فى ١٩٦٧ ، الا محاولة لرؤية ما نحن فيه وما يدور حولنا وفى عالمنا من المتغيرات .. فلقد أخطأنا فى تقدير الحسابات وأوصلنا الفكر التجريبى والمتسرع والانهزامى الى ما حدث فى يونيو ١٩٦٧ ، بل وكان درسا صعبا لندرك حقيقة الأمور ، وكان علينا أن نستعيد الأوضاع ، ونعد أنفسنا للحرب من جديد . ولم يكن هذا بالأمر السهل ، فقد كان علينا لا أن نغير أسلوبنا أو منهجنا ، أو تكتيكنا ، بقــدر ما كان علينا أن نستعرض المرحلة الفكرية والمادية ، ككل ، التى قادت الى يونيو ١٩٦٧ ، نتبين سلبياتها واخطائها ، ونحاول أن نصحح الواقع ، من أجل ان نمسك السلاح فى حكمة واتزان وقوة ، وعلى أرض ثابتة نتحرك عليها فى ثقــة ونحن واثقون ان الجبهة الداخلية تحمى ظهور الجيش ، ولذلك لم يكن من الممكن أن يحدث أى تحرك دون التصحيح ..

فثورة التصحيح ، كانت المنطلق لتصحيح الواقع ، والذى من خلاله عبرنا على «جسر ثابت» ، خال من مراكز القوى ، خال من التهور والانفعال ، بلا أكاذيب أو ترهات أو أوهام أو مبالغات عالمية ، ومن خــلال حسابات وتطورات قد استوعبت كل ما فى العصر من تقدم علمى وتكنولوجى فى فهم استراتيجيات الحرب والسياسة والدبلوماسية ....

ورغم أن الكثيرين ، كانوا يحاولون التقليل من استعداداتنا وجديتنا فى التحرك والاعداد ، الا أن هذا لم يجعلنا نيأس ، وكان أنور السادات

يلتقي بالجماهير بين وقت وآخر لينبههم ، ويستيقظ هممهم ، ويجعلهم يحيون معه لحظة بلحظة ، فى اعداد كل شيء للمعركة .. فالمعركة قادمة ، ولا ريب فيها .. ولا خلاص الا من خلالها :

« اننا قادرون على خوض المعركة ، قابلون لجميع تضحياتها وتكاليفها ، واثقون ان التطور التاريخى يتحرك لصالح كل ما ندافع عنه ، ايمانا منا .. معتقدون اننا لسنا فى المعركة وحدنا . ذلك لان ما نواجهه هنا على الأرض العربية هو جزء من مخطط عام تقوم به القوى المعادية للحرية والتقدم ، بينما هى تشعر بحصار التاريخ لمطامعها .. »

وكان السادات لا يفتأ ، فى كل مناسبة ، يلتقى فيها بالجماهير ، يتحدث عن حتمية الحرب والعبور ، فهما الكفيلان باعادة مصر الى وضعها الطبيعى ، وما حالة اليأس التى اعقبت سنوات ١٩٦٧ ، الا حالة استثنائية ، وليست حالة عامة ، وليست من شيمات مصر الهزيمة : « لا مناص من المعركة ، لكى نحرر ارضنا ، ولكى نثبت للعالم اجمع ، شرقه وغربه ، اننا امة نستطيع ان ندافع عن حقنا ، نسترد ارضنا ، اننا امة قد تلحق بنا هزيمة يوم من الايام ، نخسر معركة ، ولكننا ، ولا يمكن ان نخسر مصيرنا ولا نخسر نفوسنا ، ولا ان نخسر ايماننا ، ابدا .. لن تستطيع قوى الارض مجتمعة ، ان تجعلنا نخسر نفوسنا او نخسر ايماننا .. »

لكن رغم ذلك كله ، ورغم كل التحركات التى كانت تقوم بها مصر ، والاتصالات العريضة التى كان يقوم بها السادات على المستويين القومى والعالمى ، فان الكثيرين ، حاولوا أن يروجوا لدعايات غريبة ، فحواها ان مصر لن تحارب ، واذا كان فى نيتها ذلك لفعلته ، بل وقالوا ، أيضا ، أن القضية تسير فى خط التمييع ، وأخذوا يطنطنون بأسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر ، وبأسطورة التفوق العسكرى الذى عليه ومن خلاله تتحرك اسرائيل .. كانت النغمة السائدة ، أن مصر من المستبعد أن

---

(١) جاءت هذه الكلمات فى حوار بين الرئيس انور السادات والرئيس اليوغسلافى جوزيف بروز تيتو ، اثناء تناولهما العشاء معا فى ليلة ١٤ فبراير ١٩٧١ ..

تحارب ، وأن العرب لن تقوم لهم قائمة ، فقد تغلغل اليأس الى قلوبهم ، وان الانسان العربي قد بدا يتساقط من الداخل بعد ما انهار الاقتصاد المصري .

لكن السادات ، كان لا يعبأ بذلك كله ، وكان يمضى ، قويا شجاعا ، حكيما ، في تحركاته ، في الداخل والخارج ..

ووسط مختلف التناقضات والتصدعات في الجبهة الداخلية وفي الصفوف العربية ، أعاد الوحدة في الجبهة الداخلية قوية متماسكة . وقضى على التناقضات في وحدة الصف العربي ، وقد بذل في ذلك جهودا مضنية ، من أجل أن يجمع وحدة الصف المصري والعربي ، وفي ظروف كانت تسيطر فيها مظاهر اليأس والقنوط ، كافراز طبيعي لمناخ ما بعد ١٩٦٧ ، وكان دائما وسط هذا المناخ القاسي يردد :

« ان هدفنا في هذه المرحلة ، وبعملنا السياسي ، هدف ثلاثي : أولا .. تعميق التزام الصمت . ثانيا .. تحييد الخصم . ثالثا .. عزل العدو » (١) .

وقد كتبت صحيفة « الايكونومست » البريطانية عن تلك المرحلة التي سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، تقول :

« المراقب لشئون الشرق الاوسط ، والمتتبع المسألة العربية ، في تناقضاتها ، يحس ، أن مصر ، والعرب ، عموما ، يحاولون تجنب الحرب ، خاصة بعد ثلاثة حروب مريرة وقعت بين العرب واسرائيل : حرب ٤٨ ، وحرب ٥٦ ، وحرب ٦٧ .. وما كل هذه التحركات ، الا محاولة من أجل السير في طريق الوصول الى تسوية ، وفي تقديرنا أن التعبير بالحتمية في الحرب ، ما هي الا نوعا من المناورات الذكية ، ولكن هذا لا يلغي ان هناك اعادة ترميم العسكرية المصرية ، تستهدف تغيير أساليب الحرب في القيادات المصرية ، سواء كان ذلك في تكتيك الحرب ، أو في أدوات الحرب نفسها ، أو في اشكال الدفاع والهجوم ، لكن هذه التغييرات تحتاج الى عنصر الزمن

---

(١) هذه الأهداف أو هذه الكلمات ، قالها السادات في افتتاح دورة المجلس الوطني الفلسطيني في ٢٨ فبراير ١٩٧١ .

« ولا احد يخفى عليه ، اهتمام مصر والعرب في الحصول على السلاح في اسرع وقت ممكن . لكن المحاولات التى تبذل من اجل الوصول الى تسوية سلمية لم تستنفد بعد ، والسادات يتسم بالحلم والصبر والحكمة ، فهو لا يريد ان (يورط) العرب في مأزق ، ولا يريد أن يدفع العالم الى حرب كونية ، وهذا يؤكد حسن تصرف مصر والعرب بشكل عام » .

وكان السادات ، يفطن الى حقيقة ما يريدونه : اشاعة اليأس بشكل عام ! وهو يقول في هذا :

« انكم تريدون ان تضعونا في حالة يأس ، ولكنكم لن تنجحوا في ذلك . ان فيتنام الشمالية ليست في حالة يأس رغم الانتقام الرهيب والخسائر التى توقعها بها امريكا . ان اسرائيل ستدفع الثمن غاليا وتذكروا كلماتي هذه ، فان هناك مفاجأة كبرى تنتظرهم (١) » .

وقد خاصمت سنوات ٧١ و ٧٢ ، بل وبدايات ٧٣ ، بالكثير عن استبعاد قيام حرب من جانب مصر ، بل وشارك في اشاعة هذه (النغمة) الكثير من العرب ، ممن لهم مآرب ومصالح في عدم التئام وحدة الصف العربي ، والذين يستهدفون المزيد من التفرقة داخل وحدة الصف العربي ، ومن سوريا الى الجزائر ، ومن تونس الى العراق ، ومن الاردن الى السعودية الى الخليج ، تحرك « الفارس العربي » المرتقب ، محاولا أن يبدد خيمة الظلام الهائلة التى غشت الأمة العربية منذ ١٩٦٧ .. كما تحرك (الفارس العربي) ، على المستوى العالمي بشكل واسع ، وناضج وواع ، لأول مرة ، وربما كانت هذه الاتصالات والتحركات المصرية الذكية تصاغ لأول مرة ، ومن خلال منطلق علمي وعملي سليم ـ هذا المنطلق الذى وصفته صحيفة « الجارديان » (٢) بقولها :

« كانت هناك اكثر من جولة في الشرق الأوسط ، خلالها التقى الرئيس المصري أنور السادات ، بالعرب ، كما التقى

(١) جاء ذلك في حديث لانور السادات في مجلة (نيوزويك) الامريكية في ٢٨ ابريل عام ١٩٧٢ م .

(٢) عن صحيفة الجارديان ـ في سبتمبر ١٩٧٣ م .

باقطاب افريقيا في مؤتمر القمة الافريقي ، واتخذت فيه قرارات جمعت رأيا عاما واحدا ، والتفافا واضحا حول القضية العربية .. في الوقت ذاته ، حدث التفاف عربي آخر ، وفي جبهة اخرى تحرك السادات ورجاله في الشرق والغرب ، ليكسبوا مزيدا من العطف والاقتناع العالمي بعدالة قضيتهم » .

فالحرب مع اسرائيل ، ليست جبهة واحدة ، بل لها أكثر من منعطف ، وهذا ما جعل السادات يقول :

« ان حربنا مع العدو متعددة الجبهات ، كما انها متنوعة الأسلحة ، وكنا ، وما زلنا نرفض اية محاولة لحصر عملنا على جبهة واحدة ولقصر سلاحنا على نوع واحد ونحن نريد اذا اصبح القتال المسلح هو الباب الوحيد المفتوح امامنا ان نكون في أكثر الأوضاع ملاءمة من الناحية السياسية للدخول في هذا الباب باكبر قسط من الكفاءة واكبر قدر من الأمانة وكنا نعتقد ومازلنا بان الاطار السياسي الذي نحمل فيه السلاح لا يقل اهمية عن السلاح الذي نحمله نفسه وعن ذكائنا في استعماله .. وهكذا ، فان تحرير الارض كما هو النقطة التي اخترناها للوقفة الحاسمة ، ولهذا فقد كان ضروريا ان يصل العدو الى درجة الكشف عن مطامعه في ارضنا ، وان يصل العالم الى درجة اليقين الكامل باننا فيما نواجهه لا خيار لنا غير القتال ، لانه ليس بيننا من يستطيع أن يتنازل عن ارضه .. » (١)

وقال السادات ، أيضا ، أن (النغمة) السائدة ، التي تصل الى الآذان محاولة اشاعة وترويج أن مصر والعرب هزموا ،ولن تقوم لهم قائمة . . لاتكشف الا عن (منطق) زائف ، ومضلل ، ومآله الى السقوط ،لأنه لايعبر الا عن منطق الانتهازيين والرجعيين ، وهؤلاء كنمور من ورق سرعان ما تتساقط ، لتكشف عن خرافة مواقفها ، وتعرى مآربها الخبيثة التي

---

(١) قال انور السادات هذه الكلمات في ٢٨ فبراير ١٩٧١ ، في خطابه الذي القاه في جلسة افتتاح دورة المجلس الوطني الفلسطيني ...

لا تستهدف الا اشاعة البلبلة والتشويش على كل تحرك عربي واحد يستهدف السير بالقضية الى الامام ، من أجل حل تناقضاتها ، سواء بالسلم أو بالعنف .. فاذا ما استنفذت الحلول السلمية ، أصبح العرب أمام حل واحد ، الحرب ، ولا شيء غير الحرب .. ولا شيء أبدا من الممكن ان يغير من الحقيقة :

« ان الامر الواقع في لحظة من اللحظات لا يستطيع أن يغير وجه الحقيقة الكبرى ، ذلك اذا استطعنا ادراك هذه الحقيقة واذا ملكنا في لحظة الخطر قوة الاعصاب التي تتحمل الصدمة وتقدر ان تميز وتفرق بين ما هو سطحي عابر ، وما هو طبيعي وحقيقي له قوة البقاء والدوام . لقد خسرنا معركة في الحرب بيننا وبين اسرائيل ، وهذا محتمل ، ولكننا لم نخسر الحرب كلها ، لأن ذلك معاد للطبيعة وللتاريخ وللتطور » (١) .

واستعادة النفس ، أمر ليس بالهين ، أو اليسير ، فهو يستلزم دراسة كل الواقع ، ودراسة علمية وموضوعية ، لا دراسة عشوائية تقود الى نكبات أو كبوات أخرى . فما حدث في يونيو ١٩٦٧ ، أمر طارىء ، وليس حقيقة مستمرة ، بل ستزول ، ان آجلا أو عاجلا . لكن هذا (الزوال) ، لن يتأتى الا بمزيد من دراسة الواقع ، من كل جوانبه ، ومن مختلف أبعاده ، وعلى اختلاف مستوياته :

« اننا ندرس مواقع خطانا دراسة كافية ، ولن يدفعنا اي استفزاز ، مهما كان ، الى الخروج عن تخطيطنا السياسي والعسكري ، ولسوف نمسك في ايدينا بزمام المبادرة ، ونراقب التطورات ونتعرف وفق ما تمليه علينا مبادئنا واهدافنا ، واولها : مبدأ التحرير .. وسلامة التراب العربي وحقوق شعب فلسطين .. » (٢) .

---

(١) جاء ذلك في خطاب السادات امام مجلس الشعب ، في ٤ فبراير ١٩٧١ .
(٢) جاء ذلك في خطاب السادات في ٧ مارس ١٩٧١ ، في بيانه للأمة .

وهذه الدراية ، أو هذا الفهم لواقع ومجريات الأمور ، هو جزء من النضال ، وليس مجرد (حرب كلمات) ، فحرب الكلمات الجوفاء لا تقود في النهاية الا الى منزلق وهمى ، فالنضال بالكلمات سهل ويسير ، لكن النضال الحقيقى ، والتحرك الواقعى من أجل هدف بذاته من أصعب الأمور :

« ان النضال بالكلمات سهل ، ومهما ادعى فى شكله عداء للثورة فى جوهره . وهذا الشعب المصرى ، لم يعرف فى تاريخه هذا النضال بالكلمات ، ولا ممارسه فى يوم من الأيام ، والدليل على ذلك ما قدمه هذا الشعب من عطاء حقيقى للمعركة وما سوف يقدمه من عطاء حقيقى للمعركة . واريد ان يكون واضحا لكم ، وللكل ، فى امتنا ، اننا لسنا على استعداد ، اليوم ، او غدا ، لأن نلقى بالا لأى ممن يرغب فى أن يملى علينا نتيجة معركة خضناها وكانت نهايتها عكس ما توقعنا . ان المناضلين الشرفاء يحاسبون بتحملهم لمسئولياتهم وبما قدموا من تضحيات لهذه المسئوليات واما غير ذلك فله حسابات اخرى . كذلك فاننا نقول ، بوضوح لكم وللكل ان جبهتنا المصرية هى الجبهة الصامدة الواقفة بكل امكانياتها للعدو ، لم تناور سياسيا ، بما تقفل ولم تتخل من التزامها فى الساحة ، ولم تخلط العمل القليل بالكلام الطويل او ضحالة الالتزام بطوفان من النصائح للذين يقاتلون كى تعفى نفسها من عناء القتال ... » (١) .

واذا لم تستفد مصر مما حدث فى يونيو ١٩٦٧ ، وكذلك الأمة العربية بأثرها ، فلن يصبح الدرس مفيدا . فأى أمة ، أو أى شعب ، يتعلم من ظروفه المريرة أكثر مما يتعلم من ظروفه المبهجة والمنطلقة .. والظروف الصعبة تصنع الشعوب والأمم :

« ان شعبنا لا يمكن ان يكون قد خاض تجربة الهزيمة والنصر ، دون ان يستمد منها ما يقفز به حياته نحو ما هو

---

(١) جاءت كلمات الرئيس السادات هذه فى ٢٨ فبراير ١٩٧١ فى خطابه فى افتتاح دورة المجلس الوطنى الفلسطينى .

افضل الغالبية العظمى من ابنائه . ولكن هذا التغيير يجب الا يكون قفزة في المجهول ، ولا عودة الى الوراء ، ولا جهودا مبعثرة في اتجاهات متعارضة، بل ان علينا ان نعرف على وجه الدقة اين نحن والى اين نسير . علينا ان نحدد اهدافنا ، ونبني معالم الطريق اليها ، على اسس صريحة ومحددة وواضحة . ولكي نحدد أين نحن والى أين نسير ، علينا ان نقف وقفة سريعة عند سؤال هام ، ربما كان شباب هذا الجيل ، بوجه خاص ، اكثر حاجة الى اجابة واضحة عنه ، هو : كيف ننظر الى الماضي ، وكيف ننظر الى المستقبل ؟)) .

●

● كانت أطماع هتلر بلا حدود !

● ورغم المعاهدة التي كانت بينه وبين الاتحاد السوفيتي ، والتي لم يكن حبرها قد جف بعد ، الا أن الروس فوجئوا بالألمان يهاجمونهم بقوات هائلة .. واندلعت خطوط الدفاع الأولى تحت وطأة الهجوم النازي .. وسقطت المدن الكبرى الواحدة وراء الأخرى .. وانسحبت الجيوش الروسية ، هادفة لأن تستعيد قواها وتعد للضربة الكبرى .. وأعلن القواد الروس أن الحرب تكتسب بالصبر والزمن ، وكان هذا شعارا قديما اعلنه القواد الذين هزموا نابليون بونابرت على أرض روسيا عام ١٨١٢ .. لكن ليس معنى هذا أنهم تركوا لهم الأرض هادئة .. بل تركوها طاقة تنفجر بالغضب ، فبين الألمان كان يعيش الروس ، وكان الروس ، كلهم ، تقريبا من الأنصار .. وكان الأنصار هم الذين يقلقون الجيش الألماني بالتقتيل والتنكيل والتفجير والمنشورات . وعلى بعد عشر كيلو مترات من موسكو ، وعلى حدود « ستالينجراد » أعلن المارشال « زوكوف » لجنوده ، ان الجيوش السوفيتية قد استعادت قواها ، وانها قادرة الآن على ردع العدو النازي .. وقال لهم : « لا خطوة الى الوراء .. وليحارب كل منكم كعشرة رجال » .. وكان الألمان قد اعتبروا ، أن موسكو قد سقطت فعلا ، وأن روسيا على وشك أن تهزم الروس حقيقة ، في جولة الكن هذا لم يكن

الا كبوة ، فقد كان الشعب قادرا على تنظيم نفسه من جديد ، واعادة تنظيم جيشه .

وهكذا كان الوضع فى مصر : لم تهزم القاهرة ، ولم يهزم الشعب ، كانت لديه القدرة على تنظيم نفسه من جديد ، واعادة تنظيم جيشه ، من خلال فارس الأمل : أنور السادات ، الذى استطاع برباطة جأشه ، وثباته ، وثقب نظره ، وحكمته ، ودهائه ، أن يعد كل شيء ، فى هدوء ، من أجل ان تعبر مصر ، لتتجاوز هزيمتها ..

الهزيمة أمام الشعب ، ليست هزيمة أبدية . انها ليست الا بداية للنصر ولكن من خلال اعادة النظر فيما حدث والاستفادة منه .. ومن خلال معرفة مواطن الضعف وسلبيات الماضى ، ومن خلال استيعاب كامل لكل حداثة العصر ، تكنيكيا ونفسيا وفكريا ..

وخلال الفترة من ١٩٧٠ حتى أكتوبر ١٩٧٣ ، كان الكثيرون يحسون بأن تغيرا ما يحدث فى بنية المجتمع المصرى ، وداخله ، لكنهم ، وبالذات من يرد بمصر والعرب الاستمرار فى ظروف ما بعد ٦٧ ، كانوا يحاولون ان يقللوا من شأن ما يحدث ، حتى تسود البلبلة والتشويش ، وعلى المبدئ الاستراتيجى تتحقق مآرب الصهيونية (النازية الحديثة) ومصالح الامبريالية ، وهما يلتقيان معا .. وروافدهما تصب فى النهاية فى نهر واحد ، هدفه محاولة أغراق الآمال العربية ، وعدم اعطاء فرصة للانسان العربى ان يستعيد نفسه من جديد ، وهذا مادعا صحيفة مثل « الناشونال جارديان » الى أن تعترف : « لا احد فى العالم ، يستطيع أن ينكر ، ان مصر ، قد بدأت تستعيد نفسها ، وأن الرئيس المصرى ، قد نجح فى سنوات قليلة ، وفى فترة وجيزة ، من جمع شمل العرب ، واكساب القضية العربية عطفا كبيرا من جانب العالم كله ، حتى أن الكثيرين فى الغرب ، الآن ، ولا نبالغ فى هذا ، يعترفون بشرعية قضية العرب وحتمية عودة الأراضى المغتصبة اليهم وانهاء ما ترتب من آثار عدوان ١٩٦٧ على الأراضى المصرية والسورية والاردنية ..

وعلى دول المواجهة بشكل عام .. وحتى اسرائيل ، تعترف ، اليوم ، بهذا ، ونلمس التصريح به في صحفها ونشراتها الداخلية . لكن البعض يهمهم اخفاء ذلك ، أو التقليل من شأنه ، من أجل مزيد من الاحباط للجماهير العربية في قلب المنطقة التي بدأت تخنقها الأزمة على كافة مستوياتها» .

●

كانوا يقولون داخل اسرائيل ، قبل حرب السادس من اكتوبر ١٩٧٣ :

* ان مصر لن تكون البادئة بالحرب ، فهي غير قادرة على ذلك ، وكانت أسطورة (الحل السلمى) تروج في المنطقة بشكل متسع . وكانت هناك ايماءات أو تلميحات تدور في المنطقة ، عن امكانية أن يقوم كيسنجر ، وأمريكا ، عامة ، بمبادرة سلمية تسوى القضية ، بلا حروب .. ولقد جاءت هذه الأقوال ، أو هذه التكهنات ، بعد تعيين دكتور هنرى كيسنجر وزيرا للخارجية الأمريكية ، فقد رأى أصحاب هذه التكهنات ان هذا ، وان كان لا يعنى تغييرا في الخط السياسى الأمريكى تجاه الشرق الاوسط ، الا أنه يعنى ان كيسنجر يستطيع أن يتصرف بشكل ما في القضية ، بل لقد وصلت هذه التكهنات الى حد الاعلان عن مشروع أمريكى واضح من أجل الوصول الى تسوية نشرته صحيفةالتايمز اللندية في ست نقاط جوهرية . ثم كان جزء من القضية ، أو جزء من ارتباط (القضية) بحلها سلميا، تلك الترقبات لمناقشة الجمعية العامة للامم المتحدة ، من أجل الوصول الى تنفيذ ما جاء من مطالب عامة تحاول (التوفيق) بين وجهات النظر ، بالشكل السلمى حقنا للدماء بين أطراف النزاع .

* وكان هناك اعتقاد في اسرائيل يؤكد ويسود ، الأوساط العسكرية والسياسية ، يقول .. أن أنور السادات لن يجسر على اتخاذ قرار الحرب، وان كل ما يقوله في خطبه ما هو الا مناورات سياسية واستهلاك محلى ـ على طريقة عبد الناصر !

وقد كتبت صحيفة « عال همشمار » الاسرائيلية تقول : « من المستبعد بل من المستحيل ، أن يقوم المصريون بالحرب ، ومن المستبعد ، بل من المحال، أن يتخذ أنور السادات قرار الحرب ، فالجبهة الداخلية مشغولة بمظاهرات الطلبة وبحالات الغلاء والتفسخ الداخلى ، أما الجيش فلم يقو على استعادة أنفاسه بعد ، وأمامه تدريبات صعبة حتى يصل الى القدرة والكفاءة لمواجهة ثم ان نظرية الأمن الاسرائيلى تضمن لنا التفوق الدائم .. » . وقد نشرت صحيفة (دافار) الاسرائيلية ، مقالا ، تحت عنوان « مصر .. الى أين ؟ » (١) عرضت فيه لمصر ، والبلاد العربية ، من خلال ما حدث خلال عامى ١٩٧١ و١٩٧٢ ، وقالت : « ان المتتبع لموقف مصر ، فى الفترة الأخيرة ، يلمس ، انها تتحرك فى الاطار الدبلوماسى السلمى ، فى محاولة لحل القضية سلميا ، لكن من خلال مصالحها ومنطق العرب ، واضاعة كل مكاسب حربنا فى ١٩٦٧ ، لكن مع هذه التحركات الدبلوماسية ، نحس بمزيد من الاعداد والبناء والتحضير للحرب ، ولكن متى تحدث هذه الحرب ؟ هل فى خلال التحركات الموازية للدبلوماسية العربية ، أم بعد ما تستنفد امكانيات الحل السلمى . ؟ هناك من يقولون ، أن مصر قد أعدت نفسها بالفعل ، واعادت بناء نفسها على أساس هجومى ودفاعى ، لا دفاعى فقط ، لكن هل ستبدأ هى الضربة ؟ وهناك من يستبعد أن تكون مصر هى البادئة بالضربة ، وما التصريحات التى تقال الا للاستهلاك المحلى ، ولكن منطق الأمور ، يقول دائما ، أن الشعوب لا تستعيد أنفسها الا بقيام الجيش ونجاحه فى معركة من جديد ، وهذا أعلنه أكثر من مرة الرئيس المصرى أنور السادات ومحاولة الاستغناء عن الخبراء السوفيت فى ٨ يوليو الماضى ، ما هى الا لذر التراب فى العيون ، فانهاء السادات لمهمة الخبراء السوفيت امر طبيعى ، بعد ما استنفذ أغراضه ، وقد جاء كمنطق طبيعى ، لتأكيد سياسة مصر فى

(١) جاءت هذه المقالة فى صحيفة (دافار) الاسرائيلية ، بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٧٢ وقد دعمت المقالة بارقام توضح التطور الذى حدث فى مصر فى الفترة الأخيرة ، من حيث تطور الكفاءة العسكرية والمادية ...

هذه المرحلة ، لكن مهما اختلفت الآراء فنحن امام حقيقة واضحة .. ان مصر والعرب ، يستعدون للضربة ، في أي وقت ، ولا بد أن نأخذ حذرنا ، وبشدة » .

* وكان هناك رأيان داخل اسرائيل :

** رأي يتزعمه الجنرال « الياهو زائيرا » رئيس المخابرات العسكرية الاسرائيلية ، وهو يقول .. أن الحشود علي الجبهة السورية جزء جوهري من التوتر العام الذي أعقب اشتباك الطيران السوري والاسرائيلي يوم ١٣ سبتمبر ١٩٧٣ — أي قبل قيام حرب أكتوبر بثلاثة أسابيع .. وان الحشود على الجبهة المصرية قد تكون نوعا من التضامن مع سوريا لبعث الطمأنينة داخلها ، أو ربما كان الأمر متعلقا بشكل عام بمناورات الخريف العسكرية التي دائما تمارسها مصر في مثل هذا الوقت ! !

** وكان هناك رأي آخر ، يقول .. إن الحشود على الجبهتين المصرية والسورية ، في وقت واحد ، يثير التساؤل : لماذا ؟ .. وان اوضاع القوات المحتشدة على الجبهتين المصرية والسورية ، ليس من سماته الدفاع بقدر ما هو يتميز بالطابع الهجومي ، وهذا يفسر استغناء مصر عن الخبراء العسكريين السوفيت أو هكذا بدا الأمر !

وكان رأي الجنرالات ، أو المؤسسة العسكرية ، هو الذي تغلب في النهاية . واستمر هذا الرأي يحكم إسرائيل حتى يوم الخميس ٤ اكتوبر ١٩٧٣ .. ولا يخفى ان هذا اليوم ، كان ساعة الصفر بالنسبة لحرب اكتوبر وأجل ، لمزيد من المراوغة والذكاء والدهاء ، لاعطاء مزيد من الأمان والطمأنينة ..

... وفي مساء الخميس ٤ إكتوبر ، وفي صباح الجمعة ٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت أجهزة الاستطلاع والرصد الاسرائيلية تنفي هذه المعلومات ، وتدمغها وتقول أنه لا أساس لها من الصحة .. ويقول الجنرال « آرييل شارون »

الذى قاد خـلال حرب أكتوبر هجوم اسرائيل على الضـفة الغربية من السـويس ، انه ذهب يوم الجمعة فى ٥ أكتوبر ١٩٧٣ الى مقر القيـادة الجنوبية الاسرائيلية فى سيناء ، والتقى بالجنرال (جونين) القائد العام لهذه الجبهة ، ثم دخل معه الى غرفة العمليات والخرائط فى قيادته ، ثم دقق فى احدى الصور للاستطلاع الجوى فأذهله ما رآه ، وأعلن من فوره .. ان الأمر على غير ما توقعوا ، وقال بالحرف الواحد للقائد : « أليست هذه صور عبور . انهم سيعبرون . ألا ترى ؟ سيعبرون القنـاة » . فضحك القائد ، وأقنعه ، انه يستبعد هذا ، وأن ما يراه ليس الا ضربا من الخيال ، يسيطر عليه ! لكن شارون ، استطاع فى النهاية اقناع جونين ، وذهبا الى مقابلة « موشى ديان » وزير الدفاع الاسرائيلى والجنرال « دافيد اليعازر » رئيس هيئة أركان الحرب الاسرائيلى ، والتقوا جميعا ، فى بيت جولدا مائير فى عشـاء الجمعة ، الخامس من أكتوبر ، واستدعت جولدا مائير عـددا من وزرائها .. واخذت تتناقش معهم حول الوضع الذى جد ، والذى لم يكن فى الحسبان ، وبهذه الطريقة المفاجئة التى حدثت ، وقالت جولدا مائير :

« ما يدهشنى ، حقا ، هو سرعة ما حدث ، والتقصير الذى يعطى بصماته الواضحة فى اجهزتنا وارصدتنا وتقاريرنا .. أن ثمة اشـياء غريبة تحدث فى الداخل ، اشـياء لا تنذر بالخير ولا تعطى الأمان ! » .

واتصلت جولدا مائير بأمريكا . وقالت ان الاستطلاعات تؤكد ان مصر تتحرك نحو عبور قناة السويس وبدء الحرب ، وهذا يخالف ما يتوقعونه . وان كل الأجهزة ، تؤكد هذا . وفى نفس الوقت ، بدأ موشى ديان يعد العدة لاحتمالات العبور المؤكدة ، لاجهاض ما يمكن ان يحدث .

وفى فجر السادس من أكتوبر ، اتصلت جولدا مائير بسفير اسرائيل فى واشنطن ثلاث مرات « سميحا دينتز » وحاول هـو ان يبحث عن دكتور كيسنجر ، أكثر من مرة ، وكان قد عاد الى بيته فى تلك الليلة متأخرا ، مما اضطره الى اقلاق وزير الخارجية الامريكية فى الساعة الرابعة والنصف

صباحا ، وقال له : « ان مصر ، تنوى عبور قناة السويس بجسوز واضحة وهذا تؤكده المعلومات الاسرائيلية ، وأن جولدا مائير حاولت ان تتصل به دون جدوى منذ العاشرة مساء » . كما اتصل بالدكتور كيسنجر فى نفس الوقت « أبا ايبان » ، ونقل اليه صورة الموقف بوضـوح أكثر . وكان أبا ايبان ـ وزير خارجية اسرائيل ، موجودا فى ذلك الوقت فى واشنطن ، فاتصل بالرئيس نيكسون قبل مطلع الصباح ، وأعلنه بالأمر ، وبما يدور بوضوح ـ وكان نيكسون مستغرقا فى نومه ، وأزعجـه الأمر ، تماما ، وكان يستبعد حدوث هذا ، لكنه إتصل بالدكتور كيسنجر ، وكان قبله استيقظ بدوره ، وأبلغه أن يتصل بالسفير السـوفيتى فى واشنطن ليبدو الامر واضحا .. واتصل « اناتولى دوبرينين » السفير السوفيتى فى أمريكا بالكرملين قبل أن تشرف الشمس ، ثم أمر كيسنجر بفتح الخط الساخن بين البيت الأبيض والكرملين مباشرة ، ليدور الحوار حول الأمر بين نيكسون وبريجنيف .

ودار الحوار التالى بين الاثنين من خـلال « الخط الساخن » : اذا كان فى نية مصر وسوريا ، القيام بأى عمليات ضد اسرائيل ، فعلى الاتحاد السوفيتى أن يتدخل حتى يوقف مأساة من الممكن أن تقع ، وتهدد السلام فى الشرق الاوسط ..

وعقب هذا «الحوار الساخن» بين واشنطن وموسكو ، اتصل الدكتور كيسنجر بوزير الخارجية المصرى فى امريكا ، ورجاه أن يتصل بالقاهرة ليبلغ الرئيس أنور السادات ، ليرجوه بألا يقدم على محاولة كهذه ، اذا كان هذا صحيحا ، حتى لا تتعرض المنطقة لأخطار جسيمة ، قد تهدد بوقوع حرب لا طاقة للمنطقة أو للعالم بها .. !

●

بين ليلة السادس من أكتوبر ، وصبيحة السادس من اكتوبر ، وحتى لحظة الصفر ، وعبور قواتنا ، وتنفيذ القرار بالحرب ، واتخاذ المبادأة ،

عاشت عواصم العالم ظروفا غريبة .. وكانت معظم العواصم ، وبالذات : واشنطن ، وموسكو ، والقاهرة ، وتل أبيب .. اشبه بالبركان الذى على وشك الانفجار .. كانت هذه العواصم على اتصال دائم باللاسلكى والراديو ، ومقابلات ساخنة تتم بين كل لحظة وأخرى ... فقد أحست اسرائيل بالخطر ، وهى لم تكن مهيئة له تماما ، ولم يكن أمامها الا بضع ساعات .. وماذا يمكن أن يحدث فى بضع ساعات ؟!

* موسكو ... اعتبرت ، ان أى حرب فى المنطقة ، تهدد بالانفجار ، وربما تبدأ بسيطة ، وتلقائية ، لكن من يدرى .. فربما تحولت الى حرب كونية . فمن يضمن الا يمتد الحريق الى أكثر من جهة .. !

* واشنطن .. اعتبرت ، أن قيام حرب فى المنطقة ، وفى هذا الوقت بالذات ، قد يعرض اسرائيل لبعض الخطر ، لكن من الممكن حمايتها حتى لا ترجح كفة العرب الذين يريدون أن يحققوا أى نصر على حساب اسرائيل والغرب ..

* تل أبيب ... اعتبرت ، إن الأمر مفاجأة ، وإن سياسة (الوفاق) ، لم تكن تسير فى هذا المنحى ، بل إن هذه المفاجأة قد تعرض الجيش الاسرائيلى للخطر ، وهو جيش قوى ومتفوق ، ولا أحد ينكر هذا ، لكن عنصرى المباغتة والمفاجأة قد يأتيان بغير ما تشتهى الأنفس ، خاصة وأن اسرائيل قد أخذت على غرة ، ووقت الهجوم فى يوم من أيام العيد : « عيد الغفران » ..

لم تنم اسرائيل ... ليلتها ، ليلة السادس من أكتوبر ٧٣ ، وداخل العاصمة الاسرائيلية ، كانت الأمور تغلى وتفور من آثار الصدمة التى فوجئت بها كل القيادات الاسرائيلية !

* ماذا كان [illegible] تل أبيب .. ؟ فى صبيحة السبت : السادس من أكتوبر ؟ كانت الساعة تقارب التاسعة صباحا ، عندما علمت جولدا مائير ،

ان أمر الضربة الموجهة من جانب مصر قد أصبح حقيقة ، وأن كل المحاولات من جانب موسكو وواشنطن سيكون مآلها الى الفشل . فى عصبية شديدة دعت ، جولدا مائير مجلس الوزراء ، ودار حوار ساخن ، بل ملتهب ، فى هذا الاجتماع الطارىء ، أسفرت نتائجه على الاستعداد الكامل لمواجهة (الضربة) ، ودعوة كل الاحتياطى فى البلاد ، والضغط على أمريكا للدخول بشكل واسع ، فظروف اسرائيل لا تسمح بمواجهة الضربة المفاجئة ... وفى ركن قصى من القاعة الزرقاء ، انحنى موشى ديان ، مسندا ذقنه على راحته اليسرى ، وسرح طويلا ولم يفق الا على كلمات الجمع : امامنـــا خمس ساعات فقط ! وكان يومها ، اجازة ، فى تل أبيب :

عيد الغفران .. ومعظم الجنرالات سكارى ، لأنهم ناموا ورائحـــة « الجبن » أو « الكورفوازييه » أو « الدمبل » فى أفواههم ، بل وأزعجتهم التليفونات عندما بدأت تدق فى بيوتهم فى التاسعة والعاشرة صباحا : تأهبوا لمواجهة الضربة .. مصر وسوريا ، ستهجمان .. لم يعد أمامنا الا ساعات قليلة .. ومن (شاهال) قيادة الجيش الاسرائيلى ، تم الاتصـــال بكل القيادات ، ومن (أم خشيب) ، سيناء ، بدا الانذار الى كل الوحدات فى سيناء وفى مواجهة الخط الأمامى على القناة .

وقد قال أحد الجنرالات ، فى صبيحة ذلك اليـــوم ، وكان قد أخذ زوجته وبناته الثلاث فى رحلة خلوية خارج تل أبيب : « ولماذا لم يخبروننا من قبل ؟ ان تل ابيب تنام فى العسل . كيف يتحرك جيش بكامله ، خلال خمس أو ست ساعات لمواجهة استعدادات لم تكن فى الحسبان ؟ حقيقة أننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط ، لكن المباغتة تضعف أعتى الجيوش وأكثرها كفاءة ، ولا أحد ينكر هذا ؟! » .

●

وبين موسكو وواشنطن ، كانت الاتصالات على أشدها ، حتى يتم ايقاف « مفعول القنبلة » ـــ على حد تعبير صحيفة « الجارديان » ، قبل أن تنفجر !

وقبل أن تشرق شمس السادس من أكتوبر ، دار الحوار التالى بين الدكتور هنرى كيسنجر والسفير السوفيتى فى واشنطن « اناتولى دوبرينين» وكان الحوار ساخنا للغاية ، وننقله هنا بالحرف الواحد (١) :

« د. هنرى كيسنجر : لابد من وقف ما يحدث . ان هــذا يمثل خطره الشديد ان الرئيس الامريكى قد أمر بفتح الخط الساخن حتى لا تحدث المأساة ...

آناتولى دوبرينين : أعرف أن هناك ريبة فى الأمر ، وهذا مالا يحمد عقباه !

د. هنرى كيسنجر : هناك نية مبيتة بين مصر وسوريا للهجوم على اسرائيل ، والرئيس الأمريكى طلب منى أن تتدخل موسكو فورا . فاسرائيل ليس لديها نية للهجوم فى الوقت الحالى . أنا من جانبى سأتصل بالرئيس السادات . بل سنرسل له رسالة فورية .

أناتولى دوبرينين : نفس الشىء سيحدث من جانبنا . سأتصل بموسكو فورا . ومرة أخرى . وأنا أعلم ان الرئيس نيكسون قد اتصــل بالرئيس بريجنيف .. »

وكانت الساعة قد وصلت العاشرة صباحا . فى القاهرة . وكل شىء يتحرك فى هدوء ، بينما الاتصال بين موسكو وواشنطن على أشده . فى القاهرة ، كانت الشوارع هادئة ، حقا ، لكن طريق الهرم ، وطريق السويس وطرق أخرى ، كانت تشهد حالات غير عادية .. وكان الصمت يغلف كل شىء ــ ذلك الصمت الذى يسبق هبوب العاصفة !

●

---

(١) عن صحيفة « لونوفال اوبزرفاتور » الفرنسية ، فى مقال كتبه ج. آلبا ، تحت عنوان : « القصة كاملة بين الخط الساخن : موســـكو وواشنطن ... والمنطقة الملتهبــــة فى الشرق الأوســـط » .

حتى ظهيرة يوم السبت السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت أسطورة الحديث عن وهم الجيش الاسرائيلى تروج فى كل شبر من المنطقة العربية ، بل وفى العالم أجمع ، وكان الجميع لا ينفكون عن الحديث عن نظرية الأمن الاسرائيلى . فهناك تجمع المحاربين داخل المجتمع الاسرائيلى ، والذى لا يسمح ابدا باختراق الحصار الصعب .. وهناك (الأرض) الاسرائيلية وسط الحصار العربى المتسع .. وهناك الى جانب ذلك رواسب التاريخ اليهودى نفسه كالأسر البابلى ومذابح هتلر .. وهناك نظرة اسرائيل الى العرب ، واعتقاد الجميع أن العرب لن يكونوا أبدا البادئين ... وانطلاقا من نظرية (الامن الاسرائيلى) ، بلورت المؤسسة الاسرائيلية العسكرية نظرية الأمن الخاصة بها فى الكثير من المراكز والمواقع التى لا يمكن اختراقها فقد أنشأت اسرائيل القاعدة العظيمة — أو الوطن اليهودى على أساس واضح منذ البداية ، تعتمد على خلق « كميونات » عسكرية ، تمثل أو تتمثل النازية الحديثة فكريا وعسكريا وماديا . وقد نجحت اسرائيل فى عام ١٩٦٧ فى الحاق الهزيمة بمصر ، لا لشىء الا للمناخ والظروف التى سادت مصر فى تلك الفترة — وهذا لم يكن أمرا طبيعيا ، بل كان حالة استثنائية ، ولم يكن قاعدة ، وقد حسبت اسرائيل لنجاحها فى هذا ، ان نظرية الامن الاسرائيلى قد نجحت ، وقد أكد موشى ديان فى حديث له فى يناير عام ١٩٧٠ على ذلك بقوله : « ان هدفنا أن نجعل المصريين يفقدون توازنهم عن طريق انزال ضربات ساحقة بهم من كل نوع ، حتى يتعذر عليهم ، من الناحية العسكرية والنفسية ، الاعداد لحرب جديدة ، وانطلاقا من نظرية الأمن الاسرائيلى ، وهى الاساس الذى يضمن لاسرائيل السلامة والامان والسيطرة » . فقد كانت (نظرية الأمن الاسرائيلى) ، تقوم على الفرض بالقوة ، وكانت ترتكز على جملة عناصر واضحة يمكن اجمالها فى : أهمية أن تكون المبادأة فى يد اسرائيل دائما ، ولا يمكن أن تكون المفاجأة من طبعها ، والاعتماد أساسا على القتال بتخطيط كامل وبوعى دائم لا يستطيع

العرب أن يصلوا اليه . لكن هذه النظرية ، اهتزت ، تماما ، ببدء حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ..

وكان « حاييم بارليف » رئيس الأركان الاسرائيلى ، قد صرح فى ١٩ ابريل عام ١٩٦٩ .. ان تفوق اسرائيل العسكرى على المصريين ، كبير للغاية ، لدرجة أنهم لا يستطيعون ، أبدا ، الرد على المدافع الاسرائيلية وهذا يمكن اسرائيل الحاق الهزيمة والخسائر تلو الهزيمة والخسائر بمصر . ويقول « حاييم بارليف » ، ايضا : « ان نظرية الامن الاسرائيلى ، هى الأساس فى كل منطلقاتنا ، فقد قمنا بايجاد مرتكزات الأمن ، على أساس الاعتماد على عوامل الأرض والحدود الآمنة والقوة البشرية الى جانب الاعتمـاد على كفاءة أجهزة المخابرات والقوة العسكرية الرادعة ، فمن الطبيعى أن تتوقف برهة لتقييم مدى صلاحية هذه النظرية من واقع مرتكزاتها سالفة الذكر وعلى ضوء معارك الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة التى بدأت عندما انطلقت الشرارة ظهيرة حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ » . وكان هـذا الاحساس ، يسود اسرائيل ، تمـاما . فقد كان « خط بارليف » ، من الخطوط الدفاعية الكبرى ، التى أقيمت ، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ، وعلى حد تعبير صحيفة (دافار) الاسرائيلية :

« ان خط بارليف ، من الخطوط الهامة ، التى اقيمت لتكون قوة رادعة كاملة ، ضد اى محاولة يجرؤ ان يقـوم بها العرب . فهو مقام على اساس علمى ، ووفقا لاحـدث الخطوط الدفاعية المعاصرة ، ولا نبالغ اذا قلنا انه اعظم خط دفاعى اقيم فى تاريخ الحروب قاطبة حتى الآن . فلو كان هذا الخط لهتلر ، ، مثلا ، لما هزم ، ولو كان هذا الخط لاية دولة فى الحرب العالمية الثانية ، لجنبها لاى هزيمة .. فهذا الخط الدفاعى لا تؤثر فيه القنابل ولا الصواريخ ، ولا اى محاولات ، وسيظل شاهدا ، على مدى السنين ، ليعلن عن قدرة اسرائيل ، وتفوقها العالى فى مجال فنون الحرب العسكرية الحديثة » .

وخط بارليف .. أعظم خط دفاعي ، أقيم في الحروب المعاصرة ، وعرفته الشعوب المحاربة خلال هذا القرن . فخط مثل « ماجينو » الفرنسي ، أو خط مثل « سيجفريد » الالماني ، يتضاءلان أمامه الى حد كبير . فخط بارليف ، يمثل ما نعا صناعيا محصنا جيدا ، ويبلغ طوله قرابة ٨٠ كيلو مترا ويمتد من جنوب بور فؤاد شمالا حتى شمال بور توفيق جنوبا على طول الضفة الشرقية لقناة السويس ، ويحتوي على نقاط حصينة تضم ٢٥ نقطة مركزية ، مدعمة بالخرسانة المسلحة السميكة ، وقضبان من الفولاد ، وتصل قدرة الافراد في كل نقطة الى ٣٠ فردا ، كما يتراوح ارتفاع الساتر والدروة أمام الخط ما بين ١٨ و٢٠ مترا فوق سطح القناة ، وقد حمى الخط بأكتاف وبنقاط أخرى تمتد على امتداد القناة التي يصل طولها الى ١٧٦ كيلومترا وقد تكلف هذا الخط المنيع ٢٣٨ مليونا من الدولارات ... وكانت اسرائيل ، بل ، العسكريون ، في العالم أجمع ، يعتبرون أن خط بارليف من المعجزات العسكرية ، وقد وصل الأمر بقيادات اسرائيل الى أن تقول : « ان خط بارليف ، يمثل ليس معجزة هندسية فحسب ، تحمي اسرائيل وتقف حائلا دون أي محاولة مصرية للعبور ، بل انه ، أيضا ، يقضي نهائيا على أي محاولة للتفكير في اختراق هذا الخط العصري الصعب ، فقد وضع وصمم بشكل عصري مائة في المائة ، والنقط القوية به منظمة بطريقة الدفاع الدائري التي تحول دون أي امكانيـــة للهجوم ، والنقاط الحصـــينة بالخط معززة بالرشاشات والمدافع والصواريخ والهاونات ، ومزودة بأحدث وســائل الاتصال التكنونوجي لاسلكيا وراداريا وبكل أجهزة الأمن المستحدثة » .

وقد صرح موشي ديان وزير الدفاع الاسرائيلي في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٩ في حديثه عن هذا الخط ، بقوله : « ان عمليات العبور المصرية ، اذا حدثت ، لن تؤثر على قبضة اسرائيـــل الحازمة على خط بارليف المنيع ، وســيتلقى المصريون الرد الحاسم ، فالتحصينات على خط بارليف ، أكثر تحصــينا وتنظيما ، وكان يمكن أن يحدث أي شيء ، أي معجزة ، ما لم يكن هذا

الخط موجودا ، فهذا الخط لا يمكن اختراقه أو اجتيازه . اننا ، أقوياء ، بدرجة تكفي للاحتفاظ الى الأبد بخط بارليف ، فمبالغ طائلة قد أنفقت على تنظيمه ، وقد أقيم على أحدث ما يجب أن تقوم به أحدث الخطوط الدفاعية في عالمنا المعاصر » . وقد كتبت صحيفة (التمبو) الايطالية ، عن هذا الخط الدفاعي في أوائل عام ١٩٧٣ ، تقول :

« أن خط بارليف ، يبدو كالأساطير ، حقسا ، فهو مقام بشكل لا يسمح بالنفاذ اليه ، فليست هناك اى ثغرة تسمح بتحطيمه او اجتيازه ، فهو سد صناعى منيع ، يفوق اى سد دفاعى اقيم فى قرننا الحالى ، وهو افراز حضارى للحروب النووية والألكترونية . وليس غريبا ، ان تقيم هذا الخط دولة كاسرائيل ، وهـذا يجعل مصر ، تفكر ، كثيرا ، قبل أن تتخذ اى خطوة ، ونحن نستبعد ان (تهاجم) مصر ، عن طريق هذا الخط الدفاعى ، فمن يقبل أن يضرب راسه فى سد خرسانى هائل ؟ ! .. »

والجنرال حاييم بارليف ، تشدق كثيرا ، بهذا (الخط) ، الذى يحمل اسمه ، وتحدث عنه فى أكثر من مناسبة ، بل أن اكثر من حديث اذاعى وتليفزيونى ، قد تحدث من خلاله بارليف عن هذا الخط ، وبين ما قال :

« ليس الأمر باسطورة ، ولا بمعجزة انه مجرد تفـكير علمانى ، أوصلنا اليه الهدف السليم ، والدراسة العلمية للمنطقـة التى حاربنا فيها لأكثر من ربع قرن ، فقـد كان من الطبيعى أن يقام هذا الخط منذ سنوات ، حتى تصمت اى محاولات ، وحتى يتم تامين اسرائيل تماما » .

وكان آخر تصريحات الجنرال « حاييم بارليف » يوم ٩ مارس ١٩٧٣ ، ما قاله فى حديث اذاعى براديو اسرائيل ، حينما أجاب عن سؤال وجه اليه عن الثمن الذى تقبله اسرائيل مقابل التخلى عن خط بارليف ، فأجاب : « اننا لن نقبل ترك هذا الخط الا مقابل أمرين أساسيين : أولا .. الاعتراف والاعلان بأن الحرب قد انتهت بيننا وبين مصر ، خاصة ، والعرب عامة .

ثانيا .. الاعتراف بأن اسرائيل لن تعود الى خطوط ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وخط بارليف خط قوى ، ولن يقهـر ، وأى محـاولة لاجتيـازه ، لن تلقى الا السقوط والموت والانهيار ، وهذا ما يجعلنا نحس بالطمأنينة الكاملة » . ويضاف بالطبع الى هذا الخط الدفاعى ، مانع قناة السويس المائى ، الذى يجعل أى عبور معرضا للكشف وللضرب بسهولة ..

●

لم يكن أحد يتوقع ، أن تحدث « المعجزة » . ان تضرب مصر . حتى المصريين ، أنفسهم ، كانوا ، لا يستطيعون أن يصدقوا ، أن هذا من الممكن أن يحدث ، فقد تعود الجميع صمت مدافعنا ، ولفترة ليست بالقليلة على الجبهة . بل والبعض ، داخل مصر ، نفسها ، كانو يرددون ، ما تردده بعض « الجيوب العربية » ، أو بعض الاقاويل الغربية : ان مصر لن تضرب ، وان ما يقال ، ليس الا للاستهلاك المحلى . فمن غير المعقول أن تحارب مصر ، وهى منهارة داخليا من الناحية الاقتصادية والنفسية ! وهـذه الاقاويل ، طبعا ، كانت ترمى الى الحاق المزيد من المزق بداخلنا ، وبصفوفنا وكانت تركز أساسا على محاولة زعزعة الثقة بنفوسنا — فعلى حد تعبير القادة الاسرائيليين ، « ان مصر سقطت وهزمت فى يونيو ١٩٦٧ ، وبقى اسقاط وهزيمة الانسان المصرى نفسه ، من الداخل ، وهذا سيحدث بفعل الانهيار الاقتصادى والازمة النفسية » . لكنهم ، نسوا ، ونسى الكثيرون معهم ، ممن لا يدركون كبد الحقيقة ، ان مصر قد تكبو لحظة ، لكنها لا تموت ، وان الشعب المصرى قد يهزم فى جولة ، لكنه ابدا لايموت ، فكيف يموت شعب وأمة ، تقف على أرض حضارية عمرها سبعة آلاف سنة، أعطت الحياة والعلم والخلق للوجود ، فى كثير من العصور ؟! انهم باغفالهم هذه الحقيقة ، كانوا يلغون منطق التاريخ ، والعلم !

●

كان ينظر الى المياه الزرقاء ، التى تقبل فى اشتياق غامض على الشاطىء يتأمل الشمس الغاربة ، التى بدأت تغوص فى المياه ، نفث بعض الدخان من غليونه ، ثم عاد يمسح جبهته العريضة ، وتنهد طويلا ، ثم أخذ ينظر الى البحر بعمق من جديد ...

ــ ما أصعب الظروف ، وما أقسى المحنة . لقد أخذت الجولة الكثير من الجهود المضنية . ولم يعد غير اتخاذ القرار ...

كان المكان شاطىء (برج العرب) غرب الأسكندرية . وكان « الزمان سبتمبر ١٩٧٣ » فى أعقاب جولة واسعة على المستويين القومى والعالمى ، وقبل قيام الحرب بأسبوعين فقط ...

تحسس (الفارس)العربى جبينه ، وعاد ينظر الى البحر ، وأخذت تطارده لحظات النضال التى مارسها فى حياته .. من سجن الى سجن .. من مدينة الى مدينة ... من مرحلة الى مرحلة .. كان الفارس العربى لا يهدأ ... لكنه ، اليوم ، حيال ظروف غاية فى الضراوة .. فهو حيال تاريخ وحضارة أمة بكاملها ، تمتحن ارادتها وتختبر .. ولابد أن يكون القرار حكيما ، ومتزنا ، ولا يتسم بالانفعال أو العاطفية .. فعلى أساسه ، سيتحدد مصير مصر والعرب لسنوات طويلة ... ان هذا القرار قدر مصر وقدر العرب .. لكن لا بديل غيره . لقد مهد كل شىء . وصنع كل شىء . ومصر معطاءة ، عظيمة ، قادرة على خوض المعارك ، وبضراوة ، لان أبناءها يحملون داخلهم لهبا عظيما من خلاله سيغسلون العار والهزيمة .. فما حدث فى ٥ يونيو ١٩٦٧ لن تمحوه الا النار ، ولا خلاص الا بالبارود ... ولا يمكن أن يعود الأمان والسلام الى المنطقة ، دون عودة الأرض ، ودون استعادة الروح المغتصبة .

ــ فلنعبر ، ولننتصر ، ولنعيد صرح الأمة من جديد .

طائر بلا عش ...

لا يخشى على نفسه من القيد ...

لا يخشى على نفسه من الحرب ...

فالهدف عظيم ، والغاية رائعة : مصر ، مصر ، مصر ... لابد أن تعود الابتسامة الى شفتيها من جديد ، ولابد أن يعبر أبناؤها ، ويغسلون عار الهزيمة بالدم والنار ، ولا بد أن تعود الأرض الى أصحابها ، فما دام هناك جزء من الأرض مغتصبا ، فلا أمان ، ولا سلام ، كيف يتنفس الجسد وجزء من أوصاله مقيد أو مشلول :

ــ وماذا يخشى ؟ ان قدره على كفه ، كالأبناء الذين يتنفسون أيامهم ولياليهم ، على خطوط النار ، وداخلهم ايمان عظيم بمصر ، وبحتمية انتصارها ..

ان الفارس العربى ، قد قرر ، ومعه قرر أبناء الأمة العربية الخلص ، الشرفاء ، أن تعود روح الأمة من جديد .. ولا خلاص الا بـ (العبور) . لقد تم الاتفاق ، وتوحد الصف ، وامنت الجبهة الداخلية ، ولا بد أن يجرد الفارس العربى سلاحه من غمده ليمسح عن جبين مصر والأمة العربية تراب ٥ يونيو ٦٧ ، وليضع الغار والأزهار على جبين الأبناء الذين سيعبرون ويأتون بالنصر ...

وما دامت الارادة قوية ، وما دام الايمان عظيما ، وما دامت الحسابات قد قيمت بعقل راجح ، فلا شيء يقف أمام تقدم الهدف العظيم ..

كم حاولوا ان يبعثوا اليأس ؟

كم حاولوا أن يبلبلوا الأمة ؟

كم حاولوا أن يبرزوا مصر ، على أساس أنها انتهت وتمزقت : فليفتح العالم أجمع عينيه تماما للحظات القادمة ، وليستمع الى الارادة العظيمة .. فمصر ستعبر ... والعرب سيصنعون « المفاجأة الكبرى » ..

●

كانت الساعة قد فارقت الواحدة بعد الظهر ، من يوم السبت السادس من آكتوبر ، عندما وصلت رسالة واشنطن الى القاهرة ، وكان وقتهـا السادات قد انتقل الى مقر قيادة العمليات ، وقـد وقف أمام الخرائط والرسوم البيانية يدخن غليونه فى تؤدة شديدة ، ثابت الجأش ، قويا ، وبين كل لحظة وأخرى تنظر عيناه الى الساعات الدقاقة ، ولحظتها عنـدما فض الرسالة لم يهتم ، ولم يبال ، فقد اتخذ القرار ، وعزم على الأمر ، وكله ايمان وحكمة .. فماذا تهمه الرسائل ، وفى هذه اللحظات الحاسمة .. لقد اتخذ

القرار ، وعزم على الأمر ، والدقائق ، بل الثوان تزحف بسرعة أو ببطء ، ولم يعد على « ساعة الصفر » ، الا القليل من الدقائق .. لقد أغلق رأسه عن كل شيء ، ولم يعد يرى الا الهدف العظيم الذى هو بحياله : العبور ، وتحطيم خط بارليف ، وابطال مفعول اسـطورة الجيش الاسرائيلى ، وتحقيق المهمات العظيمة لاستعادة الارض ...

الساعات تدق ، وقلبه ، يدق ، أيضا ... ان وجيف قلبه يعلو عن الزمن فى هذه اللحظات .. وقلب مصر ، يدق ، أيضا ، وبصوت عال ، فى انتظار اللحظة الحاسمة ..

وماذا يهمه من « الخط الأحمر » ، أو الرسائل ، أو الحوار الذى يجرى بين موسكو وواشنطن . لقد استنفذت كل هذه الحلول ، وأصبحت فى خبر كان ، ولم يعد أمامه الا تنفيذ (القرار) ، واعلاء حق مصر والعرب ..

ودقت الساعة الواحدة والنصف ، ومعها دق كل قلب مصر ، بل الأمة العربية ، بل العالم أجمع ارتجفت تحت أقدامه الأرض واهتزت ..

الواحدة والنصف ، بعد ظهيرة السادس من آكتوبر ٧٣ : أبناء مصر ، زهرة شبابها ، يعبرون القنـاة ، يحطمون خط بارليف ، يقضـون على أسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر فى ساعات قلائل ... شباب مصر ، رجالها ، يعبرون الهزيمة ، ويرفعون العلم المصرى على ضفة القناة ،

وعلى خط بارليف ، وبعد صمت طويل من مدافعنا ، عادت البسمات الى القاهرة ، الى كل مصر ... الى دمشق ، والى كل سوريا ... وفى كل شبر من الأرض العربية دق قلب الارض دقات الانتصار ..

كانت حرب السادس من اكتوبر ٧٣ ، التى انتهت بعبور قواتنا وتحقيق مهامها العسكرية والاستراتيجية ، من أخطر أشكال الحروب المعاصرة لعدة عوامل هامة نجملها فى :

* طبيعة المانع المائى لقناة السويس ، فى مواجهة قواتنا ، ويمتد الى ١٧٦ كيلو مترا بعرض يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ مترا — هذا الخط الطبيعى أو المانع الطبيعى ، هو الذى استندت اليه استراتيجية الدفاع الاسرائيلى

* طبيعة المانع الصناعى الذى أقامته اسرائيل : خط بارليف ، والذى بدأته فى أعقاب معارك ١٩٦٧ ، ثم دعمته بالمزيد من التحصينات القوية ، يعد من أمتن التحصينات القوية فى عصرنا ، وقد اقيم على مرحلتين ، وقد استغرق انشاؤه ثلاث سنوات كاملة ...

وقد استطاعت قواتنا ، قهر هذا الخط الحصين ، واجتياز المانع المائى ، نتيجة التدريب الشاق العنيف على القتال لسنوات ، وكان المنهج الذى تدربت عليه قواتنا ينطلق من عنصر المفاجأة والمباغتة — التى لم يكن يترقبها أو يتوقعها ، الاسرائيليون . وكان عنصر المباغتة من العناصر الهامة فى المعركة فقد كان لدى الاسرائيليون « فكرة ثابتة » ، ساعد على ترويجها الغرب نفسه ، وهى ان المصريين قوم مسالمون ولايميلون الى الحرب ، بحكم تكوين نفسيتهم ، وبحكم التضاريس والمناخ الذى يحيونه ، فأراضيهم ليست بالوعرة ، ومساحات بلادهم مسطحة ، ونهرهم يمتد فى انبساط وانسياب تلقائى ، لذلك لا يميلون الى التطاحن ، ونسوا ان مصر قد خاضت العديد من الحروب خلال عمرها الحضارى الطويل ، وابلت خلال مختلف العصور الكفاءة والبسالة والبطولة التى سطرها التاريخ فى اعجاز ، سواء فى العصور السحيقة الموغلة فى القدم ، أو العصور الوسطى ، أو فى العصر الحديث ..

وكان عبور قناة السويس ، يمثل المرحلة الأولى من مراحل حرب التحرير ، ثم بدأت المرحلة الثانية بالتركيز على تدمير قوات العدو ، فكما هو معروف فى استراتيجيات الحروب ، انه من المهم فى الحروب تدمير القوات المعادية وليس الاستيلاء على الارض ، وربما هذا ما دعا قائد مثل (كوتوزوف) ـ القائد الروسى الذى خاض المعارك البطولية ضد نابليون بونابرت فى عام ١٨١٢ الى أن يقول بعد ان استولى الجيش الفرنسى على معظم الأراضى الروسية حتى وصل الى مدينة « بوردنيو » : أنا لا يهمنى أن تسقط المدن ، أو يستولى الفرنسيون على مزيد من الأراضى ، فانا أساعد فى ذلك ، أنا احرق المدن ، كل ما يهمنى ان أدمر قوات نابليون ، وبهذا أجهز عليه تماما ..

كذلك كانت تفعل قواتنا ، تسير فى طريق تدمير العدو ، بعد عبور القناة ، اذ لا قيمة للتقدم والاستيلاء على أراضى لمسافات شاسعة ، بقدر ما هو مهم تحطيم قواته ..

وقد بدأت قواتنا فى تنفيذ المهام القتالية التى تنقل المرحلة من حرب التحرير الى حيز التنفيذ ، وشنت هجمات عديدة ، قاسية ، بالمدرعات والمشاة الميكانيكية ، وقد غطى الطيران المصرى عمليات التقدم والهجوم ببسالة نادرة ، وخلال المعارك البرية حققت قواتنا انتصارات متنوعة عديدة ، أبرزها تدمير اللواء الاسرائيلى المدرع (١٩٠) وأسر قائده عساف ياجورى وتدمير اعداد هائلة من الدبابات والمجنزرات واسقاط ما يزيد عن تسعمائة طائرة اسرائيلية بصواريخ الدفاع المصرية .. ولأول مرة فوجىء العدو الاسرائيلى ، بأنه فى موقف حتمية ان يدافع عن نفسه ، بعد أن كان هو الذى يبدأ فى الهجوم ، دائما ..

ويرى الكاتب السياسى « سافران » فى مقال نشرته مجلة « السياسة الخارجية الأمريكية » ان عنصر المباغتة فى حرب أكتوبر ، وكفاية العرب ، وكفاءتهم ، كانت من العناصر الواضحة التى حققت الكثير من المهام القتالية للعرب ، وهو يرى أن البعد العسكرى لحرب السادس من أكتوبر يزود

الباحثين بمادة غزيرة للدراسة وبرؤية يتوافر فيها الوضـوح على كافة المستويات ، من التحركات العسكرية الى الخطط التنظيمية . ومن الاستراتيجية فى مجالاتها المتنوعة الى المستوى الذى تندمج وتتلاحم فيه الحرب بالسياسة ..

وقد اعترف العميد والكاتب الاسرائيلى « حاييم هاتسوك » بتفوق قواتنا ، فى مذكراته التى كتبها عن حرب السادس من أكتوبر ، فقال : « ان صرخات جنودنا فى الحصون منذ الساعات الأولى فى خط بارليف ، كانت تمثل صرخات الاستغاثة أكثر منهـا صرخات طلب عون .. كانت صرخات البرت فى الساعة الحادية عشر صباح يوم السابع من اكتوبر تطلب العون ، بينما صرخ دان يطلب من البرت الغوث ، فقال له : استمر ، ثم قال له : بعد قليل ، حاول أن تنقذ ما يمكن انقاذه ، فقال له : أريد حلا ! أين الطيران ؟ فأخبره البرت بأن عليه ان يعتمد على طاقة ما بقى من قواته ، لأن الطيران كان ملتحما بالطيران المصرى » ، وكان يتسـاقط كالذباب على صحراء سيناء . وقد اعترف حاييم هاتسوك ، ببسالة المقاتل المصرى ، وبما ابلته قوات المدرعات والمشاة المصرية فى الحرب البرية على الضفة الغربية .. كما اعترف ، أيضا اللواء « جابى » فى الأيام الأولى من المعركة بتغير الحال ، وبارتفاع كفاءة الحرب القتالية للعرب . حتى أنه قال : « اننى فى ذهول ودهشة من أمرى .. هل هؤلاء بالفعل الذين حاربناهم منذ ست سنوات ، فى يونيو ٦٧ ، اننا نواجه عدوا آخر ، بالقطع ، يتميز بالشراسة ، وبالكفاءة العالية ، وبالتدريب المتقدم » .

●

كان العبور .. معجزة !

كان العبور .. قدر مصر والعرب !

كان ملحمة كبرى .. اشبه بتلك الملاحم التى كتبها فيرجيليوس ..

هؤلاء الرجال البواسل ، الذين عبروا فى قوارب من المطاط لتمهـد لاقامة الجسور على الضفة الشرقية .. وتحت وابل من النيران والبارود ،

تحركوا لصياغة تاريخ مصر والعرب من جديد ، بعد سنوات من المرارة والحنظل واليأس والخوف ...

وفى أقل من ثلاث ساعات ، ابتداء من الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السادس من اكتوبر ١٩٧٣ ، كانت مصر قد عبرت ، وحطمت جدار الخوف .. واشتبكت فى العديد من المعارك الضارية الشرسة ..

ولقد حرصت قواتنا ، منذ اللحظة الأولى فى القتال ، على أن تلزم العدو الاسرائيلى « وضع الدفاع » ، فالقوات المصرية لا تحارب من مواقع ثابتة ، بل تتحرك تشكيلاتها المقاتلة فوق سـيناء ، بحيث لا يمكن لأى محاولة اسرائيلية ان تنجح فى احتوائها ، أو الالتفاف عليها .. ولقد أجهزت قواتنا على خط الدفاع الأول فى ساعات قلائل ، الا وهو خط بارليف .. ثم دخلت فى سلسلة معارك المدرعات والدبابات الشرسة وخلال الأسبوع الأول من الحرب ، تم الاجهاز على الاحتياط التكتيكى الذى كان العدو يحتفظ به فى مساحة قريبة من قناة السويس ، للتصدى للهجمات المصرية ، حتى تعطلها الى أن تصل المدرعات والتشكيلات الميكانيكية الموجودة فى عمق سيناء ... وهذه الوحدات اشتبكت معها قواتنا ودمرت معظمها قبل نهاية الأسبوع الأول من الحرب !

الى وقت طويل ، سيظل هذا (العبور) حدثا مثيرا لا للعسكريين أو الساسة أو المفكرين فحسب ، بل لكل الأجيال القادمة .. فالفيلد مارشال مونتجمرى ، احتاج الى خمسة أيام من التمهيد بالمدفعية ومن محاولات الاختراق والتحرك لاجتياز حقل الألغام الكبير فى (العلمين) لكى يتغلب على محاولات روميل سنة ١٩٤٢ ، هذا من أجل اجتياز حقل الغام ، فما بالك بمانع مائى مكشوف وبخط عسكرى رهيب يمتد بطول قطاع القناة الذى يصل الى ١٧٦ كيلو مترا .. وبمعارك شرسة ضارية ، تدور رحاها فى عمق سيناء ، وتشترك فيها دبابات ضخمة متنوعة ، هى نتاج أحدث ما أفرزته تكنولوجيا العصر فى الحروب الحديثة ..

وهذه التغيرات التى شهدتها فنون الحرب والعسكرية الحديثة فى قناة

السويس ، وفى سيناء ، وفى هضبة الجولان السورية ، ستظل الى وقت طويل ، موضع دراسة الثقات فى السياسة وفى العسكرية ـ والمتخصصين فى شئون الحرب العسكرية .. فخلال معارك الدبابات العظمى فى جبهة القتال ، والبالغة الشراسة والعنف ، فقد العدو جزءا كبيرا من خيرة قواته وقد فوجىء ، بوضع جديد لم يتعود مواجهته ، وهو القتال على جبهتين فى وقت واحد ، وفى البداية ركز العدو جهده العسكرى على الجبهة الشمالية حتى ينتهى تماما من القتال هناك ، ليستدير الى الجبهة الجنوبية ، وهذا ما اعتاده دائما ، أن يقاتل فى جبهة واحدة ، يحشد قواته كلها ويركزها فى اتجاه واحد ، لكن قواتنا اتبعت تكتيكا آخر ، لتشتت طاقاته وقدراته القتالية فى اتجاهين ، ولأول مرة فى تاريخ قتاله ، يجد نفسه مشتبكا على جبهتين متباعدتين ، غير أن العدو ركز فى الأسبوع الثانى وبعده من القتال على الجبهة الجنوبية ومن خلال سير المعارك ، لاحظنا محاولاته المستميتة فى تطبيق تكتيكاته القتالية المعروفة ، فقد ركز كل قواته فى محاولة للهجوم على منطقة معينة بالجبهة المصرية ، هى ، القطاع الأوسط مستهدفا فى ذلك محاولة اختراق القوات المصرية المتمركزة فى سيناء ، والوصول الى قناة السويس ، وكانت قواتنا تضع كل الاحتمالات التى يمكنه اللجوء اليها ، وكان أبرزها هذا الاحتمال ، ومن هنا جرت المعارك العنيفة الضارية التى تحدث عنها كل العالم من خلال المراقبين العسكريين والصحفيين والمراسلين العسكريين الذين شهدوا عن قرب هذه المعارك الضارية .

وطبقا لمنطق العدو العسكرى ، أيضا لجأ الى عمليات عسكرية وهمية ، كان الغرض منها دعائى بحت ، فأرسل وحدات من قواته لتتسلل الى البحيرات المرة على الضفة الغربية حتى يمكن لقيادته الوقوف والاعلان ، أن القوات الاسرائيلية تحارب غرب القناة ، وعكس هذا التصرف حمق العدو وفقدانه الاتزان ، اذ أن هذه القوات غاصت فى بحر من نيران المدفعية المصرية ، والمدرعات وهجمات الرجال ، واذا نظرنا الى حجم الدعاية الاسرائيلية حول هذه العمليات وعن القوات الاسرائيلية المتسللة لوجدناه عظيما ، كان العدو

يحاول أن يرفع من معنوياته داخل اسرائيل ، ولكنه نسى أن يطبق نفس عقيدته العسكرية فى ظروف مغايرة .

والمتتبع لسير معارك أكتوبر ، يلاحظ أن وقوع المعارك الكبرى فى (حرب الدبابات الضارية) ، والتى تميز بها الأسبوع الثانى للقتال فى سيناء ، كان يتضمن عناصر ايجابية بالنسبة لنا ، فهذه المعارك لم تكن فى عمق سـيناء ، بل كانت بالقرب من ضـفة القناة ، بعيـدا عن قواعده الخلفية ، وطول خطوط امداده وتموينه مما مكن وحدات قواتنا الخاصة من مهاجمتها وارهاق العدو ، كذلك ، كانت هناك المعارك تدور فـوق أرض تقع تحت السيطرة الكاملة لشبكة دفاعنا الجوى والتى تسيطر على سماء المعركة وتبطل فاعلية سلاح الجو الاسرائيلى .

وقد برز دور رجال ووحدات الكوماندوز المصريين ، داخل سيناء ، فى هذه المعارك ، اذ بدأوا عملياتهم القتالية ضد اسرائيل منذ اليوم الأول للقتال .. وهوجمت خطوط العدو ، وطرق امداداته ، وعرباته ومجنزراته ، بشكل حاد ، وكانت عملياتهم القتالية فوق صحراء سيناء تضيف خبرات جديدة وتجارب غنية الى حروب التحرير ، فلأول مرة تشن وبشكل حاد ، وعنيف ، حرب الأغوار ، وبصفة منتظمة وعبر أعمال قتالية مستمرة ، ولمدد طويلة ، فى الصحراء العارية ، الخالية من أى نوع من الحماية ، فلا غابات ، ولا أحراش ، أو حقول أرز ، أو أى مناطق طبيعية تحمى عمليات المقاتلين ، كتلك التى يلجأ الفدائيون والمقاتلون اليها فى غابات فيتنام والكونغو أو فى مناطق أمريكا اللاتينية فى مواجهتهم للعدو ..

وقد وصف مراسل عسكرى فرنسى هذه الحروب بقوله : « ان تحركات وعمليات الكوماندوز المصرية ، هى لون متقدم من العمل الفدائى ، الذى سيصبح معينا للدراسة بالنسبة لحروب التحرير ، فقد برز دور هؤلاء الرجال بشكل واضح بأعمالهم الخارقة ، جنبا الى جنب تفوق المصريين فى حرب الدبابات وفى السلاح الجوى ، وفى ابطالهم لاسطورة التفوق العسكرى لتل

أبيب» وكان الأمر أشبه بـ (المعجزة) ، على حد ما جاء فى صحيفة (الناشونال جارديان) :

« ان ما حدث بين العرب واسرائيل ، منذ السادس من اكتوبر ١٩٧٣ ، كان اشبه بالحلم ، او الاسطورة ، فقد كان الجميع يستبعدون ان (العربى) سيهاجم ، بل كل ما كان سائدا ، ان مصر تستعد لتدافع ، فقط ، لا لتتولى الهجوم، وكما يبدو ان المباغتة البونابرتية : (هاجم عدوك ، قبل أن يتوقع قدومك ، او حتى وهو يضع خططه ، يكسبك الكثير) ، وهذا المنطق ، او هذه النظرة ، كانت هى العنصر المسيطر على تحركات وعمليات الحرب التى ابرزت قدرات المصريين والسوريين القتالية ، فى الدفاع والهجوم ، على حد سواء ، والتى كشفت عن قدراتهم فى استيعاب فنون الحرب الحديثة، وبسرعة التدرب على أحدث الأدوات الحربية ... فالهجوم المستمر ، والزام الجانب الاسرائيلى ، دائما موقف الدفاع ، وفرض مكان المعركة وتوقيتها ، واستمرار المعركة على اكثر من جبهة ، وحرب الاغوار التى قام بها رجال الكوماندز المصريين ، ومعارك الدبابات الشرسة ، والقدرة على اطالة المعارك ... كل هذا كان اشبه بالمعجزة ، حقا ، فلم يكن احد يتوقع ان يحدث هذا ، وبهذه السرعة ابدا .. ! »

لكن بطل العبور : أنور السادات ، لم يشأ أن يسمى ما حدث بـ (المعجزة) وقال :

« من الخطأ الجسيم ، ان نقول ، عن العبور الظافر ، انه معجزة ، لأن المعجزة ، بطبيعتها ، امر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره ، وانما يجب أن ننظر اليه على انه ذروة للعمل الوطنى ، علينا أن نتمثل دروسه لكى نتخذه نمطا ترتفع الى مستواه كل جوانب العمل الوطنى . ان اعظم تقدير لأيام القتال المجيد ، ليس التغنى بها ، وانما استلهام معانيها ، لكى نحرز فى مختلف مجالات العمل الوطنى ما أحرزه من نجاح فى العمل العسكرى . ليكن شعارنا ، دائما ، انه مادمنا قد استطعنا ، فى ساحة القتال، فانه يجب أن نستطيع بنفس المستوى فى كل مجال . ان المقاتلين هم الصفوة من ابناء هذا الشعب . وما صنعوه فى

مواجهة العدو الشرس ، القادر المدجج بالسلاح ، يستطيع أبناء هذا الشعب أن يصنعوه في مواقع الانتاج والخدمات ، لنقهر التخلف ، ونتخلص من السلبيات الموروثة ، ونؤكد بالانجاز أن مصر ــ اكتوبر هي مصر المستقبل . ان النصر في اكتوبر ، لم يكن مصادفة ، ولم يحدث في غفلة من الزمان كما يريد العدو أن يوحي ، وانما هو ثمرة عوامل كثيرة وأصيلة تجعله أمرا واردا وطبيعيا ، وليس حدثا فريدا » .

ويضيف ، السادات ، موضحا ، ما حدث ، وما أعاد الى مصر روحها المفتقدة ، وما جعل العرب يعبرون الهزيمة التي منيت بها الأمة لطوال ست سنوات منذ حرب الخامس من يونيو ٦٧ فيقول . . ان جوهر القوات المسلحة كان الأساس ، وعظمة هذا الشعب ، كانت المنطلق الأساسي ، فجوهر مصر عظيم وقادر دائما على العطاء ، وتجاوز أحلك الظروف ، وتخطى كل ما من شأنه أن يعوق أو يعرقل الأمة ، وكان لابد من تخطي هذه الظروف الاستثنائية التي فرضها مناخ فاسد وظروف معتمة :

« لقد كنت اعرف جوهر قواتنا المسلحة ، ولم يكن حديثي عنها رجما بالغيب ولا تكهنا ، لقد خرجت من صفوف هذه القوات المسلحة وعشت بنفسي تقاليدها ، وتشرفت بالخدمة في صفوفها وتحت ألويتها ، ان سجل هذه القوات كان باهرا ، ولكن أعداءنا : الاستعمار القديم والجديد والصهيونية العالمية ، ركزت ضد هذا السجل تركيزا مخيفا لأنها أرادت أن تشكك الأمة في درعها ، وفي سيفها ، ولم يكن يخامرني شك في أن هذه القوات المسلحة كانت من ضحايا نكسة سنة ٦٧ ، ولم تكن أبدا من أسبابها » (١) .

فلقد أعد السادات ، منذ اليوم الأول ، الذي تسلم فيه مقاليد الحكم ، العدة من أجل أن يقضي على ذلك (الكابوس) ، الذي ظل جاثما على صدر مصر ، والأرض العربية ، لسنوات ليست بالقليلة . فقد كان يعرف ، أنه

---

(١) جاء هذا الكلام بعد قيام حرب اكتوبر بعشرة أيام ، في خطاب أنور السادات في افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

طالما هناك مناخ معتم ، فلا يمكن التحرك أو الانطلاق الى آفاق رحبة .. لذلك راقب كل شيء ، ورصد كل شيء ، وحاول أن يفعل كل ما من شأنه أن يجهز قواتنا لضرب العدو ضربة واحدة ، وكان لابد أن يخلق المناخ الصحي لذلك .. أولا ضرب مراكز القوى فى الداخل ، ثم قام بالاشراف على تدريبات القوات المسلحة بنفسه ، وعلى استيعاب كل متغيرات العصر فى العسكرية الحديثة ، هذا الى جانب تمهيده الدبلوماسى ، والقومى ، والعالمى كمقدمات عامة صاغها قبل ضربة اكتوبر ٧٣ :

« لقد كان كل شيء منوطا بارادة هذه الأمة ، حجم هذه الارادة ، وعمق هذا الارادة ، وما كنا لنستطيع شيئا ، وما كان احد ليستطيع شيئا لو لم يكن هذا الشعب ، ولو لم تكن هذه الأمة . لقد كان الليل طويلا ، وثقيلا ، ولكن الأمة لم تفقد ايمانها ابدا بطلوع الفجر .. وانى لأقول بغير ادعاء ، ان التاريخ سوف يسجل لهذه الأمة ان نكستها لم تكن سقوطا ، وانما كانت كبوة عارضة ، وان حركتها لم تكن فورانا ، وانما كانت ارتفاعا شاهقا . لقد أعطى شعبنا جهدا غير محدود ، وقدم شعبنا تضحيات غير محدودة ، واظهر شعبنا وعيا غير محدود ، واهم من هذا كله ، أهم من الجهد والتضحيات والوعى ، فان الشعب احتفظ بايمانه غير محدود ، وكان ذلك هو الخط الفاصل بين النكسة وبين الهزيمة . ولقد كنت احس بذلك من اول يوم تحملت فيه مسئوليتى ، وقبلت راضيا بما شاء الله أن يضعه على كاهلى، كنت اعرف ان ايمان هذا الشعب هو القاعدة ، واذا كانت القاعدة سليمة ، فان كل ما ضاع يمكن تعويضه ، وكل ما تراجعنا عنه ، نستطيع الانطلاق اليه مرة اخرى .. » (١)

ويقول السادات ، أيضا ، فى حديثه عن حرب التحرير ، التى كانت أكتوبر بداية عظيمة لها ، ان أى مواطن يتمسك بأرضه كل التمسك ،

(١) قال أنور السادات هذه الكلمات فى خطابه التاريخى الذى القاه فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب ، بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ـ أى بعد عبور ابطالنا قناة السويس وتحطيم خط بارليف ، وتحطيم اسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر بعشرة أيام ...

وليس هناك وطني لا يتمسك أو يتشبث بأرضه الا اذا كان شاذا ، وهذه الأرض التي يحيا عليها المواطن عرضة ، في أي وقت للضياع ، أو الغزو أو الاغتصاب ، واذا لم يكن (المواطن) على استعداد لحماية هذا الحق ، فانه لا يكون كفئا لها :

« بالنسبة لأى مواطن ، فان أرضه هى عرضة للضياع ، واذا تساهل فيها سهل الهوان .. لماذا ؟ لأن المعركة هى أولى الأولويات فى مهام المرحلة ، وفى سبيلها كل شىء . من اجلها العمل فى الداخل ، ومن اجلها العمل فى الخارج ، على اساسها صداقتنا مع الأصدقاء ، وعلى اساسها عداوتنا مع الأعداء . مطالبها هى الأسبق ، وضروراتها قبل أى ضرورات ، وليعرف الكل على أرضنا وعلى أرض أمتنا ، وفى العالم كله اننا فى هذا لا نساوم ، ولا نتاجر ، ولا نزايد . نحن طلاب سلام قائم على العدل ، وفى نفس الوقت نحن ، أيضا ، حماة سلام قائم على العدل . نحن نعطى الحياة كلها لبناء السلام القائم على العدل . ونحن على استعداد لان ناخذ الموت دفاعا عن السلام القائم على العدل » .

ولم تكن حرب اكتوبر ، حرب من أجل الحرب ، وانما كانت تسعى لتحقيق مهام بذاتها ، مهام قتالية ، الغرض منها : اسقاط أسطورة تفوق الجيش الاسرائيلى عن طريق عبور المانع المائى لقناة السويس ، وتحطيم خط بارليف والحاق الحطام والتدمير بالعدو الذى دائما أصر على صلافته حتى يتم تحرير الأرض العربية ، ورحلة تحرير الأرض ككل ، لابد أن تبدأ بخطوة ، والخطوة بدأت فى ٦ اكتوبر ٧٣ ، وأعقبتها خطوات ، وخطوات فنحن لم نحارب لاننا (دعاة حرب) ، بل حاربنا من أجل تأكيد عدالة قضيتنا وشرعيتها ، وكما يقول بطل العبور « السادات » :

« لقد قاتلنا ، وامامنا قتال شديد .. ولكن سلاحنا وقتالنا ، ليس سلاح ، وقتال العدوان ، وانما هو سلاح الحق والحرية » .

●

يرى الكاتب « أوزوالد جونستون » .. أن النظرية التى تروج فى واشنطن ، وتلقى قبولا لدى بعض الدوائر ، والقائلة بأن الرئيس أنور السادات دخل الحرب بهدف محدود ، وهو الاستيلاء على قطاع رمزى من سيناء لكى يرغم الدول الكبرى والأمم المتحدة على ممارسة الضغط على اسرائيل لتعيد الأراضى التى استولت عليها فى حرب عام ١٩٦٧ ، يرى جونستون ، أن هذا الرأى غير صحيح ولا يصل الى كبد الحقيقة ، ويدلل على ذلك بقوله : « من الصعب علينا أن نغفل المخاوف القديمة التى كان مبعثها ان العرب لن يقبلوا الا القضاء على اسرائيل ، وكان الهجوم العربى العنيف البالغ التنسيق سببا فى أن يعيد الحياة الى تلك المخاوف من جديد والمعتقد فى اسرائيل ، أن الدافع الرئيسى وراء الهجوم العربى ، هو المذهب الذى صاغته الظروف التى أعقبت ١٩٦٧ ..

ويضيف جونستون ، موضحا وجهة نظره :

« ولعل الحرب التى قامت فى أكتوبر ١٩٧٣ ، كان هدفها تحقيق المرحلة الأولى من مراحل البرنامج الذى وضعه الرئيس أنور السادات فى السنوات الأخيرة ، وهى ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ والمرحلة الثانية وهى استعادة حقوق شعب فلسطين وهى عبارة لا يقصدونها فى اسرائيل الا على انها تعنى تفكيك اسرائيل كدولة يهودية . ولقد كان عمل السادات الأساسى خلال عام ١٩٧٢ عملا ديبلوماسيا يهدف الى عزل اسرائيل والدولة الوحيدة التى تساندها : أمريكا .. وكان السادات يعتقد ان استخدام ديبلوماسية البترول المتشددة، سيكون أمرا تحسب حسابه أمريكا فيما يتعلق بتزويد اسرائيل بالمزيد من السلاح اذا سارت مجريات أى حرب جديدة فى صالح العرب . ويشير المنظرون الاسرائيليون الى التكتيك الذى اتبعه السادات ، والذى يعتبر مخالفا تماما لتكتيك عبد الناصر ، وقد اعتمد السادات على ان العرب يجب الا يضربوا اسرائيل الا اذا توفرت ثلاثة شروط أساسية : ان القوات المسلحة يجب أن تكون مدربة تدريبا ممتازا ومستعدة ومزودة بالسلاح اللازم .. وان العالم العربى بأجمعه لابد أن يكون موحدا .. وان يكون

المنـاخ الدولى مواتيا .. وبعد أن وثق الرئيس السـادات ، بأن الأسلحة السوفيتية وفرت الشرط الأول ، بدأ فى أوائل عام ١٩٧٣ فى انحاز الشرطين الآخيرين .. وخلال الربيع والصيف من عام ٧٣ ، نجح السادات فى تجميع القوى العربية وجعلها قوة متعاونة ، وذلك عندما أقنع الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية وزعماء الدول العربية الأخرى المنتجة للبترول فى مساندته اذا ما قامت المعركة ليستخدم البترول كسلاح له فعاليته فى المعركة ليضغط به على الدول الصناعية الكبرى التى تعتمد فى انتاجها على البترول.. وفى نفس الوقت ، وقبل أن تقوم حرب اكتوبر بأشهر قلائل ، أرغمت الدول العربية وتتزعمها مصر على أن تستخدم أمريكا حق الفيتو فى مجلس الأمن ، لعرقلة قرار جديد يلوم اسرائيل لرفضها التخلى عن الأراضى العربية التى استولت عليها عام ١٩٦٧ ، وقبل قيام الحرب بشهر واحد ، فى ١٣ سبتمبر ٧٣ ، كانت شروط الخطة قد اكتملت عندما عبأ السادات الجبهة الشرقية ضد اسرائيل بتسوية الخلافات بين الأردن وسوريا »

وقد نشرت « كريستيان ساينز مونيتور » مقالا عن حرب أكتوبر بين العرب واسرائيل ، جاء فيه :

« ان محاولة مصر وسوريا استعادة الأراضى التى خسرتها ليست عملا عدوانيا بالمعنى الصحيح ، وموقف موسكو ، سيظل داخل حدود المسئولية اذا كانت مساعداتها لمصر وسوريا محدودة باعطائهما الوسائل التى تمكنهما من الدفاع عن نفسيهما ، وهى محاولة استرداد أراضيهما الضائعة ، ولكنها تخرج عن نطاق المسئولية اذا أدى ذلك الى غزو اسرائيل نفسـها ، فليس المقصود ضرب اسرائيل والاجهاز على وجودها ككيان وكدولة ، والا ابدا العرب دعاة حرب وغلاة دمار ، وبالنسبة للولايات المتحدة ، فانها تبقى فى نطاق المسئولية اذا كانت مساعدتها لاسرائيل ، تؤدى الى تعزيز دفاعها عن نفسها ، ولكنها تتجاوز هذا النطاق اذا مكنت المساعدة الأمريكية اسرائيل من تحطيم الجيوش العربية » .

وهذا الحديث ، أو هذا المقال الذى نشرته الصحيفة الأمريكية ، جدير حقا ، بالتقدير ، فيما يتعلق بنفى صفة العدوان عن مصر وسوريا . لكن الولايات المتحدة الأمريكية قامت بأعمال غير مسئولة، اذ أنها قدمت مساعدات لاسرائيل مكنتها من تحطيم الجيوش العربية سنة ١٩٦٧ ومن احتلال اراضى خاصة بثلاث دول عربية : مصر ، سوريا ، الأردن ، فضلا ، عن ابتلاع معظم اراضى فلسطين ، وكان الاتحاد السوفيتى فيما قدمه من مساعدات للعرب ، وقد قدرت المصادر الامريكية شحنات الأسلحة المقدمة للجانب العربى فى الحرب خلال عام ١٩٧٣ بـ (٥٠٠٠) طن من المعدات العسكرية خلال اسبوع واحد ، لكن فى ١٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ ، صرحت وكالة الأنباء الفرنسية ان ستمائة طائرة أمريكية غادرت قواعدها ، ومنها قاعدة جزر الآزور البرتغالية حاملة لأسلحة اسرائيلية حديثة هى آخر نتاج مصانع احتكارات السلاح الامريكى ، وكان بين هذه الطائرات احدث الطائرات المعروفة بطراز (جلاكس) وحمولته ١٢٠ طنا ، وندرك من خلال ذلك مدى الدعم الذى قدمته أمريكا لاسرائيل ، لكن ، كل هذا مقبول ، ووارد ، لكن أن تشترك أمريكا نفسها فى الحرب ، فهذا هو الأمر الغريب!

وفى نفس الوقت ، قالت صحف (فاليتا) فى مالطة ، ان ست وحدات تابعة للاسطول الأمريكى السادس ، قد دخلت المياه الاقليمية لاسرائيل مساء ليلة ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ ، قادمة من قبرص .. وقد أكد المتحدث الرسمى باسم وزارة الدفاع الأمريكية ، ان حاملة الطائرات (فرانكلين روزفلت) قد غادرت برشلونة مساء العاشر من أكتوبر فى طريقها الى شرق البحر الابيض المتوسط ... ومن أجل تغطية (الجسر الجوى) ، لنقل السلاح

---

(١) وكان هذا المقال بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، اى بعد قيام حرب السادس من اكتوبر بتسعة أيام فقط ، وكان هذا المقال بمثابة الرد على امريكا التى كانت لهـا نظرتها الخاصة بالنسبة لما يدور فى الشرق الأوسط ...

لاسرائيل ، وهذا من أجل الحفاظ على ميزان القوى فى الشرق الأوسط ... ولتبرير عمليات (الجسر الجوى) الذى قامت به أمريكا فى سيناء .. قال النائب الامريكى الديمقراطى « اوجدين ريد » — وهو سفير سابق للولايات المتحـــدة فى اسرائيل ، قال : « ان امريكا ، قد اتخذت عمليــة الجسر الجوى ، كضرورة حتمية لشد أزر اسرائيل ، فقد بدا رجحان الكفة المصرية ، وبدأت اسرائيل (تصرخ ، وتولول)، خاصة وان مصر وسوريا ، تحارب بضراوة ، وبتكتيكات مستحدثة مائة فى المائة ، بل ومن خلال أسلحة عصرية للغاية ، فهى تستخدم صواريخ (سام — ٦) ومعدات الكترونية وقطع غيارات للطائرات غاية فى الحداثة ، وقد تسببت صواريخ سام ٦ فى الحاق خسائر فادحة فى الطائرات الاسرائيلية ، واسرائيل لم تستطع التصدى لمواجهة هذه الهجمات الفادحة .. لذلك ليس غريبا ، ان ترسل مجموعات من الطائرات البوينج ، والفانتوم ، والجامبو ، الى سيناء ، لتعيد الطمأنينة الى قلب اسرائيل الذى قارب الخطر » .

وقد ظلت أمريكا ترقب الوضع ، بحذر شديد ، فرغم الدعم العسكرى فى السلاح والعتاد الذى ترسله لاسرائيل ، فان مصر تلحق الخسائر تلو الخسائر باسرائيل ، وكذلك الحال فى الجبهة السورية .. رحى الحرب تدور لصالح السوريين امام ذلك كله ، لم يتردد الامريكيون على التدخل المباشر ، فان ما حدث ويحدث فى الشرق الاوســـط ، وعلى حد تعبير « هوارد كولاداى » وزير الخارجية الامريكية : « علامة بارزة فى تاريخ الحروب ، سوف تغير الاستراتيجية الحديثة .. ونقطة البـــداية أن تتحرك أمريكا ، لا بتقديم السلاح فحسب ، بل ، وأيضا ، بالمجهود المباشر » .

واتخذت كل التدابير للتدخل العســـكرى المباشر من جانب أمريكا ، واجتمع « جيمس شليسنجر » وزير الدفاع الأمريكى والأدميرال « توماس مور » رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة باللجنة العليا القيادية فى مجلس الأمن القومى الامريكى ، لتقييم الموقف ، والاستعداد للتدخل المباشر ، ودعا

« توماس مور » ، فى نفس الوقت الى اجتماع طارىء لرؤساء الاركان ، وألغيت أجازات الضباط والجنود فى الاسطول السادس وفى سلاح الطيران الأمريكى ... وبعد أسبوع من بدء المعارك اكد متحدث وزارة الدفاع ، أن حاملة الطائرات « فرانكلين روزفلت » غادرت برشلونة واتجهت الى شرق البحر الأبيض المتوسط ...

وبدأت عمليات « الجسر الجوى » ، الذى مارسته امريكا فوق صحراء سيناء ، والقناة ، ويعتبر من أضخم الجسور الجوية منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد وصفت السرعة التى تنقل بها الامدادات بأنها « سباق مع الزمن » ، وقد شمل هذا (الدعم المباشر) جميع الاسلحة العصرية ، ففى المقدمة ، ارسلت طائرات الفانتوم التى نقلت رأسا من مصانع الاحتكار الامريكى للسلاح والتى قدر عددها بـ ٤٨ طائرة ، قادها أكفأ الطيارين الامريكيين ، كذلك كانت ٨٥ طائرة سكاى هوك يقودها طيارون أمريكيون فى طريقها الى اسرائيل عبر البحر المتوسط .. كما بدأ شحن كميات هائلة من الصواريخ المختلفة الأمريكية مثل « صواريخ شرايك » لابطال مفعول الصواريخ السوفيتية (أرض جو) ، وصواريخ (جو ـ جو) مثل : (سيدنيدر) و (سبارو) ، وصواريخ (وول آى) ـ أى الموجهة بالتليفزيون ضد الاهداف البرية ، هذا الى جانب كميات هائلة من الدبابات طراز (م/٦٠) ؛ والذخيرة للمواقع الثقيلة ، والمدفعية المضادة للطائرات ... وقد صرح نيكسون ، بنفسه ، بهذا الدعم ، فى كلمته التى القاها يوم ١٥ أكتوبر ٧٣ : « ان الولايات المتحدة تضمن عدم تعرض استقلال اسرائيل وأمنها للخطر ، بسبب الحرب فى الشرق الاوسط ، ولن تقف مكتوفة الأيدى أمام الحاق أى أذى باسرائيل ... وهذا لا يعنى أننا ماضون لاشعال مزيد من الحريق ، فمن هو الذى يبغى زيادة رقعة الحرب ! » ...

كانت امريكا ، تتحرك من موقع المساندة الكاملة لاسرائيل ، حتى عندما يقف اطلاق النـار ، لا تكون اسرائيل فى موقف (الضعيف) ، فيملى العرب شروطهم ، بل كانت على الأقل تريد نوعا من التعادل ، وعلى ذلك تحركت للدعم الكامل والمؤازرة ، بل ومد « الجسر الجوى » ، وكان احداث « الثغرة » فى الدفرسوار ، جزءا من هذه « العملية » لاحباط موقف العرب ، والحاق اليأس فى نفوسهم ، خاصة بعد أن اذاعت وكالات الأنباء والصحف العالمية ، أنباء انتصاراتهم وتفوقهم العسكرى على اسرائيل من خلال العبور والحرب بضراوة على مختلف الجبهات ..

كانت عملية « الجسر الجوى » من الاساليب التى لجأت اليها أمريكا ، للضغط على مصر ، وعلى العرب ، حتى لا ترجح كفة العرب فى الانتصار على اسرائيل . وقد لاقى هـذا (الجسر) من قبـل الامبريالية العالميـة استحسانا كبيرا ، على اعتبار ان هذا الجسر صورة من صور التمع والتحكم فى المنطقة ... وقد شجع على ذلك الضغوط الصهيونية داخل امريكا والغرب بصفة عامه ، وقد استلغت الصهيونية ميل الاستعمار الى استخدام قوة ثابتة يسـتخدمها للوثوب على المنطقة ، كما اسـتغلت رغبـة الاحتـكار من اليهود الذين يطمعون فى أن تكون لهم سيطرتهم السياسية المباشرة فى تحريك مصالحهم ... والحركة الصهيونية ، تدرك ادراكا كاملا التقـاء مصالحها مع الامبريالية ، ولذلك ، فهى ، دائما ، تنقل ولاءها الى القـوى الامبريالية التى تحتاج الى وجودها واستمرارها فى الشرق الاوسط ، وقد برزت اسرائيل كأداة امبريالية فعالة ، لها أهميتها بالنسـبة للدول الاستعمارية ، بعد ١٩٦٧ ، وبعد رواج « نظرية الفتنمة » ، وعندما أحست اسرائيل بالخطر يحاصرها منذ بداية حرب السادس من أكتوبر ، صرخت ، وولولت ، لبغيثها الغرب ، وكانت ، أساسا ، توجه صرخاتها الى امريكا ، لانها لم تعد تعتمد على دول أوربا كثيرا ، خاصة بعد انتقال ولائها بشكل متعاظم الى الولايات المتحدة مع مرحلة نمو المصالح الامريكية على مصالح بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الاوربية فى أعقاب ١٩٦٧ ..

وكانت « عملية الجسر الجوى » ، ادماغا كاملا لدور امريكا فى حرب الشرق الاوسط ، فاقد كان الوجه الامريكى يلبس الأقنعة الاسرائيلية ، ويتحرك من وراء الستار ، لكنه بدا وجه امريكا سافرا ، وتدرج السفور من الدعم العسكرى والمادى والسياسى ... وبلسان حال طيار أمريكى ، انتابه التمزق ، وهو يطير فوق أرض سيناء ، جاءء هذا الوصف ، الذى يدمغ دور أمريكا فى عملية « الجسر الجوى » (١) :

« ليست هذه هى المرة الأولى التى أحلق فيها فوق سيناء ، ولن يكون هذا أول هبوط لى فى مطار العريش . لقد قمت بهذه الرحلة عدة مرات منذ منتصف اكتوبر ٧٣ .

حتى الآن .. اننى جزء من الجسر . نعم هناك جسر طائر ، جسر فوق السحاب ، قوامه عدة مئات من طائرات (جالاكسى) الجبارة ... طائرة النقل الاستراتيجية ، وهو جسر (متعدد الأطراف) يبدأ متشعبا من عدد من المطارات والقواعد العسكرية فى الولايات المتحدة وفى اوربا الغربية ، ثم تتقارب خطوطه فى شرقى البحر المتوسط ، وتظل هذه الخطوط تتقارب كلما اتجه شرقا ، حتى تصبح خدمة متلاصقة تهبط منها الطائرات فى مطار اللد وعدد من القواعد العسكرية فى اسرائيل .. وفى مطار العريش ... كان من نصيبى ــ أو نصيب نوع الحمولة التى احملها ... اننى أهبط دائما فى العريش ... ان خط هبوطى يمر فوق صحراء سيناء ... ما ان تتوقف عجلات الطائرات على أرض المطار ، حتى يكون عمال التفريغ قد انزلوا من بطنها دبابة من طراز (باتون ١ م ٧٠) ، والدبابة ليست فقط جديدة لم تعمل من قبل ، ولكنها ، أيضا ، من آخر طراز ، نوع لم يستخدم فى اية معارك من قبل ... ان (طاقم) كل دبابة يكون ، دائما ، فى انتظارنا ، انهم يستقلونها فور ملامستها

---

(١) جاء هذا الوصف فى مقال نشره « سعيد عثمان » بمجلة الاذاعة والتليفزيون فى أوائل نوفمبر ١٩٧٣ ، تحت عنوان : طيار امريكى فوق سيناء ، بسمع المؤتمر الصحفى للرئيس نيكسون ثم ضمنه لكتابه (الفكر الذى انتصر) ، والذى صدر بعد ذلك بعام ...

الأرض ، ويقومون بتموينها والاتجاه بها غربا ... يالها من حرب ... انني أرى بعيدا على الأفق نارا وسحابات كثيفة من الدخان تتصاعد ، واسمع انفجارات بعضها من الشدة بحيث تهتز له هذه الطائرة الثقيلة ... أرصد تحتى فى مياه البحر عددا كبيرا من السفن الحربية وبعض سفن النقل... ليست السفن كلها امريكية ، والطائرات التى اصادفها ليست كلها امريكية ايضا . انني اشعر انني فى حرب ، بل انا فى حرب فعلا . انني احمل عتادا حربيا هاما ، وانقله الى منطقة القناة ، وهو يدخل فى القتال على الفور ... هنا الجانب الاسرائيلى ، ولكنني لا افهم لماذا انا فى هذه الحرب. لقد قرات وسمعت عن هذه الحرب من قبل ان يصدر لى الامر بالاشتراك فى هذا الجسر الجوى ، ومنذ ان اخذت مكانى فيه وانا اسمع من راديو طائرتى الكثير من الأخبار عن هذه الحرب ... » .

ويقول الطيار ، ايضا ، فى عرضه للامر وهو فوق البحر فى طريقه الى سيناء :

« خلاصة الأخبار ، ان المصريين يقاتلون الاسرائيليين ، لأنهم يريدون تحرير ارض لهم يحتلها الاسرائيليون ، والقتال كله دائر فوق هذه الأرض ، انني لم اسمع ان المصريين دخلوا اسرائيل او هددوا أمنها ، وبياناتهم تقول ان هدفهم محدد ، وهو تحرير ارضهم التى احتلت فى حرب سابقة ، هذا الذى يقوم به المصريون سيدخل كتب التاريخ بوصفه بطولة .... حرب تحرير وطنية ... كم اشعر بالفخر عندما اقرا فى التاريخ ان اجدادى خاضوا حرب تحرير وطنية ضد بريطانيا واخرجوها من الولايات المتحدة .... ولكن يبدو الآن ، انني اقف على الجانب الآخر ، انني مع الطرف الذى يحارب المدافعين عن حرية ارضهم ، ياله من موقف ! لا أريد ان افكر فى هذا الامر . انه ثقيل على كل من ذهني وضميرى . لماذا لا التمس شيئا من راحة البال ؟ ان التفكير فى هذه المسألة يضغط على اعصابى ويكاد يصيبنى بالغثيان ، خاصة عندما افكر فى عودتى الى البيت ومقابلتى لزوجتى واولادى.

ابنى سيسالنى عن مهمتى ويلاحقنى بطلب التفاصيل . لا اريد أن اكذب عليه ، فلم اعوده على الكذب ولا اريده ان يكتشف اننى كذبت عليه يوما . ساقول له الحقيقة . ساقول اننى انقل دبابات على وجه السرعة لاسرائيل ، لكى تستخـدمها على الفور فى القتال ضد العرب ، وسيسالنى لماذا يحارب العرب اسرائيل ؟ وسـاضطر لأن أقول له ، لأنهم يريدون اخراجهم من اراضيهم التى يحتلونها ، وسيقول لى .. ولكن لـماذا نحارب نحن ضد العرب ؟ وهنا لن أسـتطيع أن أرد عليه ... لأننى ، فعلا ، لا أعرف ... عظيم ... هـذه موسيقا ، تريح أعصابى ، وتخرجنى من افكارى المتعبة ...

الموسيقا تتوقف ، ويعلن المذيع ان الاذاعة ستنقل بعد قليل المؤتمر الصحفى للرئيس الأمريكى ... لابد انه سيقول لى ولآلاف غيرى ممن يشاركون فى الجسر ، شيئا عن حكاية الجسر هذه ... قبل ان اغادر قاعدتى صباح اليوم ، سمعت انه قد اصدر أمرا للقوات المسلحة الأمريكية فى جميع انحـاء العالم بان تكون فى (حالة تاهب) .. معنى ذلك ، أن الأمور تتطور بسرعة ربما يتصاعد الأمر الى مواجهة عالمية ، ويتحول، بالضرورة ، الى مواجهة ذرية يا الهى .. ولكن لماذا ؟ لأن المصريون تحركوا فى منطقة محتلة من ارضهم لاخراج قوات الاحتلال منها ؟ ! لا يبدو ذلك سببا مقنعا للوصول بالعالم الى حافة الهاوية ، وهل بعد المواجهة الذرية من هاوية ؟!

.... المذيع يعلن عن وصول الرئيس الأمريكى الى الجنـاح الشرقى فى بيته الأبيض .... لم يصفق احد الرئيس عند دخوله ، يبدو ان الموقف متوتر بشكل او بآخر ... وتحدث الرئيس ..... واستمعت اليه ، كنت اظن ان اسـتماعى الى هذا المؤتمر الصحفى سيساعدنى على الفهم ... ان افهم لماذا انا هنا اشارك فى حرب لم يعلنها احد على الولايات المتحدة ، والتى اقسمت أن أدافع عن امنها واستقلالهـا ودستورها ، وان اسمع من الرئيس الأعلى للسلطة التنفيذية بالولايات المتحدة ، الذى اقسمت على الولاء له ، مايطمئننى على ان القانون لم تزل له الكلمة فى بلادى ، وانه اذا كان

قد حدث من بعض رجال هذه السلطة تجاوزات فان رئيسهم سيصحح الاوضاع ويعيد الحق الى نصابه والعـــدل الى مجراه ... » .

ويختتم الطيار الامريكى ، حواره وتداعى معانيه التى تدور داخله ، بهذه الكلمات :

« .. واستمع الى وقائع المؤتمر الصحفى للرئيس ، انصت الى الأسئلة والاجابات الحـادة ... المؤتمر ، كله ، يدور حول مسألتين .. هذه النار المشتعلة تحتى فى سيناء ، والنار التى يستعر اوارها فى بلادى ، حيث تدور رحى معركة اخرى حول سيادة القانون ... المسألتان لهما عندى نفس الدرجة من الأهمية .. فاننا هنا ــ شئت أم لم اشأ ــ اشارك فى حرب اقف فيها ضد الجانب الذى اعلم أنه صاحب الحق ، وانه لم يفعل شيئا سوى النضال من اجل استرداد حرية ارضه ... وما يحدث فى بلادى هو حياتى ، ومستقبل اولادى ، وحقى ، انا ، وغيرى ، من أهل بلدى أن نعيش دائما فى ظل القانون ونحافظ على دستورنا الذى يعتبر من اكبر منجزاتنا ... استمع واتابع وابحث وسط هذا الكلام الكثير عن اجابات ، عن ردود الأسئلة الكبيرة فى ذهنى ، وللاسئلة التى سيلقانى بها ابنى عندما أعود الى البيت ، فلا اجد أى اجابة » .

ويمضى الطيـــار الأمريـــكى فى عـــرض وجهة نظـــره ، وغيره عشرات الطيـــارين الأمريكيين ، لا يعرفون لماذا قذفت بهم الولايات المتحـــدة الى أتون هذا الحرب . فالمشكلة على وجه التحديد بين بلدين ، طرفين : مصر ، واسرائيل ... اسرائيل استولت على أراضى بالقوة من العرب خلال ١٩٦٧ ومصر حاولت ان تسترد هذه الأراضى بالسلم ، وبالمساعى ، ومن خلال مختلف المحاولات الدبلوماسية ، لكن الحلول كلها باءت بالفشل ، فسعت الى استردادها عن طريق الحرب ، وهو حقها وشرعيتها ، فلماذا تتدخل امريكا .. ولماذا ترسل بطياريها ، يشـــاركون فى « الجسر الجـــوى » ،

ويدعمون جهود اسرائيل ، ويشتركون بالحرب بشكل مباشر ... وهذه الاسئلة طرحها عشرات الطيارين الأمريكيين ، بل وطرحها أيضا ، عشرات المراقبين والكتاب السياسيين والعسكريين ، وجدد السؤال معلق صحيفة (الناشيونال جارديان) بقوله :

« لماذا ؟ لماذا هذا (الجسر الجوى الأمريكى) ، هل لاضافة نيران جديدة الى المنطقة ، أم لاظهار العرب فى موقف حرج .. ؟ انهم لم يدخلوا الحرب من أجل الحرب ، ولا من أجل مواجهة أمريكا ، بل من أجل استعادة أراضيهم السليبة » .

وكجزء من عملية « الجسر الجوى » ، اعترفت صحف واشنطن ولندن وباريس فى النصف الثانى من أكتوبر ٧٣ ، بأن مزيدا من الطائرات يتم شحنها الى سيناء من قواعد حلف الأطلنطى ، ومما جاء فى هذه الصحف من تصريحات ما نشرته صحيفة الجارديان « بأن مجموعة من الطائرات الأمريكية من طراز بوينج ٧٠٧ قد تم شحنها خلال يومى ١١ و ١٢ اكتوبر ١٩٧٣ ، محملة بالصواريخ والقنابل من قاعدة وسيانا الجوية فى فرجينيا ، وان العمال كانوا يضعون النجمة المسدسة على الطائرة قبل قيامها ، حتى لا يقال اذا ما أصابها مكروه انها من طائرات الاطلنطى ، وقد نقلت فى ساعة ونصف ٤٨ طائرة فانتوم من أمريكا رأسا الى مطار اللد الاسرائيلى ، لتشارك فى هذه العمليات ، وقد اعترف (الجنرال هيرتزوج) ، بذلك وقال ، ان على الاسرائيليين ان يحسوا بالطمأنينة لان الولايات المتحدة ملتزمة بسياستها الخاصة بالحفاظ على ميزان القوى » . كما اعلن فى واشنطن ، فى نفس الوقت ، وعلى وجه التحديد فى اكتوبر ١٩٧٣ ، أن مجلس الشيوخ والنواب قد وافقا على الغاء استقطاعات خاصة وكبيرة من ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية ليتمكنا من تزويد اسرائيل بالدبابات الحديثة ، وقد أكد السناتور الامريكى « هنرى جاكسون » ذلك ، واعترف به فى مؤتمر صحفى فى ١١ أكتوبر ١٩٧٣ فى واشنطن ، قال « ان ١٠٠

مليون دولار ، تم اعتمادها لاسرائيل ، لشراء ٣٦٠ دبابة من طراز (م/ ٦٠) للحفاظ على ميزان القوى فى الشرق الأوسط ، وحتى لا تعجز اسرائيل فى صد الهجمات المصرية القوية والتى بدت عنيفة فى الفترة الأخيرة » ..

ويدين العالم الحر ، بل وعشرات الكتاب والمفكرين التقدميين « عملية الجسر الجوى » ، التى شاركت بها امريكا ، لاحباط العرب ، نفسيا وعسكريا .

يقول كاتب مثل (سافران) فى مجلة (السياسة الخارجية الأمريكية) .

« ان هذا العمل ــ الا وهو دعم اسرائيل ، عن طريق (الجسر الجوى) ، يسىء الى أمريكا ، والى العالم الحر بشكل سافر ، وكان على امريكا منذ البداية ان تشارك فى ايجاد التسوية الموضوعية ، دون اللجوء الى هذا الأسلوب الذى اصبح من سمات مخالفة لمنطق حضارة عصرنا ! » .

ويعترف المؤرخ والكاتب الانجليزى أرونولد توينبى [1] ، بهذا (الجسر الجوى) ، وبهذا التدخل من جانب أمريكا ، فيقول : « ان حلف الأطلنطى يقوم ، أساسا ، من أجل هدف واحد محدود ، هو الدفاع المشترك من الولايات المتحدة وكندا والدول الاوربية الأعضاء فى حالة تعرض احدها لهجوم من جانب الاتحاد السوفيتى ، ومن أجل هذا الهدف وحده ، استضافت الدول الاوربية الأعضاء قوات مسلحة أمريكية فى أراضيها ومياهها الاقليمية .. لكن فى أكتوبر ١٩٧٣ ، استخدمت الولايات المتحدة بعض قواعدها فى أوربا فى عملية لا صلة لها بالهدف الذى وضعت من أجله القواعد الأوربية تحت تصرفها . لقد استغلت الولايات المتحدة هذه

---

(١) ارنولد توينبى ، المؤرخ والكاتب الانجليزى الشهير ، الذى عرف بتعاطفه مع مصر والعرب فى حربهم العادله من اجل استعادة اراضيهم المغتصبة ، وقد كتب مقالته هذه فى نوفمبر عام ١٩٧٣ ، وكانت تحت عنوان : (مغامرة غير مقبولة من امريكا تعرض اوربا لحرب نووية) !

القواعد لبذل ضغط على الاتحاد السوفيتى فى نزاع المصالح الروسية ــ الأمريكية فى الشرق الأوسط ... والدول الأوربية الأعضــاء فى حلف الأطلنطى ، لا صلة لها بهذا النزاع غير الاوربى ، ومع ذلك فانها ستعانى أكثر مما تعانى الولايات المتحدة من خطر البترول ، الذى كان رد العرب على مساندة أمريكا لاسرائيل . أما مالا يمكن السماح به أو تحمله فهو أن تتعرض هذه الدول ــ بسياسة أمريكا فى الشرق الأوسط ليست هى سياستها ــ للتورط فى حرب نووية ، وهو الخطر الذى تمثل لها فى اعلان التأهب الأمريكى » .

ويضيف أرنولد توينبى ، موضحا وجهة نظره ، فى تدخل أمريكا ، وفى استخدام قواعد الأطلنطى لتدعيم الجسر الجوى ، وتوريط أوربا فى ذلك ، فيقول :

« لقد أعلنت أمريكا حالة التأهب ، دون مشاورات مسبقة مع حكومات حلف الأطلنطى ، وبدلا من الاعتذار عن ذلك ، فقد انتقد ممثلو الحكومة الأمريكية ــ بقسوة علنية ــ الأعضاء الأوربيين فى الحلف لاسيما ألمانيا الغربية ، لعدم موافقتهم على سياسة أمريكا فى نزاعها الخاص بها مع موسكو فى الشرق الأوسط . والحكومة الامريكية تتوقع من حلفائها أن يسلكوا سلوك الخدم المتواضعين الطائعين ــ مثلما حدث عندما ذهبت أمريكا الى الحرب فى فيتنام ، وأجبرت استراليا ونيوزلندا . على ارســال وحدات من القوات للمشاركة فى الحرب التى لم تبدها هاتان الدولتان ، والتى لم يكن لها مذاق بالنسبة لشعبيهما . أما ألمانيا الغربية ، التى كان لها ما يبرر شكواها من اساءة استخدام الأمريكيين لقواعدهم فيها من أجل ارســال شحنات الأسلحة لاسرائيل ، فانها فى الصف الأمامى . ان لهذه الدولة سياسة خاصة تقوم على الوفاق والمصالحة مع الاتحاد السوفيتى وبولندا ، وهى مثل سائر اوربا ، لا مصلحة لها فى معاداة العرب أو فى مساعدة اسرائيل على محاولة الاحتفاظ بالأراضى العربية التى احتلتها عام ١٩٦٧ .. صدقونى ، اذا كانت

السماء ملبدة بالغيوم ، وأعطاني أحد جيراني مظلة ، فان رد الفعل الأول لدى سيكون الشكر والعرفان بالجميل .لكن اذا كان صمام الصــواعق مثبتا فى كفى .. سيكون من الحكمة ، اذن أن أسقط المظلة دون أن انتظر برق السماء ورعودها ... ماذا سـيفعل الاوربيون ، اذن ، بالمظلة الذرية الأمريكية التى توصل ساقها الصواعق ؟ قد ننتهى من هذا كله الى أن اسقاط هــذه المظلة الأمريكية سـيكون أقل مخـاطرة من امســاكها والتشبث بها ! » .

●

كانت حرب أكتوبر ٧٣ ، بداية ، وليست نهاية ..

فهى بداية الرحلة ، التى من خلالها رفعنا الرءوس ، وأكدنا أن العرب قادرون على الحرب ، وعلى استعادة أراضيهم ، وعلى فرض شروطهم ... ومن يحاول أن يصور غير ذلك ، فانه يتنكر للتاريخ وللعلم ومنطق العصر .. وهذه الحرب ، كما قال السادات ، ستظل معينا لكل الباحثين والدارسين فهى قد قلبت موازين الحروب الحديثة ، استراتيجيا وتكتيكيا ، محتوى وشكلا ...

ودراسة مسارات هذه الحرب يحتاج الى وقت طويل ، لأنها ليست مجرد مواجهة ، أو حربا دفاعية وأ هجومية ، بقدر ما هى مواجهة لحضارتين ، لفكرين ، لمنهجين ، لأسلوبين .. ومنطق مصر ، والعرب ، الذى اعتمد على العلمانية والفكر العملى العقلانى ، تاركا وراء ظهره التجريبية التى استغرقته طويلا ، قد أتى ثماره ناضجة فى اكتوبر ، ولم يتوقف القتال الا بعد أن حقق المصريون ، والعرب ، المهام القتالية والأهداف الأساسية للمعركة .

كان العرب فى موقف (المتفوق) ، (القوى) ، عندما توقف اطلاق النار ، ولم نكن فى موقف (الضعيف) ، لذلك ، قلنا : (لا) ، وسنقولها ، فى كل جولة ، لان منهجنا قد تغير ، وفكرنا قد تغير ، ونظرتنا للامور تغيرت .. وعندما حدث ذلك ، تغيرت نظرة العالم لنا : ابتداء من واشنطن الى موسكو وابتداء من اوسلوا وكوبنهاجن الى هبرت فى جنوب استراليا ، حتى

اسرائيل نفسها ، غيرت وجهات نظرها عنا وعن العرب ، وأصبحت تنظر الى الأشياء بمنطق يختلف عما كانت تنظر به ..

لقد أكدت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، كما قال معلق صحيفة « الجارديان » ، تفوق مصر العسكرى على اسرائيل ، وكذلك أكدت بلاء القتال السورى ... فقد سقطت أسطورة الجيش الاسرائيلى المتفوق ، وانهارت تماما ... واستطاعت (السلحفاة) العربية أن تسبق (الأرنب) الصهيونى ، اذ برهن الجيش المصرى والسورى أنهما أفضل تدريبا ، وأحسن تشكيلا واستعدادا وأشد جلدا وأفضل عتادا ، وسقطت ثقة اسرائيل فى تفوقها التكنولوجى على العرب ، تماما ، مثلما تهاوت طائراتها بفعل شبكة الصواريخ المصرية .. وقد كتبت مجلة « النيوزويك » الأمريكية ، تعلق على هذا (التفوق) ، فقالت :

« لقد حاولت القيادة الاسرائيلية تدارك الموقف بعد أن بلغ الخطر مداه واستلهمت عملها بتدعيم جهاز التخطيط بعيد المدى لرفع كفاءته فى رابعة مجالات أساسية ، لمقاومة التفوق العربى .. وكانت هذه المجالات هى : التنبؤ السياسى والاستراتيجى ، من حيث التحرك فى مجال نشاط الدول العظمى والوضع العام فى الشرق الأوسط ، والصراع العربى الاسرائيلى ، لوضع مخطط استراتيجى تستخلص منه المخططات الحربية .. التنبؤ التكنولوجى ، وتطوير أجهزة الأمن ومتابعة الغرب فى هذا المجال ... التنبؤ الديموجرافى ، ويتعلق بهذا المجال ماله علاقة بمخزون القوى البشرية الممكن توافرها للجيش ، ومتابعة قدرات العرب فى هذا المجال من حيث القدرات المتطورة ... التنبؤ الاقتصادى ، وهذا المجال يتعلق بالبنية التحتية للاقتصاد الاسرائيلى وقضايا توزيع السكان ، والمرافق الحيوية ، والوقود ، والمياه ، والمواصلات ، ومتابعة موقف دول المواجهة العربية فى هذه الشئون ... ومن أجل ذلك ، أنشأت اسرائيل شعبة جديدة فى قيادتها العسكرية عرفت بـ (شعبة التخطيط) وأوكلت رئاستها الى الجنرال ابراهام تمير ، لتعمل على التنسيق مع أجهزة الدولة المختلفة ، وتبنى عليها

بالدرجة الأولى على الدراسات التى ستشترك في اجرائها مراكز البحوث المتخصصة ... فقد أكدت حرب أكتوبر ٧٣ تفوق العرب تكنولوجيا وفنيا فى مجال الحرب المعاصرة » .

ويستدل الكثير من المحللين السياسين والعسكريين ، على ارتفاع كفاية مصر والعرب القتالية ، وارتقاء وتقدم اساليبهم الاستراتيجية فى فهم واستيعاب العسكرية المعاصرة . وينبىء هذا عن تضييق « الفجوة التكنولوجية » ، أو « اختلال الكيف » بين العرب واسرائيل ، وهو ما كانت تعتمد عليه فى صراعها ضد مصر والعرب . وقد أكد المراسلون الأجانب ، من خلال رؤيتهم لسير المعارك فى القناة ، وفى سيناء ، أن مصر والعرب ، قد استطاعوا ان يسابقوا الزمن ، وفى فترة وجيزة ، ليعبروا (الهزيمة) ، وليتخطوا كافة الظروف الصعبة التى سادت مصر ، والوطن العربى ، عموما ، فى أعقاب هزيمة يوليو ١٩٦٧ ...

فقد أصبحو ينظرون الى الحرب كعلم وفن ، لا على أساس « فهلوة » أو « عنتريات عددية » !

●

الحرب ... علم وفن

علم ، لأن كبار القادة العسكريين والسياسيين ، الذين عاشوها ، قواعد ونظريات عامة ، يجب أن يدرسها من لحقهم ليستفيدوا من خبراتهم .

... والحرب فن ، لأن النظريات والقواعد التى وضعت فى عصر ، لا تتلاءم مع عصر آخر ..

فنظريات نابليون بونابرت لا تتلاءم مع ظروف الحرب العالمية الأولى مثلما لم تتلاءم نظريات هتلر وموسوليني وستالين فى الحرب مع ظروف أكثر تقدما كالتى عاشتها البشرية فى حروب كوريا وفيتنام أو الجزائر ، أو كالتى عاشتها مصر فى حربها مع اسرائيل فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، والتى عبرت فيها مانعا مائيا صعبا كقناة السويس ، وحطمت خط بارليف ، ودخلت مرحلة حاسمة وضارية ضد اسرائيل فى اشتباكات صعبة فى حرب الصحراء ...

والدارسون لحرب اكتوبر ١٩٧٣ ، سيقفون طويلا ، أمام النظريات العسكرية ، التي استخدمت سواء في مجال تحركات الجيوش البرية ، أو في مجال الحرب الميكانيكية ، أو في مجال الدفاع الجوى القائم على احدث نظريات التكنولوجيا العصرية ..

ان فكر السادات ، عسكريا قد أضاف الكثير الى الحرب المعاصرة ، من خلال « العمليات الصعبة » ، و « الضارية » ، التى شهدتها مصر والمنطقة العربية لطوال أسبوعين ، وكان من الممكن أن تستمر هذه المعارك ، كما قال البعض ، لكن السادات ، أعلن فى اكثر من مناسبة ، ان بلادنا ، والعرب ، ليسوا دعاة حرب ، فقط انطلقنا للحرب من أجل استعادة حقوقنا ، ومن أجل تحطيم أسطورة التفوق العسكرى الاسرائيلى ، ومن أجل التحرك فى سرعة ، وعدل وشرعية نحو حل القضية العربية فى تناقضاتها ، بشكل عملى ...

وكما أضافت نظريات بونابرت ، وكذلك نظريات مونتجمرى وروميل ودفيشنكو فى العلوم العسكرية وفى تطوير نظريات الحروب ، كذلك ستضيف نظريات السادات العسكرية الجديد فى فهم العسكرية المعاصرة ، فالحرب ليست مواجهة عدو بعدو بقدر ما هى علم وفن ، استيعاب لكل افراز حضارة العصر وعلوم فى الحرب ، واسلوب واع وناضج فى تطبيق هذه النظريات وممارستها ..

وهذا ما فعلناه فى حرب السادس من اكتوبر ، استوعبنا كل فكر العصر وعلومه وتقدمه فى التكنولوجيا العسكرية ، وحاولنا أن نطبقه بشكل علمى ، وناضج ، من خلال كل تحركاتنا فى اكتوبر ١٩٧٣ ..

●

لقد سجل التاريخ عظمة وقدرة قادة ، أخذوا عن غيرهم فنون الحرب وأساليبها ... فشارل الثانى تعلم عن الاسكندر الأكبر فنون الحرب ، مثلما تعلم نابليون بونابرت عن فردريك الأكبر ، ومثلما تعلم فوش عن نابليون ،

وتعلم دونشينكو عن كوتوزوف .. وكل واحد من هؤلاء ، آمن بأن فن الحرب فن متطور ، غير ثابت ، يكتسب ، دائما الخبرات عبر العصور ، ولو أن هؤلاء طبقوا ما تعلموه دونما أية اضافة لما كانوا من مشاهير القادة العسكريين ..

يقول اميل وانتى (1) : « ان هدف القائد العسكرى ، يجب الا يقتصر على كسب الحرب ، وانما يجب أن يمتد دوره الى الوقوف ضد الحرب والقائد الذكى ، لابد أن يكون هدفه تحويل الحرب الى نصر سياسى وفكرى ، والا كانت الحرب من أجل الحرب ، وضاعت من ورائها ملايين الأرواح ، وتحطمت آلاف المعدات العسكرية .. وفى تقديرى ، يجب أن يسأل القائد نفسه : لماذا أحارب ، والى أى مدى ؟ وماذا وراء الحرب ، وأيضا ، ينبغى أن يصل الى اجابة تلخص الموقف العسكرى وتترجمه الى معان سياسية وأيديولوجية ، والا كانت الحرب بلا جدوى ... وربما هذا ما دعا تشرشل الى أن يقول : ان السلام هو آخر جائزة أسعى للفوز بها .. ولا يوجد أحد فى العالم كله يعرف قيمة هذه الجائزة مثلما يعرفها الجندى فى ساحة القتال ، وهذا ما جعل ستالين ، يقول ، أيضا وهو يخوض معركة ستالينجراد : لكى يسود السلام ، لابد أن أسكت كل قوى الشر ، التى تندفع الى أرضنا . فلا سلام فى ظل وجود وحشية ، ولا سلام فى ظل وجود فاشية ، ولا سلام فى ظل وجود عدوانية .. ولا أمان فى ظل قهر ،

---

(1) اميل وانتى ، هو الجنرال وانتى الذى اشترك فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) كقائد فصيلة ، ثم قائد سرية وانهى بعد ذلك دراسته فى كلية الحرب العليا فى باريس ، ثم عين فى عام ١٩٣٤ مدرسا فى كلية الحرب فى بروكسل ، وهو من مواليد بروكسل عام ١٨٩٥ ، ووقع فى أسر الالمان عام ١٩٤٠ ، وبقى اسيرا فى معسكرات النازية حتى عام ١٩٤٥ ، وترك الجيش عام ١٩٥٠ ، وهو يحمل رتبة جنرال احتياطى ، وقد اهتم الجنرال وانتى بالاضافة الى نشاطاته العسكرية والتعليمية بدراسة التاريخ والانثربولوجيا ، ونشر العديد من الكتب والدراسات فى الحرب والتاريخ ، وكتابه (فن الحرب .. من الحروب العالمية الى الاستراتيجية النووية) ، والذى يقع فى جزءين ، من الكتب الهامة التى افادتنى فى هذا الفصل من الحرب بين العرب واسرائيل

L'art de La Guerre — de la Guerre Mondiale a la strategie nucléaire, Par Emile Wanty

لأنه لا يمكن أن يطمئن الناس على أحوالهم ونفوسهم وأرواحهم ، الا باسكات آخر كلمة من كلمات الدمار .. » (٢)

وهذا ، أيضا ، ما جعل ماوتسى تونج ، يقول فى تصريحاته وأقواله عن الحرب : « ان كافة القوانين والنظريات العسكرية ، هى تجارب وحروب ماضية ، وقد جمعتها فى سالف الأيام أو فى عصرنا هذا ، وينبغى علينا أن ندرس ، بجدية تامة ، هذه النظريات والقوانين التى دفعت الانسان الى والتى كان ثمنها دمه وروحه والتى هى ميراث حروب سابقة متعددة » .

وقد أشار السادات ، الى المعاناة التى عشناها ونحن نستوعب كل التقدم فى العالم ، والذى تتحقق فى كافة المجالات العلمية ، وبالذات فى مجال العسكرية المعاصرة ، وأشار الى أن المسألة ، فقط ليست استيعابا لفنون الحرب العصرية أو معرفة انجح الأساليب فى تطبيقها .. أيضا ، الارادة ، لها دورها الفعال ، وكذلك ، الاحساس والايمان بالرسالة العظيمة التى تقوم عليها أمة من الأمم .. والحرب فى النهاية ، (منطقة تجميع) لافراز عصر ، وحضارة ، وامتحان لارادة شعب وأمة بكاملها :

« يشهد الله ، اننا بذلنا ما هو فوق طاقة البشر ، وتحملنا عبئا تنوء بحمله الجبال ، ولكن احدا فى هذه الدنيا لايستطيع مهما بلغت قوته ومهما وصل جبروته وطغيانه ، والذى اقصده هنا ، هو الولايات المتحدة الأمريكية ، وليست اسرائيل ... اقول ، أن احدا ، مهما بلغت قوته وجبروته وطغيانه .. ان الولايات المتحدة الامريكية مهما بلغت قوتها وجبروتها وطغيانها لن تستطيع ان تفرض على شعبنا خرافة سلام الأمر الواقع . ان سلام الامر الواقع فى حقيقته استسلام . ولن تستطيع الولايات المتحدة ، ايضا ، بكل جبروتها وسلاحها ، ان تحاصر شعبنا وامتنا باليأس ، لاننا ندرك ان اليأس فى مثل هذا الصراع الذى نخوضه اليوم ،

---

(١) عام الحرب فى ستالينجراد The Year of stalingrad, an historical Record and a study of russian Mentality, Methods and Policies, By Alexander Werth (Hamish Hamilton, London : (stalin says ...).

هو الفناء سواء بسواء . ذلك لن يحدث ، ولن ترغمنا عليه اية قوة على هذه الارض ، حتى وان ملكت آلاف الصواريخ المحملة بالرءوس النووية ، وحتى اذا استطاعت أن تمشى فوق تراب القمر ....

ان القوة لاتستطيع ان تقهر المبادىء مهما طال الزمن ، ثم ان العلم لا يمكن أن يتحول فى يد المتقدمين الى سلاح ارهابى ، لان ذلك ضد القيمة الانسانية ، وعلى سبيل المثال، ان القوة الأمريكية امامنا فى الدنيا كلها ، عاجزة ، تستطيع ان تفعل ما شاءت لها غرائزها ، وتستطيع ان تشعل الأرض حريقا ودمارا ، ولكنها لاتستطيع ان تصل من ذلك كله الى نتيجة ايجابية واحدة . ان القتال سهل ، والحريق والدمار متاح ، ولكن ما هى النتيجة الايجابية التى وصلت اليها امريكا هل استسلم شعب فيتنام ؟ ابدا ... ما هى النتيجة الايجابية التى وصلنا اليها فى الشرق الأوسط ؟ هل قبلت شعوب الأمة العربية بالامر الواقع ؟ ابدا ، ولن تقبل به ، وسوف تظل ترفضه ، وسوف يجىء يوم ليس ببعيد تعرف الولايات المتحدة ، انها دخلت فى تناقض عدائى ، مع أمة عظمى فى سبيل حماقة اسطورية افرزتها الدعاوى العنصرية المريضة » .

●

الكثير من المراقبين العسكريين والسياسيين ، فى العالم ، لم يخفوا شعورهم بالمفاجأة ، عندما قامت حرب السادس من أكتوبر ٧٣ ، وقام مقاتلونا بعبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف ، واسقاط اسطورة الوهم الأكبر عن تفوق الجيش الاسرائيلى ، فقد تعود الكثيرون صمت مدافعنا ، ولفترة طويلة ، حتى أن صحيفة (الديلى اكسبريس) ، قد قالت: « لقد صمتت المدافع والبطاريات والطلقات المصرية لسنوات طويلة ، حتى أننا لنعتقد أنه من المستبعد أن تتحرك هذه المدافع ، أو أن تخرج عن نطاق الصمت الا بمعجزة ، وهذا أمر مستبعد فحالة الجبهة الداخلية لا تسمح ، وكذلك الظروف لم تسنح بعد للجيش المصرى ، والجيش السورى ، أو أية جيوش أخرى فى المنطقة العربية » . ولذلك عندما انطلقت (مدافعنا) ،

كانت (المفاجأة) ، بل (الصدمة) الكبرى للعالم اجمع . فمنذ ان توقف القتال ــ قبل اكتوبر ١٩٧٣ ــ بثلاث سنوات ، فى أعقاب مبادرة (روجرز) وقد « هدأت » الحال ، نسبيا ، فى المنطقة ، وكانت المسألة لا تخرج عن نطاق « التراشق » السريع بالأسلحة ، والتى لا تدوم أكثر من ساعة أو أقل . وكانت « النغمة » السائدة ، ان مصر تسير فى حل القضية عن طريق (تسوية سلمية) ، واذا كانت بالفعل تنوى (الحرب) ، فان هذا لن يحدث قبل عام ١٩٧٨ ــ كما ذكرت صحيفة (دافار) الاسرائيلية فى احدى اعدادها فى ديسمبر ١٩٧٢ .. ولكن عندما حدثت (المفاجأة) ، قلبت الموازين ، على اختلاف مستوياتها ، وكانت النتيجة ، كما قالت «الصنداى داى تايمز » :
« ان انقلب ظهر المجن نحو اسرائيل ، وبعدما كانت مصر تحيا ظروف ١٩٦٧ فى أعقاب ٥ يونيو ، انتقلت الحالة بأكملها ، بل أمر ، الى ٥ يونيو آخر ، فى أعقاب اكتوبر ١٩٧٣ ، ولكن فى هذه المرة الى داخل اسرائيل ، الأمر الذى جعل الكثيرين داخل اسرائيل لا يطيقون الوضع ، ويحاولون الهجرة الى نيوزلندا ، أو كندا أو استراليا ، وبعد أن كانت اسرائيل تستقبل المزيد من المهاجرين اليها من شرقى وغربى أوربا ، بات الكثيرون ، لا يحسون بالامان بعد اكتوبر ١٩٧٣ .. ! » .

* وعضت اسرائيل « أصبع الندم » !

فقد زرعت الحصرم فى ١٩٦٧ ، لكنها جنته فى أكتوبر ١٩٧٣ ، فضربت بنتائج « فعلتها » ، « وغدرها » ، و « صلفها » ، « واستمرارها » فى غيها وفى ظل استمرار الوهم للاسطورة التى لا تسقط ، والجيش الذى لا يقهر ، والمؤسسة العسكرية التى لا تفل ولا تضعف .... !

كان العالم ، كله ، قد قبل بتعريف أبو الاستراتيجية الحديثة « كلاوزفيتز» « بأن الحرب ، هى استمرار للسياسة بوسيلة أو أخرى » ، لكن ، الذى حدث ، ان اسرائيل قد قلبت الآية ، وعكست مفهوم كلاوزفيتز ، فحاولت أن تقنع نفسها : « بأن السياسة ، هى ، استمرار للحرب بوسيلة أو أخرى»، فالحرب ، تقوم ، أساسا ، عندما تستنفذ كافة الحلول ، وهى ليست غاية ،

بل وسـيلة ، لكن اسرائيل ، والمؤسسـة العسـكرية ، وكل الجنرالات الاسرائيليين ، يؤمنون ، بأن « الحرب يجب أن تستمر من أجل الاتسـاع والتأمين » ، وهذا ما جر عليها الوبال ، وأوصلها الى نتائج حرب اكتوبر ١٩٧٣ ..

●

منذ قرابة مائتى سنة ، كتب المؤرخ الفرنسى بوفون (١٧٠٧ — ١٧٨٨) يقول : « ان الاسلوب ، هو الانسان » . ومن المؤكد ، الآن ، وأكثر من أى وقت مضى ، ان الانسان يعبر عن نفسه بلا شعور عندما يكتب مذكراته .. وليس علينا اذا شئنا التأكد من ذلك ، سوى قراءة فقـرات هامة من مذكرات تشرشل أو ديجول أو مونتجمرى ..

اننا نجد فى مذكرات تشرشل وثائق هامة وقدرة رائعة على استغلالها ، ديناميكية ، وروح ساخرة ...

بينما نجد فى مذكرات ديجول أنفه مفرطة ، وروعة ، وكبرياء تحلق فوق الأحداث وبرودا كالصقيع ... بينما مذكرات مونتجمـرى تمس بالروح الواقعية ، والثقة ، والرغبة فى اعطاء دروس للآخرين ...

وتظهر الاختلافات ، أيضا ، لدى المارشالات والجنرالات الذين كتبوا عن معايشتهم للحروب ، وبينهم : برادلى ، وتيدر ، وروملى ، ودفيتسشنكو ، وغيرهم .

والذين عاصروا حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، سيكتبون عنهـا الكثير ، بل والكثير جدا ، فستظل هذه الحرب معينا عظيما للكتابة والدراسة اذ أنها لم تكشف ، فحسب عن قدرات وكفاءة الانسان المصرى ، والعربى ، عقلا وفكرا ، وذكاء ، وتحضرا ، بل وأيضا ، تكشف عن استخدام احدث الأدوات القتالية ، التى ربما كانت تستخدم لأول مرة فى العصر الحديث ..

وقد استطاع العرب ، خلال هذه الحرب ، أن يحرموا اسرائيل من مميزاتها القتالية التى يمليها عليها ضيق مساحتها وضعف مواردها المادية وقلة سكانها الا وهى (الحرب الخاطفة) بما تعنيه من توجيه ضربة قاصمة للعدو ، ترغمه

على التسليم قبلما يستجمع قواه ، وهذا ما اتبعته المانيا فى الحرب العالمية الثانية ، وفشلت فى تحقيقه بفضل عنف المقاومة السوفيتية مما اضطر القيادة الألمانية لخوض غمار حرب طويلة الأمد لم تكن بلادهم ــ بحكم مساحتها ومواردها ــ على استعداد لها . وكان العرب ، قد طبقوا ، نظرية (ليدل هارت) ــ الخبير الاستراتيجى العالمى ، القائلة ، بأن ايجاد الظروف الاستراتيجية الملائمة ، أعظم أهمية وأشد فعالية فى الصحراء الغربية وأثبتتها حرب أكتوبر ١٩٧٣ فقد تمكن العرب أن يجمدوا قدرة اسرائيل القتالية ويحصروا مناوراتها فى أضيق نطاق ، وقد دأبت اسرائيل على مباغتة العرب بضربة قاصمة تنهى بها الصراع ، لكن أصبحت فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، تخوض حربا لا تبدو لها نهاية ، مما ألقى العبء الكبير على الاقتصاد الاسرائيلى ، وجعله يتعرض لهزات واضحة ، ولو كانت الحرب قد استمرت أياما أخرى ، كما قال الكاتب الأمريكى (جوزيفزون) ، لانهارت اسرائيل، وبخاصة لو زين لها الغرور التشبث بـ (الجيب) ــ أو (الثغرة) التى اقتنصتها فى غرب القناة ، لو كان الوضع قد استمر أسبوعا آخر ، أى حتى نهاية أكتوبر ، لدمرت اسرائيل تماما ، فان احتفاظها بـ (الثغرة) يكلفها من الرجال والعتاد ما لا طاقة لها به ، اذ تطورت (الثغرة) لمصيدة للاسرائيليين .. !

وقد قال أرنولد توينبى :

« ان المؤرخين سوف يتجادلون طويلا حول ما اذا كانت الجيوش المصرية قد أحرزت بالفعل انتصارا عسكريا فى حرب اكتوبر .. ولكنهم ــ على الأرجح ــ لن يختلفوا حول الرأى القائل بأن نتائج الحرب قد أعادت للعالم العربى قدرا من الثقة بالنفس ، كانوا فى أمس الحاجة اليه ، وكان غائبا عنهم منذ الهزيمة المهنية فى عام ١٩٦٧ ، ولن يتجادل المؤرخون ــ فوق ذلك ــ حول ما اذا كانت الحرب قد جعلت من أنور السادات ، الذى كان يوصف بأنه شخصية مترددة من الدرجة الثانية خلفت عبد الناصر العظيم ــ أبرز الزعماء مكانة فى العالم العربى .. والسادات يسعى الى اقرار السلام ،

ولا يهدف الى تدمير اسرائيل ، بقدر ما يهدف الى اعطاء حرية أكبر لمصر وشعبها لتكريس طاقاتهم لبناء مصر الحديثة .. وما الانفتاح ، الا باب نحو ذلك » .

وثمة اجماع ، كامل ، بين الباحثين والدارسين فى الشئون الدولية والعسكرية ، على أن حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، قد غيرت الى جانب (الميزان) العسكرى والسياسى ، أيضا ، الاحساس السيكلوجى للمصريين والسوريين والعرب ، وأحدثت انقلابا كبيرا ، فى المشاعر العربية عامة . اذ لا يخفى ، أن النفسية العربية قد كابدت المذلة والهوان ، وعانت صنوفا مختلفة من الانكسار والهزيمة ، ورزئت بالاحتلال المباشر وغير المباشر لسنوات ليست بالقليلة .. واقتنعت اسرائيل من خلال « حرب اكتوبر » ، اقتناعا كاملا ، باستحالة مباغتة مصر ، أو العرب ، بحرب خاطفة ، فلديهم النفس الطويل على الاستمرار ، بشريا وماديا وعسكريا ، وتفاقمت عزلة اسرائيل وأحست انها تسير الى ضياع وخراب منذ الأيام الأولى للحرب ، لذلك ضغطت على أمريكا ، أن تأمر بوقف اطلاق النار ، وتحركت أمريكا فى هذا الاتجاه ، رغم دعمها الكامل لها ، وبسفور ، واستمرت فى ذلك ، حتى اجتمع مجلس الأمن ، واتخذ القرار بوقف اطلاق النار . واستجابت مصر للقرار ، لا ضغطا ولا ارتقابا له ، فقد كانت الأمة العربية داخليا وخارجيا ، كتلة واحدة ، من الارادة الصلبة ، تعطى بسخاء ، وتبذل بقوة ، بكل ما استطاعت وملكت فى معركة من أعظم معارك الوطن العربى ، بل استجابت للقرار لانها حققت مهمات الحرب القتالية ، وتم لها ما هدفت اليه عسكريا ، وسياسيا ، واستراتيجيا . لذلك صدر الأمر بوقف اطلاق النار .

صدر الأمر للقوات المسلحة المصرية ، بايقاف اطلاق النار ، اعتبارا من الساعة ١٨٫٥٢ يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، وقد التزم العدو فى نفس الوقت باتفاق اطلاق النار فى هذا الموقد . وقد اذاعت القيادة العامة بيانا هاما ، جاء فيه ان القتال قد توقف تماما فى موعده بعد ١٧ يوما وأربع ساعات و ٥٢ دقيقة من بدايته فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السادس من

من اكتوبر .. وقد اكدت مصر ، فى ٢٢ اكتوبر ، ان وقف اطلاق النار قـد حدث واصبح مؤكدا وفقا لقرار رقم ٢٤٢ الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧ ، والذى ينص على : الانسحاب الاسرائيلى الكامل من جميـع الأراضى المحتلة ، التمسك بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى . وقد درس السادات ، بعناية بالغة ، تفاصيل المناقشات التى تمت فى مجلس الأمن ، والمناخ الذى تدور فيه القضية بوضوح ، وكانت هذه الملاحظات حصيلة رؤيته للأمور :

** أولا : ان مشروع القرار الذى عرض على مجلس الأمن وتقدمت الدولتان العظيمتان به : الاتحاد السوفيتى ، وأمريكا ، بعد اتصالات مكثفة على أعلى المستويات بينها وبمسئولية خاصة بهما فى الأوضاع الراهنة ، يعتبر مشروعا جوهريا للأخذ به .

** ثانيا : أن مجلس الأمن وافق على مشروع القرار ، وبدون أى اعتراض من جانب أى عضو من أعضائه .

** ثالثا : أن المناقشات التى دارت فى المجلس كانت لها أهمية كبيرة وألقت أضواء ضرورية على معناها .. وفى هذا الصدد ، كانت ملاحظات فرنسا والهند ، ملاحظات لها أهميتها الحقيقية ..

** رابعـا : ان التفسير المصرى لقرار مجلس الأمن واضـح كل الوضوح ، سواء فيما يتعلق بالانسحاب من الأراضى المحتلة أو فيما يتعلق بالأراضى المحتلة أو فيما يتعلق بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين . ولقد كانت هناك اعتبارات هامة فى أثناء دراسة ذلك كله بينها مشروع السلام الذى طرحه الرئيس أنور السادات على الأمة وعلى العالم فى خطابه أمام مجلس الشعب واللجنة المركزية يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، والذى جعل من الانسحاب الكامل أساسا لا شك فيه لأى عمل سياسى ..

المحادثات التى جـرت بين السادات والرئيس السـوفيتى اليكسى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى .. التأكيدات التى تلقاها السادات من بريجنيف ، والتى قدمها له السفير السوفيتى فى القاهرة فى رسالة خاصة

يوم ٣١ اكتوبر ١٩٧٣ .. الاتصالات التى جرت مع عـدد من العواصم العربية المهتمة مباشرة بالمعركة ..

وبقبول وقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ ، دخل الشرق الأوسط ومصر ، مرحلة جديدة ، لا تقل خطورة وحسما وتعاظما عن المرحلة التى سبقت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .. مرحلة الاستثمار الأقصى والأمثل للانجازات الكبرى التى تحققت فى جبهة القتال (على المستوى الداخلى) ، « .. فاليوم ، وبعد انتصار اكتوبر ، وتأكيد وحدة الصف الوطنى ، وارتفاع المواطنين الى مستوى المسئولية ، لا بد ان يؤكد معنى الحرية السياسية جنبا الى جنب مع الحرية الاجتماعية ، وبهذا اتخذت قرارى برفع الرقابة عن الصحف ، ونحن لا نخشى الخلاف فى الرأى ولا التعبير عن المصالح المختلفة لقوى الشعب العامل ، ما دام كل ذلك يدور فى الاطارات المشروعة التى نرتضيها ، ولا يستهدف غير مصلحة مصر وخير شعبها . اننا تقدم فى جرأة على تصفية القيود على الحرية من واقع الثقة بالجماهير وبوعيها الوطنى الممتاز ، ونريد أن نخلص المجتمع من كل المظاهر التى تعبر عن الريبة .. »

فلقـد وضع قرار بدء معركة التحرير نهاية والى غـير رجعة لحالة « اللاسلم واللاحرب » ، التى حاولت اسرائيل أن تمضى فى ظلها ، منفذة أهدافها التوسعية ، تدريجيا ، بخلق أمر واقع جديد ، بينما عاشتها مصر ، والامة العربية استنزافا ماديا وسيكولوجيا وروحيا .. وكانت الانطلاقـة الديمقراطية داخل مصر ، وفى كل المنطقة ، أحد النتائج البارزة التى أحدثتها حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، فقد أعادت هـذه الحرب الثقـة (للمواطن) ، وخلقت مناخا صحيا عظيما للتنفس ، وفى ظله حصل (المواطن) على المزيد من المكاسب الثورية فى اطار الحريات الاجتماعية والديمقراطية ، كنوع من استمرار (التصحيح) ، وتعميقه على مختلف المستويات ، مما جعل السادات يؤكد :

« ليكن واضحا ، اننا نبنى ولا نهدم ، نصحح ولا نحطم ، نطور وندعم كل ما هو ايجابى ، بقدرما نصفى ما هو سلبى ، نكشف الاخطاء فى غـير مغالاة ، ونرفض كل محاولة لتركيز

الاضواء كلها على الجوانب السلبية ، حتى تختفى من الصورة كل الجوانب المشرقة)) .

وقد أكد السادات ، مرارا ، على ان القاعدة الوطيدة التى غيرت طبيعة وظروف أزمة الشرق الأوسط ، كلها ، قد برزت ، وتدعمت بالعمل العظيم والمجيد ، الذى قامت به وتقوم به القوات المسلحة العربية ، وأثبتت به نفسها فى ميدان القتال شجاعة ، ومقدرة ، وفداء .. ذلك لأن العمل العظيم والمجيد ، هو وحده ، الذى (كسر) جمود الأزمة ، وبدل الأمر الواقع ، وغير الخريطة السياسية للشرق الأوسط كلها ، وانهى الى الأبد صلافة وحماقة القوة التى مارسها العدو الاسرائيلى خمسا وعشرين سنة فى الواقع العربى ...

وفى نفس الوقت ، كانت صلابة الأمة العربية كلها ، هى السياج الحقيقى التى كفلت النجاح ، وغيرت الواقع ، بوعيها العميق ولايمان شعوبها العظيم بالمعركة .

●

فى ٢٤ يوليو عام ١٩٧٤ ، قال السادات ، معلقا على قرار اكتوبر التاريخى :

((لقد صدر القرار عن ارادة وطنية وقومية خالصة ، وهو معنى أحرص دائما على تاكيده وتكراره اهم ما يجب أن نحرص عليه دائما فى الحاضر والمستقبل ، ولأن تاكيد الارادة الوطنية كان المنطلق الاساسى لحركتنا منذ بدانا الاعداد لثورة ٢٣ يوليو ، ولأن معظم ماتعرضنا له طوال ٢٢ سنة من تحديات كان مرجعه حرصنا على حرية هذه الارادة الوطنية لانها اذا رسخت فى ضمير قيادتنا وقواعدنا اليوم وغدا فهى الضمان الوحيد للمستقبل)) .

فلم يكن (قرار أكتوبر) بالمسألة اليسيرة ، فهى مسألة لا تتعلق بالحسابات والتقديرات والاحتمالات ، فقط ، بل انها مسألة تتعلق بحياة الملايين والملايين :

« مئات الألوف ، بل الملايين ، سياخذون الكلمة منى ، وفوق ذلك هناك كرامة وحياة امة فى الميزان .. فالقرار ، هنا ، تعبير عن الارادة الوطنية والقومية ... القرار ، هو الارادة ، بمعنى ، أن قرار الحرب والتحرك ، معناه امتحان امة بكاملها .. معناه أن نضع شعبنا ، بفكره ، بقيمه ، بتقاليده ، بحضارته التى تصل الى سبعة آلاف سنة فى الميزان » .

وعلى الرغم من ان التقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية فى لندن ، قد اعترف بتفوق العرب عسكريا ومعنويا وماديا على اسرائيل ، فى حرب السادس من آكتوبر ٧٣ ، وكذلك اعترف العالم أجمع ، الا أن (البعض) من ذوى المآرب الخبيثة والنزعات الانهزامية ، قدحاولوا أن يسيئوا الى (القضية) عن طريق ترويجهم لاشاعة ان مصر قد طلبت وقف اطلاق النار قبل الآوان ..

وقد ذكر التقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن عن حرب اكتوبر ، فقال :

« ان حرب اكتوبر ، بسلاحيها العسكرى والبترولى ، قد جعلت من العرب قوة عظيمة ، قوة سادسة فى العالم ، بعد أمريكا ، والاتحاد السوفيتى والصين ، واليابان ، وكتلة أوربا الغربية .. وقد جعلت حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، بقاء اسرائيل فى أى أرض عربية ترفا باهظا ، غالى الثمن ، لن تقدر عليه بعد اليوم ، أبدا .. » .

ويفسر السادات بنفسه مآرب هذه الطغمة الانهزمية ، أو (الجيوب) العربية ، بقوله :-

« البعض فى البلاد العربية ، يحاول أن يصور أن مصر خرجت من المعركة ، وهى التى طلبت وقف اطلاق النار قبل الآوان . لا آنا آنا عايز أصلح هذا المفهوم . فى اغسطس ٧٣ ، قبل المعركة بشهر واحد ، مررت على السعودية ، وقابلت الملك فيصل ، وكان لنا مناقشة طويلة . . كان الرجل رحمه الله مشفقا علينا من نتائج المعركة ، فلما أكدت له سلامة

موقفنا ، وانه ليس أمامنا من سبيل آخر ، الا أن نقتحم هذا الحاجز ، وقال: أنا لى عندك طلب بسيط وهو ألا تطلب وقف اطلاق النار بعد ساعة أو بعد يوم أو بعد يومين من أجل أن نستطيع ان نكون موقف عربى .. لازم المعركة تأخذ وقت طويل وتكون مخططة على مدى طويل علشان اقدر نكون موقف عربى .. وقلت له : انا موافق تماما على هذا ، وأطمئنك أننا مخططون تخطيطا لمعركة طويلة .. وبعدها سافرت الى قطر ، ثم الى سوريا ، واتخذنا القرار قرار ٦ اكتوبر ، وبدأت المعركة ، ومثلما سمعتم وعرفتم ، جاءنى السفير السوفيتى بعد مضى الست ساعات الأولى من المعركة وطلب منى وقف اطلاق النار وكما قلت ، أن هذا كان بناء على طلب سوريا ، وأرسلت للرئيس حافظ الأسد .. ورد على وقال ، ان هذا لم يحدث .. وثانى يوم ، تكرر نفس الطلب وكان وصلنى رد الرئيس حافظ الأسد ، وقلت : لا .. واحنا مستمرين فى المعركة .. وفى يوم ١٣ ، كما سمعتم ، أيقظنى السفير البريطانى برسالة من كيسنجر ورئيس الوزارة البريطانية هيث ، وسألانى : هل أنت ، فعلا ، قبلت وقف اطلاق النار ؟ لانه قيل لأمريكا أننى قبلت وقف اطلاق النار .. بعد ذلك ، رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى جاء وزارنا ، هنا فى مصر ، أربعة أيام ، وكان الهدف الأساسى ، هو أيضا ، طلب وقف اطلاق النار ، وفى كل هذه المراحل من بعد الست ساعات الاولى لثانى يوم لثالث يوم لليوم الذى أيقظنى فيه السفير البريطانى بعد ست أو سبع أيام لمجىء رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى ، رفضنا ، رفضت وقف اطلاق النار من أجل أن نكون موقف عربى واحد ، ومن أجل أن نؤكد للعالم كله أننا أكفاء ، فى مواجهة اسرائيل ، وكان لابد أن تبلغ المعركة أهدافها المخططة لها فى الخطة .. ولكن يوم ١٩ أكتوبر ، طلب منى الله يرحمه المشير اسماعيل ، أن أتوجه لغرفة العمليات لأنه هناك قرار أساسى وحاسم لابد أن يؤخذ .. وذهبت فى الساعة الواحدة بعد نص الليل .. وكان اليهود قد ابتدوا الثغرة ، ولم تكن تمثل أية خطورة مثلما حاولت بعض المصادر أن تصور ، ومثلما حاول للاسف بعض اخواننا العرب .. واسترعى انتباهى ، فى يوم ١٩ أكتوبر ، التى لم أعد

أواجه اسرائيل فقط ، انما أواجه قوة الولايات المتحدة ، بدلا من أن أواجه اسرائيل . »

ويضيف السادات الى (الموقف) توضيحاته ، التى تلقى مزيدا من الضوء على ما حدث ، فيقول مفسرا ما حدث فى اكتوبر ، وفى الأيام الاخيرة من الحرب عندما اتخذ قراره بوقف اطلاق النار :

« كان فى تخطيطى للمعركة .. ان الاتحاد السوفيتى يواجه أمريكا .. القوتان الكبيرتان يوازيان بعضهما ، ويتركونا منا لاسرائيل .. لكننى وجدت يوم ١٩ أكتوبر ، وباستعراض كامل للأحداث ، عشر أيام كاملة وأنا أواجه الولايات المتحدة ، ونحن لا نستطيع أن نحارب الولايات المتحدة ، ومثلما قلت فى البرقية التى أرسلتها للرئيس حافظ الأسد يوم ١٩ أكتوبر ، أننى لا أستطيع أن أتحمل المسئولية التاريخية لتدمير شعبى أو القضـــاء على قواتى المسلحة أبدا .. وأنا مستعد أن أتحمل النتائج أمام شعبى وأمام الأمة العربية كلها . كل هذا ، كتبته يوم ١٩ أكتوبر ، ووافقت على وقف اطلاق النار وافقت لأنه مثلما قلت أنا غير مستعد بأننى أدمر مصر وأدمر قواتها المسلحة ، لأن أمريكا تستطيع أن تفعل ذلك ، وكانت فى المواجهة ولم تكن اسرائيل هى التى تواجهنا فى العشر أيام التى سبقت يوم ١٩ اكتوبر ا.. وفى العالم العربى ، قيل ، ان مصر طلبت وقف اطلاق النار قبل الأوان ، ونحن نعلن صفحتنا بوضوح ، ونعرض للوقائع كما هى .. لسنا مزايدين ، ولسنا من محترفى السياسة ، نحن ثوار وطنيين ، نؤمن بالقومية العربية ، ونؤمن ببلدنا وبأهداف أمتنا العربية . وحصل وقف اطلاق النار ، وبعد ساعتين نقضوه اليهود ، أملا منهم فى أن يغيروا مصير المعركة ، وتصوروا ، أنهم يقدروا على أن يأخذوا الســويس والاسماعيلية ، ويبجوا ورا جيوشنا ، وبذلك نبقى خسرنا المعركة بالكامل ، ومثلما ، تعرفون ، كفاح السويس البطولى ، لم يستطيعوا أن يدخلوا السويس ، ولا يمكثوا فيها أبدا ، والى يومنا هذا موتاهم مدفونين فى السويس .. أما الاسماعيلية فلم يستطيعوا حتى أن يصلوا الى مشارفها .. وجاء الدكتور كيسنجر ــ فى اندفاعهم نحــو

السويس ، وكان الوضع غريب ، فرقتان من الجيش الثالث فى الشرق وجم هم وراءهم فى الغرب ، وباقى الجيش الثالث قدام الاسرائيليين ، فبقت قواتنا وقوات اسرائيل وقواتنا .. عملية اتلخبطت مع بعضها .. دا الجيب اللى كانوا بيقولوا عليه أنه قضى علينا ، وانه هزيمة لنا .. كانت قوات اسرائيل بين قواتنا اللى فى الشرق واللى فى الغرب ، صحيح جات ورا القوات اللى فى الشرق ، لكن قواتنا فى الشرق ــ بتوع الجيش الثالث فضلوا لآخر يوم لغاية ما انسحب اليهود لآخر يوم يقاتلون ويكسبون الأرض .. وصنعوا من البطولات ما تعتز به مصر وأمتكم العربية ، ونعتز كلنا بابنائنا فيه .. جاء كيسنجر ، واستقر الرأى على النقاط الستة ، وكان أول اتصال لنا بأمريكا ... وبعد ثلاث ساعات من مقابلة كيسنجر ، كنا متفقين على النقاط الستة وانا فى هذا طلبت خط ٢٢ أكتوبر ٧٣ ، ولم أطلب أن يرحل اليهود من الغرب .. من عندى .. قلت أنا عايز خط ٢٢ اكتوبر .. فتساءل كيسنجر : لماذا ؟ قلت أن الجهد الذى بذل فى خط ٢٢ أكتوبر ، يبذل فى انهم ينسحبوا الى الشرق ، لأن موقفهم فى الغرب سيء .. (الجيب) الذى اعتقد الكثيرون ، وللأسف ، بعض اخواننا العرب ، حاولوا أن يتخذوا منه مادة ، من أجل أن يشوهوا المعركة بأكملها ، المعركة التى جعلت من الأمة العربية القوة السادسة فى عالم اليوم .. المعركة التى غيرت وجه التاريخ العربى .. المعركة التى كسرت جدار الخوف .. جدار الانهزامية .. جدار التمزق وصدرناه كله للمجتمع الاسرائيلى اليوم .. » .

●

رغم ان ما حدث فى اكتوبر ٧٣ ، كان يقارب ، ، قوته ، وعظمته حد الأساطير ، ورغم ان العالم أجمع قد اعترف به ، حتى العدو نفسه : اسرائيل .. الا انه ، وكما أكد السادات ، ان هناك من يهمهم (الاساءة) ، والنيل من أكتوبر ، عن طريق افتراءاتهم ، وترويجهم لدعايات كاذبة .. فيقولون اننا أوقفنا اطلاق النار قبل الأوان ، ويدعون اننا (نتفق) مع أمريكا ، ويدعون باننا ، وبهذا ، وكما نرى آن هذه (الجيوب) ، تمثل

خطرا على وحدة الصف العربى ، وعلى الجبهة الداخلية ، لا يقل فى جوهره عن الخطر الاسرائيلى نفسه ، ففى طريق موقفهم الانهزامى ، هذا ، يطعنون كل عمل شريف تقوم به الجماهير العربية فى سعيها لحل التضية العربية ، وعن طريق خلقهم لألوان من التناقضات الثانوية فى المنطقة ، من شأنها بلبلة الأفكار وتشويش المناخ ، تلتقى فى مآربها بشكل أو بآخر ، بوعى أو بغير وعى ، مع القوى الاستعمارية التى تبغى الحاق الهزيمة بالثورة العربية أو على الأقل احداث (شرخ) داخلها .. وهذا الخطر ، بالنسبة لهذه (الجيوب) ، وأذيالها فى كل مكان ، وحتى داخل القاهرة ، لا بد ان نحذر وننبه لخطره ، فهم ينفثون سمومهم وسط المناخ الصحى ، الذى صنعه اكتوبر ، والذى كان افرازا طبيعيا لثورة التصحيح التى قادها البطل والمناضل والثائر : محمد أنور السادات ..

●

لقد سقط جدار الخوف ، على المستوى القومى والعالمى ..

انهار حاجز الخوف الذى كان يحول بيننا وبين اسرائيل ..

فبعد ما سقط جدار الخوف ، بسقوط مراكز القوى الانكشارية فى ١٥ مايو ٧١ ، وباعلان ثورة التصحيح .. سقط جدار الخوف بيننا وبين العدو بعد سلسلة حروب دامت ربع قرن من الزمان ــ هذا الجدار الذى كان يتمثل ماديا وعسكريا فى اجتياز المانع المائى (قناة السويس) ، وفى اقتحام (خط بارليف) القوى التحصين .. واذا كان خط ماجينو ، وخط سيجفريد قد شدا عشرات الشعراء والفنانين ، ليكتبوا عنهما ، وعن نضال القوى الشريفة فى مواجهة الفاشية والنازية التى كانت تترصد حركات تقدم الشعوب وتفرض عليها الحرب قدرا وخرابا ودمارا ، فان (خط بارليف) سيكون أكثر الهاما للكتابة والتعبير بالنسبة للاجيال القادمة ، مثلما كتب اراجون وايلوار وسارتر عن خط ماجينو ، ومثلما كتب فاجنر الحانه عن خط سيجفريد وكتب توماس مان وايريك ماريا ريمارك عن هذا الخط ،

سيكتب الشعراء والأدباء العرب العديد من أعمالهم عن الملحمة التى صاغها بسطور من الدم والعرق والنضال مقاتلونا وعلى رأسهم بطل أكتوبر : السادات ..

وقد أتيح لى ، ككاتب ، وأديب ، ان أعبر القناة ، وأمشى على أرض سيناء فى أعقاب وقف اطلاق النار ، وكنت قد زرت الجبهة أكثر من مرة قبل حرب اكتوبر ، وأحسست بمشاعر غريبة ، غامضة ، فياضة ، وأنا أشم رائحة المكان الذى لا زال يحمل آثار الملحمة الكبرى لمقاتلينا البواسل .. لقد أحسست بالفخر ، حقا ..

لقد أحسست بمصريتى حقا ..

لقد أحسست اننى أتنفس مصر حقا ، وقدماى تسيران على رمال سيناء ، وأنا راكب (اللانش) فى القناة ، وأنا أعبر على نفس الكوبرى الذى صنعه مقاتلونا .. ولحظتها ، لم أستطع أن أكتم دموع الفرح من أن تسقط ..

ان ما حدث هنا أشبه بالأسطورة ..

ان فارس الأمل ، قد قاد مقاتلينا ، ليبذروا بذور الأمل هنا .. فعبروا ، وحطموا العدو ، وأدوا الأمانة ، ورفعوا علم مصر على قلب أرضنا ، فعادت البسمات رقيقة حلوة ، ندية ، لتمسح دموع الاحزان واليأس التى خلفها يونيو ٦٧ .

أن أبناء الغد ، عندما ، سيمرون ، من هنا ، بعد سنوات ، سيقولون : لقد مر فارس الأمل من هنا .. السادات .. ومعه رفاقه .. أبطال أكتوبر .. لقد بذروا « قمح مايو » فى ١٩٧١ ، وحصدوا ثماره الناضجة فى أكتوبر ١٩٧٣ ، ومنذ هذه اللحظات ، والارض ممهددة ، تعطى ، لأن روحها عادت من جديد لتتنفس داخلها بالأمل والحب والخير . .

ان الحرب ، ليست مدافع تطلق ، أو طائرات تسقط أو شهداء يسقطون ، بقدر ما هى نفوس ترتفع وهامات تشمخ ، وجماهير تتحرك فى أعصار نحو الآمال العظيمة .. وهذا ما حدث لمصر ، ولسوريا ولكل المنطقة

العربية فى اكتوبر ٧٣ . . وكانت حرب رمضان العظيمة ، انطلاقا آخر ، نحو مزيد من المكاسب والتحركات ، محليا ، وقوميا ، وعالميا ، نحو استكمال منجزات الثورة العربية فى تقدمها ، فى تطورها ، فى سعيها الى الأكمل والأسمى والأرحب ..

●

مثلما أتيح لى ، أن أعايش معارك أكتوبر ٧٣ ، عن قرب ، سواء بزيارة الجبهة وخط النار ، أو بالمساهمة بالقلم والعمل فى تحركات الجماهير فى الجبهة الداخلية ..

أتيح ، لى ، أيضا ، أن أحيا معارك سوريا ، عن قرب ، وقبل وقف اطلاق النار ، وكان ذلك خلال زيارة قمت بها الى سوريا فى مارس ١٩٧٤ ..

وقد حاولت أن أكتب فى تلك الفترة عن معارك جبل الشيخ وما يدور من معارك ضارية فى المرتفعات السورية ، لكننى مهما كتبت ، كنت أحس ، اننى لم أستطع أن أعبر عما كان يدور بالفعل ، فقد كان مايحدث فى سوريا ، شيء كالحلم ، اشبه بالأسطورة ، أقوى من أن يكتب عنه ، يعاش فحسب ، فلحظات البطولة تعاش أكثر مما تروى ، لأن ترجمتها من أصعب الأمور ..

وهذا ما دعا صحيفة (الثورة) السورية الى أن تقول : « ان المقاتلين السوريين فى جبهة الجولان وجبل الشيخ ، يقفون فى اصرار وحرب لاتلين وفى تقدم دائم ، من أجل الحاق الدمار والخراب بالعدو الاسرائيلى ، وهم لا يقاتلون من أجل الموت والاستشهاد ، وانما يقاتلون حتى تحقيق المهام القتالية العظيمة من أجل النصر ، وداخلهم ارادة لا تقهر تحمل كل اصرار الشعب العربى العظيم » ..

وقد عشت أحداث المعارك السورية طوال أسبوع بين دمشق ، ودرعا ، والرمشا ، ودربل ، بل وشاهدت عن قرب معركة ضارية تدور رحاها ، فى قرية متاخمة للقطاع الأوسط ، كنت خلالها سأفقد حياتى

وانا فى طريقى من دمشق الى عمان ، فقد اضطررنا الى آن نتوقف تسع ساعات ، عشناها بين زئير المدافع ومطاردات الفانتوم والتماعات القذائف والصواريخ ، وعند منعطف القرية الصغيرة ، آمرنا ضابط قصير القامة بأن نهبط من العربة ، وكنا سبعة ركاب ، خمس رجال وامرأتين فى مقتبل العمر ، وكنت بينهم المصرى الوحيد ، وكانوا هم من الأردن ولبنان .. مرت فوق رءوسنا بسرعة مذهلة « عاصفة » طائرات من الفانتوم ، دارت دورتين ثم بدأت تهبط قليلا ، فهرولنا الى منخفض قريب ، والبعض جرى الى اطلال بيت قديم مجاور ، وآخرون انبطحوا أرضا ، فقد كان وراءنا رتلا من السيارات المسافرة ، والتى تتحرك بين دمشق وعمان .. وسمعنا الانفجارات الضخمة ، فأمرنى عجوز سورى مجاور بأن أفتح شدقى عن آخريهما حتى لا أصاب بالصمم .

وأذكر ، ان الدقائق مرت ، ومرت . .

وبعد فترة ليست بالقصيرة ، خلتها دهرا ، جلست خلالها وحيدا الى جوار صخرة رمادية صغيرة ، أفكر وأسرح الطرف ، حتى جاءنى واحد من الجنود بكأس من الشاى وتعرف على ، ودار الحديث بيننا ، وهو يتمتم « لابد من الشاى ، وان طالت الغارة ! » .

وحسوت الشاى ، على صوت الانفجارات ورائحة البارود .

كنت قلقا ، ولا أخفى عنك ، اننى كنت مفزوعا ، لكن رغم ذلك كله ، فقد كان طعم الشاى فى شفتى أعظم شاى شربته ..

ان الأشياء تعظم قيمتها ، وتكتسب روعتها من خلال اللحظة .. وفى خلال لحظات الحرب تتوهج وتتبع الأشياء قيمة ، لأنك تحس بها أكثر وقعا ، فخلال اللحظات العادية لا تحس بوقع الأشياء كما ينبغى .. تماما ، كالحب ، تحياه ، تعيشه ، تحس بتدفقه ، لكنك ابدا لا تحس بروعته وعظمته الا وأنت تتنفس الحبيبة ..

صدقونى ، أن كل ما كنت أفكر فيه ، وأنا خلف الأكمــة رأتشف لذلك أحسست بالظمأ ، وعاد شريط أكتوبر وما احتــواه من انتصارات على أرض القنــاة وفى ســيناء ، يتــداعى ويلتمع فى مخيلتى .. النضــال واحد .. الهدف واحد .. الموت واحد .. والحيــاة واحدة .. وما أعظم أن يموت الانسان من أجل هدف عظيم : ان الجبان ، يموت ألف مرة ، بينما الشجاع ، يموت مرة واحدة ! . .

وتلفت حولى ..

كانت الغــارة ، قد انتهت ، ووضـــعت قدمى فى العربة وأنا أشــد على يد المقاتل السورى ، وانظر الى الدخان المتصــاعد من بعيد ، وقد اختلط بالثلوج فى قمم الجبال العالية والتى لم تذب ندفها بعد ، بينمــا النيران تأكل بعض العيدان الخضراء اللينة من المزارع المتاخمة ..

وانطلقت العربة ، اصبحنا خمسة : ثلاثة رجال ، وامرأتين ، فقدنا اثنين فى الغارة ! اصابتنا الصدمة ، والبعض بكى ، وآخر لم تسعفه الدموع ، وآخر احتواه الصمت واعتصرته اللوعة والأسى !

لحظات من النضال ، عشتها فى سوريا ، عانقت ، فى مخيلتى ، وضميرى وقلبى لحظات أخرى من النضــال المصرى فى القناة وفى سيناء فى أكتوبر ١٩٧٣ .

●

مثلما أحدثت حرب اكتوبر ٧٣ ، تغييرا لموازين القوى فى المجتمــع المصرى ، والوطن العربى ، بشكل عام ، وأعادت الثقة الى النفوس العربية وفتحت الطريق واسعا لمزيد من المكاسب العسكرية والسياسية والفكرية والمادية ، بعد « اسقاط » خرافة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر ، وانجاز مهمات اكتوبر العظيم .. أحدثت آثارها ، أيضا ، فى جانب العدو ، فقــد تغيرت (الأرض) ، من تحت أقدام اسرائيل ، واهتز المجتمع الاسرائيلى

من الداخل والخارج ، بقوة عنيفة ، سياسيا وعسكريا واقتصاديا وفكريا .. فقد انتصر العرب ، وتفوقوا عليهم فى كل شيء ، ولم يعودوا « كما توهموا » ـ تلك الشرذمة (الهمج) ، كما كانوا يصفونهم فى روايات : (الخروج) ، و (حفنة من الرجال) ، و (حرب .. لم تتم !) ..انهم ، بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، امام عدو متحضر ، استوعب تكنولوجيا العصر (عسكريا) واستطاع ان ينتزع النصر ، ويحطم أسطورة الأمن الاسرائيلى ونظريته التقليديه ، وامام اعلام متميز يعرف كيف يكسب القضية عطفا واسعا بهدوئه وعدم رعونته وأساليبه المبالغ فيها ، وامام موقف عربى واحد ليس داخله (ثغرة) للاختراق ، وهم ، أمام عدو يتمتع بالنفس الطويل فى الحرب واللاحرب ، مستعد لأن يحارب شهرا وسنة وخمسة أو أكثر من أجل أرضه وقضيته ، وهذا ما جعل (الصورة) تتغير ، داخل اسرائيل ، وأصيب (المواطن الاسرائيلى) ، نفسه من الداخل بالاهتراء والمزق والانكسار ، نتيجة للتخلخل الذى أحدثه اكتوبر فى بنية المجتمع الاسرائيلى ، وفى قياداته وجيشه وساسته .. وعندما يأتى الى الأذهان ذكر حرب أكتوبر ، فانه يعنى بالنسبة للاسرائيلى : (هزيمة حرب الغفران) ــ أو حرب التقصير ، من قبل القيادات الاسرائيلية التى قادت الى الحاق الهزيمة بالجيش الذى ظل سنوات يتمتع بـ (نجمة الجيش الذى لا يقهر ولا يفل) .

وقد اعترف الكتاب الاسرائيليون ، بذلك ، وبجلاء فى الدراسات والمقالات والكتب التى صدرت منذ نوفمبر ١٩٧٣ حتى الآن ، والتى نشر بعضها داخل تل أبيب ، وبعضها الآخر فى أمريكا وغرب أوربا ..

وقد تناولت لجنة (اجرانات) ، التى عينت للتحقيق فى أسباب (حرب التقصير) من الناحية العسكرية ، ونشرت تقريرها الأول ، الذى نشرته وعلقت عليه بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٧٤ صحيفة (هآرتس) اليهودية ، بقولها : « ماذا كان أصل التقصير ؟ أى غياب الاستعدادات ، والاحتياطات العسكرية الأولى ، والتطورات السياسية غير

المتوقعة .. وهـل وقعت هنا مفاجأة وخطأ فى المعلومات .. انه فى الأساس نظرية سياسية استراتيجية ــ تكتيكية كاملة ، لم تعتمد فى الامتحان .. كيف نفسر كلام رئيسة الحكومة جولدا مائير ، يومها ان اسرائيل لم تؤخذ على غرة .. وكذلك كلام موشى ديان ، عن احتمالات قيام الحرب فى الخريف .. فى أكتوبر .. وكيف تفسر اجلاء العائلات عن أبو رديس قبل الحرب بيومين مقابل اهمال جنود التحصينات المأسوى ؟ .. وكيف رسمت لجنة (اجرانات) خطا عريضا الى ذلك الحد ، وفصلت بشـكل لا يقبل التأويل بين ديان والعازر ؟ ولماذا نحى الجنرال جونين ، وأعفى الجنرال العازر بقرار لا رجعة فيه ؟ فى حين ظل موضوع ديان مفتوحا ، ومعرضا للتفسيرات المختلفة ! »

وفى محاوله للاجابة ، على سلسلة هذه الأسئلة المثيرة ، كتب (آهرونسون) فى مقاله بصحيفة (هاآرتس) الاسرائيلية ، يقول : « ان كلا من الحكومات العربية وديان ، قد تأهب للحرب ، لاحراز مزايا عسكرية ، تمهيدا للمفاوضات السياسية التى كانت متوقعة بعد الانتخابات .. وربما كان قرار الحكومة بالامتنـاع عن شن حرب وقائية ، اتخذ أساسا على خلفيـة الادعاءات الاسرائيلية تجاه آمريكا ، بشأن الحدود الآمنـة ، بما فى ذلك استمرار اسرائيل على طول قناة السويس اذ كانت تقول ان هذه الحدود تعفينا من ضرورة اللجوء الى حرب وقائية ، ومن أجل ذلك ، ومن أجل تبديد أى ظل للشك فى مسألة من الذى بدأ ، ومن المذنب ، أخر وزير الدفاع ، قـدر استطاعته ، تجنيد الاحتياطى ، وساد الاعتقاد ، بأن التحصينات ستصمد ، وبأن السلاح الجوى ، وباقى القوات النظامية ، ستكفى الى حين تجنيد قوات الاحتياط » .

فى نفس الوقت ، تناول (مارك ديفن) ، الكاتب الاسرائيلى المعروف ، فى صحيفة (عال همشمار) ، ما حدث فى أكتوبر من مهاترات وتقصـير ، من خلال وقف ديان ، نفسه ، فقال : « من الواضح ان الحرب التى أدت الى انهيار فلسفة ديان ، أدت فى لحظات معينة الى انهياره هـو شخصيا ، وصحيح ان لموشى ديان قدره ، ولا بأس بهذا القدر ، على التكيف مع كل

الأوضاع ، ولكن ديان اليوم ، ليس ما قبل حرب يوم الغفران ، وخـلال الحرب ، شاهدنا ، وسمعنا كيف تتحطم خرافة ديان ، القادر على كل شيء ..
وأذكر ذلك اللقاء ، الذى جمعنا فيه موشى ديان ، انا ومعظم رؤساء تحرير الصحف داخل اسرائيل ، وكان ذلك بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد ثلاثة أيام على قيام حرب الغفران ، قال : اننا فوجئنا . سنضطر الى الانسحاب من سيناء الى خطوط جديدة ، اذ ليس فى مقدورنا صد المصريين وارجاعهم الى ضفة القناة الغربية ، فقد عبروا ، وحطموا حصون الخط الدفاعى الكبير .. ربما ، كان ، باستطاعتنا محاولة ذلك ، والمقاومة عن طـريق الانسحاب ، ولكننا سندفع ثمن هذه المحاولة غاليا ، فى ميزان القوى الحالى ، لأن قوة الجيش الاسرائيلى الأساسية يجب ان تدافع عن دولة اسرائيل ، وليس عن الصحراء » ..

وفى الوقت ذاته ، نرى صحيفة (دافار) الاسرائيلية ، تعلن بصراحة :
« ان الموقف جد ، خطير ، فمنذ بداية الحرب وحتى الآن ، أى طوال الأسبوع الماضى ، والحال يزداد سوءا ، عبر المصريون القناة ، رفعوا العلم على خط بارليف ، والسوريون ، يبلون بلاء حسنا فى الجبهة الأخرى ، ونحن نحارب فى أكثر من جبهة ، وهذا يشتت جهودنا . ترى ، هل نسحب كل الاحتياطى ، وكل القوات لنجر الى حرب فى الصحراء ، عارية ، قادر عليها المصريون باعدادهم الهائلة ، ثم انهم أصبحوا على دراية باستخدام أحـدث أدوات الحرب العصرية التى تفوق مالدينا ، ان هـذا ما يريده السادات ، ان يجرنا الى حرب فى الصحراء ، ليصل الى تل أبيب .. واجبنا الأساسى ، ينحصر فى شيء واحد ، ان نضغط على أمريكا ، التى أعلنت بوضوح انها تضمن أمننا وسلامتنا ، ونظهر جانبنا السلمى ، بالسعى الى وقف اطلاق النار ، من أجل الوصول الى تسوية ، ثم لا بد من العمل ، ومن خلال أى لعبة ، كما قال وزير الدفاع الأمريكى ، ونيكسون ، شخصيا ، باحداث (ثغرة) ما ، أو بايجاد أى جرح فى (النصر) الكبير الذى أحرزته مصر ، حتى لانبدو كالمشلولين ، ولا بد أن نبدو أقوياء ، كعهدنا ، حتى

لا يفرح المصريون والسوريون ، والعرب ، كثيرا ، فلنأجل أحلامنا ومطامحنا التوسعية ، ولنؤجل أمننا الكبير بضمان حدودنا الآن ، وهو تكتيكنا فى هذه اللحظة الراهنة ، وليس اكثر من هذا » .

وقد كتب (زئيف شيف) المراسل العسكرى لصحيفه هآرتس الاسرائيلية اكثر من مقالة عن ٨ آكتوبر ١٩٧٣ ، وهو اليوم الثالث للحرب وذكر ان هذا اليوم ، من آكثر الأيام ضراوة بين مصر واسرائيل ، فهو آشبه بحمى المعركة بين السوفيت والنازى فى ستالينجراد عام ١٩٤٣ . كتب يقول: « فى ذلك اليوم المشهود ، قام الجيش الاسرائيلى ، بمساعدة قوات الاحتياط ، التى استطاعت التجمع فى الجبهة ، بأول هجوم مضاد على الجبهة المصرية ، وقد صد هذا الهجوم الاسرائيلى ، وتكبدنا خسائر جسيمة وبقى الكثير من رجالنا ، سواء المصابون أو الاصحاء فى الميدان ، دون امكان انقاذهم ، ووقع قائد الكتيبة للمدرعات فى الاسر . وكانت القيادة العليا للجيش الاسرائيلى مقتنعة بأننا سنعبر القناة فى اليوم نفسه ، وأرسل تقرير الى الحكومة يفيد أن العبور قد بدأ ، وظهر ان التقارير الواردة من الميدان غير صحيحة ، واحدث هذا الفشل هزة عنيفة ، وكانت هذه الهزة الثانية من الحرب بعد المفاجأة التى داهمتنا ظهر يوم الغفران ، وفى الحقيقة هدد القتال ، فى ذلك اليوم ، مصير معظم التحصينات فى القناة ، التى لم تكن قد سقطت بعد ، ففى مساء ذلك اليوم ، شعرنا لأول مرة ، وبصورة ملموسة ، بأننا وقعنا فى خطأ بالنسبة لتقدير ميزان القوى ، وتأثير أنواع معينة من الأسلحة فى ميدان القتال ، وان حساباتنا لم تكن مضبوطة، وأدركنا اننا أخطأنا بناء قواتنا » .

وأضاف شيف يقول :

« ان تلك (الهزة) جعلت القيادة الاسرائيلية تتردد بالنسبة الى المراحل التالية ، حيث تقرر تأجيل العبور الاسرائيلى الى غرب قناة السويس مدة أسبوع ، وتقرر ، أيضا ، نقل مركز الثقل الى الجبهة الشمالية ، السورية ،

بينما أخذ الجيش المصرى ، فى تلك الأثناء ، يدعم ويحصن نفسه فى سيناء ..
الجيش المصرى ، فى تلك الأثناء ، يدعم ويحصن نفسه فى سيناء ...
وكان مفهوم الجيش الاسرائيلى هو نقل الحرب الى الجانب الثانى الى أراضى العدو ... وكان من الواضح ، دائما وأبدا ، أنه فى حال عبور مصرى للقناة سيشن الجيش الاسرائيلى هجمات مضادة فورية ، وبعد ذلك ، يبدأ هجوما مضادا موازيا ، واسع النطاق ، ويعبر القناة ، وكان العبور من خلال استغلال الهجوم المضاد ، ولهذا الغرض اعدت فى القيادة خلال سنوات ، خطط مفصلة للعبور ، فى عهد شارون عندما كان قائد المنطقة حتى أنه أجرى تمرينا كبيرا للعبور فى سيناء .. والمدهش ، بل والمثير ، ان المعلومات التى كانت تقال ، كانت غير دقيقة ، فقد قيل أن الجيش الاسرائيلى يصد المصريين ، وهذا الصد استمر حتى الساعة الخامسة صباحا ، لكن فى الساعة ١٩ر٥ ، قال اللواء جونين ، لرجال القيادة ، أن الوضع فى الجبهة الجنوبية استقر ، لذلك فهو يزمع على نقل قوة دان شومرون الى الشمال ، وبعد ذلك بدقيقة واحدة ، انقلب كل شيء ، ووصلت الأخبار التى يقودها اللواء البرت مندلر ، انه ليس هناك غير مائة دبابة سليمة ، واتضح فجأة ، أنه لم يبق اتصال ، فى الجبهة الوسطى ، الا بجزء صغير من الدبابات ، واتضح ، أيضا ، أنه خلال بضع ساعات ، فى الظلام الذى خيم بين منتصف الليل وبين الخامسة صباحا ، فقد الجيش الاسرائيلى عشرات الدبابات ، وعندما وصل التقرير حول وضع الدبابات ، بدأ الهجوم المصرى ، ولم يستطع سلاح الجو العمل فى الفجر ، بسبب انتشار الضباب ، وقال رئيس الاركان لجونين : اصمد دون سلاح ، فالطيران عليه مهمات اخرى ! »

وهكذا كان يوم ٨ أكتوبر ٧٣ ، من الأيام العصيبة ، فى حرب الغفران — أو حرب رمضان ...

وكشفت صحيفة « معاريف » الاسرائيلية فى ٢٥ أكتوبر ٧٤ ، أى بعد عام من الحرب ، « أن ٢٥٠٠ قتيلا وثلاثة الآف جريح كانوا الثمن الباهظ ، الذى دفعته قوات اريئيل شارون ، خلال ١٦ يوما ، من القتال المستمر —

الذى أوصل الجيش الاسرائيلى الى غرب قناة السويس ، وقالت الصحيفة أيضا : « انه فى ظروف ذلك اليوم فى الصحراء ، وبعد ٩ أيام من القتال ، أى فى يوم ١٥ ، بدأت المهمة الصعبة التى ألقيت على لواء المظليين بقيادة (دانى ماط) ، وكانت مهمة انتحارية حقا .. وكان ضحيتها الرجال من القتلى والجرحى » .

وعن يوم ١٧ اكتوبر ، كتبت صحيفة « معاريف » ، تقول : « تميز المصريون بالاقدام ، ومجموعاتهم الاستطلاعية المزودة كما يجب ، اختبأت بالقرب من قواتنا وتجولت هناك ، وكان ضباط الاستطلاع المصريون الأماميون يوجهون المدفعية بالنظارات المكبرة ، وأجهزة اللاسلكى من مسافة لا تبعد عن ٥٠٠ متر عنا وكانوا يوجهون مدفعيتهم الى المظليين عند تحركهم ، وكانوا يفعلون ذلك فى الليل بمساعدة القنابل المضيئة ، وكانت القذائف المصرية قاتلة ، تصيب كل شىء ، وتنفجر فى الجو ، وكانت الشظايا رهيبة ، ودفنت مع جنود وضباط فى حفرهم العديد من معداتنا ، وتكبد المظليون نحو ٥٠٠ قتيل واكثر من ٩٠٠ جريح فى هذه المعارك ... » .

وخلال العديد من المقالات ، التى كتبها الاسرائيليون ، حاولوا أن يفسروا (التقصير) الذى حدث ، ويبرزوا حقيقـة ما حدث ، فلم يكن من المتوقع أن ينقلب (ظهر المجن) ضدهم بهذا الشكل ، وهم الجيش المتفوق ، والدولة التى لا تقهر .

ومن المقالات الهامـة التى نشرت فى هـذا المجال ، ما جاء فى صحيفة « يديعـوت أحرونوت » الاسرائيلية ، بتـاريخ ١٦ سـبتمبر ١٩٧٤ : اننا نفضل الاجابة على السؤال الاساسى بمصطلحات الاهداف التى انجزت ، والتى لم تنجز فى الحرب الاولى ، وكان هدفهم الاول الاثبات للعالم ، ولأنفسهم ، ان العرب أنجزوا أهدافهم ، وكان هدفهم التوصل بقوة السلاح الى تسويات والى سلام ، او الى استعادة الأرض ، أما نحن فلن نؤمن بقدرتهم ، على انجاز ذلك ، بقوة السلاح ، وكان هدفهم الثانى

الاثبات لأنفسهم ، أنهم قادرون على التبارى معنا بالحرب ، وهدفهم الثالث ، احتلال مناطق جديدة ، وهدفهم الرابع ، احراز انجازات سياسية عن طريق عمل عسكرى ، والهدف الخامس ، زعزعة الثقة الذاتية ، لدى اسرائيل » ..

●

كانت حرب السادس من أكتوبر ، منطلقا الى « انفتاحة جديدة » فى الدبلوماسية المصرية ، والعربية ، والى مزيد من التحرك السياسى والفكرى فى الشرق الاوسط ، وعلى مستوى العالم أجمع ... قاده السادات ، بذكاء ، وبوعى خلاق متفتح ..

فالنصر العسكرى اذا لم يؤد الى مكاسب سياسية وفكرية ، فلا أهمية له ... فنحن لا نحارب من أجل الحرب .. الحرب بالنسبة لنا وسيلة لغاية بذاتها ، قنطرة الى (العبور) الى أهداف معينة ، من خلالها يمكن الوصول بالقضية العربية الى آفاق رحبة ، تتيح لمصر والعرب ، التقدم الى أنبل الغايات ..

فمثلما قادت ثورة التصحيح (١٥ مايو ١٩٧١) الى سيادة الفكر الناضج والصحيح ، وضربت مراكز القوى وكل القوى المخربة التى كانت تقف عقبة كؤود أمام امكانيات الحركة الاجتماعية والديمقراطية والوطنية ، قاد « تصحيح أكتوبر ٧٣ » الى تصحيح أعمق هو تصحيح العلاقة بيننا وبين العدو من جهة ، وبين علاقاتنا بالعرب وبالعالم الخارجى خرجنا منه ، بابطال (مفعول) أسطورة الجيش الذى لا يقهر ، وبصف عربى واحد ، وبتضامن افريقى متسق ، وبعلاقات وثيقة مع كل الدول المحبة للسلام والتى تناضل من أجل الديمقراطية والسلام ، بل (حيدنا) خصوما ، واكتسبنا الى جبهتنا شعوبا كانت لا تعترف بعدالة قضيتنا ... وبهذا تحول انتصار اكتوبر ، الى (قنطرة) لتجاوز الهزيمة ، والى قنطرة للانفتاح على العالم ، والى السير بالقضية العربية نحو حل متعلقاتها

ومتناقضاتها على المستوى القومى والعالمى .. فقد استعدنا (الأرض) ، مثلما استعدنا (أنفسنا) ، وبدأنا نتحرك فى استكمال بقايا منجزاتنا الثورية والديمقراطية (فى الداخل : السير فى بناء دولة العلم والايمان ، التى تواكب احدث المجتمعات العصرية ، لتحقيق مجتمع الرفاهية والرخاء لمواطنينا ، والقضاء على كافة الظروف المادية والفكرية الصعبة التى صاحبت اثار العدوان) ، وفى المنطقة العربية ، وعلى المستوى العالمى ، نسير بالقضية العربية الى استكمال منجزات ومتطلبات ثورتها الوطنية والديمقراطية ، فقد كان (أكتوبر) ، منطلقا ، لكل التحركات التى قام بها السادات ورجاله على المستوى العربى ، والعالمى ، من أجل الاعداد لحل تناقضات (المسألة العربية) فى جوهرها ، سواء ما بقى من متعلقات الارض السليبة بالنسبة لدول المواجهة ، أو بالنسبة لحل قضية فلسطين وضمان مصيرها القومى والوطنى ، وبشكل أو بآخر ، الاعداد لمؤتمر جنيف ، حتى نذهب اليه برأى واحد متسق ، منبعث من موقف عربى واحد ، يسير الى غاية واضحة جلية : اقرار السلام فى المنطقة التى شهدت الالتهاب لاكثر من ربع قرن عن طريق عودة الاراضى المغتصبة لدول المواجهة ، وعن طريق تأمين الكيان الفلسطينى واقامة فلسطين حرة مستقلة آمنة تتمتع بالسلام مع جيرانها .. وفى اطار هذا المناخ السلامى ، يمكن للوطن العربى ، صنع المعجزات ، والمشاركة فى حضارة العصر ، علما وفكرا ، وابداعا ... بشكل أو بآخر عن طريق المساهمات الخلاقة فى اقامة المجتمعات العصرية المعتمدة على تكنولوجيا العصر ، ولكن فى اطار دولة العلم والايمان ، التى لا تجد هوة سحيقة بين متطلباتها المادية والفكرية وبين اتزانها الروحى والمعنوى ...

الفصل السادس

خطر اليسار التقليدي واليمين الرجعي .. على ثورة التصحيح

« ان استخدام الماركسية اللينينية ، بحذافيرها ، او مفهومات اليسار التقليدى ، فى عصر لم تعد البروليتاريا تصنع فيه الصناعات التحويلية بايديها ، وانما باتت تصنع الطائرات التى تسابق فى سرعتها سرعة الصوت .. اشبه بطهى الطعام عام ١٩٧٥ على بعض الأخشاب أو الأحطاب .. الا يصيب هذا أعيننا بالدموع والرماد من فرط الدخان القديم ؟ ! »

الفيلسوف الامريكى : هربرت ماركوزا



ثورات شباب ١٩٦٨ فى العالم ، أصبح هناك تيار قوى ، يدعو الى ثورة جذرية فى بناء المجتمعات المعاصرة ، دون الرجوع الى النماذج الكلاسيكية التى يقدمها اليسار التقليدى ، نتيجة لكتابات وأفكار ونظريات « هربرت ماركوزا » فى أمريكا وافكار واراء رائد الاشتراكية الديمقراطية فى المانيا الديمقراطية « رودى دوتيشكا » .
نتيجة للأفكار الجديدة التى حمل لواءها الشباب فى أواخر الستينات ، وصل الفكر اليسارى الاوربى والأمريكى الى أن المجتمع الشيوعى التقليدى ومثله : الاعلى الاتحاد السوفيتى ، والمجتمع الرأسمالى الاستهلاكى والاحتكارى ونموذجه : الولايات المتحدة الأمريكية ، هذان النموذجان يتساويان ، من حيث تركيز السلطة فى جهاز بيروقراطى يقوم على القمع وطمس المعالم الفردية للانسان ، نتيجة لضرورة تجميع كل الطاقات فى عمليات السباق على الانتاج لتلبية احتياجات المصانع العليا والصناعة المتطورة ، ووقوع الاثنان : الاتحاد السوفيتى ، وأمريكا .. فى محورين متصارعين ، من أجل السيطرة على العالم نتيجة لذلك ، نجد أن كلا من المجتمعين : السوفيتى ، والأمريكى ، يتماثل فى : أولا .. تركيز جميع القرارات فى الدولة ، واستخدام جميع أجهزة الاتصال الجماهيرى فى الضغط على الرأى العام وتشكيله حسب الرأى المطلوب ، وهو الرأى العام (للنظام) ـ أو الدولة ، واشاعة عادة قبول الرأى كما هو ، وذلك بتوالى عمليات النشر وبتجريد الفرد من القدرة على النقد . ثانيا .. اعطاء سلطات واسعة لفئة جديدة من البورجوازية المقنعة هم فئة التكنوقراطيين واساتذة الجامعات والمعاهد العليا الذين يقدمون النظريات سواء فى علم النفس أو العلوم الانسانية بشكل عام لصالح المجتمع الصناعى الكبير .
ثالثا .. الاعتماد على الجيش وعلى المخابرات وعلى الأجهزة العامة للرقابة

الداخلية كبديل للنظام الليبرالى الغربى التقليدى القائم على الاعتماد على البرلمان ..

حدث هذا فى الخارج : فى اوربا وامريكا ...

وكان لابد من ثورة كبرى على الشكل الرسمى ...

فتولدت أفكار جديدة ، تدعو الى ربط الحرية الفردية بقضية التحول الاشتراكى وبقضية التطور الاجتماعى والمادى ، حتى لا تتكرر الظروف التى أدت الى الستالينية أو قيام الفاشية من جديد ..

وفى مصر ..

انكس هذا الوضع ، فى مجموعة نادت بعضها بفكرة الدولة العصرية ، وهذه المجموعة ، حاولت أن تحلل أو تعلل هزيمة يونيو ١٩٧٦ ، بأننا كنا متخلفين عن فهم روح العصر ، وتصورنا أن الحروب تقوم على الاعداد الكبيرة من الجنود والمقاتلين ، بينما هى حروب تكنولوجية فى المحل الأول . والبعض الآخر ، نادى بضرورة اعادة النظر فى مفهوم اليسار ، ومفهوم اليمين ، وأعطى أولوية التأقلم بالمتغيرات الدولية ..

حدث هذا ، والجهاز الرسمى مازال يعتمد فى الداخل ، ثم فى العلاقات الخارجية ، على قوى تمثل اليسار المصرى التقليدى أو اليمين المصرى الكلاسيكى ..

واليسار المصرى التقليدى .. هم الجماعة التى تكونت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والتى كانت كل أهدافها تنحصر فى تكوين جبهة داخلية ضد الاستعمار ، واشاعة العدالة الاجتماعية ، وحل مشكلة الأرض بتفتيت الملكية واعادة توزيعها على الفلاحين . وتمثلت هذه الجماعة فى مجموعة من التنظيمات المتعددة برز منها : الحزب الشيوعى المصرى القديم (وعرف باسم تنظيم الراية) ، وحزب العمال والفلاحين ، وتنظيم د.ش ، وتنظيم حدتو ، واسكرا (أو الشرارة) ، وطليعة العمال والفلاحين ، والحزب الشيوعى المصرى الموحد ، ثم تجمعت هذه التنظيمات فى وحدة عامة عام

١٩٥٦ ، تحت اسم « الحزب الشيوعى المصرى » ،ثم عادت وتفرقت فى أعقاب ١٩٥٨ الى أكثر من تيار واتجاه ، والذى حدث ، أن أهداف هذه الجماعة ، أو معظمها أو أكثر منها قد حققته ثورة ١٩٥٢ بعزل عنهم ، فأصبحت آراؤهم متخلفة حتى بالنسبة لمسار الثورة فى نفس الظروف التى أدت الى الهزيمة !

وكانت هناك قوى تعتمد على اليمين التقليدى ، وهؤلاء ينادون بحرية التجارة وبحل الحراسات وبالعودة الى (المشروع الحر) .. وفى ظروف عالمية متقدمة ، يصبح من العسير ، بل من المستحيل ايجاد قوى دولية قابلة لمساندة هذا التيار ، اذ لا يمكن على سبيل المثال لأى مؤسسة صناعية كبرى فى احدى البلاد الرأسمالية أن تقبل شركاء لها من الرأسماليين المصريين — ان جاز وجودهم — بأن يتحالفوا معهم وفق مبدأ الشركات المتعددة القومية ، داخل بلد محاط بحصار اقتصادى ، وواقع فى احدى مناطق التوتر الدولية الخطيرة ، ألا وهى منطقة الشرق الأوسط ، فضلا عن أن نظام هذا البلد الداخلى يتعارض تماما مع هذا المبدأ ...

فى وسط هذه الظروف الصعبة ، كان لابد من عملية تحويل فى مسار الثورة باخراجها من الوضع الذى تجمدت فيه ، بدراسة أسباب هذا التجمد ، وبخلق ظروف صحية جديدة ، تدفع بالثورة الى الأمام :

* أولا : لاستعادة القوى الوطنية المكونة للتحالف الداخلى ، فى مواجهة القوى الامبريالية .

* ثانيا : تحديد وضع البلاد ، بشكل واضح ، تجاه القوتين الدوليتين المتصارعتين .

* ثالثا : رسم منظورات للغد ، مستمدة من واقع المتغيرات الدولية .

وهنا يبرز دور السادات ، وقيادته لثورة التصحيح ، التى أعادت الروح الى مصر ؛ ومهدت الطريق للسير قدما بالثورة الى الأمام بعد ما تجمدت ..

ولنتبع فشل « اليسار التقليدى » المصرى فى الظروف الراهنة ، واندحار الفكر اليمينى التقليدى المصرى فى مسار الثورة الجديدة ، وفى ظل المتغيرات الراهنة ، لابد من تتبع فشل اليسار التقليدى واليمين التقليدى فى العالم ، كنظرية ، وكممارسة فى التطبيق العالمى .. ولا أحد ينكر من المنظرين أو المفكرين ، أن كلا من الأيديولوجيتين قد أكد فشله وهزيمته على المستوى الدولى ... فمن منا ينكر ان « الماركسية ـ اللينينية » فى أزمة ، ومن منا لا يعترف بادانة الفكر اليمينى الكلاسيكى فى غرب أوربا وفى أمريكا ... ؟!

حقيقة أن الفكر البشرى مدين للماركسية بالعديد من القيم والمثل ، كالمنهج الجدلى الماركسى ، وتفسير الحرية ، والنظر الى الانسان فى الوجود ، وقد سلم أعداء الماركسية أنفسهم بعظمة هـذه المثل وقوة استقطابها ، فالماركسية تعتبر نفسها من الوجهة الفلسفية أكمل نظرية فكرية واجتماعية ومادية للنظر الى الفرد والتاريخ ، فهى أكثر عمقا من المعرفة التى حققها الفلاسفة الفرنسيون والألمان والانجليز فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (نظريات كانت ، وهيجل ، وفورييه ، وسان سيمون ، وغيرهم ..) . ولكن ليس معنى هذا أن الماركسية ، أو اليسار التقليدى يصلح كفكر وأسلوب فى السبعينات من قرننا هذا .. ومن العيوب الخطيرة فى الماركسية اللينينية تأكيدها على ضرورة العمل الثورى بصراع الطبقات الذى تقوده البروليتاريا لاسقاط الرأسمالية والبورجوازية ، والتوصل الى ابراز حقيقة التاريخ الموضوعية . وقد تمتعت الماركسية الى سنوات خلت بسمعة طيبة ، غير أن نظريتها فى الحرية قد تحولت الى نظرية رسمية ، انحدرت معها الماركسية من الثورة الى الذهنيات والتأملات الصوفية ، الى تبرير التعسف والتحكم باسم « مصلحة الدولة » ، ويكفى هنا مثال واحد نسوقه ، وهو مثال (راجك) الشهير فى المجر ، لاظهار مدى الخطورة التى بلغتها تلك التبريرات المصطنعة .

وقد لا أكون مبالغا ، اذا قلت مع المفكر الفرنسي هنرى لوفافر (١) ، ان تاريخ أو مأساة النصف الأول من القرن العشرين تلخص بقضيتين أو باسمين : « دريفوس » ، و « راجك » ، فقد أدانت الأولى نهائيا الشعور الوطني التقليدى عند البورجوازية الفرنسية ، أى تيار القوميات الرأسمالية المنغلقة ، وأدانت الثانية ، ولو الى حين ، الحركة الثورية العالمية ودور الماركسية كقوى تحررية والرسالة العمالية الشاملة ، أى باختصار : المثال الشيوعى الأعلى (أى الاشتراكية الماركسية والشيوعية ، باعتبارها هدف التاريخ واتجاه سيره) . فقد أصبح هذا (المثال الأعلى) لعين كثير من الناس خديعة كبرى ، وقد استطاع أن يحمل فى طياته نقيض ما يدعى ويظهر ، شأنه فى ذلك شأن الذهنيات والتأملات الصوفية التى فضحها ، فقد كذب باسمه مرات عديدة ، مع العلم أن الكذب باسمه ولو مرة واحدة كاف لافقاد الثقة به . وقد ارتضت الماركسية ـ اللينينية ، كسياسة انحرافات نأباها وننكرها كفلسفة ، فالعقيدة التى كانت تعلن الحقيقة بصراحة وضراوة ، ما كان لها أن تبتلى بالأكاذيب ، وما كان للعقيدة التى تعلن نهاية الظلم أن تستخدم الظلم نفسه لتبرير بعض تصرفاتها وما كان للعقيدة التى تدين الطغيان أن تبرر أى طغيان باسم « مصالح الدولة » . فقد مات بعض من الذين تطوعوا لخدمة الثورة واستعملوا بها بدون أى نفع للثورة ، كراجك فى المجر ، مثلا ، والموت من وجهة نظر ثورية بلا نفع فى سبيل الفكرة الماركسية أكثر خطورة وألما من الظلم نفسه ! وليس هذا هو التناقض الوحيد فى الفكر الماركسى التقليدى ، فهناك المظاهر العديدة التى تبرز أزمة اليسار التقليدى وفشله على المستوى العالمى ...

والشباب ، أنفسهم ، يقعون فريسة لهذه التناقضات ، ويتوهون ، بل يتخدرون بالفكر الماركسى التقليدى ، فهم يطمحون فى آن واحد الى

(١) هنرى لوفافر .. المفكر الفرنسي الشهير ، الذى اعتبره الحزب الشيوعى الفرنسى مرتدا ، ومن كتبه الذى يبين فيها ازمة الفكر الماركسى ـ اللينينى وانحداره وسقوطه كتابه : « ازمة الماركسية الراهنة »

الحرية المطلقة ، والى قواعد ومقاييس نهائية ، لتقييم الحياة والوجود ، كذلك ، يتوقعون فى أقل احتمال وجود « نمط » للحياة من الناحية الأخلاقية ، كما يتوقعون نظرية فنية « استتيكا » ، لكن آمالهم تخيب ، ويحبطون تماما ، عندما يبهت فى نظرهم مبدأ « الحرية المجسدة الحية » أى المبدأ الشيوعى ! وهذه النظرية ، تفسر الى حد كبير الداء الذى يجتاح بعض الشباب الفرنسى اليوم . فهذا يخلق ويضخم قلقا غير مجهول (وخاصة فى المانيا فى فترة ما بعد الحرب) . فهؤلاء الشباب ، وان كانوا مخطئين من حيث اطلاق أهدافهم بالمطالبة بأخلاقيات ونظريات فنية ، وبأنماط بذاتها ، فانهم يجدون فى النهاية الطريق مظلم وقاتم ، عندما يقعون فى وهدة اليأس فتنغلق عليهم النظرية ، ويتبينون تزمتها وتبريراتها الواضحة !

ومن العيوب الأساسية فى الماركسية — اللينينية ، أو اليسار التقليدى بشكل عام ، « الطابع السكولستيكى » الذى يميز النظرية ، أى طابع التزمت والعقيدية .. والارتباط بالقالب والاطار ، وينضوى تحت هذا الاطار قوالب وأنماط مثل الاطار الستالينى (١) ، أو الشكل أو التيار الماوى (٢) .

وتجدر الملاحظة ان بعض أشكال « العقيدة » المبتذلة ، قد تخطاها الفكر نهائيا : كالحتمية الاقتصادية ، مثلا ، التى ترجع الماركسية والحياة الانسانية عامة الى تأثير التركيب الاقتصادى ، بل الى تأثير العامل الاقتصادى كما يقولون بابتذال ، واضعين العامل الاقتصادى ، وجها لوجه والعوامل « المسيرة » الأخرى من جغرافية وبيولوجية ونفسية . وانتشرت هذه « العقيدة » المبسطة فى صفوف بعض اليساريين وساهمت الى حد كبير فى نشر الفكر الماركسى ، ولكنها سهلت فى الوقت نفسه عملية نقضها .. فالواقع الاقتصادى والمعطيات الاقتصادية تشكل الأسس والمعطيات العملية والحدود

---

(١) نسبة الى ستالين ، وتفسيره المتزمت للماركسية ، الذى انتهى بعبادة الفرد .

(٢) نسبة الى ماوتسى تونج ، وتفسيره للماركسية الذى انتهى بحمامات الدم والثورة الثقافية فى الصين .

الواقعية لكل عمل انسانى فرديا كان أم جماعيا . والقــول بأن المعطيات الاقتصادية تشكل الأساس يعنى فى نفس الوقت ، أن الحياة الانسانية لا ترد الى حتمية اقتصادية ، انما تفعل فيها ، متعدية اياها فى كل حين . وقد يخطر للبعض هنا ســؤال : ترى هل هذه هى فكرة كارل ماركس الحقيقيــة ؟ وللاجابة على هذا السؤال يكفى التذكير بالعنوان التالى لكتاب رأس المال، وهو : « نقد الاقتصاد السياسى » . فقد كان الاقتصاد السياسى ، يبحث فى المعطيات والتأثيرات الاقتصادية على أساس أنها علاقات بين الأشياء ليس الا كبحث فى الانتاج والسلع وكميات النقد وسواها .. فجاء كارل ماركس وانقصد ذلك ، مظهرا ، آن العلاقات الحقيقية الكامنة وراء العلاقات بين الأشياء انما هى علاقات فعالة حية بين البشر انفسهم : فالاقتصاد نزاع بين البشر ، وما الأشياء فيه الا غطاء فحسب وفى اطار بحث العقيدية ، أو التزمت النظرى ، يحضرنا الفكر الستالينى ..

والفكر الماركسى ، لم يعرف فى تاريخه رجلا عقيديا متزمتا ، مستبدا ، مثل ستالين ، والكثير من الماركسيين ــ اللينيين ، اليوم ، أو دعاة اليسار التقليدى ، يستشهدون بآراء وأفكار ستالين ، وبين كل عبارة وأخرى ، يقولون لك ، مثلما قال ستالين ، وستالين : قال فى هذا كذا ، وكذا ، وهلم جرا ! (١)

وكان تيار الماوية ــ أو الفكر الصينى ، قمة أخرى للجمود والعقيدية الماركسية ، وبرهان اخر لتفسخ اليسار التقليدى على المستوى العالمى . فقد غدا « الفكر الماوى » هو الأساس ، وصدرت التعليمات فى الصين فى

---

(١) فقد انهى جوزيف ستالين حديثه عن اللغات ، مثلا ، بقوله : « الماركسية عدوة لكل لكل لغة » ، كما انتقد مرارا بعض نتائج مواقفه الشخصية وما تراجع يوما عن التضحية ببعض الستالينيين المغفلين او الذين حامت حولهم الشبهات . وكثيرا ما سخر من الذين يستشهدون ما به فى كل سطر كتبوه ، بينما كان فرضا وواجبا على كل من كتب أن يستشــهد باقواله . فيقول ستالين ! قال : ، وستالين : عاد ! واقد بلغ فى ظاله الفكر الماركسى قمة الاقلاقة وفرديته، وحرفت الماركسية اللينية ، حتى تحولت الى ما شبه عبادة الفرد ، او ما عرف بالستالينية ، وما كشف عنــه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى . فمن حيث الرســمية كانت الستالينية اعدى اعداء العقيدية وما من مفكر متحرر متقدم ينكر ذلك اليوم فى العالم اجمع ..

أواخر الستينات بادانة كل فكر لا ينبع من ماوتسى تونج . وقد حرمت قراءة المؤلفات الماركسية ـ اللينينية ، وأمر بحرق المؤلفات اللينينية ، ووصفت الماركسية ـ اللينينية بانها مراجعة وتحريف (٢) ، وتعرضت الكثير من الأرواح ، بالآلاف ، الى القمع والقتل والتعذيب ، تحت اسم «مصالح الدولة » ، ووصفت هذه العناصر التى تعرضت للتعذيب والقتل ، بأنها عناصر مناهضة للفكر الماوى والحزب والشيوعية ، وبين العناصر التى تعرضت لهذه الأعمال كانت أسماء كبرى بينها : تشوتيه ، وتشين يون ، وتينج هسياوبنج ، وبينج تيه ـ هواى ، وهولنج ، وتشين بى ، وتان تشين لين ، وليو باو ـ تشينج ، ولى تشينج ـ تشاون ! وأصبح المهيمن على البلاد فريق شئون الثورة الثقافية ، ممثلى الحرس الأحمر ـ أو ما يعرف بـ (الشاوفان) . وكجزء من هذه السياسة الماوية ، أو القالب الصينى ، توترت العلاقات بين الصين والاتحاد السوفيتى ، وتحول الخلاف العقائدى بينهما الى حرب شعواء ! ..

من خلال هذه النماذج ، يتضح افلاس اليسار التقليدى ، لا من خلال نظريته فحسب وعقيدته ، بل من خلال مختلف الأنماط والقوالب والأشكال التى كان يمارس خلالها فكره فى التطبيق .. وقد انعكس هذا الفشل ، أو هذا (السقوط) ، نظريا وعمليا ، على اليسار التقليدى فى المنطقة العربية ، وبالذات فى مصر .. وربما كان استمرار هذا اليسار فى سياسته ، يمثل خطره الواضح ، والجلى ، على المرحلة الراهنة ، التى تواجه متطلبات بذاتها ، وفى اطار مسار الثورة الجديدة ـ ثورة التصحيح ، وفى اطار الظروف والمتغيرات الدولية الجديدة ..

وأمام هذا كله يبرز دور أنور السادات ..

ونحن ، نعرفه ، أنه كقائد ، وكمفكر ، ومنظر ، كان يرى فى بداية

---

(٢) وقد جاء ذلك فى مقال نشرته الصحيفة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ، كتبه (وانج مينج) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ، ونشر المقال فى صحيفة « كنديين تريبيون » فى ١٩ مارس ١٩٦٩ .

الثورة ، أن الحل لن يأتى الا فى ظـل مناخ تتفتح فيه ارادة الفرد ، لأنه فى ظل الحرية يمكن للانسان أن يقدم طاقاته وقدراته بدفعات مختلفة ، من الداخل ، وعن ايمان عميق ، فتكون له فعالية حقيقية ... بينما لو قام الفرد بمصالحة مع أى سلطة كانت ، فان طاقته تكون مجرد طاقة اسمية وهـذا ما يؤدى الى خضـوع الارادة الفـردية للقـوى التى يسـتمد منها الفرد وجوده أيا كانت . لكن اذا ما اقترنت هذه الارادة الحرة بهدف نبيل مستمد من مصالحها ، ومن خلال استقراء حقيقى للتاريخ ، فهنـا يمكنها أن تتحول الى قوى كبيرة ، قادرة على الحركة والعمل ، واستعادة طاقتها على الدوام فى كل موقف . وكانت عملية تقسيم القوى الداخلية الى عدة مناطق نفوذ ، تحول هذه الطاقات من هدفها الأول ، وتضعها فى خدمة المصلحة الشخصية المباشرة ، بدلا من التحالف فى سبيل الوصول الى الهدف العام ، ألا وهو الحرية الاجتماعية والاقتصادية ، والخروج من الهزيمة واستعادة الدور القيادى فى المنطقة . بمعنى ، أن دوران حركة الفرد داخل احدى مناطق النفوذ ، كان يجمد حركة التاريخ ، ويؤدى الى نوع من التضخم فى هذه المنطقة أو تلك ، وينعكس ذلك فى أشكال متنوعـة قد تكون جـديدة علينا ، لكنها مماثلة للأشـكال الاجتماعيـة والاشكال التى تتعلق بالادارة والحكم والتى عانت منها المجتمعات الأخرى كالبيرقراطية وكالصراع بين عدد من البيروقراطيين على السلطة ، وكظهور ما يعرف بسلطة الرجل الواحد فى كل منطقة نفوذ . فلو أن انسانا مفكرا أو مخترعا أو عالما ، وضع فى أحد الأجهزة ، واستولت احدى مناطق النفوذ على هذا « الجهاز » ، وأطاحت بالادارة التى عينت هذا المخترع أو ذلك المفكر ، فان « المشروع » الذى يمارسه هذا المفكر أو هذا العالم ، يتوقف قبل أن يصل الى حالة النضج ، وتجىء منطقة النفوذ الجديدة بأشخاص آخرين ليبدأوا « المشروع » من البداية ! ولو تكررت هـذه العملية ، فتكون النتيجة ، أن الدولة لا تنتج شيئا !! فالأجهزة تقوم على بدايات مشروعات ! وينعكس ذلك على القـوى المفكرة ، والقـوى المخترعة ،

والقوى العاملة . فكل واحد ينطوى على نفسه ، ويفقد الحوار الطبيعى بينه وبين العناصر المشكلة لجهازه ، ويصل الأمر الى الذروة ، ويصبح من العسير ، بل ومن المستحيل ، أن يحل المرء مشاكله بمعزل عن الطريق الطبيعى الذى يجب أن يسلكه . وهنا ، اما أن يتقوقع هذا الانسان ، المفكر أو العالم ، أو يتحول الى قوى تستفيد شخصيا من الجهاز المصلحى .. !

وكان لابد من تبرير لهذا الوضع الذى تفاقم ، ووصل الى قمة تفسخه وللأسف كان دعاة هـذا التفسخ ، يجدون تبريراتهم ، وباسم أى عمل « ينشد التغيير » ، كانت ترتكب أبشع الجرائم . وكنا نرى فى فترات كثيرة احدى مناطق النفوذ هذه ، تبرر تصرفاتها ، بأنها خاضعة لفترة مرحلية ، وأنها تقوم بعملية تكتيك يوائم المرحلة التى تمر بها ، وخلف ذلك كله ، كانت هناك العناصر المحركة وعناصر التبرير الفكرى ، وبين هؤلاء نجد الأيديولوجيين الذين يحاولون الاستفادة من تاريخهم كمناضلين سابقين ، وكانوا يعرفون أن منطقة النفوذ ـــ هذه أو تلك ، فى حاجة الى وجـودهم ، لكى يبرروا ما يفعلونه ، وكانوا على وعى كامل بهـذا الدور ، فهم هنـا أشبه بالمفكر أو المخترع أو العالم الذى عرف أنه لا يمارس عملية تاريخية الى الآخر ، وانما يستفيد استفادة شخصية من أجزاء مرحلة تنتهى بنهاية منطقة النفوذ التى تسانده ..

على هذا النحو ، رأينا مع كل منطقة نفوذ مجموعة يسارية ، تعلن أنها هى التى ستوصلنا الى الحلول السليمة الناجعة . بينما نعرف جيدا ، أن المنطقة التى سبقتها كانت تنادى بنفس الرأى ، فتكون النتيجة هى ظهور حلقات يسارية ، كل منها تحاول أن تستقطب الأخرى وتستولى على مكانها ونفوذها ، لكى تكون لها السلطة . فمثلا : المجلات اليسارية ، وما صحبها من تكوين تكتلات يسارية فى كل مجلة ، وجدنا أن كل يسار يزعم أنه اليسار الحقيقى الأصل ، وكل ما عداه فهو زائف ! وما من مجـلة كانت تنبثق عن قوى يسارية حقيقة ، وانما كانت هناك مجاميع أو حلقـات من

المثقفين يلتفون حول احدى مناطق النفـوذ ، وباسم اليســار ، وباسم الديمقراطية ، وباسم الحريات ، كانوا يبررون العديد من الرغبات والنزعات والتصرفات التسلقية والانتهازية ! فعنـدما تتحالف مصالح جماعتين ، كما حدث لمجلتي « الكاتب » و « الطليعة » (في سبتمبر ١٩٧٤) ، عندئذ يتحولون الى فريق واحد ، يتحرك من نفس السلطة ، أو من نفس المنطلق الذي كانوا يزعمون أنهم الناطق الرسمي باسمه .. !

وقـد وضع أنور السادات ، منهجا للعمل ، واضح كل الوضوح ، في « ورقة أكتوبر » و « ورقة المتغيرات » ، ومراجعة سير الثورة ، أي وضع السادات طريقا واضح المعالم لكل التغييرات التي حدثت بـ «ثورة التصحيح» وكل هذه المعالم الواضحة تعكس نفسها في مجموعة جلية من القيم والأفكار والعقائد ، وتتجلى واضحة في ممارستها في الطـريق العملي والتحركات اليومية سواء على الصعيد المحلي أو القومي أو العالمي .. وهذه المبـادىء والقيم التي وضعها السادات تدمغ كل سلوك وتحرك يستهدف اقامة مراكز القوى التي من شأنها أن تحول المسار الثوري الى منعطفات مغلقة ضيقة معادية لحركة الجماهير في تطورها الثوري ..

هذا في الوقت الذي لم يقدم « اليسار المصري » أي حلول ، ولكنه ظل مساندا لأي نظام يقوم على مناطق النفوذ ، بل ويعمل مع النظام الحالي على اعادة مناطق تكوين النفوذ ، بدليل أن مجلة « الكاتب » وجـدت لدى الدكتور « محمد عبد القادر حاتم » ملاذا وحماية لوجودها ، فلم ترفع صوتها بأي نقد للاعلام أو للثقافة في عهده ، بل اعتبرت احتضانه لها بدون أي نقد منه تعاطفا معها وموافقة على ما تنادي به وتنشره من أفكار وآراء ، بل واعتبرته الممثل لأفكارها . ولما جاء « يوسف السباعي » ، وهو من نفس اتجاه الثورة ، ولا نعتقد أنه يعتبر يمينا بالقياس الى الدكتور عبد القادر حاتم الذي كان يسكت عن مجلة « الكاتب » ، فليس معنى سكوته أنه من مجلة تصدر عن وزارته ، وانها تحمل طابعا أيديولوجيا معينا معارضا لخط الدولة ، أراد مجرد الاستفسار عن هذه المجلة ومـدى علاقته بها ، لأنه

المسئول سياسيا عما يكتب فيها طالما تصدر عن احدى المؤسسات التابعة لوزارة الثقافة وهى هيئة التأليف والنشر ، عندما حاول يوسف السباعى أن يستفسر عن هذا الوضع الغريب ، قدم أعضاء مجلس التحرير استقالاتهم ، احتجاجا على أن الوزير أعطى لنفسه سلطة ممارسة مسئولياته كناشر لمجلة سياسية !

نخرج من هذا « النموذج » الذى نطرحه هنا ، الى أن حركة اليسار المصرى قد تحولت الى عدة مناطق نفوذ منفصلة ، وانها تقوم بحركة « تملك تسد » ، وترفع نفس الشعارات ، وتستخدم نفس المصطلحات ، وكما كان يحدث فى الماضى تسخر الجماهير من أجل أغراضها هذه .. وقد تكونت نزعة استثمار جديدة ، هى استثمار التاريخ الثورى لليسار من أجل التكوين الاجتماعى والبيولوجى لأعضاء كل فريق أو منظمة يسارية . وكان هذا يهدد بقيام أو عودة مناطق النفوذ من خلال تكوينات أخرى غير التى حدثت فى صفوف الجيش ، وكان هنالك تحالف بين هذه المجموعات وبين بقايا مناطق نفوذ لا يتصور أحد أنها يسارية ، لكنها تستخدم اليسار مرة أخرى كى يكون لديها قوى تستند عليها فى تعزيز نفوذها ، وفى الوقوف ضد حركة التصحيح الجديدة ، التى لو عممت مبادئها وأفكارها وقيمها ، لأصبح الولاء للمبدأ ، لا للفرد أو لمنطقة النفوذ ، وكنماذج عامة ، نطرحها هنا ، على سبيل المثال دون الخوض فى مساراتها أو تحركاتها : تكتل الأهرام (هيكل) ، وتجمع مجلة (الطليعة) التى التفت حوله ... وهذه التجمعات ، أو هذه التكتلات ، تصر على الاحتفاظ أو اعادة مناطق النفوذ ، وفى تقديرى أنه لو استلهمت مبادىء وثورة التصحيح ، وهذا أمر ليس بالعسير عليها ، فانه يصبح الولاء لمبادىء ١٥ مايو ١٩٧١ دون الولاء لفرد بذته أو مجموعة بذاتها ، ومصر أكبر من أن تخضع لمنطقة نفوذ واحدة ، أو تدين بالولاء لتكتل ما !

●

كان لابد للمناضل والقائد والمعلم محمد أنور السادات ، أن يقف ، بضراوة ، وبصلابة ، أمام أى استفحال لهذا الخطر ـ ألا وهو « اليسار المصرى التقليدى » ، خاصة وأن تشبثه بآراء وأفكار أصبحت متخلفة بعد ثورة الفكر الاشتراكى فى أوربا وأمريكا فى أعقاب ١٩٦٨ ، أصبحت هذه الآراء والأفكار لليسار المصرى التقليدى عاملا مساعدا وفعالا فى سبيل وقوع مصر بين مناطق النفوذ الأوسع ، ونعنى بهذا الصراع بين الكتلتين : أمريكا ، والاتحاد السوفيتى ..

فاليسار التقليدى ، يرى ، أن دوره ، هو ، التأكيد المطلق لكل مايصدر عن الكتلة الشرقية من قرارات ومواقف وتعاليم وأفكار ، ويضع استراتيجيته على غرار استراتيجية الكتلة الشرقية ..

وبالتالى ، فلو ، حولت الكتلتان منطقة الشرق الأوسط الى منطقة صراع ، فان ما يعمله اليسار المصرى التقليدى فى الداخل ، هو العمل على استمرار هذا الوضع وتأكيده . ونحن نعلم علم اليقين ، أن أى بلد موال لنفس السياسة التى تؤدى الى استمرار التوتر ، يسير فى نفس الاتجاه . فالأزمة الاقتصادية الدولية ، مصدرها أساسا ، هو انتعاش حركات التحرر الوطنى والاستقلال القومى للشعوب المستقلة حديثا ، وعدم تبعيتها لهذه الكتلة أو تلك ـ وهذا بدوره ، يؤدى الى نهضة صناعية فى كل بلد مستقل حديثا ، ثم يؤدى بدوره الى تكوين سوق جديد يقوم على التبادل والمساعدات ، أو على التكامل الاقتصادى بين مجموعة هذه البلاد المتحررة حديثا ، ووجود هذه « السوق » ، يؤدى الى انكماش السوق الرأسمالى العالمى ، ولكى تخرج الرأسمالية العالمية من خطر انكماش سوقها تضع سياسة « مناطق النفوذ » و « مناطق التوتر » فى وضع بذاته ، يسير الى تحقيق هدف مزدوج ، فمن ناحية تعرقل نمو اقتصاد وصناعة هذه الدول المتحررة حديثا ، فلا يتسع سوقها ، والهدف الثانى ، هو ايجاد عدو مستمر ، ودائم ، فى مواجهة هذه الأسواق ، ومن هنا كان قيام دولة اسرائيل من أجل اعاقة وعرقلة حركة التحرر الوطنى فى

المنطقة ، ويمكن التعاون مع هذه البلاد ، بمدها بالسلاح والعتاد ، لتواجه عدوها فى ضراوة ، فتتحول هذه البلاد الرأسمالية الى مراحل مختلفة ومتغيرة ، من الاقتصاد الحديث فتتحول الصناعات الحديثة داخل هذه البلاد الى صناعات حرب ، فترتفع نسبة فائض القيمة بالنسبة لهذه الصناعات ، فتحل الأزمة بشكل خارق للعادة ، وقد فطنت دول الكتلة الشرقية الى امكانية خلق « سوق » لها بهذه الطريقة ، ومن خلال احتضان حركات التحرر الوطنى ومدها بالسلاح والعتاد ، وبذلك تكون قد أوجدت سوقا موازيا للسوق الرأسمالى . ويقول المنظر والمفكر الهندى «جوش» (١) فى ذلك :

« ان الدول المستقلة حديثا فى أعقاب الحرب ، وبالذات ، فى الستينات والسبعينات ، تسعى الى تحقيق تدعيم استقلالها القومى ، فى مواجهة الامبريالية وضغوط مناطق الحرب والتوتر ، ولكن قوى الدول الكبرى تجعلها ، تحيا ، دائما ، فى حالة من التوتر المستمر ، حتى لا تنمو سوقها القومى ، وحتى تظل دولة تابعة ومسيطر عليها من قبل الكتلتين ، من أجل أن تسير فى ركب التوتر الذى تخلقه صراعات المنطقة فى مواجهة الدولتين الكبريين ، وعلى سبيل المثال نذكر مصر هنا ، فهى تسعى منذ عام ١٩٥٢ الى تأكيد استقلالها القومى والوطنى ، ولكن قوى الامبريالية وصدام مصالح الكتلتين ينعكس عليها ، وبالتالى ، ينعكس داخلها صراع القوى الداخلية بنفس الدرجة كيسار ويمين ، كل يسعى الى زيادة حدة التوتر ، والى خدمة مآربه ومصالحه الطبقية ، وهذا كان من شأنه أن يعطل بناء صرح الاستقلال القومى فى المنطقة ، التى دائما تزداد توترا ، مع كل ارتفاع ونمو وتعاظم فى حركة التحرر الوطنى » .

---

(١) « جوش » .. هو المنظر والمفكر اليسارى الهندى ، الذى كتب العديد من الدراسات والكتب عن حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث ، كما كان من أبرز دراساته تلك الدراسات التى وضعها عن نمو وتعاظم اليسار داخل آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، ومن دراساته الهامة فى هذا الصدد : « مزيد من الفهم الواعى لحركة التحرر الوطنى فى مواجهة القوى الامبريالية فى عالم اليوم » .

ولعل وجود هذه « السوق » الموازية ، فى المنطقــة ، أصبح جزءا من استراتيجية الكتلة الشرقية ، فهى تســعى الى استمرار منــاطق التوتر واتساعها . فاذا كان فى داخل أى بلد من البلاد المتحررة حديثا ، يسار موال للكتــلة الشرقية ، فهــو ، بالتالى ، مؤيد ومروج للافكار النابعــة من استراتيجيته .

ونخرج من هذا كله بحقيقتين جوهريتين : على المستوى الداخلى ، تؤدى سياسة اليسار التقليدى المصرى الى معاداة الليبرالية ، لأن الليبرالية لا تسمح بتكوين مناطق نفوذ على المستوى العالمى ، هذا الى جانب أن اليسار التقليدى ، بشكل أو بآخر ، يربطنا باستراتيجية مناطق التوتر ، أو يضعنا داخل استراتيجية مناطق التوتر ..

ولذلك فسياسة السادات ، تسير فى اتجاه تفتيت هذه التكتلات التى تمثل خطرها على مسار « ثورة التصحيح » ، لكن هذا لا ينفى أن هــذه المرحلة قادرة على خلق « يسار جديد » يساير حركة تحرير الفرد وتطوير المجتمع فى ظل حركة اليسار العالمى ..

●

يقول المفكر والفيلسوف الفرنسى « هنرى لوفافر » فى سلسلة مقالاته وحــوارياته التى كتبها حول أزمة الماركسية الراهنة وانحسار اليســار التقليدى فى العالم كعقيدة وفكر :

« لا أحد ينكر من الساســة ، أو حتى الماركســيين ، أنفسهم ، أن الماركسية ـ اللينينية باتت فى أزمة فى السنوات الأخيرة . فلم تعد هى طوق النجاة للشباب الثائر فى أعقاب الستينات ، وحتى داخل الدول الشيوعية نفسها ، أصبحت تجد تناقضــات غير قليلة ، وينبغى على الماركسيين ، أو الثوريين ، بشكل عام ، وبالذات الشباب ، فى عالمنا ، اليوم، اعادة النظر فى الكثير من قضاياها . ففى المجال السياسى ، يصبح من الهام بمكان توطيد تاريخ الدولة الاشتراكية فى فعاليتها الداخلية والخارجية (العسكرية ، والدبلوماسية)، هذا التاريخ الذى لا يجعل موضوع بحثه صفة الاشتراكية،

وانما الميزة الثانوية لجهاز الدولة وايديولوجيتها وتدخلهـا ومبررات الدولة ... ويرافق هذا التحليـــل ، كذلك ، دراسة نقدية لمشـــاريع الدولة وانجازاتها فى الميـــدان الاقتصادى (التخطيط) ، وفى الحياة الاجتماعية والثقافية (تحويل الثقافة الى شكل من اشكال الوعى السياسى والى ايديولوجية دوالة) ، وفى التاريخ (فذلكة وفلسفة التاريخ) ... اما فى القطاع الفلسفى ، فيبدو لنا ان الفكر الماركسى ينبغى له وهو قادر على ذلك أن يجدد ذاته اذا ما لجأ الى عـلاج تاريخى يعتبر بموجبه أن لكل حـكم محتوى واقعيا مجســـدا . ويبدوا اليســـار التقليـــدى اليوم ، فى ازمة ، بسبب ازمة الماركسية على المستوى الفلسفى والمادى فقـد غدت نظرية رسمية ، وهذه الأزمة لها مظاهرها المختلفة ، التى جعلت التناقضات تظهر واضحة بين الفكر الماركسى كنظرية وفى الممارسة العملية والتطبيق » .

ويستمر لوفافر فى عرضه لأزمة الفكر اليسارى التقليدى فى العالم ، من خلال أزمة الماركسية الراهنة ..

وفى الحقيقة أن مظاهر هذه الأزمة ، تهمنا الى حد كبير ، ما دمنا نتحدث فى هذا الفصل عن « أزمة اليسار التقليدى فى مصر » ، وخطره على مسار « ثورة التصحيح » فى بلادنا .. فاليسار التقليدى المصرى ، جزء لا يتجزأ من اليسار التقليدى العالمى ــ هذا اليسار ، الذى يستمد فـكره ونظريته وبرنامجه واستراتيجيته وتكتيكاته من الماركسية ــ اللينينية ، وحتى نكون منصفين ، وموضوعيين ، فاننا سنعرض هنا أزمة الفكر الماركسى منذ البداية وكيف وصلت الى ما وصلت اليه من أزمة راهنة ، وحتى يبدو هذا التحليل واضحا ، نرى أنه لابد أن نبدأ منذ الخطوة الأولى . فحتى نقف على انحسار اليسار التقليدى وأزمته عالميا ومحليا ، ينبغى أن نعرض مصـــادر فكره وأسسه العقائدية والفكرية ، ونظرته للوجود وللانسان ، وحركته فى الطبيعة وتفسيره للتاريخ ومفهوم الثورة والديمقراطية ..

يعتمد اليسار التقليدى العالمى (والمحلى بالتبعية) على عقيدة المادية

الديااليكتيكية (الجدلية) (١) والمادية التاريخية ، وهى أيديولوجية قد نمت وامتد تيارها مع الانقلاب الصناعى فى بريطانيا والحركة الثورية فى المانيا ؛ اى مع افكار فردريك انجلز وكارل ماركس ، وامتدت واحتوت اضافات افكار فلاديمير اليتش لينين ، وأصبحت تعرف كأيديولوجيـة بالماركسية ـ اللينينية ، حتى بعد أن أضيفت اليها أفكار ستالين ، وماوتسى تونج ، وكل المفكرين والمنظرين الشيوعيين . فعلى أثر فلسفة القرن الثامن عشر ، اخذت تنمو الفلسفة الألمانية الحديثة ، وعلى رأسها (هيجل) ، الذى كان وراء احياء الديالكتيك . وقد ولد الفلاسفة الاغريق ، جميعا ، من معطف ديااليتكتيكى ، وكان أرسطو أوسعهم اطلاعا واهتماما بالجدل فقد حلل القواعد الأساسية للفكر الدياليكتيكى .

وفى القرن السابع عشر والثامن عشر ، لم تعد الدياليكتيكية تطرح نفسها بشكل علمى من مشاهير الفلسفة من أمثال : ديكارت ، وسبنوذا .. بل كان خلاصة الفلسـفة الألمـانية الحديثة ، ورائدها هيجل ، استعرض العالم بأكمله ، ولأول مرة وكأنه ظاهرة ما بطبيعته وبتاريخه وبأفكاره ، وبذلك ، رأى العـالم كله خاضعا للتحول والتطـور الدائم الا أن نظرة (هيجل) ، كانت لهـا أخطاؤها ، فقـد كان مثالى النزعـة الى حد كبير

---

(١) الديالكتيك او الجدل ، يعنى حرفيا فى المعجم الفلسفى والنقـدى ، ومقارعة الحجة بالحجة للوصول الى مقوله فلسفية ، اى التجادل من اجل الوصول الى رؤية ما ، واستخدام الكلمـة قديم قدم الفلسفة نفسها ، فهى عند اليونانيين تعنى المقابضـة أو مقارعة الحجة بالحجة او تبادل الكلام . ويرى ديوجين اللائرسى ، ان ارسـطو كان يعزو اختراع (الجـدل) الى زينون الايلى ـ تلميذ برمنيدس ، فقد كان نموذجا رائدا فى مجال الجـدل . وقد مارس الايونيون والايليون (وتسميتهم بهـذا تعود الى الجزر التى تحمل نفس الاسم فى الارخبيل الاغريقى) معرفتهم ومعتقداتهم من خلال مقارعة الحجة بالحجة ، وهذه الحركة الفلسفية ، تعود الى بدء القرن السادس قبل الميلاد ، والى نفس العصر ينتمى فيثاغورس عالم الرياضيات ، وكذلك : انكسيمانس ، وطاليس ، وغيرهمـا . وكذلك الفيلسوف الايونى (هيرقليطس) الذى قال : « انك لا تنزل النهر الواحد مرتين » ووضع بذلك أول قانون فى الجدلية ، الا وهو عدم الثبات ، نتيجة التغيرات التى تطرأ على المادة . ثم اتخذ الجدل مساراته المختلفـة لدى سقراط وافلاطون وارسطو ، حتى وصل الى الجدل الهيجـلى ثم الجـدل الماركسى الذى يرتكز على القوانين الاساسية التى تحكم المادية الجدلية ـ او الدياليكتيكية ، والتى على اساسها يتحـدد المفهوم الماركسى للتاريخ وهو ما يعرف بالمادية التاريخية ...

لذلك ليس غريبا أن يردد كارل ماركس : « لقد جئت لأقلب مفهوم هيجل عن الدياليكتيك ، فبدلا من أن أجعله يقف على رأسه ، أقمته على قدميه » ! ونظرته الجديدة هذه مع زميله فردريك انجلز ، عرفت فى تاريخ الاقتصاد السياسى بـ (الاشتراكية العلمية) ، لتتميز على ألوان الاشتراكية التى سبقتها ، والتى انضوت تحت مفهوم (الاشتراكية الخيالية) — أو الطوباوية (١) ..

وقد مثلت الماركسية ، منذ البداية حدثا تاريخيا وقوة اجتماعية . فالاتحاد السوفيتى ، ويوغسلافيا ، يدعيان الانتماء رسميا الى الماركسية ، وبينهما تباين واضح فى الآراء ، أدى الى منازعات والتدهور فى العلاقات بين البلدين ، وقد دخلت فى هذه الدائرة من الصراع منذ سنوات ليست بالبعيدة الصين . ومن منا لم يسمع بالستالينية — أو بالمفهوم الستالينى فى الماركسية ، فقد كان جبهة مختلفة فى التفسير الماركسى مثله مثل الصين اليوم . فليست الماركسية ، كما ترى ، مجرد فلسفة كلاسيكية ، بل ، هى ، عقيدة فعالة ذات آثار كبيرة ، مزجت بأحداث العالم ، واستأثرت بجزء كبير من حياته اليومية . وقضاياها الراهنة ، قريبة المنال ، بحيث تستطيع الانطلاق منها ، فلنرجع الى مؤلفات كارل ماركس وفردريك انجلز وفلاديمير اليتش لينين وجوزيف ستالين وماوتسى تونج ، لنعرف الى أى حد سارت الماركسية ، واليسار التقليدى بشكل عام ، وكيف قطعت شوطها كنظرية وكعقيدة ، حتى لانكون غير منصفين ونحن نعرض أزمتها الراهنة ، وبالتالى نعرض لأزمة اليسار التقليدى فى بلادنا .. وربما كان أبرز خط يميز اليسار التقليدى ، كنظرية ، وفكر ، واستراتيجية ، هو الطابع السكولستيكى (١).

---

(١) والتى كان من روادها سان سيمون ، وفورييه ، وتوماس مور ، وكامبانيلا ، فى تصوراتهم لعوالم خيالية تحيا الاشتراكية ، ، وتساوى بين الناس ، وتحطم الفوارق الطبقية ، وكانت هذه الأفكار التى ظهرت فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع ، لونا من التحضير أو الارهاصات لافكار الاشتراكية العلمية التى كان وراء اقامتها كارل ماركس وزميله فردريك انجلز

(٢) ونقصد به (الاصطمبا) ، او الفورما ، أو القالبية .. فتاريخ الماركسية لشديد التشابك بالتاريخ الحديث ، بحيث نفقد اشكاله وتفاقم ، وبات تعثره وتناقضه وطفوليته يحتاج الى مؤلفات ضخمة !

والفكر اليسارى التقليدى العالمى ، من خلال مجتمعات أوربا الشرقية ومن خلال العديد من الأحزاب الشيوعية فى الغرب ، يبين أن تناقضاته ، لن تؤدي الى التمزق داخلى فحسب ، بل يثبت أنه يزداد تماسكا وتتضاعف قواه الاقتصادية والعسكرية ، بحيث يفرض على العالم أوضاعا جديدة كتلك التى يفرضها عتاة الغرب . والحركة الثورية داخل دائرة اليسار التقليدى ، منذ منتصف الخمسينات ، تعانى نوعا من الحيرة والجمـود ، وتحاول أن تبحث عن مخرج لها من مأزقها . وتتساءل الجماهير فى حيرة شديدة : أين الطريق ؟ وباتت تساؤلاتهم تقتضى دراسة انتقادية كاملة للمرحلة التاريخية الراهنة . وتلتقى فى تفسير هذا القلق نظريتان : الأولى ترى أن الأزمـة الراهنة هى أزمة نمو ، بينما ترى النظرية الأخرى ، أنها أزمة زوال واحتضار ، ولكن لابد لدعاة النظرية الثانية ، كى يكونوا محقين فى زعمهم أن يؤكدوا أن الماركسية تتغافل عن قضاياها وتناقضاتها الداخليـة ، والا فلا دلالة لادعائهم أن الماركسية تعانى تبدلا وتحولا ، أما النظرية الأولى التى تقول بأزمة النمو ، فلا تثبت بمجرد الادعاء ، بل تقتضى تبيان التجدد الذى تعبر اليه الأزمة فى تفاقمها ..

يقول هنرى لوفافر (١) .. ان الفكر البشرى ، عموما مدين للماركسية بمثال جديد (مثال الحرية) المجسدة الواقعية ، وقد سلم أعداء الماركسية أنفسهم بعظمة هـذا (المثال) ، فهو أكثر عمقا من التحرر الذى حققـه الفلاسفة الفرنسيون فى القرن الثامن عشر وأكثر جذرية من التحرر الذى حققته الفلسفة الألمانية الحديثة (كانت ، هيجل) ، ولكن للماركسية عيوبها التى برزت أكثر وأكثر تناقضاتها مع تطور التاريخ الحضارى للبشر . ويبرز هذه التناقضات ت . جاكسون (٢) بقوله :

---

(١) الفيلسوف والمفكر الفرنسى هنرى لوفافر ، فى مناقشة فى أزمة الماركسية وأزمة الفلسفة المادية ، فى كتابه : (ازمة الماركسية الراهنة) ، الفصل الاول مطبوعات باريس

(٢) المنظر والمفكر الانجليزى ت . ا . جاكسـون فى كتابه : تناقضـات الماركسـية اللينينيـة

« من عيوب اليسار التقليدى الذى لا زال يتمسك فى عناد بالماركسية اللينينية مجموعة عناصر أساسية تتجلى فى :

* أولا : مفهوم الصراع الطبقى، لم يعد يتلاءم مع العصر . والماركسيون يؤكدون ، عموما ، على ضرورة العمل الثورى المرفق بالرفض والثورة ، أى بصراع الطبقات الذى تقوده العناصر المقهورة والمستغلة (عناصر البروليتاريا والكادحين) ضد عناصر المستغلين (مجتمع البورجوازيين والرأسماليين) والتوصل الى ابراز حقيقة التاريخ الموضوعية ، حقيقة صراع الطبقات هو جل ما يقصده ماركس ولينين ..

لكن هـذا الفهم للأسف تغير ، فالعديد من الثورات الديمقراطيـة والاشتراكية ، قامت بدون التقيد بهذا التفسير ، لمجـرد السيطرة على السلطة ، وكثير من البلدان فى الدول المستقلة حديثا ، وحتى الاشتراكية ، تحققت فيهـا الثورة دون نضج الطبقة العاملة أو دون مشاركتها الأساسية فى الثورة وتغير المرحلة . اذن فصراع الطبقـات الذى تقدمه الماركسية ، ويتمسك به اليسار التقليدى ، أصبح فى حاجة الى اعادة نظر ، وفقا لمتغيرات العصر ..

* ثانيا : تزعم الماركسية أو اليسار التقليدى ، أن الثورة تقوم للقضاء على الطبقات من خلال تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا ، بينما تتحول هذه المجموعة التى يمثلها الحزب الشيوعى الى طبقة جديدة ومركز قوى ضخم يتمتع بامتيازات خطيرة ، وتبدو كارستقراطية داخل المجتمع الجـديد ، وما حـدث داخل الأحزاب الشيوعية فى شرق أوربا ، يقـدم العديد من الشواهد والاثباتات على ذلك ..

* ثالثا : تحولت الماركسية ــ اللينينية الى نظرية (ميرى) رسمية ، بمعنى أنها أفرطت فى استخدام التعسف ، ولم تعط ما كان ينتظر منهـا عطاؤه . فلم تحتفظ فيهـا بشىء من القيمة خلال النصف قـرن الماضى ، باستثناء حالات شاذة(مثل : قصيدة ماكرنكو التربوية مثلا) . أما فى المجالات النظرية الفنية ، فهنالك فيما يتعلق بالنظرية الاخلاقية العديد من النواقص

فأغلبية اليسار التقليدى ، يتأرجح بين أخلاقيتين : اخلاقية اجتماعية تدعو بفضائل الاخلاص والصدق والتضحية (مقصرة اياها على البروليتاريا ــ الطبقة العاملة) ، ولا أخلاقية ، سياسية ، تشكل مقتضيات العمل والنضال الأخرى ، كل قيمة بالنسبة لها . وغير معقول أن تقصر القيم على طبقة بذاتها فالفرد هنا ، له قيمة التى تتمثل فى تربيته ، وبيئته ، وتكوينه النفسى الخاص ، والا صبغنا اخلاقيات وقيم الناس باصطمبات وقوالب دون النظر الى أصولهم البيولوجية والنفسية والبيئية . !

وفى مجال النظرية الفنية ، ومجال الأخلاقية ، كان بالامكان الاستعاضة عن النظرية بالمؤلفات ذات معنى شامل ، تغنى الانسانية الحية غنى أكيدا ، والواقع أن اليسار التقليدى لا يملك أيا منهما ! ونخص بالذكر ، هنا ما لقيته هذه الأفكار فى المجال الأدبى عن نظرية (البطل الايجابى) ، وهذا التمجيد من شأنه أن يتعارض ويتناقض مع نظرة الدولة ككل ، فالفرد ليس الا ترس فى عجلة الدولة ، ولا عجب فى ذلك اذا قدم البطل والمثال الايجابيين خاليين من تناقض بحيث بديا خاليين من كل انسانية ، لا تربطهما بحياتنا اليومية أية صلة . وهنا نبلغ ذروة التناقض : فهل الوجود الانسانى الحق فى أن يخلو من كل تناقض فى نظر اليسار التقليدى ، أم ان هنالك فى الواقع تخلى عن الماركسية تحت ستار شبه ماركسى مشوه ؟ وأيا كان فالاكيد انها بمقدار ما انتصرت وجسدت فى نظم ونظريات رسمية قد أقحلت الماركسية فصارت تجف وتنضب، فعجزت عن اثارة الأعمال والمؤلفات التى كان فى امكانها وحدها احياء رسميتها ..

* رابعا : فى مجال الخلق والابداع وابراز دور الفرد ، فان اليسار التقليدى ، أو الماركسية ــ اللينينية ، عموما ، تنكر دوره ، سواء كان عالما أو فنانا ، لأنها تؤمن بجماعية العمل والقيادة ، وهذا انكار لعبقرية الفرد . فاذا لم يكن الفرد يتفاوت فى تفكيره ، وخلقه وابداعه ، فلماذا لم يظهر لنا التاريخ غير نابليون واحد فى فرنسا ، وبيتهوفن واحد فى المانيا ، وشكسبير واحد فى بريطانيا ، وبيكاسو واحد فى فرنسا ، وحتى فى الدول الاشتراكية

نفسها ، بمجرد دخولها ضمن الثورة الاشتراكية ، تجـد ، وبشكل عام ، ينحسر تيار الابداع والخلق فيها .

واذا أخذنا الاتحاد السوفيتى ، كنموذج واضح على ذلك ، فهل هناك من ينكر أننا لم نجد بعد ثورة ١٩٧١ كاتبا روائيا فى مستوى دستويفسكى أو شاعرا مثل بوشكين ، أو موسيقيا مثل تشايكوفسكى وموسورسكى ؟ وهل نعتبر بوليفوى ، أو جونشار ، أو فيرا بانوفا ، فى مستوى تشيكوف وتورجنيف وتولستوى ودستويفسكى ؟ !

* خامسا : هناك التفسيرات المادية فى الاطار الفلسفى التى تقول فى نظرية المعرفة ، أن كل شىء مبعثه المادة ، وبذلك يتحول الفرد ، أو المجتمع الى عملية ميكانيكية ، وبذلك ننكر معنويات الفرد والمجتمع .

واذا سلمنا بهذا الفهم ، وعكسناه على حركة الفرد فى الطبيعة ، يصبح الحب مجرد عملية بيولوجية بين جسدين من أجل الانجاب والحفاظ على النوع ، ويختفى مثال الحب كقيمة وروح ومعنـويات وحس .. وكذلك الحال ، بالنسبة للحلم ، والتصورات الخيالية التى يلغيها اليسار التقليدى وايديولوجيته الماركسية ..

وهنا نثير سؤالا هاما : هل كان من الممكن الوصول الى العلم دون الحلم ؟

اذا لم يكن ماجـلان أو كريستوفر كولمبس أو أمريجـو دوفسبتشى قد حلموا بأراضى جديدة ، هل كان فى امكانهم اكتشاف قارات جديدة ؟ واذا لم يكن جول فيرن ، و هـ . ج . ويلز قد حلما بالصعود الى القمر ، والوصول الى الكواكب الأخرى ، هل كان من الممكن أن يتمشى الانسان على ظهر القمر ؟ !

* سادسا : افتقاد الطابع الحسى أو العاطفى أو النفسى ، والغاء كل العلوم والنظريات القائمة على غير الاقتصاد السياسى والمادى . فكل شىء فى الماركسية يقوم على التفسير المادى ، وبذلك يلغون أفكار علم الاجتماع

ونظريات أوجست كونت ودوركايم ، وكذلك يرفضون التفسير السيكولوجي للظواهر ولا يؤمنون بنظريات فرويد وأدلر عن التحليل النفسي ويرفضون كل مدارس علم النفس في تفسير العواطف والمشاعر والحوافز ، وفي تقدير الماركسيين ، أن الواقع المادي والظروف الاقتصادية هي الأساس ، ولا يؤمنون أن الظروف النفسية قد تكون وراء تفسير ظاهرة بذاتها ، ولذلك لا يؤمنون تماما بأفكار كافكا أو سارتر أو كامي ، أو « المدرسة الجاشتلطية » في تفسير الظواهر والسلوك سيكولوجيا ...!

* سابعا : النظرة العقائدية ، أو الجمود ، ما يفسر ويميز النظرة اليسارية التقليدية ، لذلك يقولون في الأحزاب الشيوعية : « نفذ قرار الحزب ، ثم ناقش » ، حتى لو كان في هذا القرار أن تحرق البلد على طريقة نيرون أو تغرق نصف المواطنين في بركة من الدماء . وهكذا ، كان قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني ، عندما صدر الى كل المناطق والأقسام والخلايا التابعة للحزب بتنفيذ توجيهات ما عرف بـ (الثورة الثقافية) ، وما تلاها من تحقيق شتى ألوان الابادة والقهر والقتل . والاعدام والحرق! وهذه النظرة تمثل نوعا من الجمود، والعتة ،لاتتفق مع منطق التطور الحضاري للبشرية ! وهذه النظرة ، تسحب من الفرد حريته الشخصية ، وبالتالي تسحب منه وجوده وحقه الديمقراطي في أن يناقش ، أو يعترض ، وما فائدة أن تعترض بعد ما تتم المأساة ، ما فائدة أن تقول رأيك بعد ان تحترق مدينة بكاملها ؟

وفي الحقيقة ان كل أو معظم أشكال العقيدة قد تخطاها الفكر المتحضر، كالحتمية الاقتصادية مثلا التي ترجع الحياة الانسانية والوجود البشري الى تأثير التركيب المادي أو الاقتصادي للمجتمع ، وقد انتشرت هذه العقيدة أو هذه النظرة المتزمتة في صفوف اليساريين ، وساهمت الى حد كبير في نشر الماركسية .

فالواقع الاقتصادي والمعطيات المادية ، تشكلان الأساس والمعطيات العملية والحدود الواقعية لكل عمل انساني فرديا كان أم جماعيا . والقول

بهذا فى الحقيقة ، أصبح لا يتمشى مع منطق التطور الذى حدث فى العلوم الاجتماعية والانسانية ، انه فهم قاصر يقف بفكرنا الحضارى عند عقيدية قد انتشرت منذ أكثر من قرن من الزمان . وربما كان ستالين ، ثم ماوتسى تونج قمة هذه العقيدة فى تاريخ اليسار التقليدى الحديث !

* ثامنا : نظرة اليسار التقليدى الى المادية التاريخية ، أو الى الأزمات الدورية فى تاريخ المجتمعات .. فالماركسية تنبأت علميا نظرا للمعطيات الاقتصادية فى أيامها عن أزمة اقتصادية تنجم عن الفيض أو تراكم رأس المال فى الانتاج الرأسمالى والامساك الجبرى عن الاستهلاك عند الطبقات الكادحة ، وتتكرر هذه الأزمة مرة كل عشر سنوات (وكانت أزمة ١٩٢٩ أزمة واضحة لذلك) واتخذ الماركسيون ، من تلك (الأزمة) نبوءة لهم عن دورات النظام الامبريالى ، أو الرأسمالية فى أعلى مراحلها الاحتكارية .

وعلى أساس هذا الفهم يحددون ، أن بداية تاريخ البشرية منشأه « المشاع البدائى » ثم مرحلة « المجتمع العبودى » ، ثم « الاقطاعية » ، ثم « الرأسمالية » ، التى خلالها لا بد أن تقوى البروليتاريا لتقلب النظام الرأسمالى ، وتحقق ديكتاتورية البروليتاريا النظام لصالح الشيوعية . مثل هذا النظام المتسق الجامد ، قد أصبح لا يتفق مع مفهوم الدولة والثورة ، ولم يعد هذا (النظام) ، أيضا متمشيا مع منطق التطور الحضارى للتكنولوجيا المعاصرة والذى لم يره منظرو الفكر اليسارى الأوائل من أمثال انجلز وماركس ولينين ! » .

ويلتقى مع جاكسون ، العديد من فكرى « اليسار الجديد » أو « الليبراليون » ، أو الذين ينظرون بحيدية كاملة لأزمة الانسان المعاصر ، وفى ظل المتغيرات الجديدة . يقول هربرت ماركوزا :

« لم يعد المجتمع عبدا لنظرية كلاسيكية ، أو عقيدة جامدة ، تشله ، وتربطه بمنطق عفى عليه الدهر ، او تخضعه لنظرية ابستمولوجيا — او معرفة مهترئة . ان الانسانية تفتنى ، فكرا ، وحضارة ، وعلما ، فى كل لحظة ، وعلينا ان نحتضن ونحتوى كل هذه الثمار ، اذا ما اردنا ان نتقدم .

فالخضوع الى (تماثيل قديمة) من النظريات والأفكار ، أشبه بالوثنية ، لا يفيد ، بل يدمر ، والغريب ان الكثيرين من الشباب ، مازالوا مشدودين الى نظريات جامدة نابعة عن اليسار التقليدى الذى عاش ظروفا مغايرة ومناخا مخالفا لحضارتنا ، وفكرنا ، وملابسات عصرنا ! » .

فـ (لينين) ، مثلا لم ير أى انفجار ذرى ، وكذلك لم ير التليفزيون ولم ير مستحدثات العصر فى العلم والتكنولوجيا ، والا لغير رأيه . فبروليتاريا اليوم ، فى أمريكا واوربا ، غير تلك البروليتاريا التى تحدث عنها مكسيم جوركى فى (أسرة آرتامنوف) ، أو (الأم) فى سنوات ما قبل ثورة ١٩١٧ الاشتراكية فى الروسيا ، وبروليتاريا اليوم ، أيضا ، غير بروليتاريا ١٩٢٩ و ١٩٣٧ التى تحدث عنها جون شتاينبيك فى رواياته : (عناقيد الغضب) ، و (فى معركة غاضبة) ، و (تورتيلا فلات) . ان بروليتاريا اليوم فى فرنسا ، متقدمة الى أبعد الحدود فكرا وتكنيكا ، بل وفى أجورها أيضا ، لدرجة ان أساتذة الجامعات فى باريس يرفعون عقيدتهم ويطالبون بمساواتهم بالأجور التى يتقاضاها العمال الفرنسيين !

لا بد أن يتغير فكر اليسار التقليدى ، مع دخول العالم (الثورة الصناعية الثالثة) (١) ، عصر التكنولوجيا ، وعصر الصعود الى الكواكب الأخرى ، وعصر الالكترونيات . وفى الحقيقة ، ولا أبالغ فى هذا ، أن كارل ماركس لو عاد من جديد وكتب رسائله الاقتصادية ، ورأس المال ، لغير من أفكاره عن مفهوم الثورة واستراتيجية وتكتيكات البروليتاريا ، وكذلك الحال لو عاد لينين ، لغير مفهومه عن الدولة والثورة وعن طبيعة البروليتاريا وبذلك يصبح كل من ماركس ولينين من (الخوارج) ، على اعتبار انهما ارتدا على الأفكار التى صيغت من خلالها النظرية الكلاسيكية ، ومن يعلم ربما لو عادا وغيرا من أفكارهما ومعتقداتهما وأضافا الى الماركسية ـ

(١) كانت الثورة الصناعية الاولى فى عالم البشرية هى (ثورة البخار) فى القرن الثامن عشر ، وكانت الثورة الثانية هى (ثورة الكهرباء) فى أواخر القرن التاسع عشر ، أما الثورة الثالثة ، فهى ثورة التكنولوجيا فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وتعتمد على الالكترونيات والكمبيوترز ...

اللينينية الجديد ، لاعتبرا من المرتدين ، ولحكم عليهما بالسجن ، ومن يدرى ربما تعرضا لرصاص ماوتسى تونج أو الاعدام فى احدى الدول الشرقية التى تطبق العقيدة الماركسية من خلال مفهوم كلاسيكى لا يقبل النقاش أو الجدل . أو تدرى ربما قالوا عنهما : ان كارل ماركس هذا مدعى ، وغير أصيل ، أما لينين فمرتد، و (يراجع) فى النظرية ، ولم هذا كله ، ألا يعلمان ان للعقيدة الماركسية احترامها ، حتى لو تغير العصر ، وتغيرت الظروف المادية والاجتماعية ! !

ان هذا المنطق جامد كل الجمود ، ويصل بالمعرفة الى قمة الشلل ، لأنه يقف بالمقولات الفلسفية وبالمعطيات الأيديولوجية عند مرحلة معينة ، ويدخلها فى اطار دائرة الزمن غير القابلة للتغير وفقا لمتغيرات العصر وملابساته !

ان أفكارنا ، ان لم تتغير ، وتغتنى ، وتزداد ثراء ، وفقا لمتطلبات العصر لأصبحت قديمة عاتية ، ولشاخت وأصبحت غير قابلة للتطبيق ..

وهذا ما نود أن نقوله لليسار التقليدى ، اليوم ، فى بلادنا . ان ما يقوله (روجيه جارودى) ، و (هنرى لوفافر) ، و (هربرت ماركوزا) و (رودى دوتشيكا) ، لليسار التقليدى فى العالم ، بعد انحسار الماركسية التقليدية، نقوله نحن هنا لليسار التقليدى فى مصر ، ونقوله ، ونؤكده ، لا للهجوم أو للعداء ، بل نقوله باخلاص من منطلق الحرص على « ثورة التصحيح » وأفكارها ومبادئها وقيمها ، ومن منطلق الحرص على كوادر ورجال من الممكن أن يشاركوا بدورهم الفعال ان هم غيروا أساليبهم وأفكارهم ومناهجهم وفقا لمتطلبات العصر ومنطلق المتغيرات العصرية ، بما يتمشى مع السبعينات ، وأفكار وانطلاقات العصر الى الأكمال والأرحب فكرا وعملا ونضالا ..

وتحضرنى هنا كلمات « رودى دوتشيكا » رائد الاشتراكية الديمقراطية فى ألمانيا الديمقراطية الذى يقول :

« ان الاصرار على التمادى فى اليسارية المدرسية أو الكلاسيكية ، ليس ضربا من الهوس العقائدى فحسب ، بقدرما هو منطق متخلف حضارى ، يعود بالانسان الى اجيال مضت ومضت ، فهو ينكر كل التقدم الذى حققته البشرية فى السنوات الاخيرة فى عالم الاختراعات والعلم والفن والفلسفات الانسانية والاجتماعية » .

وهذا المنطق من جانب اليسار التقليدى ، ينكر ما حدث من تغيرات حضارية وتكنولوجية فى اطار الثورة الصناعيه الثالثة ــ هذه الثورة التى تقوم على (الكومبيوترز) ، واستخدام الطاقة الالكترونية ، فالمصنع الالكترونى الحديث ينتج فى الدقيقة الواحدة ما كان ينتجه المصنع الذى يدار بالكهرباء او بالوسائل الميكانيكية فى يوم أو يومين أو ثلاثه أيام ، فلو تصورنا أحد الكتاب أو المفكرين أو المنظرين المحدثين من معتنقى أفكار اليسار التقليدى سيستشهدون بأفكار وأقوال لينين فى مشكلة ناتجة عن « الثورة الصناعية الثالثة » ، هذا المفكر أو الفيلسوف ، الذى لم ير فى حياته كومبيوترز أو مصنعا يدار بالالكترون ، ولم يشهد حتى التليفزيون لغدت المشكلة مضحكة ، وربما لو عرض عليه أحد رجال حزبه عصر الذرة أو الالكترون ، لاعتبره معاديا للماركسية ومرتدا ، ولأمر ستالين اذا سمعه يردد ذلك بنفيه فى جزيرة سخالين أو سيبيريا !

وفى نهاية هذا الفصل عن « اليسار التقليدى » عالميا ، ومحليا ، أقول أن اليسار التقليدى المصرى ، يخضع لنفس الظروف والأحوال التىعرضناها لا بد أن يغير من وجهات نظره ، ولا بد أن يستعيد نفسه ليشارك فى « ثورة التصحيح » بشكل فعال ، ودونما اللجوء الى سياسة « مراكز القوى » ، أو « الاحتواء » أو « ركوب الموجة » ، التى هى من سمات استراتيجية وتكتيك اليسار التقليدى فى هذه المرحلة . ولعل ما يدفعنى الى هذا ، هو الاحساس بأننا قد تغيرنا بعد ١٥ مايو ١٩٧١ ، وبعد عبور أكتوبر ١٩٧٣ وبعد ما حدث من انتصارات داخل الجبهة الداخلية والتحرك على المستوى

القومى والعالمى .. فأفكار اليسار التقليـدى ونظرياته وبرام
استقطبتها ثورة يوليو ١٩٥٢ ، مثلما تجاوزتها « ثورة التصحيح
وآفاق أكثر شأوا فى مجال المكاسب القومية والوطنية والشعبية
لا بد أن يغير اليسار التقليدى من استراتيجيته وتكتيكه لا ليحتو
القوى ، بقدر ما تحتويه موجات « ثورة التصحيح الجديدة » ،
الولاء للفرد هو المطلوب أو « لمنطقة النفوذ » هو المطلوب ، بقدر
مطلوبا الولاء لقيم ومبادىء وأفكار « ثورة التصحيح » نفسها ،
تتسع لزرع ألف زهرة ، مثما تتسع لغرس الجديد من النبت ، ليعد
من الحصاد الذى نحتاجه بعد سنوات طويلة من المرارة عاشتها أم
منها كل شريف ومناضل . ما دام الهدف واحد ، وما دام الطريق و
تنزلق يمينا أو يسارا ؟ لماذا لا تتحرك فى صف واحـد ، ونلغى
وصغائرنا ونبدأ من جـديد ، لنشارك فى بناء صرح هذا الوطن
الكثير ، وكان ذلك سببا فى شقائنا وحسرتنا وجراحنا وآلامنا . إن
الذى أكلناه ، والحصرم الذى ضرسنا ، لا ينبغى أن يتذوقه أبناؤ
أن نجنبهم هذا ، حتى يجدوا الفرصة سانحة لمصر ، فيبنوا ما لم يتي
فى الماضى ويقيموا كل ما كان غير ممكن فى المستقبل ، ولتكن مباد
هدايةومنارا ونورا على طريق التقدم والرخاء ، لكل الاتجاهات مهم
ولتكن شعلة تجمع كل أبناء الوطن المخلصين فى صف واحد : و
الشعب القادرة على الغاء تناقضاتها ، من أجل ما فيه كل الخير لأمتن
التى أعطت لنا الكثير ، والتى لا بد أن نعوضها عما فاتها من فرص
بالركب وبالعصر ، ولتشارك فى بناء الدولة الجديدة : دولة العلم و
التى لا تنزلق يسارا ، ولا تنحرف يمينا ، انما يكون هديها مباد
١٩٧١ العظيمة ، النابعة من أرض مصر الأصيلة ..

الفصل السابع

السادات: مفكرًا، وقائدًا، ومعلمًا ثوريًا

« لماذا الحقد والفرقة والتشتت ؟ لن نستطيع ان نبنى بالحقد ، ابدا ... دعونا نضرب كل هذا ، ونعود لجوهر عقيدتنا : للحب ، والصفاء ، والاخوة ، والقوة التى تتولد بالايمان وبالثبات وباليقين ... دعونا ، نعود الى جوهر رسالتنا ... الايمان هو ما وقر فى القلب ، الايمان اخوة محبة ، يقين ، غيرة على قيمنا ، وعلى حياتنا ، وأرضنا ، ايضا ... » .

انور السادات

إذا كان من الصعب ، أن يبنى مجتمع يحطم اطار التخلف ، لكى يدخل فى مرحلة النماء ، مصنعا .. فانه من الصعب ألف مرة بناء الانسان . فالتكوين البشرى عمليـة معقدة للغاية ، تتدخل فيها عوامل عديدة ، وعناصر مختلفة متنوعة .. وهذا التكوين يتطلب وقتا طويلا لتغييره . لكن ، فى نفس الوقت ، اذا كان بناء مصنع آمرا هاما فى مجتمع يحطم أطره التقليدية ، باحثا عن الصورة التى يرضاها طموحه ، فان بناء الانسان ـ داخل هذا المجتمع ـ أكثر أهميـه ألف مرة ..

ومن هنا ، كانت المشقة التى تقابلها (ثورة التصحيح) ، ومن هنا كانت المرحلة التى أعقبت انتصارات أكتوبر ٧٣ : كيف يمكن بناء الانسان المصرى وصياغة قيمه من جديد ، بعد تعرضه لمختلف التصدعات ، ولسنوات ، وكيف يمكن مداولته فكريا وعاطفيا وحسيا ومعنويا ، حتى يقوم من جديد ليشارك فى كل مستحدثات تمر ببلاده ، وكيف يمكن اشراك هذا الانسان فى كل ايجابيات ومتطلبات المرحلة الراهنة ، لبناء المجتمع العصرى الحديث القائم على العلم والايمان .

والنظرة الأولى ، تقول : انه كان من أهدافنا الثورية ، بناء الانسان مع بناء المصنع ، بناء الانسان مع تأكيد ضرورات المعركة .. فقد أدركت القيادة الثورية ، وعلى رأسها البطل : أنور السادات .. ان الانسان هو القـوى الصانعة ، وانه القوى المستفيدة ، وأنه القوى المحركة .. واذا كان أحـد المفكرين ، قال عن الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، انه قد صنعها المفكرون ، ونفذها الشجعان ، وكسب ثمارها الجبناء ، كما قلت ، من قبل ، وكما قال فولتير ، فانه كان من الضرورى الانتباه ، جيـدا ، حتى لا يكسب ثمار « ثورة التصحيح » الا الجماهير العريضة من أبناء شعبنا العظيم ..

كان من الهام بناء الفكر الثورى ، كله ، على قيم روحية وانسانية ، تستند ، أساسا ، على ما يؤمن به شعبنا من قيم وأفكار انسانية واقعية ، تغلفها الأفكار الانسانية عامة ، بغض النظر عن الرافد الفكرى الذى جاء بها أو منها. ومع كل هذه الدفعات الثورية، كانت تولد، داخلنا ، أشياء ، جديدة وجدت مع الزمن الأرض التى تقف عليها ..

الانسان العربى ، آخذ يحس بالعزة والكرامة نتيجة النجاح ، لا نتيجة التحدى الفردى ، نتيجة لما حدث فى أعقاب ثورة التصحيح وحرب اكتوبر العظيم .. وبدأت هذه القيم تتحقق من خلال معارك التحدى الجماعية .. ولحسن الحظ ، اننا قد وفرنا الكثير فى ثورتنا الفكرية والمادية . فقد التقينا بالنجاح أسرع وأحسم مما كان يتوقع ، حتى أشد المراقبين تفاؤلا أكدوا هذا ، وكتب أحد المراقبين السياسيين اللندنيين فى أوائل أكتوبر ١٩٧٠ — أى بعد وفاة جمال عبد الناصر بأسبوع واحد يقول :

« ان مشكلة مصر ، هى النموذج ، المثال ، فقد سقط ، هذا المثال ، ولن تقوم قائمة لمصر ، أو للعرب ، الا بعد سنوات طويلة .. فلقد كانت شخصية جمال عبد الناصر ، كقائد ، وزعيم للامة العربية ، شخصية قوية ، وقد مات فى ظروف صعبة ، ومن الممكن بفقدانه أن تصاب الأمة بانكسار أكبر ، وتصدع أعظم » ..

ومثل هذا الكلام ، أو قريب منه ، تردد فى العواصم العربية ، بل وأيضا ، فى القاهرة ..

وامام كل ذلك التزم أنور السادات (الصمت) ، ولم يزعجه أو يثيره نتيجة الاستفتاء فالبعض قال : (نعم) ، والبعض قال : (لا) ، وهذا جعله يحس ببرد الراحة فاذا كان ٩٠ أو ٩٤ فى المائة قد قالوا (نعم) ، ومجموعة قالت : (لا) ، فهذا يعنى ان الناس يحسون بالأمان ، ويتطلعون الى مناخ صحى أعمق ، يضمن لهم الاستقرار والتحرك والعمل من أجل مصر .. ومثلما يتسلم القائد فى الحرب السلاح من زميله ، تسلمه السادات ، فى حزن وأمل ، معا ، فى حزن لأنه فقد زميلا رافق عمره سنوات وسنوات ، ولديه الأمل ،

كل الأمل فى أن يستعيد هذا الشعب نفسه وقوته فى أقل وقت ، فداخله كنوز عظيمة ، عليه أن يفتش عنها ، حتى يسابق الزمن . ان هذا الشعب ، يقف على حضارة عمرها سبعة آلاف سنة ، فلا يمكن لشعب أن يمتلك مقدرات هذه الكنوز والدرر ، وييأس ، أو تستمر (كبوته) طويلا .. بل انه قادر على الخروج من (الأزمة) ، وقادر على ان يعبر (الهزيمة) ، ليبنى ، ويبنى ، ويشارك مع كل الأمم فى حضارة العصر . ومنذ اللحظة الأولى ، أحس السادات بمسئوليته ، لا كمناضل سياسى فحسب ، ولا كقائد محنك ، بل كأب ورب لهـذا (البيت) الكبير ، عليه أن يعمل كل ما فى وسعه ليلتئم (الجرح) ، ويسير بهذا الوطن ، وبالمنطقة العربية كلها الى ما فيه خير الأمانى والآمال.. ولم يتعجل ، ولم يتصرف فى انفعال ، بل أخذ يرقب الأمور ، ويرصد الواقع بمختلف أبعاده ، بعين المفكر والقائد ، وبتجربة المناضل الثورى العميقة ، نابذا كل ما من شأنه ، أن يقود الى متاهات وضبابيات ، فهو ليس انسانا تجريبيا ، انه يؤمن بالعقلانية وبالفلسفة العملية ، بحكم قراءاته ودراساته ، وبحكم احتكاكه المباشر بالجماهير كثورى ومناضل ، وبحكم انتمائه للقرية التى يحملها داخله أينما ذهب وأينما حل ..

فى خطابه بعد وفاة عبد الناصر ، بأقل من عشرة ايام ، قال للجماهير فى ٧ أكتوبر ١٩٧٠ :

« ان الأيام الماضية فى حياتنا كانت أيام حزن عظيم ، ولكن هذه الأمـــة الخالدة ، استطاعت بصمودها الفذ أن تحول مشاعر حزنها العظيم الى طاقة قوة عظيمة ، فخرجت من كل ما عانت ، بأسرع مما قدر أحد ، وقررت ، وصممت ، وحسمت » .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٧٠ ، تحدث الى الجماهير ، فى ذكرى الأربعين لجمال عبد الناصر ، فقال :

« بدأت الحركة الايجابية ، بما فيها من امكانية الصواب والخطأ ، بما تحمله من قدرة العقل ، أو حدة العاطفة ، بما يدفعها من رؤى المستقبل أو

بما يشـــدها من رواسب الماضى . ذلك هو صراع الحياة الذى لا نستطيع ــ مهما تمنينا أن ننسى اعتباراته وأحكامه وضروراته مهما كان بعضها ثقيلا علينا ونحن نعيش فيه ونعانى تفاصيله بينما هى تجرى أمامنا .. »

ومن خلال تكوينه البيئى ، والفكرى والنضالى .. ومن خلال ثقافته ، وفكره ، وفلسفته للواقع .. كانت سياسته العملية ..

كانت استراتيجيته ، وتكتيكاته السياسية ..

وكانت تحركاته فى الممارسة العملية .. فى ذهنه نظريات واضحة ، من خلالها ينبعث منهجه العلمى الواضح ، وعلى ضوئه يضع الاستقراءات والاحتمالات ويحسب حساباته ، بدقة ، وفى حكمة ثم يتحرك على أرض الواقع ..

ومن هذا المنطلق تحرك السادات ، وسار بمصر ، والعرب ، من نصر الى نصر ، ومن مكاسب الى مكاسب ، طوال السنوات الخمس الأخيرة . وانطلق من موقع الانسان المصرى البسيط ، الذى يريد الخير لوطنه ، ومن احساسه بالفعل ورد الفعل ، ومن دراسته لبنية المجتمع المصرى وواقعه ، عرف كافة المعوقات التى تقف فى وجهه وتشله عن التقدم ، وآمن انه لا تقدم الا من خلال وضوح كامل للطريق ، ولا يكون الطريق آمنا ، وخلاله من يتربص بالسائرين ، لذلك « صحح » الأوضاع . ضرب مراكز القوى فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، من خلال ثورة التصحيح واعاد لمصر حرياتها وديمقراطيتها المفتقدة ، وأعاد بناء الجبهة الداخلية ، على أساس سليم ، لأنه آمن دائما « انه ما دامت القاعدة الجماهيرية سليمة فكل شىء ممكن ، ولا مجال أمام الجماهير فى سعيها الى المعركة » . وبذل جهدا عظيما ، فى اعادة المناخ الصحى الى الجبهة الداخلية ، ونفس الجهد بذله ، وهو يسعى الى توحيد الصف العربى ، ويجمع العرب كلهم حول أهداف المعركة ، ثم قاد مصر والعرب ، بعد أن أمن كل شىء الى معركة التحرير فى حرب السادس من أكتوبر ٧٣ ، وكان له ما أراد ، تحققت المهـــام القتالية ، وتحطمت أســـطورة التفوق الاسرائيلى ، وانسحب الاسرائيليون بعد فك الاشتباك ، وفتحت « قنـــاة

السويس » بعد اغلاقها لمدة ثمان سنوات ، وقاد التحرك العربى من جديد ، ليعد كل العدة ، قبل أن يذهب العرب الى مؤتمر جنيف ، لاستكمال حلول القضية العربية وحل تناقضاتها فى جوهرها .

ومن يتابع السادات ، طوال الخمس سنوات الماضية ، من خلال أفكاره ونظرياته ، فكريا وعمليا ، على المستوى السياسى والعقائدى والايديولوجى أو على المستوى العسكرى والمادى ، يحس انه أمام شخصية فذة ، قل ما يجود بها الزمان ....

فمن المحال ، بل من الصعب ، أن تحدث كل هذه الانتصارات وكل هذه التغييرات ، فى مصر وفى المنطقة العربية ، ومن خلال هذه السنوات الوجيزة .

ودراسة السادات ، من خلال هذه المرحلة للاقتراب من جوهر فكره ، ينبغى أن تكون دراسة دقيقة ، موضوعية ، فهو ليس مجرد بطل قومى ، أو مناضل ثورى ، أو مفكر ثورى ، أو زعيم سياسى ..

انه الى جانب كل هذه الصفات ، يبرز كبطل للمرحلة ، أنجبه أنبل وأعظم ما فى شعبنا وأمتنا من خصال وصفات وقسمات ..

ابتداء من عام ١٩٧٠ ، أخذ العالم ، يتابع ، فى دهشة ، ما يحدث فى مصر ، وفى المنطقة العربية ، وبدا مع تتابع السنوات ، يتكشف ان شيئا ما جديدا ظهر على الأرض العربية ، خاصة بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، هذا الشىء الجديد ، هو :

البطل ... محمد أنور السادات ، الذى تلتف حوله الجماهير ، وتتحقق أمانيها ومطامحها وأحلامها ...

ولطالما بحثت الجماهير عن هذا (البطل) ـ أو فارس الأمل ..

فمنذ ١٩٦٧ ، والجماهير ، قد أصيبت بخيبة أمل فى احلامها ، وتحطمت مطامحها ، بعد هزيمة حرب الأيام الستة فى (٥ يونيو) .. وعندما ظهر (البطل) ـ أو فارس الأمل ، لم تره الجماهير ، من فرط الضبابية والدخان

الذي كان يلف المنطقة ، امتدادا لظروف ١٩٦٧ ولم تحس به تماما ، الا مع استمرار المسيرة ، عندما احتكت به ، واحتك بها ، عندما التحمت اماله بامالها ، فقد كان بوعيه الخلاق يعرف ويحس بمتطلبات المرحلة وضرورياتها ، لأنه تعبير وتجسيد حي لكل أحلام ومطامح المرحلة وهي تعاني المرارة التي خلفتها السنوات التي أعقبت ٥ يونيو ٦٧ ..

وعندما نقول «بطل المرحلة» ، فلا نقصد البطولة المجردة ، أو البطولة الجوفاء ، بل نعني هـذه البطولة التي اقترنت في الممارسة بين الفكر والعمل ، بين ارادة الجمـاهير ومتطلبات الظروف وايديولوجيـة الثورة الديمقراطية في تطورها وفي سعيها الى آفاق رحبة .. وهذا يجعلنا نعود ، لنتحدث عن سمات وقسمات السادات ، ومميزاته .. كمفكر صاحب نظرية ومنهج في التطبيق ، وكمناضل ثوري لديه كل الاصرار والارادة ، لانجاز ما يهدف اليه ، وكبطل للمرحلة عبر بمصر والعرب الهزيمة الى آفاق جديدة ــ كانت الانفتاحة الكبرى على العالم ، فكريا ، وماديا ، وكمعلم له أفكاره في الحرية والديمقراطية ، وكانسان له مواقفه المتسقة مع جـوهر فكره وسلوكه اليومي .

* منذ البداية تساءل أنور السادات :

ـ ما هي السياسة ؟ ما معنى ان يرتبط الانسان بعـالم السياسة ؟

وهـذا السؤال راوده ، أكثر من مرة ، وألح عليه ، واهتـدى الى الاجابة :

« السياسة ..؟ هل هي علم يدرس مثل الميكانيكا ، أو مثل الطب والكهرباء ، فينبغ فيها الأذكياء ، ويتبحر فيها ذوو المواهب ، ويمارسها اصحاب الكفاءات ويعرف اسرارها خريجو المعاهد التي تدرس فيها السياسة كما يدرس الطب والكهرباء ؟ ولكي نناقش المسألة ، ببساطة اكثر ، اقول : هل السياسة مهنة او حرفة يمارسها المرء ، مثلما يمارس اي عمل آخر تخصص فيه وفهم قواعده ؟ اذا قال لك احدهم ، ان فلانا هذا سياسي داهية ، والمعي لايشق له غبـار ،

فلا تستمع على الاطلاق لهذا الكلام ، لأن السياسة ليست حرفة انسان ويصبح عالما بخباياها ، بينما يفشل آخر ! صحيح ، انه توجد في كل بلاد الدنيا معاهد تدرس فيهـــا السياسة وعلوم السياسة ، ولكن تلك المعاهد لا يتخرج منها ساسة على الاطلاق . بل يتخرج منها موظفون يحدد لهم العمل الذى يقومون به ، ويظل عملهم ثابتا لا يتغير ، بينما العالم من حولهم يدبر شئونه ويغير من نظمه ، فمن هم الساسة الحقيقيون ؟ انهم الشعب ! فالسياسة هى الحاجة ، والشعور بالحاجة ، هو الذى يدفع المرء الى الكفاح من اجل حاجاته .. هنا تصبح المسألة سياسة » .

فالسياسى ، ليس هو الذى يتقن نظــريات أرسطو وهوبز وديكارت ولوك وماركس وانجلز ولينين وتشرشل وكليمنصو وديجول وماوتسى تونج ونهرو ، فى السياسة ، انما هو « الرجل الذى يسعى لتلبية متطلبات الواقع متطلبات المرحلة » .. حينئذ لا يكون مفهوم السياسة حرفة ، أو وســيلة لـ « كرسى السلطة » ، ولا تكون هى « قنطرة ميكيافيللى » ، الذى يحمل أميره « لورنزو دى مدسيس » وصاياه الكبرى ليكون سياسيا عظيما ، فالغاية لديه تبرر الوسيلة مهما كانت حتى ولو كانت السم الزعاف فى كأس نبيذ أو الخنجر فى عباءة مطهرة فى مسجد أو كنيسة ، المهم (الغرض) .

ان السادات ، يرفض ، أن تتحول السياسة الى حرفة ، أو (مزايدة) أو (مغالاة) ، لأن هذا يقربها من (سوق الدلالين) أو (النخاسة) ، ويسقط عنها أهدافها النبيلة السامية .. والسياسة ، ليست متاجرة ، وليست كهانة فكم من رجال فى العواصم العربية ، يتاجرون اليوم باسم (السياسة) ، وكم من كتاب (يدللون) و (يبيعون) ، باسم السياسة : السياسة ، تفرضها ضرورات الواقع ، وما لم ترتبط بهدف نبيل ، وبحركة الجماهير فى تقدمها وفى محاولة الوصول بها الى آفاق عظيمة ، تنقلها من مرحلة الى مرحـــلة أكثر كمالا ، لما أصبحت السياسة سياسة ..

* المنطق التجريبى ، الذى يعتمد على مجريات الأحداث اليومية ، ولا يضع استراتيجية مرحلية للواقع ، ولا يخضع لمعطيات علمية وعملية ،

لا يوصل الى نتائج سليمة . وهذا ينطبق على النظرة الى الاقتصاد والتنمية مثلما ينطبق على مشكلات الحرب والسلام ، مثلما ينطبق على أبسط علاقات الأفراد فى حياتهم اليومية فى محيط الأسرة والعمـل والحيـاة .. فأسرة لا تخطط علميا لمستقبلها ، لا تؤمن حياتها .. وأمة لا تضع خطة علمية لها ، لا تستطيع النهوض أو التقدم ومسايرة ركب الأمم المتقدمة .. وربما كان من سلبيات الماضى خضوع مصر للمنطق التجزيبى ، الذى أوصلها الى منزلق صعب ، بل أوصلها الى ظروف ١٩٦٧ .. والثورة نفسها ، ان لم يكن لها استراتيجية واضحة ، ومخطط علمى جلى ، ينطلق من نظرية أو عقيدة ثورية لها أسسها وركائزها الموضوعية ، لما أتت ثمارها ولما سارت الى منجزاتها المنشودة ، ويتجلى هذا المنطق فى الكثير من تصريحات وكلمـات القائد والمعلم أنور السادات :

« من المحتمل ان تكون هناك استراتيجيات متعددة فى مواجهتنا للعدو ، ولكننا نرى ان من الضرورى والحتمى ان تكون هذه الاستراتيجيات المتعـددة كلها صادرة ونابعة من استراتيجية واحدة عظمى ، تكفل تحقيق الارادة العربيـة ، ويتحتم على العقل العربى الثورى ، ان يحدد المراحل اللازمة للتحقيق المستمر والمترابط بين الاستراتيجيات المتعددة ، وبين الاستراتيجية العربية الواحدة العظمى ، وهذا التحدى الذى نواجهه الآن .. » .

والسادات يؤكد فى أكثر من مناسبة .. ان الصمود الفكرى ، الذى يعتمد على المنهج العلمى ، من أهم الأسلحة الفكرية التى لا بد أن تتخـذ للوصول الى كل غايات مصر والأمة العربية :

« فهذا السلاح ، يزرع اليقين ويقوى الثقة بالنفس ، وهذا السلاح لا يقل أهمية عن السلاح الذى يطلق النار » .

وهو يدين الجمود ، والعقيدية ، والتزمت الفكرى :

« ان الجمود الفكرى نوع من الرجعية والتخلف والتحجر ، وهو يؤدى بصاحبه الى الخروج عن منطق العصر ، ومن يختار لنفسه أن يبقى قاعـدا ..

جامدا والعالم ، يهرول الى الامام ، هو فى الواقع ، يحكم على نفسه بانعدام القدرة على التأثير على مجرى الحوادث والمساهمة فيها وخدمة شعبه وأمته من خلالها ، ولكننى أقول ، مع ذلك ، اننا ونحن فى عصر حافل بالمتغيرات على كل المستويات السياسية والدولية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية ، فأننا رغم ضرورة الدراية المستمرة بكل هذا ، الا أنه من المهم أن يكون لنا الأساس الواضح الذى يستند اليه الصمود الفكرى القومى الذى ينهض بالجسد كله مهما تحركت فى هذا الجسد أطرافه وأينما سارت به قدماه » . .

والنظرة العقلانية ــ أو النظرة العلمية ، هى أساس فكر السادات ، فهو ضــد الانفعالية ، وضد العاطفية ، ولا يقبل بالمثاليات والقــدريات والمغامرات أو المهاترات التى لا تقود الا الى الهاوية ، وأى صراع فى تقديره لا ينجح إلا اذا كان متفهما لطبيعة التناقضات من أجل حله لصالح المسار الثورى . . .

* والنظرة العلمية ، أو الفكر العلمى ، يمثل الركيزة الأساسية فى فكر السادات . . فهو ليس منقادا الى عقيدة شرقية أو غربية . .

فهو يرفض أن يحتوى الفكر المصرى الأصيل أى نظرية مستوردة ، أو (معلبة) . . فحضارة السبعينات ، وحضارة الغد ، امتداد أصيل للحضارة المصرية نفسها ، ولا بد أن يمتد الفكر المصرى الأصيل النابع من أرض مصر وترابها ، فالشعب الذى يتحرك على أرض حضارية عمرها سبعة آلاف سنة ، لا يمكن أن يستورد نظرياته من موسكو أو واشنطن ، وانما هذا لا يعنى ان مصر ترفض أى فكر خلاق ، انها تحيا كل تجارب العصر ، وتأخذ وتمتص وتحتوى كل ما تراه ملائما ومفيدا لتعميق الفكر المصرى فى تطوره نحو ما يسير بالمجتمع خطوات وخطوات فى دولة (العلم والايمان) .

والسادات يؤكد : « أنه عن طريق استيعاب كل ما قدم وعن طريق تفهمه ، فاننا نستطيع أن نقول ، انه سوف يكون بامكاننا ان نقيم على

هذه الأرض دولة عصرية ، لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات ، ولكن يتحول فيها العلم والتكنولوجيا الى أسلوب عمل والى تحقيق عملى لأهداف مجتمع أمامه مسئوليات عظمى وتملأه آمال أعمق » .

ويؤكد السادات ايمانه بالعلم والتخطيط ، فيقول ، ان دونهما لا يمكن تحقيق أى (مشروع) :

« ان المعارك الكبرى واللحظات الفاصلة تحتاج بعد الايمان العميق بالهدف والاستعداد الكامل للبذل فى سبيله ، الى التفكير المنظم ، وتحتاج الى التخطيط الدقيق والقوى .. والقوة أى قوة مهما بلغ حجمها ، تصبح قوة عمياء ، اذا لم يكن المنظم لها تخطيطا دقيقا .. والعمل أى عمل ، مهما بلغت قوة اندفاعه ، لا يصل أبدا الى هدفه اذا لم يكن موجها والمدبر له موجها منظما ودقيقا .. الفكر هو الأساس ، والتخطيط الدقيق ، هو الاطار .. »

وهو فى هذا الصدد ، يوجه الدعوة قوية الى كل الأجهزة الثقافية والفكرية والعلمية ، نحو مزيد من تعميق الفكر المصرى ، ونحو مزيد من استيعاب منجزات العصر من أجل التقدم ، فيقول :

« المثقفون المصريون ، اليوم ، مطالبون ، بمزيد من الجهد ، من اجل بحث علمى أصيل ، يجعلنا نسهم فى تراث البشرية ببعض ما نأخذ منه ، وتكنولوجيا مصرية تغنى عن اعتمادنا على الخارج ، وتستجيب لظروف بلادنا الخاصة» .

※ والسادات ينزع الى فكر مصرى أصيل ، نابع من الأرض المصرية فهو ضد كل التيارات الوافدة ، أو المفاهيم المستوردة من الشرق أو الغرب، انه ضد الشيوعية والرأسمالية الاحتكارية ، انه ضد كل ما من شأنه أن يستغل الفرد ، أو يغله ، أو يستعبده ، أو يحوله الى مجرد ترس فى عجلة الدولة ويلغى ذاتيته وعبقريته الفردية .. وهو يرى أن (ضياع) الكثير من

الشباب مصدره الأساسى عدم الوصول الى جوهر فكر مصر ، وتمثله فى اطار العصر ، وهو يرى ان الثقافة وسيلة ، بينما الحضارة غاية .. فالثقافة تصنع الحضارات .. والحرية ، تغنى الحياة وتبهجها .. ويؤكد فى كثير من تعاليمه وأفكاره :

« ان حضارة الغرب ، اليوم ، ليست حضارة ، بمعناها العلمى أو النظرى ، وانما هى مدنية » [1] ..

وفرق كبير بين الحضارة والمدنية ، فالحضارة تقوم أول ما تقوم على مقومات معنوية وروحية قبل أن يكون لها مقومات مادية :

« لذلك نرى أن طابعها ، لا يكتفى بالمظهر ، وانما يعتمد أول ما يعتمد على الجوهر .. والمدنية لا تعرف المقومات المعنوية فى حياة الفرد والمجتمع التى لا تعدو أن تكون مظهرا ، كأن تحيل حياته كلها ميكانيكية مثلا بالازرار والآلات ، وهى لذلك لا تقيم وزنا ، بل لا تعرف الجوهر فى حياة الانسان ، من أجل ذلك كانت الحضارة ولا تزال تعنى أول ما تعنى بالقيم الانسانية العليا ، أما المدنية ، فانها تعتبر القيم الانسانية من مقومات البشرية ، وعلى هذا القياس ، ومما نراه ، اليوم ، نستطيع أن نعرف ما يسمونه حضارة الغرب بمدنية الغرب .. وهنا يتضح خلاف آخر بين عقليتى الشرق والغرب ، فالغرب يعتقد أن مدنيته الحالية ، ان هى الاحضارة هو الولى عليها ، وأن من أخص رسالاته أن يقهر الشعوب فى الشرق على قبول هذه الحضارة الغربية فى أشكال يحدد مفهومها .. فالغرب يدخل ، مثلا ، نظامه الديمقراطى فى شعب من شعوب الشرق ، فانه لا يدخل ما يطبقه هو فى بلاده ، وانما يفرض على هذه الشعوب الذى يريد لكى يحقق له السيطرة والتحكم ، ثم يلصق بهذا النظام اسم الديمقراطية ، وينسبه الى الحضارة الغربية الجديدة » [2]

---

(١) دراسات ومقالات نشرها انور السادات على صحيفة الجمهورية بين يوليو واغسطس وسبتمبر عام ١٩٥٦ ، ضمن دراساته عن الثقافة والحضارة بين الشرق والغرب ، والفرق بين حضارة مصر ومدنية الغرب ...

(٢) نفس المصدر السابق ...

ويخلص السادات من دراساته لحضارتنا ومدنية الغرب الى شكل من أشكال « الفرض الثقافى » ، أو « السيطرة الفكرية » ، التى يحاول الغرب أن يصدرها تحت اسم الحضارة الغربية ، وهى فى النهاية شكل من أشكال الاستعمار ، بل أحدثه قاطبة .. ولكن هذا لا يعنى ان مصر ضد أى فكر ، اننا نتطلع الى كل الثقافات والى كل الأفكار ، لكننا لا نقبل ان يفرض علينا فكر بذاته ، أو ثقافة بذاتها ، انما نأخذ كل ما من شأنه أن يطورنا ويلهمنا خطوات الى الامام ، ولكن بما يتفق مع ايديولوجيتنا ومنطق حضارتنا ..

* ويؤكد السادات ، فى أكثر من دراسة ، وفى أكثر من مقالة ، وفى أكثر من خطاب على عمق حضارتنا ، وكيف ان المصريين ، والعرب ، كانوا من أوائل الشعوب التى حملت مشعل الحضارة ، فيقول :

« كان العرب وراء نهضة أوربا ، عندما انبعث فيها تراث الانسانية الثقافى بفضل العرب .. واستبدت الأنانية بحكامها ، وطبقاتها العالية ، وأيضا ، بمثقفيها وعلمائها وفنانيها ، فلم يحملوا المشاعل مثل العرب الأمجاد ليضيئوا الطريق أمام الشرق الذى سيطرت عليه ، أخيرا : الكهانة ، مثلما كانت تسيطر على الغرب فى القرون الوسطى ، فلم يساهم الغرب فى بعث نهضة الشرق على الاطلاق تماما مثلما فعل الرومان أيام امبراطوريتهم المزدهرة ! فلقد تعرضت حضارة الاغريق المجيدة لحقد أباطرة روما وقوادها العسكريين ، ونبلائها الاشرار فعملوا على طمسها ودفنها فى التراب ، لأن امبراطوريتهم كانت قائمة على السخرة ، والاثم والقوة والقهر .. ولم يقدر لتراث أثينا الثقافى والعلمى أن ينبعث أبدا ، الا عندما حمل العرب مشاعلهم ، وقدموا للبشرية ، فى نبل وكرم عظيمين ، وبلا تعصب ، وبلا ادعاء ، أو من !! .. وأقول ، ان الغرب بعد نهضته وازدهار المدنية فيه ، اتجه الى هدف شرير أثيم ، فقرر استعمار الشرق ، لا النهوض به ، ونادى كبلنج (١) ، الفيلسوف الاستعمارى

(١) رديارد كبلنج ، الفيلسوف والشاعر الانجليزى الاستعمارى ، الذى نادى بسيطرة بريطانيا على الشرق .

الانجليزى الرجعى ، بهذا ، وأهاب بقومه ، أن يسرعوا فى التهام الفريسة المسلمة ، قبل أن تفيق من سباتها العميق ، فأطلق كلمته المشهورة : الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا ! ونسى ذلك الرجعى ، ان الشرق سبق له أن التقى بالغرب فى قديم الزمان ، عندما بعث العرب نهضة ذلك الغرب وأشاعوا فيه النور .. » ..

وقد أكد بريفو « ان العلم الغربى .. يدين بوجوده للحضارة العربية ». ويرى العلامة الانجليزى الكبير جون برنال .. ان العلم باعتباره وجها من أوجه النشاط الانسانى ليس قائما بذاته ، بل هو جزء من الثقافة الانسانية، ولعل هذا الاعتبار لم يتحقق فى الماضى قط بأكثر مما كان فى الدول العربية : « فنحن فى الغرب مدينون للعرب ، بكل علمنا ، وفكرنا ، وهم لم ينقلوا الينا تراث الاغريق ، بل أضفوا على هذا التراث أحكاما أدق وروحا علمية لم تكن ظاهـرة فى عمل الاغريق ، وقد أضاف العرب فى الرياضـيات والكيمياء اضافات لا تنكر فى تاريخ العلم .. ولم يكن العلم عند العرب يعتبر منفردا قط ، فعرف رجاله الفطاحـل ، مثـل : جابر بن حيـان ، والخوارزمى، وابن سينا ، وابن رشد ، بالثقافة العامة واتساع الأفق الفكرى ويوما ما ، ولنأمل ، عندما تقوم الامة العربية ، مرة أخرى بأداء نصيبها كاملا فى التقدم العلمى ، أن يكون ذلك بنفس الروح التى كانت تميز العلم العربى ابان ازدهاره .. » .

ويرى الكاتب الفرنسى روجيه جارودى .. ان الفتوح الاسـلامية ، كانت ثورة مسـلحة زلزلت الاقطاع الزراعى ، كما يرى ، فى الاسـلام ، نظريات تقدميـة ، دفعت بالعالم دفعـات قوية الى الامام ، ويقـول : « ان أحد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التى يتبعها المستعمرون ، هى انكارهم الدور الذى لعبته الحضارة العربية فى تكوين العالم الحديث ، فمؤامرة الصمت والتشنيع المنظم على هذه الحضارة ، انما تهدف الى تجاهل هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن الشعوب العربية قد ساهمت ، فى ظروف

تاريخية معينة ، بين العصر القديم وعصر النهضة (الرينزالس) ، مساهمة غنية فى التقدم الانسانى فى كل ميادين الفكر والعلم ... وقد أصبح الباحث الأوربى ، حين تدفعه الرغبة الى دراسة الفتح العـربى ، يشعر وهـو يقرأ ما وضع بين يديه من كتب صغيرة موجزة ، انه امام سر أو معجزة ، ولا يجد من يفسر له أسباب أو نتائج هذه العاصفة البشرية التى امتدت خـلال سنوات طويلة ، من بحر الصين حتى المحيط الأطلسى .. ولكن اذا نحن طرحنا جانبا ذلك التحيز الاستعمارى والعنصرى بدت لنا هذه الحقيقـة الأولية ، وهى ان الاسـلام ، حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة .. قد خلق بفتوحاته ، الواسعة ، الظروف الضرورية ، لتجديد الحضارة ، ولتجديد شباب العالم .. قد أوجد الفتح العربى ، الظروف الاجتماعية والاقتصادية الملائمة بازالة الفوضى الاقطاعية وطبقاتها الطفيلية » ..

فلقد كان الفتح العربى ، فى اسبانيا ، مثلا ، ثورة فكرية واجتماعية بارزة اذ أنه ساعد فى ازالة المساوىء التى كانت تعانى منها اسبانيا تحت عبء القهر والضغوط .

فالفاتحون العرب ، بتحطيمهم الحواجز التى أقامها الاقطاع فى ميدان الاقتصاد ، وبخلقهم جوا جرى فيه تبادل البضائع والأفـكار على نطاق واسع من الجو الذى أتاحته الامبراطورية الرومانية القديمة ، وبانشائهم امبراطورية موحدة مركزة خاضعة لقانون مكتوب ولادارة قضائية منظمة، قد وضعوا الأسس الصالحة لتطور الأشياء والناس والأفكار تطورا تمتاز به المراحل الخلافة للبشرية ...

ويستشهد روجيه جارودى بثلاثة نصوص تاريخية هامة فى هذا الصدد ، فيقول : « النص الأول : لأحد رجال الكنيسة فى سوريا ، واسمه ميخائيل ، وهو يؤرخ لحالة الكنيسة فى سـوريا خـلال القرن السـابع ، وبعـد أن ذكر الاضـطهاد الذى تعرض له المسـيحيون من الرومان ، يقـول : ان اله الانتقـام وقدر شرور الرومان ، الذين كانوا ينهبـون كنائسنا

وأديرتنا ويقضـون علينـا فى كل مكان تحكسوا فيـه ، أرسـل من الجنوب آباء اسماعيل كى ينقذنا على أيديهم . ولم يكن بالفضـل اليسير انقاذنا من قسوة الرومانيين ، ومن شرهم وغضبهم ، ومن حسدهم الفظ ، والأخذ بيدنا الى ظلال الأمن والراحة .. والنص الثانى لأناتول فرانس فى كتابه الحياة الزاهرة : سأل السيد دى بوا السيدة العجوز نوزيير ، ما هو أكثر أيام التاريخ شؤما ؟ فلم تستطع السيدة نوزيير الاجابة ، فقال دى بوا ان أكثر أيام التاريخ شؤما هو اليوم الذى جرت فيه معركة بواتيه عام ٧٣٢ حين تراجع العلم والفن والحضارة العربية امام البربرية الفرنسية .. والنص الثالث للكاتب الاسبانى بلاسكو أبيانيز ، ويقول فيه : ان تجديد شباب أسبانيا لم يصل الينا عن طريق الشمال مع القبائل البربرية ، وانمـا من الجنوب مع العرب الفاتحين .. لقد كان الفتح العربى بعثة حضارية أكثر مما كان فتحا ، عن هذا الطريق وليس عن طريق آخر .. دخلت الى بلادنا هذه الثقافات الغنية القوية النشطة ، اليقظة ، التى تبعث على الدهشة لتقدمها السريع ، والتى ما كادت تولد حتى انتصرت .

ان هذه الحضارة التى خلقتها حماسة النبى الدينية ، قـد تمثلت أحسن ما فى اليهودية والعلم البيزنطى ، وحملت معها فوق ذلك التقاليد الهندية ، وتراث الفرس ، وكثيرا مما اقتبسته عن الصين الحافلة بالأسرار .. لقد استولى العرب فى غصون سنتين على مناطق اقتضت سبعة قرون لاستعادتها منهم ، لأنهم لم يكونوا يقومون فى الواقع بحملة تفرض نفسها بالسلاح ، بل كانوا يؤلفون مجتمعا جديدا يدفع أصوله القوية الى شتى الأنحـاء .. وكان مبدأ حرية الضمير ، وهو حجر الزاوية الذى تقوم عليه عظمة الأمم الحقيقية ، مبدأ مقدسا لديهم ، فكانت تقوم فى المـدن التى حكموها ، كنيسة المسيحى ومعبد اليهودى على السواء .. وقد نشـأت فى أسبانيا وتطورت منذ القرن الثامن الى القرن الخامس عشر ، أروع وأغنى حضارة قامت فى أوربا طوال القرون الوسطى ، فبينما كانت شعوب الشمال تتذابح

فى غمرة الحروب الدينية ، وتسلك سلوك القبائل الهمجية ، كان عدد سكان اسبانيا يرتفع الى ثلاثين مليونا ، وكانت كل الاجناس والعقائد ، تتفاعل وتمتزج بتنوع لا حد له ، فتصدر عنه أقوى النبضات الاجتماعية ، وفى قلب هذا المزيج الخصب من الشعوب والأجناس المختلفة كانت تزدهر جنبا الى جنب ، جميع الأفكار والتقاليد والمكتشفات التى خلقها الانسان حتى ذلك العهد ، ومن احتكاك هذه العناصر المختلفة ، انبعثت اكتشافات وقوى مبدعة جديدة . وقد حمل أولئك الغرباء ، معهم ، التعداد البشرى والجبر وفن تحويل المعادن والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المقفى ، وكان فلاسفة الاغريق يوشكون أن يتلاشوا ، فانقذهم العرب ، فانتقلوا مع الفتح العربى الى كل مكان واستعاد أرسطو مكانته الرفيعة فى جامعة قرطبة الشهيرة .. » ... فبينما كانت أوربا بين عامى ٨١٣ و ٨٣٣ ميلادية تعمة فى دياجير الظلمة ، كان المأمون يؤسس فى بغداد « بيت الحكمة » ، الذى اشتمل على مكتبه وجامعة ومكتب ترجمة ، والذى أصبح الفكر اليونانى عن طريقه فى متناول جميع الذين يتلون القرآن ، وبعد زمن قليل، كانت قرطبة تملك ستمائة ألف مجلد ، بينما لم يستطع ملك فرنسا » شارل الحكيم » أن يجمع ، بعد ذلك بأربعمائة سنة أكثر من تسعمائة مجلد ، وقد ظل نتاج الكندى ، الذى ترجمه الى اللاتينية « جيرار دى كريمون » يثقف الغرب خلال قرون طويلة .. ولم تعرف أوربا الاكتشافات العلمية الحديثة الا عن طريق العرب .. ففى علم الجبر وفق الخوارزمى الى اعادة وضع المنهج العلمى الذى كان يعرفه اليونان لحل المعادلات ذات المجهولين، واستطاع الشاعر والفلكى والرياضى عمر الخيام حل المعادلات ذات الثلاث مجهولات بواسطة المنهج الذى استخدمه ديكارت بعد ذلك بخمسة قرون ، فوضع أسس الهندسة التحليلية ، وفى حساب المثلثات اكتشف أبو الوفا وليس كوبرنكس الخط القاطع فى الرياضيات ، واكتشف الفارابى اللوغاريتمات كما توصل الفارابى الى الفكر اليوتوبى أو الاشتراكية الخيالية عن طريق جمهوريته الشهيرة قبل أن يتصورها فلسفيا توماس مور كامبانيلا وسان

سيسون ، ودرس ابن سينا الكميات غير المتناهية ، وفى الطب توصل الرازى الى العديد من النظريات العلميه الهامه ، كما وضع تصنيفا علميا منهجيا للامراض وقد أعيد طبع موسوعته الطبيه عشرات المرات وترجمها الى اللاتينيا « فراجوت » ، وفى عصر النهضة (الرينزانس) ، اعيد طبعها ، فى فينا عام ١٥٢٠ ، وفى فرانكفورت عام ١٥٨٨ ، كما وضع ابن رشد العديد من النظريات فى الفقه والعلم الطبيعى والفيزياء ، وقد اشترك ابن سينا وابن رشد فى وضع الفكر النقدى الحديث ــ او ما عرف بالعقلانية الحديثة وقد ادرك الشاعر الايطالى دانتى الليجيرى هذه الحقيقة ، وأشار اليها ، كما أدرك ذلك ، أيضا ، المفكر الفيلسوف « روجر بيكون » . وعندما يقرأ أى مفكر عصرى « مقدمة ابن خلدون » ، يلمس الى أى حد ، كان سابقا لعصره ، بل ووضع أسس علم التاريخ الحديث ، وكذلك علم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وقد سبق ميكيافيللى وديكارت ومونتسكيو بثلاثة قرون ، وقد سبق أيضا أوجست كونت ودوركيم وفردريك انجلز وكارل ماركس ، فى كل الافكار والنظريات التى قال بها فى السياسة والاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع ..

وعلى مر التاريخ ، كانت مصر ، والعرب ، المصدر الأساسى ، للمدنية الغربية ، بل والانطلاقات العلمية التى حدثت فى أوربا ، سواء فى عصر النهضة ، أو فى العصور الحديثة ، ويؤكد السادات ، فى كل مناسبة ، هذه الحقيقة ، ويقول .. انه لا يمكن اقامة دولة العلم والايمان ، واعادة النهضة العلمية الحديثة للارض العربية ، دون الكشف عن هذه الكنوز العظيمة التى تختزنها (الارض العربية) ، ويقول :

« على مر التاريخ ، كانت مصر ، دائما ، مركزا للاشعاع الحضارى والروحى . كانت الاسكندرية حلبة صراع فكرى بين روح الشرق الوادعة المسالمة التى تمثلها حضاراته وبين روح الغرب التى تمجد القوة والعدوان وتقيم بناء حضارتها على الجماجم والاشلاء . كانت حضارة الشرق تقوم فى

الصين ، وفى مصر ، وفى الهند ، وفى ايران ، على نهضة فكرية وصراع عقلى وهندسة بناء ... وكان اهم ما تعنى به هذه الحضارات ، جميعا ، هو علاقة الانسان بخالقه ، وبالأرض وبقية المخلوقات ، وكيف يمكن ان يسيطر على غرائزه بالبحث فى مكنونات النفس البشرية ، وماذا تكون عليه علاقة الأسرة بعضها بالبعض وعلاقة الحاكم بالمحكوم . كل هذا فى سبيل بناء سلام بشرى يقوم على فهم صحيح لوجود الانسان على هذه الأرض . وكانت حضارات الغرب التى انتهت الى الحضارة الرومانية ، تعنى اول ما تعنى بتمجيد القوة المادية والايمان بالفرد ، على انه يستطيع ان يخضع هذا الكون لرغباته اذا ما توافرت لديه القوة المادية لذلك ، راينا ، ان حضارات الشرق قامت على العلوم والبناء والروحانيات ، وفى الوقت الذى قامت فيه حضارات الغرب على الغزو والفتح والقتل وفرض السيطرة بالقوة عن طريق سفك الدماء ... ولقد غلبت الحضارات الشرقية على امرها حينا من الزمان لانها لم تواجه حضارات الغرب بحديد ونار ... وهى ادوات حضارة الغرب الوحيدة ... ولكن عجلة التطور تسير وتطحن فى طريقها كل من يقف فى طريقها ، كل من يقف فى سبيلها ، مهما كانت لديه من قوى او حديد او نار .. » .

وفى انطلاق حضارتنا الى الأكمل ، والأسمى ، من أجل اللحاق بأعظم ما فى عصرنا من تقدم وتطور ، يقول السادات :

« ان هدفنا الاسمى من هذه الاستراتيجية الحضارية الشاملة ، فى هذه المرحلة التى تنطلق فيها روح رمضان (اكتوبر) ، العظيم ، الى مهمة التقدم والبناء ، هى ان نقيم فى بلادنا الدولة العصرية والمجتمع الحديث ، حتى يستطيع شعبنا ان يحقق من خلالهما ذاته ، وينمى طاقاته الخلاقة .. ولا يجوز لنا ان نتهيب لحظة واحدة ، هذه المرحلة التى لامفر منها الى المستقبل العريض .. وكما ان الانسان المصرى ، هو فى النهاية هدف هذا التقدم ، وهو البداية وسيلة هذا التقدم ، فان هذا الانسان المصرى نفسه ، هو الضمان لأن ننطلق الى هذه المرحلة آخذين باحدث معطيات

العصر فى شتى المجالات ، دون ماخشية من ان نفقد خلال هذه الرحلة هويتنا ، او ننقطع عن اصالتنا ، او ننسى الفضائل التى كان هذا الشعب ، دائما ، يعتز بها ويمجدها .. فهذا الشعب ، كما اقول دائما ، يحمــل فى اعماقه ، قيم حضارات عمرها سبعة آلاف سنة .. فكانت هــذه الحضارات تنهض به ، وتكبو ، تنطلق ، وتنقطع ، تتغير ، وتتجدد ، ولكن الشعب ، كان يعرف فى النهاية ، دائما ، كيف ، يخرج من هذه الامتحانات كلها محتفظا بخصائصه الاصلية ، وفطرته الصافية السليمة » .

ويطالب السادات ، بأن ينظر ، كل انسان الى تاريخه ، وحضارته ، الى تراثه ، وفكره ، الى سلفه ، والى مكونات أرضه الفكرية ، حتى يعرف (الأرضية) التى يقف عليها ، ومن خلال ذلك يمكنه أن يحــدد أهدافه وغاياته وآماله ومطامحه ، ويمكنه ، بالتالى ، أن يســير ، فى أمان وثقة وايمان : « لا بد من دراسة التــاريخ ، تاريخنا ، وتاريخهم ، لمعرفة واقع الشرق ، وواقع الغرب ، لدراسة قصة (المأساة) هنا وقصة (الحضارة) هناك ، حينئذ ، يمكن ، أن يبدأ البعث الجديد ، لا على أساس الكهانة والدجل ، وتفسيرات وهمية للدين ، بل على أسس علمية وتاريخية ، تجعل من حضارتنا شيئا محتوما » . ويقول ، أيضا : « عندنا تقاليد مبنية عبر آلاف السنين ، عندنا قبل كل شيء وفوق كل شيء رسالة الايمان ، تعلمنا أن لو أراد البشر كلهم أن يصــيبوا أى شيء بشيء لا يريــده لهم الله ما أصابوه أبدا . تعلمنا ، بتعلمنا رسالة الايمان ، أن أرضنا طيبة وطاهرة وتستحق منا أن نحبها ، ونقدسها ، ونتدافع عنها ، ونتفانى فيها .. تعلمنا ، أيضا ، أن العالم تجتاحه اليوم موجات تحت اسم العلم جرفت شعوب الى المادية الرهيبة التى أضاعت القيم وأضاعت الأخلاق ... لا نستطيع أن نعيش بدون قيم ولا أخلاق ، لأن الايمان فى ديننا » .

** وعندما ينادى السادات بالعلم ، فهو ، دائما ، يربطه بالايمان . فعلم ، بلا ايمان ، يفقد الانسان « الاتزان المعنوى » .. والعلم الذى يتحدث

عنه ، ليس هو العلم الذى يستمد منهجه من العلم الماركسى ، أو العلم الذى يؤدى منهجه الى لون من الاحتكارات الرأسمالية . بل هو العلم الحيادى النابع من الأراضى المصرية ، العلم الذى يستوعب كل مستحدثات العصر ، غربية كانت أم شرقية ، ثم يصب فى النهاية فى نهر فكرى وعلمى يتسم بالمصرية ويتميز بتقاليدنا وأفكارنا وقيمنا ، التى هى امتداد لحضارة عميقة عمرها سبعة آلاف سنة ...

وما ذكره كارل ماركس عن النظام الاقتصادى الذى يعقب الرأسمالية قليل جدا ، بل ويثير الدهشة ، وغير منطقى ، فلقد ركز ماركس كل الاهتمام على تأكيد ، أن مرحلة الرأسمالية فى التطور البشرى والحضارى ، هى مرحلة استغلالية من طبقة لأخرى ، وأن النتيجة الحتمية لهذا الاستغلال اندثار الرأسمالية بعد أن أدت دورها التاريخى فى تراكم رؤوس الأموال وتطوير الفن الانتاجى وأساليبه ، ومن ثمة تصل الى وضع من الجمود تعقبها ثورة اجتماعية تتولد عنها بالضرورة الاشتراكية فالشيوعية ، ويصر ماركس ، على أن التغير وايضاح طبيعة النظام الجديد الذى سيخلف الرأسمالية ، انما تحدده طبيعة ومنطق التطور الحتمى للتاريخ ، ونحن لا نقلل من دور ماركس العظيم فى نظرته للوجود وفى تحليله لعلاقة الفرد بالواقع ، وصياغته للمادية الجدلية والتاريخية والقائه الضوء على العديد من الظواهر الاقتصادية التى أغفلها الاقتصاديون الكلاسيكيون والمدرسيون . ان النظرية الاقتصادية التى توضح مرحلة الاستغلال فى الفكر الماركسى هى « نظرية القيمة ، وفائض القيمة » ، والتى تستند بدورها الى نظرية ريكاردو [1] ، وقد أدرك ريكاردو وجود ثلاثة عوامل للانتاج هى : العمل ، الأرض ، رأس المال ..

---

(١) دافيد ريكاردو ، كان له أعمق الأثر فى تفكير كارل ماركس ، فلقد اعتبر ريكاردو فى كتابه « أصول علم الاقتصاد السياسى والضرائب » ، ان المشكلة الاساسية فى علم الاقتصاد السياسى ، هى تحديد نسب ناتج الأرض وتوزيعها على الطبقات المختلفة فى شكل ريع وربح وأجور ، وكان ماركس حواريا مخلصا لتعاليم ريكاردو فى نظرية (فائض القيمة) ، والتى كان محتاجا اليها ، لاثبات وجود الاستغلال فى جوهر النظام الرأسمالى ، ليطيح القرصنة التى تقوم عليها الرأسمالية ويدمغها ..

ولكنه يعزو القيمة الى العمل وحده ، واستبعد كافة العناصر الأخرى ، بناء على افتراض خاطىء ، يقوم على أساس أن رأس المال انما يستخدم دائما بنفس النسب ، وعلى اعتبار أن أثمان السلع انما تتحدد على أساس الأرض الحدية ، والأرض الحدية لا ريع لها .. ونفس الخطأ ، وقع فيه ماركس ، ولكن أعتقد ، عن عمد ، فقد قبل (نظرية ريكاردو) ، وذهب أبعد منها أيضا ، فبينما يرى ريكاردو أن السلع تتبادل وفقا للعمل المبذول فى انتاجها ، اعتبر ماركس العمل ، وحده ، له القدرة على خلق القيمة .. بينما الظروف التى تسود الانتاج هى الظروف الطبيعية ، وأن العمل تسانده الآلات الحديثة . . وفى النظام الرأسمالى ، ينظر الى الفرد على أساس أنه (ماكينة) لكنه ماكينة تختلف عن الآلة الحديثة ، لذلك تهتم الرأسمالية الاحتكارية بالميكنة الالكترونية لأنها توفر فائض قيمة بشكل غير عادى ، وعلى هذا تغير الثورة الصناعية الثالثة ، مفهومات ماركس عن العمل والقيمة وفائض القيمة ، بل وكذلك نظرة لينين ، فالرأسمالية الاحتكارية ، اليوم ، لا تريد أن تستغل العمال بقدر ما تريد تصدير رؤوس الأموال والوصول بالانتاج الى مراحل التراكم الكبرى ، فالمصنع الالكترونى لا يستوعب الا القليل من العمال ، والعدد الهائل من البروليتاريا ، أصبح لا لزوم له ، والمطالب التى كانت تطالب بها المركسية تجاوزتها ثورة الالكترون والكمبيوتر ، فلو أن ماركس شاهد مصنعا الكترونيا واحد لغير الكثير من آرائه وأفكاره ، وكذلك ، لفعل لينين .. لكننا لا نأخذ بالفكر الماركسى ، ولا بالفكر الاحتكارى للرأسمالية انما نستمد فلسفة عملنا ونظرتنا للاقتصاد من الفكر المصرى الحيادى ، الذى يسعى للاخذ بالالكترونات واستيعاب كل افرازات عصر الكمبيوتر من أجل توظيفها وتسخيرها فى خدمة الانسان المصرى والعربى ، بعيدا عن الاستغلال والاحتكار ، وبعيدا عن الغاء الملكية الفردية ، ومن خلال دولة المؤسسات ؛ تتحقق الرفاهية الاقتصادية للمجتمع فى سعيه لتثبيت دعائم دولة العلم والايمان ، التى تمنح الفرد الرخاء المادى والاجتماعى لكنها تحتفظ بتوازنه الروحى والنفسى ، فلا يصبح الفرد ترسا فى عجلة

الدولة الكبرى كما هو الحال فى المجتمعات الشيوعية ، ولا يتحول الانسان الى مستغل مقهور كما هو الحال فى الاحتكارات الرأسمالية .. ومشكلة المجتمع الغربى ، وجوهر أزمته الحقيقى ، تكمن فى تلك الهوة السحيقة بين ما يتحقق من تطورات مادية واجتماعية تكفل الرخاء والرفاهية وفقدان الايمان الروحى والنفسى والحسى والعاطفى نتيجة سيطرة « حضارة الاوتوميشان » !

ويقول السادات : « ان كل ما بنيناه معرض للدمار ، ان لم نقف ونبنى دولتنا الجديدة البناء الصحيح : والبناء الصحيح ، كما قلت لكم ، لا يكون الا على العلم والايمان ، بالعلم لن تتخلف أبدا عن كل ما فى العصر من مستحدثات ، ولن نعيش أبدا متخلفين ،بل علينا أن نعود الى حضارتنا ، والى ما بيناه عبر تاريخنا ، وأخذ منه غيرنا ، وبنى عليه ، أما بالايمان ، فسنكون ، دائما ، قوة صلبة ، منيعة ، لا يستطيع أن يتعرض لها أى عاد أو غاز أو مستعمر أو معتد ، الايمان بالله سبحانه وتعالى ، والايمان بأرضنا وترابنا ، بكل شىء فى بلدنا ، الايمان بتاريخنا ، الايمان بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، الايمان الذى لا يتزعزع فى أننا بعون الله وبارادة الله ، سنجعل من هذا الوطن عائلة واحدة .. » ...

** ويؤكد السادات ، دائما ، على النظرة الدينية والايمان الروحى وايمانه بالفكر الاسلامى كزاد وتراث له اهميته الكبرى فى تطوير الأمة العربية ، ودائما ، يستشهد بتعاليم المفكرين الاسلاميين ، وهو معجب كل الاعجاب بعدالة عمر بن الخطاب ، ودائما يردد مواقفه الانسانية ، ويثنى على فكره وعبقريته وسلوكه وارتباطه بالناس ومشاكلهم ، فهو نعم الزعيم والقائد العادل ، ويقول السادات عن عمر بن الخطاب : « انه بلا شك من أعظم الساسة المفكرين الاسلاميين ، وقد عرفته وأنا أقرأ فى ظروف كانت نفسى فيها منهوكة خائرة ، فما راعتنى الا قوة هذا الرجل الرائعة ، فى مختلف الاتجاهات .. كانت نفسه قوة وكانت روحه قوة ، وكان خلقه قوة ،

ولكن لم تكن كل هذه القوى من ذلك النوع الذى يتضارب فينتج الخير مره والشر مره أخرى . وانما كانت قوى منسجمه متوافقة ، جعلت من حياة هذا الرجل وتصرفاته أسطورة خالدة فيها العدل وفيها الصبر وفيها الايمان القــوى المطلق نحو فيلته فى الجاهلية ، ثم تحول هذا الايمان بعد الجاهلية الى الله والى الدين . والى كل ما هو كريم وشريف على ظهر هذه الارض . لقد كان هذا الرجل يسيطر على نفسه دائما ويبدا بها .. ففى المجاعه ، جاع ، وهو أمير الناس بأشق مما جاعوا ، وفى أهله أقام الحد على ابنه بنفسه حينما أخطأ كأقسى ما تقام الحدود ، ثم بكاه بعد أن مات من قسوة هذا الحد بكاء أب كريم حبيب ، يعرف حلاوة الأبوة ، ويعرف ، أيضا ، واجبه أمام الله ، وأمام الناس الذين ولاه الله أمرهم ، ليسلك بهم أسلم الطرق ، ما حاد ، أبدا عن الطريق المستقيم » .

ومن منطلق تمسكه بالدين ودراسته لمختلف العقائد الدينية ، كانت فكرته المبكرة حول « الجامعة الاسلامية » ، و « المؤتمر الاسلامى » . . ومنذ منتصف الخمسينات ، أخذ يكتب ، ويدعو الى الجامعة الاسلامية ، وشغل لفترة طويلة رئاسة « المؤتمر الاسلامى » ، وتحرك بين مختلف الدول الاسلامية فى أفريقيا وآسيا ، داعيا الى تعميق الفكر الاسلامى ، والارتباط بالجامعة الاسلامية ، عن طريق المؤتمر الاسلامى ، الذى تحددت أهدافه ومطالبه كمنطلق طبيعى للثورة العربية فى تطورها ، وفى نضالها من أجل مزيد من الوحدة بين القوميات الساعية الى تأكيد استقلالها الوطنى وتقدم مجتمعاتها نحو الأكمل والأفضل ... وهذا ما جعله يدرس الاسلام وأفكاره دراسة مستفيضة ، كما درس العقائد والأديان ، ليعرف الشــعوب عن قرب .. قرأ عن الهندوسية ، والبوذية ، والجانتية ، والكونفوشــية ، والشنتو ، والداوية ، والزرداشتية ، واليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .. فالدين ، كمــا يؤكد السادات ، هو الركيزة التى تجعلنــا نؤمن بأهدافنا العظيمة : « الدين يدعونا لكى نعرف حق أوطاننا التى وهبنا الله ، اياها ، فمن يفرط فى حق وطنه بالدعوة الى التفرقة أو بالدعوة الى الخصومة أو

باثارة الأحقاد أو بالتخلف عن ركب الوطن ، لشهوة الدنيا والمناصب ، كافر بالوطن ، وكافر بالدين » ، ويقول ، أيضا : « اننا فى حاجة لأن نرتفع بآفاق تفكيرنا فوق ما فرضناه على أنفسنا من قيود ، هى من صنعنا ، وهى مصدر بلائنا وشقوتنا .. وسنظل نجهل هذا الموكب ونخشاه الى اليوم الذى نرفع فيه بادراكنا الغطاء عن أبصارنا ، لنرى الله فى الحق ، ولنرى الله فى القوة ، ولنرى الله فى الصبر ، ولنرى الله فى كل ما نعمل ، وما نقول ، وما نسر ، وما نعلن » .

ولا يعنى تمسك السادات بالدين ، واستشهاده به فى كل مناسبة ، أنه ينزع الى الاغراق فى اللاهوت ، أو الوقوف عند أمجاد الاسلام كنقطة نهاية ، أو الأخذ بالغيبيات ، فهو يقول : « أنا لا أعتقد فى الفأل ، ولا قراءة الكف ، ولا تحضير الأرواح ، فانى بحكم قراءتى فى الكتاب عن سورة يوسف وما ورد فيها عن الأحلام وتفسيرها ، فأنا أؤمن بها ، وخاصة عندما كنت شابا وفى أثناء تعليمى الثانوى وأيام الامتحان » ... وهو يرى ، أنه لابد من تمثل كل مقومات عقائدنا وتاريخنا ونضالنا وكفاحنا ونحن نتجه الى بناء (دولة العلم والايمان) :

« فبالعلم نواجه السلاح والسلام ، وبالايمان نقول بيقين لعدونا : نحن لا نخاف شيئا ، أبدا ، الآن ... كل شىء بيد الله سبحانه وتعالى ، ونحن نؤمن أننا فى دفاعنا عن عقيدتنا وأرضنا ومستقبلنا ومستقبل أجيالنا ، أن ننتصر أو نستشهد ، وفى كلا الحالتين منتصرون بعون الله .. يقتضينا هذا أن تكون نظرتنا الى العالم من خلال عقيدتنا نظرة جديدة . لا بد أن نربى الطفل والشاب الراشد على مبادىء وقيم أخشى أن تكون قد أهملت فى الفترة الماضية . لابد أن نعمل ، جميعا ، كل منا فى مكانه ، لنبنى المجتمع الاسلامى الجديد القائم على العلم والايمان .. لا نهمل العلم ، أبدا ، وعلينا فى نفس الوقت أن نرسخ من الايمان » ...

والسادات .. يرى ، أن ما فى داخلنا من تراث وماضى ، كفيلين ، بأن ،

يجعلانا نتحرك في ثقة ، وفي يقين ، لأن ما من أمة ملكت وسيطرت على مثل هذا الماضي أو هـذا التراث مثلنا .

انه يقول : « اذا كنا في مصر ، من الشعوب التي تعتز بتاريخها الطويل الفذ ، وبتميزه بعناصر الاستمرار التي صمدت عبر القرون والتقلبات ، واستوعبت كل الصدمات ، محتفظة بجوهرها الأصيل ، وصفاتها الحضارية الراسـخة ، فنحن أولى أن تكون نظرتنـا الى تاريخنـا هي نظرة تقييم الايجابيات والسلبيات ، نظرة البناء لا الهدم ، والبدء من أرضية المكاسب السابقة التي حققها النضال الوطني للانطلاق الى آفاق جديدة » .

ويقول ، أيضا في هذا الصدد :

« لقد كان الوادي من حولكم وقربكم ساحة للتاريخ . كان الانسان المصري ، منذ أقدم العصور بناء للحضارة ، بفكره وبيده ، وليست الآثار البارزة الباقية على أرض صعيد مصر مجرد أحجار صماء ، ولكنها شواهد فكر خارق ، وشواهد عمل متقدم ، وشواهد علم دقيق ، كل ذلك يتوجه ايمان عميق بالدين وبالخلود ... ولنا أن نقول ، اليوم ، أن خلود الحضارة المصرية ، وخلود التاريخ المصري كان ايمانا راسخا آثار الفكر واستيقظ العلم ، وقدس العلم وليس أي شيء آخر .. ولقد كان الفكر المصري غذاء أساسيا للحضارة الاغريقية ، وينتقي معالم الحضارة بفكره ويده ، وليست سبق غيره بكثير الى مجالات متعددة في الهندسة والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم... ولم تكن الخضرة التي تكسو وادي النيل بالخصب ، لم تكن هذه الخضرة مجرد قطرات ماء جاء بها نهرها فحسب ، ولكنها ، قبل ذلك وبعده ، كانت قطرات عرق فاض به عمل الانسان » .

والسادات .. يرى ، أن التحدي الحقيقي المطروح أمام الشعوب العريقة التي تواجه مشكلة التقدم الحضاري ، هو ، بالدقة ، كيف تجدد حضارتها ، فلا تلفظ الماضي ، ولا ترفض الحديث ، باسم الماضي ، وانما تأخذ بأسباب التجديد ، دون أن تفقد الأصالة : « ان الدولة الحديثة ، والمجتمع المصري

ليسا في مظاهرهما فحسب ، ولا يتحقق بناؤهما بمجرد اقتناء أحدث السلع والمنتجات . ان العصرية ، هي أن نعرف أولا الترتيب السليم لأولياتنا في ما يلزمنا من هذه الأدوات قبل غيره .. ثم هي في أن نوجد المؤسسات ، والنظم ، والعلاقات ، التي تحول هذه الأدوات في الأيدي العربية من أدوات صماء مستهلكة الى أدوات خلاقة منتجة ، ثم هي بعد ذلك ، أن نخلق البيئة المناسبة ، ودرجة التطور اللازمة التي تجعلنا قادرين على الابتكار والابداع ، وبالتالي ، على المساهمة الحقة في الحضارة الانسانية » .

** ومعظم من التقوا بالسادات ، من مفكرين وكتاب ، يرون .. أنه يختلف عن أي زعيم وقائد في قرننا الحالي ، فهو متواضع ، ميال للهدوء ، يتسم بالحكمة ، لا يميل للعاطفة أو الانفعال في آرائه ، ودائما ينزع الى ما يرتبط بمستقبل بلاده . ومفهوم (الزعامة) لدى السادات ، له فهمه ، الخاص ، فهو يقول : « الزعامة .. ؟ ترى على أي أساس تقوم ، وكيف تقوم أصلا ؟ عدلي وصدقي وعبد الهادي والنقراشي وعباس حليم ، أيضا ، الذين كانوا ذات يوم يتزعمون العمال ، وقد يعترض أحدهم ، فيقول ان هؤلاء ليسوا زعماء ، بل كانوا رجالا من الطارئين على السياسة المصرية ، ما لبثوا أن جرفهم طوفان الشعب ، أي ثورته ، وأنا لا أوافق على هذا الرأي فيهم ـ فهؤلاء السادة ـ قد لعبوا دورا خطيرا في تاريخ ثورة الشعب المصري ، ولا يعنينا هنا قيمة تلك الأدوار وأثرها على مستقبل الشعب... فنيرون ، مثلا ، لعب دورا في تاريخ الشعب الروماني ، وكانت همجيته سببا في يقظة رائعة عصفت بالامبراطورية الرومانية التي قامت على البطش ، والقياس هنا مع الفارق طبعا .. وأعود الى موضوعنا ، فأقول ، ان الزعامة السياسية ، هي باختصار مصالح طبيعية معينة ، تبلورت وتجمعت .. فألفت ـ تلك الطبيعة ـ مسئولية حماية تلك المصالح أو تحقيقها ، ان لم تكن موجودة على كاهل شخص ينتمي الى هذه الطبقة ، ويشترط في هذا الشخص أن يكون كفاحه في سبيل معتقدات طبيعية ، طبقية ، أهدافها تسير الى غاية هذه الطبقة المذكورة ، وينادونه زعيما

ليقودهم فى الطريق .. هذا هو التعريف العلمى للسياسة ، وللزعامة ، فى فى العصر الحديث » .. ويشترط السادات ، فى الزعيم ، أو يرى من صفاته البساطة والاقتراب من الجماهير وأهـدافهم ومصالحهم ، وقد أشار الى مفهوم (الزعيم) ، فى اكثر من مقال كتبه ، وفى اكثر من حوار ...

وفى الحقيقة أن السادات ، كزعيم ، أو كقـائد .. يختلف ، عن كل الزعماء الذين شهدهم قرننا الحالى ، فهـو يتحلى بالبساطة ، والاتزان ، والحكمة ، وعدم الانفعال أو الاستجابة المبنية على العاطفة ، بل ينطلق فى كل سلوكه من موقع الانسان المصرى فى أنبل قيمه وصفاته وسماته .

فى كتابه « صف طويل من الشـموع » ، يقول الكاتب الشـهير س . سالزبرجر :

« ان مفهوم الزعامـة ، لا بد أن يرتبط بهدف أمـة أو جماعة ، تنشد الوصـول الى أهداف ، بذاتها ، وهـذا الرجل ، لابد وأن يلتف حوله الجماهير ، لانهم يحسون أنه يعبر عن آمالهم التى ينشدونها ... » . وهو يقول ، رغم تقديس الماركسية والاتجاهات العـامة لحركة الواقع ، فان الافراد ، الزعمـاء ، الذين هم نتاج المجتمـع فى تطوره ، بما أوتوا من عبقريات فردية ، يلعبون دورهم القيادى والجوهرى فى تغيير دفة سـير التاريخ ، ويشاركون فى صناعة التاريخ بارادتهم : « والزعيم العملاق ، هو الذى يصنع التاريخ ، ويغير دفته الى ما يريد ، أو ما تريد المرحـلة .. لكن الزعيم المقهور ، أو الذى يصاب بعقدة الفردية كبونابرت أو هتلر ، يقهره التاريخ ، ويعصف به ، ويصيب أمته بالخزى والعار » . وقد قدر لسالزبرجر ، الذى اشتغل فترة طويلة فى صحيفة النيويورك تايمز ، أن يلتقى بالعديد من الزعماء ويتحدث اليهم ، كما التقى بالسادات واعجب به ، وكان كتابه « صف طويل من الشموع » ، جماعا لكل من التقى بهم من الزعماء فى الشرق والغرب .. ولكل زعيم من الزعماء مميزاته .. ولكل قائد سماته الخاصة ... ولا يمكن على حد تعبير سالزبرجر أن تكون هناك قسمات خاصة للـ (زعيم)

فبونابرت ، مثلا الذى بدأ كزعيم وطنى مخلص لبلده فى بدايات الثورة الفرنسية ، انقلب الى فردى من الطراز الاول ، وكان جل همه أن يحقق ذاته البونابرتية التى أصبحت فى عرف علماء النفس والاجتماع تعرف بـ « عقدة البونابرتية » ، اذ نصب نفسه أمبراطورا على أوربا ، وأخذ يدفع بلاده الى أتون حرب لا طائل لها ، للاستحواذ على أكبر أراضى فى العالم ، لتلمع امبراطوريته ، فكان أن قهره التاريخ .

وكذلك هتلر ، الذى نادى بالقومية الوطنية الالمانية ، لكنه تحول الى ديكتاتور نازى من الطراز الأول ، وباسم القومية ، وباسم الوطنية ، أساء كثيرا الى ألمانيا ، وجر عليها ، بل وعلى العالم كل الويلات التى لازالت أذيالها حتى الان !

ويذكر سالزبرجر ، لقاء له مع الزعيم التركى (كمال أتاتورك) ، عندما التقى به فى صيف عام ١٩٣٩ : « كان الزعيم التركى على فراش الموت ، وكنت أتحدث مع زملائى ومع الأطباء فى ركن قصى من الغرفة ، بينما سأل أتاتورك الطبيب : هل انت خائف من مواجهتى بالحقيقة ؟ فقال الطبيب : ابدا . لكن أتاتورك ، عاد يقول : تعتقد أننى أتناول الخمر كثيرا .. حسنا لن ألمس نقطة من الخمر بعد الآن .. والى الأبد ... وكان من الصعب علينا ، بل وعلى الاطباء ان نقول له : انت تشرب زجاجتين من الكحول ، هل من الممكن أن تخفف وتشرب زجاجة واحدة فى اليوم ! ان الشىء الوحيد الذى أدى الى نجاح أتاتورك كزعيم ، هو ، الارادة ، كانت ارادته قوية ، ولا يقبل أنصاف الحلول ، فاما أن يتناول الخمر أو لا يتناولها ، فالتردد لا يؤدى ، ابدا الى موقف » . بينما زعيم ، اخر ، مثل ، ونستون تشرشل ، كما يقول سالزبرجر ، « كان يميزه كزعيم عاداته التى التزم بها التزاما غير عادى . كان يتمسك بكل عاداته ، بكلامه ، باقواله ، بسيجارته فى فمه ، بحمامه ، بتناوله الويسكى بعد العشاء ، وعندما قابلته ، كنت احس بقوته ، كان حتى فى شيخوخته كالأسد ، واعتقد ان الاسد البريطانى ، فعلا ، هو

ذلك الرجل ، كان يتحدث عن التسليح الاوربى بقوة ، وقال ان رأيه لم يتغير ، وان كل دولة اوربية لابد أن تسلح نفسها ، ثم بعد ذلك تشترك فى (جيش أوربى) ، وان على بريطانيا وألمانيا وأمريكا ، ان تشترك فى هذا الجيش الذى يصبح تحت قيادة ايزنهاور . وأكد لى تشرشل ان حزب العمال يقوم بـ (سابوتاج) ضد الوحدة الاوربية ، وقال : طبعا انك تعلم كم هو شعورى حول الحاجة الى وجود وحدة اوربية ؟ ثم قال : طبعا الجيش الأوربى ضرورة ماسة ، اذ أن الولايات المتحدة ستسحب قواتها فى يوم من الأيام من أوربا ، وذلك عنـدما تكون أوربا من القوة بحيث تستطيع الوقوف على قدميها ، أما ما يميز زعيمـا مثل (ديجول) ، فهو الصدق مع نفسه ، ومن خلال هذا الصدق ، كان صادقا مع دولته ومع العالم . أما تيتو ، فكان قويا ، جريئا ، لا يهتز بسرعة ، وكانت الديمقراطية سلاحه ، ويقول سالزبرجر « عندما سألت تيتو عن السبب فى عدم انضمام يوغوسلافيا الى الحلف الاطلنطى ، فأجاب ببساطة : « أنا ألبى رغبـة بلادى ، كل أفكار فرد فى الشـارع أترجمها ، وأنا أتحرك داخـل وخارج يوغوسلافيا ، وبلادى لا تريد الانضمام الى الاطلنطى .. ! » ثم قال ، « ان على الامم المتحدة ان تقبل الصين الشعبية عضوا فيها ، وسيأتى ذلك اليوم ربما بعد خمس سنوات ، ربما بعد عشرة ، لكنه سيحدث .. » . وتحدث تيتو ، أيضا ، عن خصمه فلادو دجيلاس ، الذى كان يناوئه السلطة ، فقال انه لا يزال يمارس حقوقه فى البرلمان .. وانسحاب دجيلاس من الحزب ومعاداته لسياستنا معناه الغاء الديمقراطية فى يوغسلافيا .. ولو أن دجيلاس كان فى بلد آخر لاختفى خلال ٢٤ ساعة » . ونفس الكلام تقريبا ، أو مشابها له ، أحسه أنور السادات ، عند زيارته للبانديت نهرو فى منتصف الخمسينات ، احس :أنه يعامل خصومه معاملة الند للند ، بل يحاورهم ، ويتحدث اليهم فى ود شديد ، ودهش السادات ، حتى أنه لم يستطع أن يصمت ، واحس نهرو بذلك ، فقال للسادات : أو تعرف ... ان هذا يبدو قوة للهند ، ما اسهل ان تضرب الخصوم ، لابد ان يستمروا ، والشعب قادر

على قبول ما يريد ورفض ما يريد ... ومن خلال هذا الحدث ، أحس السادات بالديمقراطية التى تميز بها نهرو ، حتى مع خصومه ، وأحس أن هــذه الديمقراطية « هى خبز الأمة والقائد ، وبدونهــا ، تنهـار الأحلام والآمال ...

وقد رأت مجلة « النيوزويك » ، أن الصفات الأساسية والقسمات الجوهرية التى تميز السادات كزعيم ، وكبطل لمصر وللعرب ، وكشخصية سياسية أصبحت تفرض ارادتها على الوضع الدولى ، أن هذه الصفات تتجلى ، أساسا ، فى : البســاطة ، القوة والارادة ، الحكمــة والاتزان ، الايمان الشديد بالهدف ، فى تفهم عملى للظروف المحلية والدولية ... وقد أكد السادات ما يريده ، فى حديث له مع مراسل النيوزويك فى ٢٨ فبراير ١٩٧٢ ، أى قبل قيام حرب اكتوبر بحوالى عام ، فقال بالحرف الواحد : « انكم تريدون أن تضعونا فى حالة يأس ولكنكم لن تنجحوا فى ذلك .. ان فيتنــام الشمالية ، ليست فى حالة يأس رغم ذلك الانتقــام الرهيب والخسائر التى توقعها بها أمريكا . أن اسرائيل ستدفع الثمن غاليا ، وتذكروا كلماتى هذه ، فان هناك مفاجأة كبرى تنتظرهم ! » ..

ويرى السادات .. أن القائد ، أو الزعيم الحق ، هو الرجل الذى لا يغير رأيه أو مبادئه ، ولكن هذا الثبات ليس معناه الجمود ..

وفى تقديرى أن هناك سمات أساسية تميز السادات كزعيم وكقائد :

* أولا : البساطة والاصالة والتلقائية . فهو لازال يحمل (القرية) داخله ، باصالتها وبساطتها ، وقيمها ، مهما كبر وكبر ، لأنه يحس أن هذه القرية هى أساس كبره ، فكريا ، وبطوليا ، وكزعيم تلتف حوله الجماهير ، ويسير بها الى الأكمل والأفضل والأسمى ..

* ثانيا : الارادة ، ووضوح الهدف ، واتساق الفكر وعدم تناقضه . فليس هناك ثمة تناقض بين داخله والمكازه العقيدية وبين السلوك العملى

فى الممارسة . وهو لا يقهر ، وارادته ، مثل ارادة مصر والعرب ، وفكره يتميز بالموضوعية والعلمية ، لذلك يبدو متسقا غير متناقض ، وانما يتسم بخط متميز متفرد ..

* ثالثا : الروح الثورية التى يتحلى بها ، والايمان العميق ، بالمبدأ وبكل تحرك .. والروح الثورية اكتسبها نتيجة تكوينه البيئى ، الى جانب خبراته كمناضل وثورى لسنوات طويلة الى جانب ثقافته واتساع فكره كمنظر ثورى ومناضل من الطراز الأول .. وهذه الثورية يعمقها الايمان .

* رابعا : الاستراتيجية الواضحة ، اساس لكل تحرك .. فهو يسير وفقا لعقيدة واضحة ، تفرز تكتيكاتها وبرامجها المختلفة على المستويات المحلية والقومية والعالمية .

* خامسا : الحكمة ، والاتزان ، والجـدية ، والديمقراطية فى كل تصرف ومسلك ، وهـذا جاء نتيجة خبرته كسياسى لديه رسالة نبيلة ، لا كمزايدة باسم السياسة ، كما نرى بالنسبة لكثير من « القيادات » ... وهو زاهد ، لا يطمع فى شىء الا مصلحة وطنه ، ودائما يتحرك من منطلق الأولوية ثم الأقل أولوية ، ومصلحة الأرض والوطن فوق كل شىء ، وقد ترجم هذا الاحساس نفسه على مختلف المواقف التى برزت ابان حركة التصحيح ، ثم فى فترات الاستنزاف والاعداد للعبور ، ثم اثناء العبور نفسه ، عندما كان القائد بين أبنائه المقاتلين ، أبا ، وأخا كبيرا ، ومواطنا عظيما ، وهذا جعله يقترب من قلوب الملايين أكثر .. ثم سعيه الى معرفة كل شىء عن قرب ، وبنفسه ، لحل مشكلات الجماهير على اختلاف مستوياتها ، ومحاولاته الاصيلة فى اعطاء المناخ الملائم للمواطن ، ليتحرك فيه فى أمان واستقرار ، لتبدو لديه القدرات اكبر على العطاء والبذل ...

** والسادات .. يرى ان الديمقراطية ، شرط اساسى ، لتوفـير المناخ الملائم للمواطن ، ليكفل للمواطن الاستقرار والامان ، فليست هناك

ديمقراطيــة اجتماعية بدون ديمقراطية ســياسية ، والعكس صحيح ...
والسلطة السياسية ، كما يرى السادات ، فى مجموعها ، يتعين أن تؤمم ، أى تكون للامة بأسرها ولا ينبغى ان تؤول الى يد طبقة معينة ، فديمقراطية الطبقة ، لا توفر الحرية السياسية الا لطبقة بذاتها .. مثــلا ديكتاتورية البروليتاريا ، التى تمثل مصالح البروليتاريا ، لا توفر الامان الا لمصلحة الطبقة والحزب الشــيوعى والذى باســمه تمارس الديكتاتورية ، كذلك النظام الفاشى لا يوفر الديمقراطية الا لطبقة بذاتها وللحزب الحاكم ، وكذلك الحال فى المجتمعات الرأسمالية الاحتكارية ، الحرية السياسية غير موجودة ولا يحس بالأمان الا أصــحاب « التروســتات » و « الاحتــكارات » و « الكارتيلات » العالمية ، أما بقية الجماهير فمقهورة يطحنها الاستغلال والمعاناة ، والسادات يؤكد « أن الحرية السياسية ، بلا حرية اجتماعية ، وهم أجوف ، ولا تتحقق » ، لذلك جعل سيادة القانون أساس التعامل فى المجتمع ، وجعل دولة المؤسسات هى الأساس الجوهرى فى طابع النظام ، وعــدل من وضــع الاتحاد الاشــتراكى بما يوفر الحريات الســياسية والديمقراطية ويكفل المناخ الملائم فى حركة المجتمع الى الأفضل ، وأعطى للصحافة حريتها ، وأطلق الحريات السياسية ، وأغلق المعتقلات السياسية ، وضرب على أيدى كل مراكز القوى ، وكل ما من شــأنه أن يعوق حرية المواطن فى التعبير عن ارادته بحرية كاملة ، ومن خلال مختلف الوسائل التعبيرية المشروعة ... وهو يستشهد ، بكل ما حدث ، ويصرح به فى فخر للصحفيين الأجانب ، وللعالم أجمع ، فيقول : « ان معسكرات الاعتقال ، فى مصر ، أصبحت خالية ، ولم يعد المصريون ، يخشون من الاعتقالات التعسفية أو الرقابة الصارمة على الحياة الشخصية للأفراد » .. ولاول مرة ، بدأ الناس « يتحدثون » ، و « يتكلمون » ، و « يكتبون » فى حرية وبلا مخاوف .. فبعد أن كان (المواطن) ، لا يطمئن على غده فى الخمســينات والستينات ، أصبحت تشترى (الصحيفة) فى الصباح ، فتجد الخلافات على أشدها بين اليمين واليسار ، وتجد من ينقد وزيرا فى تصرفاته ، ومن

يهاجم مؤسسة من المؤسسات ، بل ويطالب بالغاء قانون كذا ، ويصر على تعديل في المادة رقم كذا ، بل ويطالب بمحاكمة المسئولين عن حادث ما .. وبدأ الناس يقولون : (لا) ، و : (نعم) ، بعد أن كانوا يقولون : (نعم) في اضطرار ، حتى لا تحبس أيامهم ، ويشرد عمرهم وراء الشمس ، كما كان يحدث !

** والسادات لا يؤمن بسياسة (الحزب الواحد) ، كما لا يؤمن بوجود الأحزاب ، وتعددها ، على الاقل في هذه المرحلة ، التي تتطلب مزيدا من التجميع لكل الجهود ، والعمل من خلال المؤسسات الدستورية ، ومن خلال قوى تحالف الشعب ، الذى يمثل ارادة الأمة في سعيها لتحقيق أهداف المرحلة الراهنة في الحرية ، والديمقراطية ، والانتقال الى خطوات أوسع نحو مجتمع الوفرة ، من خلال تثبيت دعائم دولة العلم والايمان ، وهو يرى :

« ان نظام الحزب الواحد يجعل من الشعب آلة صماء .. ونحن لا نريد لشعبنا ان يكون آلة صماء . نحن نريد لشعبنا ان يشترك في تدبير امر نفسه ، ان يتحمل مسئولية حكم نفسه ، ان يشترك مع حكامه في تسيير كل شيء يخصه ، ويخص ابناءه ويخص احفاده ويخص الأجيال المقبلة » .

وعن تعدد الأحزاب ، في هذه المرحلة ، أو الأخذ بها ، يقول السادات :

« انا لا اعتقد في نظام تعدد الأحزاب ، أو في نظام الحزب الواحد ، في هذه المرحلة من بناء بلادنا ، فقد عرفنا نظام تعدد الأحزاب من قبل ، واثبت فشله الذريع . وعندما نفرغ من وضع اسس مجتمعنا الجديد ، قد نكون اكثر قدرة حينئذ على ان نتحمل نظام تعدد الأحزاب ، ولكنني لا اعتقد في ملاءمة هذا النظام لنا في الوقت الحالي » (١) .

---

(١) جاء هذا الكلام في حديث السادات الذى صرح به لمجلة (التايم) الامريكية ، ونشر بتاريخ ١٣ مايو ١٩٧٤ .

والسادات ، يؤكد ، أن (الديمقراطيــة) ليست شـعارات جوفاء ، أو استهلاك محلى ، وانما هى فى المحك الأساسى لحركة الواقع ، ومن خلال الممارسة العملية لحركة الجماهير :

« نحن نعلم ، ان الديمقراطية ، ليست مجرد نصوص، ولكنها ممارسة عملية ، ويومية ، والديمقراطية لا تمارس فى فراغ ، بل لابد من اطارات تحدد من خلالها الاتجاهات التى تخص امور الوطن السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. ولقـد ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب العـامل اطارا لحيـاته السياسية ، واننا فى معركة البناء والتقـدم لاحوج ما نكون لهذا المجتمع » .

والممارســة الديمقراطية فى رأى الســادات ، لا تعنى ، الفوضى ، أو الخروج عن الخط الأساسى للدولة ، فلا يمكن أن يسير (اليسار) بأفكاره ، فالديمقراطية تنبع أساسا من متطلبات الجماهير الملحة ومن خلال حركتها الى ما يصيغ حياتها الى الأفضل من خلال قوى التحالف الوطنى ومن خلال دولة المؤسسات ، ومن خلال سيادة القانون ومن خلال المبادىء الأساسية لثورة ١٥ مايو ١٩٧١ : « تختلف فى مجتمع الديمقراطية ، قد تختلف داخل الهيكل الأساسى ، لكن ليس معنى ذلك ، أن يكون هذا الخلاف تعريضا بالمبادىء الأساسية والخط الجوهرى للدولة » ، فهذا الخلاف ، ليس صراعا على الأفكار ، بقدر ما هو معول للهدم ، والخروج عن فكر مصر الوطنى الأصيل .. والسادات يرى ، أن الديمقراطية ، لابد أن تتحقق من داخل الهيكل الأساسى للواقع ، أى من خلال المؤسسات وقوى التحالف الوطنى ، والخلاف فى الرأ ىأو العقيدة ، لا يعنى خروجا عن مبادىء ثورة التصحيح ، فهذا الخروج عودة الى أوضاع تقضى على الديمقراطية ، وعودة الى اللاأمان والى اللا استقرار ، والى مراكز القوى التى تقضى على الحريات السياسية والديمقراطية ..

ويقول السادات : « الديمقراطية لكم ، هى تحقيق مصالحكم لا مصالح الأقلية . الديمقراطية ، هى انتزاع الحقوق المسلوبة ، واسترداد الأرض من غاصبها ! الديمقراطية ، هى التخلص من القيود ، تلك التى كانت فى رقابنا ، وحول أذرعنا ، وعقولنا ، أيضا ! الديمقراطية ، هى استقلال الوطن ، وسيادة الأمة ، والمساواة ، والعدل ، هى تقرير المصير .. » وهو يقول ، مؤكدا ، على معانى الديمقراطية الحقة : لا ديكتاتورية ، ولا حكم فرد ، ولا سيطرة لطبقة على طبقات ، ولا مصلحة الا مصلحة الشعب ان الخطوات التى تمت خلال أعوام الانتقال ، لم تكن لتشهد على الاطلاق الا لشىء واحد ، هو الدستور الذى يجعل الديمقراطية مصونة من كل سوء ! والا فما معنى أن تتم هذه الخطوات الجبارة نحو التقدم والتحرر ؟! » ..

❊❊ وبرغم أن « ثورة التصحيح » ، كان لابد أن تقترن بما يحدث ومع كل خطوة ، لازالة السدود والقيود فى الواقع المصرى ، ونحن لا نزال ومع كل خطوة ، لازالة السدود والقيود فى الواقع المصرى ، كما يقول السادات .. ومن خلال تيارات ومناقشات وحواريات ، ونحن لا نزال فى ظروف صعبة الا أن هذا لم يعرض البلاد لأى خطر ، ويؤكد : « كنت واثقا من ايجابيات هذا الوضع ، أكثر من محاذيره ، وأن الوحدة العميقة لهذا الشعب ، خصوصا فى ساعات الخطر ، سوف تصمد ، بل سوف تزيد هذه التجربة مناعة وقوة » . ويضيف : « تعلمت ، اننا ، حين نحمل العبء ، نحمله معا ، وحين نحمل العبء معا ، فان الصعب يهون ، ذلك لأن المشاركة الشعبية فى كل القضايا لا توفر الضمانات والمسئولية فحسب ، وانما تضىء الطريق ، فيعرف كل منا الى أين يسير » .. ولربما كان من أخطر الأوضاع التى واجهتنا تلك الظروف التى استمرت منذ مايو ١٩٧١ حتى أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى ظروف جد ، صعبة ، ومريرة : « ذلك لأنه ، خـــلال تلك السنوات ، كانت المعركة على أشدها ، وكان التناقض بين الاشـــتراكية والحرية ، والذى افتعله أعداء الحرية والاشتراكية على حد سواء واضحا

أيضا . ان مراكز القوة التى لا يمكن لها أن تظهر أو تعيش ، بل لا بد وأن تختنق فى جو الحرية والديمقراطية وجماعية القيادة ، اتخذت من الاشتراكية دعوى حمايتها ، لتكميم الأفواه ، ولتسكت كل صاحب فكر ، ولتفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الشورى ، لكى تشق طريقها الى الانفراد والتحكم فى مصير البلاد بما يحقق أطماعها ونزواتها » . وخلال ، الأزمة ، وخلال المحن ، أعنى المحن ، كان السادات يناشد كل مواطن أن يتمسك بالايمان ، وبعمق هذا الشعب العظيم حضاريا وفكريا ، وأن يحاول أن ينظر الى داخله ، ليبدأ بنفسه فى هذه الظروف الصعبة : « ان شعبنا ، سوف يخرج من هذه الازمة ، سوف يخرج منتصرا ، وعزيزا ، سوف يخرج بعون الله ، قويا ، مرفوع الرأس ، واثقا من نفسه ، بمبادئه ، وراسخ الايمان اكثر واكثر ، يقيم نضاله وبأسلوب الكفاح العربى ، من أجل هذه القيم[1] » .. وفى مناشدته لكل فرد فى هذ الأمة ، أن يبدأ بنفسه ، نجده يقول ، فى صدق ، وعمق : « اننى أتمنى لو استطاع كل فرد منـا أن يخلو الى نفسه ، ليتحدث اليها ، حتى يكتشفها [2] ، وليخرج بنفسه الى الفراغ الغير محدود حتى يستطيع أن يحس برسالة الانسان ، فى هذه الأرض ، وهو الذى سخر له الله ما فى البر والبحر من الدواب ليتذكر الله بقلبه وعمله وفكره ولسانه » .

** وهو يرى ، أن النضال الوطنى لأى شعب من الشعوب ، يريد أن يواكب حركة التاريخ ، وتقوم مسيرته هو طريق بلا نهـاية ، عليه أهداف كبرى ، ولكن هذه الأهداف ، دائما متجددة ، متطورة ، باقية ما بقيت الحياة : « وشجعنى على هذا التفاؤل بخط مسيرتنا ايمانى المطلق ، بأن

---

(١) جاء هذا فى خطاب السادات التاريخى لمجلس الشعب فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ ، وهو يضيف الى كلماته هذه ، قوله السديد : « لقد سارت خطانا على جسر الانتقال ، خطوة بعد خطوة ، حتى جاء مؤتمركم بخير مما تصرفنا فى مواجهة هذه الظروف » .

(٢) وكأنه فى ذلك يردد كلمات سقراط : « اعرف نفسك بنفسك » ، التى لا تزال منسوخة على معبد دلفى باليونان حتى الآن ..

الوسائل جزء من الغايات ، وأننا لا نستطيع أن نتوسل الى أشرف الأهداف الا بأشرف الوسائل » ... حياتنا على هذه الأرض ، كما يؤكد : « محدودة بأجل معين ، والعجيب ، أننا نمضى دهرا طويلا من هذا الأجل فى التحسر على ما فات ، أو الخوف مما هو آت ، اننا نستطيع أن نجعل من كل أيامنا على هذه الأرض سعادة لا تنقضى .. ان فى نعمة الصحة سعادة .. وفى عاطفة الابوة والبنوة سعادة ، وفى حب الأهل والاصدقاء سعادة وفى الحياة الزوجية سعادة .. و فىالتأمل فى خلق السماوات والأرض فى خضرة الشجر ، كذلك ... وفى الأمل الذى لا يقهر سعادة ،.. وفى جمال الزهور وفى انسياب المياه ، وفى وقفة الجبل ، وفى طلوع الشمس ، وفى سحر القمر ، وفى صفاء الروح ، وفى استقامة الخلق ، سنعرف الله ... فنسعد الى الابد » .

والسادات يرى ...أنه اذا كان فى الامكان صياغة مفهوم متطور لادارة الدولة وانقاذها من وهدة الضياع والمتاهات البيروقراطية والتكنوقراطية ، والاستغلالية ، والتسلقية .. اذا استطعنا الوصول الى ذلك : « فلا يخالجنا شك ، فى اننا سنكون قادرين على مواجهة تحدى العصر ، خصوصا وان هناك ، مسئولية ذات طابع خاص ، وصارم ، سوف تواجهنا ، خاصة بعد انتهاء الحرب ، وهى مسئولية ما تركته الحرب من آثار ، خصوصا ، فى منطقة القناة » .

** والانفتاح الاقتصادى والسياسى والفكرى ، جزء من مميزات فكر وفلسفة السادات ، فهو يرى « ان الانفتاح الاقتصادى يزيد من أهمية التخطيط ، لأن خير وسيلة لاجتذاب المستثمر ، هى أن نعرض عليه مشروعات ، مدروسة ، مرتبطة بعضها بالبعض ، لأن نجاح أى (مشروع) ، على حدة يتوقف الى حد كبير على تقدم الاقتصاد فى مجموعة واطراد التنمية .. وكذلك ، لأن وفود رأس المال الى البلاد ، دون تخطيط لاستقباله يمكن أن يخل بتوازن الاقتصاد القومى ، ويحدث آثارا جانبية لا يستهان

بها ، مثل (التضخم) ، أو انتشار الاختناقات هنا وهناك . على أن هذا كله ، يحتاج الى تغيير وتطوير فى فلسفة التخطيط ، وفى أجهزته ، وفى مسئولياته يجعلها أكثر دقة ، وأكثر مرونة ، وأوسع مخيلة ... فهناك التخطيط للقطاع العام ، الذى هو (رأس الحربة) ، فى معركة التقدم والبناء ، لتحديد أهدافه واعادة رسم أولوياته . . وهناك التخطيط الذى يخـدم القطاع الخاص ، وهذا يكون ، عادة ، بوسائل أخرى ، تقوم على ايجاد الحوافز وتوفير الظروف التى تكفل اتجاهه بارادته الى المجالات التى تكون التنمية العامة أكثر حاجة اليها ، وهناك ، كما قلت ، التخطيط الذى يخدم الاستثمارات الوافدة ، باعداد الدراسات المسبقة ، وبتوفير حاجاته فى اطار الاقتصاد القومى فى مجمله » ...

** والسادات .. يؤكد على ضرورة (التخطيط العلمى) ، لخدمة كل قطاعات الاقتصاد فى المجتمع ، ولتغيير هيكل البنيان التحتى الى الافضل ، وبما يسمح للجماهير ، امكانية التنفس ، بل امكانية التحرك الى ما يخدم (مجتمع الوفرة) . فالتخطيط العلمى ، يخدمها ، باعداد الدراسات وبتحليل البيـانات ، وتوفير المعلومات ، وبوضـع خطط توفـير المهارات الفنية المطلوبة ، وبالتنبؤ بالظروف المرحلية القادمة للاستثمارات المختلفة وآثارها بوجه عام ، وربما كانت تجربة (المجالس القومية) المتخصصـة مرحلة ما فى هذا الصدد . لكن (التخطيط) الذى يرمى اليه السادات ليس هو التخطيط المبنى على التجريبيـة المنهجية ، بل التخطيط العلمى الذى يسـاير ثورة العالم الثالثة ، فى مجال الصـناعة ، أى ثورة التكنولوجيا والالكترون والكمبيوتر ـ هذه الثورة التى تمثل « مجتمع الأوتوميشان » فى أعلى مراحل تطوره ، مضمونا وتكنيكا ، لكنه يربط هذا بالايمان الروحى حتى لا يضيع الاتزان بين التقدم الآلى والايمان العقيدى بالقيم والأفكار التى تعطى لمصر خصائصها وقسماتها الأساسية ..

* وللسادات .. نظرته الخاصة للثورة . سواء الثورة فى مجال المجتمع الداخلى . أو الثورة المتعلقة بالتغيير الاجتماعى والفكرى ، أو الثورة كجزء

من ثورات الدول القومية التى استقلت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، واخذت تناضل من أجل حرياتها ونظمها المستقلة والتى تتسم بالحيادية .. وهو بادىء ذى بدء يسلم ، بأن (الثورة) كل تغير يجرى فى المجتمع على الأفكار والعقائد والعلاقات الانتاجية ، بمعنى أن الثورة تحدث التغيير فى البنيان الاقتصادى والاجتماعى عن طريق تغير العلاقات الانتاجية ، وفى نفس الوقت تحدث صداها فى البنيان الفكرى لصالح صناع الثورة .. فثورة التصحيح ، تغير فى بنية المجتمع المصرى ، بما يضمن الاستقرار المادى والاجتماعى للمواطن ، ليحصل على متطلباته الاستهلاكية والمادية ، ويتخطى (الأزمة) التى هى نتيجة مناخ فرضته الحرب المريرة فى مواجهة اسرائيل والامبريالية العالمية ، ثم يسعى الى بناء دولة (العلم والايمان) ، التى تحقق له مجتمع الوفرة والرفاهية .. وعلى الصعيد الفكرى ، تحقق ثورة التصحيح ، كافة منجزات الثورة الثقافية والفكرية ، بما يواكب المغيرات التى تحدث فى بنية المجتمع المصرى من خلال متغيرات ثورة التصحيح ومن خلال متغيرات العصر الذى نحياه ونعيشه ..

** والسادات .. يرى ، أن أهمية المسألة القومية تقوم ، على أساس ان تلك المسألة تترجم الضرورة التاريخية الملحة لارضاء مصالح وأمانى الجماهير — تلك المصالح والأمانى التى تظهر بشكل ضرورى ، وملح ، يمكن التكهن به من خلال مجرى التقدم الذى يحدث فى الدول المستقلة حديثا ، من الاقطاعية الى الرأسمالية ، أو فى السير الى الاشتراكية ..

وفى الوقت الذى تتعدل ، أو تتغير الظروف التاريخية والقوى الاجتماعية التى تشترك فى الحركات القومية ، فان مضمون ومميزات تلك الحركات ، الوطنية ، وبالتالى ، مضمون ومميزات (المسألة القومية) نفسها تتعدل كذلك .. وعلى هذا الأساس ، يقوم مبدأ (الفحص) الدقيق ، والتاريخى للمسألة القومية ، وللحركات القومية ، وللظروف والأشكال التى تتكون بواسطتها الأمم وتتطور ، وكما يقول البروفيسور (جوليان

هوخفلد (١) ، وبمقتضى ذلك ، فالمسألة القومية لكل بلد من البلاد ولكل زمن من الأزمان يجب أن تكون موضع الفحص بما يتفق مع السمات الخاصة للبلاد والأزمنة المعنية . وفى الوقت ، ذاته ، فان المسألة القومية ، تنتمى الى عهود تكون الرأسمالية وظهور ظروف التحول الاشتراكى ، وأخيرا نمو وتعاظم الاشتراكية ، أى انها تنتمى الى عهود الترابط المستمر بين العلاقات الاقتصاديةوالسياسية فى العالم أجمع ، فان فحص المسألة القومية على ضوء ظروفها المحلية الخاصة ، لا يعنى انفصالها عن المهام الأساسية للفترة التاريخية فى المستوى العالمى ، ونحن نلاحظ ، كما نعلم ، أن الحركات القومية ترتبط بالثورات البورجوازية ، وتكون فيها الحلول المحددة للمسألة القومية جزءا لا يتجزأ من التطورات البورجوازية ..

كما نلاحظ ، ان الحركات القومية مرتبطة بالأمانى الديمقراطية ، وبثورات عهد الامبريالية (الاستعمارى) ، وبنضالات الجماهير ضد الاقطاعية وضد الاستعمار ، وهذه ظروف لا يمكن من خلالها حل المسألة القومية ، أما الملاحظة التى نضيفها الى هذه الملاحظات ، فهى ان البلاد التى دخلت بشكل أو بآخر فى طريق التطورات الاشتراكية ، وحيث تكون السلطة فى أيدى الجماهير الشعبية ، بقيادة الأحزاب الثورية من الشعب ، فى هذه الظروف تكون المسألة القومية جزءا لا يتجزأ ولا ينفصل بأى حال من الأحوال عن قضية التحول الاشتراكى للمجتمع .

بينما يرى المنظر والفيلسوف الانجليزى المعاصر « موريس كورنفورث » (٢) ، ان المجتمعات الحديثة ، التى استقلت فى أعقاب الحرب

---

(١) البروفيسور جوليان هوخفلد ، هو استاذ الفلسفة والاقتصاد السياسى باكاديمية العلوم فى بولندا ، والذى نشر العديد فى الدراسات والكتب حول (المسالة القومية) ، وبالذات من الدول المستقلة حديثا فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبينها : مصر ، والجزائر ، وسوريا والهند ، واندونيسيا ، وكوبا ...

(٢) موريس كورنفورث .. أستاذ الفلسفة والاقتصاد السياسى بجامعة لندن ، وأحد أقطاب الفكر الديمقراطى المعاصر ، وقد كتب العديد من الكتب والدراسات الفلسفية والاقتصادية ، بينها : « فى نقد الفكر التجريبى .. وتطور النظرة الجدلية المعاصرة » ، « ازمة الفلسفة المعاصرة » ، « الأرض التى تقف عليها بريطانيا » ..

لا بد لها أن تتجنب حدة الصراعات بين موسكو وواشنطن حتى تتمكن من حل المسألة القومية ، وحل تناقضاتها ..

ومن منطلق عدم الوقوع فى منطقة الصراع الدائر بين الغرب والشرق ، وعدم الانجراف الى الوقوع فى منطقة توتر فكرى أو عقائدى بين الشرق والغرب ، يعلن السادات ، أن ثورة مصر تسعى الى الحيـــدية الكاملة ، وتستلهم مبادئها الأساسية من الأرض المصرية وحتى لا تقع فى منطقة الصدام تعمق مفاهيم الاصالة والفكر المصرى الحقيقى البعيـــد عن جوهر الفكر الماركسى اللينينى ، وبمعنى آخر لا تنجرف الى اليمين التقليدى أو اليسار التقليدى حتى لا يقع عليها عبء الصراع بين موسكو وواشنطن .. فنحن نسعى الى الخلاص من ربقة الصهيونية ، محاولين استكمال حرب التحرير القومية ، حتى نستعيد كل أرضنا ، ونبنى دولة العلم والايمان ، معمقين فكرنا المصرى العربى ، المستمد من فكرنا الأصيل وتراثنا ، ونحن نفعل هذا ، نتمثل كل متغيرات العصر الأيديولوجية والتكنيكية التى حققها العالم فى اطار الصناعة والفكر ، حتى نصل الى مجتمع أكثر كمالا يتيح (للمواطن) الحياة فى وفرة وامان ، وحرية ، وديمقراطية ، وسلام ..

** السادات .. المفكر ، والقائد ، والبطل .. حقق على المستوى المحلى ، والقومى والعالمى ، ومن خلال أفكاره ونظرياته ، ومن خـــلال ايديولوجيته الواضحة التى تعطى انعكاساتها فى الممارسة والتطبيق ، وخلال الحياة اليومية المتعلقة بظروف مجتمعنا الداخلى ، ومن خلال اســـتكمال منجزات ثورة التحرير ، ومن خلال التحرك العربى والعالمى الذى يربطنا أكثر وجدانيا وماديا بمتغيرات العصر وثورته التكنولوجية والعصرية .. حقق عشرات المكاسب الوطنية والديمقراطية (داخليا ، وقوميا ، وعالميا) ..

وكما نحس ، ونلاحظ ان السادات ، عندما بدأ يمارس مهامه كرئيس جمهورية فى عام ١٩٧٠ ، كان الاحساس تجاهه صعبا .. فقد ردد الكثيرون العديد من الأقوال التى لا تجعل الثقة من علامات المستقبل ، ورغم ذلك لم

يأس السادات ، كبطل وكمناضل ، أراد أن يحقق ما يرمى اليه من مخطط استراتيجى فى صمت ، ودون ما صراخ ..

وفى البداية ضرب الفكر الذى قاد الى هزيمة ٦٧ ..

ثم نبذ الفكر التجريبى الذى كان من سمات كهانة الخمسينات والستينات . ووضع خريطة استراتيجية للعمل ، مبنية على العلم والفكر العملى ، وعلى أساسها (جهز) عملية العبور ، ثم نجح بأن عبر بمصر الهزيمة فأحس به الشعب ، بل والأمة العربية ، كبطل قومى يعبر بمصر والعرب الى الانتصار ، بعد التصحيح كمنظر ومفكر ثورى ومناضل من الطراز الأول ..

ومع التفاف حركة الجماهير حوله ، بدا يتحرك آكثر ، على النطاق القومى والعالمى ، وبدا كزعيم سياسى يشارك لا فى فكر مصر أو فى فكر العرب ، بل ويشارك أيضا ، فى تحريك دفة السياسة الدولية ، فبعد ما كانت السياسة فى المنطقة تسير الى عدم الاستقرار ، ومعاداة واسعة على المستوى القومى والعالمى ، قلب الميزان : حرر مصر ، وأعاد الروح المفتقدة للعرب بالعبور ، وفتح قناة السويس ، وقضى على حالة الالتهاب والتوتر ، وفتح الطريق على مصراعيه لامكانية الوصول الى حلول سلمية ، بعد أن خاض معركة مريرة ، آكد فيها للعالم قدرة العرب على الصمود والحرب ، وامكانياتهم لاسقاط اسطورة التفوق العسكرى الاسرائيلى ، وبعد ذلك كله ، بدأ يتحرك لاستكمال قضية تحرير الارض ، بالنسبة لدول المواجهة ، وكذلك السير فى اتجاه حل مشكلة فلسطين باقامة دولة فلسطين ، وعودة حقوق شعب فلسطين السليبة اليهم ، وذلك كله فى اطار تحريك وتوظيف كل القدرات ،وتجميع الرأى العالمى كله فى صف العرب قبل أن يتم عقد مؤتمر جنيف .

** ويرى السادات .. ان (التحرير) ، لا يتحقق بمجرد الفوران العاطفى ، أو بمجرد الرغبة فيه ، وانما يتحقق التحرير باحتواء منطق العدو وتطويق سياسته :

« ففى هذا الجو ، فان التحرير ينجز مهمته .. ولسنا من الذين يقبلون

أن يحاسبوا الناس بأقوالهم ، ولكننا من الذين يريدون أن تكون الأفعال أساس الحساب .. لا نقبل بغير ذلك من رفاق نضالنا ، ونقبل به من هؤلاء الرفاق فى النضال اذا وجهوه الينا » .

وتحرير الارادة العربية ، يعنى ، فى الدرجة الأولى ، أن هذه الارادة ستوجه مواردها فى بناء قواتها الذاتية ، وتنمية أوضاعها المادية والاقتصادية، من أجل مواجهة الصهيونية والامبريالية العالمية ، وبالتالى ، فان (حرب التحرير) ، تنشأ ، أساسا بين القوى الوطنية والاستعمارية ، وأيا كانت طبيعة النظام القائم فالعداء الذى بين الدول الوطنية التى تقيم الاستقلال القومى فى مجتمعاتها وهى تصارع القوى الامبريالية ، مسألة جوهرية ، ويرتبط النضال فى مواجهة اسرائيل وضد الصهيونية بالنضال ضد الامبريالية العالمية ، والشعوب العربيه بادراكها الواعى ، وفهمها لطريقة التناقضات قد وعت هذه الحقيقة الجوهرية ..

واستراتيجية الثورة العربية ، تسعى الآن ، وتتحرك من أجل استعادة كل الاراضى السليبة التى لا زالت تحتفظ بها اسرائيل ، وما تحرك السادات على المستويين القومى والعالمى ورحلته الى سالزبورج فى النمسا ، ولقاءاته المتنوعة بعد ذلك مع « د. هنرى كيسنجر » ، وتبادله وجهات النظر والحوار مع الرئيس الامريكى « جيرالد فورد » الا خطوات فى هذا السبيل ...

وكذلك ضمان وتأكيد حقوق شعب فلسطين لأن تحرير فلسطين مطلب أساسى وحتمى للثورة التحررية ، وجزء جوهرى من متطلباتها الملحة ..

ويؤكد السادات على حتمية منجزات ثورة التحرير ، فلن تعوقها أى صعاب ولن تقف أى سدود فى وجه حركة الجماهير الثورية العريضة من أجل تحقيق أمانيها وآمالها الكبرى .. فالتضامن الأممى والوحدوى بين الشعوب العربية والمناضلة للتحرر والتقدم لا تمليه اعتبارات استراتيجية فحسب ، بل وفكرية وحضارية أيضا .. فالسبيل الوحيد لقوى التحرر الوطنى فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، لدعم قواها والتحامها بالجماهير العريضة ، وتحقيق أهدافها فى خلق مجتمعات متقدمة ، ليس ان تظل قوى

تحرر وطني فحسب ، وانما أن تكون ذات آفاق عصرية تتجه باقتصادها وفكرها الى الأكمل والأفضل والذى يواكب متغيرات العصر ، وما نموذج « دولة العلم والايمان » ، الذى يؤكد عليه السادات ، الا مثال واضح على ذلك ..

فهذا (النموذج) يتمثل منجزات ومهام الثورة التحررية ، مثلما يتمثل صورة المجتمع المتقدم الذى يحقق الرفاهية والرخاء لمواطنيها ، فى ظل قيم وأهداف نبيلة تكفل الحـرية والديمقراطية والسـلام للمواطن : « نحن ، اليوم ، نستهدف أن تكون حـريتنا السياسية أساسا لتحررنا الاقتصادى والاجتماعى ، وأن تكون سيطرتنا على مواردنا ، أساسا ، لبعثنا وتقدمنا الحضارى . لقد بدا رواد عدم الانحياز فى عالم تتقاسمه الكتل العسكرية الكبرى وتتخاطف شعوبه ، صراعا فيما بينها على مناطق السيطرة والنفوذ واستنثارا بالمتحالفين . إننـا لا نريد أن تكون شعوبنا وقـودا للحرب ، ولا بلادنا ساحات للمعارك ، ولا نريد أن تكون أراضينا قواعد عسكرية .. طالبنا بالسلام ، وسعينا له .. وتأكد هذا السعى فى أول مؤتمر لدول عدم الانحياز ، بانتداب بعض رؤساء منا للمطالبة بايقاف تفاقم الصراع ، عاملين فى ظروف دولية بالغة الخطورة ، والعمل على منع تفجر القنابل التى لا تميز بين ضحاياها ولا نختار أشلاءها من المتحاربين فقط . . لأننا كنا نريد أن نكرس جهودنا ومواردنا بالعمل والسعى للتقدم والتطور للشعوب جميعا ، للقلة المتحكمة فى العالم والمسيطرة على موارده ومصائره .. كنا نريد السلام اطارا لحياة عادلة غايتها الخير للجميع ، واذا كان الحديث يدور الآن حول الوفاق بين الكتل الكبرى ، وحول ابتعاد أخطار الحرب العالمية النووية ، فواضح أن هذا (الوفاق) ، لا يتحقق ، اذن ، ضد ارادة الدول غير المنحازة أو على رغم منها ، بل انه يتحقق فى الواقع ، تجاوبا مع ارادتها وسعيها » ..

✻✻ وكانت محاولات التجزئة ، ومحاولات احتلال الأرض العربية ، كما يقول السادات ، بل ومؤامرات احتلال الأرض ، ومؤامرات احتـلال النفـوس ، كانت كل هذه المحاولات تستهدف اعاقة الثـورة الوطنية

الديمقراطية ، كما كانت تحاول أن تضع العقبات تلو العقبات فى طريق الثورة العربية وأهدافها التحررية ، ويقول السادات :

« .. وقد لعبت الصهيونية العالمية دورها المعروف لخدمة هذا التحالف العدوانى ، وهى جزء منه ، وطليعة له ، وكان ما كان من عدوان عسكرى متكرر باركه وشارك فيه الاستعمار العالمى ، ووقف العالم العربى كله يواجه الامتحان الرهيب لارادته ولصلابته ولقدرته على خوض معاركه بسلاح النصر .. »

** ويرى السادات .. أنه من الخطأ الجسيم ، أن تقول عن (العبور الظافر) ، انه معجزة ، لأن المعجزة بطبيعتها أمر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره ، وانما يجب أن ننظر اليه على أنه ذروة للعمل الوطنى :

علينا أن نتمثل درسه ، لكى نتخذه نمطا ترتفع الى مستواه كل جوانب العمل الوطنى .. ان أعظم تقدير لأيام القتال المجيدة ليس التغنى بها ، وانما استلهام معانيها لكى نحرز فى مختلف مجالات العمل الوطنى ، ما أحرزناه فى العمل العسكرى . ليكن شعارنا ، دائما أنه ما دمنا قد استطعنا فى ساحة القتال ، فانه يجب أن نستطيع بنفس المستوى فى كل مجال . ان المقاتلين هم صفوة من أبناء هذا الشعب ، وما صنعوه فى مواجهة العدو الشرس الغادر المدجج بالسلاح ، يستطيع أبناء هذا الشعب أن يصنعوه فى مواقع الانتاج والخدمات ، لنقهر التخلف ، ولنتخلص من السلبيات الموروثة ولنؤكد بالانجاز ، ان مصر ـ أكتوبر ، هى مصر المستقبل . ان نصر أكتوبر لم يكن مصادفة ، ولم يحدث فى غفلة من الزمان ، كما يريد العدو أن يصور وانما هو ثمرة عوامل كثيرة للشعور الوطنى الجامح الذى سرى فى وادى النيل » .

** وكجزء من استراتيجية الثورة ، يركز السادات على القوى الفلاحية ، كسواد أعظم من الشعب المصرى ، وكجزء أساسى لانجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية :

« لابد من الاتجاه الى الريف .. ان أسلوب الحياة اليومية لفلاحينا ، الذين يكونون غالبية الشعب ، لم يلحقه تغيير صحيح ، لا فى وسائل الانتاج ، ولا فى السكن والغذاء والصحة ، ولا فى تحصيل العلم والثقافة .. والتنمية الزراعية ، كما نعرف ، بالنسبة لمجتمعنا ، تبرز كضرورة حتمية ، وكجانب رئيسى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .. » .

لابد من الاهتمام بالريف ، لأن الثورة الوطنية ، ان لم تصل الى الى الريف ، فلا فائدة منها ، ولا ضمان لها ، ولتحولت الى ثورة (أفندية) أو ثورة (بورجوازية صغيرة) .

لا بد من الاهتمام بالريف، فمثلما رفع ماوتسى تونج « شعار من القرية الى المدينة .. ومن المدينة الى القرية » ، لابد أن نحمل الشعار ، ولكن من خلال حسنا المصرى ، ومن خلال جوهر فكرنا الأصيل ..

والفلاحون ، هم الضمان الجوهرى لاستمرار الثورة ، فمتى وصل اليهم الوعى والادراك ، وسلحوا فكريا ، بمعنى انهم انتقلوا الى (الثورة) ، أو انتقلت الثورة اليهم ، فلا يمكن اختراق سياج ثورة مصر الوطنية الديمقراطية ..

** ويؤكد السادات ، فى تعاليمه ، كمنظر ، ومفكر ، وقائد وطنى ، على ضرورة تأكيد وتعميق (الشخصية المصرية) ، وهى جزء من الشخصية العربية العامة ..

بمعنى أن خصائص مصر وسماتها الفكرية والنفسية والسلفية لا بد أن تبعث وتحيا من جديد ، باستلهام الكنوز التى تختزنها حضارتنا التى يصل عمرها الى سبعة آلاف سنة ، ولا بد أن تغتنى « الشخصية المصرية » ، فى تطورها بكل ثقافات ومتغيرات العصر ، حتى لا تبدو معزولة عن كل مستحدثات ما يجرى فى العالم من تقدم وتطور ..

كما لابد أن تغتنى هذه الشخصية بالفكر العربى ، تثريه وتغتنى به ، تعطيه ويعطيها ، من أجل مزيد من تعميق الوجدان العربى ، ودعم وحدة الصف العربى الذى يسعى الى مزيد من التآلف والوحدة فى كافة المجالات على اختلاف ألوانها ..

* * ثم لا بد من التمسك بأهداف وقيم ومبادىء مصر الأصيلة ، التى نجدها فى القرية المصرية ، فى نخوة وشجاعة وارادة الفلاح المصرى ...

فالسادات يدعو مصر كلها الى أن تلغى خلافاتها ومشاحناتها ، من منطلق أن مصر فى النهاية ليست الا قرية صغيرة ، يجمعها رباط الأسرة ووحدة العلاقات الاجتماعية الواحدة ..

والزعيم الحقيقى « أو القائد الحق ، هو من يقوم بدور (رب البيت) من أجل الحفاظ على تماسكه وقوته وسلامته ، فليس دور القائد ، فقط ، هو انجاز المهام الفكرية والسياسية والعسكرية ، فانه من العسير انجاز هذه المهام دون احاطتها بقيم ومثل وأخلاقيات .. » .

●

السادات .. كمفكر ، وقائد ، ومعلم ثورى ، وبطل قومى .. يختلف عن أى زعيم فى عصرنا ..

فهو يتميز بالبساطة الشديدة ، هذه البساطة التى هى نتاج التجربة والاحتكاك الأصيل بالجماهير ، فى غمار المعترك الثورى بين الثلاثينات والستينات ، وخلال تجربته منذ أن تولى الرئاسة فى ١٩٧٠ حتى الآن ... هذه البساطة ، هى المنطلق الى العمق ، والحكمة ، والاتزان فهو لا يميل الى الانفعال ، ولا يأخذ الأمور مأخذ النظرة السريعة ، ولا ينظر لأى قضية من بعد واحد ، ابتداء من مشاكل وقضايا أسرته الى مشاكل الحرب والسلم والديمقراطية والتحرير .. وهو يؤمن بأن الانسان لا بد أن يبدأ بنفسه ك (مثال) ، ان أراد ، أن يمس قيما ما أو أخلاقيات بذاتها ، ويتمثل قول سقراط الذى لا زال مكتوبا على معبد دلفى باليونان « اعرف نفسك بنفسك » ..

ومن هذه النظرة الى (الداخل) ، يصل الى ما يسميه ب (النجاح الداخلى) ، ويقول فى هذا :

« أؤمن بالنجاح الداخلى . أؤمن به لأنه لون من النجاح لا يحسه الناس فى أغلب الأحيان ، وانما يحس به خيالى ، ويحدثنى عنه وجدانى ... ومن طبيعة هذا اللون من النجاح ، أنه يملأ الانسان ثقة فى نفسه ، ورضاء عنها .

واذا ما رضى الانسان عن نفسه فى هذه الدنيا ، فقد فاز بأكبر درجة من درجات السعادة .. والانسان سعى الى النجاح الداخلى واحس به ، وكان مالكا لأعظم متعة روحية تحطم أمامها الكثير من متاعب هذه الحياة وآلامها. فقد اعتدنا فى حياتنا على أن النجاح الخارجى الذى يراه الناس فينا هـو النجاح الوحيد الجدير بأن نسعى اليه ، ونشقى فى سبيله واعتدنا ، أيضا، أن لا نتقيد بالوسائل فى سبيل بلوغ هذا النجاح لكى نطلع به على الناس .. وقليل منهم ، من يسأل كيف كان هذا النجاح ، وانتصارات الانسـان فى نجاحه الخارجى لابد أن يلمسها الناس فى مال أو جاه ومنصب ، سيسعد به صاحبها ، ولكن سعادته ستظل مقيدة ومعلقة بما يراه الناس ، لأنه أسس نجاحه على رأيهم .. أما انتصارات الانسان ، فى نجاحه الداخلى ، فلن يعرفها أو يحس بها الا صـاحبها ، لانها انتصار لمبـدأ قويم ، أو لمعنى سـامى ، أو لفضيلة معينة ، سيسعد بها صاحبها ، أيضا ، ولكن الى الأبد .. سيسعد أن يكون مركزا لاشعاع المثل الطيب ، والمبدأ القويم والايمان بكل ما هو كريم وشريف فى هذه الحياة .. وسيسعد لأن بريق هذه الانتصـارات لن يذهب ، أبدا ، بل سيظل يضىء كلما تقدمت السنوات والأيام ، وسيظل صداها يحفز لانتصارات أخرى ، لن تكون الا كريمـة وشريفة .. سأظل اؤمن بالنجاح الداخلى ، حتى لو لم ينعكس على الناس لأنه لن يوزن فى يوم بموازين النجاح الخارجى » .

والسادات .. لا يحب الركون الى الهدوء ، ولو فى لحظات قصيرة ، يبدو ، دائما مهموما بمشاكل وطنه ، تلح عليه فى كل لحظة ، حتى وهـو يتناول طعامه ، حتى وهو يتناول القهوة ، حتى وهو بين أهله وعشيرته .. ولا يجد لحظات من الهدوء الا فى القناطر الخيرية ، حيث يحيا لحظات من الهدوء ، لساعات قليلة ، مع أسرته وعشيرته ، يعود بعـدها ، ليغرق فى مشاكل مصر والعرب ، ومختلف القضايا : فهو يحمل المسئولية كلها على عنقه ... وببساطة وعمق القائد الثورى ، يصل الى حلول لكل المشاكل على اختلاف مستوياتها ، سواء كانت فكرية أم اجتماعية أم اقتصادية .. ولا يحب

حياة الروتين ، وغير مبال للمكاتب ، حتى أنه عندما يقرأ فى لحظات حاسمة يفضل الا يجلس الى المكتب ، بل يختار أحد الكراسى ، ويبدأ القراءة ، وهو يدخن غليونه الذى عادة ما يرافقه الشاى أو القهوة .. وفى غرفة مكتبه ، بقصر عابدين ، لا يشعر ، غالبا ، ببرد الراحة ، اذ يذكره جوها الرسمى الملتزمت ، كما يروى السادات لمن يزورونه ، بالسجن الحربى الذى اعتقل فيه لفترة ليست بالقليلة فى أيام الحرب العالمية الثانية ، بتهمة التآمر على طرد الحكم البريطانى من مصر ، لكنه يصبح على سجيته تماما عندما يذهب الى القناطر ، فيحس بالراحة ، ربما لأن الخضرة تذكره بحياة القرية التى تربى ونما على أرضها ، فهو ميال للخضرة ، ولا يستطيع أن يحيا بعيدا عنها فهى تشارك فى اعطائه برد الراحة ..

والسادات ، يحيا فى بيته كأى انسان عادى ، يأكل الأكلات الشعبية ، ويمارس حياته كأى انسان بسيط فى عفوية شديدة .. مع رفيقة عمره ونضاله سيدة مصر الأولى : « جيهان السادات » ، ومع أبنائه ..

وجيهان السادات عطاء حى ومتطور لأنبل ما فى مصر من قيم ونبل المرأة المصرية ، فى كرمها ، فى وعيها ، فى نشاطها ، فى اقبالها على كل عمل يخدم مصر والعرب ، وكان لدورها الطليعى فى الحركة النسائية ، وفى زياراتها للجبهة ولأسر الشهداء بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، الأثر الكبير فى رفع المعنويات والروح الوطنية ، وفى بذل كل الطاقات من أجل مصر فى مسيرتها الصعبة .. وهى تذكرنا بزوجة « صان ـ يات صن » ، الزعيم الصينى العظيم ، فقد كانت تقف وراءه ، فى قوة ، وثبات ، تلهمه الصبر ، وتساعده على وجود المناخ الملائم حتى يفكر ، ويعمل ، فى ظروف صحية للغاية كما تذكرنا بأنديرا غاندى فى نضالها وفى نشاطها لتنظيم الحركة النسائية وفى كفاحها من أجل الوطن .. كما تذكرنا بناديزهادا ، التى الهمت لينين القوة والصبر والشجاعة حتى انه قال « لقد كانت المرأة التى فرشت طريقى بالشمس لأسير الى كل أهدافى وأهداف الوطن ، فى طمأنينة وثقة وشجاعة » . ونفس الكلام ، أو شبيها منه ، يحسه السادات ، من خلال الحياة

الناضجة الواعية ، والمناخ العاطفي والحسي والأسري الذي يحسه في داره بين أهله وعشيرته ... وتعترف سيدة مصر الأولى « جيهان السادات » بأنها قد ارتبطت بالسادات ، كزوج ، لماضيه الثوري المضيء ، ولأنه سجن وشرد وعانى من أجل مصر ، ومن يفعل هذا كله ، لا بد أن تكون لديه أنبل القيم وأخلص المبادىء ، ويعرف كيف يعامل (المرأة) ، لأنه يعامل مصر ويخلص لها ، بل يتفانى من أجلها ، وتحمل السجن ، والهروب من البوليس السياسي ، بل وتعرض للاغتيال لأكثر من مرة ، ومن الأخوان المسلمين ، منذ قرابة عشرين عاما ، وكل ذلك من أجل مصر .

وجيهان السادات ، تقف الى جوار زوجها في كل اللحظات السياسية والفكرية ، مثلما تقف الى جواره كزوجة مثالية .. عندما واجهت مصر هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وكان السادات وقتها رئيسا لمجلس الأمة ، وقفت الى جواره في محنته ، فلم تجده محزونا مثلما رأته في تلك الأيام .. وانطلقت جيهان السادات مع زميلاتها النساء وتبرعن بدمائهن في الهلال الأحمر ، من أجل أبناء مصر الجرحى وخلال اكتوبر ٧٣ ، وقفت المواقف البطولية النادرة ، وكان السادات ، لا يحس بنفسه من فرط الاشتغال ، حتى عندما استشهد أخاه (عاطف) ، في أول طلعة طيران مع ثلاثة من زملائه الطيارين ، أخفت عنه الأمر تماما ، واختارت اللحظة المناسبة لتقول له ، لأنه كان يحب عاطف حبا جما ، وفقده في المعركة ، مثلما افتقد ماوتسي تونج ابنه في معارك الأربعينات ضد كاي شيك وأمريكا واليابان ، ولحظتها قال : « ابن الصين .. وأي شهيد من الصين ابني ، والمعركة لا تترك لنا حتى الفرصة لندمع » .

ونفس الكلمات ، أو شبيهة لها ، قالها السادات ، عندما علم بأمر استشهاد (عاطف) .

وكانت لرحلات جيهان السادات الى ألمانيا ، وفرنسا ثم المكسيك ، آثرها السياسي الخلاق ، في تأكيد دور المرأة المصرية والعربية على المستوى السياسي والدبلوماسي ..

●

قال المفكر والفيلسوف الانجليزى المعاصر « موريس كورنفوث » :

« ان بطل العصر ، هو الذى يستطيع ان يدرك ظروف قومه وعصره ، فى وعى ثورى ناضج ، ينبثق أساسا من مصلحة قومه ، ويترجم فى أشكال سلوكية وممارسة ذاتية عملية للرجل ، فى تلاحم ، لا تكاد من فرط اندماجه مع الجماهير ، تحسه ، لانه يصبح كالموجة العالية الهادرة بين ملايين القطرات فى خضم البحر الكبير » ...

هكذا يبدو (البطل القومى) ، لبلاده ، فكرا ، وقيادة ، وسلوكا ..

وهكذا يبدو السادات ، الذى يمثل أنبل ما فى مصر من قيم ، ونبل ، وفكر ..

فهو ليس الا عطاء لهذه المرحلة ومتطلباتها الاستيراتيجية والأيديولوجية والسياسية ، فحسب ، انه عطاء لحضارة مصر التى تصل فى عمرها الى سبعة آلاف سنة ، انه عطاء لأخلص ما فى العرب من قيم وأخلاقيات ، ومن خلال التحامه بالجماهير العربية ، فى معارك الحريات والديمقراطية والحرب ، ومن خلال قيادته لثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، ومن خلال تجميعه للعرب وتبديده لكل التناقضات الثانوية بينهم ، ومن خلال عبوره بمصر فى أكتوبر وتخطيه الهزيمة وصياغته للنصر ، وما أعقب ذلك من انفتاح عربى وديمقراطى ومن سلسلة المكاسب التى مارسها على المستوى المحلى والقومى والعالمى ، اكتسب السادات ، من خلال كل هذا صفاته العظيمة المعطاءة ، المميزة .. كبطل قومى ، وقائد ثورى ، ومعلم ومنظر من الطراز الأول .. صنع الكثير من المكاسب والمنجزات لهذه الأمة ، ويتحرك ، لاضافة الجديد من المكاسب ، من أجل مزيد من الحرية والديمقراطية والرفاهية والسلام ، لجماهيرنا وللجماهير العربية ، التى تسعى لاستكمال مهام الثورة التحريرية على الأرض العربية .. والسادات بطلها ، وهاديها ، وفارسها ..

وتعاليمه ، وأفكاره ، ونظرياته ، هى خير منارة للسير الى آفاق أرحب والى مستقبل آمن ، يكفل مزيدا من العدالة والحب والسلام ، لكل الذين يحيون على هذه الأرض التى عاشت الكثير من الويلات ، وذاقت شتى صنوف ألوان الضغط والقهر والمعاناة ..

الفصل الثامن

السادات في مرآة العالم

« ان السادات ، حريص كل الحرص على السلام ، وان لم يتحقق هذا السلام بكرامة ، فان الوضع يتغير ، لان السادات ، لا يرضى ، ابدا ، بانصاف الحلول ، ثم انه يتميز بالجراة ، والشجاعة ، والاقدام ، ودائما ، يسير في طريق الحل السلمي والدبلوماسي ، فاذا اعياه الأمر ، يلجا الى السلاح ، بعدما يقنع العالم كله ، بان صبره قد استنفذ ، وعليه أن يحقق امانى ومطالب شعبه والمنطقة ... » .

السناتور الأمريكي : شارلز بيرس

تعبر دائما ، عن مصلحة . هذه حقيقة من المستحيل تغييرها ...
ومواقف الكتاب الأجانب من القضية العربية ، كانت دائما
تعبيرا عن مصالحهم . ولكن أنور السادات ، لم يكن شخصية
عادية ، لقد استطاع أن يلفت أنظار الكتاب الأجانب ، ليس



فقط بأعماله ، كثورة التصحيح ، أو العبور ، أو ما أحدثه من تغييرات جذرية في بنية المجتمع المصري وفي كل المنطقة العربية ، بل بصراحته ، وبساطته ، وحكمته ، واتزانه غير العادي ، وجرأته الشديدة ..

وما كتب عن السادات ، كشخص ، كانسان ، يفوق ما كتب عنه أي زعيم معاصر . لقد هاجمه الكثيرون من الكتاب ، خاصة في الغرب ، في السنوات التي سبقت حرب أكتوبر ، وحاولوا أن يقللوا من الجهود التي يبذلها ، بل حاولوا ، أن يصيبوا المنطقة باليأس . . ولم يكن الغرب وحده هو الذي يهاجم ، بل أن الكثير من الصحف والدراسات التي صدرت في أكثر من عاصمة عربية ، أخذت تقلل من الأدوار البطولية للسادات ، ولمصر ، والعرب ، محاولة النيل من الثورة العربية ، وكان السادات ، دائما ، يرد على هذه الافتراءات ، وفي حديث له مع « سليم اللوزي » الكاتب اللبناني قال في ابريل ١٩٧٤ : « نحن نشتغل بالسياسة ، الآن .. لا نستهدف عنتريات ... للحرب لغة تختلف تماما عن لغة السياسة .. وعلينا ان نفرق بين اللغتين» وبكلام آخر : « كانت المعركة تسير .. وكل معركة يبقى فيها الجانب العسكري والجانب السياسي . فقبل أن نبدأ معركتنا ، كان التركيز على الجانب السياسي ، في الوقت الذي كان الاعداد للمعركة العسكرية بعد وقف اطلاق النار . التركيز الذي كان أكثر على الجانب السياسي . ولكن في

نفس الوقت كان الاعداد العسكرى مستمرا فى مراحل انجاز معركتنا ، بشقيها العسكرى والسياسى » . لكن الهجوم ، ليس الصورة الأساسية ، (بقعة) صغيرة يحاول (البعض) الصاقها بالصورة العظيمة ، التى تبدو حقيقتها كالشمس .. وأشبه (هؤلاء) الذين يحاولون أن يقللوا من جهود السادات ، أو مصر ، أو العرب ، بالذين يحاولون اطفاء الشمس بأنفاسهم الضعيفة ، هل يمكنهم ذلك ؟ !

وليس من كاتب جاد ــ فى الشرق أو فى الغرب ــ الا ، وأكد ، أن السادات ، شخصية فذة ، لا نظير لها ، ولم يسبق للعرب أن قادهم زعيم مثله ، يتحلى بكل هذه الصفات والقسمات ، التى أوصلت مصر والعرب ، الى هذه النجاحات التى هى عليها اليوم .. وعلى مدار خمس سنوات ، كان الاهتمام بين الكتاب العالميين ، يزداد لتفهم شخصية وسياسة وفكر السادات ، وربما تبادر الى اذهان بعضهم فى البداية ، وبالذات ، خلال عامى ١٩٧٠ و ١٩٧١ ، ان ما يقوم به مجرد محاولة للاستمرار بالأوضاع كما هى حتى تحدث (معجزة) ، لكنهم تأكدوا ، بعد قليل ، أنهم أمام شخصية فريدة فى التاريخ ، وأن سياسته ليست مشابهة لأى سياسة سابقة .. وبعض هؤلاء الكتاب راقبوا السادات وسياسته عن بعد ، وبعضهم قابله وأجرى حوارا معــه مثل كتاب مجــلات وصحف : « النيوزويك » ، و « التــايم » ، و « النيويورك تايمز » ، والكثير من الصحف الألمانية والسوفيتية والأمريكية والهندية ، بل ووكالات الأنباء والتليفزيونات الفرنسية والأمريكية والألمانية والنمساوية والرومانية ، بل عشرات أجهزة الاعلام فى مختلف القارات .

** فى مايو ١٩٧٤ ، كتبت مجلة (التايم) الأمريكية ، تصف السادات فقالت :

« انه ابرز القادة الذين حكموا مصر ، فهو رجل قوى ، يتميز بالحكمة ، وبعد النظر » (١) .

---

(١) مجلة (التايم) الامريكية ، فى عددها الصادر بتاريخ ١٢ مايو ١٩٧٤ .

ونشرت المجلة الامريكية حوارا طويلا مع الرئيس ، أجراه : ويلتون وين وكارستن براجر .. وقد قالت مجلة (التايم) :

« ان السادات يفتح الباب ، ويسعى لبناء مصر الحديثة، وانه بدأ الانفتاح فى جميع المجالات ، مستهدفا بذلك اجراء اصلاح شامل بعيد المدى فى كافة المجـالات السياسـية والاقتصادية للمجتمع المصرى » .

وقالت مجلة (التايم) ، أيضا ، أن المستثمرين الأجانب ، يحملون انطباعا قويا بجدية مصر ، ففى خلال أكثر من عام بقليل ، تم التوقيع على ١٣ اتفاقية دولية بترولية ، كما أخـذت البنوك الغربية تستعد لفتح فروع لهـا فى مصر ..

** وفى يونيو ١٩٧١ ، أى فى أعقاب حركة التصحيح ، كتبت صحيفة « الديلى ووركر » الانجليزية ، تقول : « ان الحركة الاصلاحية التى قام بها الرئيس المصرى أنور السادات ، تستهدف ازالة مراكز القوى ، التى كانت تقابل المماليك والجراكسة فى مصر فى القرون الماضية ، فكانت هذه القوى تعرض بالثورة الى مواطن الخطر ، لكن هناك الكثير من المخاوف على الرئيس المصرى ، خاصة وأنه ضرب ضربة لا يستهان بها من عتـاة الناصريين » .

ويكشف كاتب انجليزى آخر ، التقى بالسادات ، عن شخصيته ، فيقول ان السادات ، كانسان ، يبدو ، حقا ، غريبا ، أبدا لا تحس حياله بأنك امام رئيس جمهورية ، انه يتميز بالبساطة ، والوضـوح ، والارادة الصميمة الواضحة ...

وأكثر من صحفى ممن التقوا ، بالسادات ، أحسوا ببساطة الرجل القوى ، الذى يتحدث اليهم فى بساطة ودون ما كلفة ، فى مكتبه بعابدين ، أو فى قصر القبة ، أو فى حفل كوكتيل أو فى استراحة المعمورة ، أو فى استقبال خاص أو مؤتمر صحفى ، ذهلوا من هذه البساطة التى يتحلى بها الرئيس المصرى

وقد آخذت هذه الصورة (ويلتون وين) ، الذى تعرف على السادات منذ فترة ليست بالقصيرة ، فقال .. ان السادات يكره الفخفخة وحب الظهور ، والبساطة والوضوح أقوى ما لديه من أسلحة ، وزيارة واحدة لمنزله ، أو لمكتبه ، تظهر كيف أن الرجل احتفظ بعاداته البسيطة التى نشأ عليها فى قريته الصغيرة » . ويضف « كارستن بارجر » ، الى زميله ، قائلا : « انه يبدو كالدينامو البشرى . قلما يجد متسعا للراحة ، أو الوقت لينام ، ولا شىء يشغله أو يملأ عليه وقته الا قضية مصر والعرب ، فهو مهموم ، جد ، مهموم بها الى حد بالغ » .

** وقد كتبت صحيفة رومانية ، تقول : بأن شخصية السادات ، تعبير عن الكرامة العربية الأصيلة ، فى بذلها وسخائها ، وهذا يتجلى واضحا فى كل تصرفات وسلوك الرئيس المصرى .

** وقـد كتبت مجلة « تايم » الأمريكية ، تعلق على الحريات السياسية والديمقراطية والمناخ الآمن ، الذى بدا يحسه الانسان المصرى ، فى ظل القوانين الدستورية والتعاليم الثورية ، التى سادت فى عهد السادات فقالت : « ان معسكرات الاعتقال التى كانت تمتلىء بالسياسيين المصريين ، وبالمثقفين الثوريين على اختلاف ألوانهم واتجاهاتهم ، قد فضت ، وأصبحت خالية ، ولم يعد المصريون ، يخشون من الاعتقالات التعسفية أو الرقابة الصارمة على الحياة الشخصية للافراد ، ولا الرقابة الصارمة على الصحافة .. لقد بدا يسود مناخ الطمأنينة والأمان ، ويحس به كل مواطن فى مصر » .

** وفى لقاء السادات « مع ولتون وين » صرح الصحفى الأمريكى الذى تخصص قرابة ثلاثين عاما فى شئون الشرق الأوسط ، انه مأخـوذ بشخصية الرئيس التى تتسم بالبساطة والسماحة ، والقدرة على ان يعبر عما يجيش فى نفسه بصـدق بالغ . وقد كتب (وين) عن السـادات ، يقول :

« ان الرئيس انور السادات ، معروف في العالم اجمع بأنه رجل السلام والاستقرار ، والعالم ، كله ، ينظر للسادات باعتباره الزعيم القوى المحبوب من شعبه ، والذى نجح في توحيد كلمة العرب ، والذى يعمل جادا لبناء مصر الحديثة ، ومن أجل السلام والاستقرار ... فقد استطاع السادات ، أن يؤكد بسياسته الحكيمة اصراره على السلام، ومن خلال هذا المنطلق اكتسب حب العالم كله له ، بل انه اكتسب صداقة جميع الشعوب ... وقد حدث تحول كبير في الرأى العام الأمريكى اليوم ، تجاه مصر ، وتجاه الشرق الأوسط ، وبدأ ينظر بتقدير كبير للرئيس السادات ، ويتطلع الى التعاون المصرى الامريكى ، وصولا الى الاستقلال والرخاء والسلام في الشرق الأوسط .... والرأى العام الامريكى ، يؤمن ويشيد بسياسة السادات ، ويؤمن بأن العلاقات بين البلدين ترتكز على الواقعية والصراحة والحقائق ، بعيدا عن الاثارة والعواطف ، وانى أعتقد أن جميع الاتفاقيات التى تم توقيعها او اتفق عليها ستنفذ دون تغيير » .

✲✲ وقد وصفت صحيفة « التايمز » الرئيس السادات ، بقولها :

« ان الهدف الذى يود الرئيس السادات تحقيقه ، هو توفير العمل الشريف لكل مصرى ، والسادات يحشد كل القوى من أجل السلام ، بنفس القوى التى حشد بها الطاقات للحرب ، وأسهم الرئيس السادات في القمة ، فالمصريون يحبونه كالأب ، والعرب يعتبرونه الزعيم الروحى والفكرى لكل المنطقة ، وهو الأب الشرعى للمنطقة بحق » .

✲✲ وعلى حد تعبير الكاتبة الأمريكية دوروثى طومسون : « انه رجل رزين ، حكيم عرف بنضاله السياسى القديم ، وولائه لمصر ، والوفاء من أبرز سماته كمصرى وعربى ، وهو يحب أكثر مما يكره ، ومن الصعب ان آن تجد رجلا تجتمع فيه هذه المزايا ، خاصة وان كان قائدا وزعيما » .

✲✲ وكتبت صحيفة « نيان زان » الفيتنامية تقول ، منـذ عامين ، وبالتحديد في أواخر عام ١٩٧٣ : « يجب أن يفهم الاستعماريون ، والصهاينة

ان المصريين الذين ناضلوا ببسالة قرابة قرن ونصف من الزمان فى سبيل حريتهم واستقلالهم الوطنى ، لن تخيفهم الفانتوم او اعتى اسلحة نوويه ، لن تخيفهم قعقعه السلاح ودوى المدافع الضخمه ، لان ارادتهم اقوى من هذا بكثير ، وقد استطاعوا ان يستعيدوا انفسهم فى اقل من ست سنوات ليكيلوا الصاع صاعين لاسرائيل ، وكان على راس هذا التعبير كله الرئيس انور السادات ، وبفضل حكمته ودكائه السياسى وخبرته الطويله ، استطاع ان يوقت متى يضرب .. وكيف لا بل ومتى يقف اطلاق النار ، ليحول النصر العسكرى الى نجاح وانتصار سياسى من الدرجــه الاولى ، على أساسه يسحب (السجادة) من تحت اقــدام الصهاينة والاستعمار لا فى الشرق الاوسط ، فقط ، بل وفى أوربا والغرب أيضا » .

** وكتب سيروس سلزبرجر ، رئيس تحــرير صحيفة « النيورك تايمز » الأمريكية ، وصاحب الكتاب الذى أشرنا اليه من قبل ، الا وهــو « صف طويل من الشموع » ، والذى تحدث فيه عن الزعماء الذين التقى بهم من أمثال : أتاتورك ، وتيتو ، وديجول ، وتشرشل ، وهتلر ، وايزنهاور وهوشى منه ، ونهرو ، وغيرهم .. كتب سلزبرجر عن السادات يقول :

« ان واقعية الرئيس السادات ، وادراكه للواقع ، يتضمنان ، أيضــا ، قراره بادانة الارهاب ، وحتى ولو كان ذلك لا يروق للمنظمات الفلسطينية وقد أدان من زعموا أنهم فدائيون ، وقاموا بقتــل راكب ألمانى فى طائرة مخطوفة الى تونس ، وكذلك الهجوم على مطار أورلى » .

ويقول سلزبرجر ، أيضا :

« ان الرئيس السادات ، من الشخصيات القليلة النادرة التى من الممكن أن يتاح للوطن العربى من خلال حكمته وحسن رؤيته وذكائه النادر ، الوصول الى حلول تؤدى الى انهــاء كافة الظروف الاستثنائية التى جعلت المنطقة مصــــدرا للالتهاب طوال سنوات طويلة ، فمثلما استطاع السادات أن ينهى كافة الظروف الاستثنائية داخل وطنه ، ومثلمــا

استطاع ان يتجاوز بمصر والعرب الظروف الصعبة ويحقق نوعا من الانتصار الواضح لكل العالم فى اكتوبر ١٩٧٣ ، ومثلما استطاع أن يكسب الرأى العام الاوربى ، بل والرأى العام الأمريكى ، فاقول ان على يديه سيتم الوصول الى حاول تكفل السلام فى المنطقة ، فهو يسعى جديا ، وبصـــدق ، الى اقرار السلام ، ولكن من خلال جوهر الحقوق العربية ، لامن خلال المهاترات أو المراوغة ، فهو صادق ، لا يعرف التلاعب بالألفاظ ، لان السياسة من وجهة نظره هى الصدق اساسا، مع ابناء الوطن ، ومع الأسرة الدولية ومع كل القيادات العالمية ، ولا سبيل فى رأيه للوصول الى اى حلول الا من خلال التزام هذا الصدق » .

* * وكتب « هنرى جرونوالد » ، الكاتب والناشر الأمريكى ، والذى يصدر عدة صحف ومجلات أمريكية ، بينها مجلة (التايم) ، كتب يقول :

« الرئيس المصرى انور السادات ، شخصية قديرة ، حقا . يعنى ما يقول ، ويتبع منهجا مباشرا ، فى سياسته ، ويريد ان يحقق لشعبه اقصى حد من المكاسب ، كما يريد ان يحقق للعرب كل ما يبتغون فى اناة وحكمة وذكاء وشجاعة نادرة » .

* * ومن البرامج التليفزيونية الهامـــة ، التى قدمت الرئيس أنور السادات ، ذلك البرنامج الشهير : « واجه الأمة » ، وهو من أهم البرامج التليفزيونية فى أمريكا وتقدمه اذاعة وتليفزيون (سى . بى . اسى) .. فى مايو ١٩٧٤ ، قدم هذا البرنامج حلقة خاصة عن الرئيس السادات ، وكانت هذه المقابلة ، أو هذا الحوار ، حديث الدبلوماسيين فى الأمم المتحدة وفى أمريكا لفترة طويلة .. وخلال هذا البرنامج تكلم السادات عن أزمة الشرق الأوسط ، وعن نتائج حرب اكتوبر ، وعن التحركات التى تتم من أجـــل الوصول الى حلول تكفل السلام فى الشرق الأوسط ، كما تحـــدث عن العلاقات الجديدة مع الولايات المتحدة ، وقال أنها تسير على أسس متينة ، تعتمد على واقعية سياسية ، وأوضحها الرئيس السادات بقوله : « خلال

تعاملي مع الدكتور هنري كيسنجر ، خلال زيارته الأولى لي في نوفمبر الماضي ، بدأ الموقف الأمريكي يتزحزح عن مكانه . ولا أقول أبدا أن أمريكا تنحاز لنا ، وكذلك لا أستطيع الآن أقول ان امريكا من الممكن أن تقف في وجه اسرائيل . لكن ، تزحزح الموقف الأمريكي ، بحيث يسمح بالتفاهم ، فمثلا .. لما كنا بصدد اتفاقية فض الاشتباك في أسوان ، ورفضت أنا كل الشروط والمطالب التي جاءت لي من اسرائيل ، ورفضت اسرائيل ، أيضا كل الذي طلبت تنفيذه ، تدخلت أمريكا في النصف ، وقالت كلمتها ، قالت: أنا أدخل من خلال مشروع او اقتراح أمريكي محدد ، من الممكن أن يوصل الطرف المصري والاسرائيلي الى نقطة اتفاق ، وحدث ، أن شاركت أمريكا بفعالية واضحة في الوصول بالقضية الى مناخ طيب ، ونأمل أن تلعب دورا أكبر في المستقبل ، من أجل حل القضية في جوهرها .. »

❋❋ وقد وصفت صحيفة « الناشونال جارديان » ، الرئيس أنور السادات ، أنه ألمع شخصية ، عرفها العرب والمنطقة ، في تاريخها حتى الآن .

وقالت الصحيفة :

« كانت الظروف التي تحياها مصر ، قد وصلت الى حالة من التفسخ السياسي والنفسي والفكري ، الذي كان من الممكن ان يودي بالثورة الى الحضيض ، وكان اليأس من سمات سنوات ما بعد ١٩٦٧ في مصر ، وفي كل المنطقة العربية ، لكن الرئيس المصري أنور السادات ، خلال فترة وجيزة ، وفي أقل من أربع سنوات ، استطاع أن يستعيد كل مقدرات وقدرات مصر والعرب الى اكمل نضج سياسي وفكري ومعنوي ، فقد وضع استراتيجية واضحة ، وتحرك من خلال برنامج عملي واضح ، كقائد ، يعرف ما يريد ، ووحد كل العرب تحت لوائه ، والغى كل التناقضات والخلافات من اجل تكتيل كل الجهود لمواجهة اسرائيل ، ومن الخليج الى بغداد الى السعودية الى القاهرة ، ومن

السودان الى تونس والمغرب والجزائر ، صنع (حزاما) قوميا ، حول اسرائيل ، وفى نفس الوقت ، ومع تحركه هذا على المستوى العربى ، حاول أن يستعيد (الأرض) التى خسرها العرب عالميا وسياسيا فى الغرب واوروبا من خلال اخطاء عبد الناصر وتصرفاته فكسب الرأى العام العالمى ، صنع جبهة عريضة من الأصدقاء ، وحيد آخرين ، وكسب تعاطفا مع آخرين ومن خلال هذه الجبهة العريضة انطلق ، وفى نفس الوقت كان يسهر على الجبهة الداخلية ، ليؤمن سلامتها اقتصاديا وسياسيا ونفسيا ، فبعد أن ضرب اذيال الناصرية التى كانت تسعى الى الاطاحة بكل شىء ، من أجل تحقيق مآربها ، ضرب ضربته ، وكان قد استوعب كل مستحدثات الحرب والسلاح الجديد ، بحصوله على أحدث أدوات القتال ، ودرب قواته افضل تدريب ، وكان يقوم بنفسه لرؤية ما يدور من تدريبات ، فلم يكن مثل عبد الناصر ، يعتمد فى استقرائه للموقف على ما يكتب له من تقارير ، كان يذهب السادات بنفسه ، ليرى ، فهو سياسى قديم ، ومناضل له تاريخه الطويل فى المغامرات والنضال فى مختلف التنظيمات السياسية ، وكان ، ايضا ، قد درس أخطاء ١٩٦٧ ، وحاول أن يتعرف على سلاح عدوه واستراتيجية اسرائيل وتكتيكاتها ، واخضع اعلامه الداخلى والخارجى لمنطق الاتزان ، وأحيانا الزمه الصمت ، حتى يعمل فى هدوء ، فهو لا يحب الحديث بصوت عال ، انما يتصرف ، دائما ، من خلال سلوكه وحركته التى تتسم بالفلسفة العملية الصرفة ، المبنية على استقراءات واضحة للأرض التى يقف عليها والأرض التى سينقض عليها ، وهو لم يحارب من أجل هزيمة اسرائيل او الدخول الى تل ابيب، كما كان يحاول ان يعلن عبد الناصر ورجاله ، كان لقتاله مهمات محددة ، توصله الى ان يقف موقف الند للند ، بل كالمنتصر ، وهو يحاور عدوه ، حتى يحترم حواره ، ويستجيب لمطالبه ، والا فلديه القدرة ، ولدى الأمة العربية القوى العددية والامكانية لتهديد اكبر ، وهو لا يحاول أن يلجأ الى هذا كله ، فهو يريد أن يصل الى تسوية للقضية برمتها تضمن مصالح العرب ، وصالحهم ، وتعيد أراضيهم

اليهم ، ولا يرغب فى القضاء على الكيان الاسرائيلى بضربه لاسرائيل ... فقط يريد ارضه ، ويريد ما سلب ، وكجزء من القضية مطالب فلسطين ، باعتبارهم جزء اساسى فى المسالة العربية وازمتها . ومن هذا كله ، نحس بمدى حكمة السادات والذكاء الذى يتمتع به ، فهو داهية سياسية حقا ، محنك ، حكيم ، متزن ، يعرف ماذا يقول ، وكيف ، ومتى ... مثلما يعرف ، متى يمتنع عن الكلام ، ويكتفى ، فقط ، بالاستماع ، ولا نخفى أنه ابرع سياسى شرقى عرفه العرب حتى الآن فى تاريخهم الطويل » (١) .

❋❋ وفى تصريح شهير فى الامم المتحدة ، قال سفير أوربى فى الولايات المتحدة لصديق له ، من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى : « ان الرئيس السادات يتميز بالدهاء البالغ ، والحكمة الواضحة .. لدرجة اننا لا ندرى من الذى سيحتوى الآخر : د . هنرى كيسنجر أم أنور السادات . . ؟ ان هذا الرجل قادر على احتواء أى شخصية ، فيكفى انه حول العالم كله لصالحه حتى أمريكا نفسها .. فرجل الشارع الأمريكى ، الآن فى واشنطن ، يتعاطف مع قضايا العرب ، ويعرف ان الرئيس السادات ، يريد اقرار السلام فى الشرق الأوسط ولا يبغى استمرار المنطقة فى حالة التهاب دائم » . ويؤكد السناتور الأمريكى « شارلز بيرس » ، رغبة السادات المحقة فى السلام ، بقوله :

« ان السادات حريص كل الحرص على السلام ، وان لم يتحقق هذا السلام بكرامته ، فان الوضع يتغير ، لان السادات لايرضى ، ابدا ، بانصاف الحلول ، ثم انه يتميز بالجراة ، والشجاعة والاقدام ، ودائما يسير فى طريق الحل السلمى والدبلوماسى ، فاذا أعياه الأمر ، يلجا الى السلاح ، بعد ما يقنع العالم كله ، بان صبره قد استنفد ، وعليه ان يحقق امانى ومطالب شعبه والمنطقة » .

---

(١) نشر هذا المقال فى صحيفة الناشونال جارديان فى ديسمبر ١٩٧٢ ، تحت عنوان : « الى أين يسير زعيم العرب السادات ؟ والى اى مدى يتحرك على أرضه » ...

** وقد كتب المعلق والكاتب السياسى الامريكى (نيقولاس بروفيه) عن سياسة السادات ، فى العام الماضى ، فقال :

« لقد وفق السادات ، حقيقة ، توفيقا يكاد ان يكون مذهلا ، فالى جانب الاستحواذ على انتباه العالم ، اثبت من خلال تحركاته ومن خلال المواقف الجديدة فى حرب اكتوبر وما اعقبها من تحركات ، ان ما حدث فى عام ١٩٦٧ كان زيفا مضـــالا ، ولم يكن من سمات مصر أو العرب ، كان خطأ وزيفا نتيجة مناخ فاسد بذاته .. وهكذا اعاد الشرف الى المنطقة بعد افتقاده له لفترة ... فى نفس الوقت ، أيضا ، حقق للعرب أهدافا كانوا يفتقرون اليها ، وتتحدد هذه الأهداف فى : الوحدة المتكاملة ، والموقف الموحـد ، والقيـادة الكفء المبنية على أساس مدروس ... ولم يقدر لشعوب المنطقة العربية المتباينة ، ان تضم صفوفها وتوحد جهودها مثلما حدث فى ظل سياسة السادات ، وقد اضفى ركل شعبية ، لم تعرف لأى زعيم عربى من قبل على كل ما حدث وجرى اثناء الحرب وفى اعقاب الحرب . وهذه المكانة ، توفر للزعيم العربى ، مجالا ملائما للعمل خلال هذه الأيام الحاسمة ، وفى تقديرنا ، انه سيذهب الى مؤتمر جنيف عندما تكون (الطبخة) قد جهزت ، حتى لا يحدث خطأ ما ، وحتى يحل كل اطراف النزاع ، فى حكمة ، فهو لايريد ان يذهب الى جنيف ، وهناك (جيب) او (ثغـرة) داخل الصفوف ، يريد ان (يرتق) كل شىء ، حتى يصل الى حل تناقضات المسألة العربية فى جوهرها » .

** ويصف الكاتب الفرنسى (جاك كوبار) ، ما حدث فى حـرب أكتوبر من منجزات ، وما أعقب ذلك من تحركات ذكية للسادات ، فيقول :

« ان حرب اكتوبر قد جسدت شخصية السادات ، كبطل قومى ، وكمناضل محنك ، وكسياسى طليعى . فهو رمز لمصر ، وللعرب .. واسرائيل نفسها لاتنكر ما حدث من تفوق خلال اكتوبر ١٩٧٣ ... وقد استغل الرئيس السادات ما حدث فى هذه الحرب لصالح قضية العرب ، فحـــول

استجابته لوقف اطلاق النار ، وفك الاشتباك ، الى هدنة مؤقتة ، حتى تتدخل امريكا ، والروسيا ، لفض النزاع ، والوصول الى تسوية عادلة ، تنهى حالة الالتهاب فى الشرق الاوسط ، وهو عندما يتحرك ، يتحرك فى ذكاء نادر ، فهو لا يريد ان يكون فريسة لأحد ، ولا يريد لأمته ان تنحاز لاحد ، انه يريد ان يبنى علاقات من الود والتعاون والوفاق مع الجميع ، يفيد ويستفيد ، فى اطار مالا يضر بمصالح شعبه او بالمنطقة التى تبغى السلام ، حتى يتيسر لها اللحاق بالركب الحضارى الأوربى والغربى » .

ويضيف جاك كوبار ، أيضا ، فى رؤيته للسادات ، وما يحدث فى الشرق الأوسط ، فيقول :

« منذ بداية القرن التاسع عشر ، والامة العربية كانت تبحث عن رجل الاقدار ، وتصور نابليون من فرط رومانسيته انه الرجل المراد ، بل وكذلك تصور محمد على ، وكان احمد عرابى ، اول بذرة وضعت فى احلام هذا الرجل ، لكن الظروف لم تكن ناضجة ، واعقب عرابى العديد من الشخصيات ... سعد زغلول ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، محمد نجيب ، جمال عبد الناصر ، لكن لم يدرك أحد من هؤلاء ما ادركه انور السادات ، فهو رجل الأقدار عن جدارة ، لانه عبر بمصر والعرب الى امانيهم ، ومهد الأرض لمنجزات اكبر ، طالما ارتقبها التاريخ ، وانتظرتها الامة العربية كثيرا » .

** وعلى حين ، كتب العديد من كتاب الغرب عشرات المقالات والدراسات عن السادات ، ورأوا ، ان السادات قد غير ليس فقط من خريطة مصر والعرب عسكريا ، وسياسيا ، ونفسيا ، وعمق من رقعة الصداقة بين العرب والعالم أجمع .. نجد الكتاب السوفيت ، وكتاب الدول الشرقية عموما ، يلتقون فى رؤيتهم حول تفسير شخصية السادات ، وحول حرب أكتوبر ، وحول التحركات التى أعقبت حرب أكتوبر والتى تبذل الآن ، قبل أن يذهب العرب الى جنيف :

وكالة نوفستى السوفييتية ، كتبت تقول :

« انور السادات ، بطل قومى ، بلا شك ، امتداد للزعيم جمال عبد الناصر ، وقد سار بالثورة الى كل الآمال التى تحقق مكاسب الجماهير ، ومن هنا تبدو أصالته وصدقه ، ووفاؤه للثورة » .

كما قالت ، أيضا :

« السـلام ، كما ينبغى ، هو الدرس الذى تتعلمه اسرائيل ، من خلال حرب أكتوبر ، التى كانت مرحلة من مراحل التحرير » .

وفى مقال لصحيفة « السلم والاشتراكية » السوفيتية ، جاءت هذه الرؤية :

« ان موسكو ، تعتبر ان الحرب التى تدور رحاها فى الشرق الاوسط ، جزءا من حركة التحرير الوطنى العالمية ضد الامبريالية ، وهى فى نفس الوقت جزء من كفاح الشعوب العربية ، لاستعادة أراضيهم المحتلة منذ ١٩٦٧ ، والسادات الذى يقود المعركة ، تعبير واضح عن ارادة الأمم العربية ، فى سعيها لتحقيق منجزات حرب التحرير ، الذى يعتبر أكتوبر ، انطلاقة صريحة وحاسمة لها » .

وقد نشرت صحيفة برافدا السوفيتية ، بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد قيام حرب أكتوبر بعشرة أيام هذا التصريح : « ان موسكو ، تقوم بتزويد الدول العربية بالسلاح لمساعدتها فى تحرير أراضيها التى تحتلها اسرائيل » . كما أعلنت وكالة « تاس » السوفيتية فى نفس الأسبوع ، أن الاتحاد السوفيتى يؤمن بسياسة السادات ، ويؤمن بأن اقامة سلام دائم فى الشرق الأوسط لا يمكن أن يتحقق ، بدون التحرير الكامل لكل الأراضى العربية المحتلة ، وضمان حقوق شعب فلسطين .. وانطلاقا من هذا الموقف المبدئى ، فان الاتحاد السوفيتى ، يعمل ، دائما ، كصديق للشعوب العربية

وأن جماهير الشعوب العربية تربط بشكل مباشر بين زيادة المقدرة القتالية للجيش المصرى والسورى وبين المعونة العسكرية التى قدمها ، ولا يزال يقدمها ، الاتحاد السوفيتى » .

وفى مقال لصحيفة (البرافدا) السوفيتية ، بتاريخ ١٨ آكتوبر ١٩٧٣ ، جاء هذا المقال :

« ان الاتحاد السوفيتى ، يتخذ موقفا ثابتا ، كصديق ، جدير بالثقة للشعوب العربية ، وهو يدين سياسة اسرائيل فى ضم الأراضى العربية ، ويؤيد بحزم المطالب المشروعة للدول العربية لتحرير أراضيها التى استولت عليها فى حرب ١٩٦٧ .... » .

فى نفس الوقت ، نشرت صحيفة (الكومسمول) السوفيتية [١] ، دراسة مطولة عن جرائم اسرائيل على الارض العربية ، منذ ان تم انشاء اسرائيل حتى الآن ، وقد ربطت الدراسة بين نمو المجتمع الاسرائيلى واهداف الصهيونية العالمية والامبريالية العالمية ، وقالت : « ان اقامة السلام فى الشرق الاوسط ، أمر غير معقول ، بدون التحرير الكامل لكافة الاراضى العربية ، وهو الضمان الوحيد لعدم حدوث جرائم قد لا تهدد أمن المنطقة فقط ، بل تعرض العالم لويلات حرب عالمية ثالثة » . وفى مقال آخر ، بنفس الصحيفة ، جاء هذا التحليل : « لقد اكتسبت وحدة العرب نوعية جديدة ، من خلال حرب أكتوبر ، وقد نجح الساداث ، فى ذلك ، الى أبعد الحدود ، وكان حتميا أن يجتمع العرب وهم يواجهون حربا ضروسا تمثل الخطر على آمالهم وأمنهم القومى ، ومن الممكن رفع هذا التضامن الوحدوى مع القضية العربية الى مرحلة جديدة » .

---

(١) وهى احدى الصحف البارزة للحزب الشيوعى السوفيتى فى موسكو ، وقد نشر المقال الذى ننوه له هنا بتاريخ ١١ آكتوبر ١٩٧٣ ، وتحت عنوان : (من تاريخ الجرائم التى ارتكبتها الصهيونية ضد الشعوب العربية) .

وقد كتب المعلق والكاتب السياسى السوفيتى (سبارتاك يجلوف) ، يقول :

« ان اسرائيل ظلت من البداية تقوم بدور المعتدى ، وتغتصب الأراضى العربية ، وتمارس الارهاب ، ولكنها تلفت من العقاب الكثير ... فالصقور الاسرائيلية بعد ان بذروا الرياح .. رياح الاحتلال والارهاب ، واغتصبوا حقوق الشعب العربى الفلسطينى ، يحصـــدون اليوم عواصف العقاب .. فقد تحول التحدى المسلح ضد العرب فى سيناء والجولان فى أكتوبر ١٩٧٣ ، الى زحف منتصر ، جعـــل المعتدى ، يشعر بكل قوة الردع الحاسم » .

وكتب (يورى ايفانوف) يقول :

« اذكر أن ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهـــودى العالمى والرئيس السابق للمنظمة الصهيونية قال عن العرب: لماذا لايجلسون معنا ، حول مائدة مستديرة ، لنتفاهم .. الم نهزمهم فى حرب الأيام الستة ، أيريدون أن يكرروا المأساة؟ لابد أن يأخذ السادات درسا من الماضى !.. كان ذلك قبل أن تقوم حرب أكتوبر بعامين ، فقط ، وفى الحقيقة ان اسرائيل كان لابد أن تأخذ درسا قاسيا ، كالذى اخذته فى اكتوبر ١٩٧٣ ، حتى تفيق ، وحتى يذيب العرب الجليد الذى تراكم لسنوات على المنطقة العربية ، ولم يكن يدخل فى حســـبان اسرائيل ، أن العرب سيستعيدون مكانتهم ، وان الرئيس المصرى السادات ، سيستعيد الوضع الى افضل حالاته فى اسرع وقت ، وكما حدث » .

✻✻ صورة العرب ... تغيرت فى (مرآة الغرب) ، ومن خلال كافة الكتابات والدراسات التى كتبت حول حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وما أعقب ذلك من تغيرات فى المنطقة ، وقد أكدت مجلة (التايم) الأمريكية ، بعـــد رحلة الرئيس السادات لسالزبورج ، ومقابلته للرئيس الأمريكى « جيرارد فورد » . ان السادات أبرز وألمع شخصية ظهرت فى السياسة العربية حتى الآن ، وكتبت تقول « ان الرئيس السادات ، لسان حال العرب ، يتحدث

باسمهم ، ويعبر عن آمالهم وأحلامهم ، كما أنه يعرف كيف يعرض هذه الآمال ، ولا يسعى للحرب بقدر ما يسعى لاقرار السلم ، ومباحثاته مع أمريكا ، وتحركاته فى كل العالم ، يمكن أن تضع حدا للصراع الحاد الذى حول المنطقة الى كتلة من اللهب منذ حرب ١٩٤٨ حتى الآن » ..

وبين أبعاد الصورة التى تبدو فى مرآة الغرب عن مصر والعرب ، من خلال السادات ، تبدو القاهرة فى صعود ، وان العرب قد بدأوا يغزون بتغير سياستهم الى الأفضل قلوب أوربا والغرب .. وهو موقف تاريخى مشرف .. فقد استطاع العرب ــ كما تقول صحيفة « الاكسبريس » الصمود ، ثم تجاوز الهزيمة ، والخروج الى العالم بمنطق جديد ، بدأ يكسبهم صداقة العالم والرأى العام العالمى فى كل مكان ، وكان وراء ذلك كله شخصية الرئيس أنور السادات ، الذى استطاع ببعد نظره ، ودراساته للأوضاع دراسة موضوعية ، أن يتحرك فى الاطار السليم الذى لا يعيد الامور الى نصابها فحسب ، بل يضمن ، أيضا ، سير الأمور الى الأفضل فى السنوات القادمة ..

✻✻ بل أن الصورة ، داخل اسرائيل ، نفسها ، عن العرب ، لم يستطيعوا اخفاء أبعادها الحقيقية ، وفى صحفهم ، اعترفوا بذلك . حقيقة كان هذا « الاعتراف » يحمل العداء والروح الانتقامية ، ولكنه ، أبدا ، لم يكن ليستطيع نكران ما حدث فى المنطقة العربية ..

وحتى أشد الخصوم والاعداء داخل اسرائيل ، لم يستطيعوا اخفاء رأيهم فى السادات ، كقائد استطاع أن يغير الأوضاع ضدهم ، ويقلب ظهر المجن فى وجوههم ..

كتبت صحيفة « دافار » الاسرائيلية ، تقول :

« انه من الخطأ أننا استهنا بقدرات العرب ، بل وأسكرتنا انتصارات ٥ يونيو ١٩٦٧ ، بل وقللنا من شأن الرجل الجديد الذى ورث تركة العرب ، وقلنا لحظتها : ان مصر مثقلة بالجراح والديون والانهيار الاقتصادى والنفسى .. وماذا يستطيع اى رجل أن يفعله امام وضع كهذا غير « ترقيع »

أو (رتق) الاهتراءات ، وأى نتيجة من الممكن ان يوصلها وضع كهذا ؟ اننا لا ننكر ان العرب فى يوم من الأيام ، سيستعيدون قوتهم .. لكن ، ليس الآن .. واذا حدث ، فسنكون ، نحن ، قد تفوقنا ، ولا يمكن ابدا ان نصل الى هذا (التفوق) ... لكن فى الحقيقة ، ان تقديراتنا لم تكن تسير بسرعة ما يحدث ، فلقد كانت الشخصية التى أمامنا تختلف تماما عما تعودناه : شخصية الرئيس المصرى انور السادات ، كنا ننظر اليه على اساس انه رجل (طيب) و (متواكل) ولا يختلف عن عبد الناصر الا فى انه اقل شراسة فى تهديداته وتوعداته ، ثم انه كان مشغولا بالجبهة الداخلية ، لكننا لم نكن نتوقع ، ابدا ، انه سيهجم ، وبهذه السرعة ، بل ويحارب بهذا السلاح المتقدم العصرى ، ولا نخفى اننا لم نباغت فقط ، بل ولم نخدع فقط ، بل اصابنا الامر بالدهشة ، فنحن امام عدو يختلف تماما عن العدو الذى حاربناه طوال السنوات الماضية ، وبالتالى ، نعترف الى جانب (التقصير) ، باننا امام شخصية مثيرة ــ السادات ، استطاع لا ان يحقق انتصارات عسكرية فقط للعرب ، وانما احتوى العديد من المواقف الدولية لصالحهم ، بل وفرض علينا ان نقبل ما لم نكن نقبل مناقشته والتفريط فيه من قبل ! » .

** وتقول الدكتورة « ليديا موجوريان » ، عضو هيئة رئاسة اتحاد الحقوقيين الديمقراطيين العالمى ، واستاذة السياسة والقانون السوفيتية : « ان اسرائيل اضطرت ان تعترف ، اخيرا ، بهزيمتها عسكريا وسياسيا ؛ وهذا واضح من كثير من الكتب والدراسات التى وصلت الى يدى مثل : (حرب التقصير) ، أو (كيف بوغتت اسرائيل) . أو (الضربة ، والدفاع ، واستعادة المواقف » ..

وكان وراء هذا التغير ، كما يؤكد الاسرائيليون أنفسهم ، ثلاثة عناصر أساسية : أولا شخصية السادات نفسها بما أوتى من بعد نظر وخبرة وقدرة على الحنكة ، تجمع العرب فى صف واحد ، الاستعانة بأحدث أدوات الحرب التى كان وراءها السوفيت أنفسهم ..

وموشى ديان .. نفسه يعترف ، بهذا ، فيذكر لمراسل وكالة الانبــاء الفرنسية ، فى أواخر ١٩٧٣ :

« اننا لا ننكر ان العرب قد غيروا الموقف ، وان الميزان الذى كان لصالحنا ، حاول أن يقلبه الرئيس المصرى السادات ، ومهما اختلفنا فى أمر العسكريات سواء اعترفوا بالثغرة أو لم يعترفوا ، ومحاولاتنا دخول السويس ، فلا أحد ينكر أن السادات استطاع أن يؤكد نجاحا ، واذا أنكرنا هذا فنحن ننكر منطق ما حدث ، ورغم العداء بيننا وبين العرب ، لابد أن نعترف بهذا » .

** وكثير من الشخصيات المعروفة ، والقيادية ، فى عالمنا .. سحرتهم شخصية السادات .. بقوتها ، باتزانها ، بحكمتها ، بارادتها ...

فالسادات على حد تعبير « أندبرا غاندى » : قد اســتطاع الرئيس المصرى السادات ، أن يعيد الأمور فى كل ما حدث ، وعلى ضوء ذلك ، وضع منهجا عمليا سليما لالحاق الضربة باسرائيل ، واعادة الحياة الى مجتمعه فى الداخل على أفضل ما ينبغى ، هذا الى جانب قدرته الخارقة على اعادة وحدة الصف العربى ، وتجديد علاقات العرب بالعالم ، وكسب أكبر عدد ممكن من الدول التى أصبحت صديقة لمصر والعرب ، انه رجل حرب شجاع ، ورجل سلم حكيم » .

** بينما يرى الرئيس الفرنسى « فاليرى جيسكار ديستان » ، فى السادات ، شخصية قيادية ووطنية نادرة ، وقد أبدى اعجابه الشــديد بالرئيس المصرى ، عندما زار باريس فى آواخر يناير ١٩٧٥ ، واستضافه فى « قصر المارتنيه » .. وكان موضوع الزيارة محاولة الوصول الى نقاط واحدة حول أزمة الشرق الأوسط وحقوق شعب فلسطين ، ومحاولة كسب فرنسا بشكل كامل الى جانب العرب ، باطلاعها على دقائق الموقف ، وعن قرب . قال الرئيس الفرنسى ديســتان ، بعد هــذه الزيارة ، عن الرئيس السادات :

« انه يعرف كيف يعرض القضية ، وبموضوعية كاملة ، وهو مخلص كل الاخلاص لبلاده ، ومستعد الذهاب الى أبعد مدى لحل تناقضات القضية العربية فى جوهرها ، ثم أنه يتميز بمصريته الشديدة .. البساطة .. الحب .. الرغبة فى السلام وكسب الاصدقاء » .

أما الامبراطور « محمد رضا بهلوى » ، شاه ايران ، الذى استطاع السادات ان يعقد معه صداقة حميمة ، اعاد من خلالها العلاقات الودية على مختلف المجالات مع ايران ، على أسس متينة من الحب والوفاء .. فقد تحدث عن الرئيس السادات فى حب وتقدير عظيمين وقال فى تصريح له لمجلة (دير شبيجل) الألمانية :

« ان السادات سياسى عظيم ، ومسئول ، وقادر على اقرار السلام ، وايضا ، على استمرار الحرب فى المنطقة » .

كما قال امبراطور ايران ، أيضا ، فى تصريح له لصحيفة (الاهرام) المصرية ، بتاريخ ٢٦ ابريل ١٩٧٤ :

« اننى انظر باعجاب وتقدير الى سياسة الرئيس انور السادات . واننى لاعتقد ان شخصية السادات قادرة على ان تسير الأمور دائما الى الأفضل ، واننى ارى ان الاطراف المعنية فى مؤتمر جنيف تقوم بدورها ، كما هو مطلوب ، ومع ذلك فاننى على يقين أن العرب سينجحون فى وقت ليس بالبعيد فى استرجاع أرضهم وتحريرها ، ولابد من تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، باعتباره القرار الأمثل الكفيل ، باقامة سلام عادل فى الشرق الأوسط ... واننا ولا شك ، نضع كل ثقلنا مع تحرير الأرض العربية ، وعلى استعادة الاراضى المقدسة الاسلامية فى القدس ، واعتقد أن الفاتيكان يؤيد الدول الاسلامية فى هذا الموقف » .

** بينما وصف الدكتور (برونو كرايسكى) مستشار النمسا السادات ، بقوله :

« انه شخصية عظيمة ، حقا .. لأنه يدرك مسئوليته امام الشعب ، ويعرف تماما قيمة سلاح الحرب وفاعليته ،

كما يدرك فى نفس الوقت معنى السلم وحسناته ومميزاته ، وهو يتمسك كل التمسك ، وبايمان قوى ، بالقضية العربية »

** وفى تصريح للرئيس الرومانى « نيقولاى شاوشيسكو » ، عند زيارة السادات لرومانيا فى أواخر يونيو عام ١٩٧٤ ، قال لصحيفة بوخارست :

« ان شخصية السادات من الشخصيات النادرة ، حقا ، فى التاريخ ، فهو قوى فى الحرب وفى السلم ، استطاع أن يعيد للعرب مكانتهم بل وقوتهم ، بعد أن حاولت اسرائيل ، والدول التى خدعت بتزييف الرأى العام ، وهكذا بدأ العرب ، يغيرون من طبيعة الأمور فى الشرق الأوسط ، الأمر الذى يسير سيرا حسنا بحركة التحرر الوطنى ، والتى يلعب على رأسها السادات دورا بارزا يتسم بالشجاعة والاقدام » ..

وفى حفل العشاء ، الذى اقامه الرئيس الرومانى للسادات فى بوخارست فى يونيو ١٩٧٤ ، دار الحوار بين الرئيسين .. فقال السادات :

ــ ان الوقوف ضد الأمانى المشروعة للشعب الفلسطينى ، معاد للتاريخ ومضاد للحركة الثورية ، وان أى تهاون للقوى المحبة للسلام فى تأييد هذا المطلب للشعوب العربية والشعب الفلسطينى ، اضعاف بالغ لحركة التحرير فى العالم ....

كما أضاف .. ان العالم المحب للسلام ، كله ، لابد أن يتحرك ويدعم كل ما من شأنه أن يدعم قضايا العرب ، فى استعادة حقوقهم الشرعية ، ومؤتمر جنيف ، فرصة سانحة ، لتحقيق ذلك ، ومن الممكن ومن خلاله ، اقرار سلم عادل فى المنطقة العربية ، وانهاء حالة التوترات والالتهابات الدائمة فى الشرق الاوسط ...

كما قال الرئيس (شاوشيسكو) ..

« ان قوى السلام فى أعقاب عبور أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت مرهونة بحكمة الرئيس السادات ، فبمدى الجهد الذى بذله ، كانت الظروف تتأرجح » .

* وفى أكثر من مناسبة ، أبدى الدكتور « هنرى كيسنجر » وزير الخارجية الأمريكية اعجابه الشديد بحكمة السـادات ، وبعد نظره ، وتكوينه السياسى والنضالى كزعيم عربى ... وربما كان ذلك واحدا من الاسباب الرئيسية التى أتاحت جوا من الاقتراب والود فى المحادثات المصرية ــ الأمريكية ، ومنذ الوهلة الأولى .. وكذلك كان نيكسون ، لا يخفى اعجابه الشديد بشخصية السادات ، وفورد ، نفسه ، وبعد أن التقى بالرئيس المصرى ، قال فى أكثر من مناسبة ، أنه معجب بشخصيته التى تتميز بالوفاء للعرب ، والاخلاص ، والصدق فى كل ما يهدف اليه .. ومن فرط اهتمام د. كيسنجر ، بالقضية العربية ، واحتفاله الكبير بأهمية حل تناقضاتها فى جوهرها ، أنه قال : « أنا مهتم بالقضية العربية ، تماما فهى قضيتى ... مصر قضيتى .. وقضية العرب قضيتى .. ولا يهمنى الا حل القضية .. وبالنسبة لاسرائيل فما أفعله اليوم ، من محاولات لسيادة السلام يبدو بالنسبة لاسرائيل أكثر فعالية مما فعله موسى وداود وسليمان لليهود ... فانا أبذل كل ما فى طاقتى على استتباب السلام فى الشرق الاوسط ، بما يضمن عودة الأراضى السليبة الى العرب ، وتحقيق أمانى الشعب الفلسطينى وضمان حدود إسرائيل وكيانها كدولة تريد أن تبنى مجتمعها فى ظروف آمنه ... ولابد أن أضع قبضتى على فوهات المدافع ، مهما كان الثمن ، حتى تصمت نهائيا ، واعتقد ان الرئيس السادات جاد كل الجدية فى رغبته فى اقرار السلام ، بمـا يضمن حقوق العرب العـادلة وشرعية قضيتهم » .

* * وقد اعترفت كل وكالات الأنباء فى العالم ، فى تعليقاتها الخاصة وتحليلاتها عن حرب اكتوبر ، والنتائج السياسية التى وصل بها السادات الى آفاق جديدة بالنسبة لمسار الثورة العربية ، اعترفوا بنجاح السادات ، وعبقريته الفذة التى غيرت لا تاريخ منطقة الشرق الاوسط فقط بل غيرت دفة العالم أجمع من خلال محور المنطقة العربية ...

قالت وكالة الانباء الفرنسية ، فى تحليل لها فى يناير ١٩٧٤ :

« ان السادات ، الرئيس المصرى ، استطاع ان يثب بالعرب من « الحفرة) الى القمة ، وان يحول النصر العسكرى الى نتائج سياسية هامة ، ومن هنا تبدو قدرته ، وعبقريته كقائد عسكرى ومفكر سياسى » .

بينما قالت اليونيتيد برس ، فى تعليق لها ، أثناء فك الاشتباك بين مصر واسرائيل :

« ان العرب نجحوا فى ابطال مفعول « اسطورة التفوق العسكرى الاسرائيلى) ، كما انهم سينجحون فى الوصول الى خطوات عملية ، تحول من طبيعة مسار الأمور فى الشرق الأوسط ، بما يضمن عدم استمرارحالات التوتر الدائمة التى عاشتها المنطقة لأكثر من ربع قرن من الزمان » .

وقالت وكالة تاس السوفيتية :

« ان حرب اكتوبر ، وما انجزه العرب من خلال الانتصارات العسكرية والسياسية ، ليمثل جانبا هاما ، ومنعطفا اساسيا فى حرب التحرير العربية ، التى يلعب الرئيس المصرى انور السادات دورا قياديا بارزا فيها » .

※※ وفى المانيا الغربية ، أبدى « هانز يورجن » وزير الخارجية اعجابه بسياسة السادات .. وقال أنه أبرز قائد عربى ، شهدته المنطقة حتى الآن ،وانه معجب به ايما اعجاب ، وصرح فى حديث له نشرته صحيفة « دوتز رونيدشاو » الالمانية ، فقال :

« ان الرئيس انور السادات ، سياسى موهوب ، وعلى دراية تامة بمشاكل بلاده ، وبالمشاكل الانسانية ، وهو قادر ، تماما ، على حل المشاكل التى تعترض بلاده وتقف حائلا دون اقرار واستتباب السلام فى الشرق الأوسط » .

** وفى امريكا اللاتينية ، كتبت اكثر من صحيفة عن سياسة السادات ، ابتداء من صحيفة (الثورة) ، الى صحيفة (القارات الثلاث) ، الى صحيفة (الفكر والثورة) ، ومما جاء فى مقال لشرته صحيفة (القارات الثلاث) ، هـذه السطور ، والتى من خلالها يرى السادات فى المرآة اللاتينية :

« ان العرب ، قد تغير الحال بالنسبة لهم ، فبعد ان كانوا يعانون مرارة الهزيمة ، بانحسار تيار الثورة التحررية ، وبما الحقته حرب الأيام الستة بالمنطقة ، وبالنفوس ، وبالحركة الثورية ، استطاع الرئيس المصرى أنور السادات ، أن يعيد الى المنطقة مكانتها .. بل واكثر تقدما وعلوا مما كانت عليه . تجاوز الهزيمة ، وبدا يعيد بناء مجتمعه المصرى ، على اساس سليم ، يستهدف تحقيق الوطنية والديمقراطية ، وفى نفس الوقت يسعى جاهدا الى حل المشاكل المتعلقة بدول المواجهة: القاهرة ، دمشق ، عمان ... من حيث اعادة الأراضى السليبة ، ومن حيث تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، ومن حيث محاولة الوصول الى تسوية سلمية تضمن سير الامور سيرا طيبا فى المنطقة ، وهذه النجاحات ، ان اكدت ، فهى تؤكد قدرة ونضال الشعوب العربية فى مواجهة الصهيونية والامبريالية العالمية ، كما يبرز فى هـذا المجال دور الرئيس السادات فى قيادته للشعوب العربية نحو تحقيق متطلبات الثورة العربية » .

** وفى افريقيا ، كانت العديد من التصريحات والدراسات ، ومن ابرز ما قيل حول السادات وحرب اكتوبر والتحركات العربية التى تسير بالقضية العربية الى حل تناقضاتها ، هذه الكلمات ..

قال ليبولد سيدار سنجور — رئيس جمهورية السنغال :

« انور السادات ، رجل دولة عظيم ، يقود شعبه بحكمة ، وهو من القادة الذين لا يميلون للدعاية والظهور ، بقدر ما يميل الى العمل ، وفى مثابرة غريبة ، ويتركز عمله الخالد ، فى خدمة شعبه ، والعرب ، والانسانية كلها فى عالمنا اليوم ، تتحدث عنه وعن حكمه وعبقريته » .

وفى أوغندا ، قال عيدى أمين :

« انور السادات .. السياسى المحنك ، الذى ارجع التعاون الصادق مع افريقيا ، على اساس من القوة والقيادة الحكيمة . لقد صنع نوعا من التضامن الافريقى لم يحـدث من قبل ، بحكمته ، وبعد نظره العظيم » .

وفى الجزائر ، قال بومدين :

« عندما قامت الحرب فى يونيو ٦٧، كنا مغتبطين ، وعندما توقفت ، اصابنا الحزن ، لكن لابد من الاشارة هنا الى ان ما يحدث من حرب ، الآن ، فى اكتوبر ، يمثل اهميته الكبرى والمتعاظمة فى حركة التحرر الوطنى ، وبالنسبة لثورة التحرير العربيـة ... »

الا أن الجزائر ، كانت تريد أن تستمر حرب أكتوبر ، أياما أخرى بل ربما سنوات ، وهذا عكس نفسه فى أكثر من تصريح رسمى ، وفى صحفهم ، فمنذ اللحظات الاولى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، أعلنت الجزائر ، أنها طرف رئيسى ومباشر فى الصراع ، وقد أعلن بومدين ، أنه وضع كل شىء تحت تصرف مصر ومن أجل حرب طويلة الأمد ، وكان ذلك يعنى أن الجزائر فى سبيل ذلك قد خططت على أساس ان تحارب ولو أدى الأمر الى عام ١٩٨٠ لأنها كانت ترى أن هذا يحقق أهداف الثورة العربية وبشـكل عاجل .. بينمـا كان الغرض الأساسى للسـادات ، فى حربه ، وكما أوضح ، ليس استمرار الحرب سنوات وسـنوات ، لأنه كما قال : « كان فى تخطيطى للمعركة ، ان الاتحاد السوفيتى يواجه أمريكا .. القوتان الكبريان يوازنان

بعضهما ، ويترك الأمر لنا لنواجه اسرائيل ، وهذا ما حدث فى أكتوبر ٧٣ ، وكانت المعركة تستهدف انجاز مهام بعينها ، أما ان تنتقل الحرب الى مواجهة مع أمريكا ، فهذا ما لم يكن فى استطاعتى ، ولم يكن فى حسابى على وجه التحديد » .

أى أن حرب أكتوبر ٧٣ ، كانت تستهدف مهام قتالية بذاتها ، وعندما تحققت ، أوقف اطلاق النـار ، وبعض من كان يهمهم (الاسـتمرار) لم يقنعوا بذلك ، برغم الانتصارات العسكرية التى حدثت منذ حرب السادس من أكتوبر ٧٣ حتى ٢٢ أكتوبر ٧٣ — وهو يوم وقف اطلاق النار ، قـد أدى النتائج السياسية المرجوة ، والتى تسير سيرا حسنا ، اليوم ، فى اتجاه حل « المسألة العربية » فى تناقضاتها الأساسية ...

●

عشرات المقالات ، والدراسات ، والأبحاث ، صدرت عن السادات من خلال الانتصـارات التى حققها ويحققها للعرب ، طوال الخمس سـنوات الماضية ، ومهما قلنا ، أو حللنا ، فلن يتسع المجال لذكر كل شىء فى هـذا الصدد ... كل ما أريد أن الخص من خلاله الموقف فى هذا الفصل ، الذى يعرض للسادات ، كما يبدو فى (مرآة العالم) ، وكيف نظروا اليه ، والى مصر ، والى العرب ، خلال السنوات الخمس الاخيرة ، ألخصه فى هذه النقاط الأساسية :

* أولا : قد تغير الموقف بالنسـبة للعرب فى مرآة الغرب والشرق ودول العالم كله ، فأصبحوا ينظرون الينا من خلال مرآة نظيفة ، لا يشوبها الضباب ، ولا يعتريها الخدوش ، ولا تبدو حتى مرآة مزيفة كالمرايا التى كانت تبدو فى الماضى ، وتحاول أن تذر التراب فى العيون على أساس من الارتكاز على أوهام كاذبة ...

* ثانيا : الجميع ، سحرهم السادات ، بشخصيته الفذة العبقرية ،

كقائد سياسى ، كقائد عسكرى ، كمفكر ومنظم أيديولوجى ، كبطل قومى للعرب ، كانسان يتميز بالبساطة وعدم الغطرسة وعدم الميل للظهور .. فهو لا يميل الى المغامرة ، ولا يحكم من خلال العواطف ، وينطلق دائما من نقطة علمية وعملية ليصل الى نتائج واضحة غير متشكك فى أنه سيصيبها ..

* ثالثا : حتى الخصوم ، والأعداء ، حتى اسرائيل نفسها ، بهرتها شخصية السادات ، وغيرت أمورها ، ومنهجها بناء على ما أحدثه الرئيس المصرى فى المنطقة وفى العالم أجمع . فقد استطاع أن يكسب الرأى العام فى أوربا وامريكا ، هذا الرأى العام الذى كان فى غالبيته يساند اسرائيل خلال ١٩٦٧ وما أعقبها من سنوات تفوقها العسكرى والسياسى والاعلامى ... لكن بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، لم تعد الدولارات تجدى ، ولم يعد الاعلام الصهيونى الموجه يجدى ، فقط ، « رجل الشارع » ، فى امريكا ، وفى أى بلد اوربى ، لا يقتنع الا بصدق القضية ، ومن خلال صدق قضيتنا ، ومن خلال عدالة مطلبنا ، ارتبط رجل الشارع فى الغرب بالمطالب العربية ، وبدأ ينظر الى الشرق الأوسط من خلال أن العرب على حق فى المطالبة بنيل اراضيهم المغتصبة ، وإن السادات رجل جاد ، محب لوطنه ، مخلص لارضه ، راغب فى صداقة العالم والتعاون مع كل الدول باحترام كامل ، راغب فى السلام الى حد بعيد ..

* رابعا : ان تحركات الرئيس السادات ، على المستوى القومى ، والعالمى ، والرحلات التى يقوم بها فى مختلف عواصم العالم ، يكسب العرب عطفا أعظم وفعالية اكبر للقضية نحو حل تناقضاتها فى جوهرها ، ومع الأيام ، تتعمق الصورة أكبر ، لمصر والعرب ، فى مرآة كل العالم ... فلقد استطاع (الفارس العربى) المعاصر ، أن يغزو قلوب العالم ، بمنطقه السليم ، وبموضوعيته الأصيلة ، وبحكمته المتزنة ، وبمواقفه الشجاعة ، وبكسبه لمزيد من (الارض) عن طريق عبقريته ، وبتحركة فى الطريق السليم لحل القضية .. بعدما كان « منطق العنتريات » هو الاساس ،

و « الفكر التجريبى » هو المنطلق ، وبعدما كانت العنجهية والغطرسة هى الاســاس ، وبعدما كانت نظرة العزلة والتقــارير والمخاوف هى الاسلوب ...

من منطلق (مرآة مصر) الداخلية ، ووضوح صورة (البطل) فى وجدان مصر والعرب ، واقتناعهم الكامل بفارسهم الذى عبر بهم الهزيمة ، وبدأ يسير بالقضية معهم الى آفاق أرحب ، والى مجتمعات متقدمة ترمى الى تغيير بنية المجتمعات العربية بما يتمشى مع متغيرات العصر ... من هذا المنطلق ، امتدت الصــورة الى الخارج ، فرآها الناس ، فى وضوح ، واخلاص ، وآمنوا بها ، بل سحروا بنقائها وحكمتها وعبقريتها الواضحة ..

الفصل التاسع

السادات والدولة العصرية

« لابد من مواصلة الكفاح ، لبناء الدولة الحديثة . نستمر فى تدعيم البناء العسكرى باحدث وآخر ما يتوصل اليه العصر من الفن العسكرى ، ونستمر فى البناء الصناعى الى آخر ما فى العصر الحديث من مستحدثات ، ونحن نمضى من ناحية تدعيم البناء العسكرى ، ونمضى فى نفس الوقت فى استمرار الخط السياسى النشط ، وكذلك لابد لنا أن نسير فى خط ثالث مواز ، هو بناء الدولة العصرية » .

انور السادات



كان الانسان ، يعتقد ، أنه مركز الكون . عندما اكتشف أن الأرض ليست هى المحور الذى تدور حوله الأفلاك ، أصابه تشنج جعله يصرخ فى وجه العلم . لم يكن هنــاك سبب ، سوى اكتشافه ، أن « أرضه » العظيمة تدور حول الشمس وليست الشمس هى التى تضىء له ... ولأن الانسان ، يحس ، احساسا هائلا بذاته ، ربما كان هذا وراء احساسنا الحاد بالآفاق الجديدة التى نحن مقبلون عليها .. فقد تجاوزنا عام ١٩٧٥ .. وبدأنا ندخل الربع الأخير من قرننا الحالى ، أى بدأنا نستشرف آفاق القرن الحادى والعشرين ... وهذا يعنى دخولنا مرحلة جديدة من الفكر والعلم .. والعالم أصبح يجرى بعد أن كان يسير ، وعشرة أعوام من عمر البشرية اليوم ، تعنى اكثر من ستة أو سبعة قرون فى الماضى .. كان الجبرتى يعلق على أحــداث الشهر ، قائلا .. أنه لم يحدث فيه شىء يذكر .. أما اليوم ، فالمؤرخ رأسه تدور مع أحداث يوم واحد ..!

وفى عصر ، كهذا ، ينتابنا احساس أهــل الطفل الوليد ، ويصــعد الى السطح سؤال : ما هى صورة المستقبل ؟

وهو سؤال تصعب الاجابة عليه ، لأن الأحداث لم تعد تجرى فى نهر الحياة ... بل أصبحت تندفع مع شلالاتها ، والرصد أصعب هنا ألف مرة .. واذا كان تسجيل الجزء صعب ، فان الخروج بصورة عامة أكثر صعوبة ، لكننا مع ذلك نحاول أن نستشرف صورة الغد ...

وصورة الغد ، بالنسبة لنا ، هى صورة : « دولة العلم والايمان » ، التى تحقق للمواطن نوعا من الامان والرفاهية ، تكفل له أن يحيا فى سلام محققا أحلامه ومطامحه التى يصبو اليها . لكن هذه الدولة ، الوصول اليها،

ليس باليسير ، وليس بالكلام وحده يمكن اقامتها ، لانها صورة المجتمع التى تتمثل متغيرات العصر فى نفس الوقت الذى تتخذ الايمان الهاما لها ومناخا عاما كى لا يفقد الفرد توازنه النفسى داخلها ، كما يحــدث فى المجتمعات العصرية، عندما يحس الفرد بالهوة تتسع بين عالم (الاوتوميشان) وداخله الحسى والعاطفى والروحى ..

واذا نظرنا الى المعــركة التى تخوضها الشــعوب العربية لازالة آثار العدوان الاستعمارى الاسرائيلى ، وما حدث من انتصــارات عسكرية وسياسية على كافة المستويات فى أعقاب حرب آكتوبر ١٩٧٣ ،وما أعقب ذلك من فك الاشتباكات على الجبهتين المصرية والسورية ، ثم ما حدث من تحركات عربية ودولية على رأسها رحلة السادات الى البلاد العربية ، ثم رحلته الى سالزبورج فى النمسا والتقائه بالرئيس الامريكى فورد ، ثم ما أعقب ذلك من مكاسب ديمقراطية وسياسية واجتماعية فى مصر ، ثم افتتاح قناة السويس فى ٥ يونيو ١٩٧٥ وابداء كافة الاستعدادات من قبل مصر والعرب لاقرار السلام والذهاب الى مؤتمر جنيف للوصول الى حلول عادلة تصل بالقضية العربية الى حل تناقضاتها جوهريا بعودة الأراضى السليبة الى أصحابها وضمان الحقوق الشرعية لشعب فلسطين .. اذا نظرنا الى كل ذلك ، نجد أن هدف اقامة (الدولة العصرية) ، على أرضنا ، من الأهداف الاستراتيجية الحتمية لثورتنا ، والتى يقودها البطــل والمعلم والقائد محمد أنور السادات ، فهو يقول :

((لابد من مواصلة الكفاح ، لبناء الدولة الحديثة . نستمر فى تدعيم البناء العسكرى ، باحدث ما توصل اليه العصر من الفن العسكرى ، ونستمر فى البناء الصناعى الى اخر ما فى العصر الحديث من مستحدثات ، ونحن نمضى من ناحية فى تدعيم البناء العسكرى ، ونمضى فى نفس الوقت فى استمرار الخط السياسى النشط ، وكذلك لابد لنا أن نسير فى خط ثالث مواز ، هو بناء الدولة العصرية))

ولكن كيف يمكن التوصل الى بناء الدولة العصرية ؟

لا سبيل الى ذلك الا بتمثل العلم ، ومتغيرات العصر ، فاننا فى حاجة الى تطوير كل شيء ونقله الى أشكال وأساليب العالم العصرى ، وكما يقول السادات : « لابد أن ندخل عصر التكنولوجيا ، وليس بوسعنا أن نبقى متخلفين، والا انقرضنا كما انقرض الهنود الحمر فى الولايات المتحدة ! » ويقول ، أيضا :

« من أبرز آثار الثورة التكنولوجية فى عالم اليوم ، ذلك التقدم الهائل فى وسائل نقل الأفكار والمعلومات والتيارات وانماط السلوك المختلفة ، عبر الحدود القومية لكل المجتمعات الانسانية على السواء ، وبالتالى ، سقطت الحواجز القديمة العازلة بين بيئة وبيئة وبين مجتمع ومجتمع ، وفى وجه هذا التحول الثورى المتزايد ، لايمكن أن تكون حصانتنا ازاء هذا الانفتاح والاتصال ، الا من داخلنا .. ولا يكون الحفاظ على هويتنا بالانكماش والجمود والضعف ، وانما يستمد حيويته من قدرتنا على التجديد ، وثباته من تمسكنا بالأصالة، وبهذا المعنى، فان عملنا من اجل أن نبنى فى بلادنا مجتمعا عصريا ودولة حديثة، لا يعنى النقل والتقليد . اننا قادرون ، على أن نصنع بانفسنا، ولانفسنا ، حضارة عصرية ذات طابع مصرى وعربى أصيل . نحن نرفض ، أن تكون الأصالة ، نظرة الى الوراء تقدس الماضى ، لانه الماضى ، وترفض التجديد ، فليس كل ما كان فى الماضى مشرقا ، ولكنه فيه بعض عناصر التخلف .. ونحن نرفض من جهة أخرى ، ان نمسخ شخصيتنا القومية باسم محاكاة المادية او السلوكية لمجتمعات أخرى » .

وربما كان قول المفكر والفيلسوف الانجليزى المعاصر (موريس كورنفورث) ، على حق عندما قال : « انتهى عصر الجيوش العددية ، كما انتهى عصر الاجتهادات فى العمل والحياة .. ان الثلث الاخير من قرننا الحالى ، أن البضع سنوات الاخيرة التى بقت على قدوم عام ٢٠٠٠ ، تحتم علينا ، ان نفكر من خلال العلم ، وربما كانت هذه مشكلة الدول النامية

والدول المستقلة حديثا ، والتى تسعى لاقامة مجتمعات جديدة ، لابد أن تقوم هذه المجتمعات على قاعدة متينة من العلم ، حتى يكون المجتمع قويا وسليما ، وحتى تستمر الثورة فى هذه البلدان الى ما فيه خير المواطنين » .

ويستشهد كورنفورث على ذلك ويدلل ، فيقول : « ان جحافل جيوش نابليون بونابرت ، لم تعـد كافية لتواجه معركة واحدة ، فيتنام ، كذلك جيوش برونزويك الالمانى الذى تصدى لبونابرت ، لن يكون فى مقدورها الثبات اكثر من بضع دقائق فى معركة واحدة من معارك السبعينات فى قرننا الحالى .... لقد تغير كل شىء .. الحرب تغيرت ، الصناعة تغيرت ، علاقات الانتاج تغيرت .. وبالتالى ، تغير مفهوم الثقافة ، والفن ، والحب والصداقة .... كل هذا أصبح ينظر اليه بعين مستحدثات العصر الذى نحياه ويتطور فى سرعة غريبة » .

ويقول السادات :

« ان المنهج العلمى ، الموضوعى ، هو الطريق الوحيد الذى يؤدى الى التقدم الحضارى » .

ويضيف :

« ان علينا أن ننفتح على آفاق التقدم ، ذلك أن الحواجز ، فى عالمنـا الجديد لن تكون حواجز بين الألوان ، أو الأجناس ، وانما سوف تكون الحواجز بين التقـدم والتخلف ، والعلم يجرى بسرعة خارقة . ونحـن لا نستطيع الاكتفاء بالحديث عن العلم دون أن نخوض عوالمه ، والا كنا نكتفى بتشخيص المشكلة ، ونستغنى فى ذلك عن علاجها . نحن أكثر من غيرنا لا أمل لنا الا فى العـلم ،ونحن أكثر من غيرنا مدعوون الى الأخـذ بأسبابه وتلك ضرورة تصنعها حتمية أن تتفق آمالنا العريضة مع منجزاتنا الحقيقية ، وأول خطوة على هـذا الطريق هى التعليم ، الذى يجب أن ننتقل به بأسرع ما يمكن ، من بقـايا القرن التاسـع عشر الى آفاق عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء » .

والغريب ، أن مناهج التعليم ، لدينا ، وحتى الآن ، لا زالت خاضعة لاساليب وقوالب العصور الماضية ، وتسير وفقا لمنهجية غير علمية ، حتى كتب الجامعة ، اذا ما قلبت فى الكثير منها ، لوجدت العديد من الاخطاء والنظريات التى عفا عليها الزمن ولم يعد يؤخذ بها ، سواء كان ذلك فى العلوم الوضعية أو فى العلوم الاجتماعية والنفسية أو فى العلوم الطبيعية !
والسادات ، يرى ان التعليم فى بلادنا ، يمثل « ركيزة أساسية » ، فعلى أساسه ستخرج أجيال تتخذ من العلم والتكنولوجيا سلاحا لها فى كافة المجالات ، لكن ما فائدة ان ننادى بالعلم ، ومتغيرات العصر ، وأبناء هذا الجيل « يتعاطون » افكارا ونظريات خاطئة فى الاقتصاد وعلم النفس والفلك والتربية والبيولوجى والفيزياء ، بل أن الكثير من العلوم المحدثة ، التى هى وليدة عصر التكنولوجيا ، لم تعرف الطريق بعد الى مدرجات جامعاتنا ؟!

ويقول السادات :

« ان أهم ما طرأ على منطق التعليم والبحث فى العالم هو زوال المسافة بين الفكر والعمل ، وبالتالى ، لم يعد التعليم مسألة مقررات دراسية جامدة ، تقف مهمة التعليم عند استيعاب الطالب لها ... ولكن أصبح التعليم مرتبطا ارتباطا عضويا بحركة المجتمع ومتطلباته . ومعنى ذلك ، أن التعليم ، والتثقيف العام ، صار لهما هدفان متلازمان .. الأول ، هو ايجاد الفرد المتعلم المستنير ، بحيث يكون أكثر فهما واتساقا مع مجتمعه وعصره ، وأكثر قدرة على استيعاب ثمار المعرفة الانسانية والاستمتاع بها ، وأكثر فهما للقضايا العامة فى بلاده ، وفى محيطه وبيئته التى يعيش فيها .. والثانى ، هو تزويده بخبرة متقدمة محددة ، تمكنه من القيام بالدور الذى يتناسب مع هذه الخبرة فى شتى مواقع العمل والانتاج فى بلاده » .

●

وعندما كتب جول فيرن ، و هـ.ج . ويلز ، وغيرهما ، القصص العلمية ، بين اواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن ، وعرضوا فى مؤلفاتهم احلام الانسان فى الصعود الى القمر ، وصفت هذه الكتابات بالخيالية ... وعندما كتب سان سيمون وفورييه وكامبانيلا والفيلسوف العربى الفارابى ، مؤلفاتهم التى كانت تحلم باقامة مجتمعات عصرية ، أطلق عليها العلماء « عالم اليوتوبيا » أو « الدول الخيالية » ، ووصفت افكارهم بالخيالية ، أيضا .

لكننا ، نقول ، ان (الحلم) بداية الطريق للحقيقة ..

بل هو أساس العلم . فلو لم يكن هؤلاء الكتاب قد ارهصوا ، وغيرهم ارهصوا لما كانت هناك اختراعات واكتشافات ، تشارك فى تقدم البشرية .. وعلى مدى آلاف السنين ، حاول الناس ، أن (يتخيلوا) ، نظاما اجتماعيا ، يتمتع الجميع فى ظله بالحرية والعدالة والسلام ، وفى البداية كانت مثل هذه الأفكار مجرد أحلام ..

كذلك الحال فى مجال العلم . لقد صور (هسيود) الشاعر اليونانى القديم ، (العصر الذهبى) للبشرية الذى كان يهيم فيه الانسان على وجهه حالما ، متوحشا ، شريدا ، وصف هسيود ، هذا العالم ، بانه كان عالما لا يعرف القلق أو التوتر ، وكانت الأرض تغل ثمراتها من تلقاء نفسها ، وكانت الحرية والصداقة والمساعدة المتبادلة هى القانون الاخلاقى فى ذلك الوقت ، وكان الشاعر اليونانى القديم يحلم بهذا العصر : « عصر المشاعية البدائية » — أو العصر الذهبى كما سماه .. لكن كيف يمكن اعادة هذا العصر ؟ ان جميع المحاولات لتحطيم نير الظلم ، كانت ، دائما ، تنتهى بهزيمة المغلوب على أمره ، ولم يكن المستقبل أبدا ، يبشر بالخير ، وبدأ الأمر كما لو أن الناس لا يستطيعون احياء (العصر الذهبى) حقا ، لم تكن بمملكة العدالة والمساواة . كان حلم الناس يتمثل فى (المسيحية) القائلة بمملكةالعدالة والمساواة على الأرض ، وكان زعماء هذه الحركات الذين لعنتهم الكنيسة ،

ووصفتهم بالهرطقة ، كانوا يدافعون عن الحقــوق الاجتماعية ويطالبون بالمساواة وسيادة القانون ، وفى بداية القرن السادس عشر ، أعلن (توماس منذر) ــ زعيم حز بالفلاحين فى ألمانيا عدم عدالة الملكية الخاصة ، ووضع خطة لاقامة نظام اجتماعى تنعدم فى ظله الفوارق وتذوب . حقا ، لم تكن مملكة العدالة والمساواة .. حلم الناس فى ذلك الوقت ، تشبه الاشتراكية الا بشكل غامض ، لأن الاقتصاد الضعيف ، لم يكن يستطيع أن يكفــل الرفاهية للجميع .. فما الذى حدث لحلم الناس ؟ فى البداية كان (العصر الذهبى) ، الذى كان ينتمى بكامله الى الماضى ، الجنة الأرضية التى تنتمى بكاملها الى مستقبل غير محدود وكان الناس يدركون تمام الادراك ، أن مملكة العدالة ، أو الدولة التى يحلمون بها ، لن تقوم على الأرض من تلقاء نفسها ..

كان على الانسان أن يفكر ، ويفكر ، لينتقل الحلم من قنطرة « الخيال» الى الحقيقة ..

فى عام ١٦٠٢ ، كتب توماس كامبانيلا ، الفيلسوف الايطالى ، مؤلفا كبيرا ، عرض فيه (الدولة) ، أو الحلم الذى ينشد أن يحيــا الناس فى ظلاله ، واطلق على هذا العالم الجديد : « سيفتياس سوليس » ــ أو مدينة الشمس ، ونشرت الرواية فى عام ١٩٢٣ ، وكان الراوى فيها رحالة ، زار مدينة عجيبة أثناء تجواله حول العالم ، وكانت تقع هذه المدينة فى جزيرة (تابرو بانو) الخيالية فى المحيط الهندى .. ووصف الرحالة هذا العالم بأن المجتمع فيه ، مواطن مدينة الشمس ، لا يعرف الملكية الخاصة ، ولا يخدم الناس الأشياء ، بل توضع الأشياء فى خدمة الناس .. والعمل شرف فى هذه المدينة ، على الجميع أن يسعى اليه .. وكلما ازداد العمل مشقة كلما عظم الشرف .. وفى نفس الوقت ، فان استخدام المخترعات التكنيكية المختلفة يجعل العمل سهلا ، ويذكر كامبانيلا فى روايته هذه ، عربات تتحرك من تلقاء نفسها ، ويقول ان الناس قادرون حتى على التحليق والطيران ليقطعوا

المسافات فى سرعة ، ويمتد العمل فى هذه المدينة لأربع ساعات فقط ، لأن الانسان اثمن رأسمال فى الوجود ... كما تعمل النســاء جنبا الى جنب الرجل ، وهن متساويات مع الرجال فى الحقوق ويتمتعن بالاحترام العام .. ووفرة الانتاج فى هذا المجتمع تكفى لجميع الاحتياجات ، بينما يوجد نظام خاص للتربية يكفل تنمية الفرد تنمية متوافقة ، وتقوم العلاقات على أساس الحب المتبادل والصداقة ...

وعلى غرار (يوتوبيا) كامبانيلا ، كتب تشــارلز فورييه ، وهنرى سانت سيمون ، وروبرت أووين ، أعمالهم ، ليصوروا أحلامهم عن (الدولة) التى يسعون اليها وفى بداية القرن التاسع عشر ، كانت الاشتراكية ــ الخيالية ، أو الطوباوية ، قد بلغت من العمر ٣٠٠ عاما ، وطوال ذلك الوقت عمل الاشتراكيون فى معرض نقدهم للعلاقات القائمة على تهذيبها على اساس الأخلاق ، وكانوا يرسمون المشروعات لمجتمع مثالى ، وأعلنوا أن القديم مضاد للأخلاق ، وان الجديد ينبع منها ، وفى بعض الاحيان كانوا يعززون الادانة الاخلاقية بالادانة الجمالية ، ويؤيدون الحاجة الى مجتمع مثالى من مراكز جمالية ، وكان (اليوتوبيون) ، و الاشتراكيون الخياليون فى القرن التاسع عشر ، يأملون باقامة دولة حديثة ، تختفى فيها كل الشرور ، ويسود فيها القانون وتنعدم فيها الفوارق الواسعة بين الانســان وأخيه الانسان ... وكانوا على ثقة من أن هذه الأفكار منطقية وتتفق مع منطق البشر وكانوا يحسون أن الناس لا يمكن الا أن يتجاوبوا معها ..

وفى عام ١٨٤٠ ، نشر (اتيين كابيت) فى باريس روايته الفلسفية : (رحلة الى ايكاريا) .. وتصور ان ايكاروس الاسطورى ، طار من محارة كريت على الاجنحة التى صنعها له والده دايدالوس ، وساعد كابيت على خلق صــورة المجتمع الذى ينشــده ، وكان على كابيت أن يــراعى ان (ايكاروس) مات ، وأن الحدا ، لا يستطيع أن يكون حرا عندما تكون للاستعباد اليد العليا ، وكان عليه أن يأخذ بتجربة (نيو هارمونى) التى

سمع بقصتها من روبرت أووين ، نفسه ، لكن ربما كان أووين هــو الذى أحيا الأمل فى نفس كابيت عندما ذهب الاخير الى لندن خصيصا للاجتماع به .. وعلى أية حال ، فقد أصدر كابيت فى مايو ١٨٧٤ نداء للناس : « هيا الى ايكاريا » ... وهى دعوة للاقامة فى (جنة جديدة) ، حيث الملكية مشتركة ، وحيث التوزيع تحكمه العدالة ، وحيث يسود القانون ، وحيث يسود الحب والوئام) .

وفى ٣ فبراير ١٨٤٨ ، ابحرت السفينة (روم) ، من ميناء هانوفر الى أمريكا وهى تحمل (الطليعة الأولى) ، وقوامها ٦٩ ايكاريا ، وعلى حد تعبير المجلة التى كان يصدرها كابيت (بوبولير) : « بدأت ، بذلك ، أعظم مغامرة فى التاريخ الانسانى » ، وكان كابيت ، يؤمن ، بأن « جماعة من النحــل الجديد ستطير من ايكاريا الى جميع أنحاء العالم لكى يزداد العالم الجديد ثراء » . ثم تطور الأمر ، وابحر كابيت نفسه ، مع ٢٠٠ شخصا ، لكن هل وجدوا الجنة التى كانوا ينشدونها من حين لآخر ؟ كانت تظهر (مجتمعات ايكارية) ، تتمثل ، أنموذج الدولة الحديثة ، التى تنشــد خلاص الانسان من ربقة القهر والاستغلال والقمــع ، وتطور الأمر من الطوباوية ، الى الايكارية ، الى الاشتراكية العلمية التى حاولت ان تمتص كل ما سبقها من افكار لتصيغه على قوانين علمية ، وهــذه الاشتراكية العلمية صاغها كارل ماركس مع زميله فردريك انجلز ، وهى التى تطورت الى الماركسية ــ اللينينية ، عندما أضاف لينين فكره النظرى والعملى لها ، ومن خلالها قامت أول ثورة اشتراكية فى العالم على يده فى اكتوبر ١٩١٧ فى الروسيا ...

اذن ، فلا شىء يوصل الى نتيجة حقيقية غير العلم ... ولا يمكن تحقيق (حلم الانسان) ، ســواء كان فكرا أو اختراعا ، أو اكتشــافا ، الا من خلال القاعدة العلمية والقوانين العلمية ...

لماذا ؟ ببساطة لأن جميع الاشياء والظواهر فى الطبيعة لها خصائص بها ميكانيكية ، فيزيقية ، كيمائية ، بيولوجية ، ولها علاقاتها وقوانينها ، والنظرة الدياليكتيكية التى تعتمد على الجدل ، تربط بين هذه الظواهر والانسان ، وتصل الى تفسير علمى لكل ظاهرة ... وهذه الظواهر ، توجد مستقلة عن الارادة والضمير ، سواء اراد الناس أم أبوا . وهناك حكاية شهيرة معروفة لدى اليونانيين ، يحكيها العلماء والفلاسفة للدلالة على العلم وارتباطه بتطور الوجود :

ذات مرة غضب (أبوللو) على (آخيل) بطل حرب طروادة العظيم ، فوجه سهم باريس ، بحيث أصاب كعب آخيل ، المكان الوحيد القابل للاصابه فى جسده ، ومات آخيل ... وكان اليونانيون يؤمنون بالقدر والمصير ، ومع ذلك ففى الكثير من أساطيرهم وحكاياتهم كانت تبرز فكرة أن الآلهة ، وليس البشر وحدهم ، يضطرون ، أحيانا الى مراعاة عوامل خارجية ، وعند نقل العلاقات والخصائص الموضوعية الى ميدان الخيال : كثيرا ما كانت تتخذ صورة (كعب آخيل) ، ويضرب بها المثل (1) .... ومن المفيد ، ان تتبين القوانين ، حتى نستطيع أن نتحكم فيها ونضعها فى خدمة الانسان ... وهذا ما يتناوله العلم ، ويتطور من خلاله ، وفقا لمتغيرات العصر .. والأفكار ، والآراء العلمية ، والنظريات ، لا تبقى فى العلم ، الا اذا اتفقت مع قوانين الطبيعة . فكتاب كوبير نيكوس ، مثلا ، الذى تحدث عن مركزية الشمس بالنسبة للعالم منذ أربعة قرون ، حرمته الكنيسة ، وكان على أساتذة الفلك ، أن يتعهدوا ، بأنهم لن يكشفوا عن هرطقة كوبرنيكوس

---

(1) قصة البطل آخيل ، رواها الشاعر الاغريقى القديم هوميروس فى (الالياذة) ، والالياذة ، تعنى : اليوس ـ قصة اليوم ، أى طروادة ، المدنية الاغريقية القديمة .. وآخيل بطل من أبطال الاغريق فى الحرب ، ومن خلال (آخيل) وغضبه وثورته ، تحكى هوميروس الالياذة واحداث القتال فى طرواده . وقد اجمع المؤرخون ان احداث (الالياذة) ، وقعت حوالى منتصف القرن الثانى عشر قبل ميلاد المسيح ..

لتلامذتهم ، وحرمت قراءة الكتاب بل انه أحرق ، لكن رغم ذلك ، فلا أحد يشكك فى نظريات كوبرنيكوس اليوم ..

وقد اثبتت النظريات ، وأكد التاريخ ، أن كل فكرة علمية ، ونظرية ، لا تظهر ولا تشق طريقها الا عندما يكون المجتمع فى حاجة ماسة الى مثل هـذه النظرية ، والاشتراكية العلمية ، أو الماركسية ـ اللينينية ، نجحت ثوراتها فى شرق أوربا ، ولم تنجح فى غرب اوربا أو فى مناطق أخرى ، لأن طبيعة هذه المجتمعات كانت فى حاجة الى هذه العقيدة ، وكان مناخها وظروفها التاريخية والحضارية ملائما تماما لذلك ، ولكن ليس معنى كلامنا هذا اننا لا نؤمن بالاشتراكية العلمية ، بل اننا نقول انها تلائم مجتمعات بذاتها ، وقد تتطور وتضاف اليها رؤيا جديدة لتلائم متغيرات العصر ، وقد تغير الرأسمالية أيضـا أسلوبها أو قالبها ، لتحاول أن توازن بين متطلباتها ومتطلبات العصر ، وعلى هذا نبتت الانظمة المعروفة فى الغرب تحت أسماء مختلفة مثل : الرأسمالية الشعبية ، الرأسمالية الديمقراطية ، رأسـمالية الوفرة (١) . وعلى حين تواجه العديد من الدول الرأسـمالية ، وبالذات الرأسماليات الاحتكارية ، الكثير من الازمات التى تنعكس فى الداخل على (المواطن) ، فلا يحس بالاسـتقرار والأمان الاجتماعى والنفسى والعاطفى ، برغم ان مجتمع الوفرة يوفر له كل الاحتياجات المـادية ... تواجه أيضا الدول الشيوعية ازمات من نوع أخر ، مثل ، سيطرة الحزب الشيوعى ، وظهور طبقة البروليتاريا بامتيازاتها الواضحة ، والتى تعرف بامتيازات « طبقة الحزب الحاكم » ، ورغم أن النظام فى هذه البلدان يوفر الامان الاجتماعى والمادى للفرد ، الا أنه لا يتيح له الحرية الفردية ، ولا

---

(١) وفى نطاق الراسمالية الشعبية ، التى بـدات تروج فى اوائل الستينات من قرننا هذا ، تصبح قطاعات بعينها من الكادحين من حملة اسهم الشركات المختلفة ، ومن ثم شارك فى ارباح الشركات ، ويقول دعاة الراسـمالية الشعبية ، انه من خلال هـذه الاشكال تذوب الفوارق الطبقية بين العمال واصحاب العمل ، فلهم رؤساء وعمال فى المؤسسة ، لأن كلا منهم يحصل على الربح ، وهذه الاشكال ، تقوم اساسا على تطوير الانتاج ، بحيث يتفق كلية مع مصالح المستهلك ..

يحس بذاته ، ابدا ، بل انه ، دائما ، ينتابه الاحساس ، بأنه ترس فى الدولة وعجلة انتاجها الجماعى وليس أكثر ، وربما هـــذا ما دعا الكثير من هذه الدول الى أنه تغير فى طبيعة علاقاتها الداخلية والخارجية ، فبعد أن كانت ترفض أساليب الرأسمالية ، أخذت منها بعض القوالب ، بالفعل ، وبدأت تستخدمها فى مجالات خلق نوعيات من الملكية ، والاخذ بنظام الاعلان والدعاية ، واعطاء نوع من الحريات الفردية بما يسمح للفــرد بالتنفس ، لكن بعض هذه الدول لا زالت واقعة فى عقيدية جامدة ، وتفرض على مواطنيها ستارا رهيبــا من (النظام) الذى لا يكفل للفــرد الحرية أو الديمقراطية ..

لذلك ، ونحن نفكر ، فى دولتنا العصرية ، أو الدولة الحديثة ، نرفض الأشكال المستوردة ، ونستلهم جوهرها وشكلها من طبيعة أرضنا ، لكننا نتمثل فى اقامتها كل متغيرات العصر وثورة التكنولوجيا التى تميز طابع الحضارة المعاصرة .. وكما يقول السادات : « ان امم العصر التى شقت الفضاء ووصلت الى أعماقه ، وسيطرت على آفاقه لم يتهيأ لها ذلك الا حين انزلت العلم من حياتها منزلة الروح من الجسد ، وبلادنا التى غلبت الاحداث ، وسار تاريخها بين نار ونور ، بلادنا التى حطمت القيود بعد القيود ، وشقت فى الصخور التاريخ طريقها للخلود ، تضع أمام أعينها ، دائما ، تكريم العلم ، لأنها كعبته من قديم » .

والدولة الحديثة ، أو الدولة العصرية ، التى يتحدث عنها السادات ، هى نموذج المجتمع الذى يتمثــل مبادىء (ثورة التصحيح) ، ومتغيرات العصر فى كافة المجالات ، وثورة التكنولوجيا العصرية .. والدولة العصرية ، تستلهم قيمها وأفكارها من صميم مبادئنا واخلاقياتنا ، وتعتمد بشكل أساسى على المنهج العلمى فى كل شىء ، وتنبذ التجريبية أو النفعية أو القدريات فى اقامة المشروعات أو بناء مجالاتها المختلفة ، وتعتمد اعتمادا كليا على التخطيط العلمى الدقيق ، والذى يعتمد على الالكترونات والكمبيوترز ــ فالثورة

التكنولوجية ، جزء جوهرى ، من قاعدة الدولة العصرية : دولة العلم والايمان ..

وفى حديث السادات لمؤتمر اتحاد الجامعات العربية ، الذى عقد منذ عامين توضيح لبعض ملامح الدولة الحديثة ، فهو يقول فى خطابه لهم : « ان الأمة العربية ، ايها الاخوة ، تمتحن هذه الأيام ، امتحانا رهيبا فى معركتين ضاريتين : معركة مع التخلف ، فى عصر تغيرت فيه من حولنا الدنيا ، وقفزت اكثر الشعوب بالعلم وبالخبرة وبالتنظيم قفزات نقلتها من عصر الى عصر آخر جديد تماما ، ورغم الجهود المضنية التى تبذل فى كل بلد عربى ، فلا تزال أكثر شعوبنا واقفة على أعتاب العصر ، ولا تزال ـ رغم ضخامة الانجازات فى بعضها ـ قاصرة على ملاقاة مستوى الطموح العربى .. أما المعركة الثانية ، فهى معركة عدوان ماكر تلتقى فيه أكثر من مصلحة ، ويتعاون فيه علينا أكثر من حليف ، يعرفون ، جميعا ، ما تنطوى عليه الأرض العربية من كنوز ومصادر للخير والنماء ، وما يزدهر به العمل العربى من قدرة وخبرة ، وما تمتلىء به النفوس العربية من اصرار على اللحاق والسبق ويعرفون ان التقاء هذه العناصر كلها ، من شأنه أن يفجر فى هذه المنطقة من العالم طاقة لا حدود لها ، وان هذا التفجير حين يتم فسوف يكون لنا ولهم شأن غير الشأن الذى يحبون ، لذلك كان التآمر ، وكان العدوان ، وكانت محاولات التجزئة » . وعلينا ان نواجه كل ذلك بالعلم .... ويقول السادات ، ايضا : « لن نصل الى اهدافنا الا عن طريق استخدام كل وسائل العلم الحديث ، فى جمع المعلومات وتخزينها وتوزيعها ، والاهتمام بمراكز البحث التكنولوجى المتقدمة » .

فكما يقول السادات : « ان الالكترونات ، أصبحت شيئا خطيرا فى عالم ، اليوم ، والالكترونات ، تستخدم ، اليوم فى جميع فروع الحرب ، كما هى مستخدمة فى السلم فى احتياجات الفرد العادية ، و لابد أن نساير كل تطور فى العالم . . » . وهذا التطور ، يخضع ، الى

منطق التخطيط ، فالتخطيط ضرورة من ضرورات الدولة العصرية ، ويؤكد السادات على ذلك بقوله : « ان الوقت الآن ، هو للتفكير وللتخطيط المنظم ، ان مشاعرنا وعواطفنا لا تحتاج الى من يستثيرها أو يحركها . ان المعارك الكبرى واللحظات الفاصلة تحتاج بعد الايمان العميق بالهدف والاستعداد الكامل للبذل فى سبيله ،تحتاج الى التفكير السليم المنظم ، وتحتاج الى التخطيط الدقيق والقوى . والقوة ، أية قوة مهما بلغ حجمها ، تصبح قوة عمياء ، اذا لم يكن المنظم لها تخطيطا دقيقا .. والعمل أى عمل ، مهما بلغت قوة اندفاعه ، لا يصل ، أبدا الى هدفه اذا لم يكن موجهه والمدبر له موجها ، منظما دقيقا . . الفكر هو الأساس ، والتخطيط الدقيق هو الاطار » ..

ومصر لديها القدرة ، كل القدرة ، على تربية جيل علمى ، يغير ويغير ، ويشارك فى بناء الدولة العصرية : دولة العلم والايمان ، يثرى من حضارته ، ويستلهم الفكر المصرى الأصيل ، ويتخذ العلم والتخطيط منهجا أساسيا له ، ويتمثل متغيرات العصر فى التكنولوجيا المعاصرة ، ويستوعب كل جديد وحديث : « عن طريق استيعاب كل ما قدمت ، وعن طريق تفهمه ، فاننا نستطيع ان نقول انه سوف يكون بامكاننا أن نقيم على هذه الارض دولة عصرية ، لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات ، ولكن يتحول فيها العلم والتكنولوجيا الى أسلوب عمل ، والى تحقيق عملى لأهداف مجتمع أمامه مسئوليات عظمى تملؤه آمال أعمق » .

ويرى السادات .. أن تجربة حرب أكتوبر ، قد أكدت ان التخطيط العلمى ، والاخذ بمتغيرات العصر ، ومحاولة استيعاب كل فنون العسكرية المعاصرة المبنية على تكنولوجيا العصر ، كانت من الأسباب الأساسية فى الانتصار العسكرى على اسرائيل ، وتحطيم أسطورة التفوق العسكرى للجيش الاسرائيلى ، ويؤكد على ذلك بقوله ، محاولا أن يربط بين مفهوم

الدولة العصرية (فى المجال العسكرى) ، وفى (مجال التنمية) ، فيقول : « ان تجربة حرب أكتوبر ، قد أثبتت ، ان التخطيط العلمى ، هــو أساس كل عمل ناجح ، وان التخطيط الاقتصادى الذى أخذنا به منذ قد ساعدنا على احراز مكاسب محققة ولعب دورا أساسيا فى ضمان الصمود .. وتجربة الشعوب النامية كلها ، تؤكد أن التنمية لا تتم بشكل تلقائى ، بل لابد لها من تخطيط .. بل ان التخطيط ، كأسلوب علمى لتوجيه الاقتصاد القومى ، قد تأكدت فاعليته ، فتبنته الدول الرأسمالية . ولا شك ، أننا اذا أردنا ، أن تكــون استراتيجيتنا الحضــارية الشاملة للمســتقبل قائمــة على أسس مدروسة ، تربط بين تلك الأهداف التى أشرت الى بعضها ، وتجعل خطونا نحو التقدم متوازنا ، فان حاجتنا سوف تكون أشد الى الالتزام بمبدأ التخطيط .. فالتنمية ، ليست عملا عفويا ، يتم كيفمــا أتفق ، فى تلقائية كاملة ، انما التنمية عمل علمى يقوم على التنبؤ بالمتغيرات المحلية والاقليمية والعالمية ، وبعــد التصور الفنى لمواجهتها فى آجال زمنيــة معينة .. » . وقــد جبل الناس ، على أن يفكروا ، وطوال العصور ، وهم يفكرون ، من أجل تغيير مجتمعاتهم للافضل ، والشعوب المتحررة ، حديثا وفى مقدمتها مصر ، التى تسعى لتأكيد استقلالها القومى ، وتنمية مجتمعها ، تواجه بالحتمية ، وهى تبنى اقتصادها الوطنى مسألة أى الطريق تختار .. طريق التنمية الرأسمالية ، أم طريق التنمية غير الرأســمالية ــ والاخير ينضوى تحت اطاره الدول الاشتراكية والدول غير المنحازة والتى تبنى استقلالها من خلال انظمة مستقاة من واقعها ليلائم ويواكب ظروفها الفكرية والحضارية والاقتصادية ..

وما الذى تستطيع الدول المتحررة حديثا ان تتوقعه من اتباع الطريق الرأسمالى للتنمية ؟ الثروة للقلة ، والفقر المدقع ، واســتغلال الجماهير ، والقمع لصالح النظام الحاكم ، والبورجوازيات القومية ، التى تتبع طريق النمو الرأسمالى وتدور فى فلك الراسماليات الاحتكارية ، تضطهد الكادحين

بدرجة لا تقل عن اضطهاد الرأسمالية الأجنبية لهم ، وهى فى سعيها لتأمين مصالحها اللصوصية تذهب الى حد ارتكاب الخيانة الوطنية ، والتطورات التى حدثت فى الكونغو فى أواخر الستينات (الكونغو ليوبلدفيل) نموذج واضح فى هذا المجال ، فالطريق الرأسمالى للتنمية ، يعزز العبودية الاجتماعية ويعيد الاستعمار من جديد مرة أخرى ، وبشكل آخر .. وتتطور البلدان المتحررة حديثا ، فى ظروف تختلف اختلافا جوهريا عن هذه التى كانت قائمة عندما الرأسمالية تنمو فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وذلك يجعلها فريسة سهلة للاستعمار الجديد ، فهى تعجز عن الصمود امام الاحتكارات الرأسمالية ، ولا تستطيع أن تنمى الرأسمالية باستعباد شعوب أخرى ... بينما الشعوب التى تختار الطريق للتنمية الى الشيوعية ، فتدور فى فلك الأممية الشيوعية ، وتخضع لسياسة الحزب الواحد الحاكم : الحزب الشيوعى ، الذى يحكم باسم ديكتاتورية البروليتارية ، ولا يتاح فيه للافراد عمليات التنافس الاقتصادى والفكرى ، ويخضع كل شىء لمتطلبات وقرارات اللجنة المركزية والمكتب السياسى للحزب الشيوعى ، ولا يصبح هناك ديمقراطية أو حرية ، الا من خلال ما يخدم مصالح ديكتاتورية البروليتاريا — وهذه نفسها تتحول الى طبقة ، تنمو امتيازاتها وتتسع ، وهذا المناخ لايسمح بالحريات السياسية ولا للابداع أو الخلق ، ويصبح الفرد فى ظل هذا (النظام) أسيرا لترس الدولة ، واحدا فى (خلية) الدولة ، والدليل على اختفاء الابداع أو الخلق فى ظل هذه المجتمعات اختفاء الأدب الجيد ، والفن الجيد ، لأن فنا معارضا لقرارات اللجنة المركزية لا يسمح له بالظهور ويحارب أشد المعارضة ، فمثل هذا النظام لا يسمح بالحوار المعارض ، أو النقد ، والدليل على ذلك ماعاناه كاتب مثل (بوريس باسترناك) فى منتصف الخمسينات ، منذ عشرين عاما تقريبا ، عندما أصدر روايته الشهيرة «دكتور زيفاجو » ، التى كانت تتعرض بالنقد للمجتمع — وهذا النقد ، كان يستهدف الاصلاح ، لا الهدم ، تعرض الكاتب عندما نشر عمله الأدبى فى ايطاليا الى قهر عظيم ، ولم يعف عنه ، ولم يسلمه من السجن والعقاب الا بعد ما كانت

قضيته ستتحول الى فضيحة دولية تعرى المجتمع السوفيتى .. شىء آخر ، أود أن أؤكد هنا ، لاثبت ان طبيعة المناخ فى هذه المجتمعات ، تقتل الطموح والابداع ، وهو اختفاء الأدب الجيد ، فلم يظهر بعـد مكسيم جوركى والكسى ثولستوى ، كاتب مرموق ، على غرار الكتاب الروس الذين اعطوا وأعطوا قبل ثورة ١٩١٧ فى الروسيا ، وبينهم : جوجول ، وتورجنيف ، وتولستوى ، ودستويفسكى ، وجارشين ، وبوشـكين ، ولير منتوف ، وتشيكوف ، وجوركى .. وباستثناء كاتب مثل ميخائيل شولوخوف — الذى يعتبر حتى من جيل الكتاب الكلاسيك (ولد عام ١٩٠٥) ، لم تعرف الروسيا واحدا من الكتاب ، يوازى ما تكلمنا عنهم ! لماذا ؟ لأن المناخ لا يسمح بظهور العبقريات الفردية المبـدعة ، وكذلك كان الحال فى الفن التشيكى والمسرح والموسيقا .. فالكتابة تبدو فى مجتمعات كهذه ، أشبه بالدعاية والتقارير .. وقد يقول قائل : لا ، هناك تقدم فى العلوم والفكر ، والا فكيف صعدوا الى القمر ، ووصلوا الى كل هذا التقدم فى التكنولوجيا عسـكريا وصناعيا وماديا ؟ فأقول ، ان هذه الأشـكال من الاختراعات والابداعات ، تخضع لنظام جماعى ، ولا تخضع كثيرا للعبقريات الفردية ؛ لأنها مسائل تقوم على الحسابات الالكترونية وعلوم عصرية كالكزموجونيا أو الكيمياء الصناعية أو الرياضيات البحتة أو البيولجيا .. كذلك ، مشاكل الحب والعواطف ، تختفى تماما ، فى هذه المجتمعات ، لأن نظرة الحب تخضع لنظرة بيولوجية واقتصادية بحتة ، لأن الفرد يحس انه ترس فى الدولة ، ويخضع تماما لطبيعة النظام الذى لا يسمح للعواطف بالتفجر ، ومن هنا كان رفض الماركسية لفرويد ونظريات علم النفس ، التى تدرس العواطف وتحلل داخل الانسان ، لأن مثل هذه النظريات لا وجـود لها فى ظل المجتمعات الشيوعية ، أو المجتمعات التى تدور فى فلك التنمية الشيوعى من أجل حل مشكلاتها عن طريق الارتباط بالماركسية اللينينية ، ونموذجها الأم : الاتحاد السوفيتى ..

لذلك ، اختار السادات ، نمــوذج الدول العصرية ، على أساس دولة العلم والايمان .. اتخذ فيه من منهجية العلم ، والتخطيط العلمى والتنمية على أساس غير منحاز ، واستيعاب متغيرات العصر فى ثورة التكنولوجيــا العالمية لا فرق بين شرقية أو غربية بل أخذ نتاج العلم وافرازه فحسب ... اتخــذ من كل هــذا ركائز للدولة العصرية ، الى جانب التمسك بالايمان الروحى والنفسى ، الذى يستند الى تراثنا الحضارى والاسلامى والعربى والذى يضرب بجذور عميقة يصل عمرها الى سبعة آلاف سنة ..

ويؤكد السادات ، انه لا تقدم ، ولا ضمان للمستبقل ، الا من خــلال تحقيق الدولة العصرية .. دولة العلم والايمان : « فالعالم كله ، بشتى نظمه السياسية ، والاجتماعية ، يهتم بعالم جديد ، هو عالم المستقبل ، ويحاول أن يستشف اتجاهات التطور فى حدود ربع القرن المقبل ، أى سنة ٢٠٠٠ ، وترسم كل دولة منها تطورها فى خطط طويلة الأمد .. وهانحن أولاء نرى دول اليوم .. من ندرة خطيرة فى الخدمات الأساسية للصناعات ، الى خطر متزايد العالم كلها ، تسرع الى اعادة مستقبلها على ضوء المتغيرات التى تتدافع كل من انخفاض المواد الغذائية المتاحة ، الى مظاهر التضخم التى تجتاح العالم، الى الحركة لجديدة لرءوس الأموال من أماكنها التقليدية الى أماكن أخرى وكلها أمور ، تدفع العالم الى اعادة النظر فى كثير من الأفكار والتوقعــات السابقة .. ولا يمكن أن نعيش فى هذا العالم ، ونحن نفكر من سنة الى أخرى ، بل لا بد ، كما قلت ، من تصور جرىء لاستراتيجية شاملة ، ولابد لهذا كله من التخطيط العلمى السليم .. ولأن تحركنا المقبل ، سيكون أكثر اتساعا فى شتى مجالات التقدم والبناء ، ولأننا نريد ، كما قلت ، سابقا ، أن نستخدم كل المحركات والروافد المالية والاقتصادية الممكنة ، فان هــذا يجعلنا أكثر حاجة الى الأخذ بمبدأ التخطيط فى حياتنا » . فالمســتقبل يهم كل واحد بصفة شخصية وجماعية ، بشكل مباشر .

حقا ، أن كل شىء فى حكم المستقبل لا يثير نفس الاهتمام ، فمستقبل

الفنون وصناعة الطاقة ، هامان بغير شك بالنسبة للبشرية ، لكنهما ليسا بالشيء الذى يعنى كل الناس . أما مسألة هل ستكون هناك حرب نووية عالمية ، فهى تهم وجود الجنس البشرى ، وهى مسألة حيوية بالنسبة لكل شخص يعيش اليوم ، مسألة حياة أو موت .. وبالمثل فان مصير عشرات الملايين من الناس يعتمد على نتيجة النضال ضد العنصرية وضد الظلم العنصرى ..وبالنسبة للكثيرين ، فان الابقاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، يشكل خطرا يهددهم بفقد وظائفهم وبالجوع وبالفقر .. وبالنسبة للكثيرين ، فى المجتمعات النامية ، يهمهم الى حد كبير ، الاطمئنان على مستقبلهم غدهم المادى والاقتصادى ، حتى يؤمنوا غدهم وغد الأجيال الجديدة ..

والكثيرون من المفكرين ، وهم يصفون مستقبل البشرية ، يثيرون الخيال بصور العلم والتكنولوجيا ، وبالاتصال العلمى بالحضارات غير الأرضية .. لكن هناك عدد من المتنبئين بالمستقبل ، يتصورون ، أن نهضة العلم الحديث ستحمل الأرض المحترقة والحضارة المحطمة ، والناس وقد توحشوا وفقدوا مقومات الانسانية ، وهو اتجاه متشائم حقا (ونحس بهذا الاتجاه يعكس نفسه بوضوح فى كتب متعددة ، بينها كتاب الدوس هكسلى: العالم ١٩٨٤ .. وكتاب جورج أورويل : عالم جرىء شجاع . . وكتاب برتراند رسل : هل للانسان مستقبل ؟ .. وفى أفلام مثل : دمار لأنطونيونى وعندما تطفو السمكة على الماء ، أو الرقص على الهيدروجين لكاكويانس ... وكوكب القرود لهيستون .. وأوديسا الفضاء لكوبريك) .. وعلى المستقبل الاجتماعى للبشرية ، وعلى طريقة تنظيم الحياة الاجتماعية ، يعتمد اتجاه وتنيجة الثورة العلمية والتكنولوجية فى عصرنا هذا .. هل ستؤدى الى ازدهار الانسانية وتفتحها أم انحطاطها ؟ وتفرض قضايا المستقبل الاجتماعى للبشرية ، نفسها ، على حياة كل فرد ، سواء أراد ذلك أم أبى ...

كيف سيكون المستقبل ؟ عام ١٩٨٠ .. أو عام ٢٠٠٠ ؟

فى القرن التاسع عشر ، عبر جول فيرن ، عن أفكاره العلمية والتكنيكية ، بل وتنبأ بتحقيقها ، وقال ان الانسان سيصعد الى القمر والمريخ والكواكب الأخرى ، وأن أهل المريخ سيزورون كوكب الأرض .. وقرننا العشرون ، شهد الانسان وهو يصعد الى القمر ويمشى على ترابه . لقد استطاع جول فيرن ، أن يرى نصف قرن من المستقبل وأكثر ، لأنه أقام نبوآته على أساس الاتجاهات العلمية السليمة ، والتى كانت فى ذلك الوقت تشار فى علوم الرياضيات والفلك والفيزياء ..

والمستقبل ، دائما ، تحويل امكانيات يومنا الراهن الى واقع . وهكذا فمن الممكن العثور على جواب سليم من الوجهة العلمية للأسئلة المتعلقة بالمستقبل الاجتماعى للبشرية ، والتى تشغل اليوم عقول عدد هائل من الناس ، ويجب عى المرء أن يدرس تاريخ البشرية ، وأن يحلل موضوعيا ظواهر الحياة الاجتماعية خلال النصف قرن الماضى ، والذى عجزت المعتقلات والسجون والاعدام والمجاعات والحروب عن وقف انتصارها ، وينبغى علينا ، نحن أيضا ، فى بلادنا ، فى مصر ، أن نحقق ذلك ، حتى نقف على الكثير من الأشياء .

●

الانسان يسير فى تقدمه الى الأكمل دائما .

رحلة الانسان على الأرض فى حقيقتها هى رحلة صراع من أجل أن يفرض سيادته أكثر على مقدرات الوجود والطبيعة ..

الانسان يسير فى طريق تقدمه الى عوالم جديدة ، تسعى أكثر الى الرفاهية .

المصنع الالكترونى اليوم ، ينتج بفضل ثورة التكنولوجيا العصرية ، فى الدقيقة الواحدة ما كان ينتجه المصنع العادى فى شهر أو شهرين ، أو ربما

أكثر . المصانع يزداد عددها فى الدول النامية . دول أخرى غير الدول الكبرى تغزو المجال الذرى ، وتحقق انتصاراتها الكبرى فى عوامل الطبيعة والبيولوجية والفضاء والفنون العسكرية . الانسان يثبت أقدامه على القمر . الانسان يسعى الى تصميم طائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت . الانسان يسعى ليضع أقدامه على المريخ والمشترى ونبتون وبلوتو .. الانسان يمارس تجاربه ليصل الى سر الحياة ولغز ما بعد الموت ..

مصر ، بعد انتصاراتها فى حرب أكتوبر ، تتقدم تقدما واضحا ..

قال معهد الاستراتيجية العسكرية فى لندن اننا نحتل مرتبة الدولة السادسة من حيث التفوق العسكرى ، بعد أمريكا والاتحاد السوفيتى والصين واليابان ودول مجموعة غرب أوربا ..

عصرنا ، عصر العمليات المعقدة والمتناقضة ..

فهناك ثورة علمية وتكنيكية ضخمة ، تجتاح العالم ، ومحطات الطاقة الذرية والمصانع التى تعمل بالالكترونات تعمم وتزداد اتساعا ، والألياف الصناعية ، والتليفزيون الملون ، والطائرات التى تفوق سرعة الصوت ، والماكينات القادرة على حل أعقد المسائل الرياضية خلال ثوان .. كل هذه الأشياء ، أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياة الناس الذين لم تعد المعجزات التكنيكية تدهشهم على الاطلاق .. واليوم ، فان فدانا من الأرض يغل أكثر مما كانت تغله عشرة أفدنة فى بداية القرن والماكينات الأتوماتيكية المعاصرة تستطيع القيام بعمل مائة أو أكثر من الأشخاص ، وهى تسهل العمل وتجعله مبعث سرور ، والمبعثون الفضائيون من الأرض الذين وصلوا بالفعل الى القمر يحطمون جميع الشكوك التى تدور حول مقدرة الانسان على استكشاف عوالم الكواكب الأخرى وحل أسرارها ، ويوما ما سيصبح القمر وعطارد ونبتون وبلوتو والمشترى ، وبقية الكواكب الأخرى ، تماما كتلك القارات التى اكتشفها الرحالة والمكتشفون الجغرافيون من أمثال :

كريستوفر كولمبس ، وفاسكودى جاما ، وماجلان ، وأمريجودى فوز بيتش ..

يوما ما ستصبح كواكب الفضاء كقارات استراليا ، وأمريكا الجنوبية ، وقارة اطلانتيكا ..

ولكن الى جانب هذا التقدم العلمى الخطير ، فلا تزال هناك مجاعات على الأرض ، ولا زال هناك أطفال لا يجـدون الحليب ، وأناس يقومون بعمل يقصم ظهورهم لكسب قوت يومهم والملايين منهم فى القارات المختلفة ، وبالذات فى افريقيا وآسيا .. ولا تزال هنـاك أماكن ، المحراث الخشبى والفأس والطنبور لا تزال هى الأدوات الأساسية فى الزراعة ، ولا زال هناك ملايين من الفلاحين لا يجدون الا الشحيح من الطعام ، ويعيشـون على الكفاف ، وامثال هؤلاء ، الملايين ينتشرون فى قرى أفريقيا وآسيا .. وربما هذا ما دعا السادات الى أن يقول : « لا يمكن ان تتكلم عن بناء الدولة الجديدة ، طالما ، ظلت حياة الفلاح ، منتج الغـذاء للملايين ، والخامات للملايين ، على ما هى عليه ! » .

والبشرية تعيش فى عصر توجد فيه وسائل مدمرة للحرب ، قادرة على اكتساح أمم بكاملها ، فوق سطح الأرض .. وهناك قاذفات قنابل وغواصات على استعداد فى أية لحظة لالقاء القنابل ، واطلاق الصواريخ التى ظهرت امكانياتها المريعة فى العشر سنوات الأخيرة .

والامبرياليون ، اذ يشعلون الحروب العدوانية ، ويتدخلون فى الشئون الداخلية للشعوب ، والصهيونية المحدثة ــ التى تمثل النازية الجديدة ، وغيرهما من نظم فاشية واحتكارية ، تعمل جاهدة على وقف سير التاريخ ، لكن التاريخ لا يمكن ارجاعه الى الوراء أبدا ..

وهناك تحولات اجتماعية وتاريخية عظيمة تنفذ وتنجز على ظهر المعمورة . بينما النظام الامبريالى يتراجع ، ولم يعد على خرائط أفريقيا وغيرها من

القارات ، الا النذر اليسير من البلدان التى لم تنل استقلالها ولا زالت تحمل أراضيها بعض الاعلام البريطانية والبرتغالية والاسبانية ! فى عام ١٩١٩ كانت الأراضى المستعمرة وشبه المستعمرة تشكل ٧٥ فى المائة من الكرة الأرضية ، أما اليوم ، فى عام ١٩٧٥ ، فهذه الأراضى لا تتجاوز واحدا على ٢٠٠ ، وهذه النسبة ، حتما ، ستنقرض قبل أن يأتى عام ١٩٨٠ ، وبين هذه المجموعة التى لم تنل استقلالها شعوب تصل الى ٥٠ مليون نسمة : جنوب افريقيا ، موزمبيق ، افريقيا الاسبانية ..

لكن توجد أربع عشرة دولة ، حوالى ٣٥ فى المائة من البشرية ، تمارس النظام الاشتراكى ، وكانت معظمها قبل نصف قرن من الزمان متخلفة تماما .. كما نبت الى العالم فى الربع قرن الأخير مجموعة الدول غيرالمنحازة التى تمثل العالم الثالث ، وبينها مصر .. وهى تمارس ، بنوعيات مختلفة أشكال التنمية ، لتطور مجتمعاتها الى الأفضل ، لتلحق بالتطور الذى يحياه العالم .

وعن طريق الاحتفاظ بمعدل مرتفع للتنمية الاقتصادية ، وبوضع الدخل الوطنى فى خدمة الشعب ، تضمن النظم الاشتراكية والدول التى تمارس نظاما اقتصاديا غير منحاز ، تضمن ارتفاعا مطردا فى مستوى المعيشة واشباعا أكثر كمالا للاحتياجات المادية والمعنوية لجميع العاملين .. ومصر من الدول التى تضرب مثلا واضحا فى هذا الصدد ، فهى تناضل عدوا قويا ، وترتبط بحكم وجودها العربى وتاريخها بثورة التحرير ، ورغم انها تحارب وتحيا ظروفا صعبة ، الا انها استطاعت رغم كل هذه المعاناة أن تقطع شوطا هائلا فى التنمية ..

ومن خلال مفهوم الدولة العصرية ، سيتم انجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية التى أعاد الرئيس السادات تصحيح مسارها ، بأن كفل لها قواعد الديمقراطية ، وصيانة الحريات العامة ، وكفل لها سيادة القانون ، وجعل تطورها يمارس من خلال دولة المؤسسات ، فلا تنشأ بعد ذلك مراكز

القوى لتعوق عمليات التقدم الاجتماعى والفكرى والمادى التى تسعى لها ثورتنا ، والذى تضمن حمايته التحولات التى تجرى فى مصر الان ، من أجل الوصول بمصر الى مزيد من التطور ، ومزيد من التقدم ، لتحقيق مفهوم الدولة العصرية : دولة العلم والايمان .. التى تتمثل كل افرازات ومنجزات ثورة التكنولوجيا العالمية ، وتتحرك وفقا للتخطيط العلمى ، وتسير الى غايات واضحة محددة ، مستلهمة الفكر المصرى الأصيل الذى يستند الى حضارتنا العتيدة ، ويتخذ الايمان ركيزة أساسية له ، ليتحقق التوازن الذى يتم بين سد متطلبات الفرد المادية والاجتماعية ، وتمثل اخلاقيات بذاتها ، تكون حافزا ، بعد ان وقفت امامنا الظروف كثيرا واعاقتنـــا عن تحقيق مطامحنا واحلامنا ..

لقد حان الآن الوقت ، ان ننطلق ، لنسابق الزمن ، ولنحقق الكثير ، ونعوض مصر عما فاتها من منجزات علمية وحضارية .. فجنبا الى جنب تحركنا من أجل حل مشكلات مصر والعرب مع إسرائيل ، وجنبا الى جنب حل القضية العربية فى جوهرها من خلال التحركات القومية والعالمية التى تجرى وتتوالى قبل أن نذهب الى جنيف ، ونفرض حقوقنا العادلة ..

جنبا الى جنب هذا ..

لا بد أن نواصل مسيرتنا فى البناء الصناعى المتقدم ، وفى محاولة خلق ثقافة وفكر متفتح ، وتمثل آخر ما فى العصر الحديث من مستحدثات ، ونمضى فى استمرار الخط السياسى النشط ، وكذلك ..

تتحرك خطوات أعمق وأسرع من أجل بناء الدولة العصرية :

دولة العلم والايمان ..

الفصل العاشر

السادات ..
إلى أين ؟

« ان مصر مصممة على القيام بواجبها ، المقدس ، نحو ارضها ، والأراضي العربيـة الطاهرة ، التى لا يزال العدو يحتلها فى الجولان ، وسيناء ، وفلسطين ، ونحو الأرض العربية المغتصبة .. »

انور السادات



الانسان على الأرض فى جوهرها ، هى رحلة من أجل الحقيقة بقــول المثل الاغريقى القديم ، ان الانسان ولد ليبحث عن الحقيقة . ويقول الحكيم بتاح حتب منذ ثلاثة آلاف سنة قبــل الميلاد : لا تنتفخ زهوا بعلمك ، انك لم تعرف بعــد كل الحقيقة ، ولا تمتلىء عجبا لأنك حكيم من الحكماء ، تحدث مع الجاهل مثلما تتحدث مع العالم ، ليس ثمة انسان يدرك الحقيقة كاملة ، وليس فى الامكان وضع حدود للابداع ، والعبارة الطيبة أندر من الزمرد ، ومع ذلك فقد تجدها عند الفقيرة التى تدير طاحونة ! ويقول المثل الروسى : الحقيقة أقوى من القوة . ويقول محمد صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة » ..

الحقيقة غاية الانسان ..

والوضوح أقرب الى الواقع ..

ورغم ذلك ، فالانسان لم يصل الى الوضوح التام ، وأرهق نفسه فى الوصول الى جزئيات الوضوح .. وأصبح من المسلم به بالنسبة لكثير من المفكرين ، أن الوضوح لا يتم مع الجد العقلى والذكاء الحاد الا بحالات تصوف أو بانورايا .. وأكد عدم تبين الرؤيا واضحة ، أن العلم الذى كان يجزم حتى القرن التاسع عشر ، صار فى القرن العشرين يضع الاحتمال مع كل قاعدة ، ولكن رغم كل شيء يظل (البحث) ، أقوى من كل غريزة ، بل هو جوهر الوجود الانسانى ذاته ، وجوهر كل العقائد والنظريات والأنظمة السياسية والاجتماعية ..

الحقيقة قالها أكثر من مرة ، ولطالما بحث ، وأعياه البحث ، من أجل الامساك بها فى صــغره وصباه فى « ميت أبو الكوم » ، كان يتطلع اليها :

محمد أنور السادات .. فى شوارع القاهرة المصرية وطرقاتها الضيقة والواسعة وتحت مآذنها السامقة ، وكنائسها المهيبة ، كان يبحث عنها .. وعندما ضربه رجل البوليس لأول مرة بهراوة على رأسه وهو يتظاهر فى مظاهرات ١٩٣٥، تساءل : الحقيقة ؟ وعندما كان فى منقباد مع رفاقه من الضباط الجدد ، أتاح له الليل الطويل ، والنظر الى الجبل الأشم فرصة التأمل ، وتساءل كثيرا نفس السؤال .. وعندما قبض عليه فى الأربعينات ، بتهمة مقتل وزير المالية أمين عثمان تساءل وهو وراء القضبان : الحقيقة ؟ .. ونفس السؤال ، ألح على وجدانه ، عشرات ، بل مئات المرات ، وهو مطارد من البوليس ، وهو يحيا حياة الخفاء بعيدا عن أعين البوليس فى حى الأزهر أو السيدة زينب أو حتى فى بنى سويف .. وتساءل أيضا ، عندما كان يعمل فى طليعة الفدائيين ابان حركة الكفاح المسلح ضد الانجليز عام ١٩٥١ : الحقيقة ؟ وتكرر السؤال ، مرة ومرة ، ومرات ، وهو يفلسف حياته ، وهو يصل الى معطيات فكرية وايديولوجية تحدد موقفه من الثورة واستراتيجيتها ، وحركة الجماهير وتقدمها وانحسارها ، وقضايا الحريات والديمقراطية ، وقضايا الحرب والسلم .. وكان فى كل تحركاته ، وفى كل (بحثه) ، يتطلع الى الحقيقة ، متخذا من الايمان ركيزة أساسية ، ومن الخبرة والنضال قاعدة عملية ، ومن فكره وثقافته سلاحا يزوده بالعلم والمعرفة ..

وطوال الخمس سنوات الماضية ، نجح أنور السادات ، كقائد ومعلم ومنظر ومفكر وبطل قومى ، فى أن يؤكد ما تطلع اليه ، استعاد روح مصر بعد أن كانت قد تاهت فى ضبابية غامضة وبعد ان كانت تحيا بدموعها خلف شباك أزرق باهت ، وعبر الهزيمة مع مقاتلينا ، ومع المقاتلين رفاق السلاح والفكر فى سوريا ، وعبر مع كل العرب تلك (الكبوة) التى عاشتها المنطقة منذ حرب ١٩٦٧ والهزيمة التى منيت بها فى حرب الأيام الستة ..

وبعد أن انتهت الحرب ، أو توقف اطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، واتفق على فك الاشتباك على الجبهة المصرية ، ثم على فك الاشتباك على الجبهة السورية ، وتم فتح قناة السويس ، وصارت القضية فى قنوات الحل

الدبلوماسى الى حلول ناجحة بالنسبة للقضية .. لم يفارق السادات ، السؤال الملح والذى ظل يتردد فى وجدانه ، مرات ومرات :

ـــ الحقيقة ؟..

طائر بلا عش

لا يخشى على نفسه من الجوع والعطش ، ولا القتل ، ولا الحرب .. تؤرقه قضية مصر والعرب حتى الثمالة .. تشغله عن كل شىء حتى عن أهله وأبنائه وعشيرته ، وحتى حيانا ، عن نفسه . فمصر والعرب ، قضيتهم فوق كل شىء .. وليس معنى وقف اطلاق النار ، والتحركات العربية والعالمية على المستويين الدبلوماسى والسياسى .. ليس معنى هذا ان الحرب انتهت أبدا .. احتمال الحرب لا زال قائما .. وليس معنى ضربنا لمراكز القوى فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، أن الرجعية انتهت ، وان الأرض أصبحت سهلة ممهدة بلا نتوءات .. لا فهناك لا زالت أذيال الرجعية تطل وجيوبها لا زالت تمتلىء بالليرات والدولارات لتعمل أى شىء يعوق تقدمنا ويقف فى مواجهة مسارات ثورة التصحيح ، ونفس الشىء يحدث فى أكثر من عاصمة عربية ، وأكثر من محاولة من الأذناب يحاولون الحاق الاشاعات بنا ويحاولون اظهارنا وكأننا نبيع (الثورة العربية) فى سوق الدلالين ! وهم أكثر بجاحة وعربا من الدلالين أنفسهم !

لا زال الطريق طويلا .. أمامنا .. فى الداخل ، وعلى المستوى القومى ، وفى العالم أجمع ، لنستكمل المسيرة ، ولنحقق مهام ثورة الديمقراطية الوطنية ، وننجز مهام التصحيح فى كل مجال ، من أجل بناء الدولة المصرية دولة العلم والايمان ، ونحل القضية العربية بشكل عادل وجوهرى فى تناقضاتها ..

والسادات ، لا يرى ان الأمور قد انتهت بمجرد فتح قناة السويس ، وان عجلة الانتصار من الممكن أن تقف عند حدود سيناء أو الجولان .. انه مصمم على استكمال (المسيرة) بشكل يضمن الأمن والأمل والاستمرار

للاجيال القادمة ، التى ستردد يوما ما ، وبعد عشرات السنين .. ان السادات مر من هنا ، وان السادات عبر من هنا ، وان السادات شيد هذا ، واقام هذا الصرح ، وحل هذا التناقض ، وقضى على امكانية ان تقوم حرب بهيمية فى المنطقة بمنطقه العلمى والعملى وعبقريته وحكمته التى ليست لها حدود ..

** وقبل أن يفتح قناة السويس فى الخامس من يونيو ١٩٧٥ ، كانت رحلته الى البلاد العربية ، والى سالزبورج فى النمسا ، ومن خلالها ، وصل الى الكثير من النقاط الواضحة ، مع الأطراف العربية ، ومع أمريكا ، كما كانت هناك محاولات للالتقاء بالسوفيت والتنسيق معهم بقدر مايمكن

وكانت هذه التحركات جزءا من الاعداد لمؤتمر جنيف ، الذى يتطلع اليه العرب والعالم ، لحل المشكلة العربية ككل من خلال منطق عادل يضمن الأمن فى المنطقة ويضمن عودة الأراضى السليبة الى العرب ، ويضمن حقوق شعب فلسطين ..

وبشرح السادات بكلماته الحكيمة ، الواضحة هذه التحركات ، وهذه السلسلة المتوالية من الرحلات واللقاءات ، فيقول : « كنت أتصور أن أمام الدكتور كيسنجر أملا فى حدود تسعين أو ثمانين فى المائة ، للوصول الى اتفاق واضح ، والسبب أن هذه الخطوة كان يمهد لها من الصيف الماضى ، صيف ١٩٧٤ ، أى منذ زيارة نيكسون للمنطقة ، ولعلكم تذكرون الكلمة التى ألقاها فى تل أبيب ، وقال فيها للاسرائيليين عليكم أن تتخذوا قرارات صعبة ، وكان هذا الكلام متجاوبا مع تصورى الذى عرضته على نيكسون وكيسنجر ، من أن هناك حاجة الى انسحابات اسرائيلية ، سواء على الجبهات الثلاث وتتم معا ، أو بالتوالى ، من أجل تحقيق هدفين .. الأول هو نزع الفتيل من الموقف المشتعل فى المنطقة ، والثانى تهيئة جو مناسب ، لاستئناف مؤتمر جنيف ، لكى نستطيع ان نضع أبعادا وأشكال الحل النهائى للقضية » ..

كان من المفروض ، وكما أوضح السادات ، أكثر من مرة ، أن تتم الخطوة الأولى من حل القضية فى سبتمبر ١٩٧٤ ، أو أكتوبر من نفس العام ولكن حدث أن استقال نيكسون لأسباب (قضية ووترجيت) ، وجاء

جيرالد فورد ، وأرسل فورد الى السادات تأكيداته الواضحة ، أن أمريكا مستمرة فى كل ما التزمت به نحو مصر والعرب لحـل القضية فى الشرق الأوسط ، وان أمريكا جادة فى هذا ، ولكن هـذا يحتاج الى فسحة من الوقت ! وفى أواخر عام ١٩٧٤ ، زار (آلون) واشنطن ، واستدعى د . كيسنجر سفيره فى مصر ، وقابله فى بروكسل ، ووضعه فى جو المحادثات مع آلون ، ولم يكن فى هذه المقابلة بجديد ، الا أن د . كيسنجر ، أكد من جديد أنه سيزور المنطقة فى أوائل عام ١٩٧٥ ، ليبدأ رحلته نحو الاعداد لجنيف والوصول الى نقاط واضحة بالنسبة لحل القضية .. وتحدد فبراير ومارس لرحلة د . كيسنجر .

وهنا يقول السادات ، توضيحا للموقف ، والقاء الضوء على أبعاده المتنوعة : « حاولت أن اقنع الرئيس الأمريكى جيرالد فورد ، أن يقصر كيسنجر الوقت فى رحـلة واحـدة ، ولكن الرئيس الأمريكى رجانى اعطاء كيسنجر الوقت الكافى ، لأن الأمر متعلق بالوضع الداخلى فى اسرائيل .. وكان واضحا منذ البداية ، أن طبيعة مهمة كيسنجر هى طبيعة عسكرية بحتة ليس فيها كلام فى السياسة ، لأن الحل السياسى مكانه فى جنيف ، وفى حضور كل الأطراف .. ولكن الاسرائيليين كانوا قـد اتخذوا قـرارا فى مجلس الوزراء ، بأ نيفاوضوا على ضوء نظرية تقول : قطعة من الأرض ، مقابل قطعة من السلام .. وهذه النظرية هى التى ظهرت فى البيان الذى أصدرته منظمة التحرير الفلسطينية ! .. وقد كان لى كلام قلته مع ياسر عرفات ، بحضور الرئيس بومدين عندما التقينا فى السعودية ، وكلام لا داعى للعودة اليه .. المهم أن الدكتور كيسنجر كان يعلم منذ البداية منطلقاتنا ، ويعـلم الحدود التى نسير ضمنها ، ولا شـك أن الاسرائيليين هم الذين ورطوا كيسنجر .. قالوا له ، انهم جاهزون ، وعندما جاء فى رحلته الثانية ، وجدهم مختلفين .. كانت الحكومة الاسرائيلية ، جميعا فى حالة تمزق ، تشبه الحالة التى كانت تعانيها الأمة العربية قبل أكتوبر ١٩٧٣ .. كانوا ، كما يقول المثل

العربى : عين فى الجنة وعين فى النار ! عين على نظرية الأمن والتفوق وفرض الصلح بالقوة وفق نظرية الأمن القديمة لبن جوريون ، وعينهم الثانية على السلام ، وبين الخيارين عجز د . كيسنجر عن الوصول الى قرار لحكومة ضعيفة ، وقيادة تكاد تكون هزيلة .. فقد تنازلوا ، فعلا ، عن طلب انهاء عن طلب انهاء حالة الحرب ، والدكتور كيسنجر أفهمهم منذ صيف ١٩٧٤ ، أن مسألة انهاء الحرب قضية يعتبرها المصريون خارج المناقشة » . ويضيف السادات ، موضحا ، صورة الموقف ، وصورة الأخذ والرد مع اسرائيل التى كان الدكتور كيسنجر طرفا أساسيا فيها — أو على حد تعبير صحيفة (الناشونال جارديان) : « قنطرة الحرب والسلام بين مصر واسرائيل فى الشرق الأوسط » . يقول السادات : « طالبت اسرائيل بصيغة تبرر لهم أمام شعبهم القبول بالانسحاب الجزئى ، ورحنا نبحث فى الصيغ التى تضمن عدم القيام بعمليات عسكرية أو اللجوء الى استخدام القوة ، طالما أن عملية السلام تسير وتتقدم ، وكان لنا شرطان أساسيان ، هما أن يكون عدم اللجوء الى استخدام القوة مرهونا بتقدم عملية السلام ، والا تتعرض سوريا لأى عدوان عليها ، فهذا التعهد يصبح لاغيا بمجرد وقوع الاعتداء على الجبهة السورية .. وفعلا توصلنا الى صيغة أصبحت مقبولة من الطرفين .. وهذا سر أذيعه لأول مرة .. وانتقلنا بعد ذلك الى الخريطة ، ووفقا لنظريتهم حصة أرض بحصة سلام ، قدموا خطا متعرجا للانسحاب وكله انبعاجات وجزر .. كانوا يريدون الاحتفاظ بالمضايق فى مركز مقابل كل مركز ينسحبون منه لنا .. وأنا كنت واضحا مع أمريكا ، بأننا نريد الخط واضحا ومستقيما ، وأن عليهم أن يخرجوا من المضايق تماما ، فاذا لم تتفق الآن على هذا الخط ، فكيف سنتفق على خط بعد ذلك ، وقلت لكيسنجر ، ما قلته قبل ذلك مرارا ، بأن المشكلة ستكون فى الخريطة ، وكان واضحا ، تماما أنهم يساومون ، لتكون عملية الانسحاب صورية .. وهنا أحب أن أقول شيئا ، يؤسفنى ، أن (عقدة النقص) التى لا نزال نشكو منها فى العالم العربى وعدم ثقتنا فى أنفسنا لا تزال من أمضى الأسلحة التى تستخدمها

اسرائيل ضدنا ، فعندما كان الدكتور كيسنجر يروح ويجيء بين اسرائيل وأسوان ، نشرت بعض الصحف ما أطلقت عليه البنود السرية التى تم الاتفاق عليها بين السادات وكيسنجر ، وجاء من يبلغ السوريين والفلسطينيين بأن هذه البنود السرية هى فعلا ما تم الاتفاق عليه ! » .

واعطى السادات الفرصة ، سانحة ، لاسرائيل ، لترفض ما وعدت به الولايات المتحدة .. فالضرر الذى سينتج عن ذلك الرفض سوف يقع كاهله على الدكتور كيسنجر نفسه ، وعلى أمريكا بالتالى .. أما بالنسبة للعرب فلن يصيبهم أى ضرر ، ولن تلحق بهم أى خسائر ، بل على العكس ، اذا رفضت اسرائيل ما وعدت به أمريكا ، فمعناه انها ليست راغبة فى السلام وانها (تراوغ) ، ولا تحترم التزاماتها الدولية ، وهذا يعطى لمصر وللعرب فرصة أن يضيقوا الخناق على اسرائيل ..

** ورغم أن الولايات المتحدة ، كانت قد أبلغت اسرائيل عن الاتصالات التى كانت تدور بين واشنطن والقاهرة ، الا أن نبأ عقد الاجتماعات على مستوى القمة فى سالزبورج بالنمسا ، كان مفاجأة ، بالفعل لكل من « اسحاق رابين » رئيس الوزراء الاسرائيلى ، و « بيريز » وزير الدفاع الاسرائيلى — وهما فى تقدير أغلبية الحكومة الاسرائيلية ، السبب الرئيسى فى تدهور العلاقات مع أمريكا ، بسبب الموقف الذى يتسم بالصلافة فى مفاوضات الدكتور كيسنجر . . والمفاجأة ، ان اسرائيل كانت تتوقع أن يعقد هذا المؤتمر فى واشنطن ، أثناء زيارة السادات الرسمية للولايات المتحدة ، وكانت اسرائيل لم تجر مباحثاتها بشكل كامل مع أمريكا وبالتالى لم تأخذ اسرائيل فرصتها لتضغط على أمريكا ، وقد تم مناقشة خمس نقاط أساسية فى سالزبورج : الوضع بالنسبة للشرق الأوسط ، بعد قيام اسرائيل بسد الطريق أمام الجهود التى قام بها الدكتور كيسنجر ... تمثيل الفلسطينيين فى أى مباحثات أو أى مؤتمر يعقد ويتصل بالسلام فى منطقة الشرق الأوسط .. العلاقات الثنائية بين أمريكا ومصر ، ومع التركيز

على تحسين وتطوير جوهر هذه العلاقات بشكل دائم .. الاعداد لمؤتمر جنيف ، والاتفاق على شكله النهائى ، من أجل حل القضية العربية فى جوهرها ، من حيث عودة الأراضى السليبة الى دول المواجهة مصر ، سوريا ، الاردن ، وتنفيذ القرار رقم (٢٤٢) الذى أصدره مجلس الامن ، وضمان حقوق شعب فلسطين وحل قضيتهم بما يضمن اقرار سلام عادل فى المنطقة .. بحث العلاقات الدولية وسياسة الوفاق ، وتأثير هذه السياسة على الأوضاع العالمية ..

وقد علق راديو لندن على لقاء سالزبورج ، بقوله :

« ان هذا اللقاء بين القاهرة وواشنطن ، يعتبر أهم حدث سياسى فى العامين الأخيرين ، لأنه يمثل أهمية خاصة بالنسبة للاعداد لمؤتمر جنيف والذى على أساسه تتحدد امكانيات الحرب والسلم فى المنطقة ، فاعادة الحرب الى المنطقة من يضمن انها لا تسوق العالم الى حرب عالمية ثالثة لا طائل للعالم بها ، ولكن ، كما يبدو ، من المناخ العام ان امكانيات اللقاء نحو السلام وانهاء المشاكل المتعلقة بالشرق الأوسط تعطى نوعا من التفاؤل » .

بينما علق راديو لندن ، على رحلة السادات فى المنطقة العربية ، والتى سبقتها وأقصد سبقت رحلة سالزبورج ، بقوله :

« ان هذه الرحلة تعبر عن انهاء مرحلة الانفصال بين القاهرة وكل البلاد العربية ، هذا الانفصال الذى أذكته حساسيات الماضى ، وهى رحلة لها أهميتها المتعاظمة لأنها تزيد من تدعيم وحدة الصف العربى الذى يعطى الثقة فى المواجهة الآن ، سواء فى حالات السلم أو الحرب ، وقبل انعقاد مؤتمر جنيف أو فى مرحلة الاعداد له » ..

وقد كتبت صحيفة « الناشونال جارديان » ، تقول : « ان تحرك السادات فى المنطقة العربية ، أكد يقظة العرب ، وحرصهم الشديد على التجمع تحت راية السادات من أجل مواجهة ظروف واحدة ، يريدون منها الخلاص الى حل قضيتهم فى جوهرها .. كما ان العالم كله ، كرأى عام ، بدأ

يقتنع تماما ، بعدالة قضية العرب وشرعيتها ، وقد اتفق ويلسون وفورد فى أوائل مايو ١٩٧٥ ، على ان القرار ٢٤٢ ، ينبغى ان يكون الأساس لمحادثات السلام ، كما أتفق على ضرورة انسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة واستعادة الأراضى الفلسطينية .. كما أعلنت معظم الدول ، بل العالم أجمع ، مباركته لهذه القرارات التى اتخذت من أجل حل قضية العرب فى جوهرها لانهاء حالة التوتر والحرب فى الشرق الأوسط » .

** قبل افتتاح « قناة السويس » ، بأسابيع قلائل ، التقى الرئيس أنور السادات بوفد الصحفيين الألمان الذين زاروا القاهرة ، وأجاب على أسئلتهم ، وكان فى مقدمتها الأسئلة الخاصة باعادة فتح القناة .

قال السادات :

« ان سياستنا المصرية فى المرحلة الراهنة ، تسير نحو ثلاث نقاط اساسية :

اولا : العمل من اجل تحقيق سلاح عادل ودائم فى المنطقة ، بما تمثله من اهمية استراتيجية واقتصادية للعالم اجمـع ...

ثانيا : فتح مزيد من قنوات الاتصال والتعاون ، مع مختلف دول العالم ، بما يحقق المصلحة المشتركة ، وعلى اساس استقلال الارادة المصرية ...

ثالثا : تكريس قدر متزايد من طاقاتنا ، وقدراتنا للبنـاء والتعمير ...

ومن هذا المنطلق نعيد فتح قناة السويس ... »

* * *

ربما قبل أرسطو ، والمفكرون ، يحاولون أن يعرفوا معنى «السياسة» ومهما تعددت التعريفات ، فانها تكاد أن تصب فى نهر واحد : تعميق العلاقة مع الصديق ، تحييد الخصم ، محاصرة العدو .. كما أعلن القائد والمعـلم والبطل محمد أنور السادات ..

ولا شك أن المبادرة المصرية ، فى اعادة فتح قناة السويس فى الخامس من يونيو ١٩٧٥ ، كانت عملا سياسيا من الدرجة الأولى ، اذا ما تأملناه جيدا ، لأدركنا الى أى حد تنطبق عليه أسس السياسة الذكية ..

ففتح القناة ، يلتقى مع الرغبات المختلفة لكل الشعوب ، فهو من هذه الزاوية ، تعميق للعلاقة مع الصديق ، وتحييد للخصم ، فضلا عن أنه تعبير عن المرونة العربية ، التى تجعل العدو غير قادر على دعاياته المناهضة .. وربما هذا ما دعا السادات الى أن يعلق على قراره بفتح القناة بقوله : « لقد جاء هذا القرار مخيبا لآمال الاسرائيليين الذين كانوا يتوقعون أن تتخذ قرارات انفعالية » .

فى السياسة .. أن تطلب شيئا ، تبدو فى موقف الضعيف ، ولكن المبادرة العربية ، قالت للعالم أجمع ، ان اعادة الملاحة فى القناة واعادة الحياة فى شريان السويس ، لا تضع العرب فى موقف الضعف ، بقدر ما تضعهم على قمة هرم القوة ..

والمبادرة المصرية ، باعلانها الحرص على حسن سير الملاحة وضمان سلامتها فى القناة بعد اغلاقها لمدة ثمانى سنوات منذ حرب يونيو ٦٧ ، غيرت الموقف السياسى العالمى تماما ازاء قضية الشرق الأوسط .

الخميس ٥ يونيو ١٩٧٥ : يوم خالد فى تاريخ مصر ، والأمة العربية .. فقد أعيد فتح قناة السويس ، كتتويج لانتصارات مصر والعرب التى تحققت فى حرب السادس من اكتوبر ١٩٧٣ وما تلاها من انتصارات سياسية على المستويين : القومى ، والدولى .. لقد وقف بطل العبور أنور السادات ، على المدمرة أكتوبر ، فى افتتاح القناة ، يقول : « ان هناك أمة عربية ، أخـذت مكانها تحت الشمس كقوة سادسة فى عالم اليـوم ، وأن قضايانا مقدسة وأرضنا مقدسة » ..

بروح أكتوبر العظيمة ، فتح القائد والبطل ، قناة السويس ..

بعد مرور ثمانى سنوات على حرب ٦٧ .

كان يقف ، عملاقا ، عظيما ، شامخا ، فى ملابسه البيضاء كقائد أعلى للقوات البحرية ، وفى احتفال رسمى مهيب ، وقع البطل وثيقة قدمها الى وزير الحربية الفريق أول « عبد الغنى الجمسى » ، تضمن نقل الاشراف على القناة من السلطات العسكرية الى السلطات المدنية ، وبعد ذلك ركب المدمرة المصرية « ٦ اكتوبر » ، وأبحر فوق مياه القناة الزرقاء عبر ستين كيلو مترا من بور سعيد الى الاسماعيلية ، وكان الى جواره على المدمرة « حسنى مبارك » نائب رئيس الجمهورية ، و « ممدوح سالم » رئيس الحكومة ، وولى عهد ايران الذى يبلغ من العمر الخامسة عشر ، وعدد من رؤساء تحرير الصحف والكتاب .. وسبقت المدمرة ثلاثة سفن كبيرة ، أقلت كبار الرسميين والزوار والمدعوين فى افتتاح القناة .. ومرت ١٥ سفينة كانت قد حجزت منذ حرب ١٩٦٧ ، قبل تطهير القناة واخراج ٤٠ ألف لغم ، وضمت أول قافلة تجارية ، عبرت القناة ، سفنا كويتية وسوفيتية ويونانية وصينية ويوغوسلافية .. ووضع السادات حجر الأساس الأول لبناء نفق السويس ، وهو واحد من الأنفاق الثلاثة التى ستبنى تحت قناة السويس لتوصيل ضفتها الشرقية بضفتها الغربية فى سيناء ..

لم تكن هذه المرة الأولى التى يعاد فيها فتح قناة السويس منذ انشائها فى عهد الخديوى اسماعيل منذ أكثر من مائة عام ، والذى أراد أن يقرب بين مصر وأوربا ، واشترك فى عمليات حفرها ٣٠٠ ألف عامل مصرى ، كانت القناة قد سدت عام ١٨٨٢ فى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر ، وأعيد فتحها عام ١٨٨٩ .. وخلال الحرب العالمية الثانية سدت القناة ، بفعل القنابل الالمانية ، وأعيد فتحها بعد انتهاء الحرب .. وفى أواخر ١٩٥٦ ، سدها المصريون ، فور العدوان الثلاثى على مصر ، ثم أعيد افتتاحها ... كما سدت فور حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، وظلت مغلقة ثمانى سنوات ، حتى أعيد فتحها فى الخامس من يونيو ١٩٧٥ ، ليمسح تاريخ الهزيمة الذى

حدث ، والذى كان حالة غير طبيعية لمصر ، وليصبح الخامس من يونيو عيد القناة وافتتاحها .. وقد بلغت خسارة العالم من جراء اغلاق القناة خلال الثمانى سنوات (١٩٦٧ ــ ١٩٧٥) ما يصل قيمته الى ١٨ بليون دولار ففى الستينات عبر القناة ١٥ فى المائة من اجمالى تجارة العالم المنقولة بحرا وبلغت نسبة البترول التى عبرت القناة ٨١٫٩٪ من اجمالى بترول العالم ، القناة قد سدت عام ١٨٨٢ فى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر ، وأعيد فتحها أما تكاليف اعادة التشغيل فبلغت ١٠ مليونا من الجنيهات ، منها ٧٠ مليونا من الجنيهات بالعملة الصعبة ..

واعادة فتح القناة .. يعتبر (ضربة معلم) ، بالتعبير المصرى ، وضرب من العبقرية والذكاء السياسى بلغة المعلقين والمراقبين السياسيين ، ومرحلة تاريخية جديدة تغير من موازين القوى بالنسبة للمؤرخين وكتاب السياسة والاقتصاد .. ففتح القناة كان ضربا من الثقة بالنفس أقدم عليها السادات، فألغى حالة اللاحرب واللاسلم فى المنطقة ، ووضع الولايات المتحدة ، مرة أخرى ، أمام مسئولياتها الجسام ، ووضع اسرائيل فى موضع رد الفعل ، وعندما تقدم فلا تخشى شيئا .. ويؤكد السادات مع افتتاحه للقناة أهداف العرب الكبرى :

« ان مصر مصممة على القيام بواجبها المقدس نحو ارضها والاراضى العربية الطاهرة ، التى لا يزال العدو يحتلها فى الجولان وسيناء وفلسطين ونحو الأرض العربية المغتصبة » .

هذا الى جانب ، أن القناة ، من الناحية الاقتصادية ، ستعود على مصر بدخل كبير يصل الى نصف حجم المساعدات العربية التى تلقتها فى عام ١٩٧٤ ، اذ يصل عائد القناة الى ٤٥٠ مليون دولار سنويا ، بالاضافة الى دخل تموين السفن ونفقات البحارة والركاب العابرين للقناة .. هذا الى انه سينشط حركة التجارة العالمية بعد أن كانت السفن تضطر الى أن تلف حول رأس الرجاء الصالح فى الجنوب ..

فأوربا ، تعتمد ، بشكل رئيسى على البترول ، خاصة أوربا الغربية ، وهذا البترول يأتيها عن طريق قناة السويس من الكويت والسعودية والخليج وايران ، ولنأخذ احصاء واحدا من عام ١٩٦٦ ، فنجد أوربا الغربية استهلكت ٩٢ فى المائة من جملة ما يمر من قناة السويس من البترول .. هذا الى جانب ان شركات البترول تملك ٣٠٩٠ ناقلة ، معظمها كان يمر من قناة السويس، واضطرت أن تدور حول افريقيا ، مما ترتب عليه زيادة فى تكاليف البترول اضطرت الى تحمله الدول المستهلكة ، زاده عبئا استخدام العرب للبترول كسلاح فعال أثناء المعركة . . ومن الناحية العسكرية .. ستوفر قناة السويس حلقة اتصال الجيش المصرى بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ..

واذا عددنا العوامل التى تحكمت فى تاريخ الانسان خلال القرن العشرين فسنجد «قناة السويس» ، فى مقدمة هذه العوامل ، قد تختلف على ترتيبها ، لكنها تظل ، دائما فى البداية ، ولا نكاد نختلف انها كانت سببا فى تحويل تيار الأحداث أو دفعه الى الامام ، وربما هذا ما جعل تشرشل ، يقول ، فى نهاية الأربعينات :

« ضع يدك على القناة .. تعرف نبض العالم ! » ..

وهذا ما جعل الكاتب الانجليزى المعاصر بالم دات ، يقول :

« ان الصراع بين الامبريالية العالمية والبورجوازيات العالمية من جانب ، وبين الاشتراكية والقوى الديمقراطية من جانب آخر ، كان يدور فلكه ، دائما ، فى القرن الماضى من خلال المستعمرات فى أفريقيا وآسيا ، ولكنه اتضح وتبين عمقه خلال هذا القرن ، بارتباطه ، أساسا ، بالشرق الأوسط ، وكانت قناة السويس، هى المحور الأساسى والفكرى والمادى فى هذا الصراع الدائر » والأسباب ، التى وضعت ، قناة السويس على رأس الأحداث انها : واحدة من أخطر الممرات المائية ، واذا ما قارناها ببوغاز البوسفور ،وجدناها تهم دولا أكثر ، واذا ماقارناها بمضيق جبل طارق ، رأيناها تسيطر على ثروات أكثر ، واذا ماقارناها بقناة بنما ، أحسسنا بطابعها العالمى على حين تبدو قناة

بنما محلية المصالح .. هذا الى جانب ان قناة السويس ، تتوسط العالم القديم والجديد ، وقد وافق وقت انشائها ازدهار حركة الاستعمار الأوربى ومن هنا ، تمثلت أهميتها بالنسبة للمستعمرين على اختلاف جنسياتهم ، وقد تصارعوا عليها صراعا رهيبا ، وقد بدأت فرنسا فى محاولة السيطرة ، ونجحت فى ذلك فعلا ، لكن بريطانيا تقدمت عليها بشراء الأسهم ، واحتلال مصر ، لكن هذا لم ينه الصراع ، اذ ظلت فرنسا وقتا طويلا تؤكد وجودها فى الشام لكى تظل قوة مسيطرة .. بالاضافة ، الى هذا كله ، تبدو قناة السويس هى « عنق الزجاجة » لثروات الشرق الضخمة ، التى أضحى أهم ما فيها البترول بانتاجه ومخزونه الضخم فى الخليج والسعودية والعراق وايران ، بالاضافه الى بترول افريقيا الجديد ، وقد بدا سلاح البترول من أخطر الأسلحة فى أيدى العرب خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، عندما امتنعوا عن تصديره ، فانتشرت (العتمة) فى الغرب ، وعانى منها كل دول العالم ، كأسلوب للضغط العربى على مختلف الدول ، فبدأ البترول سلاحا خطرا لا يقل استغلاله عن سلاح الفانتوم أو الصواريخ العصرية ..

ومن هنا ، كانت القناة ، على مدى عشرات السنين ، مركز الدائرة من الأحداث ، ولهذه الأسباب ــ كما حدد الكاتب جون جنتر ــ كانت تدور حولها كافة المشاكل والقضايا . ولأرنولد توينبى كلمة مثيرة عن قناة السويس ، اذ يقول :

« بقدر ما كانت قناة السويس هبة لمصر ، فانها ، أيضا كانت لعنة عليها ! » . وهذا الى حد كبير ، صحيح ، ذلك لأن حجم قناة السويس بالنسبة للعالم ، ظل الى سنوات طويلة دون القدرة المصرية على الاحتفاظ بها .. ومن هنا كانت القناة ، مبررا للسيطرة الفرنسية ، ثم السيطرة البريطانية ، ثم محاولات اسرائيل فى وضع يدها عليها .

ومن هنا تبدو أهمية اعادة فتح قناة السويس ، فى الخامس من يوليو عام ١٩٧٥ ..

❋❋ ورغم ضخامة حدث فتح « قناة السويس » العظيم ، الا أن (البعض) ، حاول أن يسيء الى ما يحدث على أرض مصر من انتصـــارات متعاظمة ، وكان وراء ذلك بالطبع (الزبانية المأجورين) ، الذين يروجون لدعاياتهم ، ويحاولون الحاق الأكاذيب بكل عمل ثورى ، وقومى ، نقوم به ، وينشرون هذه الأكاذيب فى صحفهم وابواقهم ، بل ويروجون لها فى الاذاعات المغرضة ، معلنين أنهم رافضون .. ! ويلقى السادات الضوء ، بكلماته التى نفسر ما يحــدث فى هذا الصدد ، فيقول : « قام الزبانية فى العالم العربى ، ليقولوا أن الاتفاقية التى وقعناها لفك الاشتباك ووقف اطلاق النار ، هى ، اعتراف بانسحاب الجيش المصرى من المعركة ، وقالوا ، أيضـــا ، لم يعد فى منطقة القناة جيش بعد أن انسحب الى الداخل .. وقمت فى ٥ يونيو ١٩٧٤ ، واستعرضت الجيش الثالث والثانى ، بحضـــور الاخوان العرب ، وكان الفلسطينيون فى القاهرة وقتها يجتمعون ولم يتح لهم حضور استعراض الجيش الثالث ، ولكنهم جاءوا فى اليوم التالى ، وكان على رأسهم ياسر عرفات ، وحضروا استعراض الجيش الثانى ، وشاهدوا ، بأنفسهم القوات جاهزة بكل معداتها ودباباتها وصواريخها .. اذن ، كيف نكون قد سحبنا الجيش الى الداخل ؟!

وهذا يعود بنا الى ذات الحكاية ، العقدة القديمة ، عدم الثقة بالنفس والميل الى التشكيك ولوى الأمور عمدا .. فقرار فتح قناة السويس قد تم بالقوة .. كان الاسرائيليون متمركزين على الضفة الشرقية يقولون : المية بالنص ، والقناة بالنص ! والآن ، انا فتحت القناة بالقوة ، وقادر على حمايتها وقــد أعــدت ستمائة ألف مهاجر الى المــدن الثلاث ، وأعلنت أن أى عدوان يقع على أى مدينة هناك ، هو عدوان على عمق الجمهورية ، لأن مدن القناة أصبحت فى العمق . فى الماضى كانت اسرائيل موجودة على الضفة الشرقية ، فكانت المنطقة تعتبر ميدانا للقتال .. الآن أصبحت المنطقة فى عمق مصر ، شأنها شأن القاهرة والاسكندرية وأسوان ، اذا وقع عدوان

على أى بلد هناك ، فسأتعامل مع عمق اسرائيل ، العين بالعين ، والسن بالسن ، وهذه هى شريعة موسى عليه السلام » .

❊❊ يقول السادات :

« اذا كانت مصر قوية ، فان العرب يكونون اقوياء . ونحن فخورون ببلادنا ، مما قد يحمل بعض الناقدين على أن يروا فى ذلك تقديما لمصر ومصالحها . ولكننى لا استطيع ان أكون مفهوما بالنسبة للآخرين فى عالم اليوم ، ما لم استخدم نفس الاساليب التى يفهمها الناس فى بقية أجزاء العالم . اننا نحن العرب ، سريعو الانفعال ، نفور بسرعة ، ثم نهدأ ... ولكننا ، هنا ، فى مصر ، الآن ، نستخدم لغة يمكن فهمها فى جميع انحاء العالم ... والانسان ، اليوم ، يجب ان يكون انسان عالمه المحيط به . اننى أقول ما أعنى ، لا استنادا الى عاطفة فوارة ، بل على أساس من التقدير العاقل للأمور ، وليس صوابا مايقال من اننا ننتهج أساليب تختلف عن تلك التى ينتهجها العالم العربى ، ولكننا نحاول أن نقنع اخواننا العرب ، بانتهاج الأساليب التى يمكن للعالم أجمع أن يفهمها ... »

ومن هذا المنطلق ، كان السادات ، دائما ، يتحرك ، فى وضوح ، وفى ثقة وايمان ، وهو يضع فى اعتباره دائما اطراف التى يجرى معها الحوار ، فهو يناقش الدول العظمى : أمريكا والاتحاد السوفيتى ... ويناقش دول غرب اوربا : بريطانيا ، وفرنسا ، والمانيا الغربية .. بل ويناقش العالم المتمدين كله ، وحينما يجرى حواره السياسى معهم ، يتحرك على أرض علمية سليمة تنتهج الموضوعية الكاملة وتستند الى ما يجرى فى العالم من مستحدثات ومتغيرات للعصر ، ولا يضع فى اعتباره ابدا ما يقال من أوهام أو ترهات ، ويسقط عن مسار (القضية) كل السهام الكاذبة ، التى تحاول ان (تعطل) من سير الامور سيرها الطبيعى نحو حل (الازمة) فى تناقضاتها الجوهرية ، وعلى أساس سياسى علمى يضع فى اعتباره دائما شرعية وعدالة قضيتنا وقضايا دول المواجهة الأساسية : (القاهرة ، دمشق ، عمان) ، وكذلك يضع نصب عينيه حقوق شعب فلسطين وحتمية المحافظة على هذه

الحقوق بحكم كونها جزءا أساسيا فى حركة التحرير العربية فى تطورها ..
ويؤكد السادات على شرح وجهات نظره ، فيقول :

« أن فلسطين لن تضيع ثم ان الحقوق السياسية للشعب الفلسطينى لن تكون موضع مساومة . ان الحق التاريخى لشعب فلسطين ، يكمن فى شرعية أن يكون لهذا الشعب حق تقرير مصيره ، والحقوق السياسية الراهنة ، تكمن فى ضرورة ازالة العدوان من الأراضى التى احتلها العدو بعد سنة ١٩٦٧ فى الضفة الغربية والقدس وغزة » .

ويقول ، أيضا ، موضحا مسار أبعاد القضية العربية : « لقد اتفقنا فى الرياض على تنسيق جهودنا . . واتفقنا فى المرحلة المقبلة ، ككل ، وهى مرحلة انعقاد مؤتمر جنيف .. لم نناقش أى نظرية فشلت ونظرية من هى التى ستنجح ، ولو قرأتم وقائع المؤتمر الصحفى الذى عقده اسحاق رابين ، بعد فشل مهمة كيسنجر ، لتأكدتم أن مصر ، لم تكن تسعى لا الى حل جزئى ولا الى حل منفرد . هذه تعابير صدرت الى المنطقة وكان لى كلام حولها مع اندريه جروميكو ، كما ان لى مع الرئيس حافظ الأسد كلاما .. أنا أنهم أن يكون هناك حل جزئى أو حل منفرد اذا دخلنا فى صميم المشكلة السياسية وتعرضنا للهدفين الأساسيين ، لا تفريط فى أى شبر من الأراضى العربية المحتلة ولا مساومة على حقوق شعب فلسطين ... فاذا لم نتعرض لهذه القضايا السياسية ، فاين يكون الحل المنفرد ، وأن يكون الحل الجزئى ... هذا عيب ، ولا يجوز أن تتهم به مصر التى كانت من أغنى البلدان العربية وأصبحت من أفقرها لأن لها التزاما قوميا تمسكت به رغم كل الظروف .. عيب أن تتهم ظلما وعدوانا للافتراءات والأكاذيب (١)»

* وبالنسبة لموقف مصر من الاتحاد السوفيتى ، فيرى السادات ، أنه لابد أن تقدر موسكو موقف مصر تمام التقدير : « أرجو من أصدقائنا السوفيت أن يقدروا الموقف ، الذى نحن بصدده ، لأننا لا نستطيع أن نوقف عجلة البناء ، ولا نقدر على أن نوقف عجلة البناء الاجتماعى ، ولا

---

(١) جاء هذا فى تصريح للرئيس انور السادات فى ١٥ مايو ١٩٧٥ .

بناء القوات المسلحة .. إسرائيل استعوضت من أمريكا كل سلاح خسرته ، ثم خلال ١٤ شهرا ، أخذت أسلحة جديدة اضافية فوق ما أخذته من قبل . نحن لم نعوض . ابتداء من يناير ، كما قلت من قبل ، ان العقود القديمة المستحقة للدفع سنة ١٩٧٣ — ١٩٧٤ ، كانت تيجى ، وانا ممتن وشاكر للاتحاد السوفيتى : وان يتم جميله ، ومسألة الدين وفترة السماح ، عرف مأخوذ به فى العالم أجمع ، لاننا كلنا نواجه المصاعب ، وكلنا نعرف الظروف التى نواجهها ، ونحن لا نتخلى عن التزاماتنا ، ولا أنكر ما علينا من ديون ، أقول اننا أخذنا وعلينا دين ، ولدينا النية لتسديده ، لكن على الطرف الآخر أن يقدر ظروفنا (١) » ويضيف السادات فى كلام آخر ، موضحا طبيعة هذه الديون ، وموقفه من موسكو : « ثمن السلاح .. الحقيقة أن اتفاقيات المصانع مريحة ، إننا نسدد من انتاج هذه المصانع . أما الاسلحة فهى من ١٩٦٧ وما قبل ١٩٦٧ ... و فى الظروف المشابهة ، يمكن التساهل ، فالاتحاد السوفيتى ، مثلا ، لم يدفع للولايات المتحدة سوى قسط واحد من ثمن السلاح الذى أخذه فى الحرب العالمية الثانية ، بموجب قانون الاعارة والتأجير .. دفع قسطا رمزيا بعد مرور ثلاثين سنة .. ونحن على اتصال مع إخواننا العرب ، لا ليسددوا عنا ديون الاتحاد السوفيتى ، بل من أجل عملية سريعة لتقوية اقتصادنا ، بحيث نستطيع الوفاء بالتزاماتنا للسوفيت وغير السوفيت ، ولا يقتصر اتصالنا باخواننا العرب ، بل نتصل بأمريكا أيضا ، وهذا جزء من مقابلتى مع الرئيس فورد فى سالزبورج (٢) .. » .
و فى تقدير السادات ، أن هذه (الديون) ، لا ينبغى ، أن تكون مثار خلاف بين موسكو والقاهرة ، وكما يبدو ، إن مسألة (الديون) هـذه مجرد افتعال ! لماذا .. ؟ واضح ، بالطبع ، أنه كلما احس السوفيت بتقدم أمريكا خطوة فى المنطقة ، يزعجهم الأمر ، وعلى سبيل المثال ، نذكر هنا الموقف

(١) جاء هذا فى خطاب السادات فى عيد العمال فى اول مايو ١٩٧٥ .

(٢) جاء هـذا فى خطاب الرئيس ، فى احتفالات عيد أول مايو عام ١٩٧٥ ، فى الخطاب الذى القاه فى اسيوط ..

المفتعل الذى حدث عند وقف اطلاق النار وما أعقبه من تحركات فى المنطقة وبالذات ، عندما بدأت أمريكا تمارس « سياسة الخطوة خطوة » .. فقد كان من رأى السادات ، ولازال : « أن أيه خطوة تستطيع أن تحققها أمريكا هى لصالحنا ولصالح قضيتنا ، وبعد فشل مهمة كيسنجر ، لم نختلف مع السوفيت فى الذهاب الى جنيف ، ولا على الحل السياسى والنهائى لن يكون الا فى جنيف . . لقــد أفتعل الخلاف معنا افتعالا ! لمــاذا لأننا قلنا لأمريكا وكيسنجر : ورونا شطارتكم ، حليتو حليتو .. وان ماحليتوش رايحين جنيف ، رايحين جنيف .. علما ان امريكا ، أعلنت أكثر من مرة خلال محاولاتها (الخطوة خطوة) ، أن أى انسحاب سيتم لن يكون بديلا لجنيف ، وانما هو تمهيد له .. (٢) » .

* من خلال تصريحات ومواقف السادات من موسكو وواشنطن ... نستطيع أن نحس بمدى حيديته ، ورغبته الأصيلة فى حل (القضية) بعيدا عن أى شروط ، ودون الانصياع الى معسكر على حساب حل القضية . فسياسة مصر ، والعرب ، دائما ، ستظل نابعة من قلب أرضها ، ومن فكرها الاصيل ، رغم أن الكثيرين ، يحاولون ان يضعونا فى منطقة الصــدام الفكرى ، بين الكتلتين : فاليسار التقليدى يضعنا فى (منطقة التوتر) هذه عندما يطالبنا باليسارية ، ويفرض علينا أن نحل المشكلة الوطنية فى خط وتطور الطريق اليسارى التقليدى (أى الطريق الى الشيوعية) ، بينمــا اليمين الرجعى ، يحاول أن يجرفنا الى الطرف الآخر ، ويردد ما حلا له من تحليلات وافتراضــات ، ويقول اننا سنلغى القطاع العــام ، ونعيد الى الرأسماليين والاقطاعيين حقوقهم من جديد ، واننا سنحل المشكلة الوطنية فى اطار التطور الرأسمالى ، وبذلك يضعنا ، ايضا فى (منطقة لتوتر) — أى منطقة الصدام بين الكتلتين .. ونحن ، نسير فى خط واضح ، لاتشويش أو غموض فيه ، هو طريق التطور غير المنحاز ، الذى يستلهم فكرنا المصرى

---

(٢) جاء هذا فى تصريح للسادات فى ١٥ مايو ١٩٧٥ .

الأصيل ، من أرضنا ، ومن حضـارتنا ، ولمن تراثنا ، والذى يتمثل كل متغيرات العصر وثورة التكنولوجيا العالمية .. من خلال هذا نحن نسير ...

ومن خـلال هذا يسير السادات : داخليا ، وخارجيا . . وينعكس هذا الخط الحيادى الواضح على كل فكره (نظريا وايديولوجيا) وفى الممارسة اليومية (فى التطبيق) . ولذلك يؤكد : « اننا لا نقبل أى شروط .... والالتزام الأول لكل أمة هو التزامها تجاه حريتها ، فى اطار مبادىء القانون الدولى ، ولا يستطيع أحد أن يطلب اليها أو يفرض عليها التزاما مع الالتزام المقدس ، وعلى أساسه ، فان عليها أن تحتفظ لنفسها بحرية وحق التصرف فيما تواجهه » . ويقول ، أيضا : « اننا نرفض دعاوى الجمود ، باسـم التمسك بالمبادىء . فنحن الذين صنعنا مبـادئنا ، ونحن القادرون على تطبيقها التطبيق المناسب للظروف الجـديدة ، ولكننا نرفض بنفس القوة الدعوة الى التخلى عن المبادىء التى ارتضاها شعبنا بحجة تغير الظروف ، فالمبادىء الأساسية لا تتغير بتغير الظروف ، والا لما كانت ترقى لمستوى المبادىء ، وانما الذى يجب أن يتغير هو التطبيق » .

خارجيا ، فى السياسة ، السادات ، يمارس سياسة (الحياد الكامل) ، كجزء من السياسة الداخلية المبينة على مبـادىء ثورة التصحيح وورقة اكتوبر للمتغيرات وفكرنا المصرى الاصيل الذى يسير ، علميا وعمليا ، لتحقيق مهـام الدولة العصرية وبناؤها كمـا نطمع ونهدف : دولة العلم والايمان ...

وعلى أساس هذا الفهم ، أو هذه الايديولوجية الواضـحة ، والتى يمكننا أن نسميها « الفكر الساداتى » ـ أو الأيديولجية الساداتية ، لأن الفكر الثورى لهذه المرحلة ، والذى بدأ منذ ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ الى الآن ، هذا الفكر المصرى الاصيل اصطبغ بفكر السادات ومنهجه وتعاليمه ، واكتسب مذاقا خاصا ولونا واضحا ، يستطيع أن يحسه ويدركه

كل دارس وكل متتبع لافكار السادات ، كمفكر ، ومنظر ، وقائد ، ومعلم ، وبطل قومى ...

* ومن خلال المرحلة الراهنة ، يدعو السادات كل الأجهزة وكل المؤسسات ، لتشارك فى التغيير الى الأفضل ، بالغاء كل ما من شأنه أن يعوق التطور المرحلى لفكرنا وأهدافنا .. ومسار السادات فى هذه المرحلة داخليا ، يتضح من خلال تعاليمه وأقواله وكلماته ، فهو يقول :

« كان على شعبنا ان يختار بين حكم مراكز القوى ، وبين حكم دولة المؤسسات ، وهى تمارس صلاحيتها فى اطار الشرعية وسيادة القانون ، واختار شعبنا ، باصالته الحضارية ، طريقه : طريق الحرية ، والديمقراطية ، وسيادة القانون ودولة المؤسسات ... والمعنى الأصيل لسيادة القانون ، يتمثل فى النزول على حكم القانون ، والالتزام بالشرعية منهجا وسلوكا ، فهو يحكم سلوك الفرد ازاء المجتمع الذى يعيش فيه ويحكم سلوك كل من يسند اليه قدر من السلطة أن يمارسه فى اطاره الصحيح والسليم ، قانونا ، وتحت الرقابة الشعبية ، لا ينحرف به عن مساره ولا يحيد عن حق لمواطن كفله له القانون ، ومن هنا كان النص فى الدستور على ان سيادة القانون أساس الحكم فى الدولة ، وعلى وجوب أن تخضع الدولة للقانون ... »

وبين تعاليمه ، أيضا فى اطار دولة المؤسسات ، يحدد المسار لهذه المرحلة فيقول :

« تعنى دولة المؤسسات ، ان الحكم لا يمارسه فرد أو جماعة من الناس ، وانما يمارسه الشعب بمجموعه من خلال مؤسساته الدستورية ، تمارس صلاحياتها شعبيا ، وسياسيا وتنفيذيا ، فالاتحاد الاشتراكى هو التنظيم السياسى الذى يمثل بتنظيماته القائمة على اساس مبدا الديمقراطية تحالف قوى الشعب العاملة ، وهو اداة هذا التحالف فى تعميق قيم الديمقراطية والاشتراكية ويتولى مجلس الشعب سلطة التشريع ، ويقر السياسة العامة للدولة ، والخطة العامة للتنمية الاقتصادية ، والموازنة العامة للدولة .. كما يمارس

الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية ، وذلك على الوجه المبين في الدستور .. اما الحكومة ، فهي الهيئة التنفيذية والادارية العليا » .

ويقول ، أيضا ، في رسالته الى مجلس الشعب في ذكرى مرور أربع سنوات على (ثورة التصحيح) ـ أي في ١٥ مايو ١٩٧٥ :

« اذا كان شعبنا قد انطلق بعد ان تحررت ارادته الى معركة التحرير بهذه القوة ، تدعمه امكانيات أمتنا العربية . فليست به حاجة الى أن انبه ان معركة البنـــاء والتعمير ، تقتضينا جهود شاقة ومضنية يشارك فيها الشعب بمجموعة افراده ، ومؤسساته ، وهي في حاجـــة ، ايضـــا ، الى دعم ومساندة امتنا العربية ، حتى نستطيع أن نعوض ما فاتنا من سنوات ، وجهنا فيها الأموال لخدمة المجهود الحربي ، وصولا الى معركة التحرير التي خضناها يوم السادس من أكتوبر المجيد . اننا في حاجة الى تنمية شاملة وسبيلنا الانفتاح على مختلف دول العالم ، لكي نحصل على الخبرة والتكنولوجيا من حيث نستطيع الحصول عليها .. والانفتاح على العالم العربي ، فالرخاء العربي لا يمكن ان يتجزأ ، والأمن العربي لا يمكن ان يتجزأ ، وسبيلنا من قبل ، ومن بعد ، جهـــود شعبنا وخبرة ابنائنا ... »

※ وفي هذه المرحلة الراهنة ، والسادات ، يواصل مسيرته ، نحو حل مشكلات المواطن المصري (ماديا ، وفكريا ، واجتماعيـــا) .. وحل تناقضات العربية في جوهرها (كجزء من حركة التحرير القومي) ... لابد أن يتوفر المناخ الصحي الكامل ، ليكون للحريات معنـــاها ، ولتكون للديمقراطية أصالتها ، ولنتجنب الكثير من السلبيات التي لا زالت اجزاء منها تحيا داخل اجهزتنا ومؤسساتنا ، فمن السهل ان تقوم (ثورة ما) ، ولكن من الصعب جـــدا ، تنفيذ أهداف ومبادىء هذه الثورة ، لأن من ينفذها بشر ، والبشر ، نوعيات مختلفة ، منهم الثوري حقا ، ومنهم النصف ثوري ، ومنهم من يدعي الثورية ، ومنهم المتسلق والانتهازي والانهزامي والرجعي والرافض والمضاد للثورية .. وحتى تؤمن مسار الفكر الثوري ،

لا بد أن نعتمــد على ركائز أساسـية فى هــذه المرحلة ، لننجز مهـام الثورة الديمقراطية الوطنية (فى الداخل) ، ولننجز مهام حركتنا التحررية بحل تناقضات القضية العربية فى جوهرها والوصــول الى حلول ناجعة عادلة تنهى حالة التوتر فى المنطقة ، ويمكن حصر هــذه الركائز فى ثمانية عناصر أساسية :

* أولا : الالتزام بالخط الثـورى ، والفكرى ، لمبـــادىء ثورة التصحيح ، وعدم الخروج عنها ، وعدم الانصياع لأى أفكار دخيلة ، قد تعوق من المسار الثورى . ولتحقيق ذلك لابد من التخلص من الخوف والتسلط ، فلا زال التسلط على بعض الناس موجودا من قبل البعض على البعض ، امتدادا لـ (عقدة الماضى) . لا ينبغى أن نصمت أمام أى خطأ . ينبغى أن نفضح ونكشف أى تخريب داخل أى مؤسسة أو جهاز ، لأن السكوت عنه ، معناه المشاركة فى الجريمة . حقيقة ، أن موظفا صغيرا ، قد يخشى الطرد أو عــدم الرضى اذا ماهو تكلم ، لكن لابد من الكـلام ، وبجرأة ، حتى نقضى على السلبيات ، والا سنتعرض فى المستقبل لهزات لانريدها ، ولا نستطيع السكوت حتى تستفحل وتزداد ، وكما يقول السـادات : « لابد أن يزول الخوف ، وان تختفى بذور الشـك ، وان تتراجع الحزازات والأحقاد ، وان يحس كل فرد أنه آمن على يومه وغده وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله ، فان الحقد لايبنى شيئا ، وسوف لايجد مكانا فى صفوف شعبنا الطيب » ..

* ثانيا : لابد من الاستعانة بالعناصر الثورية ، فى القيادات ، ولابد من خلق كوادر أساسية ، تحمل الرسالة وتسير بفكر التصحيح ، وتتسلح بمبادئه فكريا وعمليا ، فنحن ، كثيرا ما نترك فى القيادات ، أو فى غير القيادات ، ما هو غير أمين على تنفيذ منجزات التصحيح .. وكيف ينفذ التصحيح من هو غير أهل له ..؟! لماذا نستعين مثلا ببعض العناصر الملوثة ، أو التى لها رصيد كبير من الفتن والمؤامرات السياسية ؟ لماذا لانلفظ ، هؤلاء ، ونستعين

بعناصر ثورية لها قدرتها على انجاز مهام ثورة التصحيح بشكل يضمن السير بالبلاد الى ما فيه الخير ..

* ثالثا : لابد من الاستفادة بالمثقفين الثوريين ، فى هذه المرحلة الراهنة ، وهناك فرق كبير بين (المثقف) الثورى الحقيقى المنزه وبين المثقف الذى يستغل فكره ، أو قشور ثقافته ، ليتسلق ، أو (يركب الموجه) ، أو يحقق أفكاره الانتهازية ، وفى تقديرى أن المثقف الثورى ، لا بد أن يدين بالولاء الكامل لمصر ، ولمبادىء ثورة التصحيح ، وأن يكون على استعداد للعطاء والبذل ، من أجل مصر ، حتى تتقدم أكثر وأكثر .

* رابعا : لابد من تغيير الكثير من القوانين الاجتماعية والشخصية ، التى لم تعد تتلاءم مع مبادىء ثورة التصحيح أو مع متغيرات مصر وثورة التكنولوجيا والمجتمع الأمثل الذى نسير نحوه ، الا وهو : الدولة العصرية .. دولة العلم والايمان ... فكيف نخلق هذه الدولة ، ونوسع من امكانياتها ، وهناك قوانين صدرت فى عهود بائدة أو فى ظروف الملكية أو الاحتلال البريطانى ولا زال يؤخذ بها حتى الآن (على سبيل المثال : قانون الأحوال الشخصية ـ مثلا) .

* خامسا : لابد من اعطاء الفرصة سانحة للقيادات ، وللمواطنين ، فى التصرف ، فى التطبيق والممارسة للعمل اليومى ، دونما وضع عراقيل بيروقراطية أو تكنوقراطية ، حتى يمكن للمواطن القيام بعمله على أوفر وجه ، فى حدود القانون ...

* سادسا : لابد من اضفاء نوع من الثورية أكثر على اشكال الاتحاد الاشتراكى ، فلا زالت صورته فى ذهن المواطن المصرى هى (صورة التنظيم الميرى) ، لابد أن يترجم شكل التحالف الى اشكال وقوالب أكثر ثورية ، ليتم من خلاله ممارسته الديمقراطية الحقيقية التى تلتقى ومبادىء ثورة التصحيح فى تطورها نحو الأكمل .

* سابعا : لابد من أن تواكب الثقافة والفكر والاعلام ، مايدور فى بلادنا من صعود وتطور نحو دولة العلم والايمان . بمعنى ، أنه لا بد

أن تعكس أجهزة الثقافة والفكر والاعلام ، ليس فقط ما يتم انجازه على المستويات المادية والاجتماعية ، والقومية ، من انتصارات لمصر .. بل لا بد أن ترهص لبناء الدولة الجديدة : الدولة العصرية ، بكل مفدرات الثقافة والاعلام ... فحتى الآن ، لا زالت هنـاك هوة كبيرة بين ما يحـدث فى بلادنا ، وبين ما نراه على شاشة التليفـزيون ، أو نسـمعه فى الاذاعة ، أو نقرأه فى كتب ، أو نراه على الشاشة فى السينما ... وليس مطلوبا من أجهزة الثقافة والاعلام والفكر ، عندما نقول هـذا ، أن تنبرى لتحـول برامجها ومشروعاتها الى برامج دعائية وخطابية جوفاء . لا .. بل نستهدف من وراء ذلك ، أن تتمثل هذه الأجهزة صورة المستقبل . وبالتالى . يصبح على أجهزة الثقافة ، والفكر ، والاعلام ، فى بلادنا ، واجبات جسيمة ، فهى التى تملك أخطر الأسلحة لتأكيد الفكر الثورى والارهاص لدولة العـلم والايمان ... يصبح أمام هذه الأجهزة : مهمة أن تعكس فى صدق صورة المرحلة الراهنة ، ومهمة نقد سلبيات المـاضى والحاضر ، ومهمة أن ترهص لصورة المستقبل التى ننشدها والتى تعطى ملامح الدولة العصرية ... نريد أن نرى على شـاشة التليفزيون أو السـينما أو فى الأدب علاقات الحب والصداقة والعمل والآمال ، وهى تدور بمنطق الثلث الأخير من قرننا الحالى ، ولا بمنطق الأربعينات أو الخمسينات ... بل نريد ، أيضا ، أن نرى صورة هذه العلاقات ، كما ينبغى ان تكون فى صورتها الأكمل عام ٢٠٠٠ .

* ثامنـا : لا بد أن يكون هناك نوع من الردع والعقـاب للذين يسيئون الى الشعب ، فكثيرا ما نسمع أن (فلانا) اختلس ، أو أن (فلانا) قصر فى كذا ، وأن (فلانا) أخفى موادا تموينيـة أو يتاجر فى السـلع الاستهلاكية مستغلا سلطاته ... ولا ينال العقاب الرادع ! لماذا ؟ يجب ألا نتسـاهل مع أى (مجرم) فى حق الشعب .. ويجب أن نحاسـبه ، وبضراوة ، حتى لا يكون هناك نوعا من التسيب الأخلاقى ... وهـذا التسيب الأخلاقى فى الأساس .. سيقول قائل ربما نعطيهم الفرصة ليصلحوا

ما بأنفسهم ، لكن من الخطر وضعهم فى مراكز هامة (اقتصادية ، كانت ، أم اعلامية أو فكرية) . وفى هذا المجال ، نقول أنه ينبغى أن نأخذ بيد كل ما نحس فيه بالعطاء الثورى ، والاخلاص لمصر ، والايمان بفكر التصحيح ، فهذا هو الذى يوفر الأمان للمستقبل ويصون المكاسب السياسية والديمقراطية والحريات التى حصل عليها شعبنا من خلال منجزات السنوات الخمس الأخيرة ...

وقد فطن السادات ، الى الاستعانة بالقيادات الشابة ، والثورية ، لذلك نراه قد وضع فى القيادة العديد من العناصر الثورية ، الشابة ، مثل « حسنى مبارك » ، أحد أبطال حرب أكتوبر البارزين ، والذى كان قائدا للطيران الذى قام بدور بطولى خارق فى معارك أكتوبر ١٩٧٣ ، كان اختيار السادات لهذه البطولة ، اختيارا عظيما ، عند ما نصبه كنائب لرئيس الجمهورية .. كذلك ، اختيار السادات لشخصية مثل « ممدوح سالم » ، الذى لعب دورا هاما فى ثورة التصحيح منذ قيامها ، ووضع جل جهوده فى خدمة الشرعية وسيادة القانون طوال السنوات الخمس الأخيرة .. كان اختيارا موفقا ، عندما اختاره رئيسا للحكومة .. كذلك اختياره ليوسف السباعى وزيرا للثقافة والاعلام وهو الرجل الذى ارتبط بالحركة الفكرية وتطورها منذ بداية الخمسينات كذلك هناك ، أكثر من مثل واضح ، على ذلك ، من القيادات الشابة والمخلصة ، التى اختارها لتكون فى موقع السلطة ...

●

رحلة طويلة ، عظيمة ، قادها البطل والمعلم : محمد أنور السادات .

طائر بلا عش ...

لا يخشى على نفسه من المستقبل ..

لا يخشى على نفسه من الأعداء ..

لا يخشى على نفسه من أى شيء ..

لأن الايمان داخله ، والهدف واضح أمامه ، والطريق تجلله الآمال الكبار ...

فلتمضى مسيرة القائد ، والمعلم ، والبطل .. الى أنبل الغايات .. وليحمى الشعب « المسيرة » بسياج من الحب والمبادىء القوية التى تستمد نفسها من مبادىء « ثورة التصحيح » العظيمة ..

وليمضى الفارس المغوار : فارس الأمل ، الى مزيد من الانتصارات ، ومزيد من الآمال ، ومزيد من التقدم لتحرير كل شبر من الأرض العربية ، ولبناء الدولة العصرية : دولة العلم والايمان ، التى تحقق مزيدا من الرفاهية ، ومزيدا من العدالة ، ومزيدا من الحريات والديمقراطية لمصر..

ليمضى الفارس والبطل ، القائد ، والمعلم · محمد أنور السادات الى أنبل الغايات ، وأسمى الأهداف ، وأعظم الأحلام .. فهو خير عطاء للمرحلة ، وخير عطاء لمصر ..

واذا كانت مصر هبة النيل ، فالسادات هبة مصر ، بكل ما فيها من عطاء ، وسماحة ، وذكاء ، وعبقرية ... فلتحمل الأيام القادمة أجمل الآمال ، وأعظم الأمانى ، لمصر ، والعرب ، وبطلها يمضى بـ « المسيرة » ، الى الأمام ، دائما ، والى النصر على طول الطريق ...

مصـــادر البحث

•• المصـــادر العـــربيـــة

- أنور الســـادات .. رائدا للتأصـــيل الفكرى ... تأليف : نبيل راغب
- خطب الرئيس أنور الســادات منـذ ١٩٧٠ حتى أواخر مايو ١٩٧٥
- القاعدة الشعبية ... تأليف : أنور السادات
- فن الحرب : من الحرب العالمية الثانية الى الاستراتيجية النووية .. تأليف : الجنرال أميل وانتى ترجمة اكرم ديرى ، والمقدم الهيثم الأيوبى
- العرب والحضارة الاوربية .. تأليف : محمد مفيد الشوباشي
- مذكرات الســادات من ســجنه فى الأربعينات ... تأليف : أنور السادات (مذكرات)
- الراسمالية الشعبية .. تأليف : ت . جوزيفسون (مترجم)
- الفكر الذى انتصر ... تأليف : سعيد عثمان
- صفحات مجهولة من كتاب الثورة .. تأليف : أنور السادات
- تطور الحركة الوطنية فى مصر : ١٨٨٢ ١٩٥٦ ... تأليف : شهدى عطية الشافعى
- لمحات من تاريخ العالم ... تأليف :جواهر لال نهرو (مترجم)
- عاصفة على السكر ... تأليف : جان بول سارتر (مترجم)
- رسائل الحرية ... تأليف : فوليتر (مترجم)
- ماساة دنشواى ... تأليف : برناردشو (مترجم)
- أزمة بريطانيا الاستعمارية ... تأليف : بالم دات (مترجم)
- حرب الايام الستة ... تأليف : عبد الستار الطويلة
- وثائق حرب أكتوبر .... تأليف : موسى صبرى

- دراســات حول معــارك اكتوبر وآراء العدو الاسرائيلى ... — بقــلم : أنيس منصور
- الثقافة فى عصر النهضة ... — تأليف : جاكوب بورخاردن (مترجم)
- بــدلا من الخــوف (الاشـــــتراكية والديمقراطية .... — تأليف : أنورين بيفان ، ترجمــة كامل زهيرى
- الفاروق .. ملكا ... — تأليف : جميــل بهجت
- الجبرتى وكفاح الشعب ... — تأليف : محمود الشرقاوى
- العصر الذرى .. — ترجمة : مجدى نصيف
- الحب والثورة ... — تأليف : هربرت ماركوزا (مترجم)
- دفاع عن الثقافة العربية ... — تأليف : فتحى خليل
- فلسفتى كيف تطورت : برتراندرسل — تأليف : برتراندرســـل . ترجمـــة عبد الرشيد الصادق
- الى اين تســـير الحرب فى الشرق الاوسط ؟ — (مترجم ـ موسكو ١٩٦٩)
- قصة قناة السويس ... — تأليف : د. مصطفى الحفناوى
- اطلاق الحمامة : ٥ يونيو .. الملف السرى للعدوان الاسرائيلى على مصر . — تأليف : ا. بيليايف، ت. كوليسنيشنكو ى. بريماكوف (مترجم)
- تأملات فى المستقبل الاجتماعى للبشرية — تأليف : ش. جيرمان (مترجم)
- قناة السويس ... — تأليف : جالينانكيتينــا . ترجمـــة : ابراهيم عامر
- باندونج بداية الطريق .. — تأليف : عادل ثابت
- الدولة والثورة .. — تأليف : فلاديمـــير البتش لينين ، ترجمة محمد الميتانى
- فى اصول المسألة المصرية .. — تأليف : صبحى وحيدة
- أسرار الثورة العرابية .. — تأليف : امين سعيد
- واقعية بلا ضفاف .. — تأليف : روجيه جارودى (مترجم)
- ابراهام لنكولن .. قائدا ، وزعيمـــا لامريكا . — (مترجم)
- أزمة مصر الاقتصاديه .. — تأليف : د. عبد الرازق حسن
- الاسرار الحقيقية وراء الاسرة المالكة فى مصر — (مترجم ـ بيروت)
- حرب التقصير فى اسرائيل — (مترجم)

- دراسات فى حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط بين العرب
  (مجموعه مقالات لابجال الون)
- الحرب فى سيناء .. — تأليف : موشى ديان (مترجم)
- التنمية الاقتصادية فى مصر ... — تأليف : فتحى محمد ابراهيم
- ما العمل .. ؟ .. — تأليف : فلادبمير اليتش لينين (مترجم ـ طبعة موسكو)
- تطور الحركة القومية فى مصر ... — تأليف : عبد الرحمن الرافعى
- مجموعة كتب جمال عبد الناصر التى الفها منذ ١٩٥٢ حتى ١٩٦٩
- القومية والوحدة فى الحركة القوميـة العربية الحديثة .. — تأليف : عبد الله الريماوى
- ٤ مقالات عن اسرائيل وتطور اقتصادها وفنونها العسكرية ... — للدكتور جمال حمدان
- الاقتصاد السياسى .. — تأليف : ليونتيف (مترجم)
- جريدة العروة الوثقى .. — مجموعة مقالات جمال الدين الأفغانى
- مجموعة جريدة الأهرام (لسنوات : ١٩٤٦ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥).
- مجموعة جريدة الجمهورية (لسنوات: ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠) ....
- هوامش على دفتر النكسـة ..... — تأليف : نزار قبانى (١٩٦٧ ـ بيروت)
- الاقتصاد الراسمالى ..... — تأليف : س . بيجودسكى (مترجم)
- مجموعة أعداد مجلة الطليعة والكاتب فى الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٧٤ ...
- الأسلحة النووية ومستقبل الانسان .. — تأليف : لينوس باولنج (مترجم)
- سلامة موسى . وأزمة الضمير العربى . — تأليف : غالى شكرى
- حركة التحرر الوطنى والاشتراكية .. — تأليف : فلادىمير . بولارابسكى (مترجم)
- ندوة ارنولد توينبى حول حركة التحرر الوطنى والحضارة العربية ، التى اقيمت اثناء زيارته للقاهرة وتم تسجيلها .
- النظرية السياسية عند هيوم .... — تأليف : محمد فتحى الشنيطى

- الصناعة الثقيلة ، دعامة الاقتصاد الوطنى فى المستقبل .. — تأليف : بوريس زايلين ر
- صوت المعركة .. مجموعة حواريات برنامج صوت المعركة ، الذى يقدمه من القاهرة : حمدى الكنيسى ....
- حول أزمة المثقفين .... — تأليف : محمد حسنين
- مذكرات محمد نجيب .. ... — تأليف : محمد نجيب
- المثل الأعلى للحضارة العربية ... — تأليف : د. محمد يس
- نظرية العمل لاسترداد فلسطين ... — تأليف : صبحى ياسين
- النازية الحديثة ، واليهودية المعاصرة — (مترجم بيروت)
- ذكريات وأحاديث ... من خلال زيارات للقرية السادات (ميت أبو الكوم وطوخ دلكة) ... — قمت بجمعها ، من أهم الملاصقين للسادات ..
- الكفاح السرى ضد الانجليز .... — تأليف : د. جلال يحيى
- بعض أشرطة مسجلة عن الناصرية ، أذيعت فى بعض الاذاعات العربية ...
- الثورة العربية ... — تأليف : د. جلال يحيى
- بعض مقالات عن الثورة العربية ، وحركة التحرر الوطنى التى نشرها كتاب مصريون فى بغداد ....
- مجموعة اعداد ((الصياد)) ، ((الحوادث)) ، ((الدستور)) ، منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ (بيروت) ...
- تناقضات مصرنا الراهن .... — تأليف : مارك روزنتال

●● المصادر الأجنبية

- Modern world — After the second world war, Methods and policies (Reconte), paris.. By vayticekeotnis...
- Afro — Asian Movement (Goushe)...
- Problèmes actuels du Marxisme (copyright : Presses universitares de france, Par : Henri Lefebvre.
- What could Be Done, By: Aldous Huxsly.
- The year of stalingrad, Russian mentalitry, Methods and Policies, Mamish Mamilton, London its critics — an Essay in Exploration, By : T.A. Jakson, London.
- Along Row of Candles, Memoirs and Diaries, By : S.L. Clsulzberger ...
- La structure sociale et L'expression artistique, Par : Zaloscer.
- A Bdave new world, By Aldous Huxsly.
- Oeuvres Complètes De Kr Marx, oeuvres Philosophiques.
- Davar Gazzete (Isreal Postepress).
- Report from The Gallows, Julius fucik, Translated from the czech, By stephen Jolly.
- Sartre et sesprises de position politiques.
- Man Makes Himself, By : Gordon child.
- Three Essays in the Marxism and Seninisme (Moscow, 1969).
- Daily Mail, 30 July 1956, London.
- Daily Worker, January, 1952.

'he Economist (1954, 1955, 1959, 1971, 1974. 1975).

'ime (1954, 1959, 1970, 1974, 1975).

'he Daily News (1967, 1970).

)aily Express (June 1967, July 1970).

Jews Week (28 Feb. 1972).

Iall Hamshmar (1973).

Iall Hamshmar (1973).

'ower, anew social analysis, Bertrand Russel (London — Great Allen & Unwin Ltd).

'o Where, And When. ?, By H. Murkouza, five Essays about he Revolution and duty in the Modern Society.

The Great Faut, By : E. Allon (Paris --- 1974).

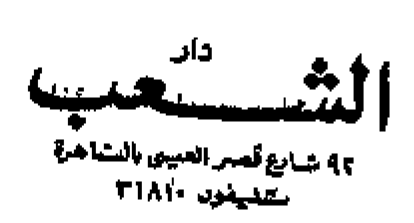
The sources of Marxisme -- Seninisme and its Pratiques,

The sources of Marxisme — Seninisme and its Pratiques, in the modern World, By Mouris Corniforth (London).

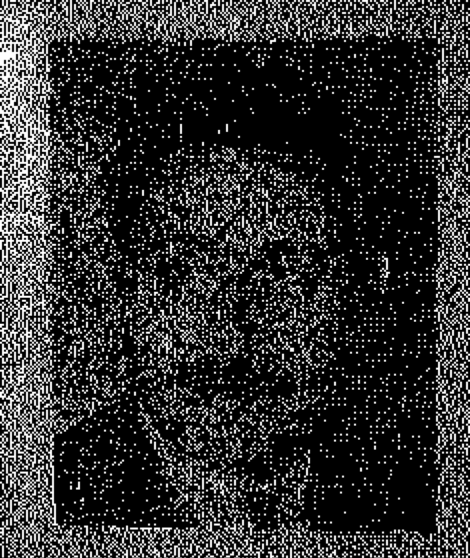
Who is the Great Boss ?, Sex articled & views about America & Europe atter the sec World war (Newyourk, Press atc, 1971).

فهـــرس

صفحة



رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٤٩٥٧



هذا الكتاب

هذا الكتاب محاولة للاقتراب من قلب وفكر السادات : القائد ، والفنان ، والمفكر والانسان .. محاولة للتعرف والتعايش معه في مشوار من بطولة ونضال ، وتقديم .. قائده الأول الذي عبر بمصر الى مستقبلها ، وخرج بها من النكسات الى العبور ، ليبني ويشيد من المطالع والأعماق .. رحلة ثقافية وسياسية ونضالية .. بداية مستمدة من قرية (ميت أبو الكوم) عام ١٩١٨ ، وخطاب كل ما في القرية من بيئة ، وخرج الى المدينة ، وعاصر انتفاضات وثورات وبدايات مصر الوطنية .. ابتداء من ١٩١٩ في ١٩٣٦ و ١٩٣٥ ، الى ١٩٣٦ و ١٩٥١ الى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الى ثورة التصحيح في ١٤ و ١٥ مايو ١٩٧١ التي قادت مصر الى النصر والانفتاح والانطلاق ..

ومن القرية الى الرئاسة ، ومن حياة الرئيس في شبابه ونضاله الى الاستقلال بالسياسة والنضال ضد الانجليز والرجعية والاحتلال ، الى معاناته في الاغتيالات لتضامنه من أجل مصر .. الى اشتراكه في معارك الكفاح المسلح في القناة عام ١٩٥١ ، الى اشتراكه القيادي في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الى مشاركته في مختلف مجالات البناء والتعمير الثوري كمناضل وبرلماني وصحفي وكاتب في الخمسينات والستينات ، الى انتخابه رئيسا للجمهورية في أكتوبر ١٩٧٠ ، الى تجميعه لمختلف القوى الوطنية وتوحيد صفوف الشعب وتحمل كافة الجهود العربية والعالمية لكسب التأييد والتأكيد والتعاطف بالنسبة للقضية العربية لحل مشكلاتها ، الى العبور العظيم في أكتوبر ١٩٧٣ واسقاط أسطورة الوهم العسكري الاسرائيلي عن خرافة الجيش الذي لا يقهر الى تأكيد كافة الظروف التي تضمن للمواطن المصري في حريته وأمانه وعطاءه الشعبية للديمقراطية السياسية ، الى كافة الجهود التي تبذل محليا وقوميا وعالميا من أجل الوصول الى حلول بالقضية العربية تكفل انهاء حالات التوتر والالتهاب في الشرق الأوسط وتضمن تحرير الشعب العربي من الصهيونية والامبريالية ..



الثمن ٢٠٠ قرشا • دار الشعب •